القولُ الطَّيِّب

مِن كلمات ومُحاضرات الإمامِ الأكبر أحمد الطَّيب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القولُ الطَّيِّب

مِن كلمات ومُحاضرات الإمام الأكبر أحمد الطَّيب

شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ
رئيسِ مجلسِ حُكَماء المسلمينَ

الجزء الأول

الحكماء للنشر

أبو ظبي

١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م

ثَبتٌ إجماليٌّ بموضوعات الجزء الأول

طليعة الإمام الأكبر ٩

١- ومضات عقدية ٢٩

رأيٌ في تدريسِ مادَّةِ العقيدةِ في الجامعاتِ الإسلاميةِ ٣١

الإمامُ الأشعريُّ.. وجمعُ كلمةِ المسلمين ٣٧

خطورةُ التكفيرِ ٤٧

أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ ٥٧

إمام الهدى أبو منصور الماتريدي ٨٥

٢- في الفتوى وما إليها ٩٣

الفَتوى وأثرُها في حياةِ المسلمِ ٩٥

السُّنَّة والبدعَة ١٠٣

الفتاوى الدينية.. وحتمية التجديد ١١٩

الفتوى ودورها في انحسار التفيقه العبثي ١٢٩

تراثنا الفقهي المفترى عليه ١٣٩

الجِهادُ في القُرآنِ والسُّنَّةِ ١٤٧

٣- في التجديد وما إليه ١٦١

ضرورةُ التجديدِ ١٦٣

كلمة في التجديد ١٨٧
دعوة إلى التجديد والاجتهاد ١٩٣

٤- أزهريات ٢٠٥

الأزهرُ وقضايا السَّاعة ٢٠٧
بين الأزهر والزيتونة تواصل وتكامل ٢١٩
الأزهر جامعًا وجامعة ٢٢٥
الأزهر والغرب ضوابط الحوار وحدوده ٢٣٧
رسالة إلى علماء الأزهر في الخارج آداب ووصايا ٢٤٥
الجيل الأزهري الجديد وإعادة التواصل بين الشرق والغرب . ٢٤٩
الأزهرُ ووَحدةُ المُسلِمينَ ٢٥٣
كلمة حول تعديل قانون الأزهر ٢٦١
الأزهرُ واتِّحاد الكلمة ٢٦٥
الأزهرُ ودَورُه العالمي ٢٧٣
كَلِماتٌ في المنهجِ الأزهريِّ ٢٧٧
كَلِماتٌ في المنهجِ الأزهريِّ ٢٩٣
مكانة العلم وآداب العلماء ٢٩٩
طلَّاب الأزهر الشَّريف أمل الأمَّة ودُعاة الحقِّ والعدل ٣٠٣
رسالةُ الأزهريِّ ٣٠٩
الأزهرُ الشَّريف والمحاضِر الشَّنقِيطيَّة المباركة ٣١٥

الأزهر وأفريقيا . . الجذور والتاريخ ٣٢١

٥- في ذكرى المولد النبوي الشريف ٣٢٧

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ٣٢٩

من جوانب عَظَمَتِه ﷺ ٣٣٧

ميلادُ النَّبيِّ ﷺ . . ميلاد أُمَّةٍ ٣٤٣

ذِكرَى المولِد والانحراف عن المنهج النَّبَوِيّ ٣٥١

السُّنَّة النَّبويَّة المشرفة ومَوْجَات التَّشكِيك ٣٥٧

الرِّسالة المحمديَّة ومبادئ الأخوَّة الإنسانيَّة ٣٦٣

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ ٣٦٩

٦- في ذكرى ليلة القدر ٣٧٧

القرآن وحقوق الإنسان تقرير وضمان ٣٧٩

حَضارَةُ الإِسلامِ وحَضارَةُ الغَربِ والسَّلامُ المَفقود ٣٨٥

المصالح العُليا للوطن مقاصد شرعية ٣٩٧

العمل في الإسلام ٤٠١

الاحتفاء بالعلم في ذكرى ليلة القَدْر ٤١١

ليلة القدر ذِكرَى نزول القرآن وتحدِّيات الحداثة ٤١٩

حضارة القرآن . . والإسلاموفوبيا ٤٢٩

٧- كلمات في التطرف والإرهاب ٤٣٥

قراءة في ملف العنف ٤٣٧

كَلِماتٌ في التَّطَرُّفِ والإرهابِ ٤٤٣
النَّزَعات التَّكفيريَّة . . .الدَّواعِي والأسباب ٤٥٣
كَلِماتٌ في التَّطرُّفِ والإرهابِ ٤٥٩
كلماتٌ في التَّطرُّفِ والإرهابِ ٤٦٥
صِناعةُ الإرهابِ والوَعيُ الغائبِ ٤٧١
صناعةُ الإرهاب في العالَم المعاصر ٤٧٩

٨- في السلام وما إليه ٤٨٥

الحضارة الإسلامية حضارة المساواة والحرية ٤٨٧
من أجل السلام ٥٠٧
السَّماحةُ في الإسلام «الإسلامُ والأديان؛ أنموذجًا» ٥١٣
قيم الأديان المشتركة والسلام العالمي ٥٣١
حَدِيثٌ في السَّلام ٥٣٩
دينُ الرَّحمةِ ٥٤٩
موقفُ الأديانِ مِنَ السَّلامِ ونَبذِ العُنفِ والكراهيةِ ٥٦٣
السَّلام أوَّلًا ٥٧١
كلمةٌ في التَّسامُحِ ٥٨١
فلسفة السلام في الإسلام ٥٩٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القارئُ العزيزُ!

بينَ يدَيكَ كتابٌ لا يُشبهُ الكُتُبَ الَّتي يتناولُها المؤلِّفون عبرَ أبوابٍ وفصولٍ، ومقدِّمةٍ وخاتمةٍ، ويُديرونها على موضوعٍ واحدٍ؛ يُحلِّلونه ويَسبِرُونَ غوره، ويَستدعُونَ ما يَرتَبِطُ به من موضوعاتٍ أُخرى، لها بالموضوعِ الأصلِ وشائجُ قُربى ونسبٌ.

فهذا الكتابُ لم أَقصِد إلى كتابتِه على نَسَقِ التَّأليفِ والتَّصنيفِ، لأنه يتألَّف من كلماتٍ أُلقِيَت في مناسباتٍ عِدَّةٍ، وأماكنَ مختلفةٍ؛ لِتُوائِمَ ظُروفًا خاصَّةً، ومُلابَساتٍ مُعيَّنةً، إنْ يَكُن قد بَعُدَ العهدُ ببعضِها، فإنَّ بعضَها الآخَرَ لا تزالُ كتابتُه غَضَّةً طريَّةً.

وقد دعاني إلى جمعِ هذه الكلماتِ وضمِّ بعضِها إلى بعضٍ في هذا الكُتيِّبِ أمرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أنَّ هذه الكلماتِ تدورُ -في أعمقِ أعماقِها- على محورٍ واحدٍ؛ هو: «**البحثُ عن السَّلامِ**»، وأنَّ السَّلام المفتقد منظورٌ إليه -في هذه الكلمات- من زاويةٍ واحدةٍ تُشكِّلُ الخلفيَّةَ الثَّابتةَ لهذه الكلماتِ، وهي العَلاقةُ الوُثقى الَّتي لا تَنفَصِمُ بينَ الإسلامِ والسَّلامِ بكلِّ تَجلِّياتِه ومظاهرِه على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ، والمحلِّيِّ والعالَميِّ.

الأمرُ الثَّاني: هذه الكلماتِ وإن كُتِبَت في أزمانٍ مُتفرِّقةٍ، إلَّا أنَّها كُتِبَت في زمنٍ قَلِقٍ مُتوتِّرٍ، يَملَؤُه الشُّعورُ بالخوفِ من المستقبلِ المجهولِ، وتَوقُّعُ الأسوأِ في كلِّ ما هو قادمٌ ومُرتَقَبٌ، هذا الزَّمنُ هو زمنُ ما بعدَ الحادي عَشَرَ

من سبتمبر مِن عامِ ٢٠٠١م، والَّذي باتَ وكأنَّه يُمثِّلُ حدًّا فاصلًا، في شرقِنا العربيِّ والإسلاميِّ، بينَ ماضٍ قريب جرَت أيَّامُه على نَهجِ الرَّتابةِ والرُّكودِ والمللِ، والصَّبرِ على المَكارِهِ، حتى وإن نَعِمَ فيه النَّاسُ بقدرٍ كافٍ من الشُّعورِ بالسَّلامِ والاستقرارِ؛ وبين حاضرٍ مليءٍ بالخوفِ والترقُّبِ وافتقاد الأمنِ، وعودةِ الحروبِ والدِّماءِ والأشلاءِ، وسقوطِ عواصمَ كُبرى طالَما ضَرَبَت حضاراتُها العريقة بسهمٍ وافرٍ في أعماقِ التَّاريخِ السَّحيقِ.

فقد دخلَ الشَّرقُ العربيُّ بعدَ هذه الحادثةِ -أو بعبارةٍ أدَقَّ: أُريدَ له الدخول- في حالةٍ من الفوضى والاضطرابِ السياسي والأمني، فَقَدَ معَها كثيرًا من القدرةِ على التَّوازُنِ، والسَّيطرةِ على الاستقرارِ والسَّلامِ الدَّاخليَّينِ.

وقد كُتِبَ علينا -نحن أبناءَ هذا الجيلِ- أن نُكابِدَ أزَماتِ حروبٍ مشروعةٍ وغيرِ مشروعةٍ في حياتِنا الَّتي استغرقَتِ الآنَ أكثر من سبعةِ عُقودٍ من الزَّمانِ، منذُ الطُّفولةِ الباكرةِ وحتَّى يومِنا هذا، حتَّى إنَّ هذا الجيل ما كان يخرجُ من زمن من أزمنة هذه الحروبِ حتَّى يجثم على أنفاسه زمنٌ آخَرُ من أزمانِها.

وربما كانت السنوات الأولى من العَقدَ الأوَّلَ مِن حياتي -كواحدٍ من أبناءِ هذا الجيلِ ممَّن وُلِدوا قُبيلَ مُنتصَفِ القرنِ الماضي- هي السنوات الوحيدة الَّتي مرَّت دونَ أن نشهد فيه حربًا أو اضطرابًا سياسيًّا، أو نرى فيه مظاهراتٍ حزبيَّةً أو غيرَها، وقد يكونُ ذلك بسببِ بُعدِ القريةِ الَّتي وُلِدتُ فيها عن العاصمةِ -القاهرةِ- وانقطاعِ أسبابِ التَّواصُلِ الإعلامي وبَثِّ الأنباءِ والمعلوماتِ، رغمَ ما تُمثِّلُه هذه القريةُ -الَّتي تَزهو بوادي الملوكِ ووادي المَلِكاتِ ومعبد حتشبسوت ومقبرة نفرتاري- من أهمِّيَّةٍ سياحيَّةٍ وتاريخيَّةٍ عُظمى، حيثُ يلتقي فيها السَّائحون الأجانبُ من معظمِ قارَّاتِ الدُّنيا.

وكانَت رؤيةُ السُّيَّاح الأجانبِ طَوالَ فصلِ الشِّتاءِ، في ستينيات القرن

الماضي، تَبعَثُ في نفوسِنا -نَحْنُ الصِّغارَ- إحسَاسًا ساذجًا بأنَّنا لَسْنا وَحدَنا في هذه الدُّنيا، وأنَّ هناك آخرين مختلفين عنَّا يَفِدون إلينا من بلاد بعيدة لا نعلم عنها شيئًا، ونرى منهم أشياء نستغربها، لكن لا ننكرها، وربَّمَا نتقبلها بعد أن اعتدنا مشاهدتها، ممَّا أكسبَنا انفتاحًا مُنْذُ نعومةِ أظفارِنا على هؤلاءِ الَّذين يَركَبونَ السيَّارات والدَّرَّاجاتِ والدَّواب، ويُحيُّوننا بأيديهم مِن بعيدٍ، ويَرتدُون من الأزياءِ ما لا نَرتديهِ، ولا يَرتديهِ أَهلُونا مِن الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ، وكُنَّا بفطرتِنا البريئةِ نحترمُهم ونَشعُرُ بشيءٍ من التَّعاطُفِ معَهم، مِن غيرِ توجيهٍ أو تلقينٍ أو تأديبٍ، وكنَّا في ذلك نُقلِّد الكِبارَ الَّذين كانوا يَنظُرونَ إلى هؤلاءِ الأجانبِ نَظرتَهم إلى ضيوفٍ جاءوا ليُفيدوا ويَستفيدوا.

ثُمَّ تَحوَّل هذا الشُّعورُ بفعل الاعتياد إلى أُلفة مأنوسة، وازداد هذا الشعور بعد أن كَبِرنا وانتظَمنا في التَّعليمِ الثَّانوي، وصِرنا قادرين على مُطارحةِ هؤلاءِ السَّائحين ببعضِ عباراتِ الترحيب التي حَفِظناها مِن دروسِ اللُّغةِ الإنجليزيَّةِ، نكتشفُ بها ما يُمكنُ اكتشافُه مِن هذا العالَمِ الخفيِّ المجهولِ، وشيئًا فشيئًا بدأَت عقولُنا البسيطةُ تُدرِكُ صُوَرًا عامةً غيرَ محدودة عن السُّيَّاحِ الإنجليزِ والألمانِ والطَّليانِ والفَرَنسيِّينَ، يزورون الآثار في فصل الشتاء من كل عام، ويسكن بعضهم في فندق ريفيٍّ قديم، ونسميهم «الخواجات»، ولا تزال الذاكرة تحتفظ ببيوت الإرساليات الأوروبية التي تُعنى بالتنقيب عن الآثار الفرعونية، واكتشاف المزيد من المقابر أو المعابد، وكان في مقدمتها: البيت الألماني، والبولندي، وكارتر، وميترويوليتان، واستوبلير، وفرع جامعة «شيكاجو» للآثار بمدينة الأقصر، وقد زاحمها مؤخرًا البيت الفرنسي والبيت الياباني، وغيرهما، ولاتزال هذه البيوت قائمة، ولايزال أهالي البلدة يعملون مع مديريها ومهندسيها من الأوروبيين وغيرهم منذ خمسينيات القرن الماضي وحتى الآن..

والذي أهدف إليه من هذا السَّرد القصير هو أن الآثار الفرعونية: معابد ومقابر، وانتشار البعثات الأوروبية وسط الأهالي، وتردُّد السُّيَّاح الأجانب على هذه المنطقة، كل ذلك أثَّر تأثيرًا مباشرًا في التكوين الاجتماعي والنفسي والذهني في أهالي هذه المنطقة، فالمخالطون لهؤلاء السُّيَّاح: بحكم العمل يتحدثون الإنجليزية أو الفرنسية بطلاقة، وكثير منهم أُميٌّ لا يحسن القراءة ولا الكتابة في لغته الأم، لكنه يخضع لقانون التأثر والتأثير، وتَنقُّل الطباع، وعدوى التقليد، وقد ظهر ذلك جليًّا في حرص الأهالي على الابتعاد عن العنف والجريمة، وبخاصة: جرائم القتل والثأر، وقد لاحظت أن بلدتي لم يَقَع بين أهلها حادثة «ثأر» واحدة، لأنها لم تحدث فيها جريمة قتل عمد واحدة على امتداد جيلي الذي أوفى عمره على السبعين عامًا.. وهذه مفارقة عجيبة إذا ما قورن شأنها في ذلك بشأن البلدان المجاورة والملاصقة، والتي تقع فيها هذه الحوادث على سبيل الاعتياد أو على سبيل النُّدرة.

لم يكَد يَمُرُّ العَقدُ الأوَّلُ مِن عُمُرِ طُفولتِنا بسلامٍ، ولم ينقض شهر أكتوبر مِن عامِ ١٩٥٦م، حتَّى بدأنا فترة من الرُّعبِ؛ رأينا فيها بأمِّ أَعيُنِنا مَشاهدَ مُفزِعةً مِن الحربِ في مدينةِ الأقصرِ وما حولَها، ولم نكن نسمعُ عن الحروبِ وأخبارِها قبل هذه الحرب إلَّا مِن أقاصيصِ الكِبارِ وأسمارِهم، وما عايشوه منها، وما خلَّفته الحرب العالمية الثانية من ذكريات الانتصارات والهزائم، وما تكوَّن منها من مادةٍ «للسَّردِ الشَّهيِّ»، يُزجُون به وقتَ الفراغِ، ويَستمتعونَ به وهم يُعِدُّون لفائفَ التَّبغِ بأصابِعهم قبلَ إشعالِها ونفثِ دُخَانِها مِن الفمِ والأنفِ معًا.

كانَت دراستي في المعهدِ الدِّينيِّ الابتدائيِّ بمدينةِ «إسنا» قد بدأَت في أوائلِ أكتوبر مِن عامِ ١٩٥٦م، وكنتُ واحدًا من مجموعة طلاب صغار،

تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة، رَحَلوا من مدينةِ الأقصرِ وقُراها[١] لطلبِ العلمِ الأزهريِّ الَّذي لم يكن مُتوافِرًا في ذلك الزَّمانِ في مدينةِ الأقصرِ وما حولَها، وكُنَّا نزورُ الأهلَ في إجازةٍ نصفِ شهريَّةٍ مُنتَظِمة، نَقضي معَهم أُمسِيَةَ الخميسِ ويومَ الجُمُعةِ، ونَتزوَّدُ بشيءٍ مِن المالِ والطَّعامِ نعودُ به كَرَّةً أُخرى إلى مَقَرِّ الدِّراسةِ.

ولم تكدْ تَستقِرُّ بنا الدِّراسةُ شهرًا واحدًا في هذه المدينةِ، التي عانَينا فيها الكثير من فراق الأهلِ والغُربة عن الدِّيارِ-حتَّى فوجئنا بمن يعودُ بنا إلى الأقصرِ خوفًا علينا من عواقبِ الحربِ الَّتي أَعلَنَها العُدوانُ الثُّلاثيُّ الآثِمُ على مصرَ، يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، وطالَت نِيرانُها مدينةَ الأقصرِ.

وأَذكُرُ أنَّنا رَجَعنا أدراجَنا في «أوتوبيس» قديم مفكَّك الأوصال، دخل بنا مدينة الأقصرَ معَ آخِرِ ضوءٍ مِنَ النَّهارِ، وما إن هبَطَ ظلامُ اللَّيلِ حتَّى فُوجِئنا بطائرةٍ تُلقي في سماءِ البلادِ بمصابيحَ شديدةِ التَّوهُّجِ، سُرعانَ ما أَحالَتِ اللَّيلَ إلى ما يُشبِهُ النَّهارَ المُشمِسَ، ثم انطلَقَت بعدَ ذلك الغارَاتُ الجويَّةُ تَصُكُّ الآذانَ، وتَنشُرُ الذُّعرَ بينَ النَّاسِ، وقد فرَرنا مِن البُيوتِ إلى مَغاراتٍ[٢] قريبةٍ من البُيوتِ، وظَلَلنا مُختبِئينَ فيها جزءًا مِن اللَّيلِ، قبلَ أن نعودَ إلى بُيوتِنا؛ نتحسَّسُ إليها الطُّرُقَ، ونَلتَمِسُ السُّبُلَ، وقد عَلِمنا أنَّ هذه الغاراتِ شنَّتها طائراتُ العُدوانِ الثُّلاثيِّ على مطارِ الأقصرِ، ودمَّرت ممرَّاتِه تدميرًا كاملًا.

ومكثنا لياليَ حالِكة الظَّلَام، لا يُسمَحُ فيها بضوءٍ خارجَ البيوتِ، حتَّى إنَّ النَّاس كانوا يَنهَرُونَ مَن يُريدُ إشعالَ سجائرِه ويَمنَعُونَه، حتَّى لا يُعرِّضَ

---

(١) تقع مدينة إسنا على مسافة ستِّين كيلو مترًا جنوبَ مدينة الأقصرِ.

(٢) ممرَّاتٌ طويلةٌ محفورةٌ في قلبِ الجبلِ الَّذي تقعُ قريتي «القُرنة» في سَفْحِه، وهي باردةٌ صيفًا دافئةٌ شتاءً، وقد تعوَّدَ النَّاسُ أن يُقيلوا فيها في نهارِ الصَّيفِ، ويَناموا إلى قُبيلِ غروبِ الشَّمسِ ثمَّ يطوون فرشهم ويَعُودُون إلى منازِلِهم.

«البلدَ» لدمارٍ مُحقَّقٍ، وكانَ هناك جهازُ «راديو» في القريةِ، يعملُ بـ«بطَّاريةٍ» تُشبِه «بطَّارية» السيارة، يَمتلِكُه أحدُ التُّجَّارِ، ويَتحلَّقُ النَّاسُ حولَه في ساحةِ المَتجَرِ؛ ليَسمعوا نَشَراتِ الأخبارِ الَّتي لم تكن تُلتقط إلَّا معَ حلولِ المساءِ، وساعاتٍ قليلةٍ مِن أوائلِ اللَّيلِ، وكانَ أهالي القريةِ يُمضُونَ نهارَهم في تحليلِ ما يسمعونه ليلًا، وتفسيرِه تفسيرًا يَذهَبُ به مِن النَّقيضِ إلى النَّقيضِ، وكلٌّ يُضفي على الموقفِ من أَخيلَتِه وأَوهامِه ما شاءَ له الخيالُ والوَهمُ.

وظلَّ الحالُ كذلك حتَّى تمَّ دَحرُ العُدوانِ الثلاثي الصِّهيونيِّ، وتَسامَعَ النَّاسُ بخُطبةِ الرئيس: جمال عبد النَّاصر من مِنبَرِ الأزهرِ، وترديدِه عبارةَ «سنُقاتِلُ» ثلاثَ مرَّاتٍ، فَفرحُوا بالنَّصرِ واطمأنُّوا إليه، وردَّدت الإذاعة المصرية الأغاني الوطنية، وبخاصة تلك التي كانت تتغنَّى بمدينةِ «بور سعيد»، وشجاعةِ أهلِها الَّذين حارَبوا هذا العَدُوَّ وردُّوه على أعقابِه، ووجبَ على مَن يَشُدُّ الرِّحالَ إلى «بور سعيد» أن يُقبِّلَ كلَّ يدٍ حارَبَت في هذه المدينةِ الباسلةِ.

ولم يَمضِ أحد عشر عامًا على هذا التَّاريخِ حتَّى جاءَت حربُ **٦٧** بأقسى وأعنفَ ممَّا جاءَت به حربُ **٥٦**، وكنتُ في أثنائِها طالبًا في السَّنةِ الثَّانيةِ بكلِّيَّةِ أصولِ الدِّينِ بالقاهرةِ. . وكنتُ -حينَ أُعلِنَ عن بَدءِ المعركةِ مع إسرائيلَ- أَجلِسُ على كُرسِيِّ الامتحانِ في آخِرِ العامِ وأَذكُرُ أنَّنا تَركنا الامتحانَ، وعُدنا إلى منازلِنا بالقاهرةِ مُترجِّلينَ على الأقدامِ، بَعد أنْ توقَّفَت وسائلُ المُواصلاتِ، وانطلقت صَفَّاراتُ الإنذارِ، وخيَّمَ جوُّ الحربِ والرُّعبِ من جديدٍ، وأُطفِئَتِ الشَّوارعُ وأَظلَمَتِ البُيوتُ، وكنتُ أيَّامَها أَسكُنُ - أنا وشقيقي الأكبر- مع زملاءٍ لي في حيِّ «روض الفَرَجِ»، وحدَثَ -ونحنُ في صلاةِ المغربِ- أن سَمِعنا صوتَ انفجارٍ، خُيِّلَ إلينا -من شدَّتِه- أن «العمارةَ» تَنهارُ على مَن فيها، فعَدَونا إلى السُّلَّمِ الَّذي كانَ يَزدَحِمُ هو الآخَرُ بالسُّكَّانِ

المذعورين؛ وتجمَّعَ النَّاسُ في الشَّارعِ، ما بينَ خائفٍ ومذعورٍ، ومازحٍ، ومصطنع للمزاح يُحاولُ عبثًا أن يُهدِّئَ به مِن رَوعِ الأطفالِ وصِياحِهم.

وبِتنا ليلتَنا هذه حولَ أجهزةِ «التَّرانزستور» نُغالِبُ الحُزنَ والكآبةَ ممَّا استَنتَجناه من إذاعةِ صوتِ العربِ؛ من تَراجُعِ الجيشِ وتقدُّمِ العدوِّ، وممَّا عِشناهُ من أجواءِ الحربِ والخوفِ.

وأُعلِنَ في الصَّباحِ عن تأجيلِ الامتحاناتِ إلى أجلٍ غيرِ مُسمًّى، ولم تأتِ الظَّهيرةُ حتَّى كنَّا في القطارِ المتَّجهِ إلى الأقصرِ وأسوانَ، وحينَ أَرخى اللَّيلُ سُدولَه في الآفاقِ عَمَّ الظَّلامُ عرباتِ القطارِ، وكانَتِ المحطَّاتُ الَّتي يَتوقَّفُ فيها مُعتِمةً أيضًا، وكانَ المُنتظِرونَ على الرَّصيفِ يَتعرَّفون على القادمين من ذويهم بالتصايح بأسمائِهم، وهم يَذرَعُونَ رصيفَ المحطَّةَ ذَهابًا وإيابًا، وعادَت إلى الذَّاكرةِ صُورٌ مُؤلِمةٌ مِن ذِكرياتِ حربِ ٥٦، وقد تكرَّر كثيرٌ مِن هذه الصُّوَرِ في حربِ ٦٧؛ فقد ضُرِبَ مطارُ الأقصرِ فيما ضُرِبَ من بقيَّةِ المَطاراتِ، وعِشنا لياليَ عدَّةً على ضوءِ الشُّموعِ داخلَ البيوتِ، وكانَ الخوفُ من القَصفِ المفاجِئِ هاجسًا كريهًا يَختنقُ به النَّاسُ ليلًا ونهارًا.

وبعدَ أن وَضَعَتِ الحربُ أوزارَها، وتأكَّدَتِ الحقائقُ المُرَّةُ، واستوعبَها النَّاسُ عُدنا إلى الامتحاناتِ وبدَأنا مرحلةَ: «لا صوتَ يَعلُو على صوتِ المعركةِ»، وظَلَلنا بِضعَ سنواتٍ في حالةِ حربٍ أُخرى سُمِّيَت آنَذاكَ حربَ الاستنزافِ، وهي وإن لم تكن حربَ مواجهةٍ مسلَّحةٍ، إلَّا أنَّها كثيرًا ما كانَت كذلك، فقد قُصِفَ كثيرٌ مِن المواقعِ، وضُرِبَت بعضُ المنشآت، وقُتِلَ أطفالٌ وتلاميذُ صِغارٌ، مِثل ما حدثَ في «مدرسةِ بحرِ البقرِ» الَّتي كانَت وَصمةَ عارٍ في جبينِ القتلةِ المجرمينَ، من عَديمي الضَّمائرِ والمشاعرِ.

هذه الحربُ الخاطفةُ والَّتي لم تَزِد على ستَّةِ أيَّامٍ، راحَ ضحيَّتَها مِن الشَّبابِ

ما لا يكادُ يُحصى عددُه، حتَّى قيل: إنَّه لم يَخلُ بيتٌ أو أسرةٌ مصريَّةٌ من شهيدٍ قضى على رمالِ سيناءَ؛ إمَّا برَصاصِ العدوِّ، أو من فرطِ الجوعِ والعطشِ والشَّمسِ الحارقةِ، وكانَ أهالي الشُّهداءِ أسعدَ حظًّا وأهنأَ بالًا بأبنائِهِمُ الشُّهداءِ مِن أهالي المفقودين مِمَّن لا يَعرفون إن كانَ أبناؤُهم قدِ استُشهِدوا أو أُسِرُوا، أو ما زالوا أحياء هائمينَ على وجوهِهم في رمالِ الصَّحراءِ والبوادي، وكثيرٌ منهم كانَ يتمنَّى أن لو استُشهِدَ ابنُه، واستراحَ وأراحَ، بعدَ أن طالَ انتظارُه، وبعد أن أعياهُ البحثُ عن اسمِه في الكشوفِ الَّتي كانَت تُرسَلُ تِباعًا وتُلصَقُ على حوائطِ مركزِ البوليس ليتعرَّفَ النَّاسُ على أبنائِهم إن كانوا شهداءَ أو مفقودين، وقد كان لي صديقٌ مِن هؤلاءِ المفقودين ظَلَلْتُ أُعلِّلُ والدَيهِ بالأمانيِّ الكواذبِ أكثرَ من عامٍ، ثمَّ طَوَى النِّسيانُ نبأه، ومحا الدَّهرُ اسمَه كما محا رَسمَه، حتَّى لم يَعُد -من طول النسيان- شيئًا مذكورًا.

ولم تمضِ سنواتٌ ستٌّ على حربِ ٦٧ حتَّى أظلَّتنا أجواءُ حربِ أكتوبر مِن عامِ ١٩٧٣م، وكانَ لها -هذه المرَّةِ- طعمٌ آخَرُ ومزاج مختلف، امتزجَت فيه فرحةُ النَّصرِ على العدوِّ ودَحرِه وكسرِ شوكتِه وهدمِ حصونِه في ساعاتٍ معدوداتٍ، امتزج كل ذلك فيه بمشاعرِ العزَّةِ والفخرِ، والثِّقةِ بالقيادةِ والجيشِ والجُندي المصريِّ، وكانَت هذه الحربُ بمثابةِ ردِّ اعتبارٍ لمصرَ والمصريِّين، بما فاجأَت به العالَمَ كلَّه؛ من تخطيطٍ دقيقٍ، وضرباتٍ موجعة، ومفاجأةٍ مُذهلةٍ، وتوقيتٍ عبقريٍّ، وتحطيمٍ أُسطوري لنظريَّةِ الأمنِ الصِّهيونيِّ، تلك الَّتي كادت تَسري في عقولِنا مَسرى الواقع والحقيقة في أعقابِ حربِ ٦٧[١].

(١) اعترفَ زعماءُ الكِيانِ الصِّهيونيِّ من العسكريِّين والسياسيِّين بعظمةِ انتصارِ الجيشِ المصريِّ في حربِ ١٩٧٣م، وانكسارِ الكِيانِ الصِّهيونيِّ وهزيمتِه؛ عسكريًّا ونفسيًّا ودَوليًّا، وقالت جولدا مائير رئيسةُ وُزراءِ الكِيانِ الصِّهيونيِّ -آنذاك- في كتابها: «حياتي»، وفي اعترافٍ =

كانَ انتصارُ العاشر من رمضان **١٣٩٣**هـ، السادس من أكتوبر **١٩٧٣**م فرصةً ذهبيَّةً لانطلاقةٍ حضاريَّةٍ لمصرَ في السِّياسةِ والاقتصادِ والتَّعليمِ، وإعادةِ ترتيبِ الأوراق، والبحث عن السَّلام والحرِّيَّةِ والدِّيموقراطيَّةِ، والأخذ بأسبابِ القوَّةِ والانخراطِ في طريقِ التَّقدُّم والرُّقيِّ، لولا أنَّ الضغوط الاقتصادية والظروف الخارجية سارَت بالأمور في اتِّجاهٍ آخَرَ، تحقَّقَ فيه السَّلامُ الَّذي أَنهى الحروبَ الخارجيَّةَ والصِّدامَ المسلَّحَ مع العدوِّ، لكن غابَ فيه سلامٌ مِن نوعٍ آخَرَ، هو سلام الاستقرار.

وبدا لنا وَقتذاكَ أنَّه كُتِبَ علينا -نحنُ أبناءَ هذا الجِيلِ-أن نختار بين سلامَينِ: إمَّا السَّلامُ الخارجيُّ، وإمَّا السَّلامُ الدَّاخليُّ، وليسَ مِن حقِّنا -كبقيَّةِ خلقِ اللهِ-أن نَنعَمَ بالسَّلامَينِ معًا، وهما الأساسانِ اللَّذانِ بدُونِهما لا تقومُ حياةٌ للشُّعوبِ، ولا يتحقق لها عيش كريم ولا عدالة اجتماعية.

نعم كنَّا نتوقَّعُ بعدَ حربِ **١٩٧٣**م، أن نشهدَ نهضةً شاملةً وإصلاحًا عامًّا في الاقتصادِ والتَّعليم والصِّحَّةِ والثَّقافةِ والفَنِّ والإعلام، ولكن كما قلتُ: سارَتِ الأمورُ في اتِّجاهٍ آخَرَ؛ وبدأَت مرحلةٌ جديدةٌ من مراحلِ فقدانِ «السَّلامِ»، تمثَّلَت في ظاهرةِ «الاغتيالاتِ» الَّتي طالَت شخصيَّاتٍ كبيرةً مِن قياداتِ المجتمعِ، والَّتي كنَّا نظنُّ أنَّها محصنة، وأنَّ الإرهابَ لا يمسُّها من قريب أو بعيد.

.. .. ..

= مريرٍ: «إنَّ المصريِّين والسُّوريِّين كبَّدونا خسائرَ فادحةً في سيناءَ، وعلى مرتفعاتِ الجولان»، وقالت: «كانَ السُّؤالُ المؤلِمُ في ذلك الوقتِ هو: هل نُطلِعُ الأمَّةَ اليهوديَّةَ على الحقيقةِ السَّيِّئةِ التي آلَ إليها أمرُ الكِيانِ الصِّهيونيِّ، أو نَهرَبُ إلى التَّعميةِ والتَّضليلِ»، وقالت: «إنَّ الكتابةَ عن حربِ يومِ الغفرانِ لا يَصِحُّ أن تجيءَ في صورةِ تقريرٍ عسكريٍّ، بل ككارثةٍ أو كابوسٍ مروِّعٍ قاسَيتُ منه أنا نفسي، وسوفَ يُلازمني مدى الحياةِ»، نقلًا عن جريدةِ الأهرامِ، الخميسَ، ١ أكتوبر ٢٠١٥، ص ٧.

وَليَسمَح ليَ القارئُ العزيزُ أن أَطوِيَ حِقبةً مِن الزَّمنِ لم تكن سَلامًا خالِصًا، ولا حربًا خالصةً، لكنَّها كانَت بكلِّ تأكيدٍ فترةَ قلقٍ واضطرابٍ، بسببِ حوادثِ الاغتيالاتِ الَّتي كانَت تُودي بحياةِ السَّائحين الأجانبِ في بعضِ مَزاراتِهم في مصرَ، كما حدثَ في مَعبَدِ حَتشِبسُوتَ في بلدتي بالأقصرِ، وراحَ ضحيَّتَها فوجٌ سِياحيٌّ من اليابانِ ومن أوروبَّا كانَ يَضُمُّ رجالًا ونساءً وأطفالًا.. وكانَت حادثةً بَشِعةً وشنيعةً وفوقَ الاحتمالِ، ولا زِلتُ أذكُرُ كيفَ أنَّ بعضَ حرَّاسِ المَعبَدِ، ممَّن قُدِّرَت لهمُ النَّجاةُ مِن رَصاصِ القَتلةِ -أُصيبَ بحالةِ هِياجٍ عَصَبيٍّ من قسوةِ ما شاهَدَ من جثث القتلى الَّتي ألجأَها الذُّعرُ إلى التَّضامِّ والتَّشابُكِ والاعتِناقِ قبلَ أن تَختلِطَ دماؤُهم وأشلاؤُهم، ويَصعُبُ فصلُ بعضِها عن بعضٍ.

وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ هذه المَوجةَ مِن الإرهابِ الَّتي نَشِطَت نشاطًا واضحًا في النِّصفِ الثَّاني من تِسعينيَّاتِ القرنِ الماضي -كانَت تطبيقًا لما أعلنته «القاعدةُ» من الجهاد ضدَّ الوِلاياتِ المتَّحدةِ، في **٢٣** أغسطس عامَ ١٩٩٦م، وهو إعلانُ الجبهةِ الإسلاميَّةِ لقتالِ اليهودِ والصَّليبيِّينَ عامَ ١٩٩٨م(١)، وبدا لنا -في وضوحٍ- أنَّ خُطَّةَ هؤلاءِ الذين أطلقوا على أنفسهم اسم: الجهاديِّين هي الانتقامُ من الصَّليبيِّينَ واليهودِ الأجانبِ في بلادِ المسلمين، حتَّى وإن كانَ الطَّريقُ لتحقيقِ هذا الهدفِ مفروشًا بأجسادِ المسلمين أنفسِهم؛ رجالًا ونساءً وأطفالًا.

وقد دفع المسلمون، ولايزالون، من جرَّاء موجة الإرهاب هذه، من فواتيرِ الدِّماءِ والخوفِ والرُّعبِ أضعافَ أضعافَ ما دَفعَه اليهودُ والصَّليبيُّونَ

---

(١) انظر رصدًا تاريخيًّا مُطوَّلًا لهذا الموضوعِ في كتابِ جين و. هيك: «عندما تتصادمُ العوالمُ»، ص: ١٥٩ وما بعدَها، ترجمة: أحمد محمود، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث «كلمة»، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

المستهدفون من هذه الحرب؛ فلم تَكُنِ التَّفجيراتُ تُفرِّقُ بينَ مسلمٍ وغيرِ مسلمٍ، بل كثيرًا ما أصابت التفجيرات المسلمين وَحدَهم وقتلتهم دونَ غيرِهم، وبما يؤكدُ أنَّ الإرهابيين لم يكونوا يستهدفون اليهود والصليبيين كما جاء في إعلان جبهتهم، بل كانوا يستهدفون كل من لا يؤمن بأيديولوجيتهم من المسلمين أنفسهم قبل غيرهم.. ورغم أن كثيرًا من الكُتَّاب السِّياسيين من اليهودِ والمسيحيِّين الغربيِّين يُدرِكُون هذه الحقيقة ويَعونها جيِّدًا إلَّا أنَّهم يخلطون -عن عمد- بين مَسلَكِ هذه القلَّةِ الَّتي اختارَت لنفسِها هذا الطَّريقَ الشَّائنَ، وبينَ الإسلامِ الَّذي يَدينُ هذا المَسلَكَ، والمسلمين الَّذين يمقتون هذا التَّصرُّفَ ويُنكِرونَه أشدَّ الإنكارِ، وقد ندَّدُوا به مرارًا وتكرارًا.

على أنَّ هذا العُدوانَ الَّذي اتَّصفَ بالنَّزَقِ والوحشيَّةِ، سُرعانَ ما أَغرى وسائلَ الإعلامِ الغربيِّ بانتهاز الفرصة واستغلال «المشهد» لإظهارِ الإسلامِ في صورةِ الدِّينِ المتعطِّشِ لسفكِ الدِّماءِ، وتقديمِ المسلمين في صورةِ البرابرةِ المتوحِّشينَ الَّذين يُشكِّلونَ خطرًا داهمًا على الحضاراتِ والمجتمعاتِ المتحضِّرةِ، فقد نجح الإعلام الموجَّه في الغرب الأوروبي الأمريكي أن يبعث في نفوس الغربيين مشاعر الكراهية والخوف من الإسلام والمسلمين. وأن يثير ما يسمى بالإسلامو فوبيا، ويعني -فيما يعني- حالة الخوف المرضي من كل ما هو إسلامي، وليس الإرهابيين أو المتطرفين منهم فقط، بل الإسلام والمسلمين جملةً وتفصيلًا.. لقد أقر الروائي الأمريكي: «مارتن إيميس» في مقابلة أُجريت معه عام ٢٠٠٦م (أن كراهيته وعداءه لا يقتصر على المتطرفين، وأنه يجب أن يعاني المجتمع الإسلامي كله، إلى أن يُرتِّب بيته الداخلي، وعلينا أن نمنع المسلمين من السفر، وأن نُرحِّل مزيدًا منهم مستقبلًا، وأن نَحُدَّ من حرياتهم، وأن نُخضِع الناس الذين تُوحي

هيئاتهم أنهم من الشرق الأوسط أو باكستان إلى تفتيش دقيق، يصل إلى حد تعريتهم من ثيابهم) [(١)].

ومن أسفٍ أن نقول: إن بعض الكتابات الصحفية، والحناجر الإعلامية في بلادنا وقعت -من حيث تدري أو لا تدري- في هذا الفخ المسموم، وراحت تساند هذه الأكذوبة ولدرجة اتهام التراث الإسلامي الأزهري ومناهجه بالتطرف وبتخريج الدواعش، وغير ذلك من إساءاتٍ يعلمُ أصحابُها -قبل غيرهم- أنهم يكذبون فيها على أنفسهم قبل أن يكذبوا على الناس.

وكانَ الأملُ أن تُطل علينا الألفيَّةُ الثَّالثةُ، وقد انحسَرت مَوجاتُ العنفِ والإرهابِ في عالَمِنا العربيِّ والإسلاميِّ، ولكن خاب الأملُ كما خابَ إخوةٌ له مِن قبلُ؛ فلم يكَد يَنقضي العامُ الأوَّلُ من القرنِ الجديدِ حتَّى دَهَمَتنا حادثةُ تفجيرِ بُرجَي التِّجارةِ في نيويورك في الحاديَ عشَرَ من سبتمبر عامَ ٢٠٠١م، ولم يكُن هذا الحادثُ الأليمُ -الَّذي دفعَ الإسلامُ والمسلمون ثمنَه بغيرِ جُرمٍ اقتَرَفُوه، ولا ذنبٍ ارتَكَبُوه- لم يكن لِيَحدُث، لولا مقدِّماتٌ وأسبابٌ ودوافعُ شديدةُ التَّعقيدِ دَفَعَت إليه وصَنَعَته؛ تمثَّلت في عَلاقاتٍ غيرُ مُتكافئةٍ -بل ظالمةٌ- بينَ الغربِ والشَّرقِ الإسلاميِّ، اختلَطَت فيها الأوراقُ، وتَشابكَتِ القضايا، وضلَّ «**السَّلامُ**» طريقَه بين بُؤَرِ التَّوتُّرِ في فلسطين وأفغانستانَ، وبالأقطار العربية. وعلى الجانبِ الغربيِّ، لم تكُن دَعاوى البحثِ عن سلامٍ للعرب والمسلمين في أروقة أُوسْلُو وجِنيف ونيويورك ولندن وباريس، إلَّا تسليةً وتزجيةً للوقتِ؛ لأنَّ المعنيِّينَ بالسَّلام هُنَاك لم يشاؤوا أن يُعالِجوا هذه القضايا معالجةً عادِلة يَبدَؤونَ فيها مِن الواقعِ، كما هو على الأرضِ، ليَصِلُوا

(١) نقلًا من: جون فيفر، الحرب الصليبية الثانية، ترجمة محمد هيثم نشواتي، ص ٢٤، ط. منتدى العلاقات العربية والدولية ٢٠١٥م.

في النِّهايةِ إلى الحلولِ العمليَّةِ المنصفة الَّتي تَقضي على بواعثِ العداوةِ والبغضاءِ والخوفِ والتَّوجُّسِ، وتؤسس لسلام شامل عادل، بل شاءَتِ الإرادةُ الدَّوليَّةُ -آنَذاكَ- أن تَضَعَ العربةَ أمامَ الحِصانِ، أو تَضَعَ التَّصوُّرَ المغلوطَ أوَّلًا، ثمَّ راحت تبحثُ له عن مُقدِّمات تُبرِّر التناقضات التي تَستعصي على الحلولِ، وتَدخُلُ بالقضيَّةِ في متاهةٍ جديدةٍ، سُرعانَ ما تُسلِمُها إلى دوَّامةِ الدَّورِ والتَّسلُّلِ المُحالَينِ، كما يقولُ تُراثُنا الكلاميُّ والفلسفيُّ.

هكذا بدأنا القرنَ الجديدَ بحادثةِ الحادي عشَرَ مِن سبتمبر، والَّتي ألقَت بظِلالِها القاتمةِ على أيِّ أملٍ في سلامٍ قريبٍ أوِ استقرارٍ منظور، وقد عِشنا في جوِّها الخانقِ عيشةَ المتوجِّسِ المُترقِّبِ لِمَا سوفَ تَلِدُه الأيَّامُ الحُبالى من تدابيرَ وتَعِلَّاتٍ غربيةٍ جديدةٍ ضدَّ الإسلامِ والمسلمين.

واللَّيالي مِنَ الزَّمانِ حُبالَى ... صَامِتاتٌ يَلِدنَ كلَّ عَجيبِ

وقد حدَثَ كلُّ ما تَوقَّعناه مِن استغلالِ هذه الحادثةِ وتوظيفِها بمَكرٍ وخُبثٍ، تعوَّدناهما مِن القومِ، فما لبثوا أن استدعوا أحقادَ القرونِ الوُسطى، وارتدوا قميصِ التبشير بالدِّيموقراطيَّةِ لتبرير غَزوِ الشُّعوبِ، والسَّطوِ على مُقدَّراتِها، وقد ظهرَ المكتوم، وبدَتِ البغضاءُ من أفواهِهم، وما أخفته صدورهم أمرُّ وأقسى، وسرعان ما أَفْلَتَت من أحد كِبارهم كلماتٌ أعادَتنا إلى أجواءِ الحروبِ الصَّليبيَّةِ بينَ الشَّرقِ والغربِ، واستعادتِها من جديدٍ في بلادِ الرَّافدَينِ، وكانَ ما كانَ مِن غزوِ العراقِ وتدميره، وإحياءِ نَعَراتِ العراق وتمزقات المذهبية والطَّائفية، بل والدينية، حتَّى احترقَ العراقُ من أقصاهُ إلى أقصاهُ، وسُلِّم «تسليم مفتاح» إلى أعدائه في الداخل والخارج، وتصالحتْ عليه عللٌ شتَّى أحالَته إلى أَسَدٍ جريحٍ مُثخَنٍ بالكسور والجراحِ والعِلَل.

وبعدَ أن تمَّ للغُزاةِ الجُدُدِ ما أرادوا للعراقِ والعراقيِّينَ، طَلَعُوا علينا فجأةً

لِيُعلِنوا أنَّهم كانوا يَكذِبونَ علينا فيما ادَّعوه من البحث عن أسلحةِ الدَّمارِ الشَّاملِ، ولكن بعدَ «خراب مالطة» كما يقولُ المَثَلُ الشَّهيرُ، ومن المُحزنِ والمُؤلِمِ، بل مِن غيرِ المنطقيِّ والمعقولِ، أن يَبقى العراقُ وعاصمتُه «بغداد» مدينةُ السَّلامِ في مَهَبِّ ريح هوجاء، وبينَ قُطبَي رَحا لا تَكُفُّ عن الدَّوَرانِ بالهلاكِ والثُّبورِ مدَّةَ ثماني عشْرةَ سنةً، منذُ دخولِ القوَّاتِ الأجنبيَّةِ أرضَ العراقِ وحتَّى لحظةِ كتابةِ هذه السُّطورِ.

وليسَ من تفسيرٍ مقبولٍ لهذه المأساةِ الَّتي تَجري في العراقِ، ويجرى مِثلُها في سوريا واليمنِ وليبيا، ولا لهذه الهيمنةِ الدَّوليَّةِ التي قرَّرَت السَّيْرَ على الخطِّ الَّذي رَسَمَه لها كُهَّانُ الثَّقافةِ الاستعماريَّةِ الجديدةِ ومُنظِّرُوها فيما أسْمَوهُ: نهايةَ التَّاريخِ وصراعَ الحضاراتِ، وضرورةَ صُنعِ عدوٍّ جديدٍ يَبيعون له السلاح ويصدرون له الحرب والدمار، حتَّى لو كانَ هذا العدوُّ أخضرَ اللَّونِ وديعًا مُسالِمًا.

ثمَّ شاءَت تصاريفُ الأقدارِ أنْ تُسنَد إليَّ رئاسة جامعةِ الأزهرِ، أقدم جامعةٍ عَرَفَها التَّاريخُ، وأعرقِ مؤسَّسةٍ علميَّةٍ عَرَفَها النَّاسُ، ظَلَلتُ بها سنواتٍ سبعًا [1]، حَرَصتُ خلالَها على المشاركةِ في مؤتمراتٍ عدَّةٍ في رُبوعِ أوروبَّا وآسيا وأمريكا وروسيا، والخليجِ العربيِّ، بحثًا عن السَّلامِ المفقودِ، والسَّلامِ العالَميِّ الَّذي كانَت موضوعاتُه تُطرَحُ ضمن حوارات الأديانِ والحضاراتِ والثَّقافاتِ، وكثيرًا ما كانَتِ الانطباعاتُ الَّتي تُخلِّفُها هذه المؤتمراتُ مُحبِطةً ومُخيِّبةً للآمالِ، وكثيرًا ما تساءَلتُ عن جَدوى هذه المؤتمراتِ وما تَتكلَّفُه مِن أموالٍ طائلةٍ، وجُهدٍ بالغٍ في إعدادِها وترتيبِها وحُسنِ استضافتِها، وكلِّ ما يَكسُوها مِن أَلَقٍ وبَهرجٍ وأضواءٍ، ورُغم أنَّ كلَّ

---

(١) من سبتمبر ٢٠٠٣م حتى مارس ٢٠١٠م.

شيءٍ في هذه المؤتمراتِ كانَ يُوحي بالحرِّيَّةِ المُطلَقةِ في التعبير عن كلِّ ما يَخطُرُ بالبالِ، إلَّا أنَّني كنتُ أشعُرُ بأنَّ هناك حدودًا وقيودًا غير معلنة، يجب أن تقفَ عندَها الكلماتُ ولا تَتخطَّاها، وأنَّ هناك تصميمًا غيرَ مُعلَنٍ -أيضًا- على أن تَظَلَّ أَزمةُ الشَّرقِ الأوسطِ تُراوِحُ مَكانها، ولا تقتربُ مِن حلولِها المنطقية مهما كانَت حكمةُ الحكماءِ، ومهما بلغَت دقَّةُ أبحاثِ الخبراءِ المشارِكين في هذه المؤتمراتِ.

لَمَستُ هذا -أو قريبًا منه- على موائدِ العشاءِ، حينَ كانَ الحديثُ يدورُ بيني وبينَ بعضِ الأصدقاءِ الغربيِّينَ حولَ المحاضراتِ والمحاضِرين والتَّعقيباتِ والمُعقِّبينَ، وكنتُ أُلاحظ أنهم يَلُوذونَ بالصَّمتِ، أو يَكتَفُونَ بأداءِ حَرَكاتٍ وإشاراتٍ تُوحي بالحَيرةِ والتَّوقُّفِ تجاهَ المشكلةِ، لكنَّها لا تُعطي أيَّ انطباعٍ يدلُّ على اعترافهم بأنَّ سياساتهم الغربية سياسة مصالح وسياسة كيل بمِكيالَينِ، لا تَتقيَّدُ بالمبدأِ الإنسانيِّ، ولا بقيمِ التَّعاونِ معَ الآخَرِ وحضارتِه.

وللإنصافِ أقولُ: إنَّ صَمتَهُم هذا ربَّما كانَ صمتَ العاجزِ الَّذي لا حِيلةَ له تجاهَ أنظمةٍ سياسيَّةٍ تُسنِدُ ظهرَها إلى مَنطِقِ القوَّةِ والغَطرسةِ والسلاح، وبحيث لم يَبقَ أمامَ الحُكماء منهم إلَّا مؤتمراتُ الحوارِ، يلتمسون فيها ما قد يمتنع عليهم في واقعهم السِّياسي المُتَحجِّر.

وكنتُ أتساءلُ بعدَ نهايةِ كلِّ مؤتمرٍ: هل تقدَّمنا خُطوةً على طريقِ السَّلامِ؟ أو أَضَأنا شَمعةً في دَربِه المُظلِمِ؟ وكانَ الجوابُ -في كلِّ مرَّةٍ- يرتدُّ إلى النَّفسِ خاسِئًا وهو حسيرٌ.

ولم يكن حضور هذه المؤتمرات بالنسبة لي أمرًا ميسورًا ولا محبوبًا، فمن طبيعتي أني أحب الاستقرار، وأستثقل الأسفار، وبخاصة تلك التي

تحملني إلى بلاد بعيدة، تختلف أجواؤها اختلافًا كبيرًا عن جو مصر . . وكان الهم الأكبر الذي يلازمني قبل السفر بشهر على الأقل هو كتابة الكلمة التي سألقيها في المؤتمر أو الندوة، وما تتطلبه من عمقٍ ودقةٍ وتحديدٍ للهدف، من حيث الموضوع والإعداد والتوثيق، والبُعد التَّام عن أن تكون مكرورة أو مبتذلة أو مستهلكة في الأسماع والعقول، أو ذات طابع إنشائي لا يقول للناس شيئًا يستحق عناء السفر وتكاليفه ونفقات الإقامة والمعيشة في الفنادق الفاخرة . . وكثيرًا ما كنت أصطحب معي ترجمة «كلمتي» إلى اللغة التي يتحدثها أهل البلد الذي يُعقد فيه المؤتمر، وكنت أعهد بهذه الترجمة إلى أحد أصدقائي الأجانب المقيمين بالقاهرة ممن يتقنون العربية إلى جوار لغاتهم الأم، وكان المترجمون في المؤتمرات يثنون على هذا الصنيع ويمتدحونه، لأنه يُسهِّل لهم ترجمة الكلمة ترجمة دقيقة ويزيد من ثقتهم فيما يترجمونه منها إلى اللغة الأولى للمؤتمر، ولم أذكر أنني شعرت قط في مؤتمر من المؤتمرات بما يشعر به طلاب النزهة والبهجة والاسترواح، ولم أذكر أيضًا أنني حرصت على المشاركة فيما يسمونه: «رحلة التسوق»، تلك التي يحرص عليها أكثر المؤتمرين في نهاية كل مؤتمر، بل كنت دائمًا حبيس الغُرَف والقَاعات، أُفكِّر فيما أقول، وفيما عسَاه أن يُقَال لي، وكنت أفترض الاعتراضات التي يُمكن أن توجَّه إليَّ، وأُرتِّب في نفسي الأجوبة على هذه الاعتراضات التي أتحسب لها، وكثيرًا ما تبيَّن لي أنَّ الأمر أهون مما قدَّرت، ومما تحسَّبتُ له من تخوفات وشكوك وأوهام.

. . . . . .

ولم يَمض العقد الأول من الألفية الثالثة، حتى بدأ الشرق، بل الشرق والغرب معًا، مرحلة جديدة من مراحل ضياع السَّلام. ويحار المتأمل في

تكييف هذا الواقع الجديد، وما صارت إليه الأمور من فظائع وانتهاكات صارخة لكل قيم الحق والعدل والحقوق، وأبسطُها: حقُّ الإنسان في الحياة، والذي أصبح في كثيرٍ من أقطار الشرق، أمرًا عزيز المنال على مئات الألوف مِمَّن أُهدِرَت دماؤهم في العراق وسوريا وليبيا واليمن، ويكفي أن نعلم أنَّ: «الحرب في سوريا وحدها حصدت أرواح ٦٠٠,٠٠٠ قتيل سوري، بينهم ٥٥ ألف طفل، وتسبَّبت في نزوح نحو ١٢ مليون شخص، وهو رقم يُعادل نصف سُكَّان البلاد، كما قُدِّرت تكاليف الحرب في هذا البلد بنحو ترليون ومائتي مليار دولار، وهو ما يُعادل ميزانيَّة دول الاتِّحاد الأوروبي بأكمله لمدة عشر سنوات»[(١)].. وإنِّي لأتساءل: كَم يبلغ عدد قتلى العرب والمسلمين فيما لو أضفنا إلى ما سبق أعداد قتلى العراق وليبيا واليمن وغيرها؟!

ولو دقَّقت النَّظر -أيُّها القارئ الكريم!- في هذا اللامعقول واللامنطق واللاإنسانية فإنك ستكتشف -في وضوحٍ وجلاء- أنَّ الأسلحة التي تَصْطرع وتُقَعْقِع في أرجاء سوريا وغيرها، وتقتل وتدمِّر وتمحو بشرًا وبيوتًا من على وجه الأرض - لا تعمل من أجل قضية عربية ولا إسلامية ولا إنسانيَّة، وأنَّ الحربَ ليست -كما يوهموننا- حربًا بين مذهب سُنِّي ومذهب شيعي، فقد عاش المذهبان متآخيين متسالمين، وعاش أهلوهما إخوة متحابين عُمرًا طويلًا، والصحيح أنها حرب بين مذهب أمريكي وآخر روسي، وأنَّ كلًّا من المذهبين -أو السياستين- يتخذ له حليفًا من دول تبحث هي الأخرى عن موطئ قدم لها في أرض العرب ومياههم، وقل مثل ذلك في ليبيا التي دمَّرها «الناتو» بمباركة أمريكية، وعربية أيضًا، ثم راح وتركها بعد أن قدَّمها لُقمة

(١) انظر جريدة الأهرام المصرية، عدد الخميس ١١ مارس ٢٠٢١م، (الصفحة الأولى).

سائغة لصراعٍ مُسلَّح أَهْلَك الحرث والنسل، وقل مثل ذلك أيضًا في اليمن وغيرها من بؤر التَّوتُّر والصِّراع . .

هل هي حرب عالميَّة ثالثة تتَّخذ من الشَّرق الأوسط مَسْرَحًا جديدًا؟

هل هو استغلال الغرب للمرض العربي العضال، وأعراضه المزمنة من التنازع والتشرذُم وسهولة الاستدراج لشراء الأسلحة والأعتدة الباهظة الأثمان؟!

هل هو سايكس بيكو جديد؟

هل هي الحضارة الغربية العنيدة المتغطرسة التي لا تسمح بقيام حضارة أخرى إلى جوارها؟

وهل صحيح أن الغرب يحارب الإرهاب؟ أو هو يحارب حضارة الإسلام والمسلمين، ويخطِّط للقضاء عليها تحت هذه الدعاوى المُلَفَّقة؟ وإذا كان الغرب صادقًا فيما يدَّعيه؛ فما الذي يمنعه من أن يكون جادًّا في القضاءِ على الإرهاب؟

وما التفسير المنطقي لظهور هذا «الإرهاب» في بلادنا بكل هذه الإمكانات المهولة من السلاح والعتاد والمال والتدريب والتقنيات العسكريَّة المتقدِّمة وتكنولوجيا الاتصالات المتطورة؟ ومَنْ هذا الساذَج الذي يستقيم في عقله إمكانُ أن تلد الصحراء العربية القاحلة كل هذه التقنيات المعقَّدة، وكل تلك الطاقات المُدَمِّرة، وكل هؤلاء الخبراء المدرَّبين تدريبًا عاليًا، وفي فترة زمنية قياسية يَحار العقل في تفسيرها؟!

إنَّ هذا العُنف المتصاعد، والذي تمارسه بعض دول الغرب ضِدَّ المسلمين، والجاليات المسلمة، يُثير تساؤلًا مُزعجًا إلى أبعد الحدود، عن أَمَدِ هذا العنف، ومتى يتوقَّف؟! وإلى أي مدى يُمكن أن تصل إليه حصيلة القتلى والمشوَّهين من المسلمين ونسائهم وأطفالهم؟! وهل سيَذْكُر التاريخ

-يومًا- أنَّ هذا «الحجم المروِّع لقتل المسلمين، إنْ هو إلَّا «إبادة جماعية» تُذَكِّر بمثيلتها التي ارتُكِبَتْ في حَقِّ الأمريكيِّين الأصليِّين»[(١)]..

وهكذا يضيع الأمل من جديد في «سلامٍ» عالميٍّ، يُشبه البحثُ عنه بحث «الرجل الأعمى عن قُبَّعة سوداء في حجرةٍ مظلمة لا وجود لها هناك»[(٢)].

وبعد:

فقد شاءت إرادة اللَّه -تعالى!- أن أتولَّى مشيخة الأزهر في خِضَمِّ هذه الظروف القلقة، ووسط عواصفها السياسية والاجتماعية التي اجتاحت المنطقة بأسرها في ذلك الوقت، فكان هذا المنصب في تلك الظروف أشبه بالقضاءِ والقدر الذي يُلم بالإنسان فجأة وعلى غير رغبة منه، ودون توقُّع ولا سابق انتظار، وما كان بوسعي، بعد ما حُمَّ الأمر، إلا الرضوخ والاستعانة باللَّه على تكاليف هذا المنصب الشاق، وقد اجتهدت ما وسعني الاجتهاد، وفي إصرار لا يَكِلّ، ودأب لا يعرف الملل - في الحفاظ على أمانة الأزهر الشريف، والذَّوْد عن حياضه، وعن مصر التي احتضنته على مدى أكثر من ألف عام من عُمر الزمان، ونَشَرتْ علومَ أروقتِه، وثقافةَ مآذنِه وقبابِه بين آلاف الآلاف من علماء المسلمين في الخافقين.

وما أظنُّ أنَّنا في حاجةٍ للتذكيرِ بما تحقَّق للأزهر الشَّريف في الآونة

---

(١) انظر: السياسات المعاصرة المعادية للمسلمين، (الاعتداء والإقصاء) تأليف: كينيس لونج، عَرضْ: السيد عبد العليم، مراجعة: عزة عبد ربه، ص: ١٨-٢٤، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ٢٠١٩م.

(٢) مقولة مشهورة يُطلقها فلاسفة «الوضعية المنطقية» إنكارًا على الفيلسوف الميتافيزيقي مشروعية البحث فيما وراء الماديات وقضايا الميتافيزيقا والغيبيات.. انظر: الفيلسوف الأمريكي وليَم جيمس - William James (ت. ١٩١٠م) في كتابه «بعض المشكلات في الفلسفة»: ١٨، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي، ومراجعة: د. زكي نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٦٢م.

الأخيرة من إنجازات يتردَّد صداها في المحافل الدينية والسياسية في أوروبا وفي الأمم المتحدة وفي داخل مصر قبل خارجها . . وذلك رُغم المحاولات البائسة للتعتيم على هذه الإنجازات، والانتقاص من قدرها وقدر الأزهر ومنزلته في قلوب المسلمين.

ولعل ما تحمله صفحاتُ هذا السِّفر من مقالات وغيرها يُعبِّر عما أردتُ التعبيرَ عنه، ويُبيِّنُ عن منهجي الذي ارتضيته في كل مَنْحًى من مناحي القول. . وسوف يجد القارئ -المتمهل- في هذا السِّفر الضَّخم موقفًا ثابتًا يتمثل في البحث عن «السَّلام»، والدِّفاع عن الدِّين الذي احتضنه وقدَّمه حقًّا مكفولًا للإنسان والحيوان والنَّبات والجماد. .

وفي الختام أُقدِّم جزيل الشُّكر لكل مَن أعانني على استخراج هذه المقالات من مراقدها، وجَمْعها وطَبْعها ومراجعتها. .

ولِلَّه الأمر من قبل ومن بعد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أحمد الطيب

القُرنة، الأقصر في: **٢** من شعبان، سنة **١٤٤٢**هـ

الموافق: **١٥** من مارس سنة **٢٠٢١**م

ومضات عقدية

رأيٌ
في تدريسِ مادَّةِ العقيدةِ في الجامعاتِ الإسلاميةِ(*)

إلى عهدٍ قريبٍ حين كنَّا طُلَّابًا بكليةِ أصولِ الدِّينِ، لم تكن الفَجْوةُ أو الجَفْوةُ بين المذاهبِ العقديَّةِ والفِقْهيَّةِ بهذه الحِدَّةِ التي نشهدُها الآن، والتي شَكَّلَتْ ما يُشْبِهُ انسدادَ الشَّرايينِ الفكريَّةِ بين أبناءِ الدِّينِ الواحدِ والثَّقافةِ الواحدةِ والأُمَّةِ الواحدة.

لقد دخلتُ الأزهرَ عامَ ألفٍ وتسعِمئةٍ وسِتٍّ وخمسينَ، وكانتِ استمارةُ القَبُولِ في ذلك الوقتِ تشتملُ على خانةِ المذهبِ الفِقْهيِّ الَّذي يختارُه الطَّالبُ الصَّغيرُ المُبْتَدِئُ، وثَبَتَ في الذِّهنِ، وفي الشُّعورِ أيضًا، منذ الطُّفولةِ الباكرةِ -أنَّ هناك مذاهبَ فِقْهيةً مُتَعدِّدةً، وأنَّها كلَّها ممَّا يَتَّسعُ لها دِينُ الإسلامِ، وأنَّها كلَّها تتعايشُ جَنْبًا إلى جَنْبٍ في أذهانِ طلَّابٍ يَدْرسون في معهدٍ واحدٍ.

وفي المرحلةِ الابتدائيةِ دَرَسْنا عِلْمَ التَّوحيدِ في كتابِ «شرح الخريدةِ»[1]، وفَهِمْنا في دروسِنا أنَّ أهلَ السُّنةِ هم الأشاعرةُ والماتُريديةُ، وأنَّهم ليسوا وَحْدَهم أئمةَ عِلْمِ التَّوحيد، بل سمعنا إلى جوارِهم المعتزلةَ وغيرَهم.

(*) كتبت هذه الكلمة (في: ٢٠ ربيع الثاني: ١٤٢٣هـ، الموافق: ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢م) كمشروع بحث موسع في الموضوع، ولم يتسن للإمام حتى الساعة إتمامه.

(١) لأبي البركات أحمد بن محمد العدوي المالكي، الشهير بالدَّردِير (ت. ١٢٠١هـ) وكتابه «الخريدة البهية في العقائد التوحيدية» منظومة تعليمية في (٧١) بيتًا، أول طبعة كانت طبعة حجرية سنة: ١٢٧٩هـ، بالقاهرة. انظر: «معجم المطبوعات العربية والمعربة» ليوسف إلياس سركيس: ١/ ش٨٧٠.

وصحيحٌ أنَّه كانت هناك تنبيهاتٌ منتظمةٌ تشيرُ إلى أنَّ الحقَّ مع أهلِ السُّنةِ لا مع غيرِهم؛ لكنَّا لم نسمع بتكفيرِ المُعْتَزلةِ مثلًا، أو إخراجِهم من رِبْقةِ الإسلامِ.

وتعوَّدْنا منذُ ذلك الحينِ تَقَبُّلَ الرَّأيَيْن أو الآراءِ المختلفةِ، ومنَّا مَن كان ينتصرُ للمعْتزلةِ، ومَن كان ينتصرُ لغيرِهم، بل مِن شيوخِنا مَن كان يُنْصِفُ أهلَ الاعتزالِ مرةً، وأهلَ السُّنةِ مرةً، واستمرَّ الحالُ -كذلك- على هذا التَّلاقُحِ المذهبيِّ في المرحلةِ الثَّانويَّةِ وفي كليةِ أصولِ الدِّينِ؛ حيث كان شيوخُنا يُنَبِّهونَ على نِقَاطِ ضَعْفٍ أو قوةٍ في هذا المذهبِ أو ذاك؛ دونَ أنْ يُصاحِبَ ذلك تكفيرٌ، أو حربٌ كَلَامِيَّةٌ سَرْعانَ ما تنتقلُ آثارُها السيئة، بل الخطرة، إلى مواقفَ عمليَّةٍ.

هذا المنهجُ الأزهري المفتوحُ، إلى حَدٍّ كبيرٍ، في تدريسِ أكثرِ الموادِّ حَسَاسيَّةً وهو عِلْمُ الكلامِ، نجحَ في أنْ يُجَنِّبَ طُلابَ الأزهر الانغِلاقَ أو التَّخَنْدُقَ في أفكارِ هذا المذهبِ أو ذاك، ورَغْمَ الجِدَالِ والحوارِ المُسْتَعِرِ حول نُصرَةِ الأشاعرةِ أو المُعتَزلةِ، إلا أنَّ أحدًا من المُتَحاورين لم يَخْطُرْ ببالِه أنَّه يُحَاوِرُ خَصْمًا خارجًا عن حدودِ عقيدةِ الإسلامِ.

وإلى عهدٍ قريبٍ كانت كليةُ الآدابِ بجامعةِ الإسكندريةِ تُمَثِّلُ المدرسةَ الأشعريةَ بقيادةِ الأستاذ الدكتور علي سامي النَّشَّار (ت. ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، وكانت كليةُ دارِ العلومِ تُمَثِّلُ مدرسةَ المُعْتزلةِ بقيادةِ الأستاذ الدكتور محمود قاسم (ت. ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) وكانت جامعةُ الأزهرِ تَحْرِصُ على المذاقِ الأَشْعريِّ والصُّوفيِّ بقيادة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود رحمهم اللَّه جميعًا، ولم نسمع أنَّ تكفيرًا أو تَفْسيقًا أو تبديعًا تُبودِلَ بين هذه المعاهدِ الثَّلاثةِ، بل كثيرًا ما كان الأستاذُ المُعْتزليُّ يَشْتَرِكُ مع زميلِه الأَشْعريِّ في مناقشَةِ رسالةٍ تَغُوصُ في دقائقِ الأَشَاعرةِ أو المُعتَزلةِ أو الصُّوفِيَّةِ أو السَّلَفيَّةِ، في جوٍّ مفعم بالأخوة العلمية والزمالة الأكاديمية.

ثم بدأنا نُلاحِظُ في الأزهرِ -على وجْهِ الخصوصِ- شيئًا من الانحسارِ في هذا الانفتاحِ المذهبي المَوروثِ، وذلك بسبب انتشار ورواج مذاهبَ وافدةٍ أريد لها أن تكون المتحدث الرسمي للدين الإسلاميِّ بين قِطَاعٍ لا يُسْتهانُ به من الطُّلابِ والأساتذةِ على حَدٍّ سواء.

وما لبث أن واكب هذا الانتشار في أروقة الجامعة انتشار على المستوى الشعبي، ورواجٌ لمَقُولاتٍ ومذاهبَ أُرِيدَ لها أن تكونَ المُتَحدِّثَ الرسميَّ لمذهبِ السَّلَفِ في العقيدةِ، وسَرْعان ما قُدِّمَت على أنَّها عقيدةُ الإسلامِ الوحيدةُ، وأنَّ غيرَها ضَلالٌ وانحرافٌ وخروجٌ صَريحٌ على الإسلامِ، وفي هذا الجوِّ الغريبِ بُعِثَتْ مَقُولاتٌ خِلَافِيَّةٌ؛ كالتَّأويلِ، والتَّنزيهِ، والتَّجسيمِ، والمجازِ؛ لتكونَ فواصِلَ حاجزةً بين أهلِ الإيمانِ وأهلِ الضَّلالِ.

وبعد أن كانت هذه الخِلَافِيَّاتُ مجرد مسائلَ دراسيَّةً، لا يَتَعدَّى خَطَرُ الخِلافِ حولَها أبوابَ المُدَرَّجاتِ والفصولِ في الكُلِّياتِ المَعْنيةِ، وكانتْ مُدَرَّجاتُ الدِّراسةِ هي مَسْرحَ دراسة هذه الخِلافِيَّاتِ، أصبحَ كثيرٌ من المساجدِ الآنَ مَسْرحًا لهذه التياراتِ الوافدةِ، وبعدَ أنْ كان المُخَاطَبُ بعِلمِ العقيدةِ طُلَّابَ الجامعةِ، أصبحَ المُخَاطَبُ به هم الجماهيرَ بل والأطفالَ. ورافقَ كلَّ ذلك سيلٌ مِنَ التَّسجيلاتِ الصَّوتيةِ المُسَجَّلةِ هنا أو المُصَدَّرةِ من بعيدٍ، وأصبحَ من المألُوفِ أنْ يَسْأَلَك الطَّبيبُ مثلًا عن ضلالِ المذهبِ الأشعريِّ، وعن انحرافِ أساتذةِ الأزهرِ الذين يؤمنون بهذا المذهبِ.

ولعلي أَلْفِتُ النَّظَرَ بعد هذه المُقَدِّمةِ إلى أنَّ الَّذي يُقَالُ أو يُسَجَّلُ أو يَنْتَشِرُ هو من صَمِيمِ تُرَاثِنا وعلومِنا ولا خطرَ منه على الإطلاقِ. كيف وقد درسناه وتَعَلَّمْناه، وقَبِلنا منه أشياءَ، ورَدَدْنا منه أشياءَ أخرَى؟!

لكنَّ المشكلةَ تَكْمُنُ -تحديدًا- في أنَّ دُعَاةَ هذا المذهبِ لا يَعْرِضُونَه على أنَّه أحدُ المذاهبِ الموجودةِ في التُّراثِ، بل يَستَمِيتونَ في تقديمِه على أنَّه الإسلامُ، وغيرَه الضَّلالُ.

وهنا مَكْمَنُ الخطرِ؛ إذ مع ترويجِ هذا المذهبِ وتَسْويقِه، ودُعاته، ومن وراءهم، يملِكون أدواتِ نشرِ المنتَجِ وتوزيعِه على أوسعِ نطاقٍ -لا نأمنُ أنْ نصِلَ إلى وضعٍ تنشطرُ فيه الجماهيرُ إلى شَطْرَيْن يُكَفِّرُ كلٌّ منهما الآخَرَ، وهنا الكارثةُ الحقيقيةُ.

كيف نتغلبُ جزئيًّا على هذه المشكلةِ؟

قبلَ الإجابةِ على هذا السُّؤالِ يَحْسُنُ أنْ أحَدِّدَ المشكلةَ باختصارٍ في الخطواتِ التَّاليةِ:

١ - المنهجُ الوسطيُّ المعتدِلُ في دراسةِ العقيدةِ هو منهجُ الأزهرِ، وهذا بشهادةِ الجميعِ.

٢ - لقد بذلَ الأزهرُ جهودًا جَبَّارةً لصيانةِ هذا المذهبِ الوسَطيِّ، لكنَّ هذه الجهودَ بدأتْ تتآكلُ تحتَ تأثيرِ عَامِلَيْن:

أ -عَامِلِ الاعتمادِ على المُذَكِّراتِ مع قِلَّةِ المَعْروضِ من نصوصِ التُّراثِ، (ومع ملاحظةِ أنَّ بعضَ الأساتذةِ مُتَأَثِّرٌ بالمنهجِ الآخَرِ غيرِ الوسطيِّ، وحريصٌ على تَرْسِيخِه في مُذَكِّراتِه).

ب -رَوَاجِ المنهجِ الآخَرِ -أحاديِّ النَّظرةِ والاتِّجاهِ- في دراسةِ العقيدةِ، وتَبَنِّي مَقُولاتِ بعضِ المذاهبِ في دراسةِ العقيدةِ وتقديمِها على أنَّها الحقُّ الَّذي لا حقَّ غيرُه، ورفضِ كلِّ ما يُخَالِفُ هذه المَقُولاتِ.

٣ -تَبَنِّي بعضِ الجامعاتِ الإسلاميَّةِ ذاتِ النُّفوذِ الماديِّ لهذا المنهجِ، وتَرْويجُ ثمارِه المَذْهَبِيَّةِ في العَالَمِ العربيِّ والإسلاميِّ، وبصورةٍ ملموسةٍ.

٤ -أَدَّى كلُّ ذلك إلى تَرَاجُعٍ في المنهجِ الوسطيِّ مُتَزَامِنٍ مع اطِّرادٍ للمنهجِ المُتَشَدِّدِ.

الاقتراح:

ليس عندي شَكٌّ في أنَّ الحَلَّ ليس له إلا طريقٌ واحدٌ، هو: إحْياءُ المنهجِ الوسطيِّ في دراسةِ العقيدةِ وتأْصِيلِه، وتَطْعِيمُ المناهجِ الأخرى بِه؛ ويتمُّ ذلك عَبْرَ خطواتٍ ثلاثٍ:

الأولى: تَكْثِيفُ جُرْعَاتِ النُّصوصِ القديمةِ الأشعريةِ والماتُرِيديَّة والسَّلَفِيَّةِ المعتدلةِ في جامعةِ الأزهرِ أَوَّلًا، وتَدْريسُها في كُلِّياتِ أصولِ الدِّينِ وأقسامِ العقيدةِ بكلِّياتِ الدِّراسَاتِ الإسلاميَّةِ وكُلِّياتِ الدعوةِ على وَجْهِ الخصوصِ.

الثَّانية: وفيما يتعلَّقُ بالكُليَّاتِ العَمَليَّةِ في الجامعاتِ الإسلاميَّةِ تُدَرَّسُ موضوعاتُ العقيدةِ بصورةٍ مُخْتَصرة، ضِمن مادَّةِ الثَّقَافةِ الإسلاميَّةِ انطلاقًا من القرآنِ والسُّنَّةِ، على أن تَبْتَعِدَ الدِّراسةُ كُلِّيًّا عن القضايا الخلافيَّةِ التي تتطلَّبُ مستوًى خاصًّا مِنَ العُمقِ الأكاديميِّ على أنَّ تَقْتَصِرَ الدِّراسةُ في مباحثِ الألوهيَّةِ على دلائلِ إثباتِ وجودِ اللَّهِ تعالى من النَّقْلِ والعقلِ، ثم فكرةٍ عامَّةٍ عن الصِّفاتِ الإلهيَّةِ والقضاءِ والقَدَر، مع التَّركيزِ على عَرْضِ سَلْبِيَّاتِ التَّواكُلِ، والفَرْقِ بينه وبين التَّوكُّلِ، ونَقْدِ المذهبِ الجَبْريِّ انطلاقًا من القرآنِ الكريمِ.

وفي مباحثِ النُّبوَّةِ: يتمُّ التَّركِيزُ على توضيحِ مَفْهوم النُّبوَّةِ وصفاتِ الأنبياءِ، وحاجةِ الإنسانيةِ للنُّبوَّةِ، والفَرْقِ بينها وبينَ النُّظُمِ الإصلاحيَّةِ والفلسفيَّةِ والاجتماعيةِ والقانونيةِ، وبيانِ أنَّ النُّبوَّةَ تَفُوقُ كلَّ هذه النُّظُمِ من حيث بيانُ حقيقةِ الكونِ والإنسانِ، وضمانُ السَّعادةِ للبشريَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

وفي مباحثِ السَّمْعياتِ: تُدَرَّسُ باختصارٍ: الملائكةُ - الجنُّ، مع التَّركيزِ على مُقَاومَةِ الظَّواهرِ السَّلبِيَّةِ المعاصرةِ التي تنظرُ إلى عَالَمِ الجِنِّ

وكأنَّه القُوى الُمدَبِّرةُ لشُئونِ حياتِنا، وبحيثُ أصبح الجِنُّ مشجبًا حاضرًا نُعَلِّقُ عليها كلَّ إِخْفَاقَاتِنا وخَيْبَتِنا وفَشَلِنا في القيامِ بواجبِنا في الحياةِ المعاصرةِ، كما يُدَرَّسُ «اليومُ الآخرُ» في أبرزِ مراحلِه، ثم الجَنَّةُ والنَّارُ.

ثالثًا: لا مفرَّ -بالنِّسبَةِ لكلِّياتِ أصولِ الدِّينِ أو الدَّعوةِ في الجامعاتِ الإسلاميَّةِ- من عَرْضٍ علميٍّ أمينٍ ونَزيهٍ لأشهرِ المذاهبِ الإسلاميَّةِ التي ارتبطَ بها التَّاريخُ الفكريُّ لعِلْمِ العقيدةِ، وهي: الأشاعرةُ، الماتُريديةُ، المُعْتزلةُ، جَنْبًا إلى جَنْبٍ مع السَّلفيةِ، ولا بد أيضًا من تدريبِ الطُّلابِ على النَّظَرِ إلى هذه المذاهبِ على أنَّها مذاهبُ تَمَّتْ صِياغَتُها في إطارِ الإسلامِ: عقيدةً، وشريعةً، وأخلاقًا، وأنَّ الاختلافَ معها واردٌ وطبيعيٌّ، لكنَّها ليست فِرَقًا مَارِقةً، وأنَّ المدرسةَ السَّلَفيَّةَ ليست وحدَها في المَيْدانِ، وليست وحدَها المُتَحدِّثَ الرَّسميَّ باسمِ الإسلامِ.

هذا المنهجُ لو طُبِّقَ فإنَّه ربَّما يُسَاعدُ على خَلْقِ ذِهْنيَّةٍ مُتوازنةٍ غيرِ مُتَشَنِّجةٍ ولا رافضةٍ للآخرِ، ولا مُتَّهِمَةٍ للمُخَالِفِ بالكفرِ أو الفسقِ، أو فسادِ العقيدةِ، وبطلانِ الصَّلاةِ خَلْفَه، وهذا المنهجُ كما صَنَعَ في الماضِي القريبِ علماءَ يَجْمَعونَ بين المشاركةِ مع المحافظةِ على التَّميُّزِ؛ فإنَّه فيما أرى كَفِيلٌ بإعادةِ التَّوازُنِ إلى ذِهْنِيَّةِ هذا الجيلِ من الطُّلابِ الدَّارسينَ.

* * *

الإمامُ الأشعريُّ.. وجمعُ كلمةِ المسلمين(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد؛ خاتم الأنبياء والمرسَلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اسمحوا لي أيُّها العلماء الأجلَّاء في بداية كلمتي هذه؛ أن أذكُر شيخَنا الرَّاحل، الأستاذ الدُّكتور: محمد سيِّد طنطاوي، شيخَ الأزهر الشَّريف، الذي رحلَ عن عالمنا منذُ شهرين مَضَيا، وترك رحيلُه المفاجئ فراغًا كبيرًا، لم نكن لندرك حجمَه وثِقَله قبل أن يرحل هذا الشَّيخ الجليل.

وإنَّنا -أبناءَ الأزهر الشَّريف شيوخه وعلماءه وطلَّابه- إذ نحتَسب عند اللَّه تعالى فقيدَ الأمَّة الإسلاميَّة كلِّها، لَنَذْكُرُ من محاسنه -رحمه اللَّه- أنَّه كان رجلًا تقيًّا، نيِّر الوجه، رقيقَ القلب، صُلبَ الإرادة، شجاعًا فيما يراه حقًّا، صبورًا، متواضعًا، حَمولًا للأذى، بكَّاء، زاهدًا فيما عند النَّاس، مُتقِنًا لحفظ القرآن الكريم، يَجمعه في صدره، ويعلَمه ويُعلِّمه؛ تفسيرًا، وأحكامًا، وقصصًا، ومحكمًا، ومتشابهًا.

كان دائمًا وكأنَّه على موعد مع الموتِ، يَتوقَّعه ويَنتظره في كلِّ حركاته ونشاطاته.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الملتقى الخامس للرابطة العالمية لخريجي الأزهر «الإمام أبو الحسن الأشعري.. إمام أهل السنة والجماعة» المنعقد بفندق: «JW Marriott» بالقاهرة، في: ٢٤ من جمادى الأولى ١٤٣١هـ، الموافق: ٨ من مايو سنة ٢٠١٠م.

لقيَ ربَّه غريبًا، نائيًا عن الأهل والوطن، مُتخفِّفًا من الأحمال، حتى من حقيبةِ يده التي تركَها في مكتبه، ورحل إلى مدينة الرِّياض، وكأنَّه كان يَحدِس بدنوِّ الأجلِ، فلم يُبق من ضرورات الدُّنيا إلَّا ما يَستر به جسدَه.

وقد لقي ربَّه هناك، وحُمل إلى المدينة المنوَّرة؛ حيث صُلِّيَ عليه في المسجد النَّبوي الشريف، ودُفن إلى جوار النَّبى ﷺ في البقيع، مع الصَّحابة والتَّابعين وصالحي المؤمنين.

رحمَ اللَّه الشَّيخ الجليل، وأجزل له الأجر والمثوبة؛ إنَّه واسعُ المغفرة، وهو أرحم الرَّاحمين.

وأُرحِّب بحضراتكم جميعًا؛ أيُّها الحفلُ الكريم من خارج مصر وداخلها، وأشكرُكم على إجابتكم دعوةَ الرَّابطة العالمية لخرِّيجي الأزهر الشَّريف، لشهود هذا المؤتمَر الذي يَنعقد في منعطفٍ عاصف من تاريخ أمَّتنا الإسلامية، اختَلطت فيه الأوراق واضطربت، حتى أصبح هذا الدِّينُ البسيط الواضح، الذي كان مصدرَ وَحدةٍ وقوَّةٍ للمسلمين جميعًا،أصبح مصدرَ فُرقة وتنازع وهوان للأمَّة الإسلاميَّة على النَّاس جميعًا.

قد يَسألني البعض من السَّادة غير المتخصِّصين في علوم العقيدة أو علم الكلام، عن جدوَى مؤتمرٍ يَتَّخذ من الإمام أبي الحسن الأشعري موضوعًا له، ويُنفَق فيه الكثير من الجهد والوقت والمال، رغم أنَّ هذا الإمام قد توفِّي سنة: **٣٣٠**هـ تقريبًا، أي: منذ مئة وألف عام مَضت من عمر التَّاريخ؟ ثمَّ ما الفائدةُ التي يَجنيها المسلمون في محنتِهم هذه من مؤتمرٍ كهذا، وهل يَرجون منه ما ترجو أمَّةٌ تمزَّق شملها، وانتقض غزلها أنكاثًا، ولاذَت بركنٍ قصيٍّ معزول عن رهانات عصرها وتحدِّياته، بعد أن كانت ملءَ سمع الدُّنيا وبصرها، وبعد أن كان العالَم كلُّه يَحسب لها ألفَ حسابٍ؟!

إنَّ الإجابة على مثل هذه الأسئلة المشروعة تُختصر اختصارًا في رسالة الأزهر الشَّريف، ورسالة العلماء الأفاضل المشاركين في هذا المؤتمر، ورؤيتهم في تحديد العلَّة أوَّلًا قبل البَدء في اختيار الحلول.

يُذكِّرنا واقعُ الأمَّة الآن بواقعها أيَّام الإمام أبى الحسن الأشعريِّ، وحاجتها إلى منهج، كمنهجه الذي أنقذَ به ثقافة المسلمين وحضارتَها قديمًا، مما كان يَتربَّص بها من مذاهب مغلقة، تُدير ظهرها للعقل وضوابطِه، وأخرى تَتعبَّد بالعقل وتُحكِّمه في كلِّ شاردة وواردة، حتى فيما يَتجاوز حدوده وأدواته، وثالثة تُحكِّم الهوى والسِّياسة والمنفعة، وتَخرج من كلِّ ذلك بعقائد مشوَّهة تُحاكم بها النَّاس وتقاتلُهم عليها.

في مثلِ هذا الجوِّ المضطرب، آنذاك، ولدَ الإمام علي بنُ إسماعيل الأشعريُّ، في البصرة، سنة: **٢٦٠**هـ، وتُوفِّي في بغداد، سنة: **٣٣٠**هـ تقريبًا، **٩٣٥**م، وعاش سبعين عامًا بين فِرَق ومذاهبَ وتيَّارات مُتصارعة ومتنافرة أشدَّ التَّنافر.

إلَّا أنَّ مذهبين كان لهما دورٌ حاسم في ظهور مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، كإمامٍ لوسطيَّة أهل السُّنَّة والجماعة في تلكم الفترة الحَرِجة، هذان المذهبان هما: مذهبُ المعتزلة، ومذهب الحنابلة، الذي وقفَ منه موقف النَّقيض.

واسمحوا لي أيُّها السَّادة العلماء أن أطرحَ في كلمة موجزة تذكيرًا تاريخيًّا بهذين المذهبين، وأنا أعلم أنِّي إذ أفعل ذلك أُكرِّر على مسامعكم ما تعرفون، وتحفظون، وتعدونه من أوائل ما درستموه في علم الكلام والفِرَق والمذاهب، إلَّا أنَّ هذا التَّوضيح ربَّما يَخفى على كثيرين ممَّن يَحضرون هذا المؤتمر من غير المتخصِّصين.

- **أمَّا المعتزلة**؛ فقد كانوا يُعوِّلون في مذهبهم على العقل وأحكامه، غيرَ أنَّ إفراطَهم في التمسُّك بالمنهج العقلي الصَّارم انتهى بهم -من حيثُ يُريدون أو لا يُريدون- إلى القول بمقالات جارحة لمشاعرِ كثيرٍ من أهل الورع والتَّقوى من علماء المسلمين..

من هذه المقالات: قولُهم بالوجوب على اللَّه تعالى؛ حيثُ قالوا: يَجب على اللَّه تعالى أن يُثيب الطَّائعين يوم القيامة، كما يَجب عليه أن يُعذِّب العاصين، **ولازِمُ ذلك** إنكارُ الشَّفاعة؛ لأنَّها تَصدِم عقلًا مبدأَ وجوب الثَّواب والعقاب.

ومنها: موقفُهم من مرتكب الكبيرةِ من المسلمين؛ حيثُ قالوا: إنَّه ليس بمسلمٍ لانهدام ركن العمل، وليس بكافر لنطقه بالشَّهادتين، وإنما هو في منزلةٍ بين المنزلتين.

غيرَ أنَّ المقولة التي عانى منها المجتمعُ معاناة بالغة، وعُذِّب كثيرون من أجلها عذابًا أليمًا؛ بالضَّرب أو السَّجن؛ **هي قولهم**: إن القرآن مخلوق، شأنُه في ذلك شأنُ باقي المخلوقات، ثمَّ إنكارهم أن يَتَّصف اللَّه بصفة الكلام قبل أن يَخلق الإنسان المخاطَب بهذا الكلام المحدَث، ومع هذه المقالة تبقى الآياتُ القرآنية في هذه القضيَّة وكأنَّها معطَّلة المعنى.

وكان يُمكن لهذه المقالات أن تبقى وقفًا على الدَّرس والعلم والبحث، وأن يظلَّ الجدلُ حولها حَبيس قاعات العلم، لولا أنَّ الدَّولة في ذلكم الوقت تبنَّت مذهب الاعتزال، وفرَضته على النَّاس فرضًا، وهذه هي المشكلةُ القديمة المتجدِّدة، وأعني بها: أن تتبنَّى الدَّولة وسلطاتها أحدَ المذاهب الخِلافيَّة، وتعملَ على نشره، وإقصاء ما سواه من المذاهب الإسلاميَّة المشروعة، التي تتَّسع لها نصوصُ القرآن الكريم والسُّنة الصَّحيحة.

ويُحدِّثُنا التَّاريخ القديمُ -والحديثُ أيضًا- أنَّ الأمَّة هي التي كانت دائمًا تدفعُ الثَّمن غاليًا لهذا التَّرف العقلي لنخبةٍ من العلماء والدُّعاة يَعيشون في القصور، وفي الغُرفات المُريحة، ويحتمون بأصحاب الجاه والمال والسُّلطان.

وهذا ما حدَث في هذه الفترة من فترات الدَّولة العبَّاسية؛ حين تبنَّى الخليفة المأمون هذا المذهبَ، وقرَّب إليه علماء الاعتزال، وبدأ في حمل النَّاس على القول بأنَّ القرآن مخلوقٌ، وكتب للوُلاة رسائل يأمرهم فيها بألَّا يُعيِّنوا القضاةَ ولا يَقبلوا الشُّهود إذا كانوا لا يؤمنون بهذه المقولة، وأن يُرسلوا إلى بغداد العلماء والمحدِّثين الذين يَرفضون مذهبَ الاعتزال لحَملِهم على هذا المذهب، أو تعذيبِهم وسَجنهم، وكثيرٌ من العلماء الذين صمدوا قُتلوا أو ماتوا في سجون المأمون والمعتصم.

وقد استُدعيَ الإمام أحمدُ بنُ حنبل -رضى اللَّه عنه- وضُرب بالسِّياط حتى سال منه الدَّم؛ لأنَّه لم يَقُل بأنَّ القرآن مخلوق، ومن حُسن الحظِّ أنَّ المعتصم لم يَقتله فيمن قتلَهم من المُمتنعين عن القول بخَلْق القرآن، وكان ذلك سنة: **٢٢٠**هـ.

وقد استمرَّت هذه الفتنةُ أو المِحنة، حتى جاء المتوكِّل، فقلب للمعتزلة ظهر المِجنِّ، وأصدر أوامره بمطارَدة مذهبهم، ومعاقبة من يَرى رأيهم، بل صدرت الأوامرُ لوالي مصر أن يُمثِّل بقاضي قضاتها الذي سبق له أن عَذَّب الرَّافضين لمذهب المعتزلة أيَّام المعتصم والواثق، وأمرَ بضربِه وعَزْله بعد ذلك.

- وكان من المنطقيِّ أن يَتصدَّر السَّاحةَ بعدئذ المذهبُ المُقابل لمذهب المعتزلة؛ **وهو المذهبُ الحنبلي**، الذي يُقرِّر أنَّ القرآن قديم في معانيه وألفاظه وحروفه.

وكما تسلَّط المعتزلةُ على النَّاس، تسلَّط الحنابلة عليهم بقضايا لا ناقةَ للناس فيها ولا جمل.

وقد أدَّى هذا المنهجَ المتشدِّد، والذي لا يُعوِّل كثيرًا على قواطع العقل، أدَّى بهذا الاتِّجاه إلى الغُلوِّ والتَّجسيم إلى الدَّرجة التي يَنفر منها شعورُ المؤمن المنزِّه للَّه تعالى.

* * *

في هذا الجوِّ المضطرب والمُتناقض فكريًّا وعقديًّا، والذي مثَّل كلٌّ من المعتزِلة والحنابلة الغُلاة طرَفي النَّقيض فيه -وُلِد الأشعريُّ الَّذي درسَ الاعتزال، وأصبح أحدَ الأعمدة الكبرى في مدرسة المعتزلة، ثم ألمَّت به أزمةٌ فكرية حادَّة من تلك التي تُصيب النُّخبة العليا من أهل النَّظر والاجتهاد حين يَتبدَّى لهم وجهُ الحقِّ والصواب، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ اضطراب الفِرَق الإسلاميَّة من حول الأشعري، وتطاحنها، ونزولَها بهذه المعارك إلى العامَّة، هو ما دفعَ به إلى هذه العُزلة بحثًا عن الإسلام، الذي جمع به النَّبي ﷺ بين أشدِّ القبائل والبُطون والعشائر تَنافرًا واقتتالًا، وما لبثَ الأشعري أن أعلَن على النَّاس رجوعَه عن مذهب الاعتزال، وعزمَه على تأسيس مذهب أهل الحقِّ الذي نُسب إليه لاحقًا.

هذا، ولم يكن الأشعري أستاذًا في علوم العقيدة فقط، بل كان مؤرِّخًا من الطِّراز الأوَّل للعقائد ولمقالات الإسلاميين(١)، وقد مكَّنه هذا التَّخصص من أن يَضع يدَه على مواطن الضَّعف والقوَّة في كلِّ فرقة من الفرق التي ضمَّنها مؤلَّفَه الجامع المُسمَّى: «**مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**».

(١) «أبو الحسن الأشعري» لحمودة غرابة: ٦٩، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة: ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

ولعلَّكم تَلمحون معي من عنوان هذا المرجع الكبير نزعةَ التَّصالح والسَّماحة، وكراهةَ الشِّقاق حول أمورٍ تسَع الجميع، فهذه المقالاتُ مقالاتٌ إسلاميَّة، وهذه الاختلافاتُ اختلافاتُ مؤمنين يُصلُّون إلى قبلةٍ واحدة.

ونزعةُ التَّصالح هذه هي الخصِّيصة الكبرى التي اتَّسَم بها مذهبُ الإمام الأشعري الذي لا يُكفِّر أحدًا من المسلمين، يَشهدُ لذلك نقدُه العِلميُّ اللَّاذع لمذهب المعتزلة والحنابلة دون أن يُكفِّر أحدًا منهم، وقد اكتفى بنقده للحنابلة ببيان خضوعِهم لأحكام الوَهم وتمرُّدهم على أحكام العقل، ومن هنا؛ ثَقل عليهم النَّظر -على حدِّ تعبيره-.

وقد بيَّن الإمامُ في صراحة أنَّ كلًّا من المذهبين السَّابقين لا يُعبِّر عن الإسلام تعبيرًا كاملًا، وأنَّ أيًّا منهما لم يَلق قبولًا عند جماهير المسلمين.

وذلك على عكس المذهب الذي استخلصَه الإمامُ الأشعري ومعاصره إمام الهدى أبو منصور الماتريدي (ت. ٣٣٣هـ) في بلاد ما وراء النَّهر، وشكَّلا معًا جناحي أهل السُّنَّة والجماعة.

ولا يُمكِن بطبيعة الحال أن نذكر ولو على سبيل الإجمال تفاصيلَ المذهب الأشعريِّ، ولا نقاط الضَّعف التي كشفَها في مقولات المعتزلة والحنابلة، وما الخصائصُ التي تَميَّز بها مذهبُ أهل السُّنة والجماعة وأهَّلَته لأن يَسود الأمَّة الإسلاميَّة شرقًا وغربًا إلى يوم النَّاس هذا، فهذا ما سيتكفَّل ببنائه ملتقانا عبرَ أبحاث علميَّة معمَّقة ننتظرُها ونتطلَّع إليها.

غير أنَّه إذا كان للأزهر من آمال يَرجوها للمسلمين عبر هذا المؤتمر التَّاريخي؛ فإنَّها تتمثَّل في أمورٍ:

أوَّلًا: نشرُ التُّراث الوَسطي وإذاعتُه بين النَّاس؛ لتقف به الأمَّة في وجه

نزعات التَّكفير والتَّفسيق والتَّبديع في خلافيَّات تَسَع النَّاس جميعًا، وذلك حتى نتمكَّن من وَقف هذه التَّداعيات التي تُوشك أن تقضي على وَحدة الأمَّة وقوَّتها.

والمذهبُ الأشعري هو الأجدَر بهذا الدَّور؛ لأنَّه المذهبُ الذي يَروي ابنُ عساكر عن إمامه الأشعري أنَّه «حين قربَ حضورُ أجله في بغداد، قال لأحد تلامذتِه: اشهد عليَّ أنِّي لا أُكفِّرُ أحدًا من أهل هذه القبلة؛ لأنَّ الكلَّ يُشيرون إلى معبودٍ واحد، وإنَّما هذا كلُّه اختلاف العبارات»(١).

ثانيًا: احترامُ التَّوازن في الجمع بين العقل والنَّقل، وإنهاء الخصومة المصطَنعة بينهما، والتي تُسيطر الآن على بعض الأفهام.

وهذا ما نجدُه بوضوح في تراث الإمام الأشعريِّ، وبخاصَّة في رسالته المعروفة بالحَثِّ على البحث، في عنوان آخر «**استحسان الخوض في علم الكلام**».

ولعلَّ هذا -أيُّها السَّادة العُلماء- هو السِّرُّ في احتضان الأزهر هذا المذهب منذ القِدَم، وتعويلِه عليه في مختلَف العلوم الإسلامية؛ في العقائد، والتَّفسير، والحديث، وأصول الفقه، وعلوم اللغة، وطبعِه بطابع الوسطية والاعتدال، وتمكُّن هذا المعهد العريق من قيادة الأمَّة في طريق وسَط، بعيد عن التَّطرُّف، وعن التَّميُّع معًا.

الأمرُ الثَّالث: إصلاحُ هرم الأولويات المقلوب رأسًا على عقب، وإعادتُه إلى وضعِه الصَّحيح؛ وذلك بالتَّركيز على جوهر الدِّين، وعلى المتَّفق عليه بين المسلمين، ثمَّ على المشترَك بين المسلمين وغير المسلمين من المؤمنين بالأديان الأخرى، وأن نحتكم في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ

(١) «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر: ١٤٩، ط دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٠٤هـ.

ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

إنَّ الأزهر -أيُّها السَّادة العلماء- بما له من تاريخ عريق في الحفاظ على الإسلام والدفاع عنه؛ يُعلن للنَّاس جميعًا أنَّ من أهمِّ الدُّروس التي يُمكن استخلاصُها من السِّياق العام لفكر الإمام الأشعري ضرورةَ العمل على نشر الأمن والسَّلام بين النَّاس جميعًا، ونَبْذ جميع صور العُنف التي تروع الأبرياء والآمنين، ورفض ما يَرتكبُه بعضُ المنتَسبين إلى الإسلام من جرائم التَّفجير والتَّدمير والتَّرويع، وقَتْل النُّفوس البريئة العاملة.

وفي الوقت نفسِه يُطالب الأزهرُ دولَ أوروبا وأمريكا أن تَحثَّ صُنَّاعَ القرار هناك على ضرورةِ توخِّي العدل في سياساتهم، وأن يتوقَّفوا عن سياسة الكَيل بمكيالين في قضايا الأمَّة العربيَّة والإسلامية، وأن يَتحلَّوا بالجِدِّيَّة والمسؤوليَّة والإنصاف وهم يَتعاملون مع قضية القضايا في تاريخنا المعاصر؛ وأعني بها: قضيَّة شعب فلسطين المشرَّد والمعذَّب والمظلوم.. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

شكرًا جزيلًا أيُّها السَّادة على حُسن استماعكم، وعذرًا للإطالة، وأتمنَّى لكم مؤتمرًا موفَّقًا، وإقامة طيِّبة، ونسألُه تعالى أن يوفِّقنا جميعًا لِمَا فيه خيرُ أمَّتنا وأوطاننا وخير العالَم أجمع.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

شكرًا لحُسن استماعكم

والسَّلام عليكم ورحة اللَّه وبركاته

خطورةُ التكفيرِ(*)

الحمدُ للَّهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ، وعلى آلِه وصحبِه ومَن اهتدَى بهداه.

لا ريب أن مِن أخطرِ قضايا أُمَّتِنا العربيَّةِ والإسلاميَّةِ في عصرِنا الحاضرِ قضيَّةَ فَوْضَى تكفيرِ المسلمين، وفَوْضَى الفتوى بحِلِّ قتلِهم وقتالِهم. وهي مِحنةٌ كُبرى تُعاني منها مُجتَمَعاتُنا اليومَ معاناةً شديدةً، وكُنَّا نظنُّ أنَّ هؤلاء المكفِّرينَ قد استعادوا وَعيَهم وفَهْمَ دينِهم فهمًا صحيحًا، وتخلَّصوا من هذه الآفةِ ومن توابعِها المُدمِّرةِ منذُ تسعينياتِ القرنِ الماضي في مصرَ وغيرِها من البلدانِ والأقطارِ، غيرَ أنَّنا فُوجِئنا بهذه الآفةِ تطلُّ أخيرًا على بلادِنا بوجهِها القبيحِ، وتقضُّ مَضاجعَ شُعوبٍ عربيَّةٍ وإسلاميةٍ بأكملِها في آسيا وأفريقيا على السَّواءِ؛ تَقتُلُ وتُدمِّرُ وتُفجِّرُ وتَغتالُ الآمِنينَ الغافلينَ البُرآءَ، وتُحوِّلُ حياةَ الناسِ إلى جحيمٍ لا يُطاقُ.

ومن المُؤلِم غايةَ الألمِ أنْ تُرتَكَبَ هذه الجرائمُ باسمِ الإسلامِ وباسمِ شريعتِه السَّمحاءِ، وتُنفَّذَ عملياتُها المدمِّرةُ مع صَيْحاتِ التَّهليلِ والتَّكبيرِ ودَعوى الجِهادِ والاستِشهادِ في سبيلِ اللَّهِ، الأمرُ الذي استَغلَّه الإعلامُ

(*) أصل البحث كلمةٌ افتتاحية في المؤتمر العالمي الثالث والعشرين لوزارة الأوقاف المصرية بعنوان: «خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم - على المصالح الوطنية والعلاقات الدولية» المنعقد بالقاهرة في: ٢٤ من شهر جمادى الأولى: ١٤٢٥هـ/ ٢٥ مارس: ٢٠١٤م، ثم نشر في كتاب «الأزهر في مواجهة الفكر الإرهابي» الصفحات: (٧١ - ٧٨) من أعمال مؤتمر الأزهر العالمي لمواجهة التَّطرُّف والإرهاب، المنعقد بقاعة مؤتمرات الأزهر، القاهرة في: ١١-١٢ صفر ١٤٣٦هـ/ ٣-٤ ديسمبر ٢٠١٤م.

الغربيُّ أسوأَ استغلالٍ في تشويهِ صُورةِ الإسلامِ، وتقديمِه للعالَم بحسبانِه دِينًا هَمَجيًّا مُتعطِّشًا لسَفكِ الدِّماءِ وقتلِ الأبرياءِ، يبعثُ على العُنفِ ويحضُّ على الكراهيةِ والأحقادِ بين صُفوفِ أبنائِه وأتباعِه.

وظاهرةُ تكفيرِ المُخالِفين هذه -وما يَترتَّبُ عليها من استباحةِ الدِّماءِ- ليست بالجديدةِ على المُجتَمعاتِ الإسلاميَّةِ، وفِقهُها ليس فقهًا جديدًا على المسلمين، فكلُّنا درَسَنا تاريخَ فِرقةِ الخَوارجِ، وظُهورَها المُبكِّرَ في صَدرِ الدولةِ الإسلاميَّةِ، وكيف أنَّها انحرَفَت إلى هذه الكارثةِ نتيجةَ انحرافٍ سابقٍ في تَصوُّرِها العَقديِّ والفِقهيِّ، وأعني هنا فهمَها الخاطِئَ للعلاقةِ بين مفهومِ (الإيمانِ) باللَّهِ تعالى كأصلٍ، و(الأعمالِ) كفرعٍ، وكيف ضَلَّت حين تشبَّثَت ببعضِ ظواهرِ النصوصِ، وأدارَت ظَهرَها لظواهرَ أخرى تدعو إلى النقيضِ مما فهِموه وتشبَّثُوا به من بعضِ النُّصوصِ القرآنيةِ.

ونحنُ لا نستطيعُ ـ بطبيعةِ الحالِ ـ أنْ نَعرِضَ في كلمةٍ كهذه تفاصيلَ هذا الموضوعِ نشأةً وأسبابًا، وتطوُّرًا وعقيدةً، وفقهًا ومضمونًا، ولكن قد يكونُ من المناسبِ الحديثُ في إيجازٍ عن عودةِ قضيةِ «التكفيرِ»، والبحثُ عن السببِ الأعمقِ الذي مَكَّنَ من عودتِها واستئنافِها لنشاطِها المدمِّرِ.

وإنَّا لنعلَمُ من تاريخِ قضيةِ «التكفيرِ» أنَّ مُجتمعاتِنا في مصرَ وفي العالَمِ العربيِّ والإسلاميِّ لم تكُنْ تَعرِفُ ظُهورَ جماعةٍ تُؤمِنُ باستحلالِ تكفيرِ المجتمعِ وجاهليَّتِه، وتقولُ بوجوبِ المفاصلةِ الشعوريةِ مع أفرادِه -قبلَ عامِ ٦٧ من القرنِ الماضي- وأنَّ جماعةَ التكفيرِ الحديثةَ وُلِدَت في السجونِ والمُعتَقلاتِ لأسبابٍ؛ منها سياسةِ العُنفِ والتنكيلِ التي عُومِلَ بها الشبابُ المنتمي إلى الحَركاتِ الإسلاميَّةِ، وأنَّه حينَ طُلِبَ منهم -في ذلكم الوقتِ- إعلانُ تأييدِ الحاكِم، سارَعَ معظمُهم إلى كتابةِ ورقةِ تأييدٍ، بينما رفَضَت قلَّةٌ منهم هذا العرضَ، وعَدُّوا موقفَ زُمَلائِهم هذا تَخاذُلًا في الدِّينِ، وتَمسَّكوا برفضِهم هذا الإعلانَ، وثبَتُوا في موقفِهم، وما لَبِثُوا أنِ انعزَلُوا في صَلاتِهم

عن إخوانِهم، وأَعلَنُوا كفرَ هؤلاء لأنَّهم أيَّدوا حاكِمًا كافِرًا، كما أعلَنوا أنَّ المجتمعَ بكلِّ أفرادِه كافرٌ بسببِ مُوالاتِه لحاكِم كافِرٍ، ولا فائدةَ من صَلاةِ أفرادِ هذا المُجتمعِ ولا صِيامِهم، ونادَوْا بأنَّ الخُروجَ من الكفرِ إنَّما يكونُ بالانضِمامِ إلى جَماعتِهم ومُبايَعةِ إمامِهم[(١)].

هذه الحادثةُ ربَّما تُمثِّلُ أوَّلَ ظُهورٍ لجماعةِ التكفيرِ في سنة ١٩٦٧م بعدَ اندِثارِ فرقةِ الخوارجِ والفِرَقِ الباطنيَّةِ الأخرى التي أصبحَت في ذِمَّةِ التاريخ، وهكذا عادَت ظاهرةُ التكفيرِ الجديدةُ على أيدِي شبابٍ لم يكنْ يملكُ من المؤهّلاتِ العلميةِ والثقافيةِ لمعرفةِ الإسلامِ إلَّا الحَماسَ ورُدودَ الأفعالِ الطائشةَ الحادَّةَ، وانتقامَ العاجزِ المُستَضعَفِ مِن معاملةِ المُستَبِدِّ، فكان التكفيرُ هو الصِّيغةَ المُثلَى والأسرعَ للتَّعبيرِ عن الأزمةِ المعقدةِ.

ومن هنا لم تكنْ أحكامُهم أو تصوُّراتُهم نابعةً من فقهٍ سديدٍ أو فكرٍ رشيدٍ، وإنَّما جاءَت انعكاسًا لواقعٍ خاصٍّ حافلٍ بالضُّغوطِ؛ مما جعَلَ بعضَ المُدافِعينَ عن هذه الحَركةِ يُصوِّرُ التكفيرَ في برنامجِهم الحركيِّ على أنَّه في الحقيقةِ «فكرُ أزمةٍ» وليس منهجًا في الحركةِ الإسلاميَّةِ رغم جُنوحِ البعضِ إليه[(٢)].

هذا، ويذهبُ آخَرون إلى أنَّ نشأةَ التكفيرِ في العصرِ الحديثِ لم تكُنْ على أيدِي هؤلاءِ الشبابِ الذين أعلَنُوا تكفيرَ الحاكمِ والمُجتَمعِ في سُجونِهم في أواسطِ الستينياتِ من القرنِ الماضي، وإنَّما نشَأَ التكفيرُ عامَ ١٩٦٨م في السجونِ أيضًا على أيدي جماعةٍ أُخرى سَمَّت نَفْسَها جماعةَ المسلمينَ، ثم عُرِفَت فيما بعدُ باسمِ: «جماعةِ التكفيرِ والهجرةِ»، وتأثَّرَت بها جماعاتٌ إسلاميَّةٌ أُخرى بعد ذلك.

(١) ينظر: «الحكم وقضية التكفير»: ٢٤-٢٥، دار الأنصار، القاهرة: ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
(٢) «سيد قطب والتكفير.. أزمة أفكار أم مشكلة قراء»: ٤٤، مدبولي، القاهرة: ٢٠٠٩م.

وأيًّا كان سببُ نشأةِ التكفيريين؛ فإنَّ الذي لا شَكَّ فيه هو أنَّ السجونَ وما دارَ فيها من انتهاكاتٍ في ذلك الوقتِ قد دفَعَت بعضَ هؤلاء الشبابِ إلى التشبثِ باعتقاداتٍ فاسدةٍ وتصوُّراتٍ شاذَّةٍ، والذي يُراجِعُ المؤلفاتِ التي كُتِبَت في مثلِ هذه الأجواءِ قديمًا وحديثًا، يعثرُ فيها على كثيرٍ من الآراءِ والأفكارِ التي لو قُدِّرَ لها أن تُكتَبَ في جوٍّ آخرَ لتَغيَّرَت شكلًا ومضمونًا.

غيرَ أنَّ السجونَ ليست هي السببَ الأوحدَ في عودةِ التكفيرِ في عَصرِنا هذا، فثمَّةَ إلى جوارِها -فيما أحسبُ- سببٌ آخَرُ أعمَقُ في التشجيعِ على التكفيرِ والإغراءِ به واستسهالِ الخَطْبِ في شأنِه، وهو هذا التُّراثُ الطويلُ المُتراكِمُ الذي يُمكِنُ أن نُطلِقَ عليه تراثَ الغلوِّ والتشدُّدِ في الفكرِ الإسلاميِّ، هذا التراثُ الذي يُعبِّرُ -منذُ نشأتِه- عن انحرافٍ واضحٍ عن عَقائدِ الأُمَّةِ وجماهيرِها؛ وهو في كلِّ الأحوالِ تراثٌ ينتسِبُ بصورةٍ أو بأُخرى إلى تراثِ الخوارجِ الذين حَذَّرَ منهم النبيُّ ﷺ[(١)]، ورفضَتْهم جماهيرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّة قديمًا وحديثًا.

وفي اعتقادي أن مِحورَ الخِلافِ بينَ عقيدةِ التكفيريينَ وعقيدةِ سائرِ أئمَّةِ المسلمين يَكمُنُ فيما يُسمَّى في مبحثِ الإيمانِ والإسلامِ عند عُلَماءِ العقيدةِ بـ «علاقةِ العمَلِ بجوهرِ الإيمانِ وحقيقتِه».

واسمَحُوا لي -أيُّها القرَّاء الكرام- أن أُكرِّرَ عليكم كلامًا إنْ يكنْ ليس بالجديدِ عليكُم، فإنَّه كثيرًا ما يغيبُ عن طائفةٍ من الدارسينَ والراصدينَ والمُحلِّلينَ لهذه القضيَّةِ، ثمَّ هو ما يقتَضِيه المقامُ الآنَ:

من المعلومِ -أيُّها الإخوةُ- أنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في حقيقةِ الإيمانِ هو التصديقُ القلبيُّ باللَّهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخِرِ، إلى

---

(١) من ذلك قوله ﷺ فيهم، في حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: «... يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ...». «صحيح البخاري» (٣٣٤٤) و«صحيح مسلم» (١٠٦٤).

آخِرِ ما ورَدَ من الأحاديثِ الصحيحةِ التي تفسِّرُ مفهومَ الإيمانِ بالاعتقادِ القلبيِّ الجازم، ولا تفسِّرُه بالأعمالِ سواء كانت الأعمالُ مما يتعلَّقُ بفِعلِ الطَّاعاتِ أو تركِ المنكراتِ، وقد عرَّفَ النبيُّ ﷺ الإيمانَ فيما رواه البخاريُّ في «صحيحِه»[1] من حديثِ أبي هريرةَ ﷺ بقولِه: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ومَلَائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، وبِلِقَائِهِ، ورُسُلِهِ، وتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ».

أمَّا الأعمالُ من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وزكاةٍ، ومن فِعلِ الواجباتِ وتركِ المُحرَّماتِ؛ فإنَّها بمقتضَى التعريفِ النبويِّ لا تدخُلُ في حقيقةِ الإيمانِ، أي: ليست جزءًا مقوِّمًا لماهيَّتِه بل هي شرطُ كمالٍ؛ ولها شأنٌ خطيرٌ في زيادةِ الإيمانِ ونَقصِه، فهي تصعَدُ بالإيمانِ إلى أعلى درجاتِه، كما تَهبِطُ به أيضًا إلى أدنى درجاتِه، ومقتضى ذلك أنَّ زوالَ الأعمالِ -كليًّا- لا يُزِيلُ الإيمانَ من أصلِه، بل يبقَى المؤمنُ مؤمنًا حتى وإنْ قصَّرَ في الطاعاتِ، أو اقتَرَفَ المعاصيَ والسيِّئاتِ، ولا يَصِحُّ أنْ يُطلَقَ عليه لفظُ الكفرِ بحالٍ من الأحوالِ، ما دامَ مُحتَفِظًا بالاعتقادِ القلبيِّ الذي هو حقيقةُ الإيمانِ ومَعناه.

هذه النُّقطةُ تحديدًا هي فيصلُ ما بينَ عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ من الأشاعرةِ والماتُريديةِ وأهلِ الحديثِ، وبينَ غيرِهم ممَّن يَجعَلُون الأعمالَ داخلةً في حقيقةِ الإيمانِ، ويُقرِّرون أنَّ مَن ارتكَبَ كبيرةً فقد زالَ إيمانُه، وأصبحَ كافرًا خارجًا عن المِلَّةِ؛ وهنا يُفتحُ البابُ على مصراعيهِ لسفكِ الدِّماءِ وسلبِ الأموالِ.

وهذه النُّقطةُ أيضًا هي فيصلُ التفرقةِ بينَ عقيدةِ الجمهورِ، وبينَ فِرقةِ المُعتزلةِ الذين يقولون: إنَّ مرتكِبَ الكبيرةِ ليس مُؤمِنًا وليس كافِرًا، وإنَّما هو في مَنزِلةٍ بينَ المَنزِلتَيْنِ، ويُسَمُّونَه «الفاسِقَ»، في كلامٍ طويلٍ رفَضَه عُلَماءُ أهلِ السُّنَّةِ.

والذي يَهُمُّني بيانُه الآنَ هو أنَّ بعضًا من أصحابِ المذاهبِ الآنَ تكوَّنَ لديه تراثٌ يتشدَّدُ في مفهومِ الإيمانِ، ويَستَمِيتُ من خِلالِ التَّدريسِ والكِتاباتِ

---

(١) (ح٥٠).

والمُؤلَّفاتِ والقنواتِ الفضائيةِ في أنْ يَغرِسَ في عُقولِ الشَّبابِ أنَّ المذهبَ الصحيحَ هو المذهبُ الذي يَجعَلُ الإيمانَ مزيجًا من الاعتقادِ والعملِ، وأنَّ الاعتقادَ أو التصديقَ القلبيَّ وحدَه لا يكفي في تحقُّقِ معنَى الإيمانِ.

وليتَ أصحابَ هذه المَذاهبِ المتشدِّدةِ تَوقَّفوا عند طَرْحِ مذهبِهم بحسبانِه رأيًا من الآراءِ، أو مذهبًا من المَذاهِبِ؛ إذَن لهانَ الخَطْبُ وسَهُلَ الأمرُ؛ ولكنَّهم راحوا يُروِّجون لمذهبِهم هذا بأنَّه الحقُّ الذي لا حَقَّ سِواه، وأنَّ المذهبَ الأشعريَّ مذهبٌ ضالٌّ ومُنحرِفٌ ولا يُعبِّرُ عن حقيقةِ الإسلامِ في هذا الموضوعِ، يقولون هذا برغمِ أنَّ أكثرَ من ٩٠٪ من جَماهيرِ المسلمين شرقًا وغربًا أشاعرةٌ يُؤمِنون بأنَّ الإيمانَ هو التصديقُ القلبيُّ، وأنَّ الأعمالَ تَزيدُ وتَنقُصُ من الإيمانِ، ولكنَّها لا تُزيلُه ولا تَنقُضُه من أصلِه.

ونحنُ إذ ندعو الآنَ، وفي كلمتي هذه، إلى عودةِ الوعيِ بمذهبِ الأشاعرةِ والماتريديةِ وأهلِ الحديثِ في هذه القضيَّةِ، فإنَّنا ندعو إلى مذهبٍ درَجَت عليه جماهيرُ الأُمَّةِ الإسلاميةِ على امتدادِ تاريخِها الطويلِ، وهو المذهبُ الذي يُضيِّقُ دائرةَ التكفيرِ، بحيث لا يقعُ فيها إلَّا مَن يجترِئُ على الكفرِ الحقيقيِّ؛ وذلك بجَحدِ ركنٍ من أركانِ الإيمانِ أو جَحدِ ما عُلِمَ من الدِّينِ بالضرورةِ.

هذا المذهبُ الذي تُقرِّرُ قاعدتُه الذهبيةُ: أنَّه «لا يُخرِجُك من الإيمانِ إلَّا جَحدُ ما أدخَلَك فيه» - مذهبٌ تُعضِّدُه آياتُ القُرآنِ الكريمِ، وتَشهَدُ له بانفكاكِ حقيقةِ الإيمانِ عن حقيقةِ العملِ، فقد عطَفَ القرآنُ الكريمُ «العملَ» على «الإيمانِ» عطفَ مُغايرةٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] في مواضعَ عدَّةٍ.

كما أثبتَ في آياتٍ كثيرةٍ بقاءَ الإيمانِ في قلبِ المسلم مع اقترافِه المعاصيَ والذُّنوبَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩]، ومَعلومٌ أنَّ القتلَ من أكبرِ الكبائرِ، ومع ذلك سَمَّى اللَّهُ القاتلينَ من الجانبَيْنِ مُؤمنِين.

وأيضًا: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: ٥-٦]، فقد وصَفَ اللَّهُ أصحابَ النبيِّ ﷺ بصفاتٍ هي من الكبائرِ، وهي كراهيةُ الجهادِ معه ﷺ ومُجادلتُهم إيَّاه، رغم تَبيُّنِ الحقِّ في أذهانِهم، ومع ذلك سمَّاهم القُرآنُ (فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

ومن هذه الشَّواهِدِ القُرآنيَّةِ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣]، ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: ٣٨]، إلى شَواهدَ أُخرى كثيرةٍ تُخاطِبُ مُرتكِبي المعاصي والذنوبِ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وتَصِفُهم بالإيمانِ؛ ممَّا يقطَعُ بيقينٍ أنَّ مرتكِبَ الكبيرةِ مؤمنٌ ولا يَجوزُ تكفيرُه، اللَّهمَّ إلَّا إذا ارتكَبَ كبيرةَ الشِّركِ وأنكَرَ ما عُلِمَ من الدِّينِ بالضرورةِ، فهذا هو الكافرُ؛ لجحودِه وإنكارِه.

هذا المذهبُ الأشعريُّ - وهو مذهبُ الجمهورِ- هو الذي يُعبِّرُ عن رَجاءِ الناسِ ورَجاءِ العُصاةِ والمؤمنين في عَفوِ اللَّهِ ومغفرتِه ورحمتِه، وهو الذي يَعكِسُ يُسرَ هذا الدِّينِ وحُنُوَّه على أتباعِه ورأفتَه بهم.

على أنَّ الذي يقرأُ مقدِّمةَ كتابِ إمامِنا أبي الحسن الأشعريِّ رضي الله عنه المعنونِ بـ: «مقالات الإسلاميينَ» يَعجَبُ للسَّماحةِ الإسلاميَّةِ المُدهِشةِ التي تَتبدَّى بين جَنَباتِ هذا الإمامِ الجليلِ، وذلك حِينَ يجمَعُ المقالاتِ والمذاهبَ والاختلافاتِ التي حدَثَت بينَ المسلمين، ويحشدُها تحتَ خَيْمَةِ الإسلامِ ويُسمِّيها: «مقالات الإسلاميين واختلافات المُصلِّين».

استمعْ إليه في مقدِّمتِه وهو يقولُ: «اختَلفَ الناسُ بعدَ نبيِّهم ﷺ في أشياءَ

كثيرةٍ، ضَلَّلَ فيها بعضُهم بعضًا، وبَرِئَ بعضُهم من بعضٍ، فصاروا فِرَقًا مُتبايِنين، وأحزابًا مُشتَّتين، إلا أنَّ الإسلامَ يَجمَعُهم ويَشتَمِلُ عليهم»[(١)].

وهذا نصٌّ جديرٌ بأن يضَعَه كلُّ عالِمٍ نُصْبَ عينيهِ وهو ينظرُ إلى ما أصابَ المسلمين اليومَ من فُرقةٍ واختلافٍ.

هذا المذهبُ الأشعريُّ أسهَمَ بقُوَّةٍ في حَقنِ دِماءِ المُسلِمين وصِيانةِ أموالِهم وأعراضِهم، التي حرَّمَها النبيُّ ﷺ في قَواطِعَ صريحةٍ بقولِه: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[(٢)]، وقوله: «مَن صلَّى صلاتَنا واستقبَلَ قِبلَتَنا وأكلَ ذبيحتَنا فذلك المُسلِمُ الَّذي له ذِمَّةُ اللَّهِ وذِمَّةُ رَسُولِه فلا تُخْفِرُوا اللَّهَ في ذِمَّتِه»[(٣)]. وقولِه للناسِ في حجَّةِ الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا»[(٤)]، وهو نَفْسُه المذهبُ ذو النَّظرةِ المُتَوازِنةِ للإنسانِ الخَطَّاءِ بطَبعِه، كما نبَّهَ إليه النبيُّ ﷺ في قولِه: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[(٥)].

وتَعلَمون -أيُّها العُلَماءُ الأفاضلُ- من النَّظَرِ في مذهبِ الأشاعرة، أنَّ قضيَّةَ التكفيرِ لا يَملِكُها أحدٌ، ولا هيئةٌ ولا جماعةٌ ولا تنظيمٌ، وإنما هي تسميةٌ شرعيةٌ بحتةٌ، ولها من الضوابطِ وتوافرِ الشروطِ وانتفاءِ الموانعِ ما يحصُرُها في أضيقِ الدوائرِ والحدودِ التي تُدرَأُ بالشبهاتِ، ثمَّ هي منوطةٌ بالقضاءِ وبأُولي الأمرِ، ولا يُسارِعُ إليها إلَّا الجهلةُ من الناسِ كما يقولُ حُجَّةُ

(١) «مقالات الإسلاميين»: ١-٢.
(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٣٩١).
(٤) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بَكْرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث غريب».

الإسلامِ الإمامُ الغزاليُّ، الذي يُقرِّرُ: «أنَّ الخطأَ في تَرْكِ كفرِ ألفِ كافرٍ أهوَنُ من الخطَأِ في سَفْكِ مِحجَمةٍ من دَمِ مُسلِمٍ»[(١)].

كما يَذهَبُ الإمامُ محمد عبده إلى أنَّ البُعدَ عن التَّكفيرِ أصلٌ من أصولِ الأحكامِ في الإسلامِ، ويقرِّرُ أنَّه: «إذا صدَرَ قولٌ من قائلٍ يَحتَمِلُ الكُفرَ من مائةِ وجهٍ، ويَحتَمِلُ الإيمانَ من وجهٍ واحدٍ، حُمِلَ على الإيمانِ، ولا يجوزُ حَملُه على الكُفرِ»[(٢)].

أيها السادة الأفاضل:

إنَّني هنا -عَلِمَ اللَّهُ- لا أرمي إلى إذكاءِ خِلافٍ بينَ العُلَماءِ والمذاهبِ السائدةِ، ومَعاذَ اللَّهِ أنْ يكونَ الأزهرُ مُؤسَّسةَ فُرقَةٍ بينَ المُسلِمين؛ فقد عاشَ أكثرَ من ألفِ عامٍ -وسيظلُّ- يُدرِّسُ المذاهبَ الفقهيَّةَ على اختلافِها، والمسائلَ الكلاميَّةَ على افتراقِها، والعلومَ الإسلاميَّةَ بمُختَلفِ أذواقِها ومَشارِبِها، لكنَّ الأزهرَ قد وجَدَ ضالَّتَه -منذُ القِدَمِ- في مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ واتَّخَذَه طَوْقَ نجاةٍ للمُسلِمين؛ كلَّما عَضَّتْهُم نوائبُ التَّشرذُمِ وآفاتُ التعصُّبِ المَقِيتِ لمذهبٍ يَراه أصحابُه هو الإسلامَ الذي لا إسلامَ غيرُه.. وسبيلُ الأزهرِ اليومَ هو سبيلُه بالأمسِ: السعيُ الحثيثُ لجمعِ كلمةِ المسلمينَ ووُقوفِهم صَفًّا واحدًا في مَهَبِّ العَواصِفِ والتيَّاراتِ.

إنَّ الأزهرَ الشريفَ الذي يَرفَعُ رايةَ «جمعِ الكلمةِ» بينَ المسلمين، والذي لا يُفرِّقُ بين مذهبٍ ومذهبٍ في مُقاوَمةِ مَوْجاتِ الإلحادِ والتَّغريبِ والإفسادِ الأخلاقيِّ - لا يَدَّخِرُ جهْدًا في مُقاوَمةِ الانحِرافِ التكفيريِّ الطارِئِ، والمرفوضِ من جَماهيرِ الأُمَّةِ الإسلاميَّة قديمًا وحديثًا.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد: ١٣٥.

(٢) «الأعمال الكاملة» للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق ١٤١٤ هـ-١٩٩٣م، (٣/ ٣٠٢).

وليس أمامَنا -أيُّها القرَّاء- من أجلِ تَحقِيقِ هذا الهدَفِ، إلَّا مُواصَلةُ السَّعيِ بصِدقٍ لجمعِ عُلَماءِ المسلمين على كلمةٍ واحدةٍ؛ لمواجهةِ الأخطارِ التي تُهدِّدُ الجميعَ، ولتَحقِيقِ مصالحِ الأُمَّةِ ودرءِ المفاسِدِ عنها. وبدُونِ هذا الالتِقاءِ فإنَّ النتائجَ لن تكونَ على النحوِ الذي نَرجُوه لأُمَّتِنا وتَقتَضِيه مَصلحَتُها في هذه الظُّروفِ التي يَمُرُّ بها العالَمُ الآنَ.

إنَّني منذُ اليومِ الأوَّلِ الذي تَحمَّلتُ فيه المسؤوليَّةَ في الأزهرِ الشريفِ أعلَنتُ أنَّ وَحدةَ الأُمَّةِ مِن مَقاصِدِ الشريعةِ الكُلِّيَّةِ، وأنَّ اجتماعَ كلمةِ عُلَمائِها في القَضايا الحاسِمةِ -وفي مُقدِّمتِها قضيَّةُ التكفيرِ- هو السبيلُ الأَوْحَدُ للحِفاظِ على أَمنِنا الداخليِّ، ووُجودِنا في العالَمِ، بل الحفاظِ على السَّلامِ العالميِّ كلِّه، وإنَّه لَمِمَّا يُثِيرُ التَّساؤُلَ أنَّ مُبادَرتي المُلحَّةَ والمُتكرِّرةَ من أجلِ وَحدةِ الأُمَّةِ، والتفاهُمِ بين مَذاهِبِها والتفاعُلِ مع عُلَمائِها، لم تَجِدْ بَعْدُ آذانًا مُصغيَةً بالقَدْرِ الذي يَبعَثُ الأمَلَ في قُدرةِ هذه الأُمَّةِ على مُواجَهةِ تَحدِّيَاتِها. هذا الأملُ الذي أسألُ اللَّهَ العليَّ القديرَ أن يُحقِّقَه على أيديكم بإخلاصِ عَملِكم وصِدقِ نواياكم الطيِّبةِ.

إنَّ أُمَّتَنا -وكما يقرِّرُ دِينُنا الحنيفُ- هي خيرُ الأُمَمِ، وإنَّ مَكانَها اللَّائقَ بها هو مُقدِّمةُ الصُّفوفِ، وإنَّ الأزهرَ الشريفَ الذي يَفتَحُ أبوابَه أمامَ الجميعِ مُرحِّبًا ومُقدِّرًا أحوالَ المكانِ وظرفيَّةَ الزمانِ، ومحترِمًا اختلافاتِ العُلَماءِ- لَيُجدِّدُ دعوتَه إلى الأُمَّةِ حُكَّامًا ومَحكُومين إلى تَبنِّي المنهجِ الوسَطيِّ، في الفهمِ والاعتقادِ والعملِ، وهو منهج دعا إليه -بقُوَّةٍ وحسمٍ شديدينِ- كل مِن القُرآنُ والسُّنَّةُ؛ حِفاظًا على حاضرِ الأُمَّةِ ومُستَقبَلِها، وامتثالًا لقولِ اللَّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] صَدَقَ اللَّهُ العَظيمُ.

أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ(*)

الحَمْدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ، وعلَى آلِه وصَحبِه ومَن اهتدَى بهُداه.

وبعد:

فإنَّ المُتأمِّلَ في مناهِجِ الأزهَرِ التَّعليميَّةِ وفي عُلومِه التي تَفجَّرَت يَنابيعُها مِن عُقولِ عُلمائِه وأساتِذَتِه، وعلى مَدَى تاريخِه الذي تجاوَزَ ألفَ عامٍ -لا يُعييه أن يُبصِرَ الهَدَفَ البَعيدَ وراءَ طبيعةِ هذه المناهِجِ، وتصنيفِ هذه العُلومِ، وأَعنِي بهذا الهَدَفِ: الحِفاظَ على وَحْدَةِ الأُمَّةِ، وتَوفيرَ التَّأسيساتِ العلميَّةِ والتَّربويَّةِ والثَّقافيَّةِ التي تُحافِظُ على وَحْدَةِ المُسلمِينَ، وتُحَذِّرُ مِن تَنازُعِهم الذي يَعُدُّه القُرآنُ الكريمُ السَّببَ الأَوَّلَ في الفَشَلِ والضَّعفِ والتَّراجُعِ..

وما يقومُ به الأزهَرُ اليومَ مِن نَشاطٍ في الدَّاخِلِ والخارِجِ هو امتدادٌ لرِسالَتِه القَديمَةِ المتجَدِّدَةِ، مِن أَجْلِ إطفاءِ الحَرائقِ، وفَضْحِ مخطَّطاتِ الحُروبِ اللَّاإنسانيَّةِ، الَّتي تتَّخِذُ مِن أجسادِ العَرَبِ والمُسلمينَ وأشلائهِم فِئرانَ تجارِبَ دمويَّةٍ، وهذه الحروبُ التي تُشعِلُها أنظمةٌ استعماريَّةٌ جديدةٌ، تُقدِّمُ بينَ يدَي نيرانِها نظرياتٍ شيطانيَّةً مُرعبةً، مِن أمثالِ: حَتميَّةِ الصِّراعِ الحضاريِّ، ونهايةِ التاريخِ، والفوضَى التي لا تَخْلُقُ إلَّا فوضَى مثلَها أو أشدَّ

(*) أصلُ هذا البحث محاضرةٌ أُلْقيَت في افتتاحِ مؤتمرٍ عن أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ بالعاصِمةِ الشِّيشانيَّةِ جروزني بتاريخِ: ٢٣ من ذي القعدةِ سنةَ ١٤٣٧هـ، الموافقُ ٢٦ مِن أُغسطُسَ سنةَ ٢٠١٦م.

مِنها، والعَولَمةِ التي تعني فيما تعنِي: «سيطرةَ دولةٍ واحدةٍ عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا علَى السُّوقِ العالميّ»[١].

وليتَ الأمرَ توقَّفَ في هذه الخُطَطِ الماكِرَةِ عندَ التَّغوُّلِ العسكريِّ والاقتصاديِّ، إذَن لصبَرنا وردَّدنا مع طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ[٢] قولَه[٣]، وهو يناشِدُ الحارِثَ بنَ عُبَادٍ[٤]:

أبا مُنْذِرٍ أفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ، بَعْضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِن بَعْضِ

لكنَّ الأمرَ لم يقِفْ -عندَ هذا الحَدِّ؛ وإنَّما ذَهَبَ إلَى أبعَدِ مدًى مُمكِنٍ في العبَثِ بالإنسانِ وبمكتسباتِه الحضاريَّةِ والرُّوحيَّةِ، حينَ بدَأَ العدوانُ السَّافِرُ الصَّريحُ يَزْحَفُ علَى ثقافاتِ الناسِ ومُعتقَداتِهم ومقدَّراتِهم التاريخيَّةِ والحضاريَّةِ، ويُخْضِعُهَا لمعاييرِ ثقافةٍ استعماريَّةٍ واحدةٍ مُستبِدَّةٍ..

وفي سبيلِ ذلك، اتَّخذَتِ العولَمةُ خطُواتٍ تُنذرُ بخطرٍ مُحدِقٍ علَى العالَمِ الشَّرقيِّ، بوضعِ العَوائقِ والعَقَباتِ علَى طريقِ تقدُّمِه، وإحكامِ السَّيطرَةِ علَى مفاصِلِ دُوَلِه وأوطانِه؛ مِن خلالِ مُنظَّماتٍ عالميَّةٍ، وبُنوكٍ دوليَّةٍ، وقروضٍ مُجحِفَةٍ، ومؤتمراتٍ للمُناخِ والسُّكَّانِ والمرأةِ والطِّفلِ، ودَعوةٍ صريحَةٍ مكشوفَةٍ إلى الشُّذوذِ الجنسيِّ والمِثليِّ، وما ينتجُ عنها مِن أمراضٍ وعاهاتٍ خُلُقيَّةٍ، وحُريَّاتٍ فوضويَّةٍ عبثيَّةٍ، يُنفَقُ علَى تسويقِها وترويجِها ما لا يُنفَقُ عُشْرُ مِعشارِه على الأكبادِ الجائعةِ مِن فُقراءِ هذه الدُّوَلِ، وعلَى شُعوبِها لتمكِينِها مِن الحُصولِ علَى أدنَى «الحقوقِ الإنسانيَّةِ» في التَّعلِيمِ والصحَّةِ

(١) «في الحَداثةِ والخِطابِ الحَداثيِّ» لمُنير شفيق: ٧٤.

(٢) هو أبو عَمرٍو الوائليُّ (ت. ٦٠ ق. هـ) شاعرٌ جاهليٌّ مِنَ الطَّبقةِ الأولى. انظر ترجمته في: «طبقات فحول الشعراء» لابن سلَّام: ١/ ٤٠، و«الأعلام» للزِّركلي: ٣/ ٢٢٥.

(٣) «ديوانُ طَرَفَةَ بنِ العبدِ»: ٦١.

(٤) هو أبو مُنذرٍ البَكريُّ (ت. نحو ٥٠ ق. هـ) حكيمٌ جاهليٌّ كان شُجاعًا شاعِرًا.

والغِذَاءِ، ومُكافحةِ الأمراضِ، والقضاءِ علَى الجهلِ والأُميَّةِ والتَّخلُّفِ.

وقد أضافَتِ العَولمةُ -حديثًا- نظريَّةَ: «المركزِ والأطرافِ» إلى نظرياتِ: «صراعِ الحضاراتِ»، و«نهايةِ التَّاريخِ»، و«الفوضَى الخلَّاقةِ»، وكلُّها نظرياتٌ تَعمَلُ في خِدمةِ الاستعمارِ الجديدِ، وتُزيِّنُه في أَعيُنِ المُستعمِرِينَ الجُدُدِ، وتُذكِّرنا بالنَّظريَّاتِ التي كانت تَسعَى بينَ يَدَي الاستعمارِ في القَرنينِ الماضيينِ، والتي قدَّمَها مستشرِقو المستعمَراتِ آنذاك عُربونًا لاستيلاءِ الغربِ علَى مُقدَّرَاتِ العالَمِ الإسلاميِّ، وثرَواتِه الظَّاهرةِ والباطنةِ.

وقد يَسألُ البعضُ عن عَلاقَةِ محاضرتي هذه عنِ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ» بالوَضعِ المُحزنِ الذي صارَت إليه أمَّةٌ عريقةٌ كأُمَّتِنا، طالَما علَّمَتِ الدُّنيا، وملأت رُبُوعَ العالَمِ شرقًا وغربًا، نورًا ويَقينًا بَدَّدَت بهما جهالاتِ الشُّعوبِ وضَلالاتِها، وأيقَظَتها مِن غفلَةِ الجهلِ والتَّخلُّفِ، وكانَ العالَمُ كلُّه يَحْسبُ لها ألفَ حِسابٍ وحسابٍ، ثمَّ صارَت إلى ما صارَت إليه مِن ضَعفٍ وتَمزُّقٍ، وفُرقةٍ واختلافٍ، وفِتَنٍ كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ تدَعُ الحليمَ حيرانَ.

والإجابةُ علَى هذا التَّساؤُلِ: هي أنَّ بحثَنا اليومَ في تحريرِ مفهومِ: «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» وتحديدِه هو في الوقتِ نفسِه بحثٌ عن شخصيَّةِ الأُمَّةِ وهُويَّتِها، وفلسفَتِها في عَلاقاتِها مع الآخَرِ، ودَورِها في صُنعِ السَّلامِ الإقليميِّ والعالميِّ؛ ثم هو بحثٌ في تشخيصِ المرضِ الذي أَضعَفَ جَسَدَها، وأنهَكَ قواها، وأهدَرَ طاقاتِها ومقدَّراتِها، وألَحَّ عليها نزفًا وهزالًا، وما زالَت بها حتى أصبح بأسُها شديدًا بينَ أبنائِها..

وهو أيضًا بحثٌ في الدَّواءِ والعلاجِ، وما أيسرَه لو خَلَصَتِ النَّوايا، وبخاصَّةٍ: نوايا العلماءِ -قبلَ الأُمراءِ- لِوَجهِ رسالَتِهم، وأمانَتِهم التي أمَرَ اللَّهُ بأدائِها على وَجهِها.

وقد مثَّل هذا مفهومُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ قاعدةً ثابتةً بعثَت على التَّألُّقِ العِلميِّ والحضاريِّ لهذه الأُمَّةِ وألهَمت عُلماءَها وأئمَّتَها، في كلِّ ما يَصْدُرُ عنهم مِن أنظارٍ في العقيدةِ، وفتاوى في الفِقهِ والتَّشريعِ، وإبداعاتٍ في مجالِ الفُنونِ، وإشراقاتٍ في مجالِ الآدابِ، وكانَت مِنَ الحُضورِ المستمِرِّ والتَّمكُّنِ العميقِ في شُعورِ الأُمَّةِ ووُجدانِها بحيثُ استطاعَت أن تحمِيَها بسياجٍ مَنيعٍ مِن أخطارِ التَّشرذُمِ والتَّشتُّتِ والشِّقاقِ، وأن تكونَ لها رِدْءًا تدفَعُ به عَوادِيَ الاختراقِ والاستلابِ، ويُذَكِّرُهم صباحَ مساءَ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وبقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومِن المُؤلِمِ أشدَّ الأَلَمِ أنَّ هذا المفهومَ الذي كانَ يدورُ عليه أمرُ هذه الأُمَّةِ قُرونًا مُتطاولةً - نازَعَته في الآونةِ الأخيرةِ دعاوَى وأهواءٌ، مزَّقته وعبثَت بحرمتِه أشدَّ العبثِ، بعد أن خرَجَت علَى أُصولِه وقواعدِه، وألصَقَت به -ممَّا هو غريبٌ عنه- ما جعَلَ منه مَفهومًا مُلتبِسًا في أذهانِ العامَّةِ مِنَ المُسلِمِينَ، ومُضطربًا، بل شديدَ الاضطرابِ عندَ كثيرٍ ممَّن يتصدَّرون للدَّعوةِ والإرشادِ بينَ الناسِ، ولا يكادُ يَبِينُ لهم بعضٌ مِن معالِمِ هذا المفهومِ حتى تَنْبَهِمَ عليهم قوادِمُه وخَوافِيهِ، وحتى يُصبِحَ نَهْبًا تتخطَّفُه دعواتٌ ونِحَلٌ وأهواءٌ، كلُّها ترفَعُ لافتةَ مذهبِ «أهلِ السُّنَّة والجماعةِ»، وتزعُمُ أنَّها وحدَها المُتحدِّثُ الرَّسميُّ باسمِه، حتَّى تمزَّقَ هذا المَفهومُ الذي كانَت تدورُ عليه وَحْدَةُ المسلمِينَ على مدَى تاريخِهم، وأصبحَ -منذ قرنَيْنِ أو أكثرَ- عامِلَ هَدمٍ وتَقويضٍ وتَشَتُّتٍ وفُرْقَةٍ بينَ أَبناءِ الأُمَّةِ الواحِدَةِ. .

وأمْرٌ بَدَهيٌّ أن يَتصادَمَ النَّاسُ حينَ تتَصادَمُ تفسيراتُ هذا المَفهومِ، وأنْ تَفتَحَ التَّفسيراتُ المتصادِمةُ أَبوابَ النِّزاعِ على مصاريعِها ليَجِدَ التَّشَدُّدُ والتَّطَرُّفُ والإرْهابُ وجَرائِمُ القَتلِ وسَفْكِ الدِّماءِ وهَتْكِ الأعراضِ واغتصابِ الحَرائرِ- سَنَدًا له مِن هذه التَّفسيراتِ التي تَدَّعِي وَصْلًا بأهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، كذِبًا علَى النَّاسِ، وجَهلًا فاضِحًا بما ترَكَه عُلماؤُنا عَبْرَ القُرونِ مِن معالِمَ بيِّنةٍ واضحةٍ، ومفاهيمَ تنضبطُ طَرْدًا وعكسًا في تعريفِ مَنْ هُم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ؟.

وقد كانَ مِن أَمْرِ الاضطرابِ في هذا المَفهومِ في دوائرِ التَّعليمِ والتَّعَلُّمِ، والدَّعوَةِ والدُّعاةِ والمُؤتَمراتِ والنَّدَواتِ في الأقطارِ الإسلاميَّةِ ما أطمَعَ المُتربِّصين من غيرِ المُسلمِينَ، بل مِن بَنِي جِلْدَتِنا بتصويبِ سِهامِهم نحوَ هذا المفهومِ وتشويهِ سيرتِه، والافتراءِ علَيه بأنَّه المسؤولُ عنِ الجرائمِ الإرهابيَّةِ التي تقترِفُها الجماعاتُ التَّكفيريَّةُ المُسلَّحةُ، وفي سَعيٍ خَبيثٍ لشَيطَنَةِ أهْلِ السُّنَّةِ وإزاحَتِهم، طَمَعًا في الاستيلاءِ على مُقَدَّراتِهم وإخضاعِهِم لمَذاهِبَ أُخْرَى دَرَجَت عَلَى إقصاءِ مَن لا يُؤمِنُ بِها والحُكمِ بكُفرِه، والتَّخطِيطِ لإبادَتِه واحتلالِ أراضِيه..

وهؤلاء المُفتَرون هم أوَّلُ مَن يعلَمُ أنَّ هذه الجماعاتِ التَّكفيريَّةَ، بتصرُّفاتِها البشعَةِ المُنكَرَةِ لا تمُتُّ إلى «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» بأدنَى سبَبٍ.. وأغلَبُ الظَّنِّ -أيضًا- أنَّ هذه الفِئةَ قدِ اتَّخَذَت مِن هُجومِها علَى مَفهومِ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» غطاءً لتحقيقِ أغراضٍ سياسيَّةٍ وأحلامٍ توسُّعيَّةٍ، تعتمِدُ في تحقيقِها على إثارةِ نَوازعِ الفُرقةِ بينَ المسلمين، ونَشرِ ثَقافَةِ الحِقدِ والكراهيَةِ، وبعثِ فِتَنٍ طواها الزَّمَنُ وأصبَحَت في ذِمَّةِ التَّاريخِ، وتنكُّرٍ لتعاليمِ الإسلامِ في التَّعايُشِ السِّلميِّ، والكَفِّ عن التَّدَخُّلِ في شؤونِ

الشُّعوبِ والأقطارِ، ومُراعاةِ حُرمةِ الجارِ التي كادَت تبلُغُ في شريعةِ الإسلامِ حُرمةَ أُخوَّةِ الدَّمِ والجَسدِ، كما كادَت تَبلُغُ مَبلَغَ مشروعيَّةِ التَّوارُثِ.

وما أشبَه اللَّيلةَ بالبارِحةِ في احتياجِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ الآنَ لِأَن تَعرِفَ مِن جديدٍ: مَنْ هُم أهلُ السُّنَّةِ والجماعة؟ وما هي مَعالمُ مَذهبِهم؟ وهل لغيابِ هذا المَذهبِ الآنَ تأثيرٌ في حياةِ المسلمينَ؟ وما هي العِلَّةُ الحَقِيقيَّةُ في تشرذُمِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ؟ وهل مِن سبيلٍ إلى إحياءِ هذا المذهبِ ليكونَ طَوقَ النَّجاةِ الأخيرِ لهذه الأُمَّةِ، تتماسَكُ مِن حولِه في مِحَنِها المُتتابعةِ، وتفوِّتُ على المُتربِّصينَ بها ما يُبيِّتونَه لها بليلٍ؟ . . . إلى آخرِ هذه الأسئلةِ، التي تجِدونَ الجوابَ عنها في المناهجِ العقَديَّةِ بمُختلِفِ مَراحلِ التَّعليمِ الأزهريِّ في المعاهدِ والكُلِّيَّاتِ علَى السَّواءِ.

أمَّا إجابتِي علَى سؤالِ: مَن هم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ؟ فإنِّي أستَدعيها مِن مَنْهَجِ التَّعليمِ بالأزهرِ، الذي تربَّيتُ علَيه، ورافَقَني مُنذُ طُفولَتِي وحتى يومِنا هذا، دارِسًا لمتونِ هذا المَنهجِ وشُروحِه، عبرَ رُبع قَرنٍ مِنَ الزَّمانِ، ومُتأمِّلًا في مَنهجِه الحِوَارِيِّ بينَ المَتنِ والشَّرحِ والحاشيةِ والتَّقريرِ، في تدريسِي لعلومِ أصولِ الدِّينِ، قُرابةَ أربعين عامًا مِن الزَّمانِ. .

وقد تعلَّمْتُ مِن شُيوخِنا في المَرحَلَةِ الابتدائيَّةِ وهم يُدَرِّسون لنا «شرحَ الخَريدةِ» لأبي البرَكَاتِ أحمدَ الدَّرديرِ المالكيِّ (ت. ١١٢٧هـ) أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ هم: الأشاعرةُ والماتُريديَّةُ، تَمييزًا لهم عنِ الفِرَقِ الإسلاميَّةِ الأُخرَى وفي مُقَدِّمَتِهم: فِرقَةُ المُعتَزِلَةِ.

ثمَّ تعلَّمتُ في المرحلةِ الثَّانويَّةِ أنَّ أهلَ الحقِّ هم «أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ»، وأنَّ هذا المُصطلَحَ إنَّما يُطلَقُ على أتباعِ إمامِ أهلِ السُّنَّةِ أبي الحسنِ الأشعريِّ (ت. ٣٢٤هـ)، وأتباعِ إمامِ الهُدَى أبي منصورٍ الماتُريديِّ (ت. ٣٣٣هـ).

تَعَلَّمنا ذلك مِن كِتابِ «**عُمدَة المُرِيدِ شَرح جَوْهَرَةِ التَّوحيدِ**»، وهو شَرحٌ للإمامِ بُرهانِ الدِّينِ اللَّقَانيِّ (ت ١٠٤١هـ) عَلَى مَنظُومَتِه المُسَمَّاةِ بـ«**جَوهَرَةِ التَّوحِيدِ**»، وقد دَرَسْنا هذا الشَّرحَ في السَّنَتَيْنِ: الرَّابِعَةِ والخامِسَةِ في القِسمِ الثَّانويِّ (١٩٦٤، ١٩٦٥م)، ورَسَخَ في عُقولِنا ما حَكاه الشَّارِحُ عن الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ مِن أنَّه بَعدَما نَزَعَ مِن عقلِه وفكرِه مَذهَبَ المُعتَزِلَةِ الذي دَرَجَ عليه، أعلَنَ للنَّاسِ مَذْهَبَه، قائلًا: «مَن أرادَ الحَقَّ فقد دَوَّنْتُ أُصولَه في هذه الأَوراقِ»، وأنَّه أَثبَتَ في مَذهَبِه «ما وَرَدَت به السُّنَّةُ ومَضَى عليه الجَماعَةُ فعُرِفُوا بالأشاعِرَةِ، وسُمُّوا بأَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، واشتُهِروا بهذا الاسمِ في أكثرِ الأَمصارِ، وأمَّا دِيارُ ما وراءَ النَّهرِ فالمَشهورُ فيها بهذا الاسمِ هو أبو منصورٍ الماتُريديُّ، وأتباعُه المَعروفون بالماتُريديَّةِ، وكِلَا الفَريقَينِ على هُدًى ونُورٍ»[(١)].

وفي كلِّيَّةِ أُصولِ الدِّينِ كانَ أوَّلَ ما صافَحَ عُقولَنا في مادَّةِ التَّوحيدِ هي عبارةُ الإمامِ النَّسَفيِّ في «**عقائدِه**»، وهي العبارةُ التي يَحفَظُها -عن ظهرِ قلبٍ- كلُّ طالبٍ تخرَّجَ في هذه الكُلِّيَّةِ، وهذه العبارةُ هي: «قالَ أهلُ الحَقِّ: حقائقُ الأشياءِ ثابتَةٌ، والعِلمُ بها مُتحقِّقٌ خِلافًا للسوفسطائيَّةِ»[(٢)]، وقد علَّقَ الشُّرَّاحُ وأصحابُ الحواشِي علَى هذه العبارةِ مُوضِّحينَ أنَّ أهلَ الحَقِّ هُم «أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ».

ثمَّ تعلَّمنَا بعدَ ذلك في أبحاثِنا بالدِّراسَاتِ العُليَا أنَّ «أهلَ السُّنَّةِ والجَمَاعةِ» هُم الأشاعرةُ والماتُريديَّةُ، وأهلُ الحديثِ، وأنَّ فُقَهاءَ الحنفيَّةِ

(١) «عمدة المريد، شرح جوهرة التوحيد» للإمام إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللَّقَانيِّ: ١/ ١٣٠، ١٣١.

(٢) انظر: «حواشي العقائد النَّسَفية»: ١/ ٢٤.

والمالكيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلَةِ لم يَخرُجوا مِن عَباءةِ هذا المذهبِ، كما يقولُ سلطانُ العُلماءِ عزُّ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّلامِ (ت. ٦٦٠هـ)[١].

هذا المفهومُ -بهذا العُمومِ الذي يَشمَلُ كُلَّ أئمَّةِ المُسلمينَ والأَغلَبيَّةَ الغالِبَةَ مِنَ المُتكلِّمينَ والفُقهاءِ والمُحدِّثين وأهلِ التَّصوُّفِ والإرشادِ، وأهلِ النَّحوِ واللُّغةِ والأدبِ- أَكَّدَهُ قُدماءُ الأشاعرةِ أنفسُهم مُنذُ البواكيرِ الأولَى لظُهورِ هذا المُصطلَحِ بعدَ وفاةِ الإمامِ أبي الحسنِ عليِّ بنِ إسماعيلَ الأشعريِّ، وشَهِدَ عليه جمهرَةُ القُدماءِ والمُحْدَثِينَ مِن عُلماءِ الإسلامِ ومُفكِّريه..

شَهِدَ عليه الإمامُ أبو الحسينِ المَلطيُّ (ت. ٣٧٧هـ)[٢] من قدماءِ الأشاعرةِ، والإمامُ الكبيرُ حُجَّةُ المُتكلِّمينَ أبو منصورٍ عبدُ القاهرِ بنُ طاهرٍ البغداديُّ (ت. ٤٢٩هـ) في كتابَيْه: «**الفَرْقِ بينَ الفِرَقِ**»[٣]، و«**أُصولِ الدِّينِ**»[٤]، وكذا

(١) كما في «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي: ٣/ ٣٦٥. وانظر: «المُلْحَة في اعتقاد أهل الحق»: ١٦.

(٢) انظُر كلامَ أبي الحُسينِ محمدِ بنِ أحمدَ المَلطيِّ (ت. ٣٧٧هـ)، في كتابِه: «التنبيهِ والرَّدِّ علَى أهلِ الأهواءِ والبِدَعِ»: ١٢، ١٤.

(٣) يَذكُرُ في الفَصلِ الذي خَصَّصَه لبَيانِ أصنافِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ أنَّ أئمَّةَ الفِقهِ مِن مَدرَسَتَي الرَّأيِ والحَديثِ، والذين اعتقَدُوا مَذاهِبَ الصِّفاتيَّةِ، وتَبَرَّءُوا مِنَ القَولِ بالقَدَرِ والاعتِزالِ هُم مِن أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ، وكذلك أصحابُ مالِكٍ والشَّافعيِّ والأوزاعيِّ والثَّوريِّ وأبي حَنيفةَ وأصحابُ أحمدَ سبنِ حَنبلٍ وأَهْلُ الظَّاهِرِ، وكذلك أَهْلُ الحَديثِ الذين لم يخلطُوا عِلْمَهم بالبِدَعِ والأَهواءِ. بل عُلَماءُ اللُّغَةِ والأَدَبِ كالخَليلِ وسِيبَوَيْهِ والفَرَّاءِ وغيرِهم، وعُلماءُ القِراءاتِ، والزُّهَّادُ والصُّوفيَّةُ، كُلُّ هؤلاء -عندَ هذا الإمامِ الكبيرِ- يُطلَقُ عليهم مصطلحُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ إطلاقًا متساويًا. انظر: «الفَرْق بينَ الفِرَقِ»، لعبدِ القاهِرِ البَغداديِّ: ١٨٩، ١٩٠. والشَّيءُ نَفْسُه يَذكُرُه في كِتابِه «أُصولِ الدِّينِ»: ٢١١، ٢١٢، الطبعة الأولى، إستانبول، ١٣٤٦-١٩٢٨.

(٤) انظُر صفحة: ٣١١، ٣١٥.

عندَ الأستاذِ أبي المُظفَّر شاهفُورِ بنِ طاهرٍ الإسفراييني (ت. ٤٧١هـ) في كتابِه: «**التَّبصِيرِ في الدِّينِ وتمييزِ الفِرقةِ النَّاجيةِ عنِ الفِرَقِ الهالكينَ**»[(١)].

وهذا المصطلحُ بمعناه الواسعِ الأعمِّ هو ما استقرَّ عليه الأمرُ بعدَ ذلك في اطِّرادٍ عَجيبٍ، لا يخلُو جيلٌ مِنَ الأجيالِ مِنَ التَّذكيرِ به والتَّنبيهِ إليه، منذ عهدِ الإمامِ الأَشعريِّ وحتَّى يومِ النَّاسِ هذا:

فالإمامُ البيهقيُّ[(٢)] (ت. ٤٥٨هـ) المعاصِرُ للإسفراييني، بعدَ أنْ يذكُرَ طَرَفًا مِن فَضلِ الصحابيِّ الجليل: أبي موسَى الأشعريِّ ﵁، يقولُ: «... ورُزِق مِنَ الأولادِ والأحفادِ، مع الدِّرايَةِ والرِّوايَةِ والرِّعايةِ ما يكثُرُ نَشْرُه، وأساميهم في التواريخِ مُثبَتةٌ، ومعرِفَتُهم عندَ أهلِ العِلمِ بالرِّوايَةِ مشهورةٌ، إلى أن بَلَغَتِ النَّوبَةُ إلى شَيخِنا أبي الحَسَنِ الأشعريِّ ﵀ فلم يُحدِث في دِينِ اللَّهِ حَدَثًا، ولم يأتِ فيه ببدعَةٍ، بل أخَذَ أقاويلَ الصَّحابَةِ والتَّابعِين ومَن بعدَهم مِنَ الأئمَّةِ في أُصولِ الدِّينِ فنَصَرَها بزيادَةِ شَرحٍ وتَبيينٍ».

وقالَ الإمامُ أبو القاسِمِ القُشَيريُّ[(٣)] (ت. ٤٦٥هـ): «اتَّفَقَ أصحابُ الحَديثِ أنَّ أبا الحَسَنِ عَلِيَّ بنَ إسماعيلَ الأشعريَّ ﵁ كان إمامًا مِن أئمةِ أصحابِ الحَديثِ، ومذهبُه مذهَبُ أصحابِ الحَديثِ، تكلَّمَ في أُصولِ الدِّياناتِ على طَريقَةِ أهلِ السُّنَّةِ، ورَدَّ على المُخالِفِينَ مِن أهلِ الزَّيغِ والبِدعَةِ...».

وكتَبَ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عليٍّ الشِّيرازِيُّ (ت. ٤٧٦هـ) وأبو بكرٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ الشَّاشيُّ (ت. ٥٠٧هـ)[(٤)]: «أنَّ الأشعريَّةَ أعيانُ السُّنَّةِ،

---

(١) انظُر صفحة: ١١٣، ط: السيد عِزَّت العَطَّار، سنة: (١٩٤٠م)، تقديم الأستاذ الشيخ: محمد زاهد الكوثري.

(٢) كما في «تبيين كذب المفتري»: ١٠٣.

(٣) كما في «تبيين كذب المفتري»: ١١٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣٣٢.

ونُصَّارُ الشَّريعَةِ، انتصَبوا للرَّدِّ على المُبتدِعَةِ مِنَ القَدَريَّةِ والرَّافِضَةِ وغيرِهم، فمَن طَعَنَ فيهم فقد طَعَنَ على أهلِ السُّنَّةِ».

ويؤكِّدُ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ (ت. **٥٤٣هـ**) على مكانَةِ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ في الذَّبِّ عن الدِّينِ وحِياضِه، فيقولُ في «**العواصم مِنَ القواصِم**»[(١)]: «لم يتعرَّضْ لِحمايَةِ الدِّينِ إلا آحادٌ اختارَهُمُ اللَّهُ له، ونَصَّبَهم للذَّبِّ عنه، فأوَّلُهم أبو الحسنِ الأشعريُّ...».

بل يذهَبُ بعيدًا، فيُؤكِّدُ على ضَرورَةِ الاقتصارِ على كُتُبِ الأشاعِرةِ، فيقولُ[(٢)]: «الذي أراه لكم على الإطلاقِ، أنْ تَقْتَصِرُوا على كُتُبِ عُلمائِنا الأشعريَّةِ، وعلى العِباراتِ الإسلاميَّةِ، والأدِلَّةِ القرآنيَّةِ».

ويُعرِّفُ به شَمسُ الدِّينِ ابنُ خَلِّكان (ت. ٦٨١هـ) باختصارٍ، فيقولُ[(٣)]: «هو صاحِبُ الأُصولِ، والقائِمُ بنُصرَةِ مذهَبِ السُّنَّةِ».

ويُتَرجِمُ له شِهابُ الدِّينِ اللَّبْليُّ (ت. ٦٩١هـ) في «**فِهرَسَتِه**»[(٤)]، فيقولُ: «هو صاحِبُ المَذهَبِ الذي اتَّخَذَه أهلُ الحديثِ والفِقهِ مِنْ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ إمامًا، حتَّى نُسِبَ مَذهبُهم إليه، فَنُسِبَ مَن تعَلَّق لمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ، وتَفَقَّه في معرفةِ أُصولِ الدِّينِ من بيْنِ سائرِ المَذاهِبِ - إلى الأشعريِّ؛ لحُسنِ تصانيفِه، وصِحَّةِ مَذهبِه واعتقادِه... ولم يكُنْ أوَّلَ مُتكلِّمٍ بلِسانِ أهلِ السُّنَّةِ، إنَّما جَرَى على سَنَنِ غيرِه، وعلى نُصرَةِ مَذهبٍ معروفٍ، فزادَ المَذهَبَ حُجَّةً وبيانًا، ولم يَبتَدِعْ مقالةً اخترعَها، ولا مَذهبًا انفرَدَ به».

(١) صفحة: ٧١.
(٢) المصدر نفسه: ٨٠.
(٣) في «وَفَيَاتِ الأعيانِ وأنْباءِ أبناءِ الزَّمانِ»: ٣/ ٢٨٤.
(٤) صفحة: ٧٤، ٧٥.

وقال العَضُدُ الإيجِي[(١)] (ت. ٧٥٦هـ): «أمَّا الفِرقَةُ النَّاجيَةُ المُستَثناةُ الذين قالَ فيهم [رسولُ اللَّه ﷺ][(٢)]: «هم الذين عَلَى ما أنا عليه وأصحابِي» فهُمُ الأشاعِرَةُ، والسَّلَفُ مِنَ المُحدِّثينَ، وأهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ».

وقال تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ (ت. ٧٧١هـ) في «**شَرح عقيدةِ ابنِ الحاجِبِ**»[(٣)]: «اعْلَمْ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ كُلَّهم قَدِ اتَّفقوا على مُعتقَدٍ واحِدٍ فيما يجِبُ ويجوزُ ويستحيلُ... وبالجُملَةِ فهُم بالاستقراءِ ثلاثُ طوائفَ:

الأُولَى: أهلُ الحديثِ، ومعتمَدُ مبادئِهم الأَدِلَّةُ السَّمعيَّةُ، أعني الكِتابَ والسُّنَّةَ والإجماعَ.

الثَّانيةُ: أهلُ النَّظَرِ العقليِّ والصِّناعَةِ الفكريَّةِ، وهُمُ الأشعريَّةُ والحنفيَّةُ، وشيخُ الأشعريَّةِ أبو الحسنِ الأشعريُّ، وشيخُ الحنفيَّةِ أبو منصور الماتريديُّ...

الثَّالثةُ: أهلُ الوجدانِ والكَشفِ، وهُمُ الصُّوفيَّةُ، ومبادِئُهم مبادِئُ أهلِ النَّظَرِ والحَديثِ في البدايةِ، والكَشفِ والإلهامِ في النِّهايَةِ».

وقالَ السَّعدُ التَّفتازانيُّ[(٤)] (ت. ٧٩١هـ): «المَشهورُ مِن أهلِ السُّنَّةِ في دِيارِ خُراسانَ والعِراقِ والشَّامِ وأكثرِ الأقطارِ هم: الأشاعِرَةُ، أصحابُ أبي الحسنِ عليِّ بنِ إسماعيلَ بنِ إسحاقَ بنِ سالِمِ بنِ إسماعيلَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ

---

(١) في «المواقف» راجع «شرح المواقف»: ٣/ ٧١٧.

(٢) في الحديث الذي أخرَجه التِّرمذيُّ في (٢٦٤١) والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣٠/ ٦٢) والحاكمُ (١/ ١٢٨) وغيرُهم؛ من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو ﵄، بنحوِه. وقال التِّرمذيُّ: «هذا حديثٌ مفسَّرٌ غريبٌ، لا نعرفُه مثلَ هذا إلَّا من هذا الوجهِ».
ولهذا اللَّفظِ عدَّةُ شواهدَ، منها حديثُ أنسِ بنِ مالكٍ ﵁، وقد أخرَجه الطَّبرانيُّ في «المعجمِ الصَّغيرِ» (٧٢٤) وفي «المعجمِ الأوسطِ» (٤٨٨٦، ٧٨٤٠).

(٣) كما في «إتحاف السَّادة المتقين» للزبيدي: ٢/ ٥، ٦.

(٤) في «شرح المقاصد»: ٢/ ٢٧١.

بِلالِ بنِ أبي بُرْدَةَ بنِ أبي مُوسَى الأشعريِّ، صاحِبِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، أَوَّلِ مَن خالَفَ أبا عليٍّ الجُبَّائيَّ، ورَجَعَ عن مَذهَبِه إلى السُّنَّةِ، أي طريقَةِ النَّبيِّ ﷺ، والجَماعَةِ أي طريقَةِ الصَّحابَةِ.

وفي دِيارِ ما وراءَ النَّهرِ: الماتريديَّةُ، أصحابُ أبي منصورٍ الماتريديِّ تلميذِ أبي نَصرٍ العَيَّاضِ، تلميذِ أبي بكرٍ الجُرجانيِّ، صاحبِ أبي سُليمانَ الجُرجانيِّ، تلميذِ محمَّدِ بنِ الحسنِ الشَّيبانيِّ رحمه اللَّه».

ويَذهَبُ العلَّامةُ الكَسْتَلِّيُّ (ت. ٩٠١هـ) في «**حاشية شَرحِ العَقائِدِ**»[١] إلى إقرارِ نَفْسِ المَذهَبِ.

ويقولُ ابنُ كمال باشا[٢] (ت. ٩٤٠هـ): «اعلم أنَّ الشَّيخَ أبا الحسنِ الأشعريَّ إمامُ أهلِ السُّنَّةِ ومُقدَّمُهم، ثُمَّ الشَّيخَ أبا منصورٍ الماتريديَّ، وأنَّ أصحابَ الشَّافعيِّ وأتباعَه تابعون له في الأُصولِ، وللشَّافعيِّ في الفُروعِ، وأنَّ أصحابَ أبي حنيفَةَ تابِعون للشَّيخِ أبي منصورٍ الماتريديِّ في الأُصولِ، ولأبي حنيفَةَ في الفُروعِ».

وقالَ طاش كُبرَي زاده[٣] (ت. ٩٦٨هـ): «اعْلَمْ أنَّ رئيسَ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» في عِلمِ الكَلامِ رَجُلانِ، أَحَدُهما حنفيٌّ، والآخَرُ شافعيٌّ، أمَّا الحنفيُّ فهو أبو منصورٍ محمَّدُ بنُ محمودٍ الماتريديُّ إمامُ الهُدَى... وأمَّا الآخَرُ الشَّافعيُّ فهو شَيخُ السُّنَّةِ، ورئيسُ الجَماعَةِ، إمامُ المُتَكلِّمينَ، وناصِرُ سُنَّةِ سيِّدِ المُرسلِينَ، والذَّابُّ عن الدِّينِ، والسَّاعي في حِفظِ عقائدِ المُسلمِينَ أبو الحسنِ الأشعريُّ البَصريُّ...».

---

(١) صفحة: ١٧.

(٢) في «مسائل الاختلافِ بين الأشاعرَةِ والماتريديَّة»: ١١.

(٣) في «مفتاح السَّعادَة»: ٢/ ٣٣.

وقالَ ابنُ حَجرٍ الهَيتَمِيُّ[(١)] (ت. ٩٧٤هـ): «المُرادُ بأصحابِ البِدَعِ فيه مَن كانَ عَلَى خِلافِ ما عليه «أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ»، والمُرادُ بهم أتباعُ الشَّيخِ أبي الحسنِ الأشعريِّ، وأبي منصورٍ الماتُريديِّ، إمامَيْ أهلِ السُّنَّةِ».

وقالَ أيضًا[(٢)]: «المُرادُ بالسُّنَّةِ ما عليه إمامَا أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ الشَّيخُ أبو الحسنِ الأشعريُّ وأبو منصورٍ الماتريديُّ، والبِدعَةِ ما عليه فِرقَةٌ مِن فِرَقِ المُبتدِعَةِ المُخالِفَةِ لاعتقادِ هذَينِ الإمامَينِ وجميعِ أتباعِهما».

ونقَلَ عنه عَلِيٌّ القاري (ت. ١١٤٠هـ)[(٣)] أنَّه قالَ: «الأهواءُ المُنكَرَةُ هي الاعتقاداتُ الفاسِدَةُ المخالِفَةُ لما عليه إمامَا «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» أبو الحَسنِ الأشعريُّ، وأبو منصورٍ الماتريديُّ».

ولك -أيُّها القارِئُ الكريمُ- أنْ تتوَقَّفَ قليلًا أمامَ النَّصَّينِ السَّابقَينِ، لا لتعلَمَ فقط أنَّ الأشاعِرةَ والماتريديَّةَ هُم طلائعُ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ»، بل لتَعلَمَ -أيضًا- أنَّ مُخالِفي الأشاعِرَةِ والماتريديَّةِ هُم مَن يُسمَّوْنَ -في تُراثِنا- أهلَ البِدَعِ والأَهواءِ، ولك أنْ تَنظُرَ مِن حَولِكَ لتكتشِفَ أنَّ الميراثَ العلميَّ المُوَثَّقَ للمُسلمِينَ والذي استشهَدنا فيه بنُقولٍ تنصُّ صراحةً على أنَّ الأشاعِرةَ ومعهم الماتريديَّةَ هم أئمَّةُ «أهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» وأنَّ مخالفيهم هم أهلُ البِدَعِ والأهواءِ.

هذا الميراثُ قَدِ انقلَبَ في الآوِنَةِ الأَخيرَةِ رأسًا عَلَى عَقِبٍ، وصارَ يَمشي عَلَى رأسِه بدَلًا مِن قَدَمَيْه، وأصبحَ أهلُ البِدَعِ والتَّشَدُّدِ والتَّطَرُّفِ هُم «أهلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» الجُدُدَ، و«أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» الذين عرفهم تاريخُ الإسلامِ والمسلمِين هم مَن يُرمَون اليومَ بالابتداعِ والفِسقِ والمُروقِ مِنَ المِلَّةِ عندَ كثيرٍ ممَّن لا قَدَمَ لهم في عِلمٍ عَقليٍّ أو نَقْليٍّ.

---

(١) في «الفتاوى الحديثيَّة»: ٦٥٤.

(٢) في «الزَّواجر عن اقترافِ الكبائرِ»: ١/ ١٦٥.

(٣) في: «مرقاة المفاتيح»: ٤/ ١٧١٢.

وقد مضَتِ القُرونُ العَشَرَةُ الأُولَى[١]، في طُولِ بلادِ الإسلامِ وعَرضِها عَلَى هذا النَّهجِ الواضِحِ في التَّفريقِ بينَ المَذهَبِ الأشعريِّ -الذي هو مَذهبُ الأغلبيَّةِ الساحِقَةِ للمُسلمينَ- وبينَ المَذاهِبِ الأُخرَى التي تَتْبَعُها قِلَّةٌ هنا أو طائفةٌ هناك، ليأتِيَ القَرنُ الحادي عَشَرَ -وما بعدَه- فيتواصَلَ السَّيرُ على ما رَضِيَتْهُ الأُمَّةُ واطمأنَّت إليه مِنَ التَّمَسُّكِ بهذا المَذهَبِ، والتَّنصيصِ الدَّائمِ على أنَّه المَذهبُ المُعبِّرُ عن سماحَةِ الإسلامِ وسعَةِ أُفُقِ المُسلمِينَ.

وهنا يُطالِعُنا إسماعيلُ حقي[٢] (ت. ١١٢٧هـ) بقَولِه: «اعْلَمْ أنَّ الشَّيخَينِ الكامِلَينِ مِن طائفةِ أهلِ الحَقِّ اسمُ أحَدِهما: الشَّيخُ أبو الحسنِ الأشعريُّ، مِن نَسلِ الصحابيِّ أبي موسَى الأشعريِّ رضي اللَّه عنه، ومَن ذَهَبَ إلى طريقِه واعتقَدَ موافِقًا لمَذهَبِه يُسَمُّونَه الأشعريَّةَ.

واسمُ الآخَرِ: الشَّيخُ أبو منصورٍ الماتريديُّ رحمه اللَّه، وكُلُّ مَنِ اعتقَدَ موافِقًا لمَذهَبِ هذا الشَّيخِ يُسَمُّونَه الماتريديَّةَ.

ومَذهبُ أبي حنيفَةَ موافِقٌ لمَذهَبِ الشَّيخِ الثاني، وإنْ جاءَ الشَّيخُ الثاني بعدَ أبي حنيفَةَ بمُدَّةٍ.

ومذهَبُ الشَّافعيِّ مُوافِقٌ لمَذهَبِ الشَّيخِ الأوَّلِ في بابِ الاعتقادِ، وإنْ

---

(١) وهذا ما عبَّر عنه الحافظُ ابنُ عَساكِرَ (ت. ٥٧١هـ) في وَصفِ القُرونِ السِّتَّةِ الأُولَى حيث قال في «تبيينه»: ٤١٠: «أكثرُ العلماءِ في جميعِ الأقطارِ عليه، وأئمةُ الأمصارِ في سائرِ الأعصارِ يَدْعونَ إليه، ومُنتَحِلُوه هُمُ الذين عليهم مَدارُ الأحكامِ، وإليهم يُرجَعُ في معرفةِ الحلالِ والحرامِ، وهم الذين يُفتونَ النَّاسَ في صِعابِ المسائلِ، ويَعتَمِدُ عليهم الخَلقُ في إيضاحِ المُشكِلاتِ والنَّوازِلِ، وهل مِنَ الفُقهاءِ مِنَ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ إلَّا مُوافِقٌ له، أو مُنتَسِبٌ إليه، أو راضٍ بحَميدِ سَعيِهِ في دِينِ اللَّهِ، أو مُثنٍ بكثرَةِ العِلمِ عليه، غيرَ شِرذِمةٍ يَسيرةٍ تُضمِرُ التَّشبيهَ، وتُعادِي كُلَّ مُوحِّدٍ يَعتقدُ التَّنزيهَ، وتضاهي أقوالَ أهلِ الاعتزالِ في ذَمِّه، وتُباهي بإظهارِ جَهلِها بقُدرةِ سَعَةِ عِلمِه».

(٢) في «روح البيان»: ٧/ ٣٦.

جاءَ بعدَ الشَّافعيِّ بمُدَّةٍ. . . والتِزامُ مَذهبٍ مِنَ المَذاهِبِ الحَقَّةِ لازِمٌ».

ويقولُ عبدُ الباقي المواهبيُّ الحنبليُّ[1] (ت. ١٠٧١هـ): «طَوائِفُ أهْلِ السُّنَّةِ ثَلاثَةٌ: أشاعِرَةٌ، وحنابِلَةٌ، وماتريدِيَّةٌ».

ويقولُ محمدُ بنُ أحمدَ السَّفَّارينيُّ الحَنبليُّ[2] (ت. ١١٨٨هـ): «وأهلُ السُّنَّةِ ثلاثةُ فِرَقٍ: الأثَريَّةُ وإمامُهم أحمدُ بنُ حَنبلٍ، والأشعريَّةُ وإمامُهُم أبو الحسنِ الأشعريُّ، والماتُريديَّةُ وإمامُهم أبو منصورٍ الماتُريديُّ».

ويأتي محمَّدُ مُرتَضَى الزَّبِيديُّ[3] (ت. ١٢٠٥هـ) فيُقَرِّرُ: «لِيُعْلَمْ أنَّ كُلًّا مِنَ الإمامَينِ أبي الحسنِ وأبي منصورٍ رضي اللَّه عنهما وجَزاهُما عن الإسلامِ خَيرًا - لم يُبْدِعا مِن عندِهما رأيًا، ولم يَشْتَقَّا مَذهبًا، إنَّما هما مُقرِّرانِ لمَذاهِبِ السَّلَفِ، مُناضِلانِ عمَّا كانت عليه أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ؛ فأَحَدُهما: قامَ بنُصرَةِ نُصوصِ مَذهَبِ الشَّافعيِّ وما دَلَّت عليه.

والثاني: قامَ بنُصرَةِ نُصوصِ مَذهَبِ أبي حَنِيفَةَ وما دَلَّت عليه، وناظَرَ كُلٌّ مِنهما ذَوي البِدَعِ والضَّلالاتِ حتَّى انقطَعُوا ووَلَّوا مُنهزِمِين، وهذا في الحقيقَةِ هو أَصلُ الجِهادِ الحَقيقيِّ الَّذي تَقَدَّمَتِ الإشارَةُ إليه، فالانتسابُ إليهما إنَّما هو باعتبارِ أنَّ كُلًّا مِنهما عَقَدَ عَلَى طريقِ السَّلَفِ نِطاقًا، وتَمَسَّكَ وأقامَ الحُجَجَ والبَراهِينَ عليه، فصارَ المُقتَدِي به في تلك المسائلِ والدَّلائلِ يُسَمَّى أشعريًّا وماتُريديًّا».

ويقولُ مُرتَضَى الزَّبِيدِيُّ الحنفيُّ أيضًا[4]: «والمُرادُ بأهلِ السُّنَّةِ هم أهلُ الفِرَقِ الأربعَةِ: المُحَدِّثون والصُّوفيَّةُ والأشاعِرةُ والماتُريديَّةُ».

---

(١) في «العَين والأثَر في عقائدِ أهلِ الأثر»: ٥٣.
(٢) في «لوامع الأنوارِ البهيَّة»: ١/ ٧٣.
(٣) في «إتحاف السَّادَةِ المتَّقينَ»: ٢/ ٦.
(٤) في «إتحاف السَّادَةِ المتَّقينَ»: ٢/ ٨٦.

ويقولُ ابنُ عَجيبَةَ[١] (ت. ١٢٢٤هـ): «أمَّا أهلُ السُّنَّةِ فهُمُ الأشاعِرَةُ ومَن تَبِعَهم في اعتقادِهِمُ الصَّحيح، كما هو مُقرَّرٌ في كُتُبِ أهلِ السُّنَّةِ».

أمَّا العَلَّامَةُ ابنُ عابدين[٢] (ت. ١٢٥٢هـ) فيقولُ: «أهلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ وهُمُ الأشاعِرَةُ والماتريديَّةُ، وهم متوافِقون إلَّا في مسائِلَ يَسيرَةٍ، رجعَها بعضُهم إلى الخِلافِ اللَّفظيِّ، كما بُيِّنَ في مَحَلِّه»[٣].

ثُمَّ يقولُ العلَّامةُ محمدُ بنُ زاهِدٍ الكوثريُّ (ت. ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م) في مقدِّمَتِه على كِتابِ «تَبيين كَذِبِ المُفتَري» لابنِ عساكِرَ[٤]: «غارَ الإمامُ أبو الحسنِ الأشعريُّ على ما حَلَّ بالمسلمِينَ مِن ضُروبِ النَّكالِ، وقامَ لنُصرةِ السُّنَّةِ وقمعِ البِدعَةِ... حتَّى وفَّقَهُ اللَّهُ لجَمعِ كَلِمةِ المسلمِينَ، وتَوحيدِ صُفوفِهم، وقَمعِ المُعانِدِينَ، وكَسْرِ تَطَرُّفِهم، وتوارَدَت عليه المسائلُ مِن أقطارِ العالَمِ؛ فأجابَ عنها... ومَلَأَ العالَمَ بكُتُبِه وكُتُبِ أصحابِه في السُّنَّةِ والرَّدِّ على

(١) في «البحر المديد»: ٦٠٧.

(٢) في «ردّ المحتارِ على الدُّرِّ المُختار»: ١/ ٤٩.

(٣) وكان بوُدِّي أن أستَرسِلَ في نقلِ شهاداتِ عُلماءِ الأُمَّةِ في صحةِ اعتقادِ هذه الطائفةِ المنصورةِ، إلَّا أنَّ الأمرَ اتَّسَع فأمسكتُ القَلَمَ كما أمسَكَ مِن قَبْلِي الحافِظُ ابنُ عساكِرَ في «تبيينِه»: ٣٣٠، ٣٣١، عندما قال: «لولا خوفي مِنَ الإملالِ للإسهاب، وإيثاري الاختصارَ لهذا الكِتابِ، لتتبَّعتُ ذِكرَ جميعِ الأصحابِ، وأطنَبتُ في مَدحِهم غايةَ الإطنابِ، وكنتُ أكونُ -بعدَ بذلِ الجُهدِ فيه- مُقصِّرًا، ومن تقصيري بالإخلالِ بذِكرِ كثيرٍ منهم مُعتذِرًا، فكما لا يُمكِنُني إحصاءُ نجومِ السَّماءِ، كذلك لا أتمكَّنُ مِن استقصاءِ ذِكرِ جميعِ العُلماءِ مع تَقادُمِ الأزمانِ والأعصارِ، وكثرةِ المُشتهِرينَ في البُلدانِ والأمصارِ، وانتشارِهم في الأقطارِ والآفاقِ، مِنَ المَغربِ والشَّامِ وخُراسانَ والعِراقِ».

ومِنَ الطَّريفِ ألَّا يَرضَى التَّاجُ السُّبكيُّ (ت. ٧٧١هـ) في «طبقات الشَّافعيَّةِ الكُبرَى»: ٣/ ٣٧٢، بهذا الاختصارِ فيعلِّقُ عليه قائلًا: «لقد أهملَ على سَعَةِ حِفظِه مِنَ الأعيانِ كثيرًا، وتَرَكَ ذِكرَ أقوامٍ كان ينبغي -حيث ذَكَرَ هؤلاء- أن يُشمِّرَ عن ساعدِ الاجتهادِ في ذِكرِهِم تَشميرًا، لكنَّه استوعبَ الأَوْلَى أو كاد، واستغرقَ فلم يَفُتْهُ إلَّا بعضُ الآحادِ».

(٤) صفحات: ١٥ - ١٩، بتصرف.

أصنافِ المُبتدِعةِ والمَلاحِدةِ وأهلِ الكِتابِ، وتفرَّقَ أصحابُه في بلادِ العِراقِ وخُراسانَ والشَّامِ وبلادِ المَغربِ، ومضَى لسَبيلِه.

وبعدَ وفاتِه بيسيرٍ استعادَ المعتزِلةُ بعضَ قُوَّتِهم في عهدِ بني بُوَيه، لكنَّ الإمامَ ناصِرَ السُّنَّةِ أبا بكرِ بنَ الباقلَّانيِّ قامَ في وَجهِهم وقَمَعَهم بحُجَجِه، ودانَت للسُّنَّةِ على الطَّريقَةِ الأشعريَّةِ أهلُ البَسيطَةِ إلى أقصَى بِلادِ أفريقيا . . . والأشعريَّةُ هُمُ العَدلُ الوسَطُ بينَ المُعتزلَةِ والحشْويَّةِ، لا ابتعَدُوا عنِ النَّقلِ كما فعَلَ المعتزلةُ، ولا عنِ العَقلِ كعادةِ الحشْويَّةِ، وَرِثُوا خيرَ مَن تقدَّمَهم، وهَجَرُوا باطِلَ كُلِّ فِرقةٍ، حافَظُوا على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه، ومَلَأوا الأرضَ عِلمًا».

❊ ❊ ❊

هذا هو المفهومُ الواسِعُ الشَّامِلُ لمُصطَلَحِ «أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» الذي عاشَ المسلِمُون في ظِلالِه إخوةً لأكثرَ مِن أَلفِ عامٍ، عاشَ الجميعُ فيها في وَحدَةٍ جامعةٍ استوعَبَتِ التَّعدُّدَ والاختلافَ المحمودَ، ونبَذَتِ الفُرقةَ والخِلافَ المذمومَ. وتمكَّنَ المسلمون تحتَ رايةِ هذا المَذهبِ مِن صُنعِ حضارَةٍ لم تُعرَفْ لغَيرِهم. وذلك قبلَ أنْ تظهرَ على الساحةِ مذاهبُ متشدِّدةٌ في التقيُّدِ بظواهرِ النصوصِ، حوَّلَت الخِلافَ المَشروعَ بينَ المسلمين إلى مذاهِبَ وطرائِقَ في التَّشَدُّدِ والتَّطَرُّفِ والتَّكفيرِ وسَفكِ الدِّماءِ.

ولكن مَن هو الأشعريُّ الذي لُقِّبَ بأنَّه إمامُ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ؟ وما هو مَذهبُه؟ ولماذا رضِيَته الأُمَّةُ إمامًا لها في عقيدتِها ولا تزالُ ترضاه حتَّى يومِ النَّاسِ هذا؟ وذلك رُغمَ مُحاولاتِ تشويهِه وتنفيرِ النَّاسِ مِنه ومِن مَذهَبِه،

ومُحاولاتِ تبديعِه وتفسيقِه، وتبديعِ الأشاعرةِ وتفسيقِهم، ورُبَّما إخراجِهم مِنَ المِلَّةِ؟(١).

والإجابةُ على هذه الأسئلةِ إجابةً وافيةً لا يحتمِلُها هذا المختصَرُ، لكن يكفي أنْ نُبيِّنَ في عباراتٍ قليلةٍ أنَّ الإمامَ الأشعريَّ وُلِدَ بالبصرةِ سنةَ ٢٦٠هـ، وتُوفِّيَ ببغدادَ سنةَ: ٣٢٤هـ في أرجَحِ الأقوالِ، وقد نشَأَ في بيئةٍ فكريَّةٍ ومذهبيَّةٍ شديدةِ التَّنافُرِ والاضطرابِ، تُشبِهُ كثيرًا ما تمُرُّ به الأُمَّةُ اليومَ مِن بيئةٍ تصطرِعُ فيها منازِعُ التَّكفيرِ؛ نتيجةَ الصِّراعِ الطَّائفيِّ، والمَذْهَبيِّ، فكانَ المُعتزلةُ على عهدِ الأشعريِّ يَتَشَدَّدُونَ في التَّمَسُّكِ بالمَنزَعِ العَقليِّ، وكانَ غُلاةُ الحنابلةِ يتعصَّبونَ لمنهجِهم في الوقوفِ عندَ ظَواهِرِ النُّصوصِ ومَنْعِ تَأويلِها تأويلًا يَقبَلُه العَقلُ ويحتَمِلُه النَّصُّ، وقد وصَلَ أمرُ النِّزاعِ بينَ المَذهبَينِ إلى استِعداءِ السُّلطاتِ، بل استدعائِها لضَربِ العُلَماءِ وجَلْدِهم وسَجْنِهم في بعضِ الأحيانِ(٢).

في هذا الجَوِّ نشَأَ الإمامُ الأشعريُّ وتَرَبَّى في مدرسةِ الاعتزالِ، وتشرَّبَ مَذهبَهم، حتَّى صارَ مِن أكبرِ نُظَّارِ هذا المَذهبِ والمُنافِحين عنه، لكنَّه لَمْ يَلْبَثْ

---

(١) قد وفَّقَنا اللَّهُ تعالى إلى طبعِ مُجلَّداتٍ أربعةٍ بعُنوانِ: «الإمام أبو الحسنِ الأشعريُّ إمامُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: نحوَ وسطيَّةٍ إسلاميَّةٍ جامعةٍ» ضمَّت أبحاثَ مؤتمَرِنا العالميِّ الذي عُقِدَ بالأزهرِ الشَّريفِ في الفترة من ٢٤ - ٢٧ جُمادَى الأُولَى سنة ١٤٣١هـ، ونشر بدار القدس العربي بالقاهرة.

(٢) انظر: «العِبَر في خَبَرِ مَن غَبَرَ»: ٣/ ٢٧١، و«سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبيِّ: ١٩/ ٤٢٥، و«الوافي بالوَفَياتِ» للصَّفَدي: ١٨/ ٢٠٠، و«مِرآة الجِنانِ وعِبرَة اليَقظانِ» لليافعيِّ: ٣/ ٧٥، و«طبقات الشافعيَّةِ الكُبرَى» للسُّبْكي: ٤/ ٢٣٤، و«البداية والنِّهاية»، لابن كثير: ١٦/ ٥٩.

ومِن وِجْهَةِ نَظَرِ الحَنابِلَةِ؛ انظر: «المُنتَظِم في تاريخِ المُلوكِ والأُمَم» لابن الجوزيِّ: ٨/ ٣٠٥، و«ذيل طبقاتِ الحنابِلَة» لابن رجب: ١/ ٣٩.

أنْ خرَج فجأةً ليُعلِنَ علَى النَّاسِ أنَّ أدلَّةَ المَذاهبِ قد تكافَأت لدَيه، وأنَّه يتبرَّأُ مِن مَذهبِ الاعتزالِ وينسلِخُ مِنه، ويعقِدُ العزمَ علَى التَّفتيشِ عن مذهبِ الصحابة والتابعين، وتحقيقِه وتحريرِه وإعلانِه علَى النَّاسِ والدِّفاعِ عنه، مع التَّصدِّي للمذاهبِ الأُخرَى التي تنحرِفُ عنه يمينًا أو يسارًا؛ كالمُعتزلَةِ والمُجسِّمةِ (غلاة الحنابلة) والجَبْرِيَّةِ والخوارجِ والمُرجِئةِ وما جَرَى مَجراهُم.

وقد نبَّأَتنا أخبارُ التاريخِ بما نزَل بالإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ مِن جَلْدٍ وضَربٍ بالسِّياطِ في عهدِ المأمونِ لأنَّه خالَفَ المعتزِلَةَ، ولم يؤمِنْ بمذهبِهم الذي يقرِّرُ أنَّ القُرآنَ مخلوقٌ، وهو ما عُرِفَ تاريخيًّا «بمِحنَةِ خَلْقِ القُرآنِ». وفي المقابلِ كان هناك ما يُسمَّى في التاريخِ بفِتنَةِ «الحنابِلةِ» الذين تسلَّطُوا على الأشاعِرةِ وأذاقُوهمُ العَذابَ ألوانًا لأنَّهم لا يؤمنون بالمَقولاتِ المُتَشَدِّدَةِ ولا بالغُلُوِّ المذهبيِّ الذي كان يدعو إليه هؤلاء المتطرفون وهو ما عُرِفَ تاريخيًّا بفِتنَةِ الحنابِلةِ(١).

ولم يلبَثِ الإمامُ الأشعريُّ أنْ أعلَنَ عن مذهَبِه هذا الذي جاءَ مَذهَبًا وَسَطًا بينَ مَقالاتِ الفِرَقِ كُلِّها، بعدَ أن استخلَصَه مِن مُحْكَماتِ القُرآنِ والحديثِ وأقوالِ أئمَّةِ السَّلَفِ وعُلمائِهم. كما سَبَقَتِ الإشارَةُ إلى ذلك.

والجديدُ في هذا المَذهَبِ هو أنه مَنهجٌ توفيقيٌّ تَصالُحِيٌّ بينَ أمرَيْن كثيرًا ما يَبْدُوانِ وكأنَّهما طَرَفانِ مُتعارِضانِ، أَعني بِهما: النَّقلَ والعقلَ، أو: إثباتَ مسائلِ العقيدةِ بالأدلَّةِ العقليَّةِ والبراهينِ المَنطِقيَّةِ؛ إلى جوارِ الأَدِلَّةِ النَّقليَّةِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) انظر: «الإسلام الحنبلي» لجورج مقدسي: ٣٠ وما بعدها، و«مسألة خلق القرآن» لعبد الفتاح أبو غدة: ١٠ وما بعدها، و«العامة في بغداد» لفهمي سعد: ٤٦٩ وما بعدها.

لم يقتصِرْ مَنهَجُ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ في إثباتِ العَقائدِ عَلَى أَدِلَّةِ النَّقلِ، والتَّشَبُّثِ بظواهِرِها حتَّى لو تعارَضَت مع أوائلِ العُقولِ وبَدائهِ الأذهانِ، كما هو مَذهبُ الجامدينَ علَى النُّصوصِ والواقفينَ عندَ ظواهرِ الألفاظِ وحُروفِها. وعلى الجانبِ الآخَرِ لم يُفرِطِ الأشعريُّ في التَّأويلاتِ الذِّهنيَّةِ العقليَّةِ، أوْ في إخراجِ النَّصِّ مِن سِياقِه المُقدَّسِ إلى تحكُّماتِ العُقُولِ التي لا تنبنِي علَى النَّظَرِ السَّليمِ والبُرهَانِ السَّديدِ، كما هو الحالُ عندَ المُعتزِلةِ وغيرِهم.

وهذه الخَصِيصةُ التي تميَّزَ بها المَذهَبُ الأشعريُّ، وأعني بها: الاعتدالَ بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ، أو المَزجَ بينَ الإيمانِ بالنَّقلِ واحترامِ العقلِ- لم تكُنْ بِدعةً استَحدَثَها الأشعريُّ بداعِيَةِ الهَوى أو التَّطلُّعِ إلى الرِّيادَةِ والظُّهورِ، وإنَّما نَسَجَ فيها علَى مِنوَالِ القرآنِ الكريمِ الذي تفيضُ نصوصُه المُقدَّسةُ بهذينِ الأصلَينِ اللَّذينِ تأسَّسَ علَيهما بِناءُ المَذهبِ الأشعريِّ، وهما:

١ - التوسُّطُ واليُسرُ ورفعُ الحرَجِ.

٢ - ومنزلةُ العقلِ ورِفعةُ شأنِه، بعد أن تكرَّرَ بلفظِه ومعناه في القرآنِ الكريمِ أكثرَ مِن «١٢٠ مرةً»، وكان التقريبُ أو المصالحةُ بينَ الاعتقادِ مِن جانبٍ والعقلِ الصَّريحِ من جانبٍ آخرَ هو الضَّامِنُ لطُمأنينةِ المؤمنِ وثَباتِه علَى إيمانِه. إذ مِن أعسَرِ العُسرِ أن يعتقِدَ الإنسانُ عقيدةً ما ثُمَّ يَحجُرَ علَى عقلِه أن ينظُرَ فيها؛ مخافةَ أن تتزَعزَعَ أو تتبَدَّدَ وتصبِحَ أثرًا بعدَ عينٍ إذا ما حاكَمَتْها بَدائِهُ العقولِ والأنظارِ.

وبهذه الخاصَّةِ استطاعَ مذهبُ الأشعريِّ، الذي اشتهر باسم «مذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ» أن يوفِّرَ للأُمَّةِ الإسلاميَّةِ استقرارَ العقلِ وهُدوءَ النَّفسِ، وأن يُزيلَ التَّعارُضَ بينَ كلِّ الثُّنائيَّاتِ المتشابِهَةِ التي تبدُو -في

ظاهِرِها- مُتناقِضةَ الأطرافِ، والتي كانت -ولا تزال- سببًا رئيسًا في الفِتنِ المذهبية، وما تؤدي إليه من تنازع وتكفير ودماء.

وممَّا تجدُرُ الإشارةُ إليه هو أنَّ مذهبَ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» -كما صاغَه الأشعريُّ والأشاعِرَةُ مِن بعدِه- لم يكُنْ حارِسًا أمينًا فقَط علَى وَحدَةِ المُسلمينَ علَى مَدَى ألفِ عامٍ أو يَزِيدُ، ولم يكُنْ حاميًا لثقافَتِهم الدِّينيَّةِ والفكريَّةِ فحَسْبُ، بل كانَ باعِثًا لحضارتِهم الماديَّةِ والعِلميَّةِ في شتَّى الميادينِ.

وقد تنبَّهَ الأستاذُ أبو منصورٍ البغداديُّ -في لَفتَةٍ غايةٍ في الذَّكاءِ- إلى الرَّبطِ التَّاريخيِّ بينَ التَّقدُّمِ المدنيِّ والعُمرانيِّ، وبينَ الاستقرارِ العقليِّ والرُّوحيِّ عندَ المسلمينَ، وكيفَ أنَّ هذا المذهبَ كانَ عُنصُرَ أمانٍ وسَلامٍ وتَعايُشٍ مُشترَكٍ بينَ المُجتمعاتِ الإسلاميَّةِ، وأنَّ مؤلَّفاتِ أهلِ السُّنَّةِ في الدِّينِ والدُّنيا ظَلَّت -فيما يقولُ عبدُ القاهرِ البغداديُّ- مبعَثَ فَخرٍ خَالدٍ مَدَى الدَّهرِ للأُمَّةِ المُحمَّديَّةِ، وأنَّ آثارَهم العُمرانيَّةَ في بلادِ الإسلامِ مَشهورةٌ ماثِلةٌ أمامَ الأنظارِ، خالدةٌ في بُطونِ التَّوارِيخِ بحيثُ لا يَلحَقُهم في ذلك لاحِقٌ؛ كالمساجِدِ، والمَدارِسِ، والقُصورِ، والرِّباطاتِ، والمصانِعِ، والمُستشفياتِ، وسائرِ المَباني المُؤسَّسَةِ في بلادِ السُّنَّةِ، ثُمَّ قالَ: «وليسَ لسِوَى أهلِ السُّنَّةِ عَمَلٌ يُذكَرُ في ذلك، وكلُّ ما في بلادِ الحَرَمينِ وسائرِ الحَواضِرِ مِن شَواهقِ الآثارِ - فمِن عمَلِ أهلِ السُّنَّةِ»[(١)].

ولا ينبَغِي أن يَمُرَّ هذا النَّصُّ دُونَ الانتباهِ إلى الدرس الذي يتضَمَّنُه؛ وهو أنَّ «أَهْلَ السُّنَّةِ والجَماعَةِ» مِنَ الأَشاعِرَةِ والماتريديَّةِ وغيرِهم هم من بعثوا النَّهضةَ المادِّيَّةَ والعِلميَّةَ في تاريخِ المسلمِينَ، وأنَّهم وَحْدَهم دُونَ غيرِهم مِن

(١) «أصولُ الدِّينِ»: ٢٢٢.

سائرِ الفِرَقِ -مِنَ المعتزِلَةِ والمُشَبِّهَةِ والمُجَسِّمَةِ وغيرِهم- مَن شَيَّدَ شَواهِقَ الآثارِ في الجَزيرةِ العربيَّةِ وسائرِ الحَواضِرِ، إذْ ما كان لهم أن يتمَكَّنُوا مِن صُنعِ هذه الحَضارَةِ لو أنَّهم انشغلوا في حروبٍ مذهبيَّةٍ، أشبهَ بطواحينِ الهواءِ وجدلِ البيزنطيين، وراحُوا يَستَنزِفُون طاقاتِهم، ويُهْدِرُونَ أوقاتَهم، ويُفنُونَ أَعمارَ أتباعِهم وتلاميذِهم في شَغْلِ المجتمعِ الإسلاميِّ بخِلافاتٍ مَذهَبيَّةٍ وصِراعاتٍ عَقَدِيَّةٍ فارِغَةِ المُحتَوَى والمَضمُونِ، سُرْعانَ ما تتحَوَّلُ إلى حُروبٍ دَمويَّةٍ تُسْفَكُ فيها الدِّماءُ على المَذهَبِ والطَّائفَةِ.

وأَمرٌ معلومٌ أنَّ النَّهضَةَ أيًّا كان تَوجُّهُها لا يَتَأَتَّى لها أن تَنشَأَ -فضلًا عن أنْ تَزدَهِرَ- إلَّا في أجواءِ الاستقرارِ الفكريِّ، وفي ظلالِ السِّلمِ المُجتمعيِّ، بل السَّلامِ العالميِّ والتَّعاوُنِ الدَّوليِّ، وغير ذلك ممَّا يُعدُّ شرطًا ضروريًّا في صِناعَةِ الحضارَةِ وتحقيقِ التَّقَدُّمِ وتَرقيَةِ الشُّعوبِ ورَخائِها.. والدَّرسُ المُستفادُ مِن هذا النَّصِّ العَميقِ في مَغزاهُ ودَلالَتِه هو أنَّ الإبداعَ الذي هو وسيلةُ التحضُّرِ يستحيلُ تحقيقُه في ظلِّ انغلاقِ العقلِ، وأزماتِ الفِكرِ والفهمِ الصحيحِ، ومَن يرومُ الإبداعَ في رَهَقِ هذه الظُّلَمِ، فهو كمَن يرومُ اجتماعَ النقائضِ التي لا يمكِنُ اجتماعُها لا في مجتمعٍ مسلمٍ ولا غيرِ مسلمٍ.

أمَّا أهمُّ خصائصِ هذا المذهبِ، الذي نفتقِدُه اليومَ افتقادَ البَدْرِ في الليلةِ الظلماءِ، فيُمكِنُ إجمالُها فيما يَلِي:

أوَّلًا: ليسَ المَذهَبُ الأَشعرِيُّ -الذي هو مذهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعَةِ- مَذْهَبًا جديدًا، وإنَّما هو مذهبٌ مُستَقًى -أصولًا وفروعًا- مِن عقائدِ السَّلفِ، ولكن بمنهجٍ جديدٍ، يكشِفُ عن الاتساقِ الكامِنِ -في الواقعِ ونفسِ الأمرِ- بينَ النَّقلِ والعقلِ، هذا الاتِّساقُ الذي عجَزَ عن اكتشافِه المُتحَجِّرونَ في قِراءةِ النُّصوصِ، والوقَّافُون عِندَ ظواهرِها مِمَّن ثَقُلَ عليهم النَّظَرُ العقليُّ، مِن

غُلاةُ العَقليِّينَ والرُّوحيِّينَ الذين غامَروا بقُدسيَّةِ النَّصِّ وتَعاليه وقدرته على تَسديدِ العَقلِ وتَصويبِ أخطائِه.

يقولُ الإمامُ تاجُ الدِّينِ السُّبكيُّ: «اعلَمْ أنَّ الأشعريَّ لم يُبدِعْ رأيًا ولم يُنشِئْ مَذهبًا، وإنَّما هو مُقرِّرٌ لمذاهبِ السَّلفِ، مُناضِلٌ عمَّا كانَت علَيه صحابةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فالانتسابُ إليه إنَّما هو باعتبارِ أنَّه عقَدَ على طريقِ السَّلفِ نِطاقًا وتمسَّك به، وأقامَ الحُجَجَ والبراهينَ علَيه، فصارَ المُقتدِي به السَّالكُ في الدَّلائلِ يُسمَّى أشعريًّا»[(١)].

ثانيًا: أنَّه مَذهَبُ السَّلامِ بينَ النَّاسِ جميعًا؛ لأنَّه المَذهَبُ الوحيدُ الذي يجعَلُ مِن وحدةِ الأُمَّةِ أصلًا، ولا يجترِئُ علَى إقصاءِ مسلِمٍ واحدٍ مِن أُمَّةِ الإسلامِ، ولا يخلَعُ عنه رِبقَةَ الإسلامِ ما دامَ يؤمِنُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ، ولا يُكفِّرُ أحدًا مِن أهْلِ القِبلَةِ، وقد روَى ابنُ عساكرَ أنَّ الأشعريَّ حينَ حضَرَته الوفاةُ في بغدادَ قالَ لأحَدِ تلاميذِه: «اشهَدْ عليَّ أني لا أُكفِّرُ أحدًا مِن أهلِ هذه القِبلَةِ؛ لأنَّ الكُلَّ يُشيرونَ إلى مَعبودٍ واحدٍ، وإنَّما هذا كلُّه اختلافُ العباراتِ»[(٢)].

ومِمَّا يدلُّ على نفورِه الشَّديدِ -رحمه اللَّه!- مِن نزَعَاتِ التَّكفِيرِ التي ضَرَبَتِ استقرارَ مُجتمعاتِنا -اليومَ- في مَقتلٍ، وإدراكِه المُبكِّرِ لما تتأدَّى إليه هذه النَّزعةُ المُغلَقةُ مِن استحلالٍ للدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ -أنَّه ألَّف كتابًا يجمَعُ الفِرَقَ الإسلاميَّةَ، بعنوان: «**كتاب مَقالاتِ الإسلامِيِّينَ واختلافِ المُصلِّينَ**»[(٣)] عَرَضَ فيه لعَشَرَةِ أصنافٍ مِن فِرَقِ المُسلمِينَ[(٤)] -بما فيهم

(١) «طبقاتُ الشَّافعيَّةِ الكبرى»: ٣/ ٣٦٥.

(٢) «تبيينُ كذِبِ المُفترِي»: ١٤٩.

(٣) صفحة: ٥ (طبعة ريتر).

(٤) وهم -كما ذَكَرَ الإمامُ الأشعريُّ-: الشِّيعَةُ، والخَوارِجُ، والمُرجئةُ، والمُعتزِلَةُ، والجَهْمِيَّةُ، والضِّراريَّةُ، والحُسَيْنِيَّةُ، والبَكْرِيَّةُ، وأصحابُ الحَديثِ، والكُلَّابيَّةُ: ١/ ٦٥ (طبعة: القاهرة).

الخوارِج- وبَيَّنَ أنَّ الإسلامَ يسَعُهم جميعًا؛ لأنَّهم مِنَ المُصَلِّينَ، رغمَ ما بينَهم مِن اختلافٍ في بعضِ الأُصولِ وكثيرٍ مِن الفُروعِ.

والذي يَدُلُّكَ على أنَّ هذا الإمامَ يتقيَّدُ في مَذهَبِه بسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ويَقفُو أثَرَه، ويَنْسِجُ على خُيوطِ مِنوالِه الشَّريفِ في سِياسَةِ الأُمَّةِ -ما رَواه الإمامُ البُخاريُّ في صَحيحِه[١] مِن حَديثِ أنسِ بنِ مالِكٍ رضي اللَّه عنه قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلاتَنا، واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنا، وأكَلَ ذَبِيحَتَنا، فذلك المُسْلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللَّهِ وذِمَّةُ رَسُولِه، فلا تَخفِرُوا اللَّهَ في ذِمَّتِه**».

وما أعرِفُ مَذهَبًا آخَرَ تَرَسَّمَ خُطَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وخُطَى صَحابَتِه والسَّلَفِ الصَّالِحِ في هذا المِفْصَلِ المِحْوَرِيِّ في وَحْدَةِ الأُمَّةِ، واحْتاطَ لَه، وعَرَفَ له شَأنَه وخَطَرَه مِثْلَ المَذهَبِ الأَشْعَرِيِّ..

وحَسْبُكَ أنْ تُلْقِيَ نَظْرَةً لأسبابِ الوَهْنِ الذي حاقَ بِنا أَخيرًا، وأَطْمَعَ فِينا الأُمَمَ الَّتي تَداعَتْ عَلَينا - لِتَعْلَمَ أنَّ التَّكفيرَ عَلَى المَذهَبِ بينَ السُّنَّةِ والسُّنَّةِ، وبينَ الشِّيعَةِ والسُّنَّةِ، وبينَ الشِّيعَةِ والشِّيعَةِ - هو الوَقُودُ الذي يُبْقِي جَذْوَةَ الحُروبِ بينَ المُسلمينَ مضطرمةً، لا يَخْبُو لها أُوارٌ، ولا يُعْرَفُ متى يَنطَفِئُ لَهِيبُها الذي دمَّرَ البِلادَ والعِبادَ.

ولقَد نَبَّهَ الأَشعريُّ في الأَسْطُرِ الأُولَى في كِتابِه السابقِ إلى هذه الكارِثَةِ، وعَرَضَها في أُسلوبٍ يُشبِهُ أُسلوبَ الحَزينِ السَّاخِرِ، وبعِبارَةٍ ما أحوجَ الأُمَّةَ إليها اليومَ، بل لا مَفرَّ لها مِنها لاستعادَةِ وَحدتِها وقُوَّتِها، يقولُ الأشعريُّ: «اختلَفَ النَّاسُ بعدَ نبيِّهم ﷺ في أشياءَ كثيرةٍ، ضَلَّلَ فيها بعضُهم بعضًا وبرئَ

---

(١) (ح٣٩١). ومعنى «فلا تخفِرُوا اللَّهَ في ذمَّتِه»: أي: فلا تنقضُوا العهدَ. انظر: «طِلبَة الطَّلبَة» للنسفي: ١٦٣.

بعضُهم مِن بعضٍ، فصارُوا فِرَقًا مُتباينينَ وأحزابًا مُتشتِّتين، إلَّا أنَّ الإسلامَ يجمَعُهم ويشتمِلُ علَيهم»[(١)].

وهذا الذي يحرِصُ الأشعريُّ علَى تصديرِ كتابِه به يحرِصُ تلاميذُه أيضًا مِن بعدِه علَى تقريرِه وتأكيدِه، ونكتفِي لضيقِ المقامِ بنصِّ البغداديِّ في فصلٍ مِنَ الكتابِ السَّابقِ عُنوانُه: «في بيانِ عِصمةِ اللَّهِ أهلَ السُّنَّةِ عن تكفيرِ بعضِهم بعضًا» يقولُ فيه: «أهلُ السُّنَّةِ لا يُكفِّرُ بعضُهم بعضًا، وليسَ بينَهم خِلافٌ يُوجِبُ التَّبرِّيَ والتَّكفيرَ. . واللَّهُ تعالَى يحفَظُ الحقَّ وأهلَه فلا يقَعونَ في تنابذٍ وتناقُضٍ».

ثمَّ يصِفُ حالَ الفِرَقِ الأُخرَى وكأنَّه يصِفُ حالَنا اليومَ، فيقولُ: «وليسَ فريقٌ مِن فِرَقِ المُخالفِينَ إلَّا وفيهم تكفيرُ بعضِهم لبعضٍ، وتبرِّي بعضِهم مِن بعضٍ. . . حتى اجتمَعَ سبعةٌ مِنهم في مجلسٍ واحدٍ فافترَقُوا عن تكفيرِ بعضِهم بعضًا»[(٢)].

وأنت حيث نظَرْتَ إلى تاريخِ الأشاعِرَةِ والماتريديَّةِ لا تراهم يُقصِي بعضُهم بعضًا أو يُقصُونَ الفِرَقَ الأُخرَى؛ وسببُ ذلك أنَّ دائرةَ التَّكفيرِ في المذهبِ الأشعريِّ والماتريديِّ شديدةُ الضِّيقِ، إلى أبعد مدى ممكن، وهي الخلفية العقدية الثابتة التي يستند إليها الأشاعرةُ في عِصمَةِ دِماءِ النَّاسِ -على مَدَى تاريخِهم- وحُرمةِ هَتْكِ أعراضِهم وسَبْيِ نِسائِهم وأموالِهم، وقد أدَّى انحرافُ فِرقةِ الخوارجِ قديمًا، والفِرقِ المكفِّرةِ حديثًا إلى جريمةِ التَّكفيرِ بالذَّنبِ وإراقةِ دماءِ المسلمِين واستباحةِ أموالِهم وأعراضِهم.

(١) «كتابُ مَقالاتِ الإسلاميِّينَ»: ٣٤.
(٢) «الفَرْقُ بيْنَ الفِرَق»: ٢١٩.

ولكنَّنا لا نستطيعُ أنْ نتجاهَلَ ظُهورَ هذه المذاهبِ المتطرِّفَةِ بينَ الحينِ والحِينِ الآخَرِ، وبخاصَّةٍ في عصرِنا الحديثِ، وهي -علَى تنوُّعِها- ذاتُ صِلَةٍ فكريَّةٍ عميقَةِ الجُذورِ بتُراثِ الخَوارِجِ، ومَسلَكِ أصحابِ «مِحنَةِ خَلقِ القُرآنِ» و«فِتنةِ الحنابلةِ»، وأنَّ المذهَبَ الأشعريَّ كان هو العاصِمَ مِن الانحرافاتِ، أو المصحِّحَ لأخطائِها وأخطارِها وتداعياتها، فبسَبَبٍ مِن هذا المَذهبِ المُؤسَّسِ عَلَى رُوحِ الإسلامِ في إفشاءِ السَّلامِ بينَ النَّاسِ، لم يعرِفِ المسلِمون فيما بينَهم حُروبًا دينيَّةً مثلما عرَفَ تاريخَ غيرِهم مِنَ الحَروبِ الثَّلاثينيَّةِ والسَّبعينيَّةِ وغيرِها.

والذي يتَدَبَّرُ تاريخَ الفِرَقِ في القُرونِ الأُولَى لا يَعيبُه أنْ يكتشِفَ أنَّ قضيَّةَ التَّكفيرِ بالذَّنبِ كانَت هي الأفعَى التي تُطِلُّ برأسِها بينَ الحِينِ والآخَرِ مُبَشِّرَةً بالحَربِ والقَتلِ والدِّماءِ - وأَغلَبُ الظَّنِّ أنَّ الإمامَ الأشعريَّ كان يستَشعِرُ في عهدِه خطَرَ هذه القضيَّةِ على المسلِمين، ممَّا دعاه إلى ضرورَةِ فَصلِ القَولِ في قَضِيَّتَينِ أساسيَّتَينِ لو تُركَتا لِعَبَثِ العابِثِين وتحريفِ المتأوِّلينَ، فإنَّ الأُمَّةَ لا تَلبَثُ أن تَذرُوها الرِّياحُ وتُصبِحَ أثَرًا بعدَ عَينٍ، وأعنِي بهاتَينِ القضيَّتَينِ:

- عَلاقَةَ العَمَلِ بحقيقَةِ الإيمانِ وجَوهَرِه وماهيَّتِه.
- وعَلاقَةَ الذُّنوبِ -كبائِرَ وصغائِرَ- بالكُفرِ والخُروجِ مِنَ المِلَّةِ.

وهاتانِ المسألتانِ تَستحِقَّانِ بحثًا مستقِلًّا أرجو أنْ يُوَفِّقَني اللَّهُ تعالى لإتمامِه وتَقديمِه للنَّاسِ في أُسلوبٍ يَسْهُلُ استيعابُه والإفادَةُ منه.

هذه النَّزعَةُ الإنسانيَّةُ التي تُشَكِّلُ لُبَّ مَذهَبِ الأشاعِرةِ والماتُريديَّةِ لا تجِدُها بالوضوحِ نَفْسِه والقُوَّةِ ذاتِها، مُعْلَنَةً ولا حاكِمَةً على مفاصِلِ المَذاهِبِ الأُخرَى كما تَجِدُها عندَ الأشاعِرةِ. فالخوارِجُ والمعتزِلَةُ والشِّيعَةُ والمُتشدِّدون مِنَ الحنابلةِ قديمًا وحديثًا أمْرُهم معروفٌ في التَّساهُلِ

والتَّسَرُّعِ في الحُكمِ على جماهيرِ المسلمِين بالفِسقِ والضَّلالِ والخُروجِ مِنَ المِلَّةِ..

وقد عَلِمنا -فيما مَرَّ- شيئًا مِن تَسَلُّطِ المعتزِلَةِ على أهلِ الحَديثِ وفي مقدمتِهم الإمامِ الجليلِ: أحمدَ بنِ حنبلٍ رضي اللَّه عنه، واستِعداءِ السُّلطَةِ في عصرِهم الذَّهبيِّ على كُلِّ عالِمٍ لا يعتَنِقُ مَذهَبهم، كما علِمنا: فِتنةَ الحَنابِلَةِ واعتداءَهم على الأشاعِرَةِ وارتكابَهم جَرائمَ الضَّربِ والمُطارَدَةِ والجُرأةِ على سَفْكِ الدِّماءِ.

وخُلاصةُ القَولِ أنَّ «أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ» هم جماهيرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، وأنَّ أئمَّتَهم هم: مالكٌ والشَّافعيُّ وأبو حنيفةَ وابنُ حنبلٍ، والأشعريُّ والماتُريديُّ وتلاميذُهما ومدارسُهما، والحسنُ البَصريُّ والجُنَيدُ والمُحاسبيُّ والسَّرَّاجُ وحُجَّةُ الإسلامِ الغَزاليُّ، وأهلُ الحديثِ وفُضلاءُ الحنابلةِ وعلماؤُهم ممَّن يتمسَّكونَ بنهجِ الإمامِ أحمدَ وزُهدِه، وما عُهِدَ منه وعُرِفَ مِن سيرتِه مِن فِرارِه الشَّديدِ مِنَ الولوغِ في الدِّماءِ والتَّسَرُّعِ بتفسيقِ المسلمين مرَّةً وإخراجِهم مِنَ المِلَّةِ مرَّةً أُخرَى.

ومذهبُ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» هو الذي أوصَى النبيُّ ﷺ بالاعتصامِ به والإمساكِ بطَوقِه حينَ يضطربُ أمرُ المُجتمعِ المُسلمِ وتغشاهُ الفِتَنُ وتنحرفُ به السُّبُلُ، فقالَ: «**عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ**»[(١)].

وفي الخِتامِ أقولُ: أعلَمُ أنِّي قد توسَّعتُ في جَلْبِ نصوصٍ واقتباساتٍ ربَّما تكونُ غيرَ مُستساغةٍ لدَى المُتخصِّصِين مِن أهلِ العِلمِ، ولكِن إنْ كنتُ قد

---

(١) أخرجَه التِّرمذيُّ (٢١٦٥) مِن حديثِ عمرَ بنِ الخطَّابِ ﷺ، وقالَ: «حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ».

أَطَلْتُ في هذه المُحاضرَةِ، فعُذرِي أنَّ الوَضعَ المُتردِّي الذي صارَت إليه الأُمَّةُ اليَومَ لَمْ يَعُدْ يَحتمِلُ أحاديثَ المُجامَلاتِ والإشاراتِ ومُراعاةِ الخواطِرِ، وأنَّه لم يَعُد أمامَنا إلَّا هدَفٌ واحدٌ هو لَمُّ شملِ الأُمَّةِ، وغسلُ العُقولِ والقُلوبِ مِنَ العقائدِ السَّوداءِ، والتَّأويلاتِ التي يُنكِرُها الإسلامُ وشريعَتُه أشَدَّ الإنكارِ، وعلَينا أن نعلَمَ عِلمَ اليقينِ أنَّه لا يصلُحُ آخِرُ هذه الأُمَّةِ إلَّا بما صلُحَ به أوَّلُها، وما صلُحَ به أوَّلُها هو مَذهبُ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» بيُسرِه وسماحَتِه ورُوحانيَّتِه ومظلَّتِه الواسعةِ الشَّاملةِ.

وإذا كانَ لي مِن كَلِمَةٍ أَختِمُ بها هذه المُحاضَرَةَ فهي: ندائي لكُلِّ مَن تنكَّبوا هَدْيَ قُرآنِهم وسُنَّةَ نَبيِّهم، وتفرَّقَت بهم السُّبُلُ عن صِراطِها المُستقيمِ أن يثوبُوا إلى رُشدِهم، ويُحَكِّمُوا ضمائرَهم فيما يقترِفُونَه مِن آثامٍ وجرائمَ، وأن يعلَمُوا أنَّ هذه التَّأويلاتِ الفاسدةَ لن تُغنِيَ عنهم مِنَ اللَّهِ شيئًا يومَ القيامةِ، وأنَّهم سيُسألون -لا محالةَ- عن هذه الدِّماءِ، وهذا الإفسادِ في الأرضِ، وأنَّ بابَ التَّوبةِ مَفتوحٌ لمَن رجَعَ وتابَ وأنابَ، وعليهم أن يُعيدُوا قراءةَ القُرآنِ بفَهمٍ صحيحٍ وقَلبٍ سليمٍ، ويتدبَّروا آياتِه، ويستضيئوا بقبَسٍ مِن نورِ نبيِّهم ﷺ الذي بعَثَه اللَّهُ رحمةً للعالَمينَ كلِّ العالَمينَ.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧، ١٨] صدق اللَّه العظيم.

* * *

إمـــام الهدى أبو منصور الماتريـــدي(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

حضرات السادة العلماء!

السيدات والسادة!

السَّلام عَليكُم جميعًا وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه .. وبعد:

فيُسعدني أن أبدأ كلمتي هذه بتقديم خالصِ الشُّكْرِ الجزيلِ لدولةِ أوزباكستان: رئيسًا وحكومةً وشعبًا، وأخصُّ بالشُّكر فخامة الرئيس شوكت مير ضيايف، رئيس جمهورية أوزباكستان، على دعوتي للمشاركة في هذا المؤتمر الكبيرِ، وعلى كَرَمِ الضيافةِ وحفاوةِ الاستقبال.

وإنَّه لَمؤتمرٌ بالغُ الأهميَّةِ في موضوعِه، وفي سياقِه الضَّروريِّ الصَّحيح: زمانًا ومكانًا وغايةً.. وهو أَمارةٌ على فِطنةِ القائمينَ عليهِ وانتباهِهِم لضَرُورةِ اكتشافِ الجذورِ، والتنقيبِ في التراثِ العريقِ عن الأُصُولِ الثابتةِ والقواعدِ الراسخةِ، واستصحابِها للتدرُّع بها في مُعتَرَكِ النهضاتِ وصِراعِ الحضارات..

إنَّ هذا المؤتمر هو -بامتيازٍ- مؤتمرُ اكتشافِ الذَّاتِ وملامح الهُويَّة وقسماتِها، وإزاحةِ الغُبارِ عن الرَّصِيدِ الحضاريِّ، والموروثِ الفِكريِّ والرُّوحيِّ، من عُلومِ العقلِ والنقلِ والذوقِ، بعدَما أَوْشَكَ أن يخفُتَ نورُه، وتنطمسَ معالِمُه في فتراتِ ظلامٍ حالكٍ مرَّت ببلادِكم كما مرَّت ببلادِ المسلِمين في كُلِّ قارَّات الدُّنيا.

(*) كلمة افتتاحية ألقيت في مؤتمر «الإمام أبو منصور الماتريدي» بأوزباكستان، في الفترة: ٨-١٠ من رجب سنة ١٤٤١هـ، الموافق: ٣-٥ من مارس سنة ٢٠٢٠م.

والذي يُدقِّقُ النظَرَ في حال الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ اليومَ - لا يُساوِرُه أدنى شكٍّ في أنَّها تقفُ في مُفترَقِ طريقَيْن لا ثالثَ لهما: إمَّا التطوُّرُ في إطارِ تأكيدِ الذاتِ والحفاظِ عليها، واتخاذِها مَرجِعًا أوَّلَ لما تَأخُذُ وما تَدَعُ، وإمَّا التِّيهُ والانتحارُ في حالِ إلغاءِ الذاتِ أو الهروبِ منها أو تجاهُلِها.. ولَعَلِّي لا أكونُ مُتَشائمًا لو قلتُ: إنَّ عالَمنا العربيَّ والإسلاميَّ لا يزالُ يُراوِحُ مَكانَه بين هذين النقيضَيْن: لا يحسمُ أمرَه، ولا يعرفُ أين يُولِّي وَجْهَه، رُغم أنَّه تَحرَّرَ من الاستعمارِ منذُ أكثَرَ من نصفِ قرنٍ مَضَى، وتِلكُم فترةٌ كافيةٌ للنقاهةِ واستعادَةِ العافيةِ، والقُدرةِ على اتخاذِ القرارِ وضبطِ الاتجاهِ.

وقد زاد الطِّينَ بِلَّةً طُغيانُ العولمةِ ودعوتُها لصياغةِ العالمِ صياغةً كونيَّةً واحدةً، وتنميطِه في نمطٍ حضاريٍّ واحدٍ «يُمَكِّنُ الأقوياءَ من فرضِ الديكتاتوريَّات اللاإنسانيَّة -فيما يقولُ الفيلسوفُ الفرنسيُّ روجيه جارودي- والتي تَسمَحُ بافتراسِ المُستَضعَفين بذريعةِ التبادُلِ التجاريِّ وحريَّةِ السُّوق»[(١)].

ولسنا نُبالغ إن قُلنا: إنَّ العولمةَ ليست إلا نسخةً مُتوحِّشةً، وعهدًا جديدًا من عُهودِ الاستعمارِ «يَشطُرُ العالَمَ شِطرَيْن: عالَم المُنتجين والمسيطِرين عبرَ الشركات والبنوك والشبكات، وعالَم المُستهلِكين للمَأكُولاتِ والمُعلَّبات والمشروبات والصُّوَرِ والمعلوماتِ التي تُفرَضُ عليهم»[(٢)].. ولم يَنْسَ المُستعمِرون -كالعادةِ- أن يُقدِّمُوا بين يدي «العولمة» نظريَّاتٍ استعماريةً ألبَسُوها ثَوْبَ الفلسفةِ والبحثِ العلميِّ، مثل نظريَّةِ: «صِراع الحضارات»، ونظريَّة: «نهاية التاريخ»، تَعمَلُ على تزييفِ وَعْيِ الشعوبِ وشَلِّ إرادتِها

---

(١) روجيه جارودي: العولمة المزعومة. ص ١٧، نقلاً عن عبد الستار الهيتي: الحوار، الذات والآخر، كتاب الأمة (عدد ٩٩) ص ١٥٥.

(٢) محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر العربي المعاصر ص ١٤٨، نقلاً عن المصدر السابق (كتاب الأمة عدد ٩٩) ص ١٥٧.

وتحذيرِها من استعادةِ شخصيَّتِها واكتشافِ ذاتِها وهُويَّتِها، وهذه النظريَّاتُ ليست جديدةً ولا مُستَحدَثة، بل هي خمرٌ قديمٌ تباعُ في جِرارٍ جديدة، فيما يقولُ المَثَلُ المعروفُ.. فمِثلُ هذه النظريَّات ليست -في الحقيقة- إلَّا استِنساخًا للنظريَّةِ العُنصريَّةِ التي سَعَتْ بين يدي الاستعمارِ الأوروبيِّ في القُرُونِ الثلاثةِ الماضيةِ، وأعني بها نظريَّةَ «عِبْءِ الرجلِ الأبيضِ» أو «أمانةِ الرجلِ الأبيضِ»، وتَبِعَتِه أمامَ اللَّه لتعليمِ الذين لم يَبلُغوا مَبْلَغَه في العلمِ والارتقاء، من غيرِ أصحابِ البشرةِ البيضاء.. وفيما عُرِفَ -وقتَها- بنَظريَّة «العُنصريَّة الآريَّة»، وهي نظريَّةٌ ما لَبِثَ البحثُ العِلميُّ أنْ أحالَها إلى مجرَّدِ زعمٍ عُنصريٍّ، وأكذوبةٍ كُبرى على العِلم وعلى التاريخِ. والشيءُ نفسُه يُقالُ على فلسفاتٍ استعماريَّةٍ أُخرى عاصَرْنَاها، ووَعَدَتْنا بالفردوسِ المفقودِ إن نحن أدَرْنا ظُهُورَنا للَّه، وكفَرْنا به وبرِسالاتِه، ونفَضْنا أيدِيَنا أو غسَلْنَاها -من كُلِّ مواريثِنا التي أثمَرَتْها الأديانُ- من آلافِ السنين، واستَبْدَلْنا بها فلسفاتِ الإلحادِ والديالكتيكَ الطبيعيَّ والتاريخيَّ، وخُرافةَ عالمِ الغَيْبِ وفَوْضَى الأخلاقِ، وطَيْشَ الأفكارِ وحُريَّةَ التحلُّلِ من القِيَمِ، وتدميرَ الحدودِ بين الخيرِ والشرِّ، والحَسَنِ والقبيحِ.. وقد جُسِّدَ لنا كُلُّ ذلك في مسرحيَّاتٍ وروايَاتٍ وأفلامٍ ومُقرَّراتٍ جامعيَّةٍ في الفلسفةِ والسياسةِ والاقتصادِ.. ونَحمَدُ اللَّه أن امتَدَّ بنا العمرُ لِنَرَى بأُمِّ أعيُنِنا كيف انهارَ المعبدُ على رُهبانِه، دُونَ مُقدَّماتٍ أو أسبابٍ أو عِلَلٍ تُؤدِّي إلى نتائجِها، وتَجِيءُ على مِقدارِها.

السَّادة الحضور!

لا يَسبِقَنَّ لأذهانِ حضراتِكم أنَّ هذه المقدِّمةَ التي رُبَّما طالت قليلًا - غريبةٌ على موضوعِ المؤتمرِ، وهو: إمامُ الهدى أبو منصورٍ الماتريديُّ ﵁ لأنَّها -في واقع الأمر- تَرِدُ مَوْرِدَ البيانِ والكشفِ عن أهميَّةِ هذا المؤتمرِ،

وأنَّه مؤتمرٌ لا تبعثه أريحيَّةُ التكريمِ لأوائلِ الرُّوَّادِ من العُلَماءِ وأئِمَّةِ الفِكرِ، بقَدْرِ ما تبعثُه ضروراتُ الشعوبِ من الأممِ المقهورةِ أو المغلوبةِ على أمرِها، وحَقُّها في عيشٍ آمِنٍ مشتركٍ، وسلامٍ يَعُمُّ الشرقَ كما يَعُمُّ الغرب، كَيْلَا تَتفاقَمَ الأزمةُ ويَرتَدَّ العالَمُ بأسْرِه إلى عُصورِ ما قَبْلَ التاريخ. بل الأَحْرَى والأَخْلَقُ بهذا المؤتمرِ أن نَنظُرَ إليه بحُسبانِه ضَوْءًا يَسطَعُ في نهايةِ نَفَقٍ شبهِ مُظلِم، أو مَرْكبًا آمِنًا في بحرٍ مُتَلاطِمِ الأمواجِ، وذلك من مَنظُورَيْنِ بالغَيِ الدقَّة والأهميَّة:

المنظور الأول: هو تحديدُ موقفِ الأمةِ من طُوفانِ الحداثةِ وما بعدَ الحداثة، وتَسلُّطُ رُؤاها وأنظارِها، وبكُلِّ وسائلِ التواصلِ الحديثةِ، على عُقُولِ الصغارِ والكبارِ، بل على طائفةٍ ممَّن يَملِكون التأثيرَ على عُقُولِ الشبابِ، سواءٌ بالكلمةِ المكتوبةِ أو «المتلفَزةِ» على شاشاتِ الفضاءِ، أو عَبْرَ وسائلِ التواصُلِ الاجتماعيِّ.. والأخطَرُ: أنَّ بعضًا مِمَّن يَتزيَّوْنَ بزيِّنا ويتحدَّثُون بلُغتنا، اختلطت في أذهانِهم أوراقُ «الحداثةِ» في نُسختِها العربيَّة، بأوراقِ دعوةِ التجديدِ أو دعوةِ إصلاحِ الفكرِ الدينيِّ، ونَتَجَ من هذا الخلطِ -المتعمَّدِ أو غير المتعمَّدِ- استباحةُ الحديثِ عن الإسلامِ من غُرَباءَ على عُلومِه النقليَّةِ والعقليَّة، بل استباحةُ التطاولِ -أحيانًا- على أئمَّةِ المسلمينَ وأعلامِهم الأفذاذ.. وليس لهذا الاضطرابِ الذي أَوْشَكَ أن يكونَ «تِيهًا يَتربَّصُ بالأُمَّةِ كُلِّها» إلا مخرجٌ واحدٌ هو «إحياءُ التراثِ»، ودراستُه وتدريسُه في المعاهدِ والجامعاتِ المختصَّةِ، وانتقاءُ ما يُساعِدُنا على نهضةٍ حديثةٍ تجمعُ بينَ قِيَمِ التراثِ والتطوُّرِ الفكريِّ والتقنيِّ.. وهذا أمرٌ يحتاجُ إلى أن يُعقَدَ له أكثرُ من مؤتمرٍ يَضُمُّ جميعَ علماءِ المسلمين للتباحُثِ حولَ كيفيَّةِ الإحياءِ، وتحديدِ معاييرِ «الفَرْزِ» بين ما يُستَدعَى من الأُطُرِ التشريعيَّةِ والقواعدِ الفقهيَّةِ التي تَسمَحُ بتغيُّرِ الصورِ الجزئيَّة وتبدُّلها، وبين ما

يَبقَى خاصًّا بزَمَنِه الذي قِيلَ فيه، ولا يُفيدنا استصحابُه في زمَنِنا هذا شيئًا ذا بالٍ.. وهنا يكونُ بَعْثُ التراثِ وعقدُ المؤتمراتِ المتخصِّصةِ في مجالِه أمرًا يجبُ تشجيعُه والثناءُ عليه، وشُكرًا مرَّة أخرى لدولةِ أوزباكستان على هذا السَّبْقِ الذي يحقُّ لها أنْ تَفخرَ به، وتعتز.

أمَّا المنظور الثاني: الذي تتبيَّن منه «قيمةُ هذا المؤتمر» فيَنبُعُ من أنَّه يأتي تعبيرًا عن مذهبِ «أهل السُّنَّة والجماعة» وهو مذهبُ السوادِ الأعظمِ من المسلمين، ويَعني هذا المفهومُ في المقام الأوَّل: الأشاعرةَ والماتريديَّةَ وأهلَ الحديثِ من الأحنافِ والمالكيةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ، وأئمَّةَ علومِ الذَّوْقِ والسُّلوكِ، وأهلَ اللغةِ والبيان، ومن المؤلمِ أن نُشِيرَ -من جديدٍ- إلى ما ابتُلِيت به الأُمَّةُ في الآونةِ الأخيرةِ من اضطرابِ مفهومِ «أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ» في أذهانِ نابتةٍ من أبنائها جعَلُوا منه شارَةً بل عَلَمًا على التشدُّدِ والتطرُّفِ، والغُلُوِّ والتكفيرِ، واستباحةِ الدِّماء، وحَكَمُوا على مَن لا يَعتَقِدُ عقائدَهم بالخروجِ من دائرةِ أهل السُّنَّة والجماعةِ.. ونحن في الأزهرِ نعملُ ليلَ نهارَ على تصحيحِ هذا المفهومِ، وعودتِه إلى دلالتِه الحقيقيَّةِ التي أجمَعَ عليها المسلمون على مدى أكثر من ألفِ عام.

ونحن إذ نَبذُلُ الجُهدَ في التعريفِ بمذهبِ الإمامِ الماتريديِّ الحنفي في بلاد ما وراءَ النهرِ وما جاوَرَها، ومذهبِ مُعاصِرِه الإمامِ الأشعريِّ الشافعيِّ في العِراقِ والشام ومصرَ والمغرب، فإنَّنا نفعلُ ذلك وفاءً للأزهرِ الشريف الذي التحقتُ به عام ١٩٥٦م من القرن الماضي، ودرستُ في مرحلتَيْه: الابتدائيَّةِ والثانويَّةِ شرحَ الخريدةِ، وشرحَ الجوهرة، وهما كتابان مدرسيَّان في تعليم مذهب أهل الحقِّ.. وفي كلية أصول الدِّين التي التحقتُ بها عام ١٩٦٥م، نسجنا على المنوالِ ذاتِه في مُقرَّرات علمِ الكلامِ، وسَمِعنا أوَّلَ ما

سمعنا في هذه الكليَّة العريقة عبارةَ الإمامِ النسفيِّ التي يَفتتحُ بها العقيدةَ المنسوبةَ إليه. وهي: «قال أهلُ الحقِّ: حقائقُ الأشياءِ ثابتةٌ، والعِلمُ بها مُتحقِّقٌ، خِلافًا للسوفسطائيَّة»، وحَفِظنا ما قالَه الشُّرَّاح في بيانِ المراد من «أهلِ الحقِّ»، وأنَّهم الأشاعرةُ والماتريديَّةُ.

وقد كُتِبَ الخلودُ لمذهبِ هذَيْنِ الإمامَيْنِ بسبب أنَّه لم يكن مذهبًا جديدًا اختَرَعه الماتريديُّ أو الأشعريُّ، يميل إلى العقل على حساب النَّص، أو ينحاز لظاهر النص على حساب العقل، وإنما هو مذهب يقرِّر ما عليه أصحاب رسول اللَّه ﷺ، يتمسَّك به ويناضل عنه ويقيم الحجج والبراهين عليه فيما يقول: تاج الدِّين السبكي في طبقات الشافعية.

وأختم بتساؤل قد يبدو سطحيًّا في ظاهره، وإن كان محوريًّا في الواقع ونفس الأمر، وهو: هل الأمة الإسلامية اليوم بحاجة إلى مذهب الإمامين الجليلين: الماتريدي والأشعري ومذهب أهل الحديث؟ والجواب المباشر هو: نعم وألف نعم، بل أذهب إلى أبعد من ذلك لأقول: إنَّه لا يوقِف حمامات الدِّماء التي أُريقَت على مذابح التكفير إلَّا مذهب أهل السنةِ والجماعة. فنحن نعلم يقينًا أنَّ الجماعات المسلَّحة التي تنتسب للإسلام لا ترتكب جرائمَ القتلِ وإراقة الدماء إلا انطلاقا من عقيدة فاسدة تقول: إن مرتكب الذنوب والكبائر كافر ودمه حلال، وإن صلى وصام وقال: إنه مسلم، فكلُّ مُرتكبٍ لكبيرةٍ هو في نظَرِهم كافرٌ، ودمه وماله وعِرضه حلال.. فالتكفير بالكبائر هو بريد استحلال الدِّماء، وهو مذهبٌ دمويٌّ يتستَّر بالدِّين، وهنا نلفت أنظار -غير العلماء والمتخصِّصين- إلى أنَّ المذهب الوحيد، وأكرِّر: الوحيد، الذي لا يكفِّر أحدًا من أهل القِبلة، ولا يُخرج أحدًا من المسلمين من دائرة الإسلام، حتى وإن ارتكب جميعَ الكبائر

ومات عليها - إنَّما هو مذهب أهل السنة والجماعة، يقول الأشعريُّ وهو يلفظُ آخر أنفاسه في بغداد: «اشهدوا عليَّ أني لا أُكفِّر أحدًا من أهلِ هذه القِبْلَة، لأنَّ الكل يُشيرون إلى معبودٍ واحد، وإنَّما هذا كله اختلاف عبارات»(١). . والمذهب نفسه نجده عند الإمام الماتريدي، وبصورة موسَّعة تعقب فيها آراء الخوارج والمعتزلة وسائر المكفِّرين بالكبيرة، وفنَّدها عبر ست وخمسين صفحة في الباب الرابع من كتابه الرائع، كتاب التوحيد(٢)، وهذا هو ما قرَّره رسول هذه الأمة -ﷺ- في بيان صريح واضح وضوح الشمس في رابعة النهار «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ»(٣).

وإني لأتساءل: أَلَا يُمثِّلُ مذهبُ الإمام الماتريدي، الذي نلتقي اليومَ لإحياء مدرستِهِ في سمرقند مسقط رأسه، وفي جوار مثواه الأخير - أَلَا يمثل هذا المذهب طوقَ نجاة لشبابنا الذي انخرط مع المُكفِّرَةَ والقَتَلَةِ؟ ويستوجب من الأمة كلها أن تروِّج هذا المذهب الذي يُعبِّر في أمانةٍ وصدق عن روح الإسلام وانحيازه للإنسان، ولحرمة دمه وماله وعِرضه. وألَّا تدَّخر الأمةُ وُسعًا في تدريسه للناشئة ولطلاب العلم، وأن تفسح له ولو مكانًا ضيِّقًا فيما يبثُّه إعلامُها من لقاءات وحوارات.

وأختمُ كلمتي بدعوة الباحثين إلى بذل المزيد من الجهد للكشف عن تراث هذا الإمام العبقري، المتعددِ المواهب والمعارف والعلوم. . وإني لأعتزُّ بأن أقول: إنَّ علماء الأزهر الشريف قدَّموا بعضًا مما يستحقه شيخُنا

(١) ابن عساكر: تبين كذب المفتري، ١٤٩.
(٢) ص: ٤١٥-٤٧١، بتحقيق أ.د. بكر طوبال أوغلي وأ.م. أروشي.
(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٩١) من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه.

الماتريدي رحمه اللَّه حيث كُتب عنه في أروقة الأزهر قرابةَ خمسين رسالة جامعية عنه وعن مدرسته الماتريدية، وفي الطريق المزيد إن شاء اللَّه عن هذا الإمام وعن مدرسته في العقيدة والأصول والتفسير والفقه وغيرها.

* * *

شكرًا لحسن استماعكم، والسَّلام عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه.

في
الفتوى وما إليها

الفَتوى وأثرُها في حياةِ المسلمِ (*)

إنَّ جامعةَ الأزهرِ الشريفِ أقدمُ وأشهرُ جامعةٍ في العالَمِ الإسلاميِّ، بل العالمِ كلِّه؛ فتاريخُها هو تاريخُ الجامعِ الأزهرِ الذي بدأتِ الدراسةُ فيه عام: ٣٦١هـ، الموافقَ لسنةِ: ٩٧٢م؛ أي: منذُ أكثرَ مِن ألفِ عام وما زالَ حتى اليومَ يمُدُّ العالَمَ الإسلاميَّ كلَّه بالإسلامِ الصحيحِ؛ شريعةً وأحكامًا وفتاوى تتصدَّى لمستجدَّاتِ العصورِ وتطوراتِ الزمنِ.

وبالجامعة ما يزيدُ على: ٤١٠ ألف طالبٍ وطالبةٍ؛ يدرُسونَ علومَ الدينِ والدنيا معًا في إحدى وستين كليةً، تنتشرُ مِن أسوانَ في جنوبِ مصرَ وحتى دمياطَ والإسكندريةِ في شمالِها، وبها أكثرُ مِن خمسةَ عشرَ ألف طالبٍ وطالبةٍ وافدين مِن اثنتيْنِ ومئةِ دولةٍ مِن دولِ العالَمِ الإسلاميِّ.

فيما يتعلَّقُ بالفتوى وأثرِها، فإن الوعيَ بهذه القضيَّةِ يتوقَّفُ أولًا على الوعيِ بالإسلامِ كدينٍ ذي طبيعةٍ خاصَّةٍ؛ في نظرتِه إلى الإنسانِ وتوجيهِه لحياتِه ضِمنَ إطارٍ أخلاقيٍّ دقيقٍ يضمَنُ له السعادةَ على مستوى خطِّ الحياةِ القصيرِ في هذه الدنيا، وخطِّها الطويلِ اللانهائيِّ في الآخرةِ.

وأولُ ما ينبغي أنْ نعلمَه هنا: أن الإسلامَ دينٌ لا ينحصرُ دَورُه أو توجيهاتُه في بيانِ العقيدةِ والأخلاقِ فقط، وإنَّما يتعدَّى هاتَيْن الدائرتَيْن إلى دائرةٍ لا تقِلُّ أهميةً ولا خطورةً عن دورِ العقيدةِ والأخلاقِ في بناءِ الحياةِ الإنسانيةِ على دعائمَ صُلبةٍ مِن الحقِّ والخيرِ والجمالِ؛ وأعني بها: دائرةَ العملِ والسلوكِ والتصرُّفاتِ؛ سواءٌ منها ما كانَ خاصًّا بالفردِ، أو بالأسرةِ، أو بالمجتمعِ، أو بالعَلاقاتِ الدوليةِ، وبحيثُ يصِحُّ القولُ بأنَّ أيًّا مِن هذه المجالاتِ لا يخلو

(*) محاضرة ألقيت في جامعة الأزهر يوم: ١٨ صفر سنة ١٤٢٨هـ، الموافق: ٨ مايو سنة ٢٠٠٧م.

مِن توجيهٍ للإسلام يُشبِهُ عملُه عملَ البَوْصَلةِ التي تُرشِدُ قائدَ السفينةِ أو قائدَ الطائرةِ، وتبيِّنُ له الاتجاهَ الصحيحَ وسطَ المخاطرِ والمهالكِ.

مِن هنا؛ يرتبطُ المسلمُ بالإسلامِ وبتوجيهاتِه في غالبِ أحوالِه الحياتيَّةِ والمعيشيَّةِ، ويغدو الحلالُ والحرامُ في منظورِ المسلم أمرًا بالغَ الأهميَّةِ في حياتِه الشخصيةِ والعائليةِ والمجتمعيَّةِ، ويكفي أنْ نتصوَّرَ أنَّ أحكامَ الشريعةِ الإسلاميةِ تتولَّى المسلمَ أو المسلمةَ منذ تكوُّنِهما نُطفَتَيْن في أرحامِ الأمهاتِ وحتى لحظةِ دخولِهما القبرَ، مرورًا بمراحلِ الحَمْلِ والولادةِ والرَّضاعةِ والطفولةِ والمراهقةِ والزواجِ والشبابِ والكهولةِ والصحةِ والمرضِ... إلى آخر كلِّ ذلك.

والإسلامُ -مِن هذا المنظورِ- قد لا يُشبِهُ الدينَ المسيحيَّ الذي يُركِّزُ على الاعتقادِ وعلى الأخلاقِ، وبعد ذلك يترُكُ ما لقيصرَ لقيصرَ وما للَّهِ للَّهِ، وربَّما كانَ الإسلامُ أشبهَ بالدِّينِ اليهوديِّ وشرائعِه منه بالمسيحيَّةِ ومواعظِها وآدابِها؛ إذ تدُلُّنا الدراساتُ المقارَنةُ في التوراةِ أو التلمودِ على أن أحكامًا شرعيَّةً جزئيَّةً لا نهايةَ لها تُحيطُ بأتباعِ هذا الدِّينِ مِن مثلِ الخِتانِ والذبائحِ والقرابينِ، وتحريمِ بعضِ الأطعمةِ والمأكولاتِ وذبحِ الحيوانِ، ومسائلِ النجاسةِ والطهارةِ والمحرماتِ مِن النساءِ والطلاقِ، وتحريمِ الزنا وعقوبةِ الرَّجْمِ، ثُمَّ العباداتِ كالصيامِ والزكاةِ والنذرِ، وهناك القضاءُ والعقوباتُ، والميراثُ، والدِّياتُ والوصايا.

ونحن وإن كُنَّا نقرأُ هذا التشابهَ بين اليهوديةِ والإسلامِ في كثيرٍ مِن الأحكامِ الشرعيةِ مِن جانبٍ، وبين المسيحيةِ والإسلامِ في أغلبِ الوصايا الأخلاقيَّةِ مِن جانبٍ آخرَ، فإن المقارنةَ العميقةَ بين الإسلامِ وما سبقَه مِن الأديانِ السماويةِ التي يشتركُ معها في وَحْدةِ المصدرِ ووَحْدةِ الغايةِ والهدفِ، تدُلُّنا أيضًا على ما في شريعةِ الإسلامِ مِن مرونةٍ وقدرةٍ على الاستجابةِ لمطالبِ التطورِ الحضاريِّ أو الاجتماعيِّ، ولتصحيحِه أيضًا إذا

ما انحرفَ به السيرُ بعيدًا عن المقاصدِ الإنسانيةِ العليا التي تحميها كلُّ الأديانِ السماويةِ، وحتى الشرائعِ الوضعيةِ التي تستمعُ إلى صوتِ الفطرةِ الإلهيةِ ونداءِ الضميرِ الإنسانيِّ. .

ومن هنا وجدنا أحكامَ التشريعِ في الإسلامِ تتقدَّمُ دائمًا على خطَّيْنِ متوازيَيْنِ:

الخطّ الأولِ: خطّ ما يُمكِنُ أنْ نسمِّيَه بخطِّ الأحكامِ الثابتةِ التي لا تقبلُ التغييرَ ولا التبديلَ.

والخطّ الثاني: هو خطُّ الأحكامِ التي تتغيَّرُ وتتبدَّلُ، ولكنْ بشرطِ أن يكونَ تغيرُها محكومًا بالمعاييرِ الأخلاقيةِ والقِيمِ التي يُقِرُّها الإسلامُ وتُقِرُّها الشرائعُ السماويةُ السابقةُ.

ونلاحظُ أنَّ غالبيةَ الأحكامِ الثابتةِ، جاءت في مجالِ الاعتقادِ والعبادةِ والأخلاقِ والأحوالِ الشخصيةِ؛ فهذه المجالاتِ تقبلُ التطبيق في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ ووَفْقًا لأيةِ درجةٍ من درجاتِ التحضرِ أو التطورِ، ولا يشعُرُ المسلمُ وهو يُمارِسُها بأيِّ حرجٍ أو شعورٍ بالخروجِ على آدابِ المجتمعاتِ وقوانينِها. .

فمثلًا: يستطيعُ المسلمُ أن يُصلِّيَ الفرائضَ بالبساطةِ والسهولةِ اللتَيْن كان يُصلِّيَ بها محمدٌ ﷺ والمسلمونَ عبرَ ما يقربُ مِن خمسةَ عشرَ قرنًا مِن الزمانِ، ويستطيعُ أنْ يفعلَ ذلك الآنَ ومستقبلًا، هنا على الأرضِ أو على كوكبِ المريخِ؛ لأنه لا يحتاجُ لإتمامِ هذه الفريضةِ إلى أكثرَ مِن معرفةِ اتجاهِ الكعبةِ إنِ استطاعَ، وإلى مساحةٍ مِن الأرضِ لا تزيدُ على متريْنِ، لا يحتاجُ فيها إلى هيكلٍ ولا إلى وسيطٍ، فمن المعلومِ أنَّ المسجدَ في الإسلامِ ليس شرطًا في صحةِ الصلاةِ، وكذلك الإمامُ.

ومِن هنا يستطيعُ المسلمُ أن يؤديَ هذه الصلاةَ البسيطةَ في مكتبِه أو منزلِه أو في الطائرةِ في أثناءِ سفرِه، ويُمكِنُ أن يُؤدِّيَها وهو قائمٌ إن استطاعَ، فإن لم يستطعْ يُؤدِّيها وهو جالسٌ، فإن لم يستطعْ يُؤدِّيها بعقلِه وقلبِه ويكفيه ذلك.

وقلْ مثلَ ذلك في فرائضِ الصومِ، وفي دفعِ الزكاةِ، وفي الحَجِّ.

وقلْ مثلَ ذلك أيضًا في دائرةِ الأخلاقِ وباب الفضائلِ والرذائلِ.

وفي هذا يَسْلُس الربطُ بين عالَمي الغيبِ والشهادةِ في وعيِ المسلمِ، ويتصالحُ في كيانِه الوجودُ الفيزيقيُّ والوجودُ الميتافيزيقي المتعالي.

وفيما يتعلَّقُ بمحورِ الأخلاقِ الإنسانيَّةِ، فإنَّه يحسُنُ لَفتُ النَّظرِ إلى أنَّ مِعيارَ الأخلاقِ في الإسلامِ معيارٌ ثابتٌ، وهو أمرٌ لم يتفرَّدْ به هذا الدينُ، بل هو كذلك في الأديانِ الإلهيةِ كلِّها..

ومِن ثَمَّ، فإنَّ الأمرَ الحسنَ في ميزانِ الأخلاقِ يظَلُّ حسنًا إلى آخرِ الزمانِ، ويظَلُّ القبيحُ قبيحًا إلى آخرِ الزمانِ أيضًا، ولا يُمكِنُ -في فلسفةِ الأديانِ الإلهيةِ- أن تنقلبَ القِيمُ يومًا فيَلْبَسَ الحُسنُ لباسَ القُبحِ أو العكسُ؛ فالظلمُ قبيحٌ ورذيلةٌ، وما يترتَّبَ عليه حرامٌ وممنوعٌ، حتى وإن كانتِ المنافعُ والمصالحُ المترتِّبةُ عليه لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ومن هنا لا نجدُ مكانًا في فلسفةِ الأخلاقِ الإسلاميةِ لمقولةٍ مثلَ: «الغايةُ تُبرِّرُ الوسيلةَ»، أو لفلسفةٍ تقومُ على مبدأِ القوةِ وسحقِ الضعيفِ، أو لسياسةٍ تعتمدُ التسلُّطَ على مُقدَّراتِ الآخرِ والسيطرةَ عليه، أو لفلسفةِ المصالحِ والمنافعِ وما إلى ذلك مِن الفلسفاتِ التي لا تأخُذُ في حُسبانِها البُعدَ الإنسانيَّ في مستوياتِه الراقيةِ والعاليةِ، وبذلك يتمُّ الجمعُ بين المثاليةِ والواقعيةِ في نسيجٍ واحدٍ، وفي غيرِ تعارضٍ أو تضادٍّ مثلما نجدُه في الفلسفاتِ الأخرى التي تعجَزُ عن الجمعِ بينهما، وهذا ما انفردَ به الإسلامُ وتميَّزَ به عن غيرِه.

هذه أمثلةٌ عامةٌ للأحكامِ الثابتةِ في الإسلامِ والتي لا تقبلُ تغييرًا ولا اجتهادًا.

أمَّا الأحكامُ التي تمثِّلُ الوجهَ الآخرَ لشريعةِ الإسلامِ؛ فهي تلك التي تتعلَّقُ بالجانبِ المتغيِّرِ في حياةِ الإنسانِ، وأمثلتُها لا تدخُلُ تحت الحصرِ.. ومنها:

- الأحكامُ المدنيةُ.
- والدستوريةُ.
- والجنائيةُ.
- والاقتصاديةُ.

وفي هذا المجالِ تطالعُنا النصوصُ التشريعيةُ في القرآنِ بأحكامٍ ومبادئَ عامَّةٍ ذاتِ أهدافٍ أخلاقيةٍ واضحةٍ، لا تختلفُ فيها بيئةٌ عن بيئةٍ، ولكن تتَّسعُ في الوقتِ نفسِه لأن تندرجَ تحتها صورٌ وجزيئاتٌ عديدةٌ قد تختلفُ فيما بينها، ولكنها تتفقُ مع المقصِدِ الأعلى للقاعدةِ العامةِ..

فمثلًا: قضايا البيعِ والشراءِ والإجارةِ وما إليها، والتي زادتْ موادُّها في القانونِ المدنيِّ المصريِّ على (٦٣) مادةً، نلحظُ بصددِها أنَّنا لا نجِدُ في نصوصِ القرآنِ الكريمِ مِن أحكامِها إلا أربعةَ أحكامٍ فقط.

والشيءُ نفسُه يقالُ فيما يتعلَّقُ بالقانونِ الدستوريِّ الذي اقتصرتْ فيه نصوصُ القرآنِ على تقريرِ مبدأِ الشورى والعدلِ والمساواةِ بين الناسِ، ثم تَركتْ للأمةِ أن تختارَ النظامَ السياسيَّ الذي يلائمُها ما دامَ مُرتبطًا بهذه الأصولِ ومُنطلقًا منها.

وينبغي الإشارةُ إلى أنَّ فقهَ الحياةِ في الإسلامِ يبدأُ مِن قاعدةٍ تُقرِّرُ أنَّ كلَّ شيءٍ حلالٌ إلَّا الأشياءَ التي حرَّمها اللَّهُ، فالحِلُّ هو القاعدةُ العريضةُ في شريعةِ الإسلامِ، أما الحُرمةُ فهي استثناءٌ، ولا بُدَّ فيها مِن دليلٍ واضحٍ وضوحِ الشَّمسِ.

ومن هنا، كانت دائرةُ المحرماتِ في الإسلامِ ضيقةً ومحصورةً، ولا تكادُ تُرى إلى جوارِ اللانهائياتِ مِن طيِّباتِ الحياةِ التي أحلَّها اللَّهُ لعبادِه. ولا يتَّسِعُ الوقتُ لأن أضربَ لحضراتِكم أمثلةً لدائرةِ الحرامِ في الإسلامِ مقارنةً بأديانٍ إلهيةٍ سبقَتْه.

وإذن، فدَورُ الإفتاءِ في المجتمعاتِ الإسلاميةِ، وفي حياةِ المسلمِينَ هو دَورٌ اجتماعيٌّ في المقامِ الأولِ؛ لأنه يَمَسُّ حياةَ المسلمِ اليوميةَ بصورةٍ أو

بأخرى، في داخلِ المجتمعاتِ الإسلاميةِ وفي خارجِها على السواءِ. .

فمثلًا: تكوينُ الأسرةِ في بلادِ المسلمين لا يمكنُ أن يتِمَّ خارجَ إطارِ التشريعِ الإسلاميِّ، وكذلك القوانينُ الأُخرَى، لا بُدَّ فيها مِن مراعاةِ رُوحِ هذا التشريعِ ومقاصدِه، والدستورُ نفسُه يضمَنُ هذا التوجُّهَ، وهو أمرٌ طبيعيٌّ إذا أخذنا في الاعتبارِ أنَّنا لو جرَّدْنا قوانينَ المسلمينَ المدنيةَ والجنائيةَ مِن مرجعيَّتِها الإسلاميةِ؛ فإنَّها بالضرورةِ ستنضوي إمَّا تحتَ المرجعيَّةِ الأنجلو - سكسونية، أو تحت المرجعيةِ الفَرنسيةِ الرومانيةِ، وسنكونُ حالئذٍ كمَن يزرَعُ النباتاتِ الحارةَ مثلًا في بلادِ القُطْبَيْن أو بالعكسِ.

وينبغي أنْ نعلمَ أنَّ أهميةَ الإفتاءِ بالنسبةِ للمسلمِ هي الوجهُ الآخرُ لتُحرِّرَ المسلمَ من السلطةِ الدينيةِ وتسلطاتها، بل إن هدمَ السلطةِ الدينيةِ وتدميرَها كليًّا أصلٌ مِن أصولِ الإسلامِ، فليس لأحدٍ -بعدَ اللَّهِ ورسولِه- أيُّ سلطانٍ على عقائدِ الناسِ، ولا أيَّة سيطرةٍ على إيمانِهم باللَّهِ. .

وفي القرآنِ آياتٌ كثيرةٌ تؤكِّدُ أنَّ النبيَّ ﷺ نفسَه ليس إلَّا مُبلِّغًا ومُذكِّرًا، وأنه ليست له سيطرةٌ ولا هيمنةٌ على الناسِ، ولا صلاحيةٌ لإدخالِهم الجنةَ أو حرمانِهم منها: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وللمسلمِ أن يقرأَ القرآنَ وكلامَ النبيِّ ﷺ، وله أن يبحثَ فيه عن إجاباتٍ أو فتاوى، ما دامَ قادرًا على الفَهمِ ومؤهَّلًا علميًّا ولُغويًّا للاستنباطِ والاستنتاجِ، فإذا لم يَكُنْ على هذا المستوى؛ فإنَّ عليه أن يسألَ العلماءَ، ولا أقولُ: «رجالَ الدِّينِ»؛ لأن الإسلامَ لا يعرفُ رجلَ الدِّينِ الذي يتحدَّثُ اللَّهُ على لسانِه، ويستحيلُ عليه الخطأُ والنسيانُ، وإنما عَرَفَ الإسلامُ العلماءَ المجتهدِينَ الذين يدرُسونَ ويفهمونَ ويتخصَّصونَ، ثم يبيِّنونَ ما فهِموه للناسِ، وهؤلاء هم أهلُ الإفتاءِ وأهلُ البيانِ.

وقد تعجبون لو قلتُ لحضراتِكم : إنَّ الفتوى التي يصدرُها المفتي هي في أفضلِ أحوالِها لا تعدو أن تكونَ نصيحةً أو استشارةً؛ ومِن هنا ، دَرَسْنا في فقهِ الفتوى أن الفتوى حكمٌ شرعيٌّ غيرُ مُلزمٍ؛ بمعنى : أنَّ للمسلمِ أنْ يَتْرُكَ ما قاله المفتي ويأخُذَ بكلامِ غيرِه مِن العلماءِ، وهذا في شريعةِ الإسلامِ هو الفرقُ بين الفتوى والقضاءِ، فالفتوى حُكمٌ شرعيٌّ لا يُلزِمُ المسلمَ، وله أنْ يخرُجَ عليه إلى حُكمٍ آخرَ، أما القضاءُ فهو حُكمٌ شرعيٌّ مُلزِمٌ لا يستطيعُ المسلمُ أنْ يتخلَّصَ منه، حتى لا يتحوَّلَ أمرُ اجتماعِ النَّاسِ إلى فوضَى واضطرابٍ.

وإذًا فالفتوى هي إجابةٌ عن سؤالٍ يبحثُ عن حكمِ الشريعةِ الإسلاميةِ في الأمورِ التي تتعلَّقُ بالمعاملاتِ أو بالآدابِ أو الأحوالِ الشخصيَّةِ. . . إلى آخرِ كلِّ ذلك، والفتوى تُسايرُ الحياةَ الواقعيَّةَ الحافلةَ بالمتغيِّراتِ، وهي تختلفُ عن القاعدةِ الشرعيةِ التي هي حُكمٌ عامٌّ مجرَّدٌ؛ ومِن هنا، كانَ مِن الضروريِّ وجودُ الفتوى باعتبارِها حركةً مُتجدِّدةً في إطارِ النصِّ الشرعيِّ، وكان مِن الضروريِّ كذلك أنْ تتغيَّرَ الفتوى حتمًا في الواقعةِ الواحدةِ مِن شخصٍ لآخرَ، ومِن مكانٍ أو زمانٍ إلى آخرَ، ومِن حالةٍ إلى حالةٍ أخرى.

وقد أُضِيفَ -في الحقبةِ الأخيرةِ- إلى مَهامِّ الإفتاءِ إصدارُ البياناتِ الخاصَّةِ بتحديدِ أوائلِ وأواخرِ الشهورِ العربيَّةِ، وما يترتَّبُ عليها مِن تحديدِ الأعيادِ المُقَدَّسَةِ عند المسلمِينَ، كما أُضيفَ إليها مُهمَّةُ بحثِ قضايا الإعدامِ التي تُرسَلُ مِن المحاكمِ الجنائيَّةِ المدنيَّةِ المختصَّةِ، لإقرارِ الحكمِ أو الاعتراضِ عليه، كإجراءٍ وقائيٍّ كثيرًا ما يَصُبُّ في مصلحةِ المتَّهَمِ؛ لأن أحكامَ الإسلامِ في قضايا الدماءِ والأعراضِ تتحرَّى الدِّقةَ وتبالغُ في تحرِّيها بضماناتٍ لا ترقى إليها القوانينُ الحديثةُ التي تأخُذُ بهذا النظامِ. .

ويكفي أن أذكرَ لحضراتِكم القاعدةَ الشرعيةَ التي تقولُ إنَّ الخطأَ في العفوِ عن مئةِ مجرمٍ أفضلُ مِن إراقةِ ملءِ قارورةٍ مِن دمِ إنسانٍ مظلومٍ.

وقد نشأتْ دارُ الإفتاءِ في مصرَ في نوفمبر سنة: ١٨٩٥م، وكان المفتي وقتَها هو شيخَ الأزهرِ الشيخَ حسونة النواوي، ثُمَّ انفصلتْ بعد ذلك وظيفةُ المفتي واستقلَّتْ مع الإمامِ محمد عبده الذي تولَّى هذه الوظيفةَ في يونيو سنة: ١٨٩٩م، وكان اللقبُ الرسميُّ أولًا: «مفتي الديارِ المصريةِ»، ثم تغيَّرَ مع ثورةِ ٢٣ يوليو: ١٩٥٢م إلى «مفتي جمهوريَّةِ مصرَ العربيَّةِ»، وقد بلَغَ عددُ المفتينَ الرسميِّين في مصرَ حتى الآن: ١٨ مفتيًا.

وهناك في الجامعِ الأزهرِ لجانٌ للفتوى تَتْبعُ الأزهرَ، وفتاواها رسميةٌ أيضًا.

ودَورُ المفتي هو: الإجابةُ على ما يُرسَلُ إليه مِن أسئلةٍ؛ مِن الداخلِ، ومِن الخارجِ، أو على الأسئلةِ المباشِرةِ؛ مِن الأشخاصِ، أو التليفون، أو البريدِ الإلكترونيِّ، أو المواقعِ.

وغالبًا ما تكونُ القضايا التي يُواجِهُها المفتي قضايا عاديَّةً وعامَّةً، يتعلَّقُ أغلبُها بمشكلاتِ الزواجِ والطلاقِ والرَّضاعِ والأُسرةِ، أو الممارساتِ اليوميَّةِ، ودارُ الإفتاءِ تُجيبُ على ذلك عبرَ مجموعةٍ مِن الباحثينَ المساعِدينَ للمفتي.

وهناك قضايا تحدُثُ بفعلِ التطوُّرِ العلميِّ والتِّقْنِيِّ، وتَمَسُّ بصورةٍ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرةٍ قوانينَ الشريعةِ الإسلاميةِ وأحكامَها في مسائلَ كثيرةٍ؛ مثل: الاستنساخِ، والأمِّ البديلةِ، وبنوكِ اللبنِ، ومثل: المتغيراتِ التي تحدُثُ في مجالِ الأموالِ والبنوكِ والاقتصادِ، وغيرِ ذلك مما يَمَسُّ مجالاتِ الأسرةِ والأخلاقِ ومُقرِّراتِ الأديانِ.. ومثلُ هذه القضايا لا ينفرِدُ المفتي بالتصدي لها بمفردِه، وإنَّما يبحثُها ضِمنَ هيئةٍ علميةٍ كُبرى تابعةٍ للأزهرِ تُسمَّى «مَجمعَ البحوثِ الإسلاميةِ»، الذي يضُمُّ عددًا كبيرًا مِن العلماءِ المتخصِّصينَ في علومِ الطِّبِّ والهندسةِ الوراثيةِ والاقتصادِ والقانونِ جنبًا إلى جنبٍ مع علماءِ الإسلامِ، ومِن بينِهم المفتي، وهذا المجمعُ يُمَثِّلُ المرجعيَّةَ الكُبرى في الإفتاءِ في مصرَ وخارجِها، ويرأسُه شيخُ الأزهرِ.

السُّنَّــــة والبدعَــة (*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الموضوع الَّذي أُحدثكم به الليلة، وهو موضوع: «السُّنَّة والبِدعة» موضوع قديم، غير أنَّه يَتجدَّد بين الحين والحين، وتترتب عليه من الآثار السَّلبيَّة في صُفوفِ الجماهير والعامَّة، ما يستلزم الاهتمام به، والاطِّلاع على شيء ممَّا كتبَه عُلَمَاؤنا الأجَلاء من القُدمَاء والمُحدثين، وتركوه لنا في موروثاتهم العلميَّة القَيِّمة؛ لنكون على عِلم بما قيل في هذا الشأن، وعلى يقين من أن جماهير علماء الأمَّة تنبَّهوا منذ القِدم إلى أنَّ مفهوم البدعة إذا لم يَتحدَّد معناه ومفهومه تحديدًا دقيقًا جامعًا مانعًا؛ فإنَّ كثيرًا من الأحكام الشَّرعيَّة تتداخل، ويختلط بعضها ببعض، وتضطرب الأمور في أذهان العلماء والدُّعاة.

هذا ولم يقف أمر الاضطراب عند هذا الحَدِّ، بل تخطاه إلى أذهان العامَّة؛ فانقسموا على أنفسهم؛ ما بين مبدِّع ومُبتَدِع، وهذا هو ما يُصيب وحدة هذه الأمَّة في مقتل، وما يبدد من قوتها، وصَلابة بُنيانها.

وقد رأينا -ولا زلنا نرى- كيف أنَّ هذه الخلافيَّات في الفروع القابلة للتأويل، حين يَبعثها دُعاة الفضائيَّات، أو بعض الأئمة في المساجد، تُرْبِك صفوف النَّاس، وتزعزع استقرارهم وطمأنينتهم الداخليَّة، وتُعلمهم الجدَل السَّيِّئ، وتشغل أوقاتهم بما لا يفيد، تعكسه اليوم من نوع هذه الأسئلة التي لا تتوقَّف عن مسائل ما كان النَّاس يَسألون فيها أو يبحثون عنها قبل ذلك،

(*) أصل هذه الكلمة؛ محاضرة ألقاها الإمام الأكبر، في: ٣ من ذي الحجة: ١٤٢٩هـ، الموافق: ٣٠ نوفمبر: ٢٠٠٨م. بمسجد النور بالعباسية.

حتى أصبح العامَّة يَسألون عن كيفية غَسل الذراعين في الوضوء، وهل يبدأ الغسل باليد اليسرى من أعلى الذراع اليمنى أو من أسفلها، وهل صحيحٌ أنَّ فعل المتوضئ في غسل ذراعيه باستقبال الماء الجاري من أسفل الذراع والرجوع به إلى أعلاه يُفْسِد الوضوء؛ لأن الماء حينئذ ماء مستعمل؟

وكنت أشاهد قناة فضائيَّة، مُتخَصِّصَة في تشويه صورة الإسلام والقرآن والنبي الأكرم سيدنا محمد ﷺ، ورأيت المذيعَ السَّاخر من المسلمين يعرض صورة لشيخ فضائي متقدم في السِّنِّ، وإلى جواره إناء فيه ماء وهو يُعلِّم الناس كيفية الوضوء السُّني، ويشرح لهم في حركات تمثيلية معقَّدة كيفيَّة غسل الذراعين، وكيفية مسح الأذنين، وأي الأصابع يمسح باطن الأذن، وأيها يمسح ظاهرها، وكيف يكون وضع الخنصر والبنصر والوسطى بالنسبة لوضع الإبهام... ولمَّا انتهى المشهد المصوَّر، علَّق المُذيع بسُخريَّة واستهزاء، قائلًا: «كان اللَّه في عون المسلمين، يَلزمهم كتالوج علشان يعرفوا وضوءهم»!!

وليس لديَّ تعليق على ما تُثيره بعضُ الأساليب التي يَنتهجها بعضُ الدُّعاة في الفضائيات؛ من ردود فعل تشوِّه صورةَ الإسلام والمسلمين، ولكن لديَّ ما يُشبه اليقين بأن هناك أصابع ماكرة خفيَّة تعبثُ بنا من وراء ستار، وتستغل التقدُّم التِّقنيَ المُذهل، الذي حدث في مجال المعلوماتية، والإعلام المرئي، لتنفيذ مخطَّط جهنمي جديد، للقضاء على الإسلام كمصدر قوَّة في نفوس المسلمين، أو إضعافه على الأقل، كي لا يكون حائط صَدٍّ منيعًا أمام مُخَطَّطات عالميَّة، في مقدِّمتها ما يُسَمُّونه بمشروع الشرق الأوسط الكبير.

والوسيلةُ في هذا المخطَّط هي: الفَوضَى الخَلَّاقة، أو الفَوضَى البَنَّاءَة؛ والَّتي تَهدِف إلى تحويل السَّاحة إلى حِراك فكريّ مُضطرب، ليسَت له

ضوابط، ولا قيود، ولا حُدود، وبحيثُ يَختلط فيه الحابِل بالنابِل، وما يتبقَّى على السَّاحة بَعد ذلك ويطفو على السَّطح من أحشاء هذه الفوضى هو الذي يَتمُّ التعامل معه، بحُسبانه الأُطروحة الأفضل والأحق بالبقاء.

وهذه سَفْسَطَةٌ وقضيَّة كاذبة؛ لأنَّ أبسط قَواعِد المَنْطِق البَشري تُقَرِّر أنَّ الفَوضى لا تَلِد إلَّا فَوضَى، وأنَّ العقل السَّليم لا يَتصوَّر أن تخلق الفوضى نظامًا وحكمة وتقديرًا، لسببٍ بسيط جدًّا، يعلمه أصغر تلميذ دارس للعقليَّات؛ هو أنَّ الفوضى عدَمٌ، بينما النِّظام وجودٌ، وأنَّ العدم لا يَخلُق الوجود بحال.

وللأسف الشَّديد؛ تحوَّلت هذه الأوهام السوفسطائية في أذهان البعض من كِبَار قادة العَالَم إلى سياسة مُورسَت بالفعل في الشَّرق، ودَفع فيها المُسْلِمُون ثمنًا باهِظًا ومُرعِبًا، تمثَّل في هذه الدِّماء التي سالت أنهارًا في حروب طاحنة، دارت رحاها في العراق وأفغانستان وغيرهما من بُؤَر التَّوتُّر في عالَمنا الإِسْلامي.. دع عنك فلسطين وعذاباتها التي لم تتوقَّف منذ أكثر من نصف قرن من الزَّمان، ولو رحت تسرح نظر العين ونظر العقل، باحثًا عن سبب واحد يُبَرِّر كل هذه المآسي والكوارث فسوف يعييك البحث، ويرتد إليك البصر خاسئًا وهو حسير؛ اللَّهم إلَّا هذه الإرادة الغشوم في سيطرة الغرب المادِّي على الشَّرق الإسلامي علمًا وتعليمًا وسياسة.

وأرجو ألا يُفهَم من كلامي أنَّني أُعلِّق مصائِبنا على شمَّاعات غيرنا، فلستُ من أنصار نظريَّة المُؤامرة، ولكن قراءة الواقع قراءة هادئة تَفرِض عليك فرضًا هذا التَّفسير التَّعيس، الذي يَصلح أن يكون علَّة يَستقيم معها تعليل هذه الظَّواهر العبثية البائِسة، ويلتوي عليك إن رُحت تفهمها في ضوء سبب آخر غير تسلُّط القُّوة الموحدة من جانب، وهزال الكيان المُمَزَّق من جانب آخر.

وانظر إلى خريطة الدُّنيا أمامك، وحاوِل أن تظلّل أي جزء يُمثِّل منطقة حُروب وصراع مسلح في أوروبا أو الولايات المتَّحدة الأمريكية، أو اليابان والصين، أو استراليا وروسيا أو أوروبا الشَّرقيَّة، فإنَّك لن تَجد منطقة واحدة تستطيع أن تشير إليها لتسمع فيها قعقعة السَّلاح، أو ترى جريان الدِّماءِ رخيصةً رُخْصَ الماءِ، أو تَشُم رائحة البارُودِ مع المَوتِ والدَّمارِ. . مع أنَّ هذه البِلاد هي الَّتي تَصْنَع السَّلاح، وأدوات الحَرب الفَتَّاكَة والعملاقة؛ فهل هناك اتِّفاق خفيٌّ بين ضفَّتي الأطلسي، على أن يَعمل السَّلاح بعيدًا، وعلى أرضٍ قصية؟ وهل هناك سايكس بيكو جديد؟ وهل آل الشَّرق العربي إلى رجل مريض، مطلوب توزيع تركته؟ لقد ظهرت كتب عدة؛ بعضُها مُترجم، وبعضها مكتوب بالعَربيَّة، تُجيب على هذه الأسئلة بالإيجاب والتَّأكيد[(١)].

وَهُنَا نَعود إلى الفَرضيَّة الأولى في هذا البحث المُتواضِع؛ وهي أنَّ البَلبلة التي يَعيشها العالَم الإسلامي، هي جزءٌ من خُطة تُدبَّر أو دبِّرت لنا بليلٍ، ويَجري الآن تنفيذُها وتنزيلها على الواقع.

وحسبُك أن تنظر إلى السَّاحة الآن؛ لترى أنَّ هُنَاك تَحَرُّكات حَيَّة لشقِّ الصَّف الإِسْلاميّ، وضَرب وَحدة المُسْلِمين، وبأي ثمنٍ، فالدُّولارات مَوجودةٌ وجاهزة، وبأرقام فلَكية، والخُطط العليا مرسومة، وأخبثها وأشدُّها فتكًا بوحدة المسلمين: اللَّعب على أوتار الخلافيَّات الدينية، والعَقدية، والمذهبيَّة، والفقهيَّة. . . وأرجو أيضًا ألَّا أُتَّهَم بالمبالغة أو التَّهويل الخالي من التَّحصيل.

(١) انظر على سبيل المثال: سعيد اللاوندى، «أمريكا- أوروبا سايكس بيكو جديد»، نهضة مصر: ٢٠٠٦، سوسان جورج، «مؤامرة الغرب الكبرى» ترجمة: محمد مستجير مصطفى، إصدارات سطور: ٢٠٠١.

ودليلي على ما أقول: أنَّنا فجأة، ومنذ سنوات قلائل؛ اندلَعت الفتنةُ الطَّائفية بين المسلمين والأقباط، وكأنَّنا لم نَعِش سويًّا في سلام ووئام طوال أربعةَ عشر قرنًا من عمر الزمان، ثم اندلَعت الفتنة فجأة بين السنة والشيعة، وسالت دماءُ الفريقين أنهارًا في العراق.

بل تضمَّنت أجندةُ التَّمزيق محاولات لشَقِّ وَحدة الصف القبطي في مصر، ووحدة الكنيسة الأرثوذكسية، ووحدة المرجعيَّة الدينية للأقباط، وهو أمرٌ لا يقدر عليه الشيطان لو فكَّر فيه وأراده.

ثم الكارثة العظمى التي حلَّت بوحدة الصَّفِّ الفلسطيني، وكدنا ننسى مِن هولِها العدوَّ الحقيقي، وهو أمرٌ مراد ومقصود.

وفي هذا السِّياق تجري كلُّ مظاهر التَّفرقة التي تبعثُها الخلافيَّات الفقهية، والَّتي يُشعلها البعض تحت لافتة السُّنة والبدعة، وهنا بيتُ القَصيد في كلمتي هذه؛ وهو أنَّ عُلماء المسلمين؛ سواء كانوا أئمَّة مساجد، أم دعاة فضائيات، أم أساتذة -يَجبُ في دعوتهم إلى اللَّه وجوبًا شرعيًّا يُحاسَبون عليه أمام اللَّه تعالى أن يَتنبَّهوا إلى المقصد الأوَّلِ من مقاصد القرآن في الدَّعوة إلى اللَّه؛ ألَا وهو: وَحدةُ الصَّفِّ أوَّلًا، فهذا قدس الأقداس إن صحَّ هذا التَّعبير، والَّذي يَحرم المَساس به، والَّذي لو مُسَّ بضُر فإنَّ أيَّ مجهودٍ يُبذَل بعد ذلك في مجال الدعوة لن تزيد قيمتُه على أصفارٍ تُصَف على الجانبِ الأيسرِ.

وفي هذا السِّياق تلفتُ نظري إجابةُ سيِّدنا هارون لأخيه سيِّدنا موسى -عليهما السَّلام-، حين عنَّفَه على صَمْته إزاء شرك بنى إسرائيل وعبادتهم العجل، بعد أن خلَّفه فيهم، وذهب لمناجاة ربه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ۝٩٤﴾ [طه: ٩٢-٩٤]،

فانظُر كيف بلَغ حرصُ هذا النَّبي الكريم -على وَحدة الجماعة التي اؤتُمِن عليها- مرحلة السُّكوت على الشِّرك الأكبر، حتى لا تتفرَّق الجماعة بين يديه قبل أن يرجع إليه موسى.

وعلينا أن نعي جيِّدًا البيان الإلهيَّ في القران الكريم، الذي يَقرن الفشلَ بالتَّنازع؛ كنتيجةٍ حَتميَّة لا مفرَّ منها.. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقد جعل النَّبي ﷺ من اتِّباع الجماعة طريقًا للنَّجاة يوم القيامة: «مَن أرادَ بحبوحةَ الجنَّةِ فليَلزَم الجماعةَ»[١]، «يَدُ اللَّه مع الجماعةِ»[٢]، «يَدُ اللَّهِ مع الجَماعةِ، ومَن شَذَّ شَذَّ في النَّارِ»[٣]، «مَن فارَقَ الجماعةِ شبرًا فماتَ، فميتَتُه جاهليَّةٌ»[٤]، وأصرَحُ من كل ذلك قولُه ﷺ: «اقرَءوا القرآنَ ما ائْتَلَفتْ عليه قلوبُكم، فإذا اختَلَفْتُم فقوموا عنه»[٥].

وهذا بيانٌ نبويٌّ صريح قاطع في أنَّ وَحدة الجماعة أوَّلًا قبل قراءة القرآن، بل إن النَّبي ﷺ جعل لنا عاصمًا وحيدًا من هذه الفِتَن الخِلافيَّة؛ ألَا وهو التَّمسُّك بما عليه جماهير المسلمين، وهو أمرٌ في غاية الدِّقة والرَّوعة.

وكثيرًا ما يَسألني النَّاس وهم مضطَربون: هل نتبع فُلانًا الذي يُحَرِّم كذا وكذا، ويقول إنَّها بِدَع وأنتُم من أهل النار؟ فأجيبُهم انظروا إلى ما يَفعله

---

(١) جزء من حديث أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٦٦) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٦٧) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث غريب».

(٤) أخرجه البخاريُّ (٧٠٥٤) ومسلم (١٨٤٩) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاريُّ (٥٠٦١) ومسلم (٢٦٦٧) من حديث جُندب بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

الناس قبل أن يَسمعوا هذا الفُلان، وافعلوا ما يَفعلونه، ومُستنَدي في ذلك ما رواه ابن ماجه في «سننه»، في باب الفتن -وأضع ثلاثة خطوط حمراء تحت باب الفتن-، عن أنس بن مالك ﵁- قال: قال النَّبي ﷺ: «إنَّ أُمَّتِي لا تَجتَمِعُ على ضلالةٍ؛ فإذا رأيتُم اختلافًا فعليكُم بالسَّواد الأعظم»(١).

وهذا الحديثُ نصٌّ قاطع في أنَّ المرجعيَّة التي يَجبُ الاعتصامُ بها في هذا الاختلاف ليست هي أنصار المذهب الفلاني، ولا رأي شيخ الإسلام العلاني، ولا أيَّ داعية متمذهب، حتى وإن لقبوه بناصر السُّنَّة وقامع البِدعة، وأنَّ المرجعيَّة الوحيدة الصحيحة في هذا الاختلاف هي السَّواد الأعظم. أي: ما عليه جمهور المسلمين.

هذا الحديثُ -أيُّها السَّادة العُلَمَاء- يَتَّسِقُ صدرُه مع عجزه بصورة مُعجِزة، فصدرُ الحديثِ قضيَّة تُقرر أنَّ اللَّه تعالى لا يَجمع هذه الأمة على بدعة، ولا على ضلالة، وما دام الأمر كذلك؛ فالسَّواد الأعظم هو الذي يَجب أن يُتبع؛ لأنَّه لن يكون على ضلالة ولا بدعة بنص الحديث، وهذا ما يُقَرِّره عجزُ الحديث؛ حين يَأمرُ بلزوم السَّواد الأعظم.

ولو توقَّفنا قليلًا عند لفظَتي بدعة وضلالة، والعلاقة بينهما، واستَرشدنا بقوله ﷺ: «إنَّ أُمَّتي لا تَجتمعُ على ضلالةٍ»، وقولِه ﷺ: «كُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ»(٢)، لَعَلمنا يقينًا أنَّ البدعة أخصُّ والضَّلالةَ أعَمُّ؛ بمعنى: أنَّه يَصحُّ القولُ بأنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، ولكن لا يَنعكس هذا القولُ فيقال كلُّ ضلالةٍ بدعةٌ؛ لأنَّ الضَّلالة قد تكون بالكُفر الذي هو أعمُّ من البدعة، ولأنَّ البدعةَ لا تَتنافى مع الإيمان والإسلام؛ فقد يكون المرءُ مبتدعًا مُتأوِّلًا وهو مسلمٌ ومؤمن.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس بن مالك ﵁.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد اللَّه ﵄.

وقد قَبِلَ الإمام الشافعي رواية الحديث من صاحب البدعة وإن كان فاسقًا ببدعته؛ لأنَّه مُتأوِّل في فسقه، واشتهر عنه قولُه: أقبلُ شهادة الحنفي المستحلِّ للنَّبيذ، وأحدُّه إذا شربه[١]، ومستنده -رضي اللَّه عنه- في مذهبه هذا: قَبولُ الصَّحابة قولَ الخوارج في الأخبار والشَّهادات، مع أنهم كانوا فَسَقة مبتدِعين، غير أنَّهم متأوِّلون.

وتحقيقُ المسألة هنا؛ أنَّ طريقَ قبول الشَّهادة أو ردِّها هو: الصِّدق والكذب، والخوارجُ وإن كانوا مبتدعين فإنَّهم كانوا يَتورَّعون عن الكذب[٢].

وما أريدُ أن أصل إليه من هذا الاستطراد؛ هو أنَّ البدعةَ أخصُّ من الضَّلالة، وأنَّ الحديث إذا نفى عن السَّواد الأعظم للأمَّة وصفَ الاتِّفاق أو الاجتماع على ضلالة، فبالضَّرورة يَنتفي عنهم وصفُ الابتداع في أفعالهم، ومن ثَمَّ تَثبُتُ حُجِّيَّةُ السَّواد الأعظم في هذه الخلافيَّات؛ لأنَّه لا يُتَّهم بالابتداع، بل إنَّ الابتداع حينئذ يَنحصر في اتِّباع هؤلاء الذين يَنشقُّون على جماعة المؤمنين، ويَخرجون عليهم بمحرَّمات لا سَنَد لها عندهم، إلَّا أنها لم تكن على عهد النَّبي ﷺ.

وهُنا نَتساءل: ما هي البدعةُ؟

والجوابُ -الذي أنحو فيه منحى الإيجاز والاختصار حتى يُناسب هذه الأمسية العلمية وأختتمُ به كلمتي-: هو أنَّني لا أُعنَى كثيرًا بالمعنى اللُّغوي للمصطَلحين إلَّا بالقدر الذي يَخدم هذه المحاضرة، وهو أنَّ البدعة في اللُّغة تدورُ حول اختراع أمرٍ ما، أو استحداثِه، سواء كان في أمور الدِّين أو الدُّنيا، وبحيثُ يكون الأمرُ المخترَع جديدًا في شخصه وذاته، وليس له مثال سابق.

---

(١) راجع «المستصفى» للغزالي، الباب الثاني، شروط الراوي: ٢/ ٢٤٠، ط المدينة المنورة.
(٢) المصدر نفسه.

أمَّا السُّنَّة في اللُّغة: فهي انتهاجُ الطَّريق والسَّيرُ فيه، وتُطلَق على الطريقة والعادة التي يَنتهجها الشَّخص في حياته، سواء أكان ذلك في أمور الدُّنيا أم الدِّين، وقد تكون سُنَّةً حسنة، أو سيِّئة [(١)].

وقد جاءَ في حديث مسلمٍ: «مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّة حسَنةً... ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّة سَيِّئة»[(٢)]؛ أي: سار في الإسلام سيرةً محمودة أو مذمومة[(٣)].

أما في الاصطلاح -وهو ما يهمنا هنا-: فإنَّا نُلاحظ أنَّ استعمال هذين المصطلحين -السنة والبدعة- اقتصرَ على الأمور الدِّينية تقريبًا، فأصبحت كلمةُ السُّنَّة في الصَّدر الأوَّل -فيما يقولُ الشَّيخ دراز- تعني الحقَّ والصَّواب ممَّا بيَّنه القرآن الكريم والسُّنة النبوية، في مقابل البدعة التي تعني الباطل والضَّلال، وهي كلُّ طريقةٍ مُختَرَعة ليس لها مستنَد في كتاب اللَّه، ولا سُنة رسول اللَّه ﷺ، ولا يُمكن استنباطها بأيِّ وجهٍ من وجوه الاستنباط المقرَّرة، من هذين المصدرين الكريمين.

وكانوا يَفهمون في ضوء هذا المعنى حديث التِّرمذي عن العرباض بن سارية: «**إيَّاكُم ومُحدَثاتِ الأمورِ؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»[(٤)].

وهكذا نجدُ أنفسَنا فيما يتعلَّق بالبدعة أمامَ أحاديث ثلاثة؛ هي: حديث البخاري: «مَن أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»[(٥)]، وحديثُ مسلم:

---

(١) «الميزان بين السنة والبدعة» لمحمد عبد اللَّه دراز: ٤١، ٤٢. دار القلم: ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «الميزان بين السنة والبدعة»: ٤١، ٤٢.

(٤) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٦) من العِرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

«مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنةً؛ فلَه أجرُها، وأجرُ مَن عَمِل بها بعدَه، مِن غيرِ أن يَنقُصَ من أُجورِهم شيءٌ. ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيِّئةً؛ كان عليه وِزرُها، وَوِزرُ مَن عمِلَ بها بعدَه، مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شيءٌ»[(١)]، ثم حديثُ التِّرمذي: «وإيَّاكُم ومُحدَثاتِ الأمورِ؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»[(٢)].

أمَّا حديثُ التِّرمذي؛ فمنطوقُه يفيد أنَّ كلَّ أمرٍ مُحدثٍ بعد النَّبي ﷺ فهو بدعةٌ، يُؤيِّده منطوق حديث البخاري؛ الذي يُقرِّر أنَّ أيَّ عملٍ مُحدَث في الإسلام فهو مردودٌ، وهذان الحديثان إذا أجرَيناهما على ظواهر ألفاظهما انتهَيا إلى قضيَّة واحدة؛ هي كل محدثٍ مردودٌ، وكلُّ محدث بدعة وضلالة، غيرَ أنَّ هذا الفهم الظَّاهري لا يستقيم، بل يَصطدمُ اصطدامًا مباشرًا مع حديث مسلم: «مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً... ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيِّئةً»؛ أليس الذي يَسُنُّ سُنَّة حسنةً مُحدِثًا لأمر جديد في الإسلام، يَندرج في مُحدَثات الأمور التي حذَّرَ منها حديثُ الترمذي ووصفَها بالابتداع؟

بعبارةٍ أخرى: هل تتعارضُ هذه الأحاديثُ، ما بين رافضٍ لمحدَثات الأمور في الدِّين أيًّا كانت؛ لأنَّها بدعةٌ وضلالةٌ، وبين مُبيح لمحدثات الأمور في الدِّين إذا كانت حسَنة؟ وإذا لم يكن تعارضٌ؛ فما هو المخرج؟

وهذا التَّساؤل الذي نطرحُه الآن صاغَه العُلماء في سؤال دقيق هو: هل البِدَعُ كلُّها ضلالاتٌ مذمومةٌ؟

وحول الإجابة على هذا السؤال؛ وَجدنا مَن يقولُ: نعم، كل أمر محدَث بدعةٌ وضلالةٌ، وكلُّ ما لم يَفعله النَّبيُّ ﷺ بعينِه فهو بدعة مذمومة، وهؤلاء هم

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد اللَّه رضي الله عنه.
(٢) تقدَّم تخريجه.

الغُلاة من أهل الظَّاهر، قديمًا وحديثًا، وقد أنكروا الاجتهاد، والقياس، ورَدُّوا الإجماع وأنكروا حجِّيَّته، وعاشوا في حرجٍ شديد؛ فهم لا يَستطيعون تطبيق الأحكام الشَّرعية على مستجدَّات الأمور؛ لأنهم لا يَقولون بالقياس، ولا الاجتهاد، ثمَّ يَلزَمُهم القول بأنَّ شريعة الإسلام قاصرةٌ وعاجزة عن ملاحقة المستجدَّات إذا أبقوا النُّصوص على ظواهرها، وهؤلاء قلَّةٌ على طول التاريخ الإسلامي القديم والمعاصر.

لكن وجدنا على الجانب الآخر، جمهرةَ العلماء الراسخين في العلم يَحلُّون هذا الإشكال بفهم البدعة الشَّرعية فهمًا صحيحًا، تصطلحُ عليه كلُّ النصوص النبوية الواردة في السُّنَّة والبدعة، وتبدو حكمتُها واضحة جليَّة لكلِّ مَن تدبر فيها..

فالبدعةُ ليست كما يقال هي كلُّ أمرٍ محدَث في الدِّين، بل الحدوث في الدِّين هو أحد أوصاف البدعة، أو أحد شروطِها، ولا بد من انتزاع شرائط أخرى، تتَّضح من تأمُّل أحاديث البدعة في ضوء تصرُّفات النَّبي ﷺ والصحابة والتابعين وتابعيهم..

وهنا قالوا: البدعةُ الشَّرعية المرفوضة والموصوفة بالضَّلالة هي كلُّ أمرٍ محدَث شَهِدَ الشَّرع له بالرَّفض؛ إمَّا لكونه غيرَ مشروع أصلًا، أو لكونه يَصدمُ أصلًا أو نصًّا قاطعًا في الإسلام، وعليه؛ لا تكون البدعةُ هي الأمرَ الجديدَ مطلقًا، بل هو الأمر الجديد الذي لا يَندرج تحت قاعدة عامَّة من قواعد الخير، أو تحت أصلٍ مقبول، أو مطلوب طلبًا عامًّا»[(١)]، أمَّا الأمور المستحدَثة، والتي لم تكن موجودةً بأعيانها وأشخاصها على عهد النَّبي ﷺ، لكنَّها تَندرج بصورة أو بأخرى تحت أصلٍ عامٍّ في الإسلام؛ فلا تُسمى بدعة

(١) راجع: «السنة والبدعة» باعلوي الحضرمي: ١٨٨، ١٨٩، مكتبة المطيعي: ١٩٨٩م.

أو ضلالة، بل تُسمى بدعة حسنة، وهي السُّنَّة الحسنة التي وردت في الحديث.

وهذا معنى قول العلماء: «إنَّ ما شَهِدَ له شاهدٌ من الشَّرع بالطَّلَب؛ خاصًّا أو عامًّا، ليس من البدعة، وإن لم يكن الرَّسولُ ﷺ فعلَه بخصوصه، أو أمر به أمرًا خاصًّا»[(١)].

وفي هذا المنظورِ وَجدنا جمعًا غفيرًا من أئمَّة المسلمين وعُلمائهم يُقسِّمون البدعة إلى:

- بدعةٍ سيِّئة مرفوضة؛ وهي: كلُّ ما أُحدث معارضًا ومصادمًا صراحةً للنُّصوص القطعيَّة.

- وبدعة حسنة؛ وهي كلُّ ما أُحدث متماشيًا مع النُّصوص ومقاصدها.

بل قسَّموها إلى خمسة أقسام؛ وذكروا منها: البدعة الواجبة، وعمدوا إلى كثيرٍ من الخلافيَّات فأحالُوها بجَرَّةِ قلَمٍ إلى منطقة المُباحات، ما دامت لا تتعارض مع النُّصوص.

ونحن نعلم أنَّ طائفةً من الأعلام الكبار؛ كالإمام الشَّاطبي المالكي (ت. ٧٩٠هـ)، ذهب في كتابه: «الاعتصام» إلى أنَّ البِدعَ كلَّها ضلالاتٌ ومذمومةٌ في الشَّرع، ولكن كان يَضطرُّ بين الحين والحين أن يَترك قارئَه يَفهمُ أنَّه كان يتحدَّث عن البدعة السَّيئة المرفوضة بإجماع المسلمين، تحت عنوان البدعة مطلقًا، وأنَّ الشَّيخ رشيد رضا -محقِّق الكتاب- سار في هذا الاتِّجاه، ولذلك لا تجد الموضوع مُحررًا بدقة في مثل هذه الكتابات.

والحقيقةُ: ما لم يَتمَّ الفصل الدَّقيق بين البدعة السيئة المرفوضة والبدعة الحسنة المقبولة؛ فلا تَنتظر إلا تداخلًا في المفاهيم واضطرابًا في التَّصوُّراتِ.

(١) المصدر نفسه: ٧.

وأكبرُ وأقدمُ مَن قسَّم البدعة هو سيِّدنا عمر ﵁؛ حين وصَف صلاةَ التراويح بأنَّها بدعةٌ حسنة. .

تلاه الإمام الشَّافعي ﵁ بقولِه: «البدعةُ بدعتان؛ محمودةٌ، ومذمومة، فما وافق السُّنة فهو محمود، وما خالفَها فهو مذموم»، وقولُه فيما رواه عنه البيهقيُّ: «المُحدَثات ضربان: ما أُحدث يُخالف كتابًا، أو سُنة، أو أثرًا، أو إجماعًا؛ فهذه بدعةُ الضَّلالة، وما أُحْدِث من الخير لا يُخالف شيئًا من ذلك فهو البدعة المحمودة». .

تلاه ابنُ رجب الحنبلي في قوله: «البدعةُ ما أُحدِثَ مما لا أصل له في الشَّريعة يدلُّ عليه، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعًا».

ثمَّ ابنُ حجر العسقلاني، شارح البخاري الأكبر: «البدعةُ ما أُحدِثَ وليس له أصلٌ في الشرع، ويُسمى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة».

وابنُ حجر الهيتمي: «البدعةُ ما أُحدِثَ على خلاف أمرِ الشَّرع ودليلِهِ الخاص أو العام».

ثم حجَّة الإسلام الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدِّين»: «وما يُقال: إنه أُبدِع بعد رسول اللَّه ﷺ. . فليس كلُّ ما أُبدع منهيًّا، بل المنهي عنه بدعةٌ تُضادُّ سنَّة ثابتة، وتَرفع أمرًا من الشَّرع مع بقاء علَّته، بل الإبداع قد يَجبُ في بعض الأحوال إذا تغيَّرت الأسباب».

والعِزُّ بنُ عبد السَّلام يُقسِّم البدعةَ إلى: واجبةٍ، ومحرَّمة، ومندوبة؛ كصلاة التَّراويح، ومباحة؛ كالمُصافحة عقب صلاة الصُّبح والعصر، والتَّبسُّطِ في لذائذ المآكل والمشارب[(١)].

(١) «إحياء السُّنة وإخماد البدعة» لعثمان بن فودى، تقديم أ. د/ محمد البهي: ٢٦. ط الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر: ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

وانظر كيف أنَّ المصافحة بعد الصَّلاة عدَّها كبارُ علمائنا من البدع المباحة، بينما الآن تستنزِفُ جهدًا كبيرًا وأموالًا طائلة في مطارَدتها والقضاء عليها.

وقِس على ذلك أمورًا كثيرةً، نصَّ العُلماء على أنَّها من البدعة المندوبة، وأصبحت الآن الشُّغلَ الشَّاغل لطائفةٍ من الدُّعاة المُتخندقين في أنفاق المذاهب الضَّيِّقةِ، يهدرون فيها طاقاتهم، ويُبدِّدون أوقاتهم وشبابهم، لا يُحسنون غيرها، ولا يُشاركون جماهير المسلمين في مشكلاتهم الحقيقية، والتي ستأتي في مقدِّمة مسؤوليَّتهم التي سيُحاسَبون عليها أمام اللَّه تعالى يوم القيامة.

وأنا لا أفهمُ أبدًا أن تَكون قراءاتُ الدَّاعيةِ وثقافتُه وبضاعتُه محصورةً كلها في هذا الجانب الجافّ، وفي الكتب العقيمة التي لا تقول شيئًا ذا بال غيرَ التَّبديع والتفسيق والتكفير، ومن أشدِّ ما أتألَّمُ له أن يقع الإمام الأزهريُّ في براثن بعض هذه المذاهب السَّطحيَّة، التي تتغذَّى على الشَّكليات، وتقتاتُ من بَلبلة المسلمين وتفريق شملِهم.

انظر إلى قائمة الدَّعوة إلى اللَّه في فقه هذه المذاهب؛ إنَّها محصورةٌ في:

- منع الصَّلاة على النَّبي ﷺ عقب الأذان.
- منعِ خَتْم الصَّلاة بصورة جماعية أو موحدة، أو ما نعرفه بقراء الحزب.
- حرمةِ التوسل بالأموات.
- حرمة الموالد والذكر.
- محاربة التصوف.
- تحريم الصلاة في المساجد التي توجد بها قبور الأولياء والصالحين.
- تحريم الأذان الأول قبل صلاة الجمعة.

مع أنَّ هذه القضايا، وأكثر منها -أيُّها السَّادة العُلماء- مقتولةٌ بحثًا في كتب علمائنا الأجلَّاء، من أئمَّة المعقول والمنقول، وقد تصدَّوا عبرَ قرون

عديدة لهؤلاء الذين يَنفخون بها في نار الفرقة بين المسلمين، وبيَّنوا في كتبهم أنَّها من البِدَع الحسَنة، أو على أقل تقدير من البدع المُباحة، التي تَحرمُ المتاجرة بها أو المزايدة عليها بين البسطاء من جماهير الأمة.

وأنا قد أحتاجُ إلى محاضرة أخرى للتَّدليل على أنَّ البدعة الشَّرعية المذمومة ليست هي التي يَتناقلُها بعضُ الدُّعاة الآن، وأنَّ بعضَ العُلماء أحصى أكثرَ من سبعين حديثًا تُثبت كلَّها بدعًا حسنة، تقبَّلَها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون.

وحسبُكم أن تعلموا أنَّ الصَّلاة في المساجد التي بها قبور لو كانت حرامًا لمَا قَبِلَ علماءُ الأمَّة دخولَ قبرِ النَّبي ﷺ وقبرَي صاحِبَيه ضمنَ المسجد، وبحيثُ أصبحت جزءًا من المسجد داخلًا فيه، بل أصبحت هذه القبور في اتِّجاه المصلِّي، وعن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه.

فهل صلاةُ الملايين من المسلمين عبرَ هذه الأعصُر الغابرة باطلةٌ؟

وعلى هؤلاء الذين يُحرِّمون الصَّلاة في مسجد الإمام الحسين، أو السَّيدة زينب -رضي اللَّه عنهما وأرضاهما- أن يَقولوا لنا كيف يُصلُّون في المسجد النَّبوي بين يدي هذه القبور ومِن خلفِها؛ هل يَمتنعون عن الصَّلاة، ويُحرِّمونها؟ أو يُصلُّون؟ وحينئذٍ نسألُهم إذا كنتم تُحرِّمون الصَّلاة في مسجد الحسين أو السَّيِّدة بسبب قبرٍ واحدٍ في هذا المسجدِ أو ذاك، فعليكُم أن تُحرِّموا الصَّلاة في المسجد النبوي، بل التَّحريمُ في مسجده ﷺ يصبحُ أولى وأشدَّ حُرمة في فِقهِكم ومذهبِكم؛ بسببِ القبورِ الثَّلاثةِ التي يضمُّها المسجِدُ النبويُّ، وإذا أجزتُم الصَّلاةَ هناك فلماذا تَمنعونها هنا؟!

أشعرُ أنِّي أطلتُ، وأستَسمِحُكم عذرًا، وشكرًا لحُسن استماعكم.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

الفتاوى الدينية..
وحتمية التجديد(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللَّه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فمرحبًا بكم أيُّها السَّادة العُلَماء الأجلَّاء من أهل الفتوى والعلم، وذوي الحجا والفضل، في بلدكم الثاني: مصر الكنانة، ومصر المحروسة بحول اللَّه وقوته، وفي رحاب الأزهر الشريف ودار الإفتاء المصرية.. أَهْلًا ومَرْحَبًا بكم، نزلتُم أَهْلًا وحَلَلْتُم سَهْلًا، وطاب مسعاكم، وبورك ممشاكم إلى هذا المؤتمر المهم حول: «إشكاليات الفتوى في الواقع المعاصر وطموحاتها في المستقبل».

إنَّ عنوانَ هذا المؤتمرِ لهو بالِغُ الدلالة على ضرورة رصد واقع الفتوى ومشكلاته التي لا تزال تلقي بشيء غير قليل من العنت على حياة المسلمين.

هذا وقد سبق لي -أيها السادة الفضلاء- أن مارست تجربة الإفتاء لمدة عام ونصف، في دار الإفتاء المصرية، في مطلع هذا القرن الذي بدأ مسيرته متعثرًا مضطربًا، يستقيم ممشاه حينًا من الدهر، وينكص على عَقِبَيْه أحايينَ

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في مؤتمر «الفتوى ... إشكاليات الواقع وآفاق المستقبل» الذي نظمته دار الإفتاء المصرية بفندق الماسة - القاهرة، في: ٢ من ذو القعدة سنة ١٤٣٦هـ، الموافق: ١٧ من أغسطس سنة ٢٠١٥م.

كثيرة، ولا يزال حتى يوم الناس هذا ينذر بويلات وكوارث، عرفنا قوادمها الكالحة، ولا زلنا نجهل ما تكنه خوافيها المتربصةُ بنا من وراء جدر المستقبل، وحُجب الغيب.

ورغم أنني لم أسع إلى موقع الإفتاء ولم أفكر فيه، إلَّا أن اللَّه تعالى شاءه وقدره، وكثيرًا ما كنت أتهيَّبه وأخافه، لا من الناحية الفقهية والعلمية، التي يجيدها أي أزهري من جيلي أمضى تسع سنوات في دراسة الفقه، يتلقى فيها هذا العلم خمس مرات في الأسبوع على طول سنوات تسع، ولكن كان كل تخوفي مِن أنْ أُحِلَّ حَرامًا أو أُحَرِّم حَلالًا، أو أُيَسِّر أو أُعَسِّر في غير محل التيسير والتعسير.. وكثيرًا ما كنت أتسلى عن خوفي وتهيبي بحديث الصحابي الجليل عبد الرحمن بن سَمُرة، عندما قال له النبي ﷺ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»(١).

وقد كنت -ولا أزال- دائم التأمُّل في خفايا هذا المنصب الشديد الخطورة على حياة الناس، وذلك لما لمنصب الإفتاء في قلوب المسلمين من منازلِ التقدير، وآيات التعظيم والإجلال.. حتَّى إن الكلمة التي تصدر من فم المفتي لتقطع أيَّ جدل أو خلاف أو تردُّد، في المسائل المستفتَى عنها، ولايزالُ النَّاس -إلى يومِهم هذا- يستقبلون فتاوى المفتين المعتمدين استقبالهم لصحيح الدِّين الذي لا معقِّب عليه، وهذا ما يجعل من الفتوى والإفتاء أمانة شاقَّة، ومسؤولية ثقيلة يُشفِقُ منها كلُّ من يخشى اللَّه، ويتقيه ويخافُ حسابه وعقابه.

وقد أدركتُ من خلال قراءتي في سيرة الإفتاء والمفتين أن التحرُّج والتأثُّم كانا عُدَّةَ المفتي وعَتَادَه، ومَنْبَعَ اطمئنانه، ورضاه عن كلِّ ما يصدر عنه من

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٦٢٢) ومسلم (١٦٥٢) من حديث عبد الرَّحمن بن سَمُرة ﷺ.

فتاوى، وإجابات على أسئلة الناس. . بل كان الميزانَ البالغَ الحساسية في مفترق طريق تضل فيه الفتوى ضلالًا مبينًا، بين طرفي الإفراط والتفريط، وتتذبذبُ فيه بين التضييق والتَّشدُّد بدعوى الورع، والوقوف المقدس عند عَتبَاتِ السَّابقينِ وفتاواهُم، وبين التوسع والترخص بدعوى العصرنة ومواكبة التطوُّر، و «كِلَا طرفَيْ قصد الأمور ذميمُ» كما يقول شاعرنا القديم.

بيد أن التخوُّفَ، أو المبالغة في التورّع قد أدَّى -في كثير من الأحيان- إلى الانصراف عن النَّظر الفقهي الدَّقيق في الفتوى، وسلوكِ طريقٍ سهلٍ يريحُ من عَنَاء البحث في تكييف السؤال، والتنقيبِ عن حُكْمِه ودَليلِه، وتنزيله على الواقع، حتى صارت الفتوى في قضايا المجتمع المعاصر -تحريمًا أو إباحةً- لا تكلف الباحث أكثر من العَودة إلى ما قيل في أشباهها، من أقوال السَّابقين ولو لأدنى ملابسةٍ، ولا سَنَدَ للباحث إلَّا بعض مشتركات، أو أَوجُه شَبَهٍ ضعيفةٍ، لا تجعلُ من المسألةِ التي هي محلُّ الاستفتاء، والمسألةِ المَقِيسِ عليها قضيتين متماثلتين، تنطبقُ عليهما القاعدة العَقْليَّة التي تقرِّر أنَّ «حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد»، وأصبح من المُعتَاد أنَّ كثيرًا من الفتاوى التي تحتملُ التيسيرَ والتعسير، يُفتَى فيها بالتعسيرِ تورُّعًا، وتحوطًا، ومن باب متابعة الخَلَفِ للسلف. . مع أن التعسير الذي يظنه المفتي إبراء لذمَّته أمام اللَّه تعالى، هو بعينِه التعسير الذي نهى عنه النبي ﷺ، وحذَّر منه في حديثِهِ الشَّريف: «يَسِّروا ولَا تُعَسِّروا»(١)، وتوعَّد من يشق على أمته بالويل والثُّبُورِ، ودعا عليه في الحديث الصَّحيح: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ من أمْرِ أُمَّتي شَيْئا، فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه»(٢).

وليسَ صحيحًا أنَّ المَشقَّة التي حذَّر منها الحديث الشَّريف قاصرةٌ على

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٩) ومسلم (١٧٣٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

من يَشُقُّ على النَّاس في أعمال الرزق والمعيشة، بل هي تنطبقُ تمامَ الانطباقِ -ومن باب أَولَى- على كلٍّ من يَشُقُّ عليهم بفتوى شرعية ترهقهم من أمرهم عسرًا، أو توقعهم في الحرج الذي جاءت الشريعة لرفعه وإزالته.

ومِمَّا لَا شَكَّ فيه أنَّه لَا يوجدُ مشتغلٌ بالإفتاء إلَّا ويحفظ عن ظهر قلب ما هو مُسَلَّمٌ عند الفقهاء جميعًا، من أنَّ الحُكْمَ يدورُ مع العِلَّة وُجودًا وعدَمًا، فإنْ وُجدَت العِلَّة وُجِدَ الحُكْمُ، وإنْ انتفت العِلَّة انتفى الحُكْم، ورغم ذلك لا زالت الفتاوى في مسائل عِدَّة تتذبذب بين الحِلِّ والحُرمة، وتترك الناس في حالة من الشعور المضطرب المتأرجح بين الطمأنينة والحرج، خُذْ مثلًا اقتناء التُّحف والمجسمات التي على شكل التماثيل، أو التكسب من مهنة التَّصوير، في ظل ما شاهدناه بالأمس البعيد ونشاهده اليوم على شاشات التلفاز من تَدمير آثار ذات قيمة تاريخية كبرى في ميزان الفن المعاصر، وكان تدميرها بفتاوى باسم الإسلام وشريعته، ولَمْ نسمع أنَّ مَجْمَعًا فِقهيًّا عقد اجتماعًا دُعي فيه فقهاء العصر وشيوخ الفتوى في عالمنا الإسلامي لبيان الحكم الشرعي فيما حدث، وفي ظل متغيرات عالمية وأعراف استقرت على تخصيص كلياتٍ للآثار وللفنون الجميلة ولصناعة السياحة، ولا يزال المسلمون في حيرة من أمرهم حيال هذه المجسمات: هل هي مُجرَّد تُحَف لا بأس من اقتنائها شرعًا، أو هي أصنام وأوثان لا يجوز للمسلم أن يتعامل معها أو يمسَّها بحالٍ من الأحوال؟!.. بل لا يزال بعض المعنيين بالإفتاء يصادرون على كل ذلك بالتحريم المطلق، مع أن المقام مقام بحث وتنظير وتفتيش عن وجود العِلَّة أو غيابها، وهو بحث يسبق بالضرورة مرحلة صدور الأحكام التي تصدر وكأنها أحكامٌ تعبدية وأمرٌ أمرنا به الشارعُ، ولا نَعْقِلُ لها معنى، وليست من قَبِيلِ الأحكام التعليلية التي ترتبط بعللها وُجودًا وعدمًا.. وتحريم صناعة التماثيل في صدر الإسلام -في غالب الظن- إنما كان مُعَلَّلًا

بما اسْتَقَرَّت عليه عادة العرب في ذلكم الوقت من عبادة الأصنام وصناعتها، واتخاذها آلهة تعبد من دون اللَّه، وكان من المتوقع، بل من المطلوب من الشرع الحنيف أن يحرم اقتناءها وصناعتها سدًّا للذرائع وتجفيفًا لمنابع الشرك، وحمايةً للوليد الجديد الذي هو «التوحيد»، وإذا كان الأمر كذلك فما هي علة التحريم الآن بعد أن استقر الإسلام، وتغلغل «التوحيد» في العقول والقلوب والمشاعر، وتلاشت عبادة التماثيل عند المسلمين جميعًا!!، ونَحْنُ نَعْلَم أنَّه قد مضى على المُسْلِمين الآن ما يقارب خمسة عشر قرنًا هجريًّا من الزمان، لم نسمع أو نقرأ أن مسلمًا واحدًا عكف على تمثال يعبده من دون اللَّه، ويتخذه له شريكًا، فهذا أبعد شيء عن أي مسلم ينطق بالشهادتين، بل هو المستحيل الذي تشهد له أدلة النقل، فقد طمأننا النَّبيُّ ﷺ قبل أن يتركنا إلى الرفيق الأعلى، وأقسم باللَّه على ذلك، فقال في حديث معجز، رواه البُخاري ومُسلم[1] عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا»، أي: الدنيا.

وفي ظل القَسَم النَّبوي الشَّريف تصبح دعاوى الخوف على المسلمين من الشِّرك سفسطات فارغة المحتوى والمضمون، وعبثًا يُهدر فيه المال والجهد والوقت، دع عنك الآثار البالغة السوء في إثارة الفتنة بين المسلمين، وتعميق الفرقة والخلاف بينهم.

(١) «صحيح البخاريِّ» (١٣٤٤) و«صحيح مسلم» (٢٢٩٦).

وإنِّي لأعتقد أنَّه من حق المسلمين عليكم -أصحاب السماحة من أهل الاجتهاد والفتوى- أنْ تُجَدِّدوا النَّظَر في هذه القضايا وأمثالها، فإن وُجد قاطع صريح لا يحتمل التأويل بحال، فلا كلام ولا نظر ولا تجديد، ولا يسع المسلم -حينئذ- إلَّا التسليم للَّه ورسوله طائعًا مختارًا.. وإن لم يوجد قاطع، فالمسؤولية أمام اللَّه تُحَتِّم التيسير على المسلمين في هذا الزمان، ما دام هذا التيسير في إطار المقاصد الشرعية والقواعد الكلية، بعيدًا كل البُعد عن التقليد المعصوب العينين، والجمود على ظواهر النصوص دون استشراف لآفاق التيسير ورفع الحرج ومراعاة الأحوال، والتي تختزنها هذه الظواهر، وتحتاج إلى من يكتشفها وينزل بها إلى واقع الناس، ولستم في حاجة -أصحاب السماحة المؤتَمنين على صناعة الفتوى- أن أذكر بأن التساهل في فتاوى التكفير والتفسيق والتبديع، وتصيد الغرائب التي تدعم هذه الفتاوى من تراثنا قد آل بنا إلى ما ترون من قتل واستحلال للدماء المعصومة باسم الكفر والخروج عن المِلَّة.

وأمر آخر لفت نظري في قضية الفتوى والإفتاء، وهو مسألة «العُرف»، وخطرَه البالغ على تكييف الفتوى وجنوحها إلى التَّشدُّد والتَّعسير، ومكمن الخطر هنا هو أن قاعدة «تغير الفتوى بتغير العُرف»، أصبحت قاعدة شبه مُهْمَلة، أو هي نادرة التطبيق في صناعة الفتوى، وإن طبقت روعي فيها عُرف خاص ببلدٍ مُعيَّنٍ، يُرَاد له أنْ تُعَمَّم فتواه كما هي على بلاد أخرى لا يسود فيه هذا العرف، مما تسبب في حالة من الفوضى والارتباك عند الجماهير، وذلك حين يستقل -مثلًا- عُلَمَاء بلد آخر بفتوى مخالفة ترتبط بأعرافهم وعاداتهم، كما تسبب أيضًا في حالة من الانقسام الحاد بين فريقين، يتبع أحدهما فتوى بلده بينما يتبع الآخر فتوى البلد الثاني، وليت الأمر يقف عند مجرد اختيار هذه الفتوى أو تلك، ولكن يتخطاه إلى أمر كريه حين يخطئ كُلٌّ من الفريقين

فتوى الفريق الآخر، وربما يصير الأمر إلى الاتهام بالفِسق والابتداع أو التشدُّد والتنطُّع، والسبب في هذه المأساة هو فرض فتوى صاغها عرف خاص في بلد معين على بلدان وأناس لا عهد لهم بهذا العرف من قريب أو بعيد.

وقد قرَّر شيخنا الفقيه الأصولي المدقق العالم الجليل/ أحمد فهمي أبو سنة في كتابه المتفرد في عرض نظريته في التشريع الإسلامي والمعنون بـ: «العرف والعادة في رأي الفقهاء»: أن العرف أصل شرعي في بناء التشريع الإسلامي، وذلك بعد التسليم بأن عادات الناس وأعرافهم تتغير وتتبدل بظروفهم، وهذه مقدمة لا تقبل الجدل ولا الخلاف، ثم يضيف إليها الشيخ مقدمة أخرى يحدد فيها موقف الشارع من هذه العادات والأعراف: «فالشارع -كما قال الشيخ بحق- إنْ هو حَكَمَ فيها بحُكمٍ واحد تفصيلي، يصاب الناس بكثير من العنت والجهد، ويخرج بهم عن مقصد الإسلام الذي بُني على مصالح العباد ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإنْ هو شرع لها أحكامًا كثيرةً كثرةَ هذه المصالح المتبدلة والأحوال المتغيرة، كَثُرَت التكاليف على الناس، وضاقوا ذرعًا بضبطها وحَذقها، وكان ذلك انتقاضًا على الشريعة التي وضعت على أساس متين، هو: «قلة التكاليف». لهذا كله كان من حكمة الحكيم العليم أن يشرع للناس أحكامًا مطلقة عن البيان والتفضيل، مهما اختلفت الظروف وتبدلت الأحوال، ويكل إلى الراسخين في تنزيل الأحكام على الحوادث تفصيلَ هذه الأحكام...، وهذا باب عظيم من أبواب العُرف يبتني عليه شطر كبير من الأحكام، ولا يكاد ينكره فقيه، وهو كذلك برهان ثابت وحجة دامغة على عظمة الشريعة وجلالتها، وأنها صالحة لكل زمان ومكان»(١).

---

(١) «العُرف والعادة»: ٤٤.

وأمر آخر يضيفه الشيخ الجليل في بيان حكمة احتفال الشرع بأصل «العُرف» وهو أن الشارع اهتم بمراعاة العُرف الصالح فيما يشرع للناس من الأحكام حتى يسهل عليهم قبولها وتطبيقها في حياتهم، ولا يضيقوا ذرعًا بها فيشق عليهم تطبيقها، ومن هنا كان للعُرف الصحيح أثر بالغ في شرع القانون الإسلامي[(١)].

وليس ما ذكرته من قضية اقتناء التُّحف المشكَّلةِ على صورة التَّماثيل هو كل ما في الجعبة في حياة المسلمين في القرن الخامس عشر من الهجرة، وإنما هناك الكثير والكثير من القضايا التي تختلف أهميتها، بعضها أساسي وحيوي، وبعضها هامشي عارض أريد له أن يتضخم بفتاوى متشددة شغلت المسلمين عن أن يأخذوا مكانهم اللائق بهم بين الأمم، فهل يعقل -مثلًا- أن تظل قضية تولي المرأة للقضاء محلَّ خلاف عميق، في وقت صارت المرأة فيه ضابطًا وجنديًّا وقائدًا للطائرات وأستاذًا في الجامعة ووزيرًا في الحكومات، ومثل تولِّيها الولاية العامة في ظل ما تجري به الأعراف الآن من توزيع مسؤوليات الحكم على المؤسَّسات والوَزارات والبرلمانات والأحزاب والمعارضة مما قلَّص كثيرًا من سلطات الحاكم وولايته.

فهل لا تزال أحكام المرأة في ظل هذه الأعراف المتغيِّرة هي هي أحكام المرأة أيام كان العرف يقضي بأن الحصان الرَّزان هي ما كانت حبيسة القصور والبيوت والخيام؟!

وخِتَامًا.. لَا أُطيل عليكم أيُّهَا السَّادةُ العُلَمَاء، ولكن أُذكِّر بأن المسؤولية جسيمة، وأن كثيرًا من آلام الناس ومشكلات الأسر والبيوت التي تهدمت كانت بسبب فتاوى وأحكام بنيت على أعراف مقبولة في بيئة وغير

(١) المصدر نفسه: ٦٩ «بتصريف يسير».

ملائمة لبيئة أخرى، أو على أعراف قديمة تبدلت وتغيرت مئات المرات، ولا زالت تنقل منها الفتاوى بنصِّها وفصِّها كأن التَّشريع توقَّف بحياة الناس عند تاريخ معين، وفي بيئة جغرافية معينة..

ثم أين نحن بفتاوانا الغريبة على الزمان والمكان مما نحفظه عن ظهر قلب مما استقرأه عظماء الفقه والأصول من قواعد التيسير مثل:

١- تغيُّر الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والأشخاص.

٢- العادة مُحَكَّمة.

٣- الأمر إذا ضاق اتَّسَع.

٤- المَشقَّة تجلب التيسير.

٥- المعروف عُرفًا كالمشروط شرطًا.

٦- ما لا يُدرك كُله لا يترك جله.

وأوضح من ذلك وأصرح، ما نص عليه فيلسوف الفقه المالكي الإمام شهاب الدِّين القرافي المصري في قاعدته الذَّهبيَّة التي أبرأ بها ذمَّته من تَبعة الإفتاء والمفتين وذلك في قوله في كتابه «الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام»(١): «ينبغي للمفتي إذا ورد عليه مُستفتٍ لا يَعلمُ أنَّه من أهل البلد الذي منه المفتي وموضعُ الفتيا، أن لا يُفتيَه بما عادتُه يُفتي به حتى يَسأله عن بلده، وهل حدَثَ لهم عُرْفٌ في ذلك البلد في هذا اللَّفظ اللُّغوي أم لا؟ وإن كان اللَّفظُ عُرفيًّا فهل عُرْفُ ذلك البلد مُوافِقٌ لهذا البلد في عُرْفه أم لا؟ وهذا أمرٌ متعيِّنٌ واجبٌ لا يَختلف فيه العلماء، وأنَّ العادتينِ متى كانتا في بلدينِ ليستا سواءً أنَّ حُكمَهما ليس سواء».

(١) ٢٣٢.

وقال الإمام القرافي أيضًا في «الفروق» مخاطبًا أهل الإفتاء[١]: «فمهما تجدَّد في العُرف اعتَبِرْه، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طولَ عُمرك، بل إذا جاءَك رجلٌ من غير أهلِ إقليمِك يستفتيك: لا تُجْره على عرف بلدك، واسألْه عن عرف بلده وأَجْره عليه وأفْتِه به دون عُرف بلدِك والمقرَّر في كتبك. فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبدًا ضلال في الدِّين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين».

أعتذر إن أطلت، وشُكْرًا لحُسْن استماعكم.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمــــة اللَّه وبركاته

(١) ١ / ١٧٦ - ١٧٧.

الفتوى
ودورها في انحسار التفيقه العبثي(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدِنا رسولِ اللَّه، وعلى آلِه وصحبِه.

السادةُ العلماءُ الأجلَّاءُ من أهلِ الفَتوى والعِلمِ ورجال الأديان والمفكرين

السلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه؛

أهلًا ومرحبًا بحَضَراتِكم، في بلدِكم مصرَ، وفي الأزهرِ الشريفِ بكلِّ مُؤسَّساتِه العِلميَّةِ والدَّعويَّةِ، وأتمنَّى لمؤتمرِكم هذا أن يُكلَّلَ بالتوفيقِ والنجاحِ فيما هدف إليه من مقاصد نبيلة، وغايات شديدة الأهمية وبالغة الخطر، وأستأذنكم في أن تسمعوا مني كلامًا قد يُغرِّدُ خارج السِّرب أو بعيدًا عن جو المؤتمر إذ الموضوع الذي أطرحه لا أحسبه أقل أهمية من تدريب الأئمة وفقه الأقليات، وأعني بهذا الموضوع ما يَنتظرُه المسلمون، وهم يُعلِّقون آمالهم الكبرى على علماء الفتوى ودُورِ الإفتاءِ؛ في التخفيفِ من هذا الانفصامِ الذي يتَّسعُ مداه ويزداد اتِّساعًا يومًا بعد يوم، بين حياتهم المُعاصِرةِ وحاجاتهم وضروراتهم من جهةٍ، وبين هذا التِّيهِ من التَّفيقه العَبَثيِّ الذي يطرُقُ أسماعَ الناس ليلًا ونهارًا، ويُطاردُهم حيثما كانوا، ليردَّهم لا إلى يُسرٍ في الشريعةِ ورحمة في القرآنِ والسُّنَّةِ، وإنَّما إلى أخلاطٍ من الآراءِ المُتشدِّدةِ

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في مؤتمر دار الإفتاء المصرية: «التكوين العلمي والتأهيل الإفتائي لأئمة المساجد للأقليات المسلمة» في: ١٦ من محرم سنة ١٤٣٨هـ، الموافق: ١٧من أكتوبر سنة ٢٠١٦ م.

التي قيلت في مناسباتٍ خاصَّةٍ، وتحت ضغط ظروفٍ طارئةٍ، ليس بينها وبين واقعِ الناسِ الآنَ صِلةٌ ولا نَسَبٌ.

وقد وَجَدَ هذا الفقهُ العبثيُّ كتائبَ موازيةً من المُفتينَ؛ نَجَحوا -للأسفِ الشديدِ!- في رفع أصواتهم العالية فوق أصوات المؤسسات المختصة بالفتوى في عالَمِنا العربيِّ، وأكادُ أقولُ: فوق مَجامِعِ الفقهِ والتَّشريعِ، وأوَّلُها مَجمَعُ البحوثِ الإسلاميةِ هنا في الأزهرِ.

ولم يكن هذا النجاحُ أو هذه الغَلبةُ بسببٍ من واقعية هذا الفقهِ أو عقلانيته، أو قُدرتِه على جعلِ الحياةِ أيسرَ ممَّا هي عليه، وإنَّما بلغَ نجاحُه ما بلغَ بالقدرةِ على التحرك والمثابرة، والنزولِ إلى الناسِ بدُعاةٍ وداعياتٍ، ودُخولِ البيوتِ في القُرى والكُفُورِ، إضافة إلى اعتلاءِ بعض المنابرِ، والتحدُّثِ إلى الناسِ بما يريده أصحاب هذا التيار، في الوقتِ الذي ظلَّت فيه فتاوى دُورِ الإفتاءِ، وفتاوى المَجامِعِ ولجانِ البحوثِ الفقهيةِ، فتاوى فرديَّةً راكدة، قاصرةً على المُستفتي، أو حبيسةَ مُجلَّداتٍ عِلميَّةٍ لا يفيد منها ملايين الجماهير مِن المسلمين، ولا يقدرون على فهمها، أو رَهْنَ مؤتمراتٍ يُحدِّثُ فيها بعضُنا بعضًا، ونتواصَى في نهاياتِها بما شاءت لنا أحلامُنا من آمالٍ وأمانٍ لا تَجِدُ من المُختصِّين مَن يرعاها أو يتابعُها أو يسعى إلى تنزيلِها على واقعِ الناسِ.

واسمحوا لي -شُيوخَنا الأجِلَّاءَ- في مكاشفاتي الصريحة هذه، وأرجو؛ بل أُلِحُّ في رجائي ألَّا يَسبقَ إلى أذهانِ حضراتكم أنني أَقِفُ منكم موقفَ المعترض أو المنتقد، فمَعاذَ اللَّهِ أن أكونَ كذلك! ومَعاذَ اللَّهِ أن يسبق إلى نفسي شيء من ذلك؛ فأنا أعي جيدًا أنني أتحدَّثَ إلى النُّخْبةِ والذؤابةِ من أهلِ العِلمِ والحِجَا في عالَمِنا العربيِّ والإسلاميِّ، وأنا قبلَكم أوَّلُ مَن يتحمَّلُ

نصيبَه من المسؤوليَّةِ في هذا التقصير في جنب المسلمين، ولكني ربَّما كنتُ أكثرَكم التصاقًا بالجماهيرِ، ومن ثَمَّ أكثركم إحساسًا بالبؤساءِ والبائساتِ، ومعرفةً بمشكلاتهم الأسرية التي تبلُغُ حدَّ الدَّمارِ والتشريدِ؛ بسببٍ من جُمودِ الفتوى، وتهيُّبِ الاجتهادِ، والعجزِ عن كسرِ حاجزِ الخوفِ من التجديدِ، حتى ظننتُ أنَّنا -كأهلِ علمٍ وإفتاءٍ- إن كنَّا على علمٍ دقيقٍ بما نُفتي به نصًّا؛ فإننا مُغيَّبون قليلًا أو كثيرًا عن محلِّ النصِّ، وإدراكِ الواقعِ الذي يتنزل عليه النصِّ. لا نتوقَّفُ عند واقعة السؤال، ولا نتأمَّلُ مُلابساتِها ولا نُلقي بالًا للضررِ الذي يترتَّبُ عليها، ولا نعي حجمَ المُعاناةِ الاجتماعيةِ والنفسيةِ التي تأخُذُ بتلابيبِ الناسِ من جرائها.

وأَضرِبُ لحضراتكم مثلًا، مُشكِلةً حيَّةً تتعلَّقُ بظاهرةِ فوضى تعدُّدِ الزواجِ، وفوضى الطلاقِ أيضًا، وما يَنشأُ عن هذه الظاهرةِ من عَنَتٍ يَلحَقُ بزوجةٍ أو أكثرَ، وتشريدٍ يُدمِّرُ حياةَ الأطفالِ، وضياعٍ يُسْلمهم فريسة سهلة إلى التمرُّدِ والإجرام.

وأبادِرُ بالقولِ بأنَّني لا أدعو إلى تشريعاتٍ تُلغي حقَّ التعدُّدِ، بل أرفُضُ أيَّ تشريعٍ يَصدِمُ أو يَهدِمُ تشريعاتِ القرآنِ الكريمِ أو السُّنَّةِ المُطهَّرةِ، أو يَمسُّهمَا من قريبٍ أو بعيدٍ؛ وذلك كي أقطعَ الطريقَ على المُزايِدِينَ والمُتصيِّدين كلمةً هنا أو هناك، يَقطَعونها عن سِياقِها؛ ليتربَّحوا بها ويتكسَّبوا من ورائها. ولكنِّي أتساءلُ: ما الذي يَحمِلُ المُسلمَ الفقيرَ المُعوزَ على أن يتزوَّجَ بثانيةٍ -مثلًا- ويتركَ الأولى بأولادِها وبناتِها تُعاني الفقرَ والضَّياعَ، ولا يجدُ في صَدْرِه حَرَجًا يردُّه عن التعسُّفِ في استعمالِ هذا الحقِّ الشرعيِّ، والخروجِ به عن مقاصدِه ومآلاتِه؟!

والإجابةُ في نظري: أن الدعوةَ إلى شريعةِ الإسلامِ في هذه القضيةِ لم تَصِلْ لهؤلاء على وجهِها الصحيحِ، وأنَّ الفتاوى -في هذه القضية- تراكَمَتْ

على «المشروطِ» وهو إباحةُ التعدُّدِ، وسكتت عن «الشرط»، وهو: العدلُ والتأكد من عدم لُحوقِ الضررِ بالزوجةِ الأولى. ومعلوم أن عدم الشرط يستلزم عدم المشروط لأن الشرطَ هو الذي يَلزَمُ مِن عَدَمِه العدمُ، ولا يَلزمُ مِن وُجودِه وُجودٌ ولا عَدَمٌ، نعم لقد ترسَّخ هذا الفهم حتى باتت العامة تتصوَّرَ أنَّ التعدُّدَ حقٌّ مُباحٌ بدونِ قيدٍ ولا شرطٍ، وترسَّخَ في وِجدانها أنه لا مسؤوليةَ شرعيةً تقف في طريقِ رَغَباتِها ونَزَواتِها، ما دامت في الحلالِ كما يقولون!

وأحكامُ الشريعةِ التي تعلَّمْناها، ولا نزالُ نتعلَّمُها، مِن كتبِ الفقهِ في أوَّلِ بابِ النكاحِ ليست كذلك، وليست كما يفهمه الناس، وإنما تقرر هذه الشريعة أنَّ الزواجَ تعتريهِ الأحكامُ الخمسةُ، ومنها الكراهةُ والحُرمةُ، أي: قد يكون الزواج حرامًا شرعًا، وقد يكون مكروهًا، وأن الأحنافَ يُحرِّمون الزواجَ إن تيقَّنَ الزوجُ أنه سيَجُورُ على زوجتِه؛ لأنَّ حِكمةَ الزواجِ في الإسلامِ أنه إنَّما شُرِع لتحقيقِ مَصلَحةٍ؛ هي تحصينُ النفْسِ، وتحصيلُ الثوابِ بجَلْبِ الولدِ الذي يعبُدُ اللَّهَ، فإذا خالَطَ ذلك ظُلمٌ أو جَورٌ أو ضَرَرٌ؛ أَثِمَ الزوجُ وارتكبَ محرَّمًا، ويخضَعُ ثَمَّتَئِذٍ لقاعدةِ: دفعُ المَفسدةِ مُقدَّمٌ على جلبِ المصلحةِ.

ومع أنَّ الجميعَ مُتَّفِقٌ على وُجوبِ الزواجِ عندَ خوفِ الوقوعِ في الزِّنى، إلَّا أنهم يَشترطون معه عدمَ الخوفِ من الضررِ، حتى قال الحنفيَّةُ: إنْ تعارَضَ خوفُ الوقوعِ في الزنى لو لم يتزوَّجْ، وخوفُ الجَورِ وإلحاقِ الضررِ بالزوجةِ إن تزوج، قُدِّمَ خوفُ الضررِ، وحَرُمَ الزواجُ، قالوا: «لأنَّ الجورَ معصيةٌ متعلِّقةٌ بالعبادِ، والمنعَ من الزنى حقٌّ مِن حقوقِ اللَّه تعالى، وحقُّ العبدِ مُقدَّمٌ عند التعارُضِ؛ لاحتياجِ العبدِ، وغِنى المولَى سبحانه وتعالى»[1]، والشيءُ نفْسُه نجدُه في فقهِ المالكيةِ والشافعيةِ.

---

(١) «الموسوعة الفقهية»: ٤١/ ٢١٤-٢١٥، وزارة الأوقاف - الكويت.

والدرْسُ المُستفادُ هنا -فيما أَفهَمُ- أنَّ الجورَ على الزوجةِ جريمةٌ تَفوقُ جريمةَ الزنى، وأن الزنى ضررٌ أصغرُ بالقياسِ إلى ظلمِ الزوجةِ الذي هو ضررٌ أكبرُ. وهذا في الزواجِ لأولِ مرَّةٍ، ومع الزوجةِ الواحدةِ، فكيفَ بالزواجِ الثاني والثالثِ مع خوفِ الجورِ، بل مع نيةِ الجورِ وتعمده وقصدِ الإضرار بالزوجةِ الأولى؟

ولعلَّ قائلًا يقولُ: إذا وقع الضررُ على الزوجةِ فمِن حقِّها طلبُ الطلاقِ، فإن تعسَّفَ الزوجُ خالعَتْه؛ فاترُكِ الزوجَ يتنقلُ بينَ مَن يَهوَى ويريدُ، واترُكِ الزوجةَ: إمَّا أن ترضى، وإمَّا أن تُخالِع.

وإجابتي: أنَّ هذا القولَ يَجمَعُ على الزوجةِ ضررَيْن: ضررَ الهَجْرِ، وضررَ الاضطرارِ بالتضحيةِ بكلِّ حقوقِها كما هو حُكمُ الخُلعِ، وفي الوقتِ نفسِه يجمع للزوجِ منفعتين: تمكينه مِن تحصيلِ رغبتِه التي أمَرَه الشرعُ بتهذيبِها، وأخذ حقوقِ الزوجةِ التي اضطرَّها الجورُ إلى التنازُلِ عنها.

ولعلَّ هذا هو السببُ في أنك لا تجدُ في كلامِ الفقهاءِ في هذه المسألةِ إشارةً من قريبٍ أو بعيدٍ إلى إباحةِ الزواجِ مع خوفِ الجورِ، أو مع تخييرِ الزوجةِ بعدَ ذلك بينَ الرِّضا أو الانخلاعِ، وإنما تجد عباراتهم كلها تَرِدُ على مَوردٍ واحدٍ هو: تحمُّلُ المسؤوليةِ الأخلاقيةِ تِجاهَ الشريكِ قبل البَدءِ في مشوارِ هذه الشَّراكةِ، انطلاقًا من أنَّ الزواجَ حقوقٌ وواجباتٌ متبادلة قبلَ أنْ يكونَ نَزْوةً أو رغبةً عارِضةً، وأنَّهُ مسؤوليةٌ كُبرى عبَّر عنها القُرآنُ الكريمُ بالميثاقِ الغليظِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ٢١]، وأن الزواج لم يُشرَعْ أبدًا لمُكايَدةِ العَشيرِ، وأن تشريعاتِ الزواجِ إنما فُرِضَتْ لمصلحةِ الأسرةِ والمجتمعِ معًا.

ذلكم وقد أثبتت الإحصائياتِ التي أُجرِيَتْ على أطفالِ الشوارعِ أنَّ ما لا يقلُّ عن ٩٠٪ منهم كانوا ضحايا أُسَرٍ عبثَتْ بها فوضى الزواجِ وفوضى الطلاقِ، وأنَّ كلَّ أنواعِ الجرائمِ الخُلُقيَّةِ والاجتماعيَّةِ التي يُفرزُها مجتمعُ أطفالِ الشوارعِ، مردُّه إلى تعسُّفٍ في استعمالِ حقٍّ شرعيٍّ، أو فهمٍ لنِصفِ الحقيقةِ الشرعيَّةِ، مع فهمٍ رديءٍ سيئ لنِصفِها الآخَرِ، وهو ما أدَّى إلى ما يُشبِهُ حالةَ الانفصامِ بين فقهِ النصِّ وفقهِ الواقعِ.

وسببُ ذلك فيما أعتقدُ، ومِن خلالِ تجاربَ واقعيَّةٍ عديدةٍ هو: حاجزُ الخوفِ بين أهلِ الفتوى من الفقهاءِ والعلماءِ، وبين الاجتهادِ والنظرِ في الحكمِ والدليلِ، بعد النظرِ في محلِّ الحكمِ، وما يَعتَوِرُه من مصالحَ أو مفاسدَ.

ومِن المُؤلِم جدًّا أَنْ أسجِّلَ هنا أنَّ علماءنا ومُفتِينا في القرنِ الماضي كانوا أكثرَ شجاعةً مِن علمائنا اليومَ على اقتحام قضايا وأحكامٍ مَسَّتْ حاجةُ الناسِ إلى تجديدِها والاجتهادِ فيها في ذلكم الوقت.

خُذْ مثلًا اجتهاد علمائنا في أنَّ الطلاقَ الثلاثَ بلفظٍ واحدٍ يقعُ طلقةً واحدةً، فرُغمَ أننا نجد شبهَ إجماعٍ من علماءِ الأمَّةِ على خلافِه، حتى إنَّ القاضيَ عبدَ الوهابِ المالكيَّ يعد وقوع الطلاق الثلاث طلقة واحدة بدعة وقولًا شاذًّا وأن ابنَ عبدِ البرِّ يقول عن هذا النوع من الطلاق: «إنه ليس مِن أقوالِ أهلِ العلم» ومع ذلك، بل رغم ذلك لم يتحرج علماء الأزهر في القرن الماضي من اقتحامِ هذه المُشكلةِ، ومن الخروجِ بفتوى رسميَّةٍ خالفوا فيها المذاهبَ السَّائِدةِ على الساحةِ، ولم يعوِزْهم البحثُ في التراث أن يجدوا لفتواهم سَندًا من الفقه الأصيل، فأفتوا بأن هذه الصيغة تقع بها طلقةٌ واحدةٌ.

وقد حَدَثَ هذا الاجتهادُ عام ١٩٢٩م، في القرنِ الماضي، ودخَلَ كنصٍّ قانونٍ في قوانينِ الأحوالِ الشخصيَّةِ.

ودارُ الإفتاءِ المصريَّةُ التي استقرَّتْ فتواها على هذا الرأيِ منذُ تسعينَ عامًا تقريبًا؛ تتردَّدُ اليومَ -هي ومجمعُ البحوثِ الإسلاميَّةِ- في اقتحامِ قضايا أكثرَ خطرًا في حياةِ الأسرةِ من قضيةِ الطلاقِ الثلاثِ بلفظٍ واحدٍ، ويمنعُها ويمنعُ أغلب علماءِ الأُمَّةِ حاجزُ الخوفِ الذي تحدَّثْنا عنه، والإبقاءُ على بابِ الاجتهادِ مُوصَدًا أمامَ المهمومين بآلامِ هذه الأمَّةِ، مِمَّا يؤدِّي، أو كاد أن يؤدِّي إلى انسحابِ الشريعةِ من واقعِ الناسِ ومجتمعاتِهم، والانزواءِ بها في دوائرِ البحثِ والدَّرْسِ.

وكما يذهب البعض فإنَّ إحجامَ الفقهاءِ عن الاجتهادِ سيترُكُ المجتمعاتِ الإسلاميةَ «للآخَرِ» يملؤها بما يشاءُ، وهو: نوع من ممارسة العلمانية المتطرفة التي تفصلُ الحياةَ عن الدِّينِ، وكأنَّنا نرفض هذه العلمانية قولًا وندعو إليها عملًا وواقعًا[1].

السادة العلماء الأجلاء!

لا بُدَّ من الاعترافِ بأنَّنا نعيشُ أزمة حقيقية يدفع المسلمون اليوم ثمنها غاليًا حيثما كانوا وأينما وجدوا، نتيجة خوفنا، نحن المنتسبين إلى العلم والعلماء، من التعامل مع الشريعة التي نصفها بأنها صالحة لكل زمان ومكان، لتقديم إجابات مناسبة للنوازل والواقعات مستجدة، وأيضًا نتيجة غياب الرؤية المقاصدية التي تشوِّش حتمًا على النظرة الاجتهادية، وتأخذ الفقيه بعيدًا عن الحادثة التي يبحث في محلها عن الحكم الشرعي المناسب.. وأيضًا نتيجة الفتاوى المعلبةِ والمستوردةِ العابرةِ للدول

(١) انظر: الأستاذ عمر عبيد حسنة، في مقدمته لكتاب: الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، للدكتور عبد المجيد الشرفي: ٢٤، سلسلة كتاب الأمة، عدد ٦٢، سنة ١٤١٨هـ.

والأقطار، التي لا تراعي أحوال المجتمعات، وتضرب باختلاف الأعراف والعادات والثقافات واللغات والأجناس عرض الحائط، حتى صارت الفتوى الواحدة يُفتى بها للمسلم مهما اختلفت الديار وتباعدت الأوطان وتبدَّلت الأحوال من حربٍ وسلامٍ وغنى وفقر وعلم وجهل، وكيف يُعقَل أو يقبل أن يُفتَى للمسلم بفتوى واحدة في نوازل متشابهة من حيث الشكل ومختلفة من حيث الواقعُ واحتمالُ الضرر والمصلحة - في القاهرة ونيامي ومقديشو وجاكارتا ونيودلهي وموسكو وباريس وغيرها من الحواضر والبوادي في الشرق والغرب؟!

أمَّا فيما يتعلَّق بموضوع المؤتمر **فإنِّي أستسمحُ أخي سماحة مفتي الديار المصرية في أن أسجل رأيي في أن مصطلح الأقلياتِ المسلمة، في عنوان المؤتمر، هو مصطلح وافد على ثقافتنا الإسلامية وقد تحاشاه الأزهر في خطاباته وفيما صدر عنه من وثائق وبيانات، لأنه مصطلح يحمل في طياته بذور الإحساس بالعزلة والدونية، ويمهد الأرض لبذور الفتن والانشقاق، بل يصادر هذا المصطلح ابتداء الكثير من حقوق الأقليات الدينية والمدنية، وفيما أعلم فإن ثقافتنا الإسلامية لا تعرف هذا المصطلح، بل تنكره وترفضه، وتعرف بدلًا منه معنى المواطنةِ الكاملةِ كما هو مقرَّر في وثيقة المدينة المنورة**، لأنَّ المواطنةَ -في الإسلام- حقوق وواجبات ينعم في ظلالها الجميع، وفق أُسس ومعاييرَ تحقِّق العدل والمساواة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَـٰنِ﴾، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، فالمواطن المسلم في بريطانيا -في شريعة الإسلام- هو مواطن بريطاني مواطنة كاملة في الحقوق والواجبات، وكذلك المسيحيُّ المصري هو -في شريعة الإسلام- مواطن مصري مواطنة كاملة في الحقوق والواجبات، ولا محل مع هذه المواطنة

الكاملة لأن يوصف أي منهما بالأقلية الموحية بالتمييز والاختلاف في معنى المواطنة. . وفي اعتقادي أن ترسيخ فقه المواطنة بين المسلمين في أوروبا، وغيرها من المجتمعات المُتعَدِّدة الهويات والثقافات - خطوةٌ ضرورية على طريق «الاندماج الإيجابي» الذي دعونا إليه في أكثرَ من عاصمة غربية، فهو الذي يحفظ سلامة الوطن وتماسكه، ويرسِّخ تأصيل الانتماء الذي هو أساس الوحدة في المجتمع، كما يَدْعم قبول التنوع الثقافي والتعايشِ السِّلْمي ويقضي على مشاعر الاغتراب التي تؤدِّي إلى تشتُّت الولاء الوطني، وتذبذب المغترب بين وطن يعيش على أرضه ويقتات من خيراته، وولاء آخر غريب يتوهمه ويحتمي به فرارًا من شعوره بأنه فرد في أقلِّيَّة مُهَدَّدة، وفقهُ المواطنة إذا نجحنا في ترسيخه في عقول المسلمين وثقافاتهم هو السد المنيع أمام الذرائع الاستعمارية التي دأبت على توظيف الأقليات في الصراعات السياسية وأطماع الهيمنة والتوسُّع، وجعلت من مسألة «الأقليَّات» رأس حربة في التجزئة والتفتيت اللتين يعتمد عليهما الاستعمار الجديد.

أما تأهيل الأئمة للإفتاء فهو أمر بالغ الأهمية، وحسنًا ما صنعت دار الإفتاء المصرية حين انتبهت إلى أهميته وخطره، والحديث يطول في هذا الواجب المتعين، وقد كان للأزهر إسهام في تكوين الأئمة في الخارج وتوعيتهم بالقضايا التي تمس حاجات المسلمين هناك في أكثر من مجال، وتدرب في الدورات التي عقدتها المنظمة العالمية لخريجي الأزهر بالقاهرة ثمانية وثلاثون وخمسمائة إمامٍ من أفغانستان وباكستان وكردستان العراق والصين وإندونيسيا وبريطانيا واليمن إضافة إلى دول أفريقيا وأمريكا الجنوبية.

فحبَّذا لو حدثَ نوعٌ من التنسيقِ في هذا المجالِ مع المنظَّمةِ العالميَّةِ لخرِّيجي الأزهر حتى لا تبدؤوا من فراغٍ.

الإخوة الأفاضل!

لقد أطلت عليكم ووجب الاعتذار والعذرُ عند خيار الناس مقبول.

شكرًا لحسن استماعكم.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمــة اللَّه وبركاته

❋ ❋ ❋

تراثنا الفقهي المفترى عليه(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، وصلَّى اللَّه وسَلَّم وبارك على سَيدِنا محمَّد، وعلى آلِه وصحبِه أجمَعين.

أصحاب الفضيلة؛ من أَئِمَّة الفتوى وأهل العِلم.. الحضور الكريم..

السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه وبرَكَاتُه

وبعد:

فيُسعدني أنْ أُرحِّب بحضراتكم، مع أخي الفاضل، أ. د/ شوقي علَّام، مُفتي الدِّيار المصرية -في بلدكم مصر، مَهْدِ الحضارات، وأرض الأنبياء، ومُلتقى الأديان، وبلد الأزهر الشَّريف، قلعة الوسطية، وكعبة عقول المسلمين في الشَّرق والغرب.

أهلًا وسهلًا بكم بين أهليكم وإخوتكم وزملائكم.

هذا؛ وأرجو أن تَسمحوا لي -أصحاب الفضيلة- أن أتخفَّف في كلمتي أمامَكم من البحث في قضايا الفتوى بحثًا أكاديميًّا معاصرًا، سواء فيما يَتعلَّق بتلبية الفتوى الشَّرعية لحاجات المجتمع، أم إسهامها في تيسير حياة الناس ومعاشهم وأحوالهم، أم تكييف الفتاوى وتَنزيلها على الوقائع والمُستجدَّات... إلى آخر هذه القضايا ذات الطَّبيعة البحثية الفقهية،

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في مؤتمر دار الإفتاء المصرية المنعقد بفندق الماسة بمدينة نصر - القاهرة، بعنوان: «دور الفتوى في استقرار المجتمعات» في الفترة من: ٢٦ - ٢٨ من المحــرم سنة ١٤٣٩هـ، الموافق: ١٧-١٩ من أكتوبر سنة ٢٠١٧م.

والتي أذكر أنني عرضت جانبًا منها في مؤتمر العام الماضي يَتعلَّق بفوضى الزواج، وفوضى الطلاق، ومظالم المرأة باسم شريعة العَدل، والحقِّ، وإنصاف المظلوم، وإغاثة المكروب.

وكلمتي التي يُسعدني أن أسهم بها اليوم في هذا المؤتمر المهم، والذي يَحظى برعاية كريمة من رئيس الجمهورية، السيد/ عبد الفتاح السيسي، هي أشبَهُ بنَفثة مصدورٍ، أو زَفرة مَكلوم؛ بل هي شكوى الغريب أحمِلُها إلى أهل العلم، وسدَنة الشَّريعة، وحُرَّاس القيم السماوية، مما تعجُّ به السَّاحة الآن؛ من اكتساح العملة الزائفة للعملة الحرة الأصيلة في مجال الفتاوى وتبليغ شريعة اللَّه للناس، وتصدُّر بعض أدعياء العلم حلقاتِ تشويه الإسلام، والجرأة على القرآن والحديث وتراث المسلمين، وجلوسِهم على مقاعد العلماء في حملةٍ موزَّعة الأدوار، وفي جرأةٍ ممقوتة، ما أظنُّها تخفى على أحدٍ، ممن يَضيق بهذه الفوضى، ويَنشغلُ بهذا الهمِّ الذي لا هَمَّ يَفوق خطرَه، حتى لو كان هَمَّ العيشِ وضرورات الحياة.

لقد ظلَّت الفتوى -ولا زالت بحمد اللَّه- يُعهَدُ بها في عالَمنا العربي والإسلامي لأهل العلم والنَّزاهة والتجرُّد والأمانة على أحكام الدِّين، وكانت دُوَرُ الإفتاء هي الجهات الوَحيدة التي يَعرفها الناس، ويطرقون أبوابها كلَّما حزبَهم أمرُ البحث عن حكم اللَّه تعالى فيما يَطرأ لهم من شؤون الدُّنيا والدِّين، وفيما يَرغبون أن تَستقيمَ على هَدْيه حياتُهم؛ إبراءً للذمَّة، وطمَعًا فيما عند اللَّه.

وكان اختيار المفتي هو بمثابة اختيار لمن يُبَلِّغ عن اللَّه تعالى، وأذكرُ يومَ أُسندت مُهِمَّةُ الإفتاء إلى العبد الفقير الماثل أمامكم، أنني تردَّدت طويلًا؛ خوفًا من أنْ أحل حرامًا أو أحرم حلالًا، ولم يكن التَّأهُّل الفقهي هو الذي

يُقلقني، فأنا أنتمي إلى جيلٍ أكرَمه اللَّه تعالى بالتَّلمذةِ على علماء موسوعيين، تولَّوا رعايته رعايةً علميَّةً في الأصول والفروع على سواء، وبخاصَّةٍ؛ مادَّة الفقه، التي كان لها نصيبُ الأسد في ساعات الدُّروس؛ حيث كانت تشغل السَّاعة الأولى من الصَّباح خمسة أيامٍ كلَّ أسبوع، على مدى تسعةِ أعوامٍ دراسيَّة، وحين التَحقنا بكلِّية أصول الدِّين، في بداية السِّتينيَّات من القرن الماضي، واصلنا دراسة مادة الأحوال الشخصيَّة، ومادة أصول الفقه، على يدِ الفقيه العلَّامة الإمام: محمد أبو زهرة -رحمه اللَّه تعالى-، على مدى عامين دراسيَّين مُتتاليين، وكانت هذه الخلفيةُ الفقهية والأصولية ولوازمُها من العلوم الأخرى التي أَسندنا إليها ظهورنا في مقتبل العُمر -هي التي شجَّعتني على قَبول مُهِمَّة الإفتاء، وقد تَبيَّن لي أن أغلب أسئلة المستفتين مما تَسهُل الإجابة عليه، وأن بعضًا منها لا يمكن أن يستقلَّ بالإفتاء فيه مُفتٍ واحد، مهما بلغ حظُّه من الإحاطة بعلم الفقه والأصول؛ مثل: مسائل البنوك، ونقل الأعضاء، وبنوك اللَّبن، والحَقْن المجهري، وتَحديد الجنين، وغير ذلك.

وإبراءً للذِّمَّة كنت أناقش ما يَرد من هذا النوع من القضايا في جلساتِ مجمَع البحوث الإسلامية، الذي يَتوفَّر له من أهل الاختصاص ما لا يَتوفَّرُ لدار الإفتاء؛ كالأطبَّاء، ورجال الاقتصاد والبنوك، وعُلماء الهندسة الوراثية، وأساتذة القانون، وغيرهم، ثمَّ نَعتمدُ الرَّأي الذي يَنتهي إليه المجلس.

وممَّا يَجبُ أن أذكره في هذه التَّجرِبة؛ هو أنَّني التقيتُ بصُحبة شيخنا الإمام الراحل، الأستاذ الدكتور/ محمَّد سيِّد طنطاوي، شيخ الأزهر السَّابق، رحمَه اللَّهُ -بالمرحوم المستشار/ فاروق سيف النَّصر، الذي كان

وَزيرًا للعدل آنذاك، وكنت أخشى أن أتلقَّى توجيهاتٍ من هذا النوع الذي كان يَتهامَسُ به زملائي من الأساتذة ومن غيرهم، غير أنَّني فوجِئتُ به ﵀ يقول لي وهو يُسلمني القرار: قُل ما يُرضي ضميرَك، وما يُخلِّصُك من المسؤوليَّة أمامَ اللَّه تعالى، وقد أبرأنا ذمَّتنا باستلامك هذا القرار.

لقد تولَّيت مهمة الإفتاء عامًا ونصف العام، أعمَل في حُرية مُطلقة، وحَيْدة تامَّة، وفي احترام واضح من المسؤولين، ومن النَّاس، ومن الصحافةِ والإعلام، حتى أُبتلي أهل العلم الصحيح وأهلُ الفتوى في أيامنا هذه بنوعٍ من الضُّغوطِ والمضايقات لم يَعهدوه بهذا التَّحدِّي؛ وأعني به: الهجومَ على تُراث المسلمين، والتَّشويشَ عليه من غير مؤهَّلين لمعرفتِه ولا فهمِه، لا علمًا ولا ثقافةً، ولا حسنَ أدبٍ أو احترامٍ لأكثرَ من مليار ونصف المليار ممن يَعتزون بهذا التراث، ويُقدِّرونَه حقَّ قدره. .

ولم يَعدم هذا الهجوم المُبيَّت بليلٍ دعاوَى زائفة، يغلَّف بها للتَّدليس على الشباب؛ كدعاوى التَّنوير، وحُرِّية الإبداع، وحقِّ التعبير، بل حقِّ التَّغيير، حتى لو كان تغييرًا في الدِّين وشريعته. .

وأصبح من المعتاد المكرور: اقتطاعُ عبارات الفقهاء من سياقاتِها ومجالاتها الدِّلالية؛ لتبدوَ شاذَّة مُنكرة، يَنبو عنها السَّمع والذَّوق، قبل أن تُبثَّ في حلقاتٍ نقاشية، تُلصَقُ من خلالها بشريعة الإسلام وأحكام فقه المسلمين، عبر حوارٍ ملؤه السفسطة، والأغاليط، والتَّشويش، والخطأُ في المعرفة، والعجز عن إدراك الفروق بين توصيف الفعل في ذاتِه، والآثار الشرعية المترتبة عليه، وقد يكون بينهما من البُعدِ ما بين المشرق والمغرب، وقد يكون الفعلُ وما يترتب عليه من آثار من باب الافتراضات التي يَقتضيها

الاحتمال العقلي في الذهن لا في الخارج، أو الافتراضات التي لا يَقع فيها إلَّا أصحاب الفِطَر المُنحَرِفة؛ مِمَّن تحميهم قوانينُ واتفاقياتٌ دولية في حضارة الغرب اليوم.

وإلى هنا يَبدو أمرُ هذه الفوضى متوقَّعًا، إذا ما أُخِذَ في إطارِ الأعاصير العاتيةِ التي هبَّت على منطقتنا، ودمَّرَت منها ما دمَّرَت، وأبقت ما أبقت حتى يَحينَ قِطافه في أجندةِ القوم.

لكن ما لم يكن يَخطر على البال؛ هو استدراجُ بعضٍ من المنتَسبين إلى العلم، أو المُتَزيِّين بزيِّ أهلِه، وإغرائهم بالأضواء والأموال، ليُشاركوا في صنع هذه الأكاذيب، وليكونوا شهودَ زورٍ لتَرويج هذه الأباطيل بين النَّاس.

وعلينا -أيُّها السَّيِّدات والسَّادة الحضور- أن نتأمَّل مَليًّا في ظاهرة انفراد الإسلام من بين سائر الأديان بهذه الهَجمة النكراء، ونتساءل؛ هل سَمِعْنا أو شاهدنا برامجَ يهوديةً تُبثُّ بلغة عبرية أو بأيَّة لغة أخرى، تتبادل الأدوارَ في السُّخرية علنًا من التوراة والتلمود، وفي استهداف مكشوف لتحويل الأُسر اليهودية عن دينها وشريعتها باسم التنوير والتجديد؟ وهل رأينا أو استَمعنا في مُحيطنا العربي والإسلامي لبرامج تَسخَرُ من الإنجيل؟ أو تَجرؤ على الدَّعوة إلى أن يَنْفُضَ المسيحيون أيديَهم من تعاليمه؟ وهل هجومٌ كهذا يمكن -لو حدث- أن يَمُرَّ مرَّ الكِرام مثلَما يمر هذا العبث بالإسلام على مرأى ومسمعٍ من علمائِه؟

السَّادةُ العُلماء..

ليس من الصُّدفة البَحتة أن يَتزامَن، في بضع سنوات فقط، تدميرُ دولٍ عربيَّة وإسلامية بأكملِها، مع دعوات مُريبة، تَظهر على استحياء بادئَ الأمر، تُنادي بضرورة تَحطيم هَيْبَة الكبير واحترامه، وتَنظر إلى هذا التَّقليد الذي نَفخرُ

بتَنشئةِ أبنائنا عليه -نظرةَ احتقار- بحُسبانه سلوكًا لم يَعُدْ له مكانٌ في ثقافة الفوضى الحديثة، مع خطَّة مُريبة لتحطيم تراث المسلمين والسُّخرية من أئمَّته وأعلامه، وفي سُعارٍ جامح يَعكس حجم المؤامرة على حضارة الإسلام.

يَتزامن ذلك مع هجوم مُبرمَج على الأزهر، حتى أصبح من المعتاد إدانة الأزهر، وإدانة مناهجه عقبَ أيَّة حادثة من حوادث الإرهاب، في سعيٍ بائس فاشل لمحاولة خَلخلة رصيده في قلوب المسلمين، وحتى صرنا نعرف توقيت هذا الهجوم بعد أن رصدناه بدقَّة، ووجدنا أنَّه يَحدث في إحدى حالتين؛ الأُولى: بعد وقوع حوادث الإرهاب، والثَّانية: كلَّما أحرزَ الأزهرُ نجاحًا في تحقيق رسالته في الدَّاخل أو في الخارج..

والخطَّة في هذه الحالة؛ إمَّا الصَّمت المُطبق وإخفاء الحسَنات، وإمَّا البحثُ والتفتيش عن الهَنات وإذاعتها بعد تكبيرها وتَجسيمها.

وليس عندي من تفسيرٍ لهذا الإصرار المُلِحِّ على الربطِ بين الإرهاب والإسلام، إلَّا تزييف وعي المسلمين، وصرف أنظارهم عن العِلَّة الحقيقية التي صنَعت هذا الإرهاب وكبَّرته وسمَّنته؛ وهي -في نظري-: السِّياسات العالَمية الجائرة، التي لا تعرفُ شيئًا عن الأخوَّة الإنسانية، ولا الأخلاق العامَّة..

تلكُم الدُّول، التي يَقوم اقتصادُها على تصنيعِ السِّلاح وتصديره، وما يَتطلبه ذلك بالضَّرورة من إثارة الفِتَن، وإشعال الحروب في بلاد المسلمين، دون غيرهم.

تَزامَن كلُّ ذلك أيضًا مع المُطالَبات الجماعية بإباحة الشُّذوذ، باعتباره حقًّا من حقوق الإنسان، وفي جرأة غريبة، أشد الغُربة عن شباب الشَّرق، الذي عُرف برجولته، وباشمئزازه الفِطري من هذه الانحرافات والأمراض الخلُقية الفتَّاكة.

وتَزامن مع إزاحة البرقُع عن وجه التَّغريب، ودعوات وجوب مساواة المرأة والرَّجل في الميراث، وزواج المسلمة بغير المسلم، وهو فصلٌ جديد من فصول اتِّفاقية «السيداو»، وإزالة أي تميُّز للرَّجل عن المرأة، يُراد للعرب والمسلمين الآن أن يَلتزموا به، ويُلغوا تحفُّظاتهم عليه.

وكنَّا نتمنَّى أن نسمع صوتَ أمانتنا العامَّة لدُورِ وهيئات الإفتاء في العالَم، وصرختَها المستنكِرة لهذا العدوان الصَّريح على القرآن وشريعته، أو مؤازرتَها للأزهر الشَّريف الذي وقفَ يُدافع عن كتاب اللَّه، وبجواره دارُ الإفتاء المصرية، التي أصدرت -مشكورةً- بيانَها الرَّافض لهذه الدعوة، وكم تَمنَّينا أيضًا على الهيئات والمجامع الفقهية الإسلامية الكُبرى أن تُسارع باستنكار هذا الاجتراء على دين اللَّه!!

وشكرَ اللَّهُ للشَّيخ الجليل/ حَمْدَة سعيِّد -مفتي تونس السابق-، ولعُلماء الزَّيتونة ومشايخها، الذين حذَّروا المسلمين من الانسياق وراءَ دعوة المساواة في الميراث بين الرجل والمرأة، وإباحة زواج المسلمة بغير المسلم.

أيُّها الحَفل الكريم..

إذا كان لي من اقتراحٍ على هذا المؤتمر الجامع لأئمَّة الفتوى في عالمنا العربي والإسلامي؛ فهو إنشاء أقسام علمية متخصِّصة في كلِّيات الشريعة أو كلِّيات العلوم الإسلامية، باسم: «قسم الفتوى وعلومها»، يَبدأ من السَّنة الأولى، وتُصمَّمُ له مناهجُ ذاتُ طبيعةٍ موسوعية، لا تَقتصر على علوم الفقه فقط، بل تَمتدُّ لتشمَل تأسيسات علميَّة دقيقة في علوم الآلة، والعلوم النَّقلية والعَقلية، مع الاعتناء بعِلم المنطق وعلم الجدل، مطبَّقًا على مسائل الفقه،

والعناية -عناية قصوى- بدراسة مقاصد الشَّريعة، وبخاصة في أبعادها المعاصرة.

والأزهرُ جامعًا وجامعةً يُولي الآن هذا الأمر أهميَّة قُصوى، ويَنتظر من حضراتكم مقترحاتكم في هذا الموضوع، شُكْرًا لحضراتكم.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمـــة اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

الجِهادُ
في القُرآنِ والسُّنَّةِ(*)

وردتْ كلمةُ «جهادٍ» بمشتقاتِها في القرآنِ الكريم إحدى وثلاثين مرَّةً، بينما وردتْ كلمةُ «حرْبٍ» أربعَ مراتٍ فقط، ونُلاحظُ أنَّ معنى الجهاد في القرآنِ وفي نصوصِ السُّنةِ المحمديةِ أوسعُ وأعمُّ من معنى القتالِ؛ إذ إن القتالَ يعني - تحديدًا - المواجهةَ المسلحةَ في الحروبِ، بينما يعني الجهادُ بذْلَ الجهدِ في مقاومةِ العدوِّ، سواءٌ أكان هذا العدوُّ شخصًا معتديًا أم شيطانًا يجبُ على المؤمنِ مُجاهدتُه، أم حتَّى نفسَه التي بين جنبَيْه، والتي تزيِّنُ له فِعلَ الشرِّ.

وكما تتعدَّدُ معاني الجهادِ تتعدَّدُ وسائلُه أيضًا، فهناك الجهادُ بالنفسِ، وبالمالِ، وباللسانِ، بمعنى الحُجةِ والبرهانِ، والجهاد بالقرآنِ، وذلك في مجالِ بيانِ الإسلامِ ودعوةِ الناسِ إليه، فكلُّ هذه أنواعٌ ومعانٍ للجهادِ، يذكُرُها القرآنُ الكريمُ والسُّنةُ النبويةُ.

ومما جاء في القرآنِ من هذه المعاني خطابُ اللَّه لنبيِّه محمدٍ ﷺ بالجهادِ بالقرآنِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

والنبيُّ محمدٌ ﷺ سمَّى جهادَ النفسِ والشيطانِ والهوى - الجهادَ الأكبرَ، مقارَنًا بالجهادِ الأصغرِ الذي هو القتالُ في ساحةِ الحربِ، ومن أمثلة

(*) أصل هذه الكلمة؛ بحث نشر في كتاب: «الأزهر في مواجهة المفاهيم المغلوطة» الصفحات: (١٥ - ٢٤) من أعمال مؤتمر الأزهر العالمي لمواجهة التطرف والإرهاب، المنعقد بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ١١-١٢ صفر ١٤٣٦هـ، الموافق: ٣-٤ ديسمبر ٢٠١٤م.

الأحاديث التي تبيِّن ذلك:

قوله ﷺ: «**المجاهدُ من جاهدَ نفْسَه**»[(١)].

ويجبُ أنْ نعلمَ أنَّ الجهادَ الذي يكونُ بالنفسِ أو بالمالِ (كالقتالِ، وكتمويلِ الجيشِ مثلًا)، مشروطٌ -في القرآنِ- بأنْ يكونَ في سبيلِ اللَّهِ، ومن أجلِ أن تكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العُليا.

ممَّا يضعُ أيدينَا منذُ البدايةِ على قاعدةٍ أصيلةٍ في الإسلامِ، هي ارتباطُ مشروعيةِ الجهادِ بتحقيق غاياتٍ إنسانيةٍ نبيلةٍ، الأمرُ الذي يعني أنَّ الجهادَ في فلسفةِ الإسلامِ لم يُشرَعْ من أجلِ التوسعِ، أو احتلالِ الأرضِ، أو السيطرةِ على مواردِ الغيرِ، أو قهرِ الشعوبِ وإذلالِها، أو غيرِ ذلك من الأغراضِ الماديةِ الهابطة التي شكَّلتْ بواعثَ الحربِ في كُبرى حضاراتِ العالمِ قديمًا وحديثًا.

وكلمةُ الجهادِ وإنْ كانت تحتملُ معانيَ عدَّةً غيرَ القتالِ -كما ذكرنا- إلَّا أنَّ استعمالَها في القتالِ في سبيلِ اللَّهِ، هو الاستعمالُ الأغلبُ والمشهورُ في أدبياتِ الإسلامِ.

الجهادُ والحربُ:

والجهادُ ليس هو الحربَ كيفما كانت بواعثُها ومقاصدُها، بل هو الحربُ التي تكونُ في سبيلِ اللَّهِ فقط، فإذا خرجتِ الحربُ عن هذا الإطارِ، فإنَّها لا تكونُ جهادًا، وإنَّما تكونُ عملًا قبيحًا مرفوضًا في شريعةِ الإسلامِ وأخلاقِه، من هنا نستطيعُ أنْ نضعَ تعريفًا للجهادِ بأنَّه القتالُ في سبيلِ اللَّهِ، سواءٌ أكان بالاشتراكِ المباشرِ في العملِ العسكريِّ (الحربِ)، أم بالمساعدةِ بالمالِ، أم بالرأيِ والتفكيرِ، أم بالخدماتِ الطبيةِ، أم بأيِّ مجهودٍ يُبذَلُ من أجلِ الدفاعِ عن العقيدةِ وعن الأوطانِ.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٦٢١) من حديث فَضالة بن عُبيد ﷺ، وقال: «حديث حسن صحيح».

ولكنْ علينا أنْ نفرِّقَ بين كلمتَيْن يؤدِّي الخلطُ بينهما إلى الوقوعِ في سوءِ الفَهمِ حينَ نفسِّرُ الجهادَ بمعنى القتالِ في سبيلِ اللَّهِ، هاتان الكلمتان هما: «القتلُ» و«القتالُ»، والفرقُ بينهما كبيرٌ: فالقتلُ يعني مبادرةَ الآخرِ ومباغتته بالسلاح وبالقتل، وهذا لا يتطلَّبُ إلَّا قاتلًا من جانبٍ، وقتيلًا من جانبٍ آخرَ، بخلافِ القتالِ؛ فإنَّه لا بدَّ فيه من طرفَيْن يُقاتِلُ كلٌّ منهما الآخرَ، ويُمارسُ كلُّ طرفٍ منهما فعْلَ القتلِ ضدَّ الطرفِ الآخرِ، والمعنى الذي تتضمَّنُه كلمةُ الجهادِ هو المعنى الثاني، الذي هو «قتال المقاتلين»، وليس المعنى الأول الذي هو «القتلُ».

والنتيجةُ التي ينتهي إليها هذا التحليلُ: هي أنَّ الأمرَ بالجهادِ في الإسلامِ ليس أمرًا بالقتلِ، بل هو أمرٌ بالمقاتَلةِ، أي التصدي للمقاتلِ ومجاهدتُه؛ لردِّ عدوانِه ووقفِ هجومِه.

والجهادُ بهذا المعنى ليس إلَّا تسميةً إسلاميةً قديمةً لما يُعرَفُ الآن بوَزارةِ الدفاعِ، والتي كانت تُسمَّى إلى عهدٍ قريبٍ «وَزارةَ الحربيةِ»، أو المجالسَ العُليا للحربِ، ومثلُها وَزاراتُ المستعمراتِ في الغربِ، وكلُّها تسمياتٌ مسكونةٌ بانطباعاتِ الرعبِ والخوفِ والعدوانِ، ورغمَ ذلك فإنَّ أحدًا لم يُصادِرْ على الدولِ والأنظمةِ حقَّها في أنْ تكونَ لها وَزارةُ حربٍ أو دفاعٍ، مثلما نقرأُ عن النقدِ الظالمِ أو المصادرةِ التي تتبنَّاها (الميديا) الأنجلو - أمريكية بالنسبةِ لحقِّ الجهادِ في الإسلامِ.

ونحن ندَّعي أنَّ اسمَ (الجهادِ) أرقى وأحفلُ بالبُعدِ الإنسانيِّ من وَزارةِ الحربيةِ مثلًا؛ لأنَّ الحربَ -في شريعةِ الإسلامِ- تصدُقُ على الحربِ الهجوميةِ، وتصدُقُ على الحربِ الدفاعيةِ، سواءً بسواءٍ، بخلافِ الجهادِ؛ فإنَّه -لمن يفقَهُ اللغةَ العربيةَ- مقاتلة وليست قتلا، وهو لا يصدُقُ إلَّا على الحربِ الدفاعيةِ فقط.

وإذن ففريضةُ الجهادِ التي يعمَلُ الغربُ على تشويهِها ليست إلَّا حقَّ الدفاعِ عَنِ النفسِ، وعَنِ العقيدةِ، وعَنِ الوطنِ. وما أظنُّ أنَّ عاقلًا يُصَادرُ على هذا الحقِّ الطبيعيِّ، أو يَشغَبُ عليه بتلبيساتٍ وأباطيلَ، اللَّهمَّ إلَّا إذا كان من هؤلاءِ السفسطائيِّين الجدِدِ العابثينَ بِبَدَائِهِ الأذهانِ ومُسلَّماتِ العقولِ.

حكمُ الجهادِ:

إذا كان الجهادُ في الإسلامِ حربًا دفاعيةً في سبيلِ اللَّهِ، فمن المنطقيِّ أن يكونَ فرضًا ولازمًا إذا دَعتْ إليه الأحوالُ والظروفُ. ومع ذلك وجدْنا في تراثِنا الإسلاميِّ وجهاتِ نظرٍ عديدةً ومختلفةً حول كونِ الجهادِ فرضًا أو غيرَ فرضٍ.

والذي يُمكنُ أنْ نلخِّصَه في هذه الورقةِ هو أنَّ الجهادَ فريضةٌ على المسلمينَ، ولا يعني ذلك - أبدًا - أنْ يحمِلَ كلُّ مسلمٍ سيفَه أو سلاحَه ويُقاتلَ الآخرينَ، فهذا أمرٌ غيرُ معقولٍ، ولم يحدُثْ في تاريخِ الإسلامِ وانتشارِ حضارتِه شرقًا وغربًا؛ أنْ تَعَامَلَ المسلمونَ مع غيرِهم بهذه الصورةِ المزيَّفةِ التي يُروِّجُ لها كثيرونَ الآنَ، بل المقصودُ هو أنَّ على كلِّ مسلمٍ أنْ يُجاهدَ بما يتَّفقُ مع أحوالِه وظروفِه، فهو يجاهدُ بقلبِه، أو بلسانِه، أو بمالِه، أو بالقرآنِ.

أمَّا الجهادُ بالنفسِ - أي القتالُ - فهو فرضٌ غيرُ متعيِّنٍ على كلِّ مسلمٍ، بمعنى أنَّ الجيشَ ينوبُ عن أفرادِ المسلمينَ في تحمُّلِ هذه الفريضةِ، وبحيثُ تسقُطُ مُطالَبَةُ باقي الأفرادِ بها، ولا يُسألونَ عنها أمامَ اللَّه تعالى يومَ القيامةِ.

إذن فالجهادُ بالنفسِ ليس فريضةً شخصيةً عينيةً كفريضةِ الصلاةِ أو الصومِ التي هي واجبٌ متعيِّنٌ على كلِّ فردٍ مسلمٍ، بل هي فريضةٌ كفائيَّةٌ؛ إذا قامَ بها البعضُ سقطَت عن الباقين.

وقد يكونُ القتالُ فريضةً شخصيةً على كلِّ مسلمٍ، وذلك فيما لو فاجأ

العدوُّ بلدًا مسلمًا ودخلَه واحتاجَ الجيشُ مساعدةَ الأفرادِ، فهنا يجبُ على كلِّ مسلم أنْ يقاومَ العدوَّ بكل ما يَملِكُ من نفْسٍ أو مالٍ أو غيرِهما، وهذا أمرٌ منطقيٌّ أيضًا لا يَتمارى فيه إلَّا من يُصادِرُ حقوقَ الناسِ في الدفاعِ عن أنفسِهم وأوطانِهم.

متى يكون الجهاد -بمعنى القتال- فرضًا على المسلمين؟

لو رجَعْنا إلى القرآنِ الكريمِ وإلى السُّنةِ النبويةِ وإلى أئمةِ المسلمين في العصورِ الأولى، فإنَّنا نجِدُ الإجابةَ صريحةً في أنَّ القتالَ المفروضَ على الأمةِ هو قتالُ مَن يقاتلونها، وهذا ما يقولُه القرآنُ الكريم. يقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١].

ويقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

ونلاحظُ أنَّ فريضةَ الجهادِ -اليوم- منوطة بالقوات المسلحة فقط، ؛ إذ هي الجهةُ المنوطُ بها تحقيقُ أمنِ الوطنِ وسلامتِه من كلِّ اعتداءٍ خارجيٍّ، وهي تتحمَّلُ هذا العبءَ عن بقيةِ أفرادِ الدولةِ المسلمةِ، فلا يكونُ الجهادُ فرْضَ عينٍ إلَّا في حقِّ المجنَّدِ إذا دُعيَ إليه أو أُمِرَ به.

متى فُرِضَ الجهادُ:

من الحقائقِ التاريخيةِ والدينيةِ في الإسلامِ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه قَضَوْا في مكةَ ثلاثةَ عشرَ عامًا يُواجهونَ الظلمَ، ويَتحمَّلونَ الأذى بل العذابَ من كفَّارِ قريشٍ، ورغمَ ذلك لم يُقاتلوا الكفارَ ولم يُشهِروا السيوفَ في وجوهِهم.

وكثيرًا ما كان يذهبُ البعضُ منهم إلى النبيِّ ﷺ يستأذنونه في مقاتلةِ أعدائِهم، لكنه لم يأذنْ لهم بالقتالِ، وإنْ أَذِن لهم بمغادرةِ مكةَ والهجرةِ إلى دولةٍ مسيحيةٍ ومَلِكٍ مسيحيٍّ هي الحبشةُ ومَلِكُها النجاشيُّ، وقد هاجرَ إليه المسلمون المستضعفونَ مرتَيْن في العهدِ المكيِّ واحتَمَوْا به، وحَماهُم بالفِعْلِ وأمَّنَهم من ظلمِ الوثنيِّين.

وظلَّ الأمرُ كذلك إلى أنْ هاجرَ النبيُّ ﷺ وهاجر معه المسلمونَ إلى المدينةِ، وهناك وفي السَّنةِ الثانيةِ بعد الهجرةِ إلى المدينةِ نزلَ القرآنُ بالإذنِ للمسلمينَ في قتالِ أعدائِهم ومُواجهتِهم، وأولُ ما نزلَ من القرآنِ في الإذنِ بالقتالِ هو قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وهاتان الآيتان واضحتان تمامَ الوضوحِ في أنَّ مشروعيةَ القتالِ - في الإسلامِ - مرتبطةٌ بنصرةِ المظلومينَ ودفعِ الظلمِ عنهم، وتمكينِهم من حقِّهم في حياةٍ آمنةٍ مثلَ غيرِهم، وهو حقٌّ لا يستطيعُ عقلٌ مُنصفٌ أن يتنكَّرَ له أو يرتابَ في مشروعيتِه في يومٍ من الأيامِ. ولو دقَّقْنا النظرَ في هاتَيْن الآيَتَيْن فسوف نكتشفُ فيها من عدلِ الإسلام وإنصافِه واحترامِه للآخرينَ ما يلي:

أولًا: تُقرِّرُ الآيةُ الأولى أنَّ المسلمينَ لم يبدؤوا الكفارَ بالقتالِ، بل العكسُ هو الصحيحُ، وأنَّ الإذنَ للمسلمينَ جاء لردِّ الاعتداءِ والقتالِ الواقعِ عليهم بالفِعْلِ، وهذا ما يدُلُّ عليه الفِعْلُ (يقاتلون)، المبنيُّ للمجهولِ، والذي يُفيدُ أنَّ القتالَ واقعٌ -أولًا- من غيرِ المسلمينَ على المسلمينَ.

ثانيًا: يبيِّنُ القرآنُ أنَّ المسلمينَ قُوتِلوا ظُلمًا وعُدوانًا، وأنَّهم أُخرجوا من

ديارِهم دونَ ذنبٍ أو جريمةٍ تُوجِبُ إخراجَهم من أوطانِهم.

وهكذا شُرِعَ القتالُ للمسلمينَ دفاعًا وليس عُدوانًا، وهذا ما تُقِرُّه كلُّ الشرائعِ والأعرافِ والقوانينِ.

ثالثًا -وهذا هو الأعجبُ-: أنَّ القتالَ المشروعَ في هذه الآيةِ هو قتالٌ للدفاعِ عن الأديانِ السماويةِ بأسرِها. أقولُ: «الأديانَ السماويةَ» وليس دينَ الإسلامِ فقط، وهذا ما يُفيدُه قولُه تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وقد كنا نتوقَّعُ أنْ يأذنَ اللَّهُ للمسلمينَ بالقتالِ لتأمينِ عبادةِ المسلمين في مساجدِهم فقط، ولكن وجَدْنا الآيةَ لا تقتصرُ في ذكرِ السببِ على تأمينِ مساجدِ المسلمينَ، بل ذَكَرتْ دُورَ العبادةِ الأخرى لليهودِ والنصارى والمجوسِ.

فهل يعني ذلك أنَّ المسلمَ كما يُقاتلُ من أجلِ تأمينِ المساجدِ، عليه كذلكَ أنْ يُقاتلَ أيضًا لتأمينِ حريةِ العبادةِ في الكنائسِ والمعابدِ وغيرِهما؟ وقد تُدهَشُونَ لو قلتُ لكم: نعم، وإنْ تَعْجَبوا فاعجبوا لدِينٍ يدفعُ أبناءَه للقتالِ من أجلِ دينِهم وأديانِ الآخرينَ على سواءٍ.

استمع معي إلى تفسيرِ ابنِ عباسٍ رضي اللَّه عنهما لهذه الآيةِ حيثُ يقولُ: «يدفَعُ اللَّهُ بدينِ الإسلامِ وبأهلِه عن أهلِ الذِّمةِ».

وقد علَّلَ الفيلسوفُ المسلمُ فخرُ الدِّينِ الرازيُّ (ت ٦٠٦هـ) إدراجَ الكنائسِ والمعابدِ مع المساجدِ في خطةِ الدفاعِ الإسلاميِّ في القرآن عن بيوت العبادة - بأنَّ الصوامعَ والبِيعَ والصلواتِ مواضعُ يجري فيها ذكرُ اللَّهِ تعالى، فهي ليست بمنزلةِ المعابدِ الوثنيةِ.

فالآيةُ الكريمةُ وهي تأذَنُ بالقتالِ دفاعًا عن مواضعِ العبادةِ لا تأخُذُ في

حُسبانِها المساجدَ فقط، وإنَّما تنظُرُ كذلك إلى أماكنِ العبادةِ الخاصَّةِ بغيرِهم.

السلامُ أساسُ العَلاقةِ الدوليةِ عند المسلمينَ:

الجهادُ -إذن- مشروعٌ للدفاعِ وليس للمبادأةِ، وهذه نتيجةٌ ضروريةٌ لفلسفةِ القرآنِ في حقيقةِ اختلاف الشرائع والمناهج والألوانِ واللغاتِ والأجناسِ بين البشرِ، ونحن نقرأ في القرآنِ أنَّ اللَّهَ تعالى لو شاءَ أنْ يخلُقَ الناسَ على دينٍ واحدٍ وعقيدةٍ واحدةٍ ولغةٍ واحدةٍ لفَعلَ، ولكنْ لم يشأْ ذلك، وشاء الاختلافَ والتنوعَ.

ويُخبرُنا القرآنُ أنَّ سُنةَ اللَّهِ في اختلافِ الأديانِ والعقائدِ ماضيةٌ ومستمرةٌ إلى يومِ القيامةِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

وعندنا -نحن المسلمين- أن التعدّدَ أو الاختلافَ بين البشرِ في هذه الأمورِ إرادةٌ إلهيةٌ لا تتخلَّفُ على امتدادِ الزمانِ والمكانِ.

ومن هنا يلفتُ القرآنُ الأنظارَ إلى أنَّ الناسَ ما داموا مختلفينَ؛ فالعَلاقةُ بينهم هي عَلاقةُ التعارفِ، أي: التصاحبِ والتكاملِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم جاءت الحقيقةُ الثالثةُ التي تترتَّبُ ترتبًا منطقيًّا علي الحقيقتَيْنِ السابقتَيْنِ لتؤكِّدَ أنَّه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأنَّ نبيَّ الإسلامِ ليس إلَّا مُذكِّرًا فقط: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وإذن فلا مكانَ في فلسفة الإسلام وحكمته لأيِّ احتمالٍ من احتمالاتِ فرضِ عقيدتِه على الناس، سواءٌ بالإكراهِ الأدبيِّ أم الإكراهِ الماديِّ، بل لا مكانَ في حكمةِ الإسلامِ لابتذالِ العقائدِ والإيمانِ في أسواقِ المصالحِ، واستغلالِ حاجاتِ الناسِ وضروراتِهم. ومن هنا، فإنَّ الإسلامَ لا يُؤمنُ بالتبشيرِ الذي يَعتمدُ على مُقايضةِ العقائدِ بالخدماتِ، ولا يعترفُ بالإيمانِ المختطَفِ ببريقِ السيوفِ أو بريقِ الأموالِ والمنافعِ؛ لأن مثل هذه الوسائل غير الصحيحة في تحصيل العقائد، لا تنتج إلا نفاقًا في العقيدة وتذبذبًا في أصول الدين.

هل قتال المسلمين لغيرهم سببه العدوان أم الكفر؟

وهاهنا سؤالٌ محوريٌّ: ما هو السببُ الذي يجعلُ من قتالِ المسلمينَ غيرَهم أمرًا مشروعًا؟ هل هي حالةُ العداءِ؟ أو هي حالةُ الكفرِ بمعنى رفضِ الدِّينِ الإسلاميِّ؟

والإجابةُ التي أجمعَ عليها جمهورُ علماءِ المسلمينَ اعتمادًا على القرآنِ الكريمِ وسيرة النبيِّ ﷺ مع غيرِ المسلمينَ: هي أنَّ العُدوانَ على المسلمينَ هو السببُ الرئيسُ الذي يُبيحُ لهم القتالَ. أمَّا الكفرُ وحدَه - دونَ عدوانٍ - فإنَّه لا يَصلُحُ سببًا لإباحةِ الحربِ، ولا يُمكنُ أنْ يكونَ مبررًا شرعيًّا لإعلان الحرب على غير المسلمين؛ لأنَّ القرآنَ إذا كان قد أقرَّ حريةَ الناسِ في الإيمانِ أو الكفرِ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فإنَّ من المستحيلِ أنْ يُبيحَ -بعد ذلك- قتالَ غير المسلم لإدخاله -عنوة- في دِينِ الإسلامِ، وإلَّا كان القرآنُ مُتناقضًا يُكذِّبُ بعضُه بعضًا بمعنى أنه يقرر حرية العقيدة في آية، ويقرر مصادرتها في آية أخرى، ومعاذ اللَّه أن توصف كلمات اللَّه تعالى بهذا الوصف.. وأعداءُ القرآنِ رغم بحثِهم الدؤوبِ عن شيءٍ

يَعيبونه به، لم يستطيعوا أنْ يسجِّلُوا عليه عيبًا كهذا، وإذن فالسَّلْمُ هو العَلاقةُ المقرَّرةُ بين المسلمينَ وغيرِهم، وهذا ما نجدُه صراحةً في القرآنِ الكريمِ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

نعم هناك بعضُ الآراءِ الفقهيةِ الشاذةِ التي فَهِمتْ - خطأ - أنَّ الكفرَ يُبيحُ القتالَ[١]، وأنَّ على المسلمين أنْ يُقاتلوا غيرَهم ليَدخُلوا الإسلامَ أو يَبقُوا على أديانِهم مع دفعِ الجزيةِ، غيرَ أنَّ هذه الآراءَ قُوبلتْ بنقدٍ شديدٍ من جمهورِ العلماءِ، انطلاقًا من الآياتِ القرآنيةِ العديدةِ، ومن تاريخِ الحروبِ التي خاضها النبيُّ ﷺ ضدَّ أعدائِه، وكلُّها كانت حروبًا دفاعيةً كما يُثبتُ التاريخُ، ومن أقوى البراهين على تهافت هذا الرأي ويناقضه، ما ثبت بنص القرآن الكريم من أن قتال غير المسلمين ينتهي ويتوقف باختيارهم البقاء على أديانهم مع دفع الجزية ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فلو كان الهدف من القتال هو الدخول في الإسلام واعتناقه، فكيف وجدنا في القرآن هذا الحكم الصريح بوجوب وقف القتال إذا استمر أهل البلاد المفتوحة على كفرهم بالإسلام والبقاء على أديان لا تقره ولا تؤمن به، إذا أعطوا الجزية التي هي رمز السلام للمسلمين!! أليس هذا الحكم حجة على أن العدوان -وليس الكفر بالإسلام- هو المبيح للمسلمين أن يقاتلوا غير المسلمين، والقتال بسبب العدوان هو القتال بمعنى الدفاع وحماية الدين والوطن!! وممَّا يدُلُّ

(١) انظر: المبسوط للسرخسي: ٢١/ ٢٤٢، دار الفكر بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

على شذوذِ هذا الرأيِ أيضًا أنَّ الإسلامَ يُحرِّمُ قتْلَ الأطفالِ والنساءِ والشيوخِ والرُّهبانِ والأعمى والمُقعَدِ والأجيرِ في مُعسكرِ العدوِّ وكلهم كفار بالإسلام ومع ذلك حرم على جيش المسلمين أن يمسسهم بسوء؛ لأنَّ هؤلاءِ لا يُتصوَّرُ منهم قتالٌ ولا عدوانٌ، فلذلك حَرُمَ قتلُهم رغمَ كفرِهم، ولو أنَّ الكفرَ بالإسلام هو السببُ المبيحُ للقتالِ لجازَ قتلُ هؤلاءِ الضعفاءِ مثل غيرهم.

حقائقُ حولَ الجهادِ:

ومما سبق يتبين بوضوح أنه:

١- ليس صحيحًا أنَّ الإسلامَ دِينُ السيفِ، كما يتردَّدُ في كتاباتِ بعضِ الغربيينَ ممَّن تخصَّصوا في تشويهِ صورةِ الإسلامِ وحضارتِه، والكلامُ هنا كثيرٌ جدًّا، لكن نكتفي بأنْ نَلفِتَ أنظارَ هؤلاء إلى أنَّ القرآنَ الذي قرَّرَ حريةَ الإيمانِ وحريةَ الكفرِ في آياتِه الصريحةِ، لا يُمكِنُ أنْ يُقرِّرَ في الوقتِ نفسِه استعمالَ السيفِ ولا غيرَ السيفِ في نشرِ الإسلامِ، وليس له من طريقٍ في الدعوةِ إلى الإسلامِ إلا طريقُ الإقناعِ بالحُجةِ والبرهانِ.

على أنَّ المقارنةَ بين القرآنِ وغيرِه من الكتبِ المقدسةِ تُثبِتُ أنَّ كلمةَ السيفِ لم تكن من ألفاظِ القرآنِ، لأنَّها لم تُذكَرْ فيه على الإطلاقِ. وهذا أمرٌ مُدهِشٌ إذا أخذنا في الاعتبارِ أنَّ السيفَ كان -في وقتِ نزولِ القرآنِ- رمْزَ الشجاعةِ والبطولةِ للفردِ والقبيلة، هذا في الوقتِ الذي نجِدُ فيه كلمةَ السيفِ تتكرَّرُ -مثلًا- ثلاثَ عشْرةَ مرةً في سِفْرِ واحد من أسفارِ العهدِ القديمِ في الكتابِ المقدسِ وهو سفر يشوع.

وكذلك الآيات التي تأمرُ بحرقِ ما يَستولي عليه بنو إسرائيلَ من البلدانِ والمدنِ، وقتلِ كلِّ مَنْ فيها بحدِّ السيفِ: الإنسانِ والحيوانِ والنباتِ، كما نجِدُ في العهدِ الجديدِ مِنَ الكتابِ المقدسِ نصًّا صريحًا (في إنجيلِ متَّى)

منسوبًا إلى سيدِنا عيسى -عليه السلام- يقولُ فيه: «لا تظنُّوا أنِّي جئتُ لأحملَ السلامَ إلى الأرضِ، ما جئتُ لأحملَ سلامًا بل سيفًا».

وأنا أتساءلُ: أيُّ الكتابَيْن هو أشدُّ رحمةً بالناسِ؟ أهو الكتابُ الذي تتردَّدُ فيه عشراتِ المراتِ كلمةُ (حدِّ السيفِ)، و(حرقِ الناسِ بالنارِ)، و(قتلِ الحيواناتِ والدوابِّ البريئةِ)، أم هو الكتابُ الذي خلتْ آياتُه من ذِكرِ هذه الألفاظِ وغيرها من أدوات القتل والقتال؟

٢- وليس صحيحًا أنَّ المسلمين عُشَّاقٌ للحروبِ، بل الأمرُ على العكسِ تمامًا، والقرآنُ مملوءٌ بالآياتِ التي تدعو إلى السلامِ، وإلى تلمُّسِ كلِّ الطرقِ التي يَتفادى بها المسلمونَ كارثةَ الحربِ، والنبيُّ محمدٌ ﷺ يقولُ للمسلمينَ: «**لا تمنَّوْا لِقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللَّهَ العافيةَ**»(١). وكان يقولُ: «**اتركوا التُّركَ ما تركوكم، ودَعُوا الحبشةَ ما ودَعوكم**»(٢).

وهنا نَلفِتُ النظرَ إلى أنَّ المسلمينَ لم يُقاتِلوا الحبشةَ المسيحية ولم يدخُلوا معها في حربٍ، رغم قُربِها الشديدِ مِن جزيرةِ العربِ، ومعرفةِ المسلمينَ بأحوالِ الأحباشِ، ومع ذلك لم يُحاربوها -رغم ضعفها- ولم يَستعمروها، وحارَبوا قريشًا وفارسَ والرومَ؛ لأنَّ هذه الدولَ مارستْ على المسلمينَ عُدوانًا حقيقيًّا، وكانت تُشكِّلُ خطورةً شديدةً على وجودِ دولةِ الإسلامِ، بينما كانتِ الحبشةُ محايدةً ومسالمةً.

٣- والحربُ في شريعةِ الإسلامِ مُنضبطةٌ بقواعدَ إنسانيةٍ وأخلاقيةٍ، لا زلنا نفتقدُها في حروبِ حضارةِ القرنِ الواحدِ والعشرينَ، ويطولُ بنا الحديثُ لو رُحنا نستقصي هذه الضوابطَ الأخلاقيةَ التي حَكمتْ معسكرَ المسلمينَ في حروبِهم معَ غيرِهم، ونكتفي بالإشارةِ إلى ما يَعلمُه المسلمونَ من أنَّ النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٩٦٦) ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٢) والنَّسائيُّ (٣١٧٦) من حديث رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ.

كان يأمُرُ قادةَ الجيوشِ بألَّا يَقتلُوا الصبيانَ ولا الأطفالَ ولا المُسنِّينَ ولا النساءَ ولا الأُجَراءَ الضُّعفاءَ، وكان يَنهى عن التمثيلِ بالقتلى، وأنَّ قادةَ الجيوشِ والجنودِ كانوا يحفظونَ عن ظهرِ قلبِ القانونَ الحربيَّ: «إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ، فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ. . . لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تحرقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ»[(١)]، و«سوف تجدونَ أقوامًا قد فرَّغوا أنفسَهم في الصوامعِ فدَعُوهم وما فرَّغوا أنفسَهم له»[(٢)].

٤- إنَّ الحقيقةَ التي يكتُمُها البعضُ في انتشارِ الإسلامِ بهذه السرعةِ العجيبةِ: هي أنَّه دِينٌ بسيطٌ في عقيدتِه، أخلاقيٌّ في أحكامِه وشريعتِه. وأكبرُ دليلٍ على أكذوبةِ العنفِ والسيفِ في الإسلامِ: هو انتشارُ الإسلامِ الآنَ بينَ الأوروبيينَ والأمريكيينَ بالملايينِ، وبصورةٍ أقلقتِ الدوائرَ السياسيةَ والدينية هناك، فأين هذا السيفُ أو هذا العنفُ الذي يحملُ الأوروبيينَ والأمريكانَ ويُجبرُهم على التحولِ إلى دِينِ الإسلامِ؟ مع الأخذِ في الاعتبارِ أنَّ الإسلامَ لا يعترفُ بوسائل التبشيرِ الذي تَعتمدُه كنائسُ الغربِ وتُخصِّصُ له الملياراتِ لتحويلِ المسلمينَ إلى مسيحيينَ، وإنَّما يَعترفُ فقط بالاقتناعِ الناشئِ عن نظرٍ وتفكيرٍ وبرهانٍ، ولولا ضِيقُ المقامِ لسردْنا من أقوالِ الغربيينَ المنصفينَ وشهاداتِهم ما يُؤكِّدُ كلَّ جملةٍ كُتِبَتْ في هذا البحث.

تم بحمد اللَّه

---

(١) أخرجه مالك (١٢٩٢) موقوفًا على أبي بكر الصِّدِّيق رضي اللَّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٢٨) من حديث عبد اللَّه بن عبَّاس ﵄، مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ، بلفظ: «اخرُجُوا باسمِ اللَّهِ، تُقاتِلُونَ في سبيلِ اللَّهِ مَن كفرَ باللَّهِ، لا تَغدِرُوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تُمثِّلُوا، ولا تَقتُلوا الوِلدانَ، ولا أصحابَ الصَّوامعَ».

في
التجديد وما إليه

ضرورةُ التجديدِ(*)

مدخلٌ:

لعلي لا أبدأُ بحثي بالوقوعِ في المصادرةِ على المطلوبِ لو رُحتُ أقررُ منذُ البدايةِ أن التجديد ضرورةٌ ذاتيةٌ، أو خاصةٌ لازمةٌ لرسالةِ الإسلامِ؛ إذ الوضعُ المستقيمُ- منطقيًّا- لهذه القضيةِ أن تأتي نتيجةً مستَدلةً في آخِرِ البحثِ، لا مقدمةً في التأصيلِ، لكن قد يشفعُ لهذا الاعتذارِ أن ضرورة التجديدِ، ربما تتمتعُ بقدرٍ عالٍ من الوضوحِ الذاتي يُؤهلُها لأن تكون شبيهةً بالقضايا التي تحمِلُ معها براهينها.

ولست أزعُمُ -بطبيعةِ الحالِ- أن هذه القضية قضيةٌ أوليةٌ مُستغنِيةٌ عن مؤونةِ الإثباتِ، وإلا لما كان ثمةَ حاجةٌ إلى لفتِ النظرِ إليها، والتَّذكيرِ بها في مُؤتمرٍ عالمي بهذا الحجمِ الذي نشهدُه الآن.

غير أن التأمل الهادئ في طبيعةِ رسالةِ الإسلام - كبيانٍ من اللَّه للناسِ يتخطَّى حُدودَ الزمان والمكان - يُبرهنُ على أن مُسلَّمة «التجديدِ» إن لم تكن هي والإسلامُ وجهينِ لعُملةٍ واحدةٍ، فإنها - على أقل تقديرٍ - إحدى مُقوماتِ الإسلامِ الذاتيةِ، إذا تحققتْ تحقق الإسلامُ نظامًا فاعِلًا في دنيا الناسِ، وإن تجمدت تجمَّدَ وانسحبَ من مسرحِ الحياةِ، واختُزِل في طُقوسٍ تُؤدَّى في المساجد أو المقابرِ، وتُمارسُ على استحياءٍ في بعضِ المناسباتِ، بل يُثبتُ هذا التأملُ أن تاريخ الإسلامِ -في أزهى عُصورِه- يشهدُ على هذه العلاقةِ

(*) بحث ألقي بالمؤتمر العالمي الثالث عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، والذي عقد تحت عنوان: «التجديد في الفكر الإسلامي» في القاهرة: ٨ - ١١ من شهر ربيع أول سنة: ١٤٢٢هـ/ الموافق: ٣١ مايو - ٣ يونيو سنة: ٢٠٠١م.

التي لا تَنفصمُ بين التجديدِ وحيويةِ الإسلامِ، كما يشهدُ على العلاقةِ ذاتِها بين جمود الفكر الإسلامي وإنزواء الإسلام نفسه إلى رُكنٍ قصيٍّ عن الحياةِ وعنِ المجتمعِ.

ومن الغريبِ -حقًّا- أن يظل مصطلحُ «التجديدِ» في الإسلامِ -في عهدِنا هذا- من المُصطلحاتِ المحفوفةِ بالمخاطرِ والمحاذيرِ؛ بسببِ الاتهاماتِ التي تكالُ جُزافًا -بحق أحيانًا وبغيرِ حق في مُعظمِ الأحايينِ- لكل مَن يقتربُ مِن فتحِ هذا الملفِ الملغومِ، الأمرُ الذي يُجسدُ لنا الأهميةَ البالغةَ لهذا المؤتمرِ الشجاعِ الذي اتخذَ من التجديدِ عنوانًا لفعالياتِه ونشاطاتِه، رغم محاكمِ التفتيشِ التي تَعقدُها بعضُ الأقلامِ لكل مَن يجرؤُ على فكِّ أغلالِ الْجمودِ ومغالقِه عن رُوحِ هذا الدِّين العظيمِ.

وللأسفِ البالغِ لا تزالُ بعضُ المطبوعاتِ المُعاصرةِ -وبعضُها يحمِلُ طابع الرسائلِ العلميةِ- تضعُ كل دُعاةِ التجديدِ في سلةٍ واحدةٍ، وتدمغُهم بالتلمذةِ على رائدٍ أوحد في هذا المجالِ هو: سِير سيد أحمد خان Sir Syed Ahmed Kahan (ت. ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)[(١)].

وحتى تأتي هذه الورقةُ أقربَ إلى المنهجيَّةِ العلميةِ منها إلى الخواطِرِ المُرسلةِ في هذا الموضوعِ المُترامي الأطرافِ، رأيتُ أن أبحثَ ضرورة التجديدِ في إطارِ عناصر محددةٍ، هي: التجديدُ وطبيعةُ الإسلامِ- التجديدُ جوهرُ التراثِ - من أزماتِ التجديدِ - ضرُورةُ التجديدِ المعاصرِ.

---

(١) انظر على سبيل المثال: «مفهوم تجديد الدِّين» دار الدعوة، الكويت ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م، رسالة ماجستير. حيث تبدو هذه الرسالة وكأنها محاولةٌ مقصودةٌ ومُوجهة -منذ البداية- لتطويقِ محاولاتِ التجديدِ بالطَّعنِ في نوايا أنصاره والمنادِين به، وقد أُهيل التراب -في هذه الرسالة- على كل دُعاة التجديد، دون تفرقة بين المخلصين منهم وبين أصحاب الأهواء والأغراض.

التَّجديدُ وطبيعةُ الإسلامِ:

من المتفقِ عليه عند المسلمينَ جميعًا أن رسالةَ الإسلامِ تنفردُ عن بقيةِ الرسالاتِ بخصائصَ مُعينةٍ:

الأُولى: أنها رسالةٌ خاتمةٌ، وأن نبيها آخِرُ الأنبياءِ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

والثانيةُ: أنها رسالةٌ عامةٌ للناسِ جميعًا، تتخطى حُدود الزمانِ والمكانِ وستظل تتمتع بهذه الخاصية إلى أن يَرِثَ اللَّهُ الأرض ومن عليها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

والخاصيةُ الثانيةُ مترتبةٌ على الأولى ترتبًا منطِقيًّا؛ إذ ختمُ النبوةِ يستلزمُ بالضرورةِ عُموم الرسالةِ للناسِ جميعًا[(١)]؛ بحيث لا يختص بها قومٌ دون قومٍ، وإلَّا جاء الهدي الإلهي ناقصًا، يفيد منه أناس ولا يفيد منه آخرون، ومع هذا الافتراضِ يظل الناسُ في حاجةٍ إلى نُبوةٍ جديدةٍ، فلا تكونُ النبوةُ التي تحدثنا عنها نُبوةً خاتمةً، وهذا تناقض.

وتقتضي «الخاتميةُ» استمرارَ رِسالةِ النبيِّ الخاتمِ إلى آخرِ الزمانِ، وإلا انقطع هديُ السماءِ، وتَوَقَّف اللطفُ الإلهيُّ، وهذا في فلسفةِ الإسلامِ نقصٌ يستحيلُ أن يتصِف اللَّهُ به.

---

(١) وقد أكَّدَ النبي ﷺ هاتين الحقيقتين فقال: «وكان النبيُّ يُبعثُ إلى قومِه خاصةً وبُعِثتُ إلى الناس كافةً» أخرجه البخاريُّ (٣٣٥) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما. وأيضًا: «وأُرسِلتُ إلى الخلقِ كافةً وخُتِم بِي النبيون» أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والتاريخُ والواقعُ يُصدقان كلام النبي ﷺ، فلقد مضى على ظُهور النبوةِ الخاتمةِ أكثر من أربعةَ عشرَ قرنًا، لم يظهر فيها شخصٌ واحد جاء برسالةٍ إلهيةٍ ونجح في حملِ الناسِ عليها، أو استطاع أن يُكوِّنَ أُمة تُصدِّقُه فيما جاء به. انظر بحثًا دقيقًا في هذا الموضوع بعنوان: «موجز في أصول الدِّين» لمحمد باقر الصدر: ٧١ - ٩٨.

والقرآنُ الكريمُ حين يُوجه خِطابه للأُممِ والمِللِ والأديانِ، إنما يُوجهُه خطابًا مطلقًا من أي قيدٍ مكانيٍّ أو زماني؛ وهذا الإطلاقُ دليلُ هيمنةِ هذه الرسالةِ وظُهورِها على الرسالاتِ السابقةِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وأمرٌ منطقيٌّ -إذن- أن تختلفَ براهينُ هذه الرسالةِ عن براهينِ الرسالاتِ الماضيةِ؛ لأن هذه الرسالاتِ السابقةَ إذا كانت خاصةً بأقوامٍ مُعينين في أماكن مُعينةٍ وأزمنةٍ محددةٍ، فإن براهينَها التي تتأيدُ بها يجبُ أن تكون هي الأخرى محصورة بحدود الزمان والمكان؛ إذ ليس من الحكمة في شيء أن تكون الرسالةُ خاصةً، ويكون بُرهانُها عامًّا أو مُلزِمًا للناسِ جميعًا، ومن أجلِ ذلك كانت معجزاتُ الأنبياءِ السابقين معجزاتٍ حسيَّةً يقتصرُ تأثيرُها على مَن يراها، ولا يتعدَّاه إلى الآخرين ممَّنْ لم يُبعث لهم هذا النبيُّ أو ذاك.

غير أن الأمرَ يختلفُ -كليًّا- فيما يتعلقُ بالرسالةِ الخاتمةِ؛ تلك التي تتطلب معجزةً لها خاصية «الاستمرارِ» والتواصُلِ الممتدِّ؛ وتكون حجة باقية وشاهدة على صدق هذه الرسالة ورسولها الخاتم، وهذا النوع المستمر من المعجزات لا تصلح له المعجزات الحسية، وإنما تصلح له المعجزة العقلية التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ومن هُنا كانت مُعجزةُ نبي الإسلامِ مُعجزةً عقليةً تُخاطِبُ عقول الناسِ على امتدادِ الزمانِ وهذه هي معجزة: «القرآن». ولعل هذا هو السر في أن الإسلام لم يُعول في خطابِ الناسِ على الخوارقِ الحِسيةِ؛ كما عولت عليها الرسالاتُ السابقةُ، وهو السرُّ أيضًا في حفظِ القرآنِ من آفةِ التغييرِ والتحريفِ والتبديلِ.

وقضيةُ عمومِ الرسالةِ تفترضُ ضرورة اشتِمالِها على ما ينفعُ الناس في أمورِ الدينِ والدنيا معًا، بحيث تستجيبُ لحاجاتِهم وأمورِ معاشِهم مهما اختلفت

أماكنُهم، وتغيرت أزمِنتُهم، وهذا يعني أن تكون شريعةُ الإسلامِ جاهزةً ومُستعدةً -بطبيعتِها- لتقديمِ حُلولٍ وصِيغٍ معيشية متغيرةٍ، تُواكبُ تغيُّرَ الجديد بعد القديمِ، وهو ما أكَّده القرآنُ نفسُه في الآياتِ الكريمةِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

ولقد حدثنا التاريخُ المنصفُ عن نزولِ هذه الرسالةِ إلى مجالِ التطبيقِ، ونجاحِها في هذا المجالِ، وكانت شريعتُها حجرَ الزاويةِ في بِناءِ نُظمٍ حضاريةٍ طالتْ عنان السماءِ في زمنٍ قياسيٍّ، وكانت -ولا تزال- موضع دهشةٍ عند عُلماءِ التاريخِ والحضارةِ المعاصِرين. ولم يكن نجاحُ هذه الرسالةِ رهن بيئةٍ جغرافيةٍ مُعينةٍ، بل كما نجحَتْ في مهدِها الأوَّلِ، نجحت -وبالقدر نفسه- في بيئاتٍ قصِيةٍ بعيدةٍ عنها؛ رغم اختلافِها لُغةً، وجِنسًا، وعِرقًا، وعقيدةً، وتاريخًا، وحضارةً. ويُثبتُ التاريخُ -أيضًا- أنَّ هذه البيئاتِ الغربيَّةَ لم تتقبَّلْ شريعة الإسلامِ تقبُّل المغلوبِ لحضارةِ الغالِبِ، بل تلقفتها تلقُّفَ الغريقِ لطوقِ نجاةٍ ينقذُها من دمارٍ حضاريٍّ مُحققٍ(١).

ولو رُحنا نتساءلُ عن السرِّ في هذا النجاحِ الحضاريِّ غيرِ المسبوقِ، والذي أحرزتْه رسالةُ الإسلامِ بصورةٍ معجزةٍ، فإننا لن نعثر على إجابةٍ أصدق من أنها رِسالةٌ صالِحةٌ لكل زمانٍ ومكانٍ، وأنَّ صلاحيتها هذه فرعُ

---

(١) يذكر محمد إقبال في كتابه «تجديد الفكر الديني»: ١٧٣ - ١٧٥، أنَّ بعض المؤرخين الغربيين وصف حضارة العالم وقت ظُهورِ الإسلام بأنها - رغم استمرارها أربعة آلاف سنة - كانت مُشرِفةً على الزوال، وأنَّ الجنس البشريَّ كان على وشكِ العودة إلى حالةِ الهمجية، وبات العالم آنئذٍ مُفتقِرًا إلى ثقافة جديدةٍ تحل محل ثقافةِ العرشِ ونُظُم الوحدة التي كانت تستنِدُ إلى قرابةِ الدم، ثم يقولُ المؤرخُ الغربي: ومما يبعثُ على الدهشةِ أن تقوم ثقافةٌ كهذه في جزيرةِ العربِ في نفسِ الوقتِ الذي اشتدَّتْ فيه الحاجةُ إليها، ووجدتِ الثقافةُ الجديدةُ في مبدأِ التوحيدِ أساسًا لوحدةِ العالم كلِّه.

خُصُوصيةٍ أُخرى هي «المرونةُ والحركةُ» في نظرتِها إلى طبيعةِ الإنسانِ الروحيةِ والماديةِ، والتي تُفرقُ فيها بين ما يكونُ ثابتًا على الزمانِ، ولا يُشكلُ للناسِ عنتًا ولا حرجًا إذا طولِبُوا به، وبين ما يتغيرُ في حياتِهم مما لا يستطيعون له دفعًا.

والقُدرةُ على التجديدِ أو التجددِ الذاتي هو التعبيرُ الدقيقُ عن خاصيةِ «المُرونةِ» هذه، وهو الوجهُ الآخرُ لمعنى صلاحيةِ الإسلامِ لكل زمانٍ ومكانٍ، ولولاه ما استطاعَت هذه الرسالةُ أن تنتشرَ في الشرقِ والغربِ بين أممٍ تتغايرُ فيما بينها تغايُرًا جذريًّا في شتى مناحي الحياةِ.

ولو أن رِسالة الإسلامِ صِيغَتْ في شكلِ بُنودٍ وموادَّ ثابتةٍ لا تقبلُ التجديد، لما كان لعمومِ الرسالةِ أي معنى أو مضمونٍ مُحصّلٍ، بل ولَفقدت كل مُبرراتِها في نَسْخِها للشرائعِ السابقةِ عليها، اللَّهم إلا إذا افترضنا أنها رِسالةٌ تتضمَّنُ ثوابتَ نظرية في مجالِ العقيدةِ والأخلاقِ، وحينئذٍ يؤولُ الإسلامُ إلى رِسالةٍ روحيةٍ لا شأنَ لها بمعاشِ الناسِ وحياتِهم. على أن خطاب القرآنِ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هكذا مُطلقًا لا يستقيمُ فهمُه إلا بلحاظ صلاحيةِ الخطابِ للتجددِ مع تجددِ الأزمانِ والأحوالِ؛ فالتجديدُ وعُمومُ الرسالةِ وجهانِ لعُملةٍ واحدةٍ كما أشرنا إلى ذلك في بدايةِ البحثِ.

التجديدُ جوهرُ التراثِ «العقلي والنقلي»:

على أن قانونَ التجددِ أو الصيرورةِ أو التغيرِ إنَّما هو في الأصلِ قانونٌ قرآنيٌّ، وهو سنةٌ من سُننِ الكونِ التي لا تتبدلُ ولا تتحولُ، وقد وضعه اللَّهُ شرطًا للتغير إلى الأفضلِ، في نُصوصٍ قُرآنيةٍ واضِحةٍ وُضُوح الشمسِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وكُنا نظن أن فكرةَ ضرورةِ الوجودِ الطبيعيِّ وتجددِه لحظةً بعد لحظةٍ، من مقولاتِ قُدامى اليونانِ، أو من تأصيلاتِ الفلاسفةِ الغربيين، وأنها غريبةٌ عن الجَوِّ الفكريِّ والفلسفيِّ في أدبياتِ الإسلام، لكننا -ولفرطِ الدهشةِ- وجدناها مسطورةً في أُمهاتِ التراثِ عند المُسلِمين: فالأشاعرةُ من المُتكلمينَ يقررون في مباحثِهم الطبيعيةِ أن «العَرَضَ» لا يبقى زمانينِ مُتتالِيين، وأن وُجود الأعراضِ إنما يكونُ بانقِضائِها وتجددِها لحظةً بعد أُخرى، و: «أبو إسحاق النظَّام» (ت. ٢٣١هـ) و: «أبو القاسِم الكعبي» (ت. ٣١٧هـ) - من المُعتزلةِ - يُردِدانِ نفس هذه المقولةِ، بل يخطو «النظَّامُ» خُطوةً أبعدَ يُقررُ فيها أن «الأجسام» أيضًا غيرُ باقِيةٍ، وأنها تتجددُ حالًا فحالًا، والنتيجةُ التي تنتهي إليها هذه الأنظارُ المعمقةُ هي: أن الكون مُتجددٌ وصائرٌ من حالٍ إلى حالٍ في كل لحظةٍ، سواءٌ أكان تجددُه بتبدلِ الأعراضِ المُتغيرةِ والمتعاقبةِ على جواهرِها الثابتةِ، فيما يقولُ الأشاعرةُ، أم بتجدُّدِ الأعراضِ والجواهرِ معًا فيما يقولُ النَّظَّامُ.

ويُعد الفيلسوفُ المسلمُ «صدرُ الدينِ الشيرازي» (ت. ١٠٥٠هـ) فيلسوفَ الصيرورةِ قبلَ «هنري برجسون الفرنسي» Henri Bergson (ت. ١٩٤١م)، وقبلَ أنصارِ الديالكتيك الطبيعي، فقد تفرَّدَ الشيرازي -في تاريخِ التفلسفِ العقلي- بالقولِ بوقوعِ الحركةِ في مقولةِ «الجوهرِ»، وأنَّ الطبيعةَ الجوهريَّةَ غيرُ قارَّةِ الذاتِ، وكان الفلاسفةُ -قبله- يجترُّون نظريةَ «أرِسطو» في ثباتِ الطبيعةِ في عالميها: السفليِّ والعلويِّ، فلما جاء الشيرازي قلب هذه النظريَّةَ رأسًا على عقبٍ، وقال بتجدُّدِ الأجرامِ السفليَّةِ والعلويةِ معًا، وله في هذا المعنى تشبيهٌ أخَّاذٌ يقولُ فيه: إن حالَ الشَّمسِ والقمرِ كحالِ زيدٍ وعمرٍو، في تَبدّلِهما وانقضائِهما، ودُثورِهما وفنائِهما، من جهةِ اشتِمالهما على الطبيعةِ الجِرمِيةِ السيالةِ الزائلةِ، وأن الحملَ والثورَ والسنبُلةَ في عالمِ السماءِ كالحملِ

والثورِ والسنبلةِ في عالم الأرضِ، من حيث إن أشخاص الكلِّ مُتجددةٌ في كل حينٍ[١].

ولا ينبغي أن نفهم أن فلاسفة الصيرورةِ والتجددِ الدائم من مُفكري المُسلمين يُرددون مقولاتٍ مُستجلبةً من الخارجِ، أو مُضادةً لطبيعةِ الإسلامِ، فهم - أنفُسُهم - يلفِتون أنظارنا إلى أن إشاراتٍ من القرآنِ الكريم كانت مصدر إلهامِهم بهذه الأنظارِ: «فمَن اكتحلت عينُه بنُورِ الإيمانِ، وتَنَوّر قلبُه بسُطوعِ آياتِ القرآنِ -فيما يقولُ الشيرازي- يجدُ أعيان العالمِ مُتبدلةً، وتعيناتِها المترادفةَ مُتزايلةً، خَلْقًا مِن بعدِ خلقٍ، وطورًا من بعدِ طورٍ، سائرةً سائلةً إلى طريقِ الآخِرةِ، مُتوجهةً إلى اللّه راجعةً إليه»[٢]. ويستندُ الشيرازي إلى آياتٍ عديدةٍ يستلهمُها في نظريتِه في الكونِ المُتجددِ بالحركةِ الجوهريةِ، منها: قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨]. وأيضًا: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. وهذه الآيةُ الثانيةُ ألهمت الشيخ الأكبر «محيي الدينِ بن العربي» (ت. ٦٣٨هـ) بخيالٍ خصيبٍ في تجددِ الكونِ في كل لحظةٍ، يُلخصُه في عبارتِه الموجزةِ «إن الموجود كلَّه مُتحركٌ على الدوامِ دُنيا وأُخرى»[٣].

(١) «الأسفار الأربعة» ١: ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢) «مفاتيح الغيب» مع تعليقات مُلا علي نوري: ٤٢٦.

(٣) نقلًا عن «الأسفار الأربعة» ٣: ١١٢-١١٣، وانظر تحليلًا دقيقًا لنظرية ابن العربي في تبدل العالم في كل نَفَسٍ، في كتابه «فُصوصُ الحِكمِ»، بشرح داود قيصري: ٧٩٠ - ٧٩٥، و«الفتوحات المكية»: ٣: ٣٤٨. وانظر ما يشبه هذه الفكرة عند «الكندي» في رسالته إلى المعتصم باللّه في الفلسفة الأولى: ٩٤-٩٦.

هذا وينبغي أن نلفت النظر إلى أن الحركة التجدديَّة تختلف -جذريًّا- عن مثيلتِها في الفلسفات الأخرى -المادية أو الروحية- فبينما يرجع التجدد الطبيعي في هذه الفلسفات إلى مبدأ داخل الطبيعة نفسها: (الذرَّات، أو التطور الخالِق، أو صراع الأضداد) فإن الفلسفة الإسلامية ترد التجدد في الطبيعة إلى مبدأٍ مفارقٍ ومُتعالٍ على المادة هو اللّه تعالى، =

وقضيةُ تغيُّرِ العالمِ وتبدلِه من حركةٍ إلى سُكونٍ - وبالعكسِ - مُرتكَزٌ أساسٌ في بابِ الاستدلالِ على وجودِ اللَّه تعالى، لا يخلُو منها كتابٌ واحدٌ من مئاتِ كُتُبِ العقيدةِ عند مُتكلمي المسلمين، وكلها تُذكِّرُ بأن التغير عِلةُ الحُدوثِ، وأن الحدوث عِلةُ الاحتياجِ إلى المُحدِثِ.. هكذا نحفظُ، وهكذا نُرددُ، وإن كنا ننسى بعد تمامِ الدليلِ أن «تغير العالَم» هي مُسلَّمتُنا الأُولى، لولاها ما تم الدليلُ، ولانهار من أساسِه.

وما نقصدُه من هذا الاستطرادِ هو أن حديثَ التجديدِ ليس حديثًا غريبًا طارِئًا أو شاذًّا في تُراثِ الإسلامِ، أو هو مجردُ «آلةٍ» مُلصقةٍ به من الخارجِ، فالعكسُ هو الصحيحُ: إنَّه جوهرُ هذا التُّراثِ العقلي وروحُه وطاقةُ حركته.

وما لنا نذهبُ بعيدًا في تلمُّسِ الأشباهِ والنظائرِ لاكتِشافِ أصالةِ عنصرِ التجديدِ في الإسلامِ، وبين أيدينا نص صريحٌ من نُصوصِ السنةِ الصحيحةِ، يُؤكدُ على ضرورةِ التجديدِ في الدينِ بصورةٍ مُنتظمةٍ على أيدي النابهين من عُلماءِ هذه الأُمةِ، يقولُ فيه النبي ﷺ: «إن اللَّه يبعثُ لهذه الأُمةِ على رأسِ كل مِئةِ سنةٍ من يُجدِّدُ لها دِينها»(١).

وهذا الحديثُ تناوله الأقدمونَ بالبحثِ والتحليلِ، وكتبوا فيه رسائل مُستقلةً(٢)، أثارُوا فيها مسائلَ وقضايا عِلميةً جديرةً بالتقديرِ، مثل المرادِ

= فالصيرورةُ مخلوقةٌ للَّه تعالى، وهي في الوقتِ ذاتِه صائرةٌ وراجعةٌ إليه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٢].

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٦٥٢٧) والحاكم: ٤/ ٥٢٢، والبيهقيُّ في «معرفة السُّنن والآثار» (٤٢٢) و«مناقب الشَّافعيِّ»: ١/ ٥٣، وغيرهم، من حديث أبي هريرةَ ﷺ، وصحَّحه السَّخاويُّ في «المقاصِد الحسنة»: ١/ ٢٠٣.

(٢) انظر على سبيل المثال: «التنبئة بمن يبعثه اللَّه على رأس كل مئة» للجلال السيوطي، (ط، مكة المكرمة) وانظر أيضًا: رسالة مخطوطة بدار الكتب المصرية (رقم ٤٩٣٠ تاريخ) بعنوان: «وسيلة المجدين في شرح التجديد وتراجم المجددين» لمحمد بن محمد =

برأسِ المئةِ، هل هو أولُها أو آخرُها أو وسطُها؟ بملاحظة أن هذا القيدَ اتفاقيٌّ، وما المرادُ بالتجديدِ؟ ومن هم المجددون؟ وهل يكونُ المجددُ واحدًا أو أكثر؟ إلى أبحاثٍ أخرى ذكروا فيها قوائم بأسماءِ المجددين بدءًا من المئةِ الأُولى وحتى القرنِ التاسع في قائمةِ السيوطيِّ، أو القرنِ الرابع عشر في قائمةِ صاحبِ «وسيلةِ المُجددين».

ويُلاحظُ أن مُرادَهم منَ التجديدِ لم يتجاوَزْ دائرةَ «إِحياءِ ما اندرسَ من العملِ بالكتابِ والسنةِ من البدعةِ»[1]، فلم يُفسروا التجديد في الحديثِ الشريفِ بالمعنى المفهومِ في عصرِنا الآن، وهو: قراءةُ «النص الشرعي» قراءةً جديدةً من أجلِ تنزيلِه على واقعٍ تغيَّر، ومصالحَ استجدت، وما كان لأئمتنا القدامى -في ظل مُجتمعٍ إسلامي مُستقِر- أن يشعُروا بحاجةٍ إلى تفسيرٍ من هذا القبِيلِ، غير أنهم تركوا لنا في شُروحِهم -رغم خِلافاتِهم- عناصر إيجابيةً يُمكنُ أن نُفيد منها في حركةِ تجديدٍ مُعاصرٍ، من هذه العناصرِ:

- كلمةُ «مَن» في الحديثِ تنطبقُ على أكثر من شخصٍ، ويجوزُ -تبعًا لذلك- أن يتعدَّد المجدِّدون في العصرِ الواحدِ والبلدِ الواحدِ أيضًا، ويكونُ الحديثُ -بهذا المعنى- سندًا شرعيًّا لقيامِ مجامعِ عِلميةٍ مُعاصرةٍ تضطلعُ بحركةِ تجديدٍ جماعيّ للفكرِ الإسلامي.

- لا يُشترطُ أن يكون المجددُ مجتهِدًا، وإن كان يُشترطُ فيه العلمُ بالمجالِ الذي يُجددُ فيه.

- لا يقتصرُ التجديدُ على علمِ الفقهِ، بل يجبُ أن يشمل التجديدُ كل ما

= الجرجاوي المراغي (ت. بعد سنة: ١٣٥٥هـ)، وفي هذه الرسالة إحالات عديدة إلى مُصنفاتٍ ورسائل كثيرة في موضوع التجديد والمجددين.

(١) انظر: «التنبئة لمن يبعثه اللّه على رأس كل مئة» للسيوطي: هامش صفحة: ١٤ وما بعدها.

يُهِم المسلِمين من أُمورِ الدنيا والدينِ، ويُركزون في هذا الصددِ على الحُروبِ والسياسةِ والعدلِ وحقنِ الدماءِ.

- رفضُ القولِ المشهورِ بين الفقهاءِ، وهو: انقطاعُ الاجتهادِ بعد القرنِ الخامسِ الهجري، إذ لا حجة تنهضُ لإثباتِه، ومواهبُ اللَّه تعالى فياضةٌ في كل عصرٍ وزمانٍ، وجُودُه سُبحانه وتعالى ممنوحٌ غيرُ ممنوعٍ، وللسيوطي في ذلك كِتابٌ سماه: «**الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهِل أن الاجتهاد في كل عصرٍ فرض**»[١].

واذا كان التجدِيدُ بهذه الأهميةِ في تراثِنا العقليِّ والنقليِّ، فالسؤالُ الذي يفرِضُ نفسه هو: لماذا الجمودُ إذًا؟

لقد ذُكِرتْ في أسبابِ هذه الأزمةِ عواملُ عديدةً، تقصاها بعضُ المُعاصِرين، ورجعوا بها في الأساسِ إلى عوامل سياسيةٍ واجتماعيةٍ، بعضُهم عاد بها إلى النظامِ السياسي المُستبد الذي ابتُدِع في عهد الدولةِ الأُمويةِ، والذي أدَّى إلى تكريسِ حالةِ انفِصامٍ حادٍّ بين العلوم الإسلاميةِ وواقعِ المُسلمين، فبدأ بتجميدِ الفقهِ السياسي والدستوري للدولةِ، وتجميد فقهِ العلاقاتِ الاقتصاديةِ والماليةِ، وفقهِ العلاقاتِ الدوليةِ كذلك، والتزم الأئمةُ الكِبارُ ناحيةَ فُروعِ الفقهِ، كما التزم المُحدِّثون روايةَ السننِ، واكتفوا بقبولِ الأمرِ الواقِعِ، واستفاضُوا في شُروحِ العِباداتِ والمُعاملاتِ على النحوِ الذي وصل إلينا[٢].

وبعضُهم يرصُدُ بوادِر هذه الأزمةِ في ضعفِ الدولةِ العباسيةِ، خصوصًا في ظاهِرةِ فوضى القضاءِ والإفتاءِ والاجتهادِ، وجُرأةِ غيرِ المُؤهلين -عِلميًّا-

---

(١) وهو مطبوع متداول، انظر الباب الرابع عشر من: «وسيلة المجدين » للجرجاوي.

(٢) «كيف نتعامل مع القرآن» للأستاذ الشيخ محمد الغزالي: ٧٥.

على اقتحامِ هذه المراكزِ الحساسةِ، الأمرُ الذي حمل المُخلِصين من العُلماءِ على التحوطِ للدينِ بقفلِ بابِ الاجتهادِ، منعًا للفسادِ، وسدًّا لبابِ الفوضى(١)، وربما لم يدُر بخَلَدِهم - آنذاك - أن الوسيلة التي لجؤوا إليها ستنتهي - فيما بعدُ - إلى غايةٍ أكثر فسادًا وفوضى؛ إذِ انتهى الأمرُ إلى تقليدٍ، ثُم جمودٍ، ثُم تعصبٍ، وهو الثالوثُ الذي ضرب خُصوبة الفكرِ الإسلامي في مقتلٍ.

وقد ظل المسلمون يُعانون -حتى الآن- من «أزمةٍ مُركبةٍ» تتمثلُ في أن الثقافة التي تجري في عُروقِهم، لا تتناغمُ مع واقعِهم العملي الذي يعيشون فيه صباح مساء، أو بعبارةٍ أدق: إن واقعهم هو الذي لا ينسجِمُ مع ثقافتِهم؛ فهم يُفكرون بثقافةٍ بينما يعملون بثقافةٍ مُغايرةٍ، وحسبُك بهذا التمزقِ صِراعًا وتدميرًا لكل إمكاناتِ التنميةِ، فضلًا عن الانخراطِ في أسبابِ التقدمِ والرفاهيةِ.

من أزماتِ التجديدِ:

ولكن إذا كانت هذه العوامِلُ السياسيةُ والاجتِماعيةُ السابقةُ عوامل مُتغيرةً، وقد تغير أكثرُها بالفعلِ في عصرِنا هذا، فلماذا ظلت مُحاولاتُ التجديدِ الحديثِ كسيحةً مُتعثرةً؟! ولماذا أخفقت في تطويرِ الفكرِ الإسلامي وإعدادِه الإعدادَ المطلوب لمواجهةِ الفكرِ الغربي؟

في سبيلِ الإجابةِ على هذا السؤالِ تُطرحُ عِدةُ أسبابٍ، شكَّلت ما يُشبهُ الأزمة في فعاليةِ التجديدِ بشكلٍ عامٍّ، وأهم هذه الأسبابِ:

من هذه الأسباب:

أ- عدمُ التفرقةِ -عمليًّا- بين ما هو ثابتٌ في الدينِ وما هو مُتغيرٌ، إذ مِن المسلَّم به عند المسلمين جميعًا: أن الإسلام -بما هو دِينُ الزمانِ والمكانِ-

(١) «أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث» لعبد الحميد المتولي: ٣٥ - ٤٠.

لا بد أن يشتمل على ثوابت خالدةٍ ، وعلى متغيراتٍ مُتحركةٍ، وأنه في مجالِ الثوابتِ يضع ضوابط قطعيَّةً خالدةً لا تتأثرُ بتقلباتِ الزمانِ ولا بحركاتِ التطورِ، وهي قابلةٌ للتطبيقِ في عصرِ الذرةِ وسُفُنِ الفضاءِ، مثلما كانت كذلك في عصرِ الصحراءِ والإبلِ تمامًا بتمامٍ[1].

والأمرُ بالعكسِ في مجالِ المتغيراتِ الذي خُوطِب فيه الناسُ «بمبادئ عامةٍ، ومُجملاتٍ مرنةٍ، وظنيَّاتٍ واسعةٍ، يُمكنُ أن تنزل على الواقعِ بوجوهٍ شتى؛ تبعًا لتطورِ ظروفِ الحياةِ وعلاقاتها، وعِلْمِ الإنسانِ وتجاربِه»[2].

وثوابتُ الدينِ -التي لا تقبلُ التغيير- هي العقيدةُ، وأركانُ الإسلامِ الخمسةُ، وكل ما ثبت بدليلٍ قطعي من المُحرماتِ وأُمهاتِ الأخلاقِ، وما ثبت بطُرقٍ قطعيةٍ في شؤونِ الأسرةِ من زواجٍ وطلاقٍ وميراثٍ، ومعاملاتٍ وحدودٍ وقِصاصٍ لا تدخلُ تحت الحصرِ... وهذه الثنائيةُ بين ثوابت ومتغيراتٍ في رسالةِ الإسلامِ تكشفُ عن إعجازِ هذه الرسالةِ، وأنها- بحق- دِينُ الفطرةِ؛ لأن الإنسان- بما هو رُوحٌ وجسدٌ- كائنٌ مواطنٌ في عالمينِ، ومشدُودٌ إليهما بعلاقتينِ: علاقةٍ باللَّه تعالى، وعلاقةٍ بوسطٍ ماديٍّ متغيرٍ غيرِ مستقرٍّ، فما كان متعلقًا باللَّهِ من عقائد وعباداتٍ ونُظمٍ ثبَّته الإسلامُ، وما تعلق بالجانبِ المتغيرِ راعى فيه المُرونة والحركة، ولكن في إطارِ الأهدافِ العُليا للإيمانِ باللَّهِ تعالى.

من هنا جاءت نصوصُ القرآنِ الكريمِ المُتعلقةُ بالأحكامِ المُتغيرةِ- مثل: الأحكامِ المدنيةِ والدستُوريةِ والجِنائيةِ والاقتصاديةِ مُتضمِّنةً الأحكام الأساسية والمبادئ العامة؛ التي تقتضيها العدالة الإنسانية، ولا تختلفُ فيها

(١) «موجز أصول الدِّين» لمحمد باقر الصدر: ١٠١- ١٠٢.
(٢) «قضايا التجديد» لحسن الترابي: ٣٨ - ٤٥ (ط. دار الهادي، بيروت: ٢٠٠٠م).

بيئةٌ وبيئةٌ، ليكون أولو الأمرِ -في أيةِ حالٍ- في سعةٍ من أن يُفرعوا ويُفصِّلوا حسبما يُلائمُ حالهم، وتقتضِيه مصالحُهم[(١)].

ويضربُ علماءُ الفقهِ مثلًا لذلك: «البيع» حيثُ تكثُرُ مواده في القوانينِ المدنيةِ كثرةً هائلةً، بينما لم يُذكر في القرآنِ منها إلا أربعةُ أحكامٍ فقط. وكذلك الأحكامُ الدستوريةُ لم يُقرر فيها القرآنُ أكثر من ثلاثةِ مبادئ: الشورى والعدلِ والمساواةِ، ونفسُ الشيء بالنسبةِ للعُقوباتِ والقوانينِ الاقتصاديةِ وما أشبهها[(٢)].

وهذه المُتغيراتُ تتسِعُ- بطبيعتِها- لتطبيقاتٍ عدةٍ وصِيغٍ مُختلفةٍ، كلها مشروعٌ ما دام يُحققُ مصلحةً مُعتبرةً في موازينِ الإسلامِ، ولا يصدِمُ مقصِدًا من مقاصِدِه. وليس بلازمٍ أن تكون صِيغةٌ واحدةٌ من صِيغِ هذه المُتغيراتِ هي الصيغة المشروعة دون غيرِها، وما دام الإطارُ شرعيًّا، فليأتِ المضمونُ في أيةِ صِيغةٍ يتسعُ لها هذا الإطارُ.

والمُتأملُ في بعضِ الآراءِ الرائجةِ والمُناهِضةِ للتجديدِ الآن، يُلاحِظُ فيها خلطًا بين هذينِ الأمرينِ، وأن صِيغةً واحدة بعينها تكتسِبُ دائمًا شرعيةً تنفي بها الصيغة -أو الصيغ- الأُخرى التي تُحققُ ذات المقصِدِ، لا لشيءٍ إلا لأن هذه الصيغة كانت على صُورةٍ مُعينةٍ فرضها قانونُ الاجتماعِ المدني في عصرٍ مُعينٍ.

ومن أمثلةِ ذلك: أمورٌ يشتد فيها الخِلافُ الآن إلى درجةِ التحزبِ والانقسامِ؛ كالفتوى بِحرمةِ حلقِ اللحيةِ، أو عدمِ القيامِ للقادمِ، أو الرأيِ

---

(١) انظر البحث القيم للشيخ عبد الوهاب خلاف: «مصادر التشريع الإسلامي مرنةٌ»، مجلة القانون والاقتصاد: صفحة ٢٥٤، ٢٥٥، عدد: ٤، ٥ أبريل- ومايو: ١٩٤٥م.

(٢) المصدر نفسه.

الذي يُروجُ له مُؤخرًا وهو: أن تعدد الزوجاتِ من السنةِ.... إلخ. هذه الشكليات التي رُوعِيت فيها بيئةُ الحُكمِ وظُروفُ زمانِه ومكانِه، ولم يُراع فيها المقصِدُ الشرعي.

وأساسُ الإشكالِ في هذه الأمورِ: أن الفتوى -فيما يقولُ بعضُ المعاصِرين- قد تأخذُ «السيرة الاجتِماعية» للحُكمِ على أنها «سِيرةٌ تشريعيةٌ» وتكونُ النتيجةُ -والحالةُ هذه- الاضطراب في فهمِ مقصدِ الشارعِ في هذه المسألةِ أو تلك(١).

وقد ترتب على آفةِ الخلطِ بين ما هو ثابتٌ ومُتغيرٌ في الدينِ آفةٌ أخرى، هي الخلطُ بين ما يُعد تشريعًا عامًّا وما لا يُعد كذلك. وقد فصل الفقهاءُ هذه المسألة بما لا يقبلُ المزيد، وبينوا أنها كانت من أسبابِ الاختلافِ المشروعِ بين الأُمةِ، وكانت مصدر رحمةٍ ويسرٍ في الدينِ، إذ كانت هذه المسألةُ الواحدةُ يراها مُجتهِدٌ شرعًا عامًّا لا يتغيرُ، بينما يراها مُجتهدٌ آخرُ حُكمًا مصلحِيًّا يتغيرُ بتغيرِ المصلحةِ(٢). وهنا يقولُ الإمامُ الأكبرُ الشيخُ محمود شلتوت: «ليس كل ما رُوِي عن الرسولِ ﷺ وإرشاداتِه يُعد تشريعًا ذا حُجيةٍ مُلزمةٍ شرعًا للمسلمِين»(٣). ولنا أن نتصور القفزة الهائلة لتجديدِ الفِكرِ الإسلامي فيما لو رُوعِي هذا الفقه، وتمت عمليةُ فرزٍ دقِيقةٍ للعناصرِ التي يظن أنها مُلزِمةٌ، بينما هي في حقيقةِ الأمرِ ليست كذلك. وقد نعى الشيخُ عبدُ الجليلِ عيسى (ت. ١٩٨١م) على عُلمائِنا المتأخرين «عدم عنايتِهم بالتحري عن ظُرُوفِ كثيرٍ من أوامرِه ﷺ وإرشاداتِه: هل المُرادُ منها أن تكون تشريعًا عاما دائمًا،

(١) «أثر الزمان والمكان في الاجتهاد» لمحمد حسين فضل اللّٰه، ضمن كتاب: «مناهج التجديد»: ٣٥ - ٣٦.

(٢) انظر كتاب: «تعليل الأحكام» لمحمد مصطفى شلبي: ٣١٩.

(٣) «الإسلام عقيدة وشريعة» للإمام الأكبر محمود شلتوت: ٤٢٠.

أو خاصًّا ببعضِ الناسِ دون بعضٍ، أو ببعضِ الظروفِ دون بعضٍ»[(١)].

ب- عدمُ التفرقةِ بين الشريعةِ وبين الفِقهِ، وإضفاءُ الشريعةِ على آراءٍ وفُهومٍ بشريةٍ، واعتبارُها في رُتبةِ النص المعصوم، فالشريعةُ يجبُ أن تتميزَ عن الفِقهِ تميزًا حاسمًا، وبحيث تنحصِر الشريعة -في المقامِ الأولِ- في نص القرآن والسنةِ الصحيحةِ، أما استنباطاتُ العُلماءِ من فُقهاء وأُصوليين ومُفسرين ومُحدّثين ومُتكلمين، فيجبُ أن يُنظر إليها على أنها معارفُ بشريةٌ، أو تراثٌ يُؤخذُ منه ويُتركُ، ولا ينبغي أن يُفهم من ضرورةِ هذه التفرقةِ أننا نُديرُ ظُهورنا لِتُراثِنا الفِقهي، أو نُقلل من أقدارِ فُقهائِنا، أو أننا نستبدِلُ به عناصر غريبةً عنه تُناقِض طبيعتَه، فهذا شيءٌ، والنظر إليه بعينِ العِصمةِ شيءٌ آخرُ. فالتراثُ ليس كله مقبولًا، وليس كله مرفوضًا، وبتعبيرٍ أدق: ليس كله قادرًا على مُواجهةِ مُشكلاتِ العصرِ، وليس كله -أيضًا- بعاجزٍ عن التعامُلِ معها، وهذه ليست سلبيةً يُوصمُ بها التراثُ، بل هو منطقُ الأشياءِ وحقائقُ الأمورِ، فالحركةُ المُتجددةُ هي خاصةُ هذا التراثِ، وتستلزمُ -بالضرورةِ- إلغاء عناصِر، وإبقاء عناصر أُخرى، وإضافة عناصِر ثالثةٍ حسب الحاجةِ والمصلحةِ، والتراثُ بهذا المعنى تيارٌ دافِقٌ، ونهرٌ سيالٌ لا يكُف عن الجريانِ، أو هكذا يجبُ أن يكون، وإلا تحول إلى ما يُشبهُ ماءً راكِدًا آسِنًا يضُر أكثر مما يُفيدُ. والذين يظنون أنهم قادِرون على مُواجهةِ المُستجداتِ بِمُجردِ استدعاءِ الأحكامِ الجاهزةِ من تُراثِ القُرونِ الماضيةِ، يُسيئون- من حيثُ يدرون أو لا يدرون- لطبيعةِ هذا التراثِ العظيم، وهي طبيعةٌ نادرةٌ، ما أظن أن تُراثًا آخر عُرِف بها من قبلُ، وأعنِي بها القُدرة على التحركِ لِمُعانقةِ الواقِعِ المُتجددِ، وتنزيلِ الخِطابِ الإلهي عليه.

(١) «ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين» لعبد العزيز عيسى: ٥٥، وانظر: «أزمة الفكر السياسي» لعبد الحميد متولي: ٧٤.

فالتراثُ صدًى لنُصوصِ الوحيِ الإلهي؛ مفهومةً بطريقةٍ مُعينةٍ في عصرٍ مُعينٍ، فإذا اختلفت طريقةُ استِلهامِ النص تحرك التراثُ، وإذا ثبتت ثبت التراثُ وتجمد، وثمتئذٍ يكونُ العيبُ في التراثِ المُتوقفِ لا في النَّصِّ.

وما لم يتم التمييزُ الدقيقُ بين الوحيِ الإلهي وبين ما أُحيط به من معارف أُسستْ في إطارِ التلقي النسبي للمُطلقِ، وفي إطارِ الفهمِ البشري لذلك المُطلقِ (....) ما لم يتم هذا الفصلُ بشكلٍ دقيقٍ وعلى سائرِ المُستوياتِ، فإنه يمكنُ أن يُصادِر سائر مُحاولاتِ التجديدِ والإصلاحِ التي يمكنُ أن تقُوم بها الأُمةُ[1].

وقد أدى الخلطُ بين الفِقهِ والشريعةِ إلى الوقُوعِ في التقليدِ واتخاذِه منهجًا ثابتًا في البحثِ عن حُلُولٍ لمُشكلاتِنا المُعاصرةِ، وقد استبدَّتْ هذه الآفةُ بمسرحِ الثقافةِ الإسلاميةِ في كثيرٍ من تجلياتِها؛ فما زلنا نبحثُ في آراءِ القُدماءِ عن إجاباتٍ لا تتطابقُ مع أسئلةِ القرنِ الحادي والعشرين، وربما قصدنا إلى الرأيِ الأكثرِ حرجًا ومشقةً، وروّجناهُ بِشكلياتِه وقُشُوره؛ رغبةً في التميزِ والظهور بمظهر الحرص على الدين، والمُخالفةِ من أجلِ المُخالفةِ، وهذا الأسلوبُ لا يكشِفُ عن شيءٍ من عظمةِ التراثِ ولا حيويتِه؛ فهذه الحيوية رهنٌ بِقُدرة التراث على إحداثِ تجلياتٍ جديدةٍ للنصوصِ، واستيلادِ أحكامٍ تُلبي حاجاتٍ مُستجدةً؛ ليست هي بالضرورةِ تلك الحاجاتِ القديمةً. ومن الحق -كما- يقولُ الدكتور محمد يوسف موسى -رحمه اللَّه- (ت. ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م): «إن الاعتِزاز بتُراثِ الماضِين من الأجدادِ والأسلافِ أمرٌ طبيعي وغريزي في الإنسانِ، وأنه من العبثِ والحُمقِ أن نُحاول التنكر لهذا التراثِ والاستِغناء عنه (...) لكن من الحق أيضًا أن

(١) «أبعاد غائبة عن الفكر الإسلامي المعاصر» لطه جابر العلواني: ١٣٨ ضمن كتاب: «الفكر الإسلامي المعاصر».

الجُمُود من سِماتِ الموتِ، وأن الحركة هي الخاصِيةُ الأُولى للحياةِ، وأن القرآن العظيم نعى في كثيرٍ من آياتِه على التقليدِ والمُقلدين»[١].

ومن المُستغربِ- فعلًا- أن تركن الأُمةُ إلى التقليدِ في عصرِنا هذا، وتتخذ منه ما يُشبِهُ المنهج الثابت في عِلاجِ قضايا العصرِ، وهي تقرأُ فيما تقرأُ من كلامِ أئِمةِ الفِقهِ تحذيرًا واضِحًا ونهيًا صريحًا عن التقليدِ، باعتبارِه طريقًا يُفضِي -لا محالة- إلى الجُمُودِ، وقتلِ ملكةِ التفكيرِ، وشلِّ حركةِ التجدِيدِ والإبداعِ، تقرأُ كل ذلك في عباراتٍ لا تقبلُ المداورة ولا التأويل، مثل قولِ كبارِ الأئمة: «لا تُقلدني» وقولِهم: «خُذ مِن حيثُ أخذُوا». وقولِهم: «يتبعُ الرجلُ ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابِه، ثم هو من بعدُ في التابِعين مُخيرٌ».

وهذه المأثوراتُ تُمثلُ مروياتٍ صحيحةً للإمامِ أبي حنِيفة والإمامِ أحمد والإمامِ الشافعي، وقبل ذلك مروياتِ الإمامِ مالكٍ، وقد قال له المنصورُ: «اجعلِ العِلم يا أبا عبدِ اللَّهِ واحِدًا» فقال الإمامُ: «إن أصحاب رسُولِ اللَّهِ ﷺ تفرقوا في البِلادِ فأفتى كلٌّ في مِصرِه بما رأى، وإن لأهلِ البلدِ (مكة) قولًا، ولأهلِ المدِينةِ قولًا تعدَّوْا فِيه طورهم»، ولما قال المنصورُ: «إنما العِلمُ عند أهلِ المدينةِ، فَضَعْ للناسِ عِلمًا» رد عليه الإمامُ: «إن أهل العِراقِ لا يرضون عِلمنا، ولا يرون في عِلمِهم رأينا»[٢].

ضرورةُ التجديدِ المعاصِرِ:

ولقد لمعت في سماءِ تارِيخِنا المعاصِرِ فرصةٌ لتجديدٍ حقيقي يضعُ أقدامنا على طريقِ نهضةٍ إسلاميةٍ حقيقيةٍ، اضطلع بها رعيلٌ من المُجددين المُحدثين والمُعاصِرين، ممن حملوا شُعلة التجديدِ «التحديثِ» في طولِ العالمِ

(١) من مقال له بعنوان: «كفانا تقليدًا للفقه» مجلة الأزهر، شوال ١٣٧٢هـ، يونيو ١٩٥٣م، صفحة: ١٠٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٦٨.

الإسلامي وعرضِهِ؛ بدأها جمال الدِّين الأفغاني (ت. ١٨٩٧م) ومحمد عبده (ت. ١٩٠٥م)[(١)]، وسار في دربِها مُجددون في مِصر، والهندِ، وتركيا، والعراقِ، وإيران، وسوريا، وبلادِ المغربِ. ورغم أن حركاتِ التجديدِ هذه أحرزت نجاحاتٍ عديدةً لا تُنكرُ[(٢)]، إلا أنها لم تنجح في تفعيلِ الفِكرِ الإسلامي الحديث، بالقدر الذي يمكنه من مواكبة المُستجداتِ السياسيةِ والاجتماعيةِ والثقافية!، والتعامل معها تأثيرًا وتأثرًا، بل رجع الفكر الإسلامي معها إلى حالةٍ من الوهنِ والضعفِ انعكست آثارُها مؤخرًا على كل بلادِ الشرقِ الإسلامي، وبحيث عاد المسلمُ يعيشُ - من جديدٍ نفس الأزمةِ التي اختنق بها في القرنِ الماضِي، وعادت أزمةُ اصطِراعِ الثقافتينِ - بعد الصحوةِ التي تفجرت في أعقابِ هزيمة ٦٧ بصورة أعنف أو أشرس مما كانت عليه من قبلُ؛ ذلك أن الغزو الثقافي الغربي لم يكن في أوائلِ القرنِ الماضي -وحتى منتصفِه تقريبًا- بهذه الحِدةِ التي نشهدُها الآن، بل كان محصورًا في قنواتٍ مُعينةٍ، وغالبًا ما كان يتركُ في اختراقِه لثقافةِ الشرقِ هامش أمانٍ، تمثل في ثقافةٍ إسلاميةٍ تقليديةٍ، يحتمي بها المسلمُ أو يتحسسُها كلما لاحت له في الأُفُقِ أشباح الضياعِ والاغترابِ، وكانت عدوى التواصُلِ مع ثقافة الغرب قاصرةً -في ذلك الوقتِ- على الوجهاءِ فقط، ولم تهبط إلى طبقةِ الجماهيرِ العاجزةِ عن تكاليفِ هذا الاتصالِ؛ لأنه كان محصورًا: إما في البعثاتِ التعليميةِ القليلةِ العددِ، أو النخبِ المُرفهةِ من

(١) لمزيد من المعلومات حول ريادة الأفغاني ومحمد عبده لتجديد الفكر الإسلامي الحديث والفرق بينها وبين غيرها من المجددين الحقيقين، أو المزيفين، يراجع: «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي: ١٤٢ - ١٥١.

(٢) السيد ياسين «رؤى إسلامية عن المواطنة» الأهرام ٢٩ مارس ٢٠٠١م.

القادِرين على قضاءِ إجازاتِ الصيفِ على شواطئِ أُوروبا، أو فيما يُترجمُ من الرواياتِ الأدبيةِ والكتبِ العلميةِ وما إليها، وفي كل الأحوالِ ظلت الطبقةُ الوسطى -وهي الطبقةُ المُؤثرةُ- بمنأى عن أي احتكاكٍ حضاري من هذا النوعِ الذي يمس الخُصوصياتِ ويُشوهُ ملامحها وقسماتِها.

والآن، وبسببِ الطفرةِ الهائلةِ في تُكنولوجيا الاتصالِ، تحطم كثيرٌ من الحُدُودِ والحواجزِ، وسهُل على الغربِ -منذُ العِقدينِ الماضيينِ- أن يخترق بثقافتِه وسُلوكياتِه المُجتمع المسلم، والبيت المسلم، والأُسرة المسلمة، وهو اختراقٌ من نوعٍ جديدٍ، مدروسٌ بفلسفةٍ استعماريةٍ جديدةٍ، عبرت عن نفسِها فيما يُسمى الآن بالعولمةِ، وهو نظامٌ يعني -فيما يعني- «سيطرة دولةٍ واحدةٍ عسكريا وسِياسيًّا واقتصادِيًّا على السوقِ العالمي، وكل ما يُباعُ ويُشترى في هذا السوقِ مُمتدا إلى كل سوقٍ محلي»[(١)]. على أن جانب المالِ والثروةِ والصناعةِ والتجارةِ ليس هو كلَّ ما في جعبةِ هذا النظامِ، بل هناك جانبُ العُلومِ والاتصالاتِ والإعلامِ والثقافةِ.

وقد بدأتِ العولمةُ زحفها على العالمِ الآخرِ، وأخذت خُطواتٍ عمليةً في هذا الطريقِ، تبلورت فيما يُعرفُ بمُنظمةِ التجارةِ العالميةِ، ومُؤتمراتِ المناخِ والسكانِ، فضلًا عن الصندوقِ والبنكِ الدوليين، وبالتوازي بدأ قلقُ الشعوبِ وثقافاتُها وخصائصُ قومياتِها، وأثار المسؤولون في فرنسا إشكالية الخطرِ الذي تتعرضُ له الثقافةُ الفرنسيةُ من الاكتساحِ الثقافي الأمريكي، في إشارةٍ إلى الضغوطِ الأمريكيةِ على فرنسا لرفعِ الحِماياتِ، وجعلِ سوقِ الثقافةِ والفن والإعلامِ سوقًا حُرةً مفتوحةً مُستباحةً[(٢)].

---

(١) «في الحداثة والخطاب الحداثي» لمنير شفيق: ٧٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٤.

إن الانتشار الثقافي في هذا النظامِ مقصودٌ، وهو في حد ذاتِه من أهدافِ وغاياتِ الحداثةِ التي تقومُ أساسًا على نِظامِ «المركزِ والأطرافِ» أو: المركزِ والمُحيطِ التابعِ له، وهو نفسُ نظامِ الاستعمارِ والمُستعمراتِ في القرنِ الماضي، ولكن بفارقٍ واحدٍ هو أن استعمار القرنِ الماضي كان قِسمةً عادلةً أو جائرةً بين دُولِ الغرب، يختص كل منها بحصةٍ مُعينةٍ من مُستعمراتِ الشرقِ، بينما هو في النظامِ الحالي استعمارٌ ينقسمُ فيه العالمُ الرأسمالي إلى مركزٍ للحضارةِ الغربيةِ، وإلى أطرافٍ تدورُ في فلكهِ، وتخضعُ له خضوع التابعِ للمتبوعِ[١].

إن هذه المُواجهة الجديدة قد أحدثَتْ -في عصرنا هذا- مُفارقاتٍ في النظامِ الاجتماعيِّ الإسلاميِّ لم يُحسب حِسابُها من قبلُ؛ لأن زخمًا هائلًا من ثقافتِنا المعاصرة لم يكن مُؤسسًا على قِيمٍ أو أُصولٍ إسلاميةٍ مُحررةٍ، تُؤهلها للتعامُلِ مع هذا الوافدِ المُكتسحِ، بقدرِ ما كانت أمشاجًا وأخلاطًا من عاداتٍ وأفكارٍ تقليديةٍ جامدةٍ من ناحيةٍ، ومن أنماطٍ مُتحررةٍ أو منفلِتةٍ من ناحيةٍ أُخرى والأخطر من ذلك أنها كانت تمثل صراعًا بين المذاهب والتيارات، وكانتِ القِيمُ الإسلاميةُ الأصيلةُ دائمًا هي الغائبَ المُفتقدَ في هذا الخليطِ غيرِ

(١) المصدر نفسه: ٣٠، وفي هذا السياق يضع «منير شفيق» أيدينا على فرق أساس بين الانتشار الحضاري في الإسلام وبين الانتشار الحضاري في نظام العولمة. ففي الحالة الأولى اندمجت الأطراف في المركز، وتحولت إلى جزء أصيل فيه، فاختفت كليًّا «إشكالات» الاستعمار والتبعية والسيطرة، وفرض الأنماط الثقافية، بخلاف الحالة الثانية فإنها تقوم -أساسًا- على الإخضاع والتسلط، الأمر الذي يؤدي إلى حتمية الصراع، ثم حتمية الانفصال. ويستدل المؤلف على عنصر الانسجام -في الحالة الإسلامية- بين الأطراف والمركز الإسلامي بأن المحاولات التاريخية التي ظهرت في شكل أطراف تابعة لمركز إسلامي انتهت إلى تفجير الوحدة الإسلامية، كما يضرب مثالًا للاندماج أنموذجَ الازدهار الحضاري الذي عرفته بُخارَى وطَشقند وسمَرقند، وصولًا إلى مراكز الفقه والثقافة والحضارة غربًا، وكان ذلك في حالة موازاة -أو تفوق- على ما كان في المركز: بغداد.

المُتجانسِ، وكما كانت صدمةُ الغربِ في القرنِ الماضي الشرارة التي أشعلت فتيل التجديد، كانت العولمة أو: «قانون المركز والأطراف» الصدمة الكهربائية التي وضعتنا -من جديد- في مواجهة جديدة، أو «محنة» من نوع جديد، وهي بلا شك تستدعي نوعًا من التجديد يختلف عن التجديد الذي ساد في القرن الماضي، وإن تماثل معه في البحثِ عن الهويةِ على أساسٍ من العودةِ -الواعيةِ الناقدةِ- إلى التراثِ، فالانطلاقُ من التراثِ شرطٌ لا مفرَّ منه لأيةِ نهضةٍ حقيقةٍ تبقى فيها الأُمةُ موجودةً على قيدِ الحياةِ.

والذي يُلقي نظرةً سريعةً على الساحةِ الثقافيةِ -الآن- يظهرُ له بوضوحٍ أنها -بصورتِها الراهنةِ- غيرُ مُؤهلةٍ لمواجهةِ الرياحِ العاتيةِ التي تَهُبّ علينا من وراءِ البحارِ، فما تزالُ مُشكلةُ اللب والقُشورِ تعملُ عملها في توجيهِ ثقافتِنا، وما تزالُ قائمةُ الأولوياتِ منكسةً على رأسِها. وما تزالُ المرأةُ المسلمةُ - بعد أكثر من قرنٍ ونصفٍ من التجديدِ - تتساءلُ عن حُكمِ خُروجِها من المنزلِ، وعن صوتِها، وهل هو عورةٌ؟ وعن تعددِ الزوجاتِ، هل هو الأصلُ أو السنةُ... إلى آخرِ ما تُطالعُنا به الجرائدُ والمجلاتُ؟

وما يزالُ الخِلافُ مُستعِرًّا بين فريق من العلماء حول مشروعيةِ دُخولِ المرأةِ مجالس الأُمةِ والشورى، وهل يُعد ذلك من الولايةِ العامةِ أو لا يُعد؟! بل ما تزالُ الكُتبُ التي تتحدثُ عن الجن وعن عذابِ القبرِ أكثر -بكثيرٍ- من تلك التي تحملُ على عاتقِها بيان المفاهيمِ الإسلاميةِ التي يفتقرُ إليها الأحياءُ في البيوتِ وفي الشوارعِ وفي مكاتبِ العملِ، وعُدنا - في هذا الوضعِ- في أمس الحاجةِ إلى تجديدٍ يُعيدُ إلى الأوراقِ المخلوطةِ شيئًا من التنسيقِ والترتيبِ.

والتجديدُ الذي ننتظرُه ينبغي أن يسيرَ في خطينِ مُتوازيين:

١- خط ينطلقُ فيه من القرآنِ والسنةِ أولًا وبشكلٍ أساسٍ، ثم مما يتناسبُ ومفاهيم العصرِ من كنوزِ التراثِ بعد ذلك. وليس المطلوبُ- بطبيعةِ الحالِ-

خِطابًا شُمُوليًّا لا تتعددُ فيه الآراءُ ولا وجهاتُ النظرِ، فمِثلُ هذا الخطابِ لم يعرفه الإسلامُ في أي عصرٍ من عُصُورِ الازدهارِ أو الضعفِ، وإنما المطلوبُ خِطابٌ تكاملي خالٍ من الصراعِ لا تبعثه الأغراض والأهواء التي تنحرف به يمينًا ولا يسارًا.

٢-وخط مُوازٍ ننفتحُ فيه على الآخرين، بهدفِ استكشافِ عناصرِ التِقاءٍ يمكنُ توظيفُها في تشكيلِ إطارٍ ثقافيٍّ عام يتصالحُ فيه الإسلاميون مع الليبراليين، ويبحثون فيه معًا عن صِيغةٍ وُسطى للتغلبِ على المرضِ المُزمنِ الذي يستنزِفُ طاقة أي تجديدٍ واعِدٍ، ويقِفُ لنجاحِه بالمرصادِ، وأعني به: الانقسام التقليدي إزاء التراثِ والحداثةِ إلى تيارٍ مُتشبثٍ بالتراثِ كما هو، وتيارٍ مُتغربٍ يُدِيرُ ظهره للتراثِ، ثم تيارٍ إصلاحي خافِتِ الصوتِ لا يكادُ يُبِينُ. وهذا الاختِلافُ -في حد ذاتِه- أمرٌ طبيعي وظاهِرةٌ مقبولةٌ، لكنه ليس مقبولًا ولا طبيعيًّا أن يتحول الموقِفُ من مُواجهةٍ خارِجيةٍ إلى صِراعٍ داخلي يتركُ الساحة خالِيةً لفُرسانٍ أجانب يسحقون الجميع. وقد لاحظنا في تجارِبِ القرنِ الماضِي أن أصحاب التيارِ الأولِ كانوا يُراهِنون على أن «بالإمكانِ العيش في إطارِ التقليدِ الضيقِ الموروثِ عمن سلفهم، بإيصادِ الأبوابِ في وجهِ أمواجِ الحضارةِ الغربيةِ وثقافتِها المُتدفقةِ»[(١)].

غير أن إصرارهم هذا لم يُحقق لهم الأهداف المرجُوة، وما لبِثوا أن تراجعوا دُون أن يُهيئوا المُجتمع لأن يتعامل مع المُتغيراتِ العالمِيةِ بأسلوبٍ مدروسٍ، وكانتِ النتيجةُ أن أصبح المُجتمعُ أعزل أمام ثقافةِ الغربِ المُكتسحةِ، والشيءُ نفسُه يُمكنُ أن يُقال على المُتغربين الذين أداروا ظهرهم للتراثِ، ولم يستشعروا من الاستِهزاءِ به والسخريةِ مِنه أدنى حرج أو حياء،

(١) «مطالعات في الدِّين والإسلام والعصر» لمحمد خاتمي: ٥٥- ٦٠.

ولم يترددوا في إعلان مُقاطعةِ التراثِ شرطًا لا مفر منه في حداثةِ التجديدِ والإصلاحِ. وكانت النتيجةُ أن أدارت جماهيرُ الأُمةِ ظهورها لهم، بعد ما تبينت أنهم لا يُعبرون عن آلامِهم وآمالِهم، بل كانوا يُغردون وحدهم خارج السربِ، هؤلاء خسِروا المعركة أيضًا، ولم يحُلوا مُشكلةً واحدةً من مُشكلاتِ المُجتمعِ، إن لم نقُل: زادُوا الأُمُور ظلامًا على ظلامٍ[(١)].

أما التيارُ الإصلاحي الوسطي فإننا نحسبُه التيار المُؤهل لحَملِ الأمانةِ، والجدِير بمُهمةِ التجديدِ المُقدسِ الذي تتطلعُ إليه الأُمةُ، وهو -وحده- القادِرُ على تجديدِ الدينِ لا تشويهِهِ أو إلغائِه، ولكن شرِيطة أن يتفادى الصراع الذي يستنزفُ طاقتَه من اليمِينِ ومِن اليسارِ.

وما أظن أنني بحاجةٍ إلى التذكيرِ -أخيرًا- بأن هذه الورقة ليس من همها أن تدعو إلى التفاعل مع الغربِ، والتناغم مع ألحانِه، فما زال قول الشاعر الانجليزي «كبلبنج» «الغرب غربٌ، والشرق شرقٌ، ولن يلتقِيا» يتمتعُ بقدرٍ هائلٍ من الصدقِ والواقعيةِ، وثباتِ القدمينِ في مهب رِياحِ العولمةِ والحداثةِ، وما بعد الحداثةِ أيضًا، ولكن هَمّ هذه الورقةِ -أولًا وأخيرًا- هو: ضرورةُ التجديدِ؛ بحثًا عمن نحنُ؟! ومن الآخرُ؟! وكيف نُحاورُه ولا نُصارِعهُ؟

* * *

(١) يتساءل أحد المُمثلين لهذا الاتجاه عن سِر التخوف من غزوِ العولمة قائلًا: «ولِم التشاكِي والتباكي إزاء ثورة الاتصال، وتوغل الثقافة الغربية إلى عالمنا العربي الذي ظل قرونًا طويلةً مُغلقًا على بَلادتِه وجُمودِه وخُرافاتِه وأعرافه القاتلة؟ (. . . .) فليكن الغزوُ الثقافي الغربي الصدمة الكهربائية المُنقِذة مِن نهايتنا المحتومة، ولتهب علينا رياح الغرب من كل الجهات، لتَغْزُنا ثقافته، ولتستفزنا قِيمُه، فربما كان في ذلك خلاصنا ويقظتنا من سباتٍ طال، وطال حتى كأنه الموت «في الحداثة والخطاب الحداثي» لمنير شفيق: ١٨٣- ١٨٦.

كلمة في التجديد(*)

الحمدُ للَّهِ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ وبارَكَ على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِه.

أمَّا بعدُ، فهذه كلمة أعددتها للنَّدوةِ التَّحضيريَّةِ الَّتي دَعَا إليها الأزهرُ الشَّريفُ تحتَ عُنوانِ:

«النَّدوةُ التَّحضيريَّةُ لمؤتمرِ تجديدِ الفِكرِ والعلومِ الإسلاميَّةِ».

هذه النَّدوةُ الَّتي نَرجُو مِن اللَّهِ تعالى أن تكونَ بدايةً مُوفَّقةً، بَيِّنةَ المعالِمِ، واضحةَ المسالِكِ والدُّروبِ، في موضوعِ «تجديدِ الفِكرِ الدِّينيِّ»، أو: «تجديدِ الخطابِ الدِّينيِّ» الَّذي يَدُورُ على ألسنةِ الكثيرِ وأقلامِهم في الآونةِ الأخيرةِ، وعلى شاشاتِ الفضاءِ وصَفَحاتِ الجرائدِ، والَّذي يَزدادُ غُموضًا وإبهامًا والتِباسًا مِن كثرةِ ما تَناولَتهُ وسائلُ الإعلامِ، بغيرِ إعدادٍ عِلميٍّ كافٍ لبيانِ مفهومِ التَّجديدِ، وتحديدِ ما هو الخطابُ الَّذي يُرادُ له التَّجديدُ، وهل صحيحٌ أنَّ ما سَمَّوهُ بالخطابِ الدِّينيِّ كانَ هو وَحدَه أصلَ الأَزَماتِ الَّتي يُعاني منها العالَمُ العربيُّ أمنيًّا وسياسيًّا؟ وكذلك التَّحدِّيَاتُ الَّتي تَقِفُ عائقًا أمامَ نهضتِهِ وتَقدُّمِه.

ويَكفي دليلًا على هذا التَّخبُّطِ في تَناوُلِ تجديدِ الخطابِ الدِّينيِّ أنَّك تسمعُ بعضَ الأصواتِ الَّتي تُنادي بإلغاءِ الخطابِ الدِّينيِّ جُملةً وتفصيلًا، وتَراهُ جُزءًا مِن الأَزمةِ، أو تَراهُ هو الأزمةَ نَفسَها، وليسَ حَلًّا لها.

(*) كلمة ألقيت في الندوة التحضيرية لمؤتمر «تجديد الفكر والعلوم الإسلامية» بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ٣ من رجب سنة ١٤٣٦هـ، الموافق: ٢٢ من أبريل سنة ٢٠١٥م.

وهؤلاء لا يُفصِحون عن مُقتضى دَعوتِهم هذه وعن لازمِها المَنطِقيِّ؛ وهو تحويلُ مؤسَّسةِ الأزهرِ إلى مُتحَفٍ مِن مَتاحِفِ التَّاريخِ، رُغم تَجَلِّياتِها العِلميَّةِ والرُّوحيَّةِ والثَّقافيَّةِ، عَبْرَ أكثرَ مِن عشَرةِ قُرونٍ، وبعدَ أن باتَ الغربُ والشَّرقُ يُقِرَّانِ بأنَّها أقدمُ وأكبرُ جامعةٍ على ظَهرِ الأرضِ.

وفي المقابلِ تسمعُ أصواتًا تَنبعِثُ مِن العُدوةِ القُصوى، لا تَفهَمُ مِن تجديدِ الخطابِ الدِّينيِّ إلَّا العودةَ فقط إلى ما كانَ عليه سالِفُ الأمَّةِ وصالِحُ المؤمنين في القرونِ الثَّلاثةِ الأُولى، وهؤلاء أيضًا يَحلُمونَ باليومِ الَّذي يَضَعُونَ فيه أيدِيَهُم على مؤسَّسةِ الأزهرِ، ويَجمُدونَ برسالتِه وعلومِه ودَعوتِه عندَ حدودِ التَّعبُّدِ بمذهبٍ واحدٍ، واعتقادٍ مُعيَّنٍ، وأشكالٍ ورسومٍ يَرَونَها الدِّينَ الَّذي لا دِينَ غيرُه.

وهؤلاء يُهدِّدون سَماحةَ هذا الدِّينِ الحَنيفِ، وشريعتَه الَّتي تَأسَّسَت على التَّعدُّديَّةِ، واختلافِ الرَّأيِ في حرِّيَّةٍ لا نَعرِفُ لها نَظِيرًا في الشَّرائعِ الأُخرى.

وهؤلاء لا يُطيقونَ أن يَتَّسِعَ الأزهرُ في عصرِه الحديثِ لِمَا اتَّسعَ له عَبرَ عَشَرةِ قرونٍ مِن إجماعٍ واتِّفاقٍ على الأصولِ، وقَواطِعِ النُّصوصِ، وكلِّيَّاتِ الدِّينِ، فإذا تَجاوَزَ النَّظَرُ هذه الأصولَ والقَواطِعَ والكلِّيَّاتِ؛ فَبَابُ الاختلافِ وحرِّيَّةِ الرَّأيِ والأخذِ والرَّدِّ بينَ العلماءِ المختصين المخلصين مفتوحٌ على مِصراعَيهِ.

وبِوَحيٍ مِن هذا المنهجِ التَّعدُّديِّ اتَّسَعَت أَروِقَةُ الأزهرِ وكلِّيَّاتُه -ولا زالَت تَتَّسِعُ ليومِ النَّاسِ هذا- لدراسةِ المذاهبِ الفقهيَّةِ السُّنِّيَّةِ وغيرِ السُّنِّيَّةِ دراسةً عِلميَّةً، لا انتقاصَ فيها مِن مذهبٍ، ولا إغضاءَ مِن شأنِه أو من شأنِ أئمَّتِه.

وبِنَفسِ هذا المنظورِ الَّذي يَتَّسِعُ للرَّأيِ والرَّأيِ الآخَرِ -بلِ الآراءِ الأُخرى- درَّسَ الأزهرُ لِلدُّنيا كلِّها مذاهبَ عِلمِ الكلامِ، والأُصولَ، وكلَّ علومِ التُّراثِ النَّقليِّ والعقليِّ.

والأزهرُ وإن كانَ قد تَبنَّى منذُ القِدَمِ المذهبَ الأشعريَّ وروَّجَه في سائرِ أقطارِ المسلمين؛ فذلك لأنَّه وجَدَ فيه العلاجَ النَّاجِعَ لأمراضٍ وعِلَلٍ أصابَت الفِكرَ الدِّينيَّ، وبخاصَّةٍ في القرنَينِ الماضِيَينِ؛ بِسَبَبِ فرضِ المذهبِ الواحدِ أو الرَّأيِ الواحدِ الَّذي قَضى على مَكمَنِ القوَّةِ في أمَّةِ الإسلامِ، ووَضَعَها في ذَيلِ قائمةِ الأُمَمِ.

ومعَ تَمسُّكِ الأزهرِ وعلمائِه بالمذهبِ الأشعريِّ؛ فإنَّه يَفسَحُ المَجالَ واسِعًا لكلِّ المذاهبِ الكلاميَّةِ الأُخرى، ويَنظُرُ إليها بِحُسبانِها مذاهبَ إسلاميَّةً تَستَظِلُّ بِظِلالِ الإسلامِ الوارفةِ الَّتي يَستظِلُّ بها كلُّ مَن يَنطِقُ بالشَّهادتَينِ، ويُصلِّي إلى القِبلةِ، ويأتي أركانَ الإسلامِ والإيمانِ.

والأزهرُ وهو يَتبَنَّى مذهبَ الإمامِ أبي الحَسَنِ الأشعريِّ؛ فإنَّه لا يَتَبنَّاهُ تعصُّبًا لمذهبٍ ولا لإمامٍ مِن الأئمَّةِ؛ ولَكِن لأنَّ هذا المذهبَ لم يكُن أمرًا مُختَرَعًا أو مُحدَثًا في الدِّينِ، بل كانَ انعكاسًا صادقًا أمينًا لِمَا كانَ عليه النَّبيُّ ﷺ وصَحابتُه وتابِعوهُم مِن يُسرٍ وبساطةٍ في الدِّينِ: عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا.

وهذه قضيَّةٌ تَخفى على كثيرٍ ممَّن يَكتُبون الآنَ عن المذهبِ الأشعريِّ، وأَعني بها أنَّ الأشعريَّ رحمَه اللَّهُ لم يَخترِعْ مَذهبًا جديدًا كَمَذهبِ الاعتزالِ أوِ المذاهبِ الأُخرى الَّتي يَسهُلُ على الباحثِ أن يَعثُرَ فيها على أنظارٍ ودَقائِقَ تَصطَدِمُ اصطِدامًا صريحًا أو ضمنيًّا بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

وما فَعَلَه الأشعريُّ هو صياغةُ مذهبٍ عَقَديٍّ يَنصُرُ فيه القرآنَ والسُّنَّةَ بِدَلالاتِ العقولِ، وبِبَيانِ أنَّ نصوصَ الوَحيِ تَستقيمُ على طريقِ العقلِ الخالصِ إذا تجرَّدَ هذا العقل مِن شوائبِ الهَوى ولَجاجِ الجدلِ والأَغاليطِ.

يقولُ الإمامُ البيهقيُّ فيما يَنقُلُه ابنُ عساكرَ: «لم يُحدِثِ الأشعريُّ في دِينِ اللَّهِ حَدَثًا، ولَم يأتِ فيه ببدعةٍ، بل أَخَذَ أقاويلَ الصَّحابةِ والتَّابعِينَ ومَن بَعدَهم مِن الأئمَّةِ في أصولِ الدِّينِ؛ فنَصَرَها بزيادةِ شرحٍ وتَبيينٍ، وأنَّ ما قالُوا

في الأصولِ وجاءَ به الشَّرعُ صحيحٌ في العقولِ، خلافَ ما زَعَمَ أهلُ الأهواءِ مِن أنَّ بعضَه لا يَستقيمُ في الآراءِ».

السَّادةُ العلماء!

لقَدِ اتَّصَلَ المسلمون بالغربِ منذُ أكثرَ مِن قَرنَينِ مِن الزَّمانِ، وكانَت هذه الفترةُ كافيةً لِيَقَظَتِهِم ويَقَظةِ العربِ والمسلمين، ولِوُقوفِهِمُ الآنَ في مَصافِّ دُوَلٍ كاليابانِ وغيرِها مِن الدُّوَلِ الَّتي نَهَضَت بعدَ نهضةِ العالَمِ العربيِّ، ولكنَّ ماكِينةَ التَّكفيرِ والإقصاءِ والجَدَلِ الكريهِ -والَّتي لم تَتوقَّف آثارُها المُدَمِّرةُ حتَّى كتابةِ هذه السُّطورِ- لم تَترُك لمُفكِّري العربِ ومُثقَّفِيهِم وعُلمائِهِم فرصةً هادئةً تُمكِّنُهُمُ من الانكِبابِ على ترسيخِ ثقافةٍ تَدفَعُ بأوطانِهِم إلى مكانةٍ لائقةٍ بأمَّةٍ تَختزِنُ أَراضِيها ثَرَواتٍ يَحسُدُها عليها العالَمُ، وتَمتلِكُ مِن الطَّاقةِ البشريَّةِ ما يُمكِّنُها -لو أَرادَت- مِن استثمارِ هذه الثَّرَواتِ بأنفسهم وبسواعدهم لا يحتاجون في ذلك إلى غريب عنهم يسيطر على هذه الثروات ويستثمرها فيما يعود على الغرب بالقوة والرفاهية، ويعود على العرب بالمزيد من الفقر والضعف والتشتت.

انظُروا أيُّها السَّادةُ القُرَّاءُ الأَجِلَّاءُ إلى طَواحِينِ الهواءِ الَّتي تَستهلِكُ جُهدَنا وطاقَتَنا، والَّتي يَسهَرُ لها النَّاسُ حتَّى مَطلَعِ الفجرِ، وابحثُوا عن الموضوعِ لِتَجِدُوه أَخيلةً وأوهامًا وحَربًا كلاميَّةً حولَ الزَّواجِ مِن الطِّفلةِ الصَّغيرةِ الَّتي لم تَبلُغِ الحُلُمَ.

وإنِّي لأَتساءَلُ: في أيِّ قُطرٍ مِن أقطارِ العالَمِ العربيِّ والإسلاميِّ أَجِدُ مِثالًا واحدًا للزَّواجِ مِن طفلةٍ صغيرةٍ لم تَبلُغِ الحُلُمَ؟!

وأينَ تُوجَدُ هذه الظَّاهرةُ الَّتي يَستَعِرُ حولَها النِّقاشُ والحِوارُ؟! ومنذُ متى كانَ المسلمون يُزوِّجونَ الطِّفلةَ الصَّغيرةَ ويُقيمون لها الأفراحَ ويَزُفُّونها إلى زَوجِها الكبيرِ أو الشَّابِّ؟! وفي أيِّ كتابٍ مِن كُتُبِ تاريخِ المسلمين أقرأُ هذا التَّهويلَ؟!

ومعركةُ حدِّ الرِّدَّةِ الَّتي تُبعَثُ مِن بطونِ الكُتبِ للتَّهجُّمِ على التُّراثِ؟

أَلَم يُشاهِد هؤلاء المُتهجِّمون البرامجَ الفضائيَّةَ الَّتي يَظهَرُ فيها شبابٌ مِصريٌّ مُلحِدٌ، يَتباهَونَ بإلحادِهم، ويُجادِلون ما شاءَ لَهُمُ الجَدَلَ والحِوارَ، ويُكاثِرون بِجَمعيَّاتِهم وأعدادِهم؟!

مَن مِن هؤلاء المُلحِدينَ أُقِيمَ عليه حَدُّ الرِّدَّة في ميدان من ميادين مصر؟ أو مسَّهُ أحدٌ بسُوءٍ، وأنا شخصيًّا تحدَّثتُ في حَلَقاتٍ عِدَّةٍ عَنِ الإلحادِ والمُلحِدينَ، فهل صَدَرَت كلمةٌ واحدةٌ تُطالِبُ بتطبيقِ حدِّ الرِّدَّةِ على هؤلاء؟!

إنَّ هذه البرامجَ الَّتي تَقتُلُ أوقاتَ المِصريِّين، وتَعبَثُ بِوَحدةِ صفِّهم وبتَركيزِهم وانتِباهِهِم لِما يُدَبَّرُ لِبلدِهِم، هذه البرامجُ تَتَعاملُ مَعَ «أشباحٍ» لا وجودَ لها على أرضِ الواقعِ في بلادِ المسلمين، ومِن المُضحِكِ والمحزنِ أن يَزعُمَ لنا هؤلاء أنَّهم إنَّما جاءُوا لتجديدِ الخطابِ الدِّينيِّ، وأنَّ العنايةَ الإلهيَّةَ بَعَثَتهُم لِيُجدِّدوا لنا أمرَ دِيننا، هكذا في ثقةٍ يُحسَدون عليها!

وأَعتَذِرُ لكم مِن هذا الاستطرادِ الَّذي تَبعَثُه شُجونٌ وآلامٌ مِن جَرَّاءِ هذا الانفلاتِ الَّذي تَقِفُ وراءَه أَجندَاتٌ غريبةٌ على الإسلامِ والمسلمين، تَتَوازى تمامًا معَ أَجنداتِ التَّفجيرِ والتَّدميرِ والنَّسفِ مِن الجُذورِ، والمقصودُ مِن وراءِ ذلك -وهو لا يَخفى على كلِّ ذِي لُبٍّ- هو ضَربُ الاستقرارِ، وزَرعُ بُذورِ الفتنةِ والانقسامِ، وهو هو أسلوبُ المستعمِرين وعَبَثُهُم بمِصرَ والعالَمِ العربيِّ منذُ أكثرَ مِن قَرنَينِ مِن الزَّمانِ.

هذا، واللَّهُ من وراء القصد، وله الحمدُ أوَّلًا وآخِرًا.

***

دعوة
إلى التجديد والاجتهاد(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسول اللَّه صلى اللَّه وسلم، وبارك عليه وعلى آله وصحبِه وبعد.

الحفل الكريم.

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته... وبعد

فيشرِّفني أن أرحب بحضراتكم في مصر الأزهر، وفي مدينة: «الأقصر» المدينة التي وُلدتُ فيها، وترعرعت على ثَراها، وحفظت القرآن صغيرًا على أيدي شُيوخها، وتعلَّمت من جُدرانها الصامتة والصامدة، منذ آلاف السنين، الكثير والكثير.

وكان ممَّا وَعَيته من آثارها التَّليدة، هذا التناغمُ البديعُ بين الدنيا والآخرة، والكون والإنسان، والروح والمادة، وغيرُ ذلك من الثُّنائيات التي لا يزال إنسان القَرن الواحِد والعشرين، يقف إزاءَها فاقدًا لتوازنه، متعثِّرًا في خطواته، مُستقطَبًا بين طرفيها إمَّا إلى أقصى اليمين وإمَّا إلى أقصى اليسار. وحين تقدَّمت بي السُّنون، وعَيتُ من هذه الآثار درسًا لا يُزايل ذاكرتي حتى هذه اللحظة، فحواه: أنَّ الدِّين قادر على أن يُنشئ من الحضارات

(*) أصل هذه المحاضرة، كلمة ألقيت في مؤتمر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الذي نظمته وزارة الأوقاف المصرية بمدينة الأقصر، في: ٢ من صفر سنة ١٤٣٧هـ، الموافق: ١٤ من نوفمبر سنة ٢٠١٥م.

الإنسانيَّة والماديَّة، ما لا يستطيع أن يُنشئَه أيُّ نظام اجتماعي آخر، وتبيَّن لي -رُغم تواضع معلوماتي في التاريخ الفرعوني- أنَّ الدِّين هو الذي بَعث في هذه الحضارة نهضة مُدهشة غيرَ مسبوقة في علوم الطِّبِّ والهندسة والعِمارة والكيمياء والرَّي والفَلك والتَّحنيط، وأَثارَ في مسيرتِها الحضاريَّةِ علومًا ومعارفَ لا تزالُ حتى يوم النَّاس هذا لُغزًا، أو سِرًّا من الأسرار، حيَّر المتخصصين من علماء الغرب، حتى أنشؤوا قسمًا في جامعاتهم الغربية، سَمَّوه قسم «المِصريَّات».

ومن اللافت للنَّظر في أمر هذه الحضارةِ التي نلتقي في رحاب آثارها اليوم؛ أن الدِّين كان هو المحرِّكَ الأوَّلَ لنهضتها، والباعثَ الأصيلَ لمسيرتها العلميَّة والفنيَّة، وأن هذه الحضارة جاءت بدورها -هي الأخرى- لتخدم الدِّين، ولتُحقِّق مطالبه ومقاصده الدنيويَّة والأُخرويَّة؛ وأنا لا أشكُّ لحظةً في أنَّ هذه النَّزعات الدينية العميقةَ في الحضارة الفرعونية هي بقايا بصماتٍ من رسالاتٍ إلهيَّة سابقة على هذه الحضارة، أو بقايا شُعاع من مِشكاة النُّبوة تنوَّره المصريون القدماء من رسالات التَّوحيد التي سبقت حضارتَهم وتقدَّمتها بآلاف السِّنين.

وقد كان أمر العَلاقة بين الدِّين والحَضارةِ مع الإسلامِ أكثرَ وضوحًا وأشدَّ ارتباطًا، حيثُ التقَت في رحابه شرائعُ الدِّين وضروراتُ الحياة وحاجاتُ الناس، وتصالحت في شريعته السَّمحةِ ثُنائيَّاتٌ طالما استعصَت على الحَلِّ، وتنافَرت تنافُرَ النَّقيضين في أكثر العقائد والفلسفات التي سادَت النَّاسَ قبل الإسلام وبعده أيضًا.

والدَّليلُ على ذلك أنَّ المسلمينَ صنعوا حضارة راقيةً قامت على العلم والمعرفة والتَّجربة، وسعِد بها النَّاسُ شرقًا وغربًا، تحت ظِلال هذا الدِّين

الحنيف، وبوحي من القرآن الكريم الذي تردَّدَت كلمةُ «العِلم» في آياته البيِّنات أكثر من سَبْعمائةِ مرة، وكان العكس صحيحًا كذلك، حين سجَّل التاريخ أنَّ التَّراجع الحضاري الذي تردَّى فيه المسلمون في القرون الأخيرة إنما كان بسبب الانفصام البائِسِ الذي حال بينهم وبين استلهامِ التَّوجيه الحضاري الكامِن في ثنايا نصوص الوحي، استلهامًا صحيحًا.

وقد ثبَت تاريخيًّا أنَّ المسلمينَ حين أَبدَعوا وتحضَّروا وصدَّروا ذلك للعالَمِ، كانوا يُسنِدون ظهورهم إلى نصوص القرآن والسُّنَّة وصحيح الدين وتوجيهات الإسلام، وأنَّهم تراجعوا حين حِيلَ بينهم، أو حالوا هم أنفسُهم بينهم وبين مصادرِ القوَّةِ في هذا الدِّين، وهذه مفارقةٌ أو مقارنةٌ لا ينبغي إغفالُها في تميُّزِ الإسلامِ وقدرتِه الخارِقةِ على صُنعِ مجتمعاتٍ غايةٍ في الحضارةِ العِلمية والثقافية والفنية، وأنَّ حضارة المسلمين مرتبطةٌ بالإسلام ارتباطَ مَعلولٍ بعِلَّته، توجد حين يوجد الإسلام، وتتلاشى حين ينحسِر أو يغيب.

ولا أريد -أيها العلماء الأجلاء- أن أسترسِلَ في مسائِلَ تعلمونها حقَّ العلم، ولكن أردت أن أَخْلص من هذه اللَّمحة السَّريعة حول العلاقة بين الدِّين والحضارة، إلى ما كان عليه أمر المسلمين قديمًا، حين كانوا يتعاملون مع الدِّين نصوصًا وروحًا ومقاصِدَ، وبين ما آل إليه الأمرُ الآن، حين وَقَفَ كثيرٌ منَّا عند ظَواهِرِ بعض النُّصوص، وجَمَد على فهوم السَّابقين، ونظرَ إلى هذه الفهوم نظرتَه للنَّصِّ المعصومِ، مع أنَّها نصوصٌ قابلةٌ للفَهم المتجدِّدِ والقراءة الواعيةِ لأهدافِ النَّصِّ ومقاصِده، حتى لا يقع المُسلم في الشُّعورِ بالاغترابِ أو الانفصام النَّفسي بين فكرِه وسُلوكِه.

واسمحوا لي أيُّها السَّادةُ الفُضلاء -وأنا واحِدٌ منكم- أن أقول إنَّ «العُلماء» هم أولى النَّاسِ بالمسؤوليَّة عمَّا يحدُث للمسلمين اليوم، وإنَّ ما

حدث لهذه الأمة مؤخَّرًا ما كان ليحدث لو أنَّ علماءَها ومفكِّريها كانوا على يقظةٍ لما يُدبَّر لها من داخلِها وخارجها، وعلينا أن نعلَم أنَّ سرَّ بقاء هذه الأمة، رغم كل الضَّربات القاتلةِ التي تُسدَّد إليها، ليس مرده إلى أرباب العلم والفِكر، وإنَّما مردُّه إلى اللَّه القويِّ العزيز، الذي تعهَّد بحفظِ القرآن الكريم من لدنه، وبقاء هذه الأمة على قيد الحياة، وإذا كان العلماء هم ورثة الأنبياء، فإنَّ هذه الوراثة ليست قاصرة على وراثة العلم والتشريع فحسب، بل تشمل أوَّل ما تشمل وراثة رسالتِهم -عليهم الصلاة والسلام- في الإصلاح والتَّغيير، وبذلِ المجهود والعَرق والتَّعب من أجل إنقاذ الأمة وإسعادها.

لذا، أرجو -أيها السادة- أن يأتي هذا المؤتمر معبِّرًا عن طموحات هذه المقدِّمة التي ربَّما طالت قليلًا، فلا مَفرَّ لنا اليوم مِن تجديد الوعي وتَوسيع الفَهم، والنزول إلى الواقع، والتَّعامل المباشر الحي مع المشكلات والوقائع، بفتاوى شجاعة تتعامل مع المشكلات العالقة، دون تردُّدٍ أو تخوف، أو تناقضٍ بين الفَتاوى في المسألةِ الواحِدة والمجتمع الواحد.

إن شريعة الإسلام -كما تعلَّمنا- جميعًا، وكما نُعلمه لتلاميذِنا هي شريعة صالحة لكل زمان ومكان، فأين هذا مما نحن فيه اليوم من صراع بين متطلَّبات الحياة من ناحية، والفتاوى المتشدِّدةِ والأقوال المتَسَيِّبةِ من ناحيةٍ أُخرى، وصمتِ العلماء المؤهَّلين من ناحيةٍ ثالثةٍ؟! إنَّ معنى صلاحيَّةِ الشَّريعةِ لكلِّ زَمانٍ ومكانٍ أنَّها شريعةٌ جاهزةٌ وقادرة على تلبيةِ الحاجاتِ المتجدِّدة لحياةِ الإنسانِ المسلم، ومعلومٌ أنَّ ذلك لا يكون إلا بتجدُّد أحكام الشَّريعةِ واختلافِ الفتوى من زمنٍ لزمنٍ ومِن مكان لآخر.

ومِن العَجيب أنَّنا -نحن أهل العلم- نحفظ عن ظهر قلب ويتردد على ألسنتنا دائمًا أن الفتوى -في شريعة الإسلام- تتغيَّر بتغيُّر الزَّمان والمكان

والأحوال والأشخاص، ومعنى ذلك أن الفتوى التي كانت تواكب مستجدات القرن الماضي قد لا تصلح لمستجِدات اليوم التي لا تكف عن التبدُّل والتغيُّر، وإذن فكيف رَهَنَّا مُشكلات اليوم بفتاوى القُرون الخَوالي، وحكَّمنا فيها أقوالًا لو بُعِث أصحابُها اليوم لقالوا غير ما قالوه، كما نحفظُ أيضًا، وعن ظَهر قلبٍ قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[1] فأين التَّجديد وأين المجدِّدون؟ وليت الخطبَ اقتصر على غياب المجتهدين والمجدِّدين، وتَرْك الناس وما نشؤوا عليه في عباداتِهم ومعاملاتِهم، إذًا لهان الأمر وسهل، ولكن ابتلينا بمَن يفهمُ النصوص على هواه، ويوظف الدِّين لارتكاب الجرائم والكبائر والموبقات، وحسبُنا داعش وأخواتها وفتاواها التي استطاعت بخطاب دينيٍّ مغشوشٍ أن تَستقطب شبابًا، وفتيات في عمر الزهور، يقطعون آلاف الأميال، ويتحمَّلون مِن السَّفر ومشقَّته ما يصعب على أولي العزم من الرِّجال، لينخرطوا في التَّنظيم أو ليفجِّروا أنفسَهم طَلبًا للجنة في زعمهم.

السادة العلماء!

لعلكم تتفقون معي في أنَّ تجديد الدين أو تجديد أمر الدين في كلِّ زمان ومكان لم يعُد أمرًا قابلًا للجدل والأخذ والرد، بعد ما ثبت أنَّه ضرورة واضحة في متن الإسلام: نصًّا وشريعة وتاريخًا، وأنَّ القرآن الكريم مملوء بالإشارات إلى أهمية التجديد والتغيير في شؤون الحياة كلها، وأن إشاراته هذه ألهمت كثيرًا من علماء المسلمين من المتكلمين والفلاسفة، وأمدَّتهم بأنظار فلسفية جديدة لم يُسبقوا إليها من قبل، حتى طالعنا علماءُ الكلام

(١) أخرجَه أبو داود (٤٢٩١) مِن حديثِ أبي هُريرةَ رضي الله عنه، وقالَ الإمامُ السَّخاويُّ في «المقاصدِ الحسنةِ» (ص: ٢٠٣): «وسَنَدُهُ صحيحٌ، ورجالُه كلُّهم ثقاتٌ».

بنظرية الكون المتجدد في كل لحظة، فقرَّر أئمَّتُنا الأشاعرة -رضوان اللَّه عليهم- أن العَرَض لا يبقى زمانَين، وأنه يتجدَّد كل لحظة، وأن هذا اللون أو الطول أو العَرْض، الذي أراه أمامي الآن، ليس هو اللونَ السابقَ ولا اللاحقَ على هذا الآن؛ لأنه قد انقضى واندثر وتجدَّد وتبدَّل.

كما ذهب بعض المتكلمين: إلى أنَّ الأجسام الحاملةَ للأعراض لا تبقى زمانَين، وأنَّها تتجدَّد كذلك حالًا فحالًا، ولحظةً بعد أخرى، وقد تعلَّمنا في قسم الفلسفة بكلية أصول الدِّين أنَّ الفيلسوف المسلم صدر الدِّين الشِّيرازي (ت. ١٠٥٩هـ - ١٦٤٩م) سبقَ الفيلسوف الفرنسي -هنري برجسون- (ت. ١٩٤١م) بالقول بصيرورة الكون وديمومة العالَم بثلاث مئة عام، وذلك حين قرر صدر الدِّين في كتابه «الأسفار الأربعة» أنَّ الكون بعالمَيه: السُّفلي والعُلوي لا يكُف لحظة واحدة عن التَّجدُّد والتَّغير، يقول هذا الفيلسوف[١]: «إنَّ حال الشمس والقمر، كحال زيد وعمرو، في تبدلهما وانقضائهما ودثورهما وفنائهما، من جهة اشتمالهما على الطَّبيعة الجرمية السَّيالة الزَّائلة... وأنَّ الحَمل والثور والسُّنبلة، في عالم السماء، كالحمل والثور والسنبلة في عالم الأرض، من حيث إنَّ أشخاص الكُلِّ متجددة في كل حين».

ويقول في نصٍّ آخر[٢]: «فمَن اكتحلت عينُه بنور الإيمان، وتَنَوَّر قلبُه بسطوع آيات القرآن، يجد أعيان العالم متبدلة، وتَعَيُّناتِها المترادفة متزايلة، خلقًا من بعد خلق، وطورًا من بعد طور، سائرة، ... إلى طريق الآخرة، متوجهة إلى اللَّه راجعة إليه».

(١) ١ / ٢٣٤ - ٢٣٥، طهران بدون تاريخ.
(٢) «مفاتيح الغيب»: ٤٢٦، مع تعليقات مُلا على نوري، طهران ١٩٨٤م.

ويستند الشِّيرازي إلى إشارات قرآنية يستلهمها في نظريته هذه، وردت في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وهذه الآية الثانية ألهمت الشيخ الأكبر: محيي الدِّين بن عربي (ت. ٦٣٨هـ) بخيال خصيب في نظرية تجدد الكون في كل لحظة، عبَّر عنه بقوله[١]: «إن الموجود كلَّه متحرِّك على الدوام دنيا وأخرى».

ودعونا -أيها السادة- من أقوال الفلاسفة والمتكلمين، فقد لا يروق للبعض استيعاب العقلية أو مذاهبهم الفلسفية، ولكن حدِّثونا عن سيرة أئمة المذاهب الفقهية، وأئمة الفِقه والأصول منذ عهد الصحابة وحتى عصر التَّقليد والعزوف عن الاجتهاد، والجمود على أقوال السابقين؛ ألم يمارسوا الاجتهاد في تجديد أحكام الشريعة كلما مسَّت حاجة التجديد إلى ذلك؟! ألم يقولوا: إنَّ النصوص الشَّرعية محدودة، وإنَّ الحادثات كثيرة ومتجددة، وإنَّه يستحيل أن تجد لكل حادثة نصًّا من القرآن أو السُّنَّة الصحيحة، وإذًا فلا مفر من الاجتهاد والتجديد؟! ألم يُقرِّروا القاعدة الذهبية التي تقول: إن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص؟! ألم يُجمعوا على صحة قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»؟!

إن مَن يُراجع تراث أعلامِنا القدامى من الفقهاء والأصوليين يعثُر على عشرات الأمثلة التي خالفت فيها الفتوى فتاوى أخرى كانت مستقِرَّة من

---

(١) نقلًا عن «الأسفار الأربعة»: ٣ / ١١٢-١١٣، وانظر تحليلًا دقيقًا لنظرية ابن العربي في تبدل العالم في كل نفس، في كتابه: «فصوص الحكم» (بشرح داود قيصري): ٧٩٠ - ٧٩٥، طهران ١٣٧٥هـ، و«الفتوحات المكية»: ٣ / ٣٤٨ (ط. بولاق). وقد سبقت الإشارة إلى هذا السَّبق في ص١٦١-١٦٢ من هذا الكتاب.

وانظر ما يشبه هذه الفكرة عند «الكندي» في رسالته إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، ص: ٩٤ - ٩٦، تحقيق أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة ١٩٤٨م.

قبل؛ طلبًا لمصلحة معتبرة استجدَّت في حياة المسلمين، أو درءًا لمفسدة حادثة لم تكن موجودة في ظل الفتوى الشَّرعية السابقة، ألم يقرر علماؤنا وأئمَّتنا ﷺ قاعدة التيسير ورفع الحرج عن الناس استنادًا إلى قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، إلى غير ذلك من القواعد المعلومة في الفقه والأصول مثل: مراعاة العرف، والنزول عند حكم الضرورات ومراعاة الخلاف وغيرها.

على أن مَن يتابع حركة التجديد في عصرنا هذا لا يُعييه العثورُ على أعلام كبار دعوا إلى التجديد وحذَّروا من التقليد، وكانوا روَّادًا مستبصرين متيقظين لأهمية الاجتهاد وأثره المحوري في نهضة المسلمين بأكثر مما عليه علماؤنا اليوم، وربما بعشرات المرات، فقد كتب الشيخ عبد الوهاب خلاف سنة ١٩٤٥م مقالًا في «مجلة القانون والاقتصاد»(١)، بعنوان: «مصادر التشريع مرنة، تساير مصالح الناس وتطورهم» كما نشر الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية الحقوق وأصول الدِّين عام ١٩٥٣م مقالين في «مجلَّة الأزهر»(٢) الغراء بعنوان: «كفانا تقليدًا في الفقه» وقد صورت لحضراتكم نسخة من هذين المقالين لا لشيءٍ إلا للتأكيد على أننا لم نستطع أن نحقِّق شيئًا معتبرًا ذا بال مما دعا إليه روادُنا الكبار منذ أكثر من سبعين عامًا، رُغم تقدم البحث العلمي وتنوّع الأبحاث والرسائل والكتب، وانتشار الجامعات، وسهولة وسائل تحصيل العلم والمعرفة.

(١) العددان الرابع والخامس، السنة الخامسة عشرة، ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٦٤هـ - أبريل ومايو ١٩٤٥م.

(٢) المجلد (٢٤) العدد (٩) ص: ١١٩٢.

أيها السادة العلماء!

إنَّ مؤتمرنا هذا، ومؤتمرات أخرى كثيرة قد عُقدت في الأزهر ووزارة الأوقاف ودار الإفتاء المصرية، من أجل الدعوة إلى التجديد، وإلى تيسير الفتوى وأعتقد أنَّه آنَ الأوانُ لأنْ نتَّجه بمؤتمراتنا هذه وجهة أخرى عملية، تتعامل مع المشكلات والقضايا محل الخلاف، أو محل الصمت، والتهيب من الاقتراب منها، تحسُّبًا لمواقف بعض فقهائنا المتشددين الذين يرون كلَّ تجديد خروجًا على الشريعة وتفريطًا في الدِّين، وتمهيدًا للانسحاق والذوبان في الحضارة الماديَّة الجارفة، وأنا أَعلمُ أنَّ هذا الأمر بات يُحسب له ألف حساب عند كثير من علمائنا المؤهَّلين للاجتهاد، والمستعدِّين لتجديد الفتوى في أمور حياتية بالغة الحساسيَّة في حياة المسلمين[١].

ومن أجل ذلك كلِّه أقترحُ أن نلجأ إلى «اجتهاد جماعي» يُدعى إليه كبار علماء المسلمين، ممَّن يحملون هموم الأمة ومشكلاتها، ولم يَغررهم بريقُ الدنيا وأطماع السياسة والجاه والمال، لينظروا -غير هيَّابين ولا وجلين- في القضايا المشكلة والعالقة، وبخاصة قضايا الإرهاب والتكفير والهجرة وتحديد مفهوم دار الإسلام، والالتحاق بجماعات العنف المسلح، والخروجِ على المجتمع وكراهيته، ومفاصلته شعوريًّا، واستباحة دم

(١) جاء المؤتمر الأخير الذي عقده الأزهر عن «التجديد» في الفترة من ٢-٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٤١هـ، الموافق ٢٧-٢٨ يناير سنة ٢٠٢٠م، تحقيقًا لهذا الغرض، حيث تحول «التجديد» في هذا المؤتمر من صناعة الإنشاء إلى صناعة الواقع، وتعامل مع قضايا على الأرض -كما يقولون- في مجال السياسة والاجتماع والمرأة وغيرها. ومن أهم محاور المؤتمر:

- آليات التجديد.
- تفكيك المفاهيم المغلوطة.
- التجديد وقضايا المرأة والأسرة.
- التجديد والأمن المجتمعي.
- تحديات التجديد.
- التجديد: أطر مفاهيمية.
- دور المؤسسات الدولية والدينية والأكاديمية في تجديد الفكر الإسلامي.

المواطنين بالقتل أو التفجير، وما خبر الأمس وحادث باريس البشع عنا ببعيد، ومع استنكارنا واستنكار الأزهر لهذه الفوضى وهذا العبث المنفلت من كل قيود الدِّين والإنسانية والحضارية - أرى أنه آن الأوان لأن يتوحَّد العالَم كله ويتعاون على التصدِّي لهذا الوحش المسعور، الذي طالما حذَّرتْ منه مصر ورؤساؤها وشعبها، ودفعت من دم أبنائها وجيشها وأمنها ثمنًا باهظًا مؤلمًا.

وعلى العلماء أن يجتهدوا -أيضًا- ويجددوا الأنظار فيما يتعلق بالأمور السياسية: كالديموقراطية وحقوق الإنسان، والحرية وحدودها، والمساواة الدستورية والقانونية ومشروعية الدستور والبرلمان، أو فيما يتعلَّق بأمور الاجتماع وأولها: معاملات البنوك وقضايا المرأة، ومنها: توليها القضاء، والولاية العامة، والزي والنقاب، وخضوعها لعادات وتقاليد تحكمها، وتَحرمها من حقوقها الشرعية، كحقِّها في الميراث واختيار الزوج، وحمايتها من عضل الوليِّ لها، وكذلك مسألةُ الاختلاط في العمل، والدعوة لرجوع المرأة إلى بيتها، ثم قضية نقل الأعضاء، وتهنئة غير المسلمين بأعيادهم، وتحديد أوائل الشهور العربية بالحساب الفلكي، ومسائل الحج وبخاصة: الإحرام من جدة للقادم جوًّا أو بحرًا، ورمي الجمرات في سائر الأوقات، وأيضًا استنهاض الأمة، لاستصدار فتاوى توجب العمل وتُحرِّم التقاعس والكسل، وقضايا أخرى يضيق المقام عن ذكرها، شريطة ألَّا يُفتى في هذه القضايا الدَّقيقة بفتاوى مجملة ونصوص عامَّة لا تنزل إلى الأرض، ولا تحسم القضية ولا تغير الواقع.

وأودُّ أنْ أُنبِّه إلى أن هذا الاقتراح ليس بديلًا عن المَجامع الفِقهيَّة المنتشرة في العالم الإسلامي، ولا عن دور الفتوى ولا مجالسها، بل هو عمل -إن قدَّر

اللَّه تحقيقه - مكمل لعمل هذه المؤسسات التي لا يخفى دورها الفعَّال في الحفاظ على شريعة الإسلام ومُواكبة تطور الزمان وتغير المكان.

والأزهر الشريف على استعداد تامٍّ للإسهام في تحقيق هذا الهدف النبيل الذي يحسم الرأي ويقطع أمر الخلاف ويُقَدِّم القول الفَصل للمُسلمين في شتَّى بِقاع العالَم.

وأختم كلمتي بالتوجُّه إلى اللَّه تعالى أن يحفظ مصر، ورئيسَ جمهوريَّتها: السيدَ الرئيس/ عبد الفتاح السيسي، وإخوانه من حكام العرب والمسلمين، وأن يوفِّقهم لما فيه خير البلاد والعباد، ويحقِّق على أيديهم آمالَ الأمم والشعوب.

شُـــــكْـرًا لِحُسْــنِ اسْتِمَاعِكُم؛

والسَّلام عَليكُم وَرَحـمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

* * *

أزهريات

الأزهرُ وقضايا السَّاعة(*)

أُحيِّيكم جميعًا، وأُرحِّبُ بكم باسم الرَّابطةِ العالَميَّة لخرِّيجي جامعة الأزهر الشَّريف، أقدَم جامعةٍ عرفَها العالَمُ، وأكبرِ معهدٍ علميٍّ عريق وقفَت مآذنُه وقِبابُه تتحدَّى الزَّمان، وتطلُّ على الوجود من سماءِ ألف عامٍ أو يَزيد.

وصفَه علماءُ التَّاريخ بأنَّه أقدمُ جامعةٍ على وجه الأرضِ، ولا يَعنون بطبيعةِ الحال أنَّه أقدمُ الجامعات نشأةً وظهورًا؛ فقد كانت هناك جامعاتٌ ومعاهدُ في مصرَ وغيرِها تسبقُ الأزهرَ وتتقدَّمُه؛ مثلُ جامعات: منف، وهليوبوليس في العصر الفرعوني، وأكاديمية الإسكندرية ومكتبتها في العصرين: البطلَمي والرُّوماني، وأكاديميَّة أثينا في العصر الهليني، لكنَّ هذه الجامعات -وغيرها كثيرٌ- قد بادَت وأصبحَت أثرًا بعد عَينٍ، بينما بقيَ الأزهرُ الشَّريف عامرًا بالبحث والدَّرسِ وطلب العِلم والمعرفة منذُ نشأتِه قبلَ عشرةِ قرون وحتى يومِ النَّاس هذا[١].

وقد عرفَت مصرُ قبلَ الجامع الأزهرِ ثلاثةَ جوامعَ كبرى: جامعَ عمروِ بن العاصِ بمدينة الفُسطاط، التي أنشأَها هذا الصَّحابيُّ الجليل عَقِبَ فتحِه مصرَ، سنةَ: إحدى وعشرين للهجرة/ (٦٤١م). وجامعَ مدينة العسكر، التي بناها الجنودُ العبَّاسيُّون بعد القضاءِ على آخرِ خليفةٍ أُمويٍّ بمصر، عامَ: ثلاثٍ وثلاثين ومئة هـ/ (٧٥٠م). وجامعَ مدينة القطائع، التي أنشأَها أحمدُ بنُ طولون عام: ستَّةٍ وخمسين ومئة هـ/ (٧٨٠م)[٢].. غيرَ أنَّ الجامع الأزهر

(*) كلمة ألقيت في مؤتمر من مؤتمرات الرابطة العالمية لخريجي الأزهر.

(١) عبد العزيز الشناوي «الأزهر جامعًا وجامعة»: ١/ ٦-٧، ط. الأنجلو المصرية ١٩٨٣م.

(٢) عبد الحميد يونس، عثمان توفيق «الأزهر»: ٢٣-٢٤دار الفكر العربي، مصر: ١٩٤٦م.

الذى بُنِيَ بعد ذلك كان هو المنارةَ التي ادَّخرَتها العنايةُ الإلهيَّةُ لتكون مركزًا لحكمة القرآن والسُّنَّة، وعلومِ العقل والنَّقل، وأذواق القلب ومواجيده، ومعارف الرُّوح وأسرارِها.

والأزهر هو أوَّلُ مسجدٍ أُنشِئَ بمدينة القاهرةِ، بعدما خطَّطَها وبناها جوهر الصِّقلِّي، الذي ولد بصِقلِّيَّة (٣٠٠هـ)، ونشأَ في المغرب، وتفرَّد بالجَمْع بين التَّبحُّر في عُلوم الدِّين والمهارة في قيادة الحُروب، وقد شرعَ في بناء الجامع الأزهر، في الرَّابع والعشرين من جُمادى الأُولى سنةَ تسع وخمسين وثلاثمائة من هجرة النَّبي ﷺ (٤ أبريل: ٩٧٠م)، وأُقيمَت الصَّلاةُ فيه في رمضان، سنة إحدى وستِّين وثلاثمائة هـ/ (يونيو: ٩٧١م).

وقد كان مُخطَّطًا لهذا المسجد الكبير أن يَنشُرَ ثقافةً خاصَّة ومذهبًا عقَديًّا بعينِه؛ هو المذهبُ الشِّيعي الإسماعيلي، الذى كان المذهبَ الرَّسمي للدَّولة آنذاك، إلَّا أنَّ الأقدارَ أرادَت له أمرًا آخر مُختلفًا تمام الاختلاف؛ إذ ما لبثَ أن صارَ منارةً تشعُّ منها أنوارُ جميع العُلوم الإسلاميَّة التي ارتبطَت بالقُرآن والسُّنَّة، واجتهادات أئمَّة المسلمين على اختلاف مذاهبِهم ومشاربِهم.

أيُّها السَّادةُ العُلماء..

انفردَ الأزهرُ الشَّريفُ جامعًا وجامعةً بمَيزَتين جعلَتا منه المرجعيَّة الكُبرى للمُسلمين؛ السُّنَّة، وغير السُّنَّة..

أُولى هاتين المَيزتين: أنَّ التَّعليم في الأزهر يقدم لطلابه فهمًا صحيحًا - وأمينًا- لعلوم الإسلام ولرسالته، ويَعكسُ وجهَه الحقيقي النَّاصع، ويُعبِّرُ عن تُراثِ الإسلام بكلِّ تجلِّياتِه وتَنوُّعاتِه؛ النَّقلية، والعقليَّة، والعِرفانيَّة، هذا التراث الذي هيأ حضارةَ المسلمين لاستيعاب الحضارات الأخرى؛ أخذًا، وعطاءً، وثراءً، وإثراءً، حتى وإن اختلفَت معها دينًا وعقيدةً وسلوكًا.

والأزهرُ في ثقافته ومناهجِه التَّعليمية هو الحارسُ اليَقظُ على هذه التَّنوُّعات التُّراثيَّة التي جعلَت من نهجِه المُتميِّز نهجًا حواريًّا تَعدُّديًّا، يَنفرُ من الانكفاءِ على مذهبٍ واحد، يُروِّجُه ويُصادِرُ به المذاهبَ الأخرى، التي تقلَّدَها المسلمون عبرَ التَّاريخ، وأهَّلَتهم لأن يَتأثَّروا ويُؤثِّروا فيما حولَهم من حضارات الأُمم وتَجلِّياتِها الثَّقافيَّة والعِلميَّة والفَنِّيَّة.

إنَّ الأزهرَ الشَّريف -أيُّها السَّادةُ- لا يَزالُ حتى هذه اللَّحظة يُطبِّقُ المنهج التَّعددي في دراسة التُّراث؛ فيُدرِّسُ في الفقه مذاهبَ أهل السُّنَّة، ومذهب الشِّيعة الإماميَّة، ومذهبَ الزَّيدية، ومذهب الإباضيَّة.. يُدرِّسُها لطُلَّابه بحُسبانِها كليات تعبِّر عن شريعةِ الإسلام وأحكامِها بكلِّ اجتهاداتِها.

كما يُدرِّسُ في المذاهب العقديَّة: المعتزلةَ، والأشاعرة، والماتريديَّة، والجبرية، والصُّوفيَّة، والسَّلفية، لا يُقصي مذهبًا لحساب مذهبٍ، ولا يَحجرُ على هذه المدرسةِ أو تلك.

ثم هو يُدرِّسُ الفلسفةَ اليونانية، والفلسفات الشَّرقية القديمة، وفلسفات العصر الوَسيط، ومدارسَ الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

ويُدرِّسُ الأديان السَّماوية؛ اليهوديَّة، والمسيحيَّة، ويرى أنَّ قضايا الخلافِ بينَه وبينَها لا تُفسدُ ودًّا ولا تقطعُ رحمًا، ويَعملُ على توسيع دائرةِ الاتِّفاق التي تأتلفُ فيها جميعُ الرِّسالات الإلهيَّة، ويَتعانَقُ فيها كلُّ الأنبياء والرُّسُل، وتَردُّهم جميعًا إلى أصلٍ واحدٍ، وأَرومةٍ مشترَكة.

ونحن الأزهريين نؤمنُ بوَحدة الدِّين الإلهي، وأُخوَّة الأنبياء التي قرَّرَها القرآنُ الكريم منذُ (١٤) قرنًا من الزَّمان، قبل هذه الدَّعوات الحديثة التي تُنادي في الغرب الآنَ بوَحدة الرِّسالات الإبراهيميَّة، ونحفظُ في ذلك الحديث النبويَّ الشريف، الذى يُقرِّر أنَّ «**الأنبياءُ إخوةٌ لعلَّاتٍ؛ أُمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**».

والأزهرُ يُعلِّمُ حقوقَ الإنسان على نحوٍ أقوى وأتمَّ مما تقولُه برامجُ الأُمم المتَّحدة عن هذه الحقوق، بل نزعمُ أنَّ الممارسات العمليَّة لهذه الحقوق في ظلِّ حضارة الإسلام تُعَدُّ أنموذجًا صعبَ المنال والمحاكاة، إذا ما قيسَ بهذه التَّطبيقات المُتعثِّرة الكَسيحة التي تُمارسُها كبرى حضارات القرن الواحد والعشرين.

وحسبُك ممَّا ثبتَ تاريخيًّا أنْ تَعلَمَ أنَّ حضارةَ الإسلام التي أظلَّت العالَم من شرقِه إلى غربه في غُضون ثمانين عامًا فقط، وحيَّرَت مؤرِّخي الحضارات في تفسيرِها وتعليلِها، ما كان لها أن تنتشر هذا الانتشار السَّريع، لولا أنَّ ثقافتَها ترتكزُ على مبدأِ المساواة بين النَّاس، وتكريم بني آدم جميعًا، مهما تناءَت أماكنهم، واختلفَت أزمانُهم، وتعدَّدَت ألوانُهم وأجناسُهم، ولولا تأسيسُها على وَحدةِ الأصل الإنساني التي رسَّخَها القرآنُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، وطبقها نبي الإسلام ﷺ في مجتمعِ الفوارق الطَّبقيَّة، والتَّفاخُر بالأحساب والأنساب، وأعلنَ في هذا الوَسط الموبوء بأمراضِ العصبيَّة وذُلِّ الاستعباد: «**النَّاسُ سواسيةٌ كأسنانِ المُشطِ**»[(١)]، وأنَّه «**لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي، ولا لقُرشي على حبَشي إلَّا بالتَّقوى**»، و«**النَّاسُ رجلان: رجلٌ برٌّ تقيٌّ كريمٌ على اللَّه، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على اللَّه**»، و«**النَّاسُ بنو آدم، وخلقَ اللَّه آدمَ من تراب**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الدُّولابيُّ في «الكنى والأسماء» (٩٤٩) وابن حبَّان في «المجروحين»: ١/ ١٩٨، وأبو الشَّيخ في «أمثال الحديث» (١٦٨) وغيرهم، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.
وأخرجه ابن عَدِيٍّ في «الكامل»: ٥/ ١٩١، وأبو الشَّيخ في «أمثال الحديث» (١٦٦) والقُضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (١٩٥) وغيرهم، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه أبو الشَّيخ في «أمثال الحديث» (١٦٧) من حديث عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٢٧٠) من حديث عبد الله بن عمر، وقال: «حديث غريب»، وصحَّحه ابن حبَّان.

أما الميزة الثانية التي يقتضي المقامُ أن نلفتَ النَّظر إليها ونحن نتحدَّث عن الأزهر؛ فهي: أنَّه يَدرُسُ في تعليم الأزهر الجامعي حوالي (١٥٠٠٠) طالبٍ وطالبة، من (١٠٤) دولةٍ[1]، ويَدرُسُ في تعليمه قبل الجامعي ما يزيدُ عن ألف تلميذٍ صغير وافد من مختلف أرجاء الدُّنيا، كما تُسجِّلُ الرَّابطة الدولية لخريجي جامعة الأزهر ما يَقربُ من خمسين ألف خرِّيجٍ، مُنتشرين في أنحاء العالَم..

وكأنَّ الأزهرَ جامعًا وجامعة يَختزلُ في أروقته أبناءَ العالَم الإسلامي كلِّه، يُعلِّمُهم صحيحَ الدِّين حسبةً لوجه اللَّه تعالى، ومن ميزانية مصرية خالصة.

وما نظنُّ أنَّ هذه الميزة أُتيحَت لمؤسَّسة علميَّة أُخرى غيرِ الأزهر، وقد هيَّأَت هذه الميزة -مع مَيزات أُخرى- الأزهرَ لأن يكون صوتُه صوتَ الإسلام، ومرجعيَّتُه المرجعيَّةَ الكبرى للمسلمين.

وكيف لا؟! وقد تحرَّر من كلِّ الضُّغوط والأجندات السِّياسية والمذهبية والطَّائفية التي سيطرت على بعض نظم التعليم الأخرى، والتي أسهمَت مع غيرِها إسهامًا غيرَ واعٍ ولا مُتبصِّرٍ في تقديم العُذرِ لبعض الغربيِّين، في نظرَتِهم العدائيَّة للإسلام حين وضَعُوا المسلمين كلَّهم -بأزهرِهم- في سلَّة الإرهاب والتطرُّف، وتحدَّثوا عن حضارتهم حديثًا منكرًا، يعلمون أنَّه حديثٌ مفترًى وكاذبٌ ومصنوعٌ لتحقيق المطامع والأغراض.

وفي السَّنوات القليلة الماضية شارَك الأزهرُ في ندوات حوارية مختلفة عُقدت في أوروبَّا وأمريكا، ولم تكن النَّتائج المرجوَّة في مستوى الآمال المعقودة؛ حيثُ وقفَت بعضُ السَّلبيَّات حجَرَ عَثْرَةٍ في طريق الحوار المُتبادَل

(١) بلغ هذا العدد اليوم من الطلاب الوافدين (١٥٤٠٠) في مرحلة ما قبل الجامعة، و(٢٥٠٠٠) في المرحلة الجامعية.

بين الأزهر والغرب، ووواجبُ العدل والإنصاف يَقتضي أن نقول إنَّ هذه السَّلبيات ليست موجودةً في جانب الغرب فقط، بل هناك على الجانب الشرقي سلبيَّاتٌ وإن تكن من نوعٍ آخر.

واسمحوا لي أن أعرضَ في عُجالة شديدة أهمَّ هذه السَّلبيات:

- بالنِّسبة للغرب: أوَّلُ شيءٍ يُصيبنا نحن المسلمين بالإحباط في حوارنا هو عدمُ اعتراف الغربيِّين بالإسلام دينًا سماويًّا، وبالقرآن وحيًا إلهيًّا، وبمحمَّد ﷺ نبيًّا مثلَ موسى وإبراهيم عليهما السَّلام.

ويَريبُنا كثيرًا نظرُهم المستمرُّ إلى الإسلام في القرن الواحد والعشرين من منظورِ العصور الوسطى، بكلِّ ما فيها من تَشوُّهاتٍ ومُقارَبات ترفضُها مناهجُ البحث العلميِّ الحديث.

ومن الإنصاف أن نقول: إنَّ هذا الحُكمَ ليس على إطلاقه، فليس كلُّ الغربيِّين على شاكِلةٍ واحدة في موقفِهم من الإسلام، ولكن من المؤكَّد أنَّ هذه الرُّؤى القديمةَ الشَّائهة، والتي كنَّا نظنُّ أنَّها تلاشَت وصُحِّحَت بفضل تقدُّم الدِّراسات الإسلامية في الغرب -هذه الرُّؤى قد بُعِثَت من جديدٍ، مع ما سمَّوه بالعُنف في الشَّرق الأوسط، وظهرَ وُعَّاظٌ غربيُّون متطرفون، ورجالُ دينٍ ذوو أصوات مؤثِّرة في الإعلام المرئيِّ والمسموع والمقروء، يَصفون الإسلامَ بأنَّه دينٌ شرِّيرٌ وآثِمٌ.

أضِف إلى ذلك: الأوصافَ البشعةَ التي يُعمِّمونها على المسلمين جميعًا، من قَبيل أنَّهم غيرُ متعلِّمين ولا مُتحضِّرين، وأنَّهم مقهورون جنسيًّا، وسُلطَويُّون، وغَيبيُّون، يَنظرون إلى المرأة باعتبارها آلةً للتَّناسل، كما أنَّهم فاسدون أخلاقيًّا، ومُتدنِّيون فكريًّا، وأنَّ العالَم الإسلاميَّ ليس إلَّا حالةً دائمة من الفوضى والفساد، وهو عقبةٌ أساسيَّةٌ أمامَ التَّحديث.

وكثيرٌ من الغربيين يَعتقدون أنَّ الإسلام، وكذلك القرآنُ يَجبُ أن يَخضَعَ للتَّغيير والتَّحوير والتَّبديل، سواءٌ على مستوى النُّصوص المُقدَّسة أو السِّياقات التَّطبيقيَّة، وأنَّ المسلمين ما لم يَتعامَلوا مع قرآنهم مثلَما يَتعامَلُ الغربيُّون مع الكتاب المُقدَّس فلا أمَلَ في تقدُّمهم.

وحين نتأمَّلُ هذه المقولةَ الغربيَّة؛ فإنَّه يُعيينا فهمُها وتحديدُ معناها؛ فالغربُ الدِّينيُّ يَتعامل مع الكتاب المقدَّس بالقاعدة التي تُقرِّرُ أن جبال الدُّنيا كلَّها يُمكن أن تزول وتتغيَّر ولا يُمكن زوالُ حرفٍ واحدٍ من هذا الكتاب، وهذه المؤسَّساتُ ترصُدُ إمكاناتٍ ماديَّةً هائلة لنَشر الكتاب المقدَّس في العالَم كلِّه، وبخاصَّة: بين المسلمين؛ لحَملِهم على الإيمان به، وبمَذاقٍ كنسيٍّ غربيٍّ.

وعلى الجانب المُقابل نجدُ أنَّ الغرب العلمانيَّ لا يُؤمنُ بهذا الكتاب ولا بغيرِه من الكتُب الإلهيَّة، ولكن يُؤمنُ بالتَّقدُّم والحداثة التي تتقاطَعُ جذريًّا مع الدِّين، ومع كلِّ موروثٍ قديم، وأنَّ على المسلمين إن أرادوا النَّهضةَ والتَّقدُّمَ أن يَلجؤوا للحداثة الغربيَّة، ويَتبعوها حذو النَّعل بالنَّعل، وحتى لو دخل الغربُ جُحْرَ ضَبٍّ خربَ فعلى المسلمين أن يَدخلوه.

والمشكلةُ عندنا: أنَّ كلًّا من الغرب الديني والغرب العلماني يَستهدفُ الشَّرق الإسلامي، وهما وإن اختلَفا وسيلةً؛ فإنَّهما يَنتهيان عمليًّا -وربَّما من غير قصدٍ- إلى غاية واحدة؛ هي: زعزعةُ الجذور الدينية للحضارة الإسلامية، والعَبثُ بها قدرَ الإمكان.. إما بمِعوَل التَّبشير، الذي أصبحَت له قنواتٌ فضائية ناطقة باللُّغة العربية في بلاد المسلمين لتَشكيكهم في دينِهم وثقافتِهم، وإما بمِعوَلِ الحداثةِ الغربيَّة، أو بعبارةٍ أدَقَّ، مِعوَل اختيار التَّحديث، ولكن في اتِّجاه الغرب.

ونحن -المسلمين- لا نؤمنُ بأنَّ التَّحديث صناعةٌ غربيَّة خالصة، وأنَّ حداثةَ الغرب هي الحداثة التي لا حداثةَ غيرُها، والفرقُ عند الشَّرقيِّين حاسمٌ وواضح بين الحداثة وبين التَّغريب، وأنَّ هذا الفصلَ الحاسم بينهما أمرٌ لا مفرَّ منه، لتَجنُّب التوتُّرات والمصادَمات حولَ قضيَّة الحداثة.

وإذا كان للحضارة أكثرُ من شكلٍ؛ كالحضارة الغربيَّة، والحضارة الإسلاميَّة، والهندية، واليابانيَّة... إلخ كلِّ ذلك فلماذا تُفرضُ على حداثات الأُمم والشُّعوب صيغةٌ واحدة، غريبةٌ عنها، وصادمةٌ لتاريخها ولجذورها النَّفسيَّة والعقليَّة والثَّقافيَّة!!

إنَّنا نؤمنُ بأنَّ كلَّ أمَّةٍ، وكلَّ حضارةٍ لها حداثتُها التي تُثمِرُها رُؤَاها، وعقائدُها، وتاريخُها... وأنَّ ما يُعَدُّ حداثةً مثمِرةً في حضارة الغرب، ربما كان فيه الهلاك والموت لحضارة الشَّرق.

وهذه التَّناقضات الحادَّةُ لا زالَت -للأسَف الشَّديد- تعمَلُ عملَها على الجانب الغربيِّ على مائدةِ الحوار، وتُثمِرُ ثمارَها المُرَّةَ في سياسةِ الغربِ الاستعلائيَّة، وسياسة الكَيْلِ بألفِ مكيالٍ في الحادثةِ الواحدة التي إن صدرَت من غربيٍّ تكون أمرًا حسنًا ودفاعًا، وإن صدرت من شرقيٍّ تكون قُبحًا وإرهابًا، والواقعُ الذى تعيشُه فلسطين الآنَ أصدَقُ من كلِّ تعبير.

أمَّا الجانبُ الشَّرقيُّ؛ فإنَّ أهمَّ السَّلبيَّات التي تؤخَذُ عليه هي أنَّه يَختزنُ في نظرتِه للغربِ رواسبَ عدائيَّةً تاريخيَّة، لم يَستطع التَّخلُّصَ منها، وأنَّ الحروبَ الصَّليبيَّةَ في العُصور الوسطى، والاستعمار في العصر الحاضر لا زال كلٌّ منهما يعمَلُ عملَه في مشاعر المسلمين نحو الغربيِّين، وهذه السَّلبيَّةُ في حقيقةِ الأمر سلبيَّةٌ مشترَكةٌ بين الجانبين، مع فارقٍ هامٍّ؛ هو أنَّ العداءَ التاريخي لدى المسلمين لم يكن موجَّهًا للمسيحية ولا لليهوديَّة،

ولا لموسى وعيسى عليهما السَّلام، فعقيدةُ المسلمين تمنعُهم من اقتراف هذا الانحراف الذي يُعدّ انحرافًا عن الإسلام نفسه، ومن هنا كان عداء المسلمين للغربيين موجَّهًا إلى هؤلاء الذين يُتاجرون بالدِّين في سوق السِّياسات وساحات الحروب، وهذه النظرة الإسلامية الموضوعية هي ما افتقدناه ونفتقده في سلوك الغربيين حين اختلَطت الأوراقُ بين أيديهم، فوجَّهوا سِهامَ نقدِهم -وبقسوةٍ- إلى القرآن والإسلام والرَّسول ﷺ، والأدبيَّاتُ الغربيَّةُ في هذا الشَّأن أنتُم أدرى بها منِّي.

إنَّ هذا العداءَ التَّاريخي الذي لم يَستطع المسلمون التَّخلُّص منه أوقعَهم في عيبٍ آخرَ في حوارِهم مع الغربيِّين؛ هو: تعميمُ السَّيِّئات وتضخيمُها أحيانًا، والعجزُ عن التَّعامل مع هذه السَّلبيَّة أو تلك في حجمِها الحقيقيِّ، أو حصرِها في بلدِ المنشَأ كما يقال في التَّعبيرات الدَّارجة.

والإنصافُ الذى نتعلَّمُه من الإسلام يُلزِمُنا أن نُسمِّيَ الأمورَ بأسمائها الحقيقيَّة؛ حتى لا نُصيبَ قومًا بجهالةٍ، فنعلمَ أنَّ الغربَ الأمريكيَّ غيرُ الغرب الأوروبيِّ، وهما غيرُ الغرب الرُّوسي، وأنَّ مؤسَّسات الدِّين في الغرب لا تُعبِّرُ في آرائها عن كلِّ الغربيِّين، بل ولا الكَثرَةِ الغالبة منهم، بل هجومُ بعضِ الكنائس الغربيَّة على الإسلام تَرفضُه كثرَةٌ كاثرةٌ من الكنائس الأخرى، وقد رأيتُ بنفسي كثيرًا من فُضلاء رجال الدِّين الكاثوليكي مَن رفَضوا تصريحات بابا الفاتيكان السابق رغمَ صعوبة ذلك عقديًّا في مذهبِهم الدِّيني.

أما السَّلبية الثَّالثةُ: فهي أنَّ كثيرًا ممن يَتحدَّثون اليوم باسمِ الإسلام يَحكمون على الحضارة الغربيَّة من منظورِ الإسلام، وفى ضوء الأحكام الفقهيَّة التي جاءَت بها شريعتُه، وهو فهمٌ مغلوطٌ لصحيح الإسلام وصريحِ نصوصِه، فليس مطلوبًا من المسلمين أن يَزِنوا تصرُّفات غير المسلمين

بميزان الشَّريعة الإسلاميَّة، والوضع الصَّحيح هو حقُّ الآخرين وحرِّيَّتُهم الكاملةُ في أن يكونوا كما يَشاؤون، وكما يَشاءُ لهم تمدُّنُهم الاجتماعيُّ الذى اختاروه، ما داموا لا يفرِضون علينا رُؤاهم، وخلافًا لذلك لا يكون للآية القرآنيَّة الكريمةِ أيُّ معنًى، وهى الآيةُ التي تقولُ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، والقاعدة الشَّرعية التي نحفظُها في علم أُصول الفقه هي أنَّ غيرَ المُسلم ليس مُخاطبًا بفروع شريعة الإسلامِ، كما نحفظُ الحكمَ الذى يُقرِّرُ أنَّ الخمرَ في الإسلام مالٌ غيرُ محترَم، وأنَّ المُسلم لو أراقَ خمرًا مملوكًا لمسلم؛ فإنَّه لا يَضمنُ له ثمَنَه، أما إذا أراقَه لغيرِ مسلم؛ فإنَّه يَضمَنُ ثمَنَ الخمرِ المُراق، ويَلزَمُه أداءُ الثَّمن شرعًا؛ لأنَّ الخمرَ وإن كانت مالًا غيرَ محترمٍ في الإسلام فقد تكون محترمة عند الغير.

والسلبيَّةُ الأخيرة التي يمكن تسجيلُها فى هذا المقام، وباختصارٍ: هي أنَّ الصَّوتَ الصَّارخَ في السَّاحة الإسلامية الآن هو الصَّوتُ المُتشدِّد -أو الصَّوتُ الأصولي بلُغة الغرب-، وأنَّ الإمكانات المادية والمالية التي تدعَمُ هذا الخطاب المُتشدِّد تريدُه أن يكون المتحدِّثَ الرَّسميَّ باسمِ الإسلام، ولدرجةٍ يُخشى معها خفوتُ الأصوات المؤهَّلة للحديث عن الإسلام حديثًا صحيحًا، وهذا خلَلٌ واضحٌ في الخطاب الإسلامي، يَترتَّبُ عليه بالضَّرورةِ فهمٌ غيرُ صحيحٍ للإسلام من جهة، واعوجاجٌ في منهج التَّواصُل والتفاهم بين الإسلام والغَرب من جهةٍ أُخرى .

أعتذرُ إن كنت قد أطلتُ، ولكن أردتُ أن أكشفَ عن طائفةٍ من الهُموم التي فَرَضت نفسَها علينا ونحن نتأمَّلُ مواصفاتِ الخطابِ الذي نخاطبُ به عقولَ الغربيِّين.

وإنَّنا الآنَ لعلى استعدادٍ تامٍّ لأن نسمَعَ منكُم ما ترونَ فيه تحقيقًا لغاياتنا المُشترَكة، من أجلِ فهمٍ صحيح مُتبادَلٍ بين الإسلام والغرب، ومن أجل دعمِ تواصُلٍ إيجابيٍّ بينَنا لصالح الغربِ، وصالحِ الإسلام، وصالح الإنسانيَّة كلِّها، وأَمَلُنا فيكم كبيرٌ؛ فأهلُ مكَّةَ أدرى بشعابِها، والمأمولُ من مُؤتَمرِكُم هذا أن يُسهِمَ في خِطَّةٍ تُحقِّقُ الاحترامَ المتبادَل بين الإسلام والغربِ، نتعاوَن على إنجازِها وتَنفيذِها، ونجعلُها رصيدًا مُدَّخرًا لأجيالنا القادمةِ.

أيُّها الحفل الكريم..

قبلَ أن أُنهِيَ كلمتي هذه، أَوَدُّ أن أُعلِنَ أنَّ رابطةَ خرِّيجي جامعةِ الأزهر، وهي تعقِدُ مؤتمرَها هذا تُتابع بقلقٍ بالغٍ، واستنكار شديد الهَجَمات الوحشيَّةَ التي يَشنُّها الكَيانُ الصُّهيوني على شعبنا العربي الفلسطيني في غزَّة، والرَّابطةُ تُحَيِّي صمودَ هذا الشَّعبِ، ووقفتَه الشُّجاعةَ في وجهِ الإجرام الصُّهيوني المُتَبربِر والمُتجرِّد من كلِّ المشاعر الإنسانيَّةِ، وضوابط التَّمدُّن والتَّحضُّرِ.

وتَستصرخُ الرَّابطةُ ضميرَ العالَم، والمنظَّماتِ الإقليميَّةَ والدَّولية، ومنظَّمات حقوقِ الإنسان.. أن تتحمَّلَ مسؤوليَّتها كاملةً إزاء هذه الإبادةِ الجماعيَّة المُنظَّمة للمُستضعفين من الرِّجال والنِّساء والوِلدان، ممن لا يَستطيعون حيلةً ولا يَهتدون سبيلًا، وعلى هذه المنظَّمات أن تبذل جهودًا عاجلةً، وجادَّةً، تُوقِفُ بها حمَّامات الدِّماء التي لم تتوقَّف منذُ أكثرَ من أسبوع.

وإنَّنا لعلى يقينٍ من أنَّ العاقبةَ للمظلومين، وأنَّ للظُّلم أجلًا، مهما صال وجالَ.. ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعراء: ٢٢٧].

شكرًا لحُسن استماعِكم

والسَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبرَكاتُه

* * *

بين الأزهر والزيتونة
تواصل وتكامل(*)

ربما لا يَعرفُ التاريخ تواصلًا وتكاملًا بين مؤسستَين علميتينِ مثلما عرَفه بين مؤسسة الأزهرِ الشَّريفِ ومؤسسة الزيتونةِ، فقد توثَّقت بينهما العُرى والأواصر العلميَّة والثقافيَّة والمنهجيَّةِ، وأصبح من الشائعِ السائرِ وصفُ الزيتونةِ بأنَّها «أزهر تونس»، فيما يقول الأستاذُ الكبير محمد الفاضل بن عاشور، و«أنَّ الأزهر والزيتونةَ صنوان» و«أنَّ الزيتونيين أزهريونَ». فيما يقول علماءُ الزيتونة أنفسُهم، اعتزازًا بالأزهرِ، وموالاةً لشيوخه وطلَّابه(١).

وكلامُ الأستاذ الفاضلِ الذي سار مسرى الأمثالِ في وصف العروةِ الوثقَى بين هاتين المؤسستين العريقتَينِ- لم يَصدرْ من مجرد عاطفةٍ جيَّاشةٍ، ولا هو صدى لحماسة تُمليها ظروفٌ ومناسباتٌ خاصةٌ، بل صدر عن تجربةٍ عميقةِ الجذورِ لمفكِّر دقيقٍ، وعالم جليل، خَبر المؤسستيْنِ وسبرَ أغوارَ ما يُلقى في أروقتِهما من علومٍ ومعارفَ وتراثٍ: فهو عالمُ الزَّيتونة الذي عاش في رحابِ الأزهر، والذي توَّجَت مصرُ رحلتَه العلمية هذه باختيارِه عضوًا في مجمع اللغة العربيَّةِ بالقاهرةِ، وهو الباحثُ المدقِّق والمشاركُ في الحركة الإصلاحيَّةِ في المشرقِ والمغربِ على السواءِ.

ومن ثَمَّ فإن تقاريرَه عن العلاقةِ بين الأزهرِ والزيتونةِ تأتي ثمرةً لتجربةٍ عايشها بكلِّ ما تضطربُ به جوانبُها من تفاصيلَ وأحداثٍ؛ فقد كان الأزهرُ

(*) كتبت هذه الكلمة أثناء رئاسة فضيلة الإمام جامعة الأزهر، في: ٢٢ من شوال سنة ١٤٢٩هـ، الموافق: ٢٢ من أكتوبر سنة ٢٠٠٨م.

(١) «ومضات فكر»: ٣٩٢ ، الدار العربية للكتاب، تونس: ١٩٨٢.

والزَّيتونةُ -في تلك الفترة- يتآزرانِ معًا في خطةِ كفاحٍ مكينٍ، لُحمته وسَداه الدفاعُ عنِ الإسلامِ: عقيدةً وشريعةً وأوطانًا. وقدِ استجاب المسلمونَ التَّونسيون بأجمعِهم- فيما يقول: «أندريه جوليان» لصدى الشَّرقِ في حماسٍ بليغٍ، وشكَّلت الزيتونةُ، في ذلك الوقت «المركز» الذي عمَّمَ رؤية الأزهر ومنهجَه في الإصلاحِ في كلِّ أرجاء المغربِ العربيِّ(١) وكان من الطبيعيِّ أن يعتمدَ الأستاذ الإمام محمد عبده، العلَّامةَ: الطاهر بن عاشور «شيخ الزيتونة» ليكون سفيرًا لدعوةِ الأزهرِ الإصلاحيَّة في جامعة الزيتونةِ، وقد تأثَّر بهذه الدعوة- لاحقًا- عبد الحميد بن باديس الذي تتلمذَ على يد شيوخ الزيتونةِ وعلمائها، وفي مقدمتهم الأستاذ الطاهرُ بن عاشور نفسُه.

وفيما يقولُ بعضُ المؤرِّخين فإنه لا يمكنُ أن يؤرَّخ للزيتونةِ ودورِها الإصلاحيِّ في المغرب العربي إلا في ضوءِ النهضة الفكريَّة والعقليَّةِ التي اضطلعَ بها في مصرَ روادُ الإصلاحِ، وفي مقدمتهم: الأفغانيُّ، ومحمد عبده ومدرستُه وتلاميذُه، وكلُّهم كانوا يتطلعون إلى تحريرِ العقل من آصارِ التقليدِ وتبرئتِه من غشاوةِ القرونِ المتأخِّرةِ، والعودة إلى ينابيعِه الأولى التي طمسَتْها بعضُ النزعات التي سادت العالَمَ الإسلاميَّ في هذه القرون، مقرونًا ذلك بالدعوة إلى تحرير الشعوبِ الإسلامية والعربيَّةِ من الاستعمارِ، والذي مكَّنت منه هذه الجهالة، والبعد عن مبادئِ الدِّين وتعاليمِه الصَّحيحةِ(٢).

والحديثُ عن الأزهرِ والزيتونةِ وما بينهما من وشائجِ القُربى وأواصرِ النسب حديثٌ طويلٌ ذو شجونٍ، ولاعتباراتِ الوقت سوف أقتصرُ في هذا

---

(١) «القومية الإسلامية والسيادة الفرنسية» لشارل أندريه جوليان: ٨٨، الدار التونسية للنشر، تونس: ١٩٧٢م.

(٢) «جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر» لطه الحاجري: ١٦٦، معهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة: ١٩٦٨م.

الحديث على محاورَ ثلاثةٍ، الأول: النَّشأة والتأسيس. الثَّاني: التواصل العلمي. الثَّالث: جامعة الأزهرِ.

أولًا: النَّشأة والتَّأسيس:

تأسَّس جامع الزيتونة عام ١١٦هـ، بناه عبيد اللَّه بن الحبحاب السلولي والي مصر وعامل بني أمية عليها، ثم أُعيد بناؤُه في عصر الدولة الأغلبية، فهو بالميلاد الزَّمني أقدمُ الجامعاتِ الإسلاميَّة في العالم، وكان منذ إنشائِه مركز إفتاء، ومجلسَ تعليم، ورغم محاولاتٍ كثيرةٍ لإصلاحِ الزيتونةِ وتطويرِه، إلَّا أن الدراسةَ فيه ظلَّت تجري على الطريقة القديمة حتى صدر في ٤ صفر سنة ١٣٧٠هـ تنظيمٌ جديدٌ يستهدف إصلاحَ الأوضاعِ التعليميَّةِ بالزيتونةِ وفقَ النظام الأزهريِّ الذي استقرَّ في مصر بعد إصلاحات الشيخ محمد مصطفى المراغي.

أما الأزهر فرغم أنه أُنشئ في تاريخ لاحقٍ إلا أنَّه استطاع عبرَ تاريخه الطويلِ أن يحتلَّ المكانةَ الأولى باعتبارِه أهمَّ جامعةٍ على مستوى العالمِ في القدمِ والاستمراريَّة وقوةِ التأثير.. هذا ما يقولُه التاريخ الصامتُ عن نشأةِ الأزهرِ والزيتونةِ، ولكن عالم الزَّيتونةِ «الفاضل بن عاشور» له قراءةٌ أخرى تُعيدُ تركيب المشهدِ التاريخيِّ ليكونَ أكثر التصاقًا بالرحم العلميِّ الذي جعل الرابطةَ من أجل الدينِ والوطنِ هي الوشيجةَ الأولى بين هذين المعهدَين عبرَ التاريخ الثَّقافي للإسلامِ، يقولُ الفاضلُ بنُ عاشور: «لنقف على جامع الزيتونةِ يوم كان أساسُه يرسو، ودعائمُه تعلو في أوائل القرن الثاني للهجرةِ على يد بانيه عبيد اللَّه بن الحبحاب السلولي، وقد كان واليًا على مصر، ومنها قدمَ إلى تونس، بعد أنِ استخلف ابنَه أبا القاسم على مصرَ، وإذا كانت القاهرة يومئذ لم تنشأ، وجامعها الأزهر لما يحدثْ، فإن مدينة الفسطاط

التي هي أم القاهرة قد كانت دار الحبحاب، وجامعها، جامع عمرو، الذي هو أبو الجامع الأزهر قد كان ابنُ الحبحاب إمام محرابِه وخطيب منبره، فلا ضيرَ أنَّ ابن الحبحاب كان واقفًا على تخطيطِ جامع الزيتونة بتونسَ، وفي ذهنِه صورة جامع الفسطاط، وفي قلبه حنينٌ إليه واهتمامٌ به، وحنينٌ واهتمامٌ بابنه أبي القاسم، وقد خلفه فيه، ولعلَّ ذرات من الرمال التي كانت بين مصر القديمة وعين شمس، حيث بُنيتْ مدينةُ القاهرة فيما بعد، لم تزل عالقةً بأردان فتى غسان من حيث لا يأبه لها، فتساقطت في عمق الأساسِ، وبَقِيت هنالك تصلُ أرضُ القاهرة بأساسِ جامع الزيتونة، وتخلط التربة التي بُني عليها الأساسانِ: أساسُ الزَّيتونةِ، وأساسُ الأزهرِ، من قبل أن يُبنَى الأزهر بمائتي سنةٍ، وكذلك تصرَّمَتِ السنونُ التي خلَتْ بعد ذلك اليوم، وكأنها تهيئ بروزَ هذا المعنى من التآخي في الهيكلَيْنِ، بعد أنِ استقرَّ في الأساسَيْنِ، فكانت صحبةُ علي بن زياد التونسي لليث بن سعد، وروايتُه عنه بمصرَ، ثم انتصابُه بجامع الزيتونة محدثًا ومدرسًا في منتصف القرن الثاني الهجري- حلقةً أولى في سلسلةٍ منَ الاتصالاتِ العلميَّةِ ظهرَتْ في مصر القديمةِ، ثم امتدَّتْ إلى القاهرةِ وأزهرِها، وارتبطَتْ بها حلقاتٌ كان منها ما هُو أوضح إشعاعًا وأتمَّ ظهورًا، فالإمام سحنونُ بن عبد السلام التنومي والقاضي أسدُ بن الفرات، بعد أن تخرَّجا بابن زياد في تونس بجامع الزيتونة شدَّا الرحلةَ إلى مصر، فأخذَا عنِ ابن القاسمِ، وأشهب، وابن وهب، وابنِ عبد الحكم، وتكوَّنتْ بذلك المدوَّنةُ، فكانت أصلَ المذهب المالكي، وتتابعَ العلماءُ من تونس والقيروانِ وغيرِهما من البلادِ الأفريقيَّةِ على الرحلةِ إلى مصرَ يسمعونَ ويهتدون؛ مثلَ عبد اللَّه بن أحمد التميميِّ نسيبِ بني الأغلبِ، وحمديسِ الأشعريِّ، والقاضي عيسى بن مسكين، وجبلةَ بن حمود، وغيرِهم من أهل

القرنِ الثَّالثِ الذين أخذوا في مصر عن ابن عبد الحكم، ويونس بن عبد الأعلى، وابن الموَّاز، على ما فصَّلَه القاضي عياض في «المدارك»[(١)].

ولقد ظلَّ هذا الامتزاجُ الذي أفاضَ في تأصيلِه ابنُ عاشور جوهرَ العلاقةِ بين الزيتونةِ والأزهرِ من القرنِ الرابعِ إلى القرنِ الخامسَ عشر الهجري «فكانتِ الدراساتُ بالزيتونةِ والأزهرِ طيلةَ هذه القرونِ تَسيرُ على منهجٍ واحدٍ، وتعتمد مادةً من الكتب مشتركة وسندًا من العلماء متَّحدًا، فيهم المصريون، وفيهم الأفارقةُ، وفيهم غير المصريين وغير الأفارقة، من الأندلسيِّين والمغاربة أو من الشاميِّين والعراقيين والأعاجم وعلماء الروم» وهكذا ارتبطتِ الزيتونةُ بالأزهرِ في وحدةِ فكر ووحدة مناهجَ، بل وحدة كتب، حتى وصلَ الأمرُ إلى أنَّ الكتبَ التي كانت تدرسُ بجامعِ الزيتونة وضبطها قانون ١٢٩٢هـ وهي مائةٌ وخمسون كتابًا، يوجدُ من بينها ستة وأربعون كتابًا هي مصريَّة أزهرية، وهكذا شاعَت وعُرفت في الرحابِ الزيتونيِّ كتبُ الشيخ الخضريِّ والشيخ علي الصعيديِّ والشيخ الباجوري والشيخ العطارِ، وكان شيخُ الإسلام سالم بوحاجب يدرِّسُ الأشمونيَّ بجامعة الزيتونةِ في الوقتِ الذي يدرس فيه الشيخُ الإمبابيُّ الكتاب نفسه وحواشِيَه في رحابِ الجامعِ الأزهرِ، وكان طالبُ العلم في الزيتونةِ يستكمِلُ دروسَه في الأزهر، وطالب العلم في الأزهرِ يَستكملُ علومَه في الزيتونةِ مباشرةً دون حاجة إلى أن يتدرَّجَ في مراحلِ الدراسةِ.

ثانيًا: التواصُل العلميُّ:

وقد تمثَّل هذا النوعُ منَ التواصلِ الثَّقافيِّ بين الزيتونةِ والأزهرِ في ارتحالِ أفرادٍ من الزيتونةِ إلى الأزهرِ، وانتقال رجالٍ من الأزهرِ إلى الزيتونةِ، في رحلات علميَّةٍ بين المعهدين استمرَّتْ أكثر من عشرة قرونٍ، وكان إذا أضربَ

---

(١) ومضات فكر، لمحمد الفاضل بن عاشور: ٣٩٩ - ٤٠١.

طلابُ الأزهر استجابَ لهم طلاب الزيتونةِ، وإذا أصاب الزيتونةَ ضرٌّ سهرت عين الأزهر قلقًا عليه، بل حدثَتْ بعد الحرب العالميَّةِ الثانية صورٌ من التلاقي لم تكن تُعرفُ من قبلُ، ويكفي أن نذكرَ أنَّ الأزهر احتضن إمامًا من الأئمة الأعلامِ وشيخًا من شيوخ الزيتونة العظام، هو الشيخُ محمد الخضر حسين؛ إذ استقرَّ بمصرَ وأحرزَ على شهادة العالميَّةِ وسُمِّيَ أستاذًا في قسم التخصص، وعُيِّنَ في هيئة كبار العلماء ثم سُمِّيَ شيخًا للأزهر سنة ١٣٧٤[١].

وقد ساهم الخضر حسين في الحركةِ الثقافية في مصرَ، وحرَّكَ مجلةَ الأزهر لتكونَ في عهدِ رئاستِه لها منبرًا يصعدُه كل عالمٍ له من خصوبةِ الفكرِ وثراءِ العطاء نَصيبٌ، وشارك في المعاركِ الثَّقافيةِ مثل معركةِ الشعر الجاهليِّ، والإسلامِ وأصولِ الحكمِ، وله فيهما كتبٌ وأبحاثٌ.

واللَّافت للنظر أن معاركَ التشريعِ والفكرِ والثقافة في مصرَ كان صدَاها يتردَّدُ على الفورِ في «الزيتونة»، وقد شاركَ شيخُ الزيتونةِ الطاهر بن عاشور في هذه المعاركِ كلِّها، شارك في معركةِ «الوقف» بكتابٍ، وشارك في معركةِ «الإسلام وأصول الحكم» بكتابٍ، وفي معارك «إصلاح مناهج التعليم» بكتبٍ ومؤلفاتٍ، إضافة إلى حضورِه المستمرِّ على صفحاتِ مجلة الهداية الإسلاميَّة، ومجلة المنارِ، ولعلَّ ذلك يفسِّرُ الحفاوةَ الشديدة التي قوبل بها الطاهرُ بن عاشور في القاهرةِ وهو في طريقِ العودةِ من رحلةِ الحجِّ، حيث أقامت جمعية الهدايةِ الإسلامية التي يرأسُها الشيخ محمد الخضر حسين حفلَ تكريم كان بمَن حضره وبما قيل فيه من كلماتٍ خيرَ تعبيرٍ عن الصلاتِ الَّتي تربطُ بين مصرَ وعلماء تونسَ عامة وبين الأزهرِ والزَّيتونةِ على وجهِ الخصوصِ.

* * *

(١) ومضات فكر، لمحمد الفاضل بن عاشور: ٤٢٩.

الأزهـر
جامعًا وجامعـة(*)

يُحدِّثنا التَّاريخ أنَّ الجامع الأزهر قد اكتمل بناؤه، واحتُفل بافتتاحه بأداء صلاة الجُمعة، في اليوم السابع من رمضان، سنة: ٣٦١هـ، ٩٧٢م، وأنَّ أوَّل درسٍ عُقِد في صَحن هذا المسجد كان في شهر صفر، من سنة: ٣٦٥هـ، ٩٧٥م.

ومن حُسن الحظِّ؛ أن حدَّد لنا التَّاريخ -وعلى وجه الدِّقَّة- أوَّلَ حلقة عِلمية عُقدت في الجامع الأزهر؛ حيث يَذكرُ المقريزي أنَّ أوَّل أستاذ جلس للتَّدريس في الأزهر هو: قاضي القضاة، أبو الحسن عليُّ بنُ النُّعمان القيرواني (ت. ٣٧١هـ)، وأوَّل كتابٍ درَّسه هذا الأستاذ هو كتابُ «الاختصار» في فقه الشِّيعة، أو فقه آل البيت في بعض التَّسميات، وهو من مؤلَّفات أبيه؛ أبي حنيفة النُّعمان المغربي (ت. ٣٦٠هـ)، صاحب الكتاب المشهور المُسَمَّى «دعائم الإسلام».

بل إنَّ المؤرخين لم يَنسوا أن يُثبتوا أسماء الحاضرين في هذا الدَّرس، وبذلك حفظوا لنا وصفًا دقيقًا نادرًا لأوَّل حلقة علميَّة من حلَقات الدروس في الأزهر؛ من حيثُ الأستاذ والطُّلاب والكتب[1]، والتي مضى عليها أكثر من ألف عام من عمر الزمان.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في «المؤتمر الثالث للمخطوط الإسلامي» المنعقد بجامعة كمبردج ٢٨-٣١ أغسطس ٢٠٠٧م، وهي تطرح تصورًا لمشروع مَركز المخطوطات الإسلاميَّة بجامعَة الأزهَر.

(١) «الخطط» للمقريزي: ٤/ ١٥٦، نقلًا عن: «تاريخ الجامع الأزهر» لمحمد عبد اللَّه عنان: ٤١. مصر، ط ٢، ١٩٥٨م.

وبعد أربع سنوات، جلس الوَزير: يعقوب بن كِلِّس، في رمضان، سنة: ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م ليُدرِّس كتابَه «الرسالة الوزيرية» في الفقه الشيعي على المذهب الإسماعيلي، وكان من بين التلاميذ الذين استَمعوا لهذا الوزير - فيما يذكر ابن خلكان- الفقهاءُ، والقُضاة، والأُدباء، وأكابر القصر والدولة.

ثمَّ توالى عَقدُ حلَقات القراءة والدَّرس في الجامع الأزهر؛ حيث عيَّن الخليفةُ العزيز باللَّه، سنة: ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م طوائفَ من الفُقهاء ليَعقدوا مجالسَهم العلمية بالأزهر في كل يوم جمعة، فيما بين صلاتَي الجمعة والعصر، وكان عددهم سبعة وثلاثين فقيهًا، وقد رتَّب لهم الخليفةُ رواتبَ وجرايات مُجزية، وأنشأ لهم دارًا للسَّكن بجوار الأزهر، كما أجرى عليهم الوَزيرُ ابن كلس أرزاقًا كثيرة من أمواله الخاصَّة.

وهنا نجد أنفسنا أمام حدَث جامعي حقيقي؛ فقد كان أولئك الفقهاء الذين رتَّبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر، وأقرَّهم العزيز باللَّه -أوَّلَ فوجٍ من الأساتذة الرَّسميِّين الذين عُيِّنوا بالجامع الأزهر، وأجرت عليهم الدَّولة أرزاقًا ثابتة، وباشروا مهمَّتهم العِلمية تحت إشراف الدَّولة بطريقة منظمة مستقرة؛ وبذلك يَكتسب الأزهر لأوَّل مرة صفتَه العِلمية الحقيقية كمعهدٍ للدِّراسة المنظمة، ويَبدأ حياتَه الجامعية الحافلة المديدة[١].

ومنذ يومئذ اتَّخذ الأزهرُ مكانتَه ككعبة للثقافة الدينية والدنيوية، وظلَّ يرفدُ هذه الثقافة بأهمِّ مكوِّناتها ومقوماتها؛ سواء في مصر، أو في العالَم الإسلامي.

ولم تكن حلَقات العلم في الأزهر آنذاك قاصرةً على الرِّجال؛ حيثُ وجدت حلَقات دراسيَّة خاصَّة بالنساء، سُمِّيَت في ذلك الوقت مجالس الحكمة.

---

(١) مصدر سابق: ٤٤.

وكان نظام التعليم في الأزهر حلَقات دراسية، يَتصدَّرُها أستاذ يَجلس فيها على كرسي، يَتحلَّقُ أمامَه الطُّلاب والمستمعون، يَقرؤون عليه الفنونَ المختلفة، ويَستمعون إلى شرحه، ثم يُناقشونه أو يَستوضحونه فيما قرؤوه وفيما التبس عليهم.

وقد تميَّز الأزهر بهذا النظام التَّدريسي منذ نشأته، واستمرَّ هكذا حتى سنة: **١٩١١**م؛ حيث صدرَ القانون الذي نظَّم الدراسة في الأزهر على أُسس جديدة، ونصَّ على إنشاء مجلس أعلى للأزهر، وهيئة لكبار العُلماء، وإنشاء معاهد دينية في بعض عواصم الأقاليم، وإضافة مواد جديدة للدِّراسة؛ مثل: التاريخ، والجغرافيا، والرياضة، ومبادئ الطَّبيعة، والكيمياء.

أمَّا إنشاء الجامعة بكلِّياتها الثَّلاث؛ الشريعة، وأصول الدِّين، واللُّغة العربية؛ فقد تَمَّ بموجب قانون صدر في نوفمبر، سنة: **١٩٣٠**م.

أيُّها السَّادة..

ربَّما كان من المهمِّ بيانُ أنَّ من أهمِّ المميزات التي انفردَ بها الأزهر قديمًا وحديثًا في نظام تدريس العلم جامعًا وجامعة أمرين:

الأوَّل:

أنَّه يَعكس الوجهَ الحقيقيَّ للإسلام، ويُعبِّر عن حقيقة التُّراث الإسلامي، وجوهره في بُعديه؛ العقلي، والنَّقلي، وهو بذلك يُمثِّل وسطيَّة الإسلام، التي هي أخصُّ خصائص هذا الدِّين القيِّم، كما يُمثِّل الاعتدال في فهم الكتاب والسُّنَّة وما نشأ حولَهما من إبداعات علمية وفكرية، ثم هو يُرسِّخ في ذهنيَّة الطالب الأزهري وشعوره منذ نعومة أظفاره في قاعات الدَّرس مبدأَ الحوار وشرعيَّة الاختلاف.

وقد تمثَّل كلُّ ذلك في النِّظام الذي يَفرض على الطَّالب الصَّغير المبتدئ أن يَختار منذ الطُّفولة الباكرة مذهبًا من بين المذاهب الفقهية المتعدِّدة،

وبحيث تُرسِّخُ المذاهب المختلفة في أذهان الطُّلاب شرعيَّةَ اختلاف الآراء والمذاهب، وصحَّتَها كلِّها، وأنَّه لا يوجد متحدِّثٌ رسمي واحد يَحتكر الحديث باسم الإسلام.

هذا المنهج المفتوح، نجح في أن يُجنِّب الطلاب الانغلاق أو التخندق في مذهب واحد بعينه، يراه صحيحًا ويرى غيره باطلًا.

وما يُقال عن المذاهب الفقهية يقالُ عن غيرها من المذاهب العَقديَّة المتعددة، وفي مقدمتها السُّنَّة والشيعة بفرقها المعتدلة، والأشاعرة والماتريدية والمعتزلة والسلف، أو لنقل: الذَّوقيُّون والنصِّيون والعقليون، فكل هؤلاء في المنهج التعليمي الأزهري معبِّرون عن الإسلام، وأصحابُ حقوق وإسهامات كبرى في صياغة التراث الإسلامي.

ولا يَقتصر المنهج الأزهري على ترسيخ مبدأ الحوار، وشرعية الاختلاف، والاعتراف بالآخر في دائرة المذاهب الفقهية والعقدية عند المسلمين؛ بل يَعملُ على ترسيخ المبدأ ذاته في عَلاقة الإسلام بالأديان الأخرى، وفي مقدِّمتها الأديانُ السَّماوية، وبطبيعة الحال لا يَتَّسعُ الوقت لعرض ما يَتميز به المنهج الأزهري في هذا المجال.

ويَكفي أن أُشير إلى التَّقارير الرَّسمية التي تَعجب من أنَّ قوائم قادة الجماعات المتطرفة لم يكن من بينها أزهري، أو متخرج في جامعة الأزهر، وإن كنت لا أرى سببًا لهذا العجب؛ لأنَّ منهج التعليم في الأزهر هو من وراء تكوين العقليَّة الأزهرية، تكوينًا قوامه الاعتدالُ والوسَطية، وحوارُ الآخر، لا نفيه أو استبعاده.

الأمرُ الثَّاني:

انفرادُ الأزهر بنشر العِلم والثَّقافة الإسلامية؛ حسبةً وخدمة للإسلام، ونشرًا للثقافة الإسلامية في ربوع الدنيا كلها.

كان ذلك في الزَّمن الماضي؛ حيثُ رُتِّبَت أرزاق شهريَّةٌ وجرايات يومية من جانب القائمين على الأزهر في مصر، وبقي ذلك حتى الآن.

ولحضراتكم أن تتصوَّروا حجم الخدمات التَّعليمية المجَّانية التي يُقدِّمها الأزهر لآلاف الطلاب والطالبات الوافدين والوافدات عليه من مختلف الدول الإسلامية، وذلك من خلال الإحصائية الآتية:

- يَدرُس في جامعة الأزهر ما يقرب من خمسة عشر ألف طالب وطالبة من المغتربين والوافدين، من أكثر من مائة دولة عربية وإسلامية، من مختلف دول العالم، عددُ الذين يَدرُسون منهم بمصروفات: **١٢٥٤** طالب فقط، والباقي يَدرُسون مجَّانًا وبدون مصروفات؛ لأنَّ نظام جامعة الأزهر -بالنِّسبة للوافدين- يَقضي بتحصيل رسومٍ دراسيَّة من الطلاب الوافدين الذين يَدرُسون في الكليات العملية؛ كالهندسة، والطب، وما إليهما، أما الذين يَلتحقون بالدِّراسات الإسلامية؛ سواء في مجال الشَّريعة، أو أصول الدِّين، أو اللُّغة، أو الآداب، أو التِّجارة، أو التَّربية؛ فإنَّهم يَدرُسون مجَّانًا؛ سواء في المرحلة الجامعيَّة الأولى، أو في مرحلة الدِّراسات العليا.

ويَستفيد من هذه المجَّانية ما يقربُ من: **١٤٠٠٠** طالبٍ، بما فيهم الوافدون من دول عربيَّة ثَرِيَّةٍ؛ كدول الخليج العربي، بل ومن دول متقدِّمة اقتصاديًّا بالقياس إلى مصر؛ مثل ماليزيا، وإندونيسيا، وسنغافورة، وتايلاند، فضلًا عن الوافدين من أوروبَّا وأستراليا والأمريكيتين.

- هذا بالإضافة إلى: **١٥٠٠** طالب وطالبة يَدرُسون مجَّانًا في مرحلَتي الإعدادي والثَّانوي.

- ويُوفِّر لهم الأزهرُ مدينةً خاصَّةً، تُسمَّى مدينة البعوث الإسلامية، تُقدِّمُ الإقامة، والغذاءَ، والأنشطة المختلفة مجَّانًا، ويُجري عليهم مِنَحًا مالية شهرية.

نعم؛ لقد انفرَد الأزهرُ بهذا المنهج التعليمي الحُرِّ والمُنفتح، وبهذا العطاء اللَّامحدود من أجل نشر العِلم ورعاية طُلَّابه، ولا تُعرف هذه الميزة لجامعةٍ غير الأزهر وجامعته، وإلَّا؛ فأين هذه الجامعةُ التي تستقبل هذا العدد من الطُلَّاب المغتربين، وتُنفقُ عليهم دونَ مقابل، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ محمد عبد اللَّه عنان، منذ أكثر من نصف قرن في كتابه «تاريخ الجامع الأزهر» الذي نشر عام: ١٩٤٢م.

مكتبةُ الأزهر:

وإذا كان عُمرُ مكتبة الأزهر كما قلنا هو عمرُ الجامع نفسِه؛ فإنَّ الحديث عنها؛ نشأةً، وتطوُّرًا عبرَ أكثر من ألف عام أمرٌ لا يُمكن أن تستوعبَه هذه الورقةُ، ومن ثَمَّ؛ فإنَّ الذي يَعنينا هنا هو أن نقول في خطوط عريضة:

إنَّ هذه المكتبة الحالية الموجودة الآن ليست هي المكتبةَ القديمة التي يَتحدَّثُ عنها المؤرِّخون، وإنَّ المكتبة القديمة أُنشِئَت بعد إنشاء الجامع الأزهر بعشرين عامًا، وعليه؛ فإنَّ تاريخ مكتبة الأزهر يَعودُ إلى عام: ٣٨١هـ، الموافق: ٩٩١ م[(١)].

وقد تناوَل المؤرِّخون تطوُّرَ هذه المكتبة عبرَ العصور استنادًا إلى الشَّذرات والمُقتطفات المُتناثرة التي تَرِد في بعض كتب الأخبار والأنباء والمواعظ والاعتبار؛ كالمقريزي، وابن الميسر، وابن خلكان، وابن إياس، وغيرهم.

وربَّما كان أقدم إشارة تتعلَّق بمكتبة الأزهر ما أورده ابن الميسر من أنَّ أمانة المكتبة كانت تُعدُّ من الوظائف الكبرى، وأنَّه في سنة: ٥١٧هـ/

(١) انظر «مكتبة الأزهر الشريف» لخالد النادي الحلواني: ٥، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة حلوان: ٢٠٠٣م.

١١٢٣م أُسندت وظيفةُ أمانة المكتبة إلى خطيب الجمعة في الجامع الأزهر، وأنَّ مكتبة القصر الفاطمي كانت تحتوي على أكثر من مائتي ألف مجلَّد، في سائر العلوم والفنون؛ في الفقه، والحديث، والتَّاريخ، والأدَب، وغيرها، نُقلَ نصفُها إلى الجامع الأزهر بأمر الحاكم باللَّه(١).

ويُؤخذ من هذه القبَسات التَّاريخية أمران:

أوَّلًا: أنَّ عُمْرَ مكتبة الأزهر هو: **١٠١٢** عامًا تقريبًا.

ثانيًا: أنَّ هذه المكتبة قد زُوِّدت بمائة ألف كتاب في القرن الرَّابع الهجري، العاشر الميلادي.

ولنا بعد ذلك أن نتصوَّر عظمةَ وخطر مكتبةٍ بهذا الحجم وهذا التاريخ.

وفيما يَتعلَّق بوضع المكتبة في العصر الحاضر؛ فإنَّ من المهم أن نُشير إلى أنَّ التَّاريخ الحديث لهذه المكتبة يَرتبطُ بدعوة الإمام محمَّد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) مفتي الدِّيار المصرية إلى إنشاء مكتبةٍ مركزيَّةٍ، تجمَع شتات الكُتب المُتناثرة في المساجد والأروقة والمدارس، والتي كانت تتبع مكتبة الأزهر..

وقد تقدَّم بهذا المشروع إلى الشَّيخ: حسُّونة النَّواوي، شيخ الأزهر (١٨٣٩-١٩٢٤م)، والذي أصدرَ قرارًا بإحصاء الكتُب وتَجميعها وحِفظها في مبنًى يُخصَّصُ لهذا الغرض، وتمَّ تنفيذُ الفكرة في أوَّل محرَّم، من سنة: ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م، ونُقلت الكتُبُ والمخطوطات إلى الأماكن التي خُصِّصت لها.

ولم تقتصر دعوةُ الإمام محمَّد عبده على تجميع الكتُب في الأماكن المخصَّصة، بل دعا إلى المُشارَكة في تزويدِها بالتَّبرُّع بالمكتبات المتوارَثة

(١) حسن عبد الوهاب، «تاريخ المساجد الأثرية»: ٦٢، الدار العربية، القاهرة: ١٩٩٣م.

إلى مكتبة الأزهر، وكان أوَّلَ المستجيبين لهذه الدَّعوة شيخُ الأزهر الشيخ حسونة النواوي، الذي تبرَّع بمكتبته للأزهر، وأيضًا ورثةَ المرحوم سليمان باشا أباظة، الذين أهدوا مكتبةَ والدهم إلى مكتبة الأزهر.

أما المبنى الجديد للمكتبة؛ فإنَّ قرار إنشائه يَعودُ إلى الشَّيخ محمَّد مصطفى المراغي (١٨٨١-١٩٤٥م) الذي تولَّى مشيخة الأزهر عام: ١٩٢٨م، لكنَّه لم يُنفَّذ في ذلك الوقت، وظلَّ يَتعثَّر حتى عَهْدِ الإمام الأكبر الدُّكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر (١٩١٠-١٩٧٨م)، الذي أحيا قرارَ المشروع من جديد، ودفع به إلى مرحلة الاتِّفاق على إنشاء المبنى، غيرَ أنَّ تَنفيذ المبنى لم يَتم إلَّا في عهد الشَّيخ جاد الحق (١٩١٧-١٩٩٦م)، الذي تولَّى مشيخةَ الأزهر في: ١٧/ ٣/ ١٩٨٢م؛ حيث وُضِع المشروعُ موضع التَّنفيذ الفعلي، وأُنشئ المبنى الحاليُّ، والمكوَّن من أربعة عشر طابقًا في حديقة الخالدين بالدَّرَّاسة بالقاهرة.

وعندما تولَّى الأستاذ الإمام الدكتور محمد سيِّد طنطاوي مشيخةَ الأزهر تابعَ تحديثَ المكتبة بالتَّنسيق مع مركز المعلومات ودعم اتِّخاذ القرار بمجلس الوزراء؛ وذلك بإنشاء قواعد بيانات ببليوجرافية لجميع مُقتَنيات المكتبة، تُيسِّرُ استدعاءَ المعلومات المطلوبة، باستخدام أحدث نُظُم التَّصنيف العالَمية، والفهرسة، واستخدام برنامج المكتبات الآلية، لكنَّ هذا التحديث ما زال في مراحِله الأولى، الأمرُ الذي يَجعلُ اكتشاف المخطوطات في هذه المكتبة والتَّعرف عليها أمرًا صعبًا، وذلك للأسباب الفنية التالية:

١-أنَّ الفهارس المنشورة للمكتبة في تسع مجلَّدات لا تتضمَّنُ: ١٥٠٠٠ مجلدٍ من المخطوطات، وكثيرًا منها ما يدخلُ ضمنَ المخطوطات النَّادرة.

٢-أنَّ المكتبات الخاصَّة بأروقة المغاربة والشَّوام والأتراك، والتي

تحتوي على آلاف المخطوطات، كانت تحت إدارة مشايخ هذه الأروقة، ولم يُنقل الإشرافُ عليها لإدارة المكتبة الأزهرية العامَّة إلا بعد صدور فهارس المكتبة، وآخر هذه الفهارس طُبع سنةَ: ١٩٧٨م؛ وعليه فلم تَدخل مُحتوَيات تلك المكتبات في هذه الفهارس، ويَبلُغ العدد التَّقريبي لتلك المخطوطات: خمسة عشر ألف مخطوط، في مُختلَف فروع العلوم الإسلاميَّة.

٣-أنَّ هناك آلافًا من المخطوطات كانت موزَّعة في مكتبات المعاهد الأزهريَّة خارج القاهرة، وتَمَّ تَجميعُها في المكتبة الأزهريَّة منذُ أربع سنوات، لكنَّها لم تُفهرَس فهرسةً آليَّةً في الحاسب، ولا حتى فهرسة ورقيَّة فنِّية.

أيُّها السَّادة..

أظنُّكم تتَّفقون معي في أنَّ جامعة الأزهر يَجبُ أن تكون في مصافِّ المؤسَّسات الكُبرى التي تُعنى بالمخطوط؛ بحثًا، وحفظًا، وتحقيقًا، ونشرًا، ومن هذا المُنطلَق؛ نبعثُ فكرةَ إنشاء مركز يَتبعُ جامعة الأزهر يُعنى بهذه المهمَّة.

وحتى لا نُطيل على حضراتكم؛ نُجمل فيما يلي أهمَّ أهداف المركز، والرُّؤية المستقبليَّة التي نتوقَّعُها له إن شاء اللَّه:

أ -الأهدافُ:

- فهرسةُ المخطوطات التي لم تُفهرَس في مكتبة الأزهر الشَّريف، والتي تَبلغُ أعدادُها خمسة عشر ألف مخطوط تقريبًا.

- جمعُ ما يُمكن جمعُه من المخطوطات، والمصوَّرات الإلكترونيَّة، من المؤسَّسات المَعنيَّة بهذا التُّراث؛ سواء في داخل مصر أو خارجها.

- العملُ على إعادة نشر وتحقيق ما يُمكن نشرُه من هذا التَّراث، بهدَف شيوع هذه الثَّقافة العلميَّة المتخصِّصة، التي أوشكت على الضَّياع، وخصوصًا وأنَّ الجامعات في العالم الإسلامي لم تَعُد تُعنى كثيرًا بهذا المجال.

- تقديمُ خدمةٍ للعُلماء وشباب الباحثين، وإمدادُهم بالمعلومات الكافية عن المخطوطات الإسلامية، وتَسهيلُ مهمَّة الاطِّلاع والتَّصوير.

- إعدادُ دورات تدريبيَّة علمية للباحثين، من داخل مصر أو من خارجها، يقومُ عليها علماء متخصِّصون؛ سواء في مجال التَّحقيق والبحث، أو التَّرميم، وكذا تكنولوجيا المعلومات، وكل ما يُؤدِّي إلى النهوض بالمخطوطات وحفظها وإتاحتها.

- إقامةُ مؤتمرات وندوات علميَّة يُشارك فيها خبراء وعلماء المخطوطات من كل أنحاء العالم.

- إنشاءُ قاعدةٍ تَستهدف جَمْعَ البيانات عن كلِّ ما يَتعلَّقُ بالمخطوطات الإسلامية، لتَيسير مهمَّة الباحثين والخبراء في هذا المجال.

- عملُ موقعٍ إلكتروني للمركز، بالتَّنسيق مع أهمِّ المراكز المَعنيَّة بالمخطوطات في العالَم، وتزويد الموقع بشكلٍ مُنتظم بكلِّ المعلومات؛ سواءٌ من داخل مصر أو من خارجها.

- عملُ مركز ترميم متخصِّص لحماية المخطوطات، وإعداد شباب من المُرمِّمين بهدف تقديم الخبرة في هذا المجال للجهات المالكة للمخطوطات.

- مجلَّة عِلميَّة سَنوية أو نصف سنوية تُعنى بإبراز نشاط المركز.

ولما كان هذا المركز في حاجة إلى دعم مادِّي، وعلميٍّ، وفنِّي؛ فإنَّ الجامعة من جانبها سوف تَعملُ على توفير كلِّ المقوِّمات الأساسيَّة لإنجاح

هذه التَّجربة؛ سواء بإعداد مكان مناسبٍ داخل الجامعة، أو الكوادر الإدارية. .

إلَّا أنَّ هذا المشروع في حاجة إلى دعم من كلِّ المؤسَّسات والأفراد الغَيورين على هذا التراث؛ سواء الدعم المادِّي، أو المعدات، أو الأجهزة -أجهزة ترميم، وحاسبات، وأجهزة تصوير رقمي. . . الخ-.

وسوف يكون للمركز حسابٌ خاصٌّ في أحد البنوك المصرية، يُعلَن عنه عند الانتهاء من الإجراءات القانونيَّة، على أن تُنشئ الجامعةُ موقعًا إلكترونيًّا تُنشر من خلاله كلُّ المراحل والأعمال اللَّازمة لإنشاء المركز.

ب - الرُّؤيةُ المُستقبليَّة:

- إنشاءُ معهدٍ متخصِّص في علوم المخطوطات؛ دراسة، ونشرًا، وتحقيقًا، وترميمًا. . . إلخ.

والدِّراسة في هذا المعهد سوف تكون بمثابة دراسةٍ حرَّة لمدَّة عامين، يَحصل بعدها الدَّارس على شهادة في علوم المخطوطات.

ويُمكن التَّنسيق مع الجامعات الإسلامية والعربية ومراكز المخطوطات، لكي يكون هذا المعهدُ بمثابة بيتِ خبرة علميَّة لخدمة التُّراث الإسلامي.

- يمكن من خلال التَّعامل من كل الجهات الإقليمية والدولية المَعنية بالمخطوط الإسلامي عملُ قاعدةِ بيانات يمكن تزويدُها بواسطة مراكز المخطوطات الموزَّعة في أنحاء العالَم، ونشر كلِّ المعلومات على موقع المركز على الإنترنت.

- نشرُ المخطوطات من خلال تصويرِها رقميًّا، وَفق أهميَّتها على شكل أسطوانات مُدمَجة، وكذا نشرُها على موقع المراكز على الإنترنت، لكي تكون مُتاحة للباحثين.

ويُمكن لمَن يَرغب في تحقيق عملٍ ما أن يقوم بتصوير المخطوط، ودراسته، وَفق قواعد بسيطة، وبسعر مناسب لإمكانات الباحثين.

- التَّنسيق الأكاديمي المتبادَل بين الجامعة والمركز في إدخال تحقيق المخطوطات ضمنَ خُطَّة الدِّراسات العليا -الماجستير والدُّكتوراه- بكلِّيات: أصول الدِّين، اللُّغة العربية، الشَّريعة والقانون، الدِّراسات الإسلامية والعربية، الدَّعوة الإسلامية.

شكــرًا لحسن استماعكم

والسلام عليكم ورحمة اللَّه

❊ ❊ ❊

الأزهر والغرب
ضوابط الحوار وحدوده(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد رسول اللَّه، صلَّى اللَّهُ وسلَّم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه.

الحفل الكريم..

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

أيها السَّادة العلماء، أهلًا ومرحبًا بكم في مصر، وفي مؤسَّسة الأزهر الشَّريف، واسمَحوا لي أن أُلقي في كلمتي هذه بعض الضَّوء على هذه المؤسَّسة التي تَستضيفكم في القاهرة؛ لتَستمع إلى آرائكم، وتُفيد من تجاربكم في موضوع: «الحوار بين الأديان والحضارات والثقافات».

إنَّ عمرَ هذه المؤسَّسة يَزيد على ألف عام، وعلى وجه التَّحديد؛ فإنَّ الأزهر الشريف يَدخلُ الآن عامَه الثَّامن والثَّلاثين بعد الألف، ولا يَعرف التَّاريخ مؤسَّسة علميَّة أخرى صمدَت في وجه الزَّمن وشاركت الأزهر في هذا التَّفرد المُعجِز، ولم تقدِّم الحضاراتُ الأخرى -فيما نعلم- معهدًا علميًّا، تواصل عطاؤه العِلمي وتوهُّجه الرُّوحي أكثرَ من ألف عام.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الملتقى العالمي الرابع لخريجي الأزهر، بعنوان: «**الأزهر.. ضوابط الحوار وحدوده**»، المنعقد بفندق جراند حياة بالقاهرة، في الفترة: ٥-٧ رجب: ١٤٣٠هـ، الموافق: ٢٨-٣٠/٦/ ٢٠٠٩م.

ولقد عَرف التَّاريخ قبلَ الأزهر وبعده مؤسَّسات ثقافية، وجامعات علميَّة كبرى في العصور القديمة والعصور الوسطى، غير أنَّ هذه المؤسَّسات قد بادَت وأصبحَت أثرًا بعد عين، بينما بقي الأزهرُ الشَّريف بمآذنه وأروِقته عامرًا بالعلوم والمعارف، منذُ نشأته وحتى يوم النَّاس هذا.

وحتى المساجد الكبرى التي عرَفتها القاهرةُ قبل الأزهر؛ مثل: جامع عمرو بن العاص، وجامع أحمد بن طُولون؛ لم يُقدَّر لأيٍّ منها أن يواصل عطاءه العلمي بعد بناء الأزهر، فسُرعان ما انتقلَت الحركةُ العلميَّة والتَّعليمية من هذه المساجد إلى صَحن الأزهر وأروِقته.

ورغمَ أنَّ الأزهر كان مُخططًا له أن يكون مركزًا عِلميًّا لنشر الدَّعوة الفاطميَّة وعقائد المذهب الشِّيعي الإسماعيلي، الَّذي كان يُمثِّل المذهب الرَّسمي للدَّولة الفاطمية آنذاك، إلَّا أنَّ اللَّه أراد للأزهر أن يكون منارةً تَشعُّ منها علوم المسلمين من أهل السُّنة بمختَلف مذاهبهم الفقهيَّة، وتوجُّهاتهم العقلية، ومشاربهم وأذواقهم الرُّوحية، وما لَبث الأزهرُ أن أصبح هو المرجعيَّة الكبرى في العالَم، المُعبِّرة عن وسطيَّة الإسلام، والحارسة لتعدُّدية الآراء والأنظار في مذاهبهم؛ الفقهيَّة، والفلسفيةِ، والعَقديَّة، واللُّغوية، والأدبيَّة، جنبًا إلى جنب مع العُلوم الفلَكيَّة، والرِّياضية، والطِّبية.

ورغمَ أنَّ الأزهر تعرَّض عبرَ تاريخِه السِّياسي لإغلاق أروقته، وتعطيلِه من صلاة الجُمُعة؛ إلَّا أنَّه سرعان ما كان يَستردُّ مكانتَه، ويَستعيد رِيادته العِلمية والدِّينية.

أيُّها السَّادة..

يَدرس في جامعة الأزهر اليومَ أكثرُ من ٤٠٠٠٠٠ طالب وطالبة، في اثنتين وستِّين كلِّية[١]، موزَّعة في رُبوع مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى

---

(١) كان ذلك عام ٢٠٠٩م واليوم (٤٠٨٩٩٣).

الشَّمال، تُدرَّس فيها كلُّ التَّخصصات الدَّقيقة في كلِّ فروع العلوم الدِّينية والتَّطبيقية.

ويَدرس في المرحلة الجامعيَّة وما قبلها: ستَّةٌ وسبعون وثمانمائة وثمانيةٌ وعشرون ألفَ طالب وطالبة (٢٨٨٧٦)، وافدون من خارج مصر، من مائة وخمس دُوَل، من كل قارَّات العالَم، منهم ستَّة آلاف طالب وطالبة يَدرُسون على نفقة الأزهر الشَّريف، ويَستضيفهم في مُدن سكَنيَّة كاملة، يُسمَّى كلٌّ منها: مدينة البُعوث الإسلاميَّة، منها مدينتان بالقاهرة؛ إحداهما للطُّلاب، والأخرى للطَّالبات، ومدينة للطُّلاب بالإسكندرية...

ولعلَّكم تتَّفقون معي في أنه لا تُوجد مؤسَّسة أخرى توافرَ لها هذا التَّنوع المُدهِش من جنسيَّات الطُّلاب، وأُلقي على عاتِقها عبءُ الوَسطيَّة، وثقافة الاعتِدال، واحترام الآخر المختلِف جنسًا وعقيدة ولونًا -مثلَما أُلقيَ على عاتق الأزهر الشَّريف جامعًا وجامعة.

وإذا كانت جامعات الدُّنيا قد انحصرَ دورُها، أو كاد في مهمَّة العِلم والتَّعليم؛ فإنَّ جامعة الأزهر لا تزالُ جامعةً مزدوَجةَ الهدفِ؛ فهي جامعةٌ لنشر العِلم بكلِّ تخصُّصاته، وهي جامعةٌ لنشر القِيَم الأخلاقيَّة والإنسانيَّة المرتكِزة على تعاليم الأديان السَّماوية جنبًا إلى جنب.

والتَّعليم الأزهريُّ الَّذي يُقدِّمه الأزهر لطُلَّابه؛ يَتمثَّل في تأهيلِهم لفَهم الإسلام فهمًا صحيحًا؛ عقيدة، وشريعة، وسُلوكًا، فَهْمًا يَقوم على تأصيل قاعدة التَّعدُّدية وقَبول الرَّأي الآخر، والانفِتاح على التَّنوُّعات التُّراثية التي تَضمن للعقل الأزهريِّ أن يكون عقلًا حِواريًّا، يَنفر من الانكفاء على مذهبٍ واحد، يُؤمن به ويَعمى بتعصبه له عن المذاهب الأخرى التي صاغَت العقل الإسلاميَّ عبرَ تاريخِه الطَّويل، وأَهَّلَت المسلمين لصُنعِ حضارة عالَمية

كبرى، لا زالَت حتى هذه اللَّحظة موضعَ دهشة كثيرٍ من علماء الحضارة والتَّاريخ في الشَّرق والغرب .

وهذه التَّعدُّدية التي تُشكِّل لُبَّ المنهج الأزهري في التَّعليم ؛ إنَّما تعود إلى الحقيقة الكَونيَّة والإنسانيَّة التي يُؤكِّدُها القرآن الكريم ؛ وهي أنَّ اللَّه تعالى لو أرادَ أن يَخلق النَّاس على عقيدةٍ واحدة، ولُغة واحدة، ولَون واحد، وثقافة واحدة -لفَعل، لكن لم يُرِد ذلك، وشاءَت إرادتُه أن يَخلق النَّاس مُختلفين في كلِّ ذلك، بل شاءَت إرادتُه أن يَستمرَّ قانون الاختلاف بين البشر ؛ لغة، وعقيدة، ولونًا، وثقافة، إلى آخر لحظة في عمر هذا الكون: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [سورة هود: الآية ١١٨].

وهذه الحقيقة ترتَّبت عليها ترتُّبًا منطقيًّا حقيقةٌ أخرى ؛ هي: أنَّه إذا ما أُريد للنَّاس أن يَعيشوا في سلام، حيثُما كانوا وكيفما كانت عقائدُهم وثقافتهم - فإنَّ العلاقة بينهم يَجب ألَّا تتعدى علاقة التَّعاون والاحترام المتبادل، وهي العلاقة التي عبَّر عنها القرآنُ الكريم بالتَّعارف في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣]. .

ففي هذا النَّص الإلهيِّ تأصيلٌ لوَحدة الأصل الإنساني، وتأكيدٌ على ضرورة التَّآخي بين أبناء الأب الواحد والأمِّ الواحدة، ومن هنا يَستبعد الإسلام كلِّيًّا فلسفةَ الصِّراع في علاقات الأُمم والشُّعوب، وما يَتبع هذه الفلسفة من سياسات الغلَبة والتَّسلُّط والاستقواء على الضعفاء، بل يُنكر أشدَّ الإنكار ما تَجنح إليه بعضُ الحضارات قديمًا أو حديثًا من مُحاولات صَبِّ النَّاس في حضارة واحدة، أو ثقافة بعينها، أو حملِهم على اعتناق دينٍ معيَّن يَحتكر الحقيقة ويَحمل عليها النَّاس ترغيبًا وترهيبًا .

إنَّ مثل هذه المُحاولات ليست في منظور الإسلام إلَّا ضربًا من العبَث والوَهم، وإهدار الوقت والطَّاقة والمال؛ بحثًا عن سراب خادع، بل هي في حقيقة الأمر عبَثٌ يَتناقض جذريًّا مع مشيئة اللَّه وإرادته وجرَيان العادة في كَونه وخلقه..

من هنا؛ ينفرُ الأزهر أشدَّ النُّفور من كلِّ النَّظريات التَّسلُّطيَّة، ومن كلِّ ما يَخدم هذه النَّظريات من مراكز القوَّة، ومؤسَّسات الأموال، ومصانع السِّلاح، وبُنوك الأفكار والمعلومات؛ في الوقت الَّذي يَنحاز فيه بقوَّة إلى كلِّ فلسفة تُؤمن بالحوار وبالاحترام المتبادَل بين المؤمنين بالأديان والعقائد المختلفة في تسامح ورحابة أفُق وسعة فكر.

أيُّها السَّادة..

لقد كُتب علينا نحن المسلمين في الآونة الأخيرة أن نُوضَع جميعًا - بإسلامنا ونَبيِّنا الكريم عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام- في قفَص الاتِّهام، من قِبَل مؤسَّسات غربيَّة سياسيَّة ودينيَّة، تتهم الإسلامَ زورًا وبُهتانًا أو جهلًا بتهمة العُنف والتَّطرف والسَّيف والحرب، وهي تُهَمةٌ قديمةٌ باليَة، كنَّا نظنُّ أنَّ العقل الغربيَّ المعاصر قد تَخطَّاها وضرَب عنها صَفحًا، بعد ما توفَّرت لديه الحقائقُ والوَثائق العِلمية والتَّاريخية التي تزيف هذه الادعاءات وتدحضها من الأساس.

ولقد بُذلَت جهودٌ ومحاولات من أجل توضيح الحقيقة على الجانبين؛ الغربي والإسلامي، لكنَّها لم تُؤتِ ثمارَها المرجوَّة؛ بسبب عقباتٍ كثيرةٍ؛ أهمُّها: عَقَبة التَّعميم المَعيب من بعض الغربيِّين الذين يُعمِّمون أحكامَهم المُسيئة على الإسلام والمسلمين، انطلاقًا من تصرُّفات فئةٍ شاردةٍ، انحرَفت بفَهْم الإسلام؛ إمَّا إلى حَرْفيَّة شديدة الانغلاق والتَّزمُّت، وإمَّا إلى عُنف مُسلَّح، اتَّخذَته أُسلوبًا في التَّعبير ومنهجًا في الحوار.

وفي المُقابل؛ فإنَّ بعض المسلمين في الشَّرق لم يَتخلَّصوا من هذا العيب حين وَضعوا الغرب كلَّه في سلَّة واحدة، ونظروا إليه على أنَّه شَرٌّ مُستَطير وعدوٌّ متربِّص بالإسلام والمسلمين، يجبُ تَحيُّن الفُرَص لمواجهته وتحطيم آثاره قدرَ المُستطاع.

هذا بالإضافة إلى عقَبة أخرى، نتَفهَّمُها نحن المسلمين؛ وهي: أنَّ بعضَ الغربيِّين يَتوجَّسُ خيفةً من تكاثُر الجاليات الإسلاميَّة، والخشية من غلبةِ أنماطها الثَّقافية والحضارية على الشَّارع الغربي.

وأرى أنَّه من المُستطاع أن نتغلَّب على هذه العَقبة إذا ما اقتنع العُقلاء في الغرب والشَّرق بأنَّ الإسلام بطبيعتِه دينٌ له تجارِبُ تاريخيَّةٌ مشهودة في تجاورِ الحضارات، وتعدُّد الأديان والتَّشريعات والطُّقوس والأنظمة الاجتماعيَّة تحت سَماء الدَّولة الواحدة، دون إقصاءٍ لهذه الحضارات، أو إزاحتِها، أو حتى مزاحمَتِها.

إنَّ مشروعية زواجِ المُسلم بكتابيَّة؛ يهوديَّة، أو مسيحيَّة، تَبقى على دينها -في شريعة الإسلام- ليست إلَّا نموذجًا مُضيئًا لامتزاج الأديان السَّماوية وتَعايُشها في مودَّة ورحمة تحت سقفٍ واحد.

والإسلامُ في الأندلس يَكفيني مؤنةَ إثبات هذه الحقيقة، فلم يَحدُث أن طاردَ حضارة اليهود أو المسيحيين، أو تعامَل مع أيٍّ منهما بروح العَداء.

وعلى الجانب المقابل لا نكف عن تذكير المسلمين الذين يَعيشون في الغرب بأن يَعلموا أنَّهم ضيوفٌ في حضارات لها ثقافاتُها وفلسفاتُها الاجتماعيَّة والاقتصادية، وعليهم أن يحترموها ويسلموا بها لأهلها، حتى وإن لم يَلتزموا بها في سلوكهم الشَّخصي أو الجَماعي.

لكلِّ هذه الأسباب التي ذكرتُ طرَفًا منها؛ أصبحنا جميعًا في أشدِّ

الحاجة إلى حوارٍ مُباشر بين الطَّرفين، يَضع النِّقاط على الحروف، ويوفِّر الفرصة لرؤيةٍ مشترَكة تكونُ بمثابة إعلان عن بَدء مرحلة جديدة لحوارٍ موضوعيٍّ عقلاني بين الأزهر -كمرجعيَّة كبرى للعالَم- وبين هذه النُّخبة المُتميِّزة من المفكِّرين وعُلماء الأديان من الغربيِّين..

حوارٌ يَتوخى منه الجميعُ التَّأكيدَ على القواسم الإنسانيَّة والحضارية المشترَكة بين الشَّرق والغرب، وبما يُحقِّق اعتمادَ ملامح لغة جديدةٍ في الحوار، يُقدِّرها الأزهر ويَحترمُها الغرب.

وهذا هو ما تَهدفُ إليه الرَّابطة العالَمية لخرِّيجي الأزهر الشَّريف، وهي تَستعدُّ لبَثِّ خطابها العالَمي عبرَ موقعها على شبكة المعلومات الدَّولية، التي نتوقَّع بمشيئة اللَّه تعالى أن يَنضمَّ تحتَ لوائها: **٣٦٤٣١** خرِّيجًا من جامعة الأزهر، يَنتشرون في مشارق الأرض ومغاربِها.

أستسمحُ فضيلةَ الإمام الأكبر شيخ الأزهر، ومعالي أ. د/ محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف؛ بأن أُرحِّب باسمِهما واسم الرَّابطة بالسَّادة الضُّيوف؛ العلماء والمفكِّرين ورجال الدِّين، الذين استجابوا لدعوة الرَّابطة، وتَجشَّموا عناءَ السَّفر من مُختلف أرجاء العالَم، يَحدوهم هذا المقصِد النَّبيل، والنِّية الصَّادقة، من أجلِ مستقبل أفضل لبَنى الإنسان.

كما أُرحِّبُ بضيوف الملتقى؛ من داخل مصرَ وخارجها، الذين تفضَّلوا بدَعم الرَّابطة بتشريفِهم ومُشارَكتهم، راجيًا للجميع التَّوفيق والسَّداد.

شكرًا مرَّة أخرى، والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

رسالة إلى علماء الأزهر في الخارج
آداب ووصايا(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، وعلى آله وأصحابه ومَن اهتدى بهُداه..

السَّادةُ العلماء الأفاضل..

السَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

يُسعدني أن أحضرَ هذا الاجتماعَ الهامَّ، وأُشارك في اللِّقاء الذي يَسبق سفرَكم -بسلامةِ اللَّه ورعايته وحفظه- إلى أرجاء الدُّنيا، في الشَّرق والغرب، كعلماء ومُوفَدين من الأزهر الشَّريف، لتحقيق أَسمى مهمة وأشرفها، ألَا وهي مهمَّة تعليم المسلمين، وحمل رسالة الإسلام الصَّحيحة إليهم، وإنَّها لأمانةٌ عُظمى لمن يَتفكَّر فيها، بل وإنَّها لمهمَّة ثقيلة، تتطلَّب توكُّلًا على اللَّه، وثقةً به، واعتدادًا بالرِّسالة التي انتُدبتم لأدائها، وهي رسالةٌ سيُحاسبنا اللَّه جميعًا يوم القيامة على كلِّ لحظةٍ فيها: ماذا صنعنا؟ وماذا قدَّمنا؟ وهل كانت رحلتنا للَّه ورسولِه، أو لدنيا فانية نركضُ وراءَها، ولا يُصيبنا منها إلَّا ما كتبَه اللَّه لنا؟

هذا، وإذا كانت لي كلمة في توديعكم -أيها الأبناء الأعزاء!- فإني

(*) كلمة ألقيت أثناء اجتماع فضيلة الإمام الأكبر ببعثة الأزهر بالخارج، في شوال، سنة: ١٤٣١هـ، الموافق: سبتمبر: ٢٠١٠م.

أُوجزها فيما يلي:

أولًا:

هو أن يَعلم كل منكم أنَّه رجلٌ موفَد في رسالةٍ سامية؛ هي تعليمُ الإسلام، وتعليمُ اللُّغة العربيَّة للمسلمين المحتاجين، وهذا يَقتضي - أن تكونوا على مستوى هذه الرِّسالة؛ من حيثُ العلمُ، والالتزام الخُلُقي، واستشعارُ المسؤوليَّة في كلِّ حركاتكم وسكناتكم.

وكلَّما كنت -أيها الأزهري الملتزم!- خلوقًا تنأى بنفسك عن الدَّنايا ومواطن الشُّبهات والنَّظر إلى ما في أيدي الناس -رزقَك اللَّهُ قبولًا في عيون النَّاس وقلوبهم وعقولهم، لا يُقدَّر بثمن، حتى لو كان المقابلُ هو ثرواتِ الأرض كلِّها.

ثانيًا:

إنَّك ستجدُ إلى جوارك مبشِّرين من أديان ومللٍ أخرى، جاؤوا من بلاد غنيَّة وثَريَّة، ومع ذلك رَضوا بمستوى من المعيشةِ يَصعبُ تحمُّله وفاءً لرسالة التبشير التي يؤمنون بها واغتربوا من أجلها.

وسوف تتأكَّدون أنَّكم إذا قستُم أوضاعكم على أوضاعهم فسوف تعلمون أنَّكم مُترفون، بالقياس إليهم؛ إنَّهم يَصبرون ويَتحمَّلون، ويتدربون على الاكتفاء بالقليل؛ لأنَّ همَّهم الأوَّلَ والأخير هو كيف تُؤثِّر دعوتُهم، وتجتذب إليهم الشَّباب والنَّاس.

وأنا أدعوكم إلى التَّفكير بجِدِّيَّة في هذه المقارنة بين مبعوث الأزهر الشَّريف لتعليم أبناء المسلمين في أفريقيا وآسيا وأوروبا، وبين المبشِّر القادم من الغرب.

ثالثًا:

لعلَّكم لمستُم بأنفسكم كيف عالَجنا كثيرًا من السَّلبيات التي تراكَمت في

قضيَّة إيفاد عُلماء الأزهر، وأنا مُصِرٌّ على هذه التَّسمية، وليس تسمية إعارة مدرسين.

وقد وُفِّقنا -بفضل اللَّه تعالى وبفضل مساعدة زملائنا الأفاضل في المشيخةِ وفي الجامعة، ورغم ضيق الوقت -إلى معالجة موضوعِ مُرتَّب البعثة في الخارج، وفي النِّيَّة البحثُ بجدِّيَّة في زيادة هذه المرتَّبات مرَّة أخرى، وأرجو أن نُوفَّق في ذلك.

ولمستُم أنَّ فُرَص الابتعاث أصبحت مكفولةً لكلِّ مؤهَّلٍ لاجتياز الاختبارات العِلميَّة والشَّخصيَّة، وسوفَ تظلُّ هذه الاختبارات المعيارَ الأوَّل في اختيار المبعوث والمفاضلة بين مبعوث وآخر.

أمَّا معيارُ الاستمرار في الإعارة وإكمالها؛ فهو التَّقارير التي تَرِد من سفارتنا بالخارج عن المبعوث: عن أدائه العِلمي، وعن التزامِه بمنهج الأزهر وثقافته، وعن سلوكِه مع النَّاس ومع التَّلاميذ وأولياء الأمور، بل عن مظهره وملبسه ونظافته. . .

وأصارحكم القولَ بأنِّي لن أتردَّد لحظةً في إنهاء بعثة كلِّ مَن يَخرجُ عن هذا الخطِّ، وبخاصة من يَدعو لأيِّ فكرٍ أو مذهب أو دعوة يُنكرِها الأزهر أو يُحاربها.

وهنا أنبِّه مشدِّدًا أنَّنا جادُّون في متابعة هذا الأمر، والتَّعرُّفِ على توجُّهات المبعوث، أوَّلًا بأوَّل.

وهذا يَتطلَّب أن تأخذ معك بعضًا من المراجع العلميَّة الأزهرية في تخصُّصك لتُحضِّر منها دروسك.

ويَتطلَّب منك أن تتحدَّث هناك باللُّغة العربيَّة الفصحى، واللُّغة العربيَّة السَّهلة، لا تطلُب منك أن تكون بليغًا، أو كاتبًا، أو مترسِّلًا، أو شاعرًا؛ فنحن ندرسُ واقعَ الحال، ولكن نطلب منك التَّعوُّد على أن يكون كلامُك عربيًّا سهلًا مضبوطًا بقواعد اللُّغة العربيَّة.

وإنَّني لأشعرُ بالأسى الكبير حين أسمعُ طالبًا من غربِ أفريقيا أو وسطِها أو جنوبها يَتحدَّث اللُّغةَ بأفضل ممَّا يَتحدَّثها كثيرٌ من الطلاب، بل المدرِّسين والأساتذة هنا في الأزهر.

واحذر أن تستثقل هذا الأمرَ؛ فالعلمُ بالتَّعلُّم، ووجودُك مع غير العرب فرصةٌ لأن تبدأ في تمرين لسانك على الأسلوب العربيِّ السَّهل الصَّحيح.

وإذا شئتم نصيحتي في هذا الأمر؛ فإنَّني أنصحُ باصطِحاب بعض مؤلَّفات طه حسين الإسلاميَّة، والقراءة منها يوميًّا بصوتٍ مسموع بينك وبين نفسك، كما أنصحُ بشدَّة أن تأخُذَ معك مؤلَّفات شيخنا الجليل، الشَّيخ: محمد الغزالي، وتعكف على فهمِها وقراءتِها.

وبالمناسبة؛ أنصحُ مَن يذهب منكم إلى البلادِ التي تتحدَّث الفرنسيَّة أو الإنجليزية أن يَغتنم هذه الفرصةَ، ويَتعلَّم لغةَ البلد الذي يَعيشُ فيه.

لا تقتلوا أوقات الفراغ وأمسيَّاتكم في حساب المرتَّب، وكم تَصرِف، وكم تُوفِّر، وكم يُساوي الدولار، وما هي الحَصيلةُ المتوقَّعة في نهاية العام؛ فكلُّ هذه أمورٌ قسِّمت من قبل أن تولدوا، ومن العبَث ضياعُ الوقت فيها.

اقضِ وقتَ الفراغ باللَّيل في القراءة والبحثِ، وإعداد الدَّرس جَيِّدًا، لا تتقوقعوا في مساكنكم وتكتفوا بالحديث عن الأهل والأوطان والبلاد، بل تلفَّتوا حولَكم، وادرسوا الأجواء التي تحيط بكم؛ الجوَّ السِّياسي، الجوَّ الثَّقافي، العادات والتقاليد...

حاولو أن تُقيِّدوا كلَّ ليلةٍ في سطور قليلة أو كثيرة حياتَكم اليوميَّة، واحتفظوا بها، فهذا التَّقييد اليومي سيُدرِّبكم في غضون شهرٍ على الكتابة السَّليمة، والنَّطق السَّليم، وطبعًا القراءة السليمة.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

الجيل الأزهري الجديد
وإعادة التواصل بين الشرق والغرب(*)

بسمِ اللَّهِ الرَّحمن الرَّحيمِ

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، صلَّى اللَّه عليه وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

سعادة السَّفير: جيمس وات.. إخواني وزُملائي الأفاضل عمداء الكلِّيات وعلماء الأزهر الشَّريف.. أبنائي وبناتي الطُّلاب..

السَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

يُسعدني غاية السَّعادة أن أشهد معكم تخريج الدُّفعة الثانية من أبناء طلَّاب كلِّيات: «أصول الدِّين، واللُّغة العربيَّة، والشَّريعة والقانون، والدِّراسات الإسلاميَّة والعربيَّة، والدعوة الإسلاميَّة» الدَّارسين في مركز تعليم اللُّغة الإنجليزية بالأزهر الشَّريف.

وأذَنوا لي أيُّها الزُّملاء الأجلَّاء أن أُلخِّص كلمتي المتواضعة في نقاط ثلاث:

الأُولَى: أنَّكم تُدركون معي أنَّه بات من الواجب الدِّيني والعِلمي علينا أن نُهيِّئ الأسبابَ لكَتيبة أزهريَّة من طُلَّابنا، تكون مهمَّتُها وصلَ ما انقطع بين علوم الأزهر الأصيلة وتُراثه الخطير الخالد، وبين معارفِ الغرب وفلسفاته

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بتخريج الدفعة الثانية من المركز البريطاني بالأزهر، بقاعة الإمام محمد عبده، في: ١٩ من ذي القعدة سنة ١٤٣٢هـ، الموافق: ١٧ من أكتوبر سنة ٢٠١١م.

وثقافته المتطوِّرة دائمًا، وبخاصَّة في مجال العلوم الإنسانيَّة والفلسفة الاجتماعيَّة، بل الدِّينية أيضًا.

وقد كان للأزهر منذُ القرن التَّاسعَ عشر -أي منذ ما يَقرُب من قرنين من الزَّمان- صلةٌ بالغرب الحديث؛ وذلك منذُ عهد الشَّيخ رفاعة الطَّهطاوي، الذي رافقَ أوَّل بعثة مصريَّة إلى فرنسا، في مطلَع ثلاثينيَّات القرن التَّاسعَ عشر، وتواصَل مع شيوخٍ كبار في القرن العشرين، أدركنا بعضًا منهم في كُليَّة أصولِ الدِّين، وتتلمذنا عليهم، وأفَدنا من مناهِجهم في البحث والتَّأصيل والتَّنظير والتَّرجيح.

وبعضُ هؤلاء الشُّيوخ عانى الأمَرَّين في سبيل الوصول إلى الغربِ واستكمال الدِّراسة..

مولانا الشَّيخ عبد الحليم محمود؛ ذهبَ إلى أوروبا، ودرسَ على نفقته الخاصَّة، والعلَّامة الشَّيخ دراز؛ ذهب إلى أوروبا بعد ما استكمَل أستاذيَّته هنا، وكان أستاذًا بكلِّية اللُّغة العربيَّة.

لكن حدَث بعد ذلك ما يُشبه الانقطاع، وتوقَّف هذا التَّواصل في وقتٍ أصبح الأزهرُ فيه بحاجة ماسَّة إلى معرفة ما يَدورُ وراء البحار؛ من عِلم وتعليم، ومن مناهج بحث؛ فثورةُ الاتِّصال، وتدفُّق المعلومات والثَّقافات، وطُوفان المعرفة -يَفرض فرضًا أن يكون للأزهرِ وجودٌ فاعلٌ محرِّكٌ للأحداث، وضابط للثَّقافات على منهج الحقِّ والخير والجمال.

ومصرُ الآن، وهي تَشنُّ حربًا شعواء على الفقر والمرض والجهل، وتطمَح إلى الصَّدارة في منطقتِها العربيَّة والإسلاميَّة -لا بُدَّ لها من أزهَرٍ قويٍّ، وجامعة جامعة بين التَّعمُّق في التُّراث، والإلمام الجيِّد بكلِّ مستحدَث يَتعلَّق بعُلومنا وتراثنا.

ولا يَصحُّ أبدًا أن يُتركَ تراثُ الأزهر للمستشرقين ولتوجُّهاتهم التي تتذبذبُ كثيرًا بين الحقِّ والباطل، والصِّدق والكذب.

وحين نؤكِّد على هذا الاتِّصال؛ فإنَّنا لا نعني أبدًا التَّهوين من تخصُّصَاتنا الدَّقيقة في علومنا الأزهرية، أو من شأن الطُّلاب الذين تفرَّغوا لدراستها والتَّعمُّق فيها..

فهذه الكتيبةُ المتخصِّصة في تُراثنا؛ بحثًا، وتعليمًا، وتأليفًا، وتحقيقًا - هي الأصلُ، بل هي الدِّرع الواقي والمصدُّ الذي يوقف الرِّياح العاتية، لكنه لا يُغني عن كتيبةٍ أخرى تتكامَلُ مع كتيبة التُّراث، وتخدمها، وتَنقل إليها، وتَنقل عنها.

إنَّ الأزهرَ يحتاج إلى معارف الغرب، وإنَّ الغربَ ليحتاج لحكمةِ الأزهر، وبيانِه الإلهي والنبوي..

وأمرٌ آخر، يَجعلنا ننظرُ إلى هذا المركز نظرةَ إنصاف وحرص وتقدير؛ هو هذه العلومُ التي تحتاجُها كلِّياتُنا الأزهرية الدِّينية، والتي تتَّصل بها اتِّصالًا قويًّا؛ مثل الفلسفة والمنطق الحديث ومناهج البحث والاستقراء، ومثل علمِ مقارنة الأديان السَّماوية والوَضعية، ومثل الاستشراق في الحديث وعلومه والتَّفسير وعلومه.. ومثل مذاهب النقد الحديثة والقانون، وغير ذلك.

فهذه المجالات يَتخصَّص فيها -الآن- علماء كبار من غير المسلمين، وهم موجودون على مسافة مرمى حجَر من هذه القاعة حيث تقعُ مكتبةُ معهد الآباء الدُّومينيكان؛ اذهبوا إليها، وتعرَّفوا على الرَّسائل العِلميَّة التي تتناول بالبحث المفسِّرين، والمُحدِّثين، والبلاغيِّين، واللُّغويين، والفلاسفة، والصُّوفية، والفُقهاء، والأصوليِّين، وكلُّها بالإنجليزيَّة، أو الفرنسية، أو الألمانية..

لا بُدَّ لنا من كتيبة -وأنا مُصِرٌّ على هذا الاسم- تتوزَّع على هذه اللُّغات، وتَنتشر في الجامعات الأوروبيَّة والأمريكية، ليَنقلوا لنا بعد عودتِهم ما تعلَّموه هناك؛ لنعرفَه، ولنَفيد منه، ولنُنفِّذه أيضًا -إن احتاجَ الأمر لذلك-.

وهذا يُسلمني إلى النُّقطة الثَّالثة والأخيرة؛ وهي: أنَّنا منذُ يومين نقلنا تجرِبتنا النَّاجحة مع المركز البريطاني إلى المركز الثَّقافي الفرنسي، وأتمنَّى أن يَتمَّ ذلك مع المركز الألماني والإسباني، والمسلمون في مختلف القارات يَحتاجون لمن يُحدِّثهم بلُغاتهم من أبناء الأزهر، وإذا لم يُسرع الأزهر في سدِّ هذا الاحتياج فسوف يَسدُّه غيرُنا، وبمناهج وعلوم ومذاهب أنتم تعلمونها.

نحتاجُ إلى تأييد زملائنا الأفاضل، عمداء الكلِّيات الخَمس، وإلى النَّظر لهذا المشروع بما يُناسبه من جدِّيَّة واهتمام بالغ.

وثمَّة نقطةٌ هامَّة أودُّ أن أبوحَ بها؛ وهي: ضرورةُ أن يكون توجيهُ طلَّابنا المبعوثين من هذا المركز إلى الجامعات الأجنبيَّة لدراسات جديدةٍ وحقول غير متوفِّرة في جامعاتنا هنا، فنحن ننفق كثيرًا على هذا المشروع، وليس من المعقول أن يَعود إلينا بعضُ طلَّابنا وقد وُجِّهوا لدراسات إسلاميَّة، سهلة، ميسورة، ومُتاحة في جامعة الأزهر، فهذا تبديدٌ للمال وللمجهود، وهذه الحقول الإسلاميَّة يُمكن إنجازُها هنا، وبكلِّ دقَّة علمية.

وأخيرًا: يَسرُّني وأنا أتابع مع التَّقدير الكبير للمركز البريطاني ولجهدِه الكبير -أن أُلاحظ مقدارَ العناية التي يَبذلُها هذا المركز، والفائدةَ الواضحة الجليَّة التي تعودُ على طُلَّابنا، وعلى الأزهر الشَّريف، بل لا يَسعُني إلَّا الإعجابُ بوفائهم بما التزَموا به، وصبرِهم ومثابرَتهم على ما يُقدِّمونه من دروس وتعليم وتدريب في هذا المجال، فلهم جزيلُ الشُّكر، وخالصُ الثَّناء العاطر، ودعواتي بالمزيد من التَّوفيق والسَّداد والنَّجاح.

شــــــكرًا لحُســن اســتماعكُــم.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

الأزهرُ
ووَحدةُ المُسلِمينَ(*)

الحمدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصَحبِه أجمعينَ..

السَّادةُ العلماءُ الأجلَّاءُ! ضيوفَ هذه النَّدوةِ..

الحضورُ الكريمُ..

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

ومرحبًا بكم في الأزهرِ الشَّريفِ في مصرَ الكِنانةِ، ودُعائي لنفسي ولحضراتِكم بمزيدِ التَّوفيقِ والنَّجاحِ والتَّجرُّدِ للَّه تعالى، لخدمةِ هذه الأمَّةِ الكبيرةِ، الَّتي قادتِ الإنسانيَّةَ نحوَ الحقِّ والخيرِ والجمالِ رَدْحًا طويلًا مِن الزَّمنِ، وأسعدتِ الإنسانَ، وانتشلَت وعيه مِن ضلالِ العقلِ، وأحكامِ الوَهمِ، وانحرافاتِ التَّاريخِ وتراكُماتِها.

إنَّ هذه الأمَّةَ الَّتي أنارتِ العالَمَ كلَّه بعد أن أَطبقَت عليه الظُّلماتُ من كلِّ جانبٍ، وصحَّحت بقرآنِها الكريمِ ورسولِها العظيمِ مسارَ البشريَّةِ، ووضعتِ الإنسانيَّةَ من جديدٍ على المَحَجَّةِ البيضاءِ الَّتي ليلُها كنهارِها لا يَزيغُ عنها إلَّا هالكٌ - هـذه الأُمَّـةُ تُعَاني الآنَ -كما تعلمون- مِن أعراضٍ تُشبِهُ أعراضَ

(*) أصلُ الكلِمةِ: محاضرةٌ أُلقيت في اللِّقاءِ التَّحضيريِّ لمؤتمرِ: «أهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ - الأشاعِرَةُ الماتُريديَّةُ أَهْلُ الحديثِ- دعوةٌ إلى الوَحْدَةِ والتَّسامُحِ ونَبْذٌ للفُرقَةِ والتَّطَرُّف» المُنعقدِ بقاعةِ الأزهرِ للمؤتمراتِ بمدينةِ نصرٍ في: ٢٠ من صفر سنة: ١٤٣٢هـ/ ٢٤ يناير سنة: ٢٠١١م.

الأمراضِ المتوطِّنةِ، لا تكادُ تُعالِجُ منها عَرَضًا حتى تَعيا بعلاجِ مائةِ عَرَضٍ وعَرَضٍ.

والمتأمِّلُ -أيُّها الشُّيوخُ الأجلَّاءُ- في عظمةِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ وقوَّتِها التي تأسَّست على العدلِ والإنصافِ، يَعجَبُ كثيرًا وهو يَنظُرُ إلى ما آلت إليه الآنَ، وهي وإن لم تكُن قد آلَت إلى زوالٍ أو إلى فناءٍ، فإنَّها باليقينِ قد آلت إلى شيءٍ مِن الضَّعفِ والانزواءِ لا تكادُ تُخطِئُه عُيونُ أبنائِها قبلَ عُيونِ الآخَرِينَ.

ومن مُدهشاتِ هذه الحضارةِ أنَّها -حتى وهي تُعاني مِن الهُزالِ- تَبعَثُ الأملَ الذي لا حدودَ له في إمكانِ التَّعافي والإحياءِ والتجديدِ.

إنَّها تُشبهُ الجمرةَ المتَّقِدةَ التي لا تنطفئ رغمَ ما يتراكمُ عليها من طبقاتِ الرَّمادِ الكثيفِ بين الحينِ والحينِ في تاريخِها المُشرِقِ الطَّـويلِ.

والنَّاسُ لا يعلمون -حتَّى هذه اللَّحظةِ- حضارةً بَقِيَت وثبتتْ على وجهِ الزَّمانِ أربعةَ عشَرَ قرنًا رغمَ الضَّرَباتِ القاتلةِ التي وُجِّهَت وتُوَجَّهُ إليها - غيرَ حضارةِ الإسلامِ والمسلمين.

بل يعجبُ المتأمِّلُ في حضارةِ المسلمين، أنها رغم ضَعفِها ورُكودِها فإنها لا تزال تُقلِقُ بالَ أبناءِ الحضارةِ الغربيَّةِ، تلكم الحضارة التي استطاعت أن تَحُطَّ برِحالِها على ظهورِ الكواكبِ، وأن تَغدُوَ وتَرُوحَ في مداراتِها، حَسْبَما تشاءُ، ووقتَما تريدُ.

هذه الحضارةُ الغربيَّةُ العملاقةُ، والتي ظنَّ أهلُها أنَّهم أصبحوا قادرين على كلِّ شيءٍ، باتت تخشى قوَّةَ المسلمين الكامنةَ، وتعملُ ليلَ نهارَ كي يظَلَّ المسلمون نائمين غافلين، مشلولين، يتكفَّفون من الغربِ مَطعَمَهم ومَشرَبَهم ومَلبَسَهم ومَركَبَهم، رغم أنهم يملكون تحتَ أقدامِهم مناجمَ الذَّهبِ والفضة

وكنوزَ الثَّرَواتِ، بل يَتسوَّلون من الغرب فَلسَفتَهم وثقافتَهم ومناهجَهم في التَّربيةِ والتَّعليم والاجتماعِ والاقتصادِ، وكأنَّهم أمَّةٌ همجيَّةٌ قادمةٌ من مقابرِ التَّاريخِ، لم يكُن لهم -من قبلُ- عهدٌ بعلمٍ، ولا أدبٍ، ولا فلسفةٍ، ولا تشريعٍ، ولا تاريخٍ، ولا فنونٍ، وكأنَّها لم تُعلِّم الإنسانيَّةَ كلَّها، وتُظلِّلها بحَضارةٍ إنسانيةٍ راقيةٍ في الشَّرقِ والغربِ قرونًا طويلةً.

وتَعلمون -حضراتِكم- أكثرَ ممَّا أعلمُ - أنَّ داءَ هذه الأمَّةِ هو: الفُرقةُ والاختلافُ والتَّنازُعُ الدَّاخليُّ، وهو داءٌ خبيثٌ، طالَما شكَّلَ نقطةَ الضَّعفِ التي نفَذَ منها المستعمِرون لبلادِ المسلمينَ في القرنَينِ الماضيَينِ، وهو هو الدَّاءُ الخبيثُ الذي يَتسلَّلُ منه الاستعمارُ الغربيُّ من جديدٍ في القرنِ الواحدِ والعشرينَ.

ولا تزالُ مقولةُ «فرِّق تَسُدْ»، والتي حَفِظناها صغارًا يُعادُ توظيفُها الآنَ، تحت لافتاتِ صراعِ الحضاراتِ، والفوضى الخلَّاقةِ، والعولَمةِ، ونهايةِ التَّاريخِ، وغيرِها من اللَّافتاتِ التي تُنصَبُ هنا وهناك في بلادِ المسلمين ليُقتَلُوا تحتها، أو لِيُقاتِلَ بعضُهم بعضًا نيابةً عن المستعمرِ الجديدِ.

ومن المحزن حقًّا أن يَتَّخِذَ أعداءُ الإسلامِ مِن فُرقةِ المسلمين واقتتالِهم فيما بينهم عُدَّةً وعتادًا يُوفِّرُ عليهمُ الكثيرَ مِن مُؤنةِ نقلِ الجيوشِ والمُعَدَّاتِ العسكريَّةِ إلى هذه البلادِ التي يُشعلون فيها فتيلَ الحروبِ الدَّاخليَّةِ والصِّراعاتِ البَينيَّةِ.

يَحدُثُ هذا والقرآنُ الكريمُ الذي نُردِّدُه صباحَ مساءَ، ونَتسابقُ في تحفيظِه للأطفالِ، ونتباهى بقدرةِ صغارِ الأطفالِ على حفظِه واستظهارِه، هذا القرآنُ الكريمُ يُحذِّرُ المسلمين ويقرَعُ سَمعَهم ليلَ نهارَ بقولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أيُّها السَّادةُ العلماءُ الأجلاءُ . .

هذه كلمةٌ قد لا تُضيفُ إلى مَسامِعكم جديدًا ، أو شيئًا ذا بالٍ ، غيرَ أنِّي أردتُ التَّخلُّصَ منها إلى موضوعِ نَدوتِنا هذه ، وليس من همِّي الآنَ مناقشةُ العُنوانِ الذي يُختارُ للمؤتمرِ العِلميِّ ؛ والذي نتطلَّعُ إلى عَقدِه في غُضونِ الشُّهورِ المُقبلةِ إن شاء اللَّه ، ولكن يُهِمُّني ٱلْمُعَنوَنُ ، أوِ المضمونُ المُستهدَفُ مِن هذا المؤتمرِ .

وهنا ، يجب عليَّ أن أذكِّر حضراتِكم بأنَّ الأزهرَ الشَّريفَ -جامعًا وجامعةً- وُضِعَ في العصرِ الحديثِ أمامَ تحدِّياتٍ لم يكن له مفرٌّ من مُواجهتِها ، ومسؤوليَّاتٍ لم يكن في وسعه إلا الاضطلاعُ بها ، وقد بدأَ الأزهرُ يَتلمَّسُ طريقَه بالفعلِ نحوَ هذه الغاياتِ منذُ عَهدِ الشَّيخِ المراغي حتى الآنَ ، وما نُحاوِلُه اليومَ -بمعونتِكم ودَعمِكم- هو المُضيُّ قُدُمًا برسالةِ الأزهرِ في طريقِها الصَّحيحِ المستقيم .

هذه الرسالةُ تَتمثَّلُ في المَقامِ الأوَّلِ في أمرينِ لا ثالثَ لهما :

١-الحفاظُ على وَحدةِ المسلمين وجمعُ كَلمتِهم .

٢-السَّلامُ الوطنيُّ والإقليميُّ ثمَّ العالَميُّ ؛ وذلك انطلاقًا مِن أنَّ رسولَ هذا الدين الحنيف ما أَرسَلَه اللَّهُ إلَّا رحمةً وسلامًا للعالَمينَ : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ومقتضى هذا النص القرآني ولازمه المنطقي أن يَنالَ النَّاسُ في الشَّرقِ والغربِ نصيبَهم مِن هذه الرَّحمةِ المُهداةِ ، من اللَّه للعالم أجمع ، والتي يمثلها هذا النَّبيُّ الرَّحيمُ بقولِه : «إنَّما أنا رحمةٌ مهداةٌ»[١] .

(١) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصغير» (٢٦٤) والحاكم : ١/ ٣٥ ، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ . وقال الحاكم : «حديث صحيح ، على شرطهما» .
ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا .

والسُّؤالُ الذي نَطرَحُه اليومَ وننتظرُ أن تتفضَّلوا فيه باقتراحاتِكم ونصائحِكم، هو: كيف يَتسالَمُ المسلمون فيما بينَهم؟

وهذا السُّؤالُ المُؤلِمُ تَطرَحُه السَّاحةُ الآنَ بصورةٍ قاتمةٍ، بل شديدةِ القَتامةِ.. ويكفي أن أُشيرَ فقط إلى أنَّ خطابَ الدَّعوةِ الَّذي يُناطُ به جمعُ الشَّملِ، أصبحَ هو المسؤولَ الأوَّلَ عن فُرقةِ المسلمين وتَمزُّقِهم، وبحيثُ أصبحَ بأسُ شبابِ المسلمينَ بينَهم شديدًا، كم مِن مذهبٍ في ساحةِ الدَّعوةِ الآنَ يَقِفُ مِن وراءِ تَباغُضِ شبابِ المسلمين وتَنابُذِهم وتَدابُرِهم؟ وأين ذهَبَت قضايا الأُمَّةِ المصيريَّةُ مِن اهتماماتِ هؤلاءِ الدُّعاةِ الشَّبابِ وهؤلاءِ الدَّاعياتِ الشَّابَّاتِ؟ ألَا تستَحِقُّ هذه القضايا الكُبرَى حَلقَةً واحدةً مِن حلقاتِهم الَّتي تكادُ تُحرِّمُ الحَلالَ وتُحَلِّلُ الحَرامَ؟

هل يَعلَمُ شبابُنا عن القُدسِ وعن المسجدِ الأقصى وما يُعانيهِ، مِثلَ ما يَعلَمُ من خلافيَّاتِ الأشعريَّةِ والسَّلفيَّةِ والصُّوفيَّةِ؟

وهل يَشغَلُ ذِهنَه البحثُ في واقعِ أمَّتِه مِثلَ ما يَشغَلُه البحثُ في قضايا خلافيَّةٍ تافهةٍ ولَّى زمانُها؟

وهل يُقْبِلُ على مُقرَّراتِه العلميَّةِ الجامعيَّةِ بمِثلِ ما يُقْبِلُ به على كُتُبٍ أو كُتيِّباتٍ لهذا الدَّاعيةِ أو ذاك؟

وكيف صَرَفتنا معركةُ النِّقابِ عن معاركِ الأمريكانِ في العراقِ وأفغانستانَ والصُّومالِ والسُّودانِ؟

وهل يَتسنَّى لنا مواجهةُ أعداءِ الإسلامِ بشبابٍ لا يعرفُ عن تاريخِ عدوِّه - ولا عن الأرضِ التي يحتلُّها- شيئًا؟

بل كيف أَعرَضَ شبابُنا عن فرضٍ مُحتَّمٍ لازمٍ؛ هو وَحدةُ المسلمين، وتَفرَّغَ لفقهٍ يَختلِطُ فيه المندوبُ بالواجبِ والمكروهُ بالمحرمِ؟

لقد تلاشتِ الفروقُ -أيُّها السَّادةُ العلماءُ- أو كادت، بين الأحكامِ الشَّرعيَّةِ الخمسةِ، وانشغلتِ الأسرةُ في المجتمعِ الإسلاميِّ بقضايا جزئيَّةٍ لا إلزامَ في فِعلِها، ولا خَطَرَ في تركِها؛ كالعقيقةِ وخروجِ السَّيِّداتِ للصَّلاةِ في المساجدِ، وأهملت كُلِّيًّا برَّ الوالدين والإحسانِ إلى الجارِ، وقيمة العمل وقيمة الوقت والنظافة والرحمة بالناس وغير ذلك من الفروض الأخلاقية والاجتماعية التي تراجعت إلى ذَيلِ القائمةِ في ترتيبِ الواجباتِ الشَّرعيَّةِ في هذا الفقهِ الغريبِ.

وأمرٌ آخَرُ يَدفَعُ الأمَّةَ إلى هذا الاتجاهِ البائسِ؛ ذلكم هو محاولةُ العبثِ الواضحِ بفقهِ الأئمَّةِ الأربعةِ، وفرضُ فقهٍ جديدٍ يُوجِبُ على الناسِ ما لا يجب، ولا يُعقل أن يجب، مثل: التَّنفُّلِ قبلَ صلاةِ المغربِ، أو زكاةِ الفطرِ بنوعٍ واحدٍ مِنَ الحبوبِ لا يُجزئ غيرُه، وهو أمرٌ لم تَعرِفهُ جماهيرُ الأمَّةِ ولم تَعتَدهُ مساجدُهم مِن قبلُ، ولم يَجرِ عليه العملُ كما يقولُ فقهاؤنا المعتَمَدون.

وأمرٌ ثالثٌ أشدُّ خطرًا من سابقِه؛ هو العبثُ بأمَّهاتِ كُتُبِنا التُّراثيَّةِ، وإعادةِ طَبعِها بعد تشويهِ نُصوصِها؛ إمَّا بالحذفِ، وإما بإضافةٍ في الهامشِ تدمِّرُ المفهوم الذي عَناهُ المؤلفُ وأرادَ أن يُبلِّغَه للنَّاسِ، هذا فضلًا عن الغيابِ التامِّ للمنهجِ العلميِّ في تحقيقِ هذه النصوصِ ونشرِها.

أيُّها الإخوةُ العلماءُ..

مما يجِبُ أن نَتوقَّفَ أمامه طويلًا ظاهرةٌ كفيلةٌ بهدمِ المجتمعِ الإسلاميِّ والإتيانِ عليه مِن قواعدِه، لو تُرِكَت دون مواجهة بفقهٍ صحيحٍ وعلم خالص صريح، تلكم هي الجرأةُ على التَّكفيرِ والتَّفسيقِ والتَّبديعِ، وما يسوغه هذا العبث من استباحةِ النُّفوسِ والأعراضِ والأموالِ.

وكيف يستقيمُ انتشارُ مِثلِ هذه الأفكارِ في أُمَّةٍ أَجمَعَ علماؤها وأئمَّتُها مِن

المدارسِ الثَّلاثِ على المقولةِ الذَّهبيَّةِ، الَّتي حَفِظناها مِن أروقةِ الأزهرِ ونحنُ طلابٌ صغارٌ؛ مِثلَ: لَا نُكفِّرُ أحدًا من أهلِ القبلةِ(١)، وَنُصلِّي خلفَ كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ(٢)، وَلا يُخرِجُ مِن الإسلامِ إلَّا جحدُ ما أدخَله فيه(٣)، وغيرُها مِن القواعدِ الَّتي حَفِظَت للأمَّةِ تَماسُكَها ووَحدتَها عبرَ التَّاريخِ، وانطَلَقَت في معتقداتِها هذه مِن قَولِ النَّبيِّ ﷺ في الحديثِ الصَّحيحِ: «**مَن صَلَّى صَلاتَنا واستقبَلَ قِبلَتَنا وأَكَلَ ذَبيحتَنا، فذلك المسلِمُ الذي له ذِمَّةُ اللَّهِ وذِمَّةُ رَسولِه، فلا تَخفِروا اللَّهَ في ذِمَّتِه**»(٤).

أعتذرُ أيُّها الإخوةُ عن الإطالةِ، وعن عدمِ القدرةِ على التَّقيُّدِ بالدَّقائقِ السِّتِّ المحدَّدةِ لكلٍّ منَّا، فالأمرُ خَطبٌ وجَلَلٌ، والمسؤوليَّةُ ثقيلةٌ يَنُوءُ بها ضميرُ كلِّ مَن يرجو لقاءَ اللَّهِ بعملٍ صالحٍ، وقلبٍ سليمٍ.

ولعلَّكم تُلاحظون أنَّنا نَعُدُّ للأمرِ عُدَّتَه، وبترتيبٍ غيرِ معهودٍ في انعقادِ كثيرٍ مِن اللِّقاءاتِ والنَّدَواتِ والمؤتمراتِ، ولذلك دَعَوناكم وأنتم صفوةُ العلماءِ الذين يَعكِسون في ثقافاتِهم ورُؤاهُم وأنظارِهم تَوجُّهاتِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ في مدارسِها الثَّلاثِ.

والذي نَأمُلُه مِن أجلِ تحقيقِ الهدفِ الأسمى أن تُطرَحَ قضيَّةُ: الاختلافُ في إطارِ الوَحدةِ، وقضيَّةُ التَّكفيرِ، والإقصاءِ، والعداءِ المتبادَلِ، وغيرُها مِن القضايا على بِساطِ البحثِ بكلِّ مصارحةٍ، ومكاشفةٍ، وموضوعيَّةٍ، وتَجرُّدٍ، وخوفٍ مِن اللَّهِ تعالى، وأمانةٍ، ثمَّ نستمعُ ونَسترشدُ بآرائِكم ومشاركتِكم في هذا الأمرِ.

---

(١) «عقيدة الطحاوي»: ٢١.

(٢) «عقيدة الطحاوي»: ٢٣.

(٣) «عقيدة الطحاوي»: ٢١.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٣٩١) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أيُّها الإخوةُ . .

إنَّ هذا المؤتمرَ وما يَليه من مُؤتمراتٍ إن شاءَ اللَّهُ ليس تَرَفًا فكريًّا، ولا مُجرَّدَ حوارٍ ثقافيٍّ تَكفي فيه الكلماتُ والخُطَبُ والأفكارُ التي تُعلِنُ عن أصحابِها، وتُضخِّمُ مِن ذَواتِهم؛ فهذا كلُّه لا يستحقُّ -من وِجهةِ نظرِنا- شيئًا مما أُعِدَّ وبُذِلَ مِن جُهدٍ ووقتٍ وتفكيرٍ مِن أجلِ هذا اللِّقاء.

الوقتُ الآنَ وقتُ جِدٍّ وعملٍ، وليسَ وقتَ خُطَبٍ ومواعظَ، والأممُ مِن حولِنا تَعمَلُ في صمتٍ مُريب، وفي تدبيرٍ ومكرٍ شديدين، وقد مَلِلْنا مِن الكلامِ الذي لا يُثمِرُ عملًا على أرضِ الواقع.

وأُذكِّرُكم بالمقولةِ الذَّهبيَّةِ لإمامِ دارِ الهجرةِ وإمامِنا الإمامِ مالكٍ رضي اللَّه عنه وأرضاهُ حين قالَ: أَكرَهُ الكلامَ فيما ليسَ تحتَه عملٌ[(١)].

أيُّها الإخوةُ . .

اللَّهَ اللَّهَ في أمَّتِنا، والمصارحةَ المصارحةَ في أمرِنا، والإخلاصَ الإخلاصَ في عملِنا.

وفَّقَنا اللَّهُ وإيَّاكم لخدمةِ الإسلامِ ونفعِ المسلمين.

ومرحبًا بحضراتِكم مرَّةً ثانيةً في بَلدِكمُ الشَّقيقِ مِصرَ، وفي الأزهرِ الشَّريفِ بيتِ العربِ والمسلمين.

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٧٨٦) بمعناه.

كلمة
حول تعديل قانون الأزهر(*)

(١)

بســـم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على رسول اللَّه.

ســــــــلام اللَّه عليكم ورحمته وبركاته

وبعدُ:

يُسعدني أن ألتقي بكم اليوم لإيضاح ما تساءل عنه البعضُ في الأيام الأخيرة بشأن تعديلات بعض المواد من قانون الأزهر.

ولستُ بحاجة لأن أذكِّركم بأننا -فيما مرَّ بنا من ظروف وأحوال- طالَما تمنَّينا وتَطلَّعنا إلى اليوم الذي تتحرَّر فيه مؤسَّستنا الدِّينية الكُبرى، مؤسسةُ الأزهر الشريف، وتُصبح مؤهَّلة لأن تَنتخب شيخَها من بين كبار علمائها، وتَستعيدَ هيئةَ كبار العلماء ذاتَ الرَّصيد التاريخيِّ الغنيِّ؛ علميًّا، وفكريًّا، ووطنيًّا، ليعود الأزهرُ الشريف إلى سابق عهده؛ منارة إسلاميَّة للعالم كله، ومرجعيَّة عُليا للعالم الإسلامي، ورمزًا للكرامة الوطنيَّة، وبيتًا للعائلة المصريَّة.

كنا جميعًا نتطلَّعُ إلى هذا اليوم الذي يستقل فيه الأزهر بشؤونه، يديره علماؤه، وينهض به أبناؤه؛ ركنًا ركينًا للمُجتمع المصري، وجزءًا عزيزًا من

(*) حررت هذه الكلمة في مشيخة الأزهر: ٩ من ربيع أول، سنة: ١٤٣٣هـ، الموافق: ١ من فبراير، سنة: ٢٠١٢م.

الدَّولة الوَطنيَّة للسُّلطة التنفيذيَّة؛ يَدعم، ويخدم، وينصح، ولا يُلقَّن ولا يؤمر فيَخضع ويُطيع.

ولعلَّ الذين يُديرون الجدل اليوم حول تعديل بعض المواد في قانون الأزهر كانوا من أكثرنا تطلعًا لهذه الأهداف، ومن أعلانا صوتًا وجدلًا حول هذه الأهداف.

وكنتُ منذ تحمَّلت المسؤوليَّة أسعى بكل صدق وإخلاص لتحقيق الهدفين الكبيرين؛ استقلال الأزهر وانتخاب شيخه، مع عودة هيئة كبار العلماء، مع أمر ثالث لا يَقل عنهما أهمية لدِيننا ووطننا وأمتنا؛ وهو عودة مناهج الأزهر الأصيلة في الشَّريعة واللغة والثقافة العميقة؛ ليَستمر الفكرُ الوسطي الرَّصين، والفَهمُ العلمي الصحيح للدِّين، والذي هو جوهرُ الرسالةِ الأزهرية، التي وَسَّدت إلينا الأمة مسؤوليتها والقيام بها، خدمةً لها وللإنسانية كلِّها.

وقد أعلَنَّا منذ أكثر من عام ضرورة انتخاب شيخ الأزهر، وعملنا على استعادة المناهج الأصيلة بالتدريج، وأفدنا -بعد الثورة- من مناخ الحريَّة العام في تحقيقِ التطلُّعات والآمال التي طال عليها الأمد، وأصبحت الآن إجماعًا وطنيًّا، ومَطلبًا شعبيًّا مُلِحًّا، فأعددنا القانون، وقدَّمناه للمسؤولين للنظر فيه لإصداره، وحرصنا على أن يُنص فيه على أن تنتهي خدمة شيخ الأزهر ببلوغه سن السَّبعين، ولكن من قاموا بالمراجعة الأخيرة من الجهات الرسمية غيروا ذلك وأبقوا التَّعديل على ما جرى به العرف والتقليد، رغم أني ما زلت مقتنعًا برأيي الأوَّل.

وأود أن أعلن بكل صراحة أننا مع حرصنا على تنفيذ ما أجمع عليه الكافة دون إبطاء، وتأكيدنا أن رجال الأزهر أعرف الناس بدقائقه وشؤونه -لا يضيرنا

أن يُناقش القانون على أي مستوًى، ولدى أية سلطة؛ فنحن جميعًا في المناخ الديمقراطي، نعمل على تلبية مطالب الشَّعب، وبخاصَّة؛ ما صار منها محلَّ إجماع وطني، ونثقُ أنَّ مَن يَنظر في القانون سيَدعمُه ويقرُّه، وربما يَزيده قوَّةً وتأكيدًا.

كما أُعلن أيضًا أنَّ ما صدر ليس إلَّا تعديلًا لمادتين اثنتين فقط من قانون تطوير الأزهر، (قانون: **١٠٣**، لسنة: **١٩٦١**):

الأولى: تتعلق باستقلال الأزهر.

والأخرى: تتعلق بعودة هيئة كبار العلماء واختصاصاتها.

أمَّا اللَّوائح التَّنفيذية، والإجراءات، والأنظمة التفصيلية؛ فسوف يَضَعُها الأزهريون بأنفسهم، بكلِّ شفافية، وموضوعية، وديمقراطية، ودون إملاءٍ عُلوي، أو تدخل سُلطَوي.

وستُشكَّل هيئةُ كبار العلماء من كلِّ مَن تتوافر فيه شروط عضويتها، لا بقرار منفرد، بل عن طريق لجنة علميَّة مُحايدة، من أكبر المتخصصين، المشهود لهم بالعلم والأمانة.

ويَعلم اللَّه أنَّ شيخ الأزهر الحالي ليس بحاجة لأن يَنتقي قومًا من أجل أن يَختاروه فيما بعد، فليس هذا من أخلاقه، ولا من تربيته، وهو بفضل اللَّه في غنًى عن مناصب الدُّنيا بأسرها وعن منافعِها، ثمَّ إنَّ القوانين لا تُطبَّق بأثر رجعي، كما هو معلوم، فلماذا يَتحسَّبُ شيخُ الأزهر لمنصب زائل؛ إن عاجلًا، أو آجلًا، وسامحَ اللَّه الجميع، وحفظ الأزهر ومصر والإسلام.

لقد أردت -أيُّها الإخوة والأخوات- أن أُفضي إليكم بمكنون نفسي، وأن أصارِحَكم بحقيقة الأمر في عمَلنا في هذا التَّعديل المحدود، الذي طالبتم أنتُم به أمدًا طويلًا، فلمَّا أذِنَ اللَّه بصدوره أساء البعضُ الظُّنون؛ فيما

كان، وفيما سيكون، ولن يكون -بمشيئة اللَّه تعالى- إلَّا الخير، وإلَّا ما فيه مصلحةُ الأزهر الشَّريف.

وما توفيقي إلا باللَّه، عليه توكلت وإليه أنبت.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

✲ ✲ ✲

الأزهرُ
واتِّحاد الكلمة(*)

الحمدُ للَّهِ وَحدَه، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه..

أيُّها السَّادةُ العلماءُ والإخوةُ الأشقَّاءُ..

السَّلامُ عليكم جميعًا ورحمةُ اللَّهِ تعالى وبركاتُه

وبعدُ:

فإنِّي إذ أتحدَّثُ إلى زملائي وإخوتي مِن عُلماءِ المَملَكَةِ العربيَّةِ السعوديَّةِ ومُثَقَّفِيها، لستُ بحاجةٍ إلى مقدِّماتٍ ومُمَهِّداتٍ، فمُراعاةُ الحالِ في هذا المَقامِ تقضِي بالبَدءِ بالموضوعِ الذي هو محَلُّ الاهتمامِ والخَطَرِ المشترَكِ، وهو موضوعُ: وَحدَة المسلمِين الثَّقافيَّةِ..

وقد تعلمون -حضراتكم- ما آلَت إليه أحوالُ العالَمِ الإسلاميِّ في العُقودِ الأخيرةِ مِن ضعفٍ؛ بسببٍ مِن بعضِ أبنائِه ومِن خُصومِه أيضًا على السَّواءِ، وتعلمون أيضًا ما آلَ إليه هذا الضَّعفُ مِن تفكُّكٍ واختلافٍ، ولعلَّنا جميعًا نُسلِّمُ بذلك واقعًا مشهودًا ملموسًا لا مُشاحَّةَ فيه.

وأعتقدُ أنِّي لا أُضيفُ جديدًا إن قلتُ: إنَّ هدفَ الأزهرِ الأوَّلَ -بحِسبانِه مؤسَّسةً إسلاميَّةً جامعةً- إنَّما هو العملُ على توحيدِ كَلِمةِ المسلمين وتحقيقِ

(*) أصلُ هذه الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقِيَت بالرياض في حفلٍ أقامَه معالي الشيخ: صالح آل الشيخ وزير الأوقاف والشئون الإسلامية الأسبق، بحضور سماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ مفتي المملكة، وهيئة كبار العلماء بالسُّعوديَّةِ، ولفيفٍ مِن كبار المثقَّفين والوزراء، في ١٠ من جمادى الآخرة سنة: ١٤٣٤هـ/ ٢٠ من أبريل سنة: ٢٠١٣م.

تضامُنِهم؛ لأنَّ الوَحدةَ الثَّقافيَّةَ العِلميَّةَ الجامعةَ الَّتي لا تُقصي بعضًا مِن أفرادِها -هي الأساسُ لكلِّ وَحدةٍ وقوَّةٍ حقيقيَّةٍ تَجمَعُ ولا تُفرِّقُ، وتدومُ ولا تَنقطِعُ، وصدَقَ الشَّاعرُ العربيُّ؛ إذ يقولُ:

تَأبى الرِّماحُ إذا اجتَمَعنَ تَكسُّرا فإذا افتَرَقنَ تَكسَّرَت آحادًا(١)

والأزهرُ -أيُّها الإخوةُ- يَضَعُ همَّ وَحدةِ المسلمين نُصْبَ عَينَيهِ، منذُ قام حِصنًا لعقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ومَثابةً للمسلمين في كلِّ بقاعِ الأرضِ؛ لِيَتَلَقَّوا علومَ الإسلامِ اعتمادًا على الكتابِ والسُّنَّةِ أوَّلًا وقبلَ كلِّ شيءٍ، ثمَّ في إطارِ ثقافةٍ شاملةٍ تُبرِزُ قيمةَ رسالةِ الإسلامِ إلى النَّاسِ على أساسٍ راسخٍ مَتينٍ يَستبطِنُ إتقانَ اللُّغةِ العربيَّةِ، والتَّمَكُّنَ مِن تُراثِها العَريقِ الَّذي يَنبني عليه الفَهمُ الصَّحيحُ للخطابِ الإلهيِّ في الكتابِ والسُّنَّةِ.

وقد شاءَ اللَّهُ للأزهرِ أن يقومَ بهذا الواجبِ على نحوٍ مُتواصِلٍ منذُ ألفِ عامٍ -بل يَزيدُ- رَغمَ تَبايُنِ الظُّروفِ المُواتيةِ والمُعوِّقةِ؛ وقدِ استوعَبَ باقتدارٍ حقيقةَ الاعتصامِ بحَبلِ اللَّهِ المتينِ، والثَّباتِ على صراطِه المستقيمِ، وواجَهَ مواطنَ النِّزاعِ والخِلافِ والفِتنةِ، الَّتي يَزرَعُ بُذورَها الأعداءُ، ويستجيبُ لها البُسَطاءُ، ثمَّ تدفعُ الأمَّةُ بأسرِها ثَمَنَها غاليًا.. ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

إنَّ الأزهرَ -أيُّها الإخوةُ الأفاضلُ الكِرامُ- لا يَسأَمُ مِنَ التَّذكيرِ بحقيقةٍ تَغيبُ عن وَعيِ كثيرٍ منَّا، وهي أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ هم جمهورُ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ

(١) البيتُ للطُّغرائي كما في «ديوانه»: ٧١.

المتمسِّكون بهديِ الكتابِ والسُّنَّةِ، المعظِّمون لصحابةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ المُهتدُون بتُراثِ الأئمَّةِ الَّذين تلقَّتهمُ الأمَّةُ بالقَبولِ، مِن عُلَماءِ الصَّحابةِ والتَّابعِين والقرونِ الخَيِّرةِ، ومِن بينِهم أبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ رضيَ اللَّهُ عنهم وأَرضاهُم، وكذلك غيرُهم مِنَ الأئمَّةِ الأعلامِ المُجتهدِين الثِّقاتِ، على تنوُّعِ مَشاربِهم، وتَعدُّدِ وِجهاتِ نَظَرِهم، وكذلك ممَّن أَحيَوا عُلومَهم، وتابَعُوا جُهودَهم، واستَثمَرُوا أُصولَهم؛ كأبي منصورٍ الماتُريديِّ، وأبي الحسنِ الأشعريِّ، والجُنَيدِ البغداديِّ، والحارثِ المُحاسِبيِّ، والقُشَيريِّ، والغزاليِّ، وعلماءِ الحديثِ وفُقهائِهم منذُ البخاريِّ ومُسلمٍ، وصولًا إلى ابنِ عَقيلٍ، وابنِ الجوزيِّ، وابنِ قُدامةَ، وابنِ تيميَّةَ، وابنِ قيِّمِ الجوزيةِ، وابنِ دقيقِ العيدِ، والسُّبكيِّ، وابنِ حجرٍ، والشَّاطبيِّ، والسُّيوطيِّ، رحمةُ اللَّه عليهم، وكلُّهم أعلامٌ تَزدهي بهم ثقافتُنا الإسلاميَّةُ، وشريعتُنا العالَميَّةُ الَّتي وَسِعَتِ النَّاسَ مِن كلِّ جنسٍ ولسانٍ، على اختِلافِ الأقاليمِ والبُلدانِ.

ويَعلَمُ الدَّارسون وطلَّابُ العِلمِ أنَّ أئمَّةَ الأشاعرةِ -مَثَلًا- يُقرِّرون في كُتُبِهم: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ عُنوانٌ جامعٌ يَشمَلُ الأشعريَّةَ والماتُريديَّةَ وعلماءَ الحديثِ. هذا ما يُقرِّرُه الإمامُ الرَّازيُّ والإسفرايينيُّ في «التَّبصيرِ»، والبغداديُّ في «أصولِ الدِّينِ»، والآمديُّ في «أبكارِ الأفكارِ»، لا يعرفون قصرًا ولا إقصاءً، ولا حَصرًا ولا استبعادًا.

أيُّها الإخوةُ الكرامُ..

إنَّ تقريرَ هذه الحقيقةِ لا يَقتصِرُ على جانبٍ نظريٍّ بحتٍ يُقرَأُ في المصادرِ المُعتبَرةِ لعقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ فَحَسبُ، ولكنَّه المنهجُ المتَّبَعُ المعهودُ، والواقعُ المشهودُ، للأداءِ الأزهريِّ والتَّكوينِ التَّعليميِّ الَّذي صَبَغَ

هذا المعهدَ العريقَ بلَونٍ فكريٍّ مُتوازنٍ، ومِزاجٍ ثقافيٍّ وَسَطيٍّ جامعٍ، وعقيدةٍ راسخةٍ بوَحدةِ المسلمينَ، ما داموا مُجتمِعينَ على التَّوجُّهِ إلى قِبلةٍ واحدةٍ.

ودَعُوني -أيُّها الإخوةُ- أذكُرُ لكم تَجربةً شخصيَّةً قد تساعِدُ في تقريبِ هذه الحقيقةِ إلى حضراتِكم: كنتُ في فترةِ السِّتِّينيَّاتِ مِنَ القرنِ الماضي، أَتتلمَذُ في مرحلةِ الدِّراساتِ العُليا بالأزهرِ الشَّريفِ على كلٍّ مِن الشَّيخِ محمَّد يوسف الشَّيخ، شيخِ الأشاعرةِ المعروفِ، والشَّيخِ الدكتور سليمان دنيا صاحِبِ التَّوَجُّهِ العَقلانيِّ الصَّارِمِ، والشيخِ عوض اللَّه حجازي باتِّجاهِه المَنطِقيِّ، والشَّيخِ عبد الحليم محمود باتِّجاهِه الرُّوحيِّ، والشَّيخِ محمَّد خليل هرَّاس بتوجُّهِه السَّلفيِّ، وهو صاحبُ الدِّراسةِ المُبَكِّرَةِ الَّتي نالَ بها درَجةَ العالِميَّةِ مِن كلِّيَّةِ أصولِ الدِّينِ بالأزهرِ، بعنوان: «ابنُ تيميَّةَ السَّلَفيُّ»، والشَّيخِ عبد الرَّحمن بيصار والشَّيخ محمَّد غلاب بنُزوعِهما الفلسفيِّ، وأَشهَدُ -ويَعلَمُ اللَّهُ- أنَّ كُلًّا منهم كان غَيُورًا على الإسلامِ، داعيًا إلى اللَّهِ، مُؤَيِّدًا لحقائقِ الكتابِ والسُّنَّةِ بما لدَيهِ مِن ثقافاتِ الأُمَمِ وفَلسَفاتِ المفكِّرين، وكنَّا -ونحن نجلسُ بين أيديهم- لا نَجِدُ حَرَجًا في صدورِنا، ولا صِراعًا في عقولِنا، مِن تَقَبُّلِ هذه المَدارِسِ المختلِفَةِ مَشرَبًا، المُتَوَحِّدَةِ هَدَفًا وغايَةً، بل أورَثَنا ذلك كلُّه مِزاجًا مُعتدلًا في الفِكرِ، ونظرةً موضوعيَّةً إلى الأمورِ، وولاءً راسخًا لكتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ رسولِه ﷺ.

هذه تَجربةٌ عمليَّةٌ واقعيَّةٌ أَقنَعتني أنَّه كلَّما اتَّسَعَ نِطاقُ النَّظَرِ، وتَنوَّعَت مصادرُ الفكرِ، ولم يَقتصِرِ الباحثُ على موردٍ واحدٍ مِن مواردِ الفِكرِ، أو مشرب معينٍ من مشاربِ أهلِ النَّظرِ والاجتهادِ، أو مدرسةٍ واحدةٍ ومذهبٍ واحدٍ بعَينِه، كلما كان الأمرُ كذلك أَمِنَ طالِبُ العِلمِ مِن خطَرِ التَّشدُّدِ، وخَطَلِ التَّعصُّبِ، واكتَسَبَ رَحابةَ صدرٍ ومُرونةَ فِكرٍ، تُعينُه على الخيارِ الصَّحيحِ، والاقتناعِ الرَّاسخِ بما يَهدي إليه الدَّليلُ وتُسلِمُ إليه الحُجَّةُ.

وقد حَرَصتُ حينما وُسِّدَت إليَّ رئاسةُ جامعةِ الأزهرِ[١] أنْ أُراعِيَ ذلك في المناهجِ المقرَّرةِ بكلِّيَّاتِ الجامعةِ؛ ليتمرَّسَ الطُّلَّابُ بنصوصِ الأئمَّةِ مِن مدارسِ الفِكرِ ومذاهبِ الاجتهادِ، ولِتترسَّخَ فيهمُ الرُّوحُ الوَسطيَّةُ، وتخفَّ عندَهم نوازعُ التَّعصُّبِ والتَّشدُّدِ، وضيقِ الأُفُقِ.

أمَّا حين ثَقُلَت مسؤوليَّتي، وزادَتِ الأعباءُ على كاهلي، خادمًا للأزهرِ الشَّريفِ وللعِلمِ والعلماءِ، فقد حَرصتُ على أنْ يكونَ من أوَّليَّاتِ ما أقومُ به أن أُوجِّهَ رسائلَ إلى قادةِ الفِكرِ وعلماءِ الأمَّةِ مُناشِدًا إيَّاهم أنْ نَعمَلَ -معًا- على جمعِ المسلمين كافَّةً -وأهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ بخاصَّةٍ- على كَلِمةٍ واحدةٍ، وأن نُقاوِمَ دَعاوى الفُرقةِ، ونوازعَ التَّشدُّدِ والإقصاءِ، وفَتاوَى تَكفيرِ المخالفِينَ وتضليلِهم الَّتي آلَتَ بنا في العُقودِ الأَخيرةِ إلى مزيدٍ مِن الفُرقةِ والاختلافِ، ومزيدٍ مِن الضَّعفِ والهَوانِ، وربَّما كان في المُستمِعين إليَّ مِنَ الأفاضلِ في هذه القاعةِ مَن يَشهَدُ بتلقِّي هذه الرِّسائلِ الَّتي وجَّهْتُها بعدَ أيَّامٍ قلائلَ مِن وُصولي لهذه المؤسَّسةِ الإسلاميَّةِ الجامعةِ.

وبالرَّغمِ مِن أنَّ صَدَى الاستجابةِ لدعوتي هذه لم يكُن مشجِّعًا على مُواصلةِ المَسعى في هذا الأمرِ، وأنَّ بعضَ مَن تَلقَّوا رسالتي لم يَرَوا حَرَجًا في تجاهلِ هذا المَسعى، وهذه الدعوة التي لم أكُن أَبغي مِن ورائِها إلَّا علاجَ الظَّاهرةِ الأليمةِ الَّتي طَرَحْتُها في بدايةِ الحديثِ إليكم -رغم ذلك آثرت الانتظار وتأمل رَجع الصَّدى، ولم أرْضَ مِنَ الغَنيمَةِ بالإيابِ كما يقولُ الشَّاعِرُ[٢]، بل دَعوتُ إلى لِقاءٍ خاصٍّ يجمَعُ رُموزًا فكريَّةً ودَعَويَّةً تُمَثِّلُ

---

(١) كان ذلك في الفترة من غرة شعبان ١٤٢٤هـ الموافق ٢٨ من سبتمبر ٢٠٠٣م حتى ٢ من ربيع الآخر ١٤٣١هـ، الموافق ١٨ من مارس ٢٠١٠م.

(٢) البيت هو:

وَقَدْ طَوَّفْتُ في الآفاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيابِ

والبيت لامرئ القيس في: «ديوانه»: ص ٧٩.

الاتِّجاهاتِ الإسلاميَّةَ داخِلَ مِصرَ وخارِجَها، حَضَرَه بعضُ عُلماءِ المَملَكَةِ ودُعاتِها، وانعقَدَ هذا اللِّقاءُ يومَ الخامِس والعِشرينَ مِن يناير (٢٠١١م) الموافق الثامِنَ والعِشرين مِن ذِي الحِجَّةِ (١٤٣٢هـ)، وكان الهَدَفُ مِنَ اللِّقاءِ هو البحثُ عن سُبُلٍ لتحقيقِ الغايةِ نفسِها، وهي جمعُ المسلمين وتوحيدُ كلمتِهم بين أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أوَّلًا، ثمَّ مع غيرِهم مِن أهلِ الملَّةِ ثانيًا، وجَرَى وقتَها ذِكرٌ لإخوانِنا مِن المذاهبِ الأُخرى، واتَّفَقنا على ألَّا نُشغِلَ أَنفُسَنا بتقارُبٍ مزعومٍ، بل بتفاهُمٍ محتومٍ، تَفرِضُه الملَّةُ الواحدةُ، والجِوارُ الدَّائمُ، والمصلحةُ المُشتركةُ.

والآنَ، هَأَنَذَا أَفتَحُ عقلي وقلبي لإخواني هنا مِن أهلِ العِلمِ والفِكرِ والدَّعوةِ، وأُفضي بذاتِ نفسي، وأُكرِّرُ دعوتي -وهي دعوةُ الأزهرِ ورسالتُه- وأمَلي وَطِيدٌ، وقد زادَتنا الأيَّامُ والأحداثُ اقتناعًا بحقيقةِ الدَّاءِ، وضرورةِ الدَّواءِ، وعِظَمِ المسؤوليَّةِ المُلقاةِ على عاتقِنا جميعًا في التصدِّي لهذه الظَّاهرةِ المَرَضيَّةِ، والخلاصِ منها بإذنِ اللَّهِ.

لكنِّي أجدُ مِن واجبي -أيُّها الإخوةُ الحضورُ- أنْ أُصارِحَكم أنَّ السَّبيلَ العِلميَّ الذي يَضمَنُ تأسيسَ رُوحِ الوَحدةِ واستمرارَها إنَّما هو النَّهجُ التَّعليميُّ الوَسَطيُّ المُنفَتِحُ، الَّذي لا يَعرِفُ الإقصاءَ ولا شَيْطنةَ المُخالِفين، ولا الإدانةَ الجاهِزَةَ لمَذاهِبَ إسلاميَّةٍ تَلَقَّتْها جماهيرُ الأُمَّةِ بالقَبولِ ولا تَزالُ تَسْتَمسِكُ بها إلى يومِ النَّاسِ هذا.

فلنُعَلِّم أبناءَنا أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ هم أهلُ الحديثِ وفقهاؤُه -مِنَ الحنابلةِ وغيرِهم- وعلماءُ الماتُريديَّةِ ومُفسِّروهم وفقهاؤهم مِن الحنفيَّةِ وأهلِ الرَّأيِ، وعلماءُ الأشاعرةِ وفقهاؤهم ونُظَّارُهم مِن مُختلِفِ المذاهبِ -ممن يجمعون بين مناهج النَّقلِ والعقلِ والذوقِ والرَّأيِ- وأنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ

ليسوا مَقصُورِينَ على فئةٍ واحدةٍ مِن هؤلاءِ، وعلينا أن نَضَعَ لأبنائِنا مناهجَ دراسيَّةً مُتوازِنةً شاملةً؛ لِيَتعرَّفوا بأنفسِهم ويتأمَّلوا بوِجدانِهم وَحدةَ الفِكرِ الإسلاميِّ، وشموليَّةَ تُراثِه العِلميِّ والثَّقافيِّ.

ونحن الآنَ نُنادي -أو يُنادي أكثرُنا- بالاعترافِ بالغَيرِ، والاعتدادِ بالمُخالِفين مِن أهلِ الحضاراتِ والمِلَلِ المُختلِفةِ الَّذين يُشاركوننا الحياةَ على هذا الكوكبِ الزَّاخرِ بالسِّياساتِ والاستراتيجيَّاتِ والأفكارِ المتنافسةِ والمتنازعةِ، فكيف لا نستجيبُ لحوارٍ بين المسلمِينَ أنفسِهم يجمعُ طوائفَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ خاصَّةً، وهم الآنَ نحوُ مليارٍ ونصفِ المليارِ مِنَ البشرِ في جميعِ دُوَلِ العالَمِ، وبخاصَّةٍ في قارَّتَي: أفريقيا وآسيا، اللَّتين يأرِزُ إليهما مُستقبَلُ الأحداثِ، كما يقولُ المراقبون.

فلنمضِ على طريقِ الوَحدةِ بثَباتٍ وأَناةٍ، وفِكرٍ مُنفتِحٍ ووعيٍ تامٍّ، ولكن مع صبرٍ وإصرارٍ وتَضافُرٍ وتَناصُحٍ وتَبادُلٍ للأفكارِ؛ مع الإخلاصِ للَّه تعالى، ولدِينِه وكتابِه وسنَّةِ رسولِه أوَّلًا، ولهذه الأمَّةِ ثانيًا، ولكلِّ خَلْقِ اللَّهِ بعد ذلك؛ فما أُريدُ إلَّا الإصلاحَ ما استَطعتُ، وما توفيقي إلَّا باللَّهِ، وهو حَسْبُنا ونعمَ الوكيلُ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وشُكرًا لحسنِ استماعِكم.

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

* * *

الأزهرُ ودَورُه العالمي(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . . وبعد:

فإنِّي لسعيد كل السعادة أن ألتقي إخوتي المصريين -من المسلمين والمسيحيين- في بيت مصر بلندن، وأن أتبادل معهم الرأي، وأستمع إلى أفكارهم ومشاعرهم، في هذه الظروف التي تجتازها بلادنا وتخوض فيها معركة التنمية والاستقرار، ومن واجب الأزهر الشريف أن يتحسس -في هذه الظروف- ضمير الأمة وطموحاتها ولا يغفل أي صوت -علا أو خفت- من أصواتها، إيمانًا بالتعددية، والشراكة الوطنية بين كل أبناء الوطن على قدم المساواة الكاملة.

لقد نهض الأزهر بهذه الرسالة خلال تاريخه الطويل، ولا أحتاج في حديثي إلى مصريين وطنيين أنْ أعيد على مسامعهم أنَّ عرابي الذي دافع عن الكرامة الوطنية كان مصريًّا أزهريًّا، وأن سعد زغلول زعيم الأمة -في ثورتها المباركة عام ١٩١٩م- كان أيضًا مصريًّا أزهريًّا، وقد افتداه من الاغتيال أخ له قبطي إيمانًا بوحدة النسيج والكفاح الوطني.

والأزهر الشريف في تلك الأحداث وما تبعها حتى ثورة ٥٢، كان مثابة الوطنيين، اعتلى منبره شيوخ الأزهر وزعماء الأمة وآباء الكنيسة، وحين وقع

(*) كلمة ألقيت في لقاء مع السفراء والدبلوماسيين المعتمدين بالمملكة المتحدة، في السفارة المصرية بلندن، في: ٢٣ شعبان سنة ١٤٣٦هـ/ ١٠ يونيو سنة ٢٠١٥م.

العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦م لم يجد الرئيس عبد الناصر سبيلًا إلا أن يعتلي هذا المنبر وينادي بمقاومة العدوان.

هذا هو دور الأزهر الذي تعلمونه وإن حاول البعض إخفاءه، أو تناسيه، وهو دور يتَّسق ودور الأزهر نحو العالم الإسلامي والعالم كله، وقد سجَّل التاريخ -في اعتزاز بالغ- الاستفتاءات الدينية التي كانت ترد على شيوخ الأزهر من وسط أفريقيا وغربها، ومطالبات علماء اليمن شيوخ الأزهر بالمشاركة في النضال ضد الحملة الفرنسية، وما مثله وجود شيوخ الأزهر إلى جانب الرئيس المصري جمال عبد الناصر في «باندونج» في منتصف القرن الماضي، فقد كانت مكانة الأزهر جزءًا كبيرًا من القوة الناعمة التي أنعم اللَّه بها على مصر.

واليوم يتنامى هذا الدور وذلكم الواجب حيال ما تمر به البلاد العربية والإسلامية من ظروف خاصة وحساسة تعيشونها جميعًا، ويحاول الأزهر -في مواجهة هذه الظروف- أن يقوم بواجبه في الدعوة إلى التوحد والتلاقي والتكامل، والقضاء على نزعات التشدد والتطرف والتهميش والإقصاء.

وفي الظروف الحاضرة -وحين هَيّأ اللَّه لنا خدمته والقيام على شؤونه- لم يتوان الأزهر في العمل على استعادة هذا الدور، وإصلاح البيت من الداخل بالرجوع إلى التربية الأزهرية القائمة على الأصالة والمعاصرة، مع تطويرها وتجديدها، والمحافظة على منهج الوسطية والاعتدال، بما جعل الأزهر الشريف مناط أمل للعالم العربي والإسلامي بل وفي العالم كله.

وحين فاجأتنا الأحداث بما وقع في كنيسة القديسين بادر الأزهر إلى إقامة «بيت العائلة المصرية» ليشمل بمظلته كل أبناء مصر، ويحمي حقوقهم وحرماتهم، بمشاركة جميع الكنائس المصرية، وفي مقدمتها الكنيسة الأم الأرثوذكسية، عملًا على حماية وحدة النسيج الوطني وتضامن الجماعة

الوطنية، بعيدًا عن التمييز الديني والفتن الطائفية وسائر التهديدات التي قد تؤثر على هذا النسيج المصري الواحد.

ثم جاءت وثيقة الحريات عالية مُدوِّية حين مست الحاجة في الساحة المصرية إلى أن يُصدر الأزهر الشريف نصًّا مرجعيًّا يسهم في حماية مجتمع حُرٍّ يتطلع المصريون إلى العيش في ظلاله، وقد تضمنت هذه الوثيقة التأصيل الشرعي والفلسفي والدستوري لحرية العقيدة وحرية البحث العلمي، وحرية الإبداع الأدبي والفني، وكل ما يحمي ذلك من حرية الرأي والتعبير عنه وهو جوهر الحرية المسؤولة بجوانبها المختلفة.

وهذا هو ما أكدته باقي وثائق الأزهر التي صارت عمدة في إرساء ثقافة الديموقراطية والتعددية والتداول السلمي، وحق كل المواطنين في التحاكم إلى شرائعهم الخاصة في أحوالهم الشخصية، وعلى المساواة بينهم على أساس من المواطنة وليس على أي اعتبار آخر.

بل ذهب الأزهر إلى أبعد من ذلك حين احتضن «الحراك السلمي» في الثورتين، وعمل على تأصيله شرعيًّا، وحمايته وطنيًّا، من استغلال أية قوى أخرى في الداخل أو الخارج، داعيًا إلى الحرص على الطابع السلمي في يناير ويونيو، والبعد عن إراقة الدماء بكل سبيل ممكن.

ولا أشك في أنكم قد تابعتم هنا هذه الأدوار وتجاوبتم معها، لما يمثله من انتصار للحرية، ومناصرة للعدل، ودعوة إلى العدالة الاجتماعية وإسعاد كل المواطنين.

وشكـرًا لحُسـن استماعكم

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

كَلِماتٌ
في المنهجِ الأزهريِّ(*)

(١)

الحَمْدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ، وعلَى آلِه وصَحبِه ومَن اهتدَى بهُداه.

وبعد:

فلعَلَّ مِنَ المفيدِ للقارئِ الكريمِ أنْ أُقَدِّمَ له مُؤَسَّسةَ الأزهرِ الشَّريفِ في فِقْراتٍ، قد تَطُولُ قليلًا، لكنَّها تُلقي بعضَ الضَّوءِ على طَبيعةِ المنهجِ العلميِّ في هذه المؤسَّسةِ، وكيفيَّةِ التَّكوينِ العقليِّ والوجدانيِّ لتلاميذِها وطلَّابِها، ومدى انعكاسِ هذا المنهجِ على رؤيةِ الأزهريِّين للأُخوَّةِ الإسلاميَّةِ والأُخوَّةِ الإنسانيَّةِ سواءً بسواء.

يُحَدِّثُنا التَّاريخُ أنَّ الجامعَ الأزهرَ احتُفِلَ بافتتاحِه بإقامةِ صلاةِ الجُمُعةِ فيه يومَ السَّابعِ مِن رمضانَ سنةَ: ٣٦١هـ، الموافقَ ٢١ من يونيو سنةَ: ٩٧٢م، أي منذُ ١٠٧٦ عامًا هجريًّا، أو ١٠٤٤ عامًا ميلاديًّا مِن عمرِ الزَّمانِ.

ورُغم أنَّ الغرضَ مِن إنشاءِ الجامعِ الأزهرِ كان في باديْ الأمرِ نشْرَ «المَذهبِ الشِّيعيِّ» ودعمَه، إلَّا أنَّ اللَّه تعالى شاءَ لهذا المعهدِ العتيقِ أن يقومَ على رعايةِ مذاهِبِ أهلِ السُّنَّةِ أوَّلًا وبالذَّاتِ، مع الانفتاحِ على المذاهبِ الإسلاميَّةِ الأُخرَى ثانيًا وبالعَرَضِ.

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقِيَت في الكويت في ٢١ يناير سنة: ٢٠١٦م/ ١٠ ربيع الآخر سنة: ١٤٣٧هـ.

وظلَّ الأزهرُ إلى يومِ النَّاسِ هذا يقومُ بواجبِه في تعليمِ الإسلامِ: عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، كما أرادَهُ اللَّهُ رحمةً وسلامًا وأُخوَّةً، وكما بلَّغَه محمَّدٌ ﷺ هُدًى ونورًا وعدلًا ومساواةً بين النَّاسِ.

أمَّا منهجُ الأزهرِ التَّعليميُّ فقَد كانَ -منذ بدايتِه- مَنهجًا يحرِصُ على أن يُرسِّخَ في عقولِ الطُّلَّابِ ووُجدانِهم صورةَ الوجهِ الحقيقيِّ للإسلامِ، عَبْرَ ترجمةٍ صادِقةٍ لطبيعةِ التُّراثِ الإسلاميِّ وجوهرِهِ، في أبعادِه الثَّلاثَةِ: النَّقليَّةِ والعقليَّةِ والذَّوقيَّةِ، وأنَّ هذه الأبعادَ الثَّلاثةَ تمتزجُ امتزاجًا كامِلًا متناغِمًا في طبيعةِ «التَّكوينِ العلميِّ الأزهريِّ» مِن خِلالِ دِراسةِ علومِ النَّصِّ، والعقلِ، والذَّوقِ.

والمُرادُ بعلومِ النَّصِّ: كُلُّ ما نَشَأ مِن علومٍ ترتبِطُ بنَصِّ القُرآنِ الكريمِ أو نصِّ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ الصَّحيحةِ، كـ«التَّفسيرِ وعلومِ القُرآنِ، والحديثِ وعلومِه، والفِقهِ وأصولِه، وعلومِ السِّيرَةِ، وكُلِّيَّاتِ العقيدةِ وكُبرياتِ مسائلِها»، وباختصارٍ: كُلُّ عِلمٍ يُشكِّلُ النَّصُّ فيه موضوعًا تدورُ عليه مسائلُ العِلمِ، ويكونُ النَّصُّ فيه مأخَذَ البَرهَنَةِ والاستدلالِ.

ويُقصَدُ مِن علومِ العَقلِ: العلومُ التي يستقِلُّ العقلُ فيها بإثباتِ مسائلِها وقضاياها بتوسُّطِ الاستدلالِ النَّظريِّ، مثلُ عِلمِ الكلامِ أو علمِ أصولِ الدِّينِ، وهما بمعنًى واحدٍ، ومثل الفلسفَةِ الإسلاميَّةِ بمختلِفِ مدارِسِها، والمَنطقِ، وأدبِ البحثِ والمُناظَرةِ، وعِلمِ الجَدَلِ والخِلافِ في تطبيقاتِه الكَلاميَّةِ (لا الفقهيَّةِ).

أمَّا علومُ الذَّوقِ فهي علومُ التَّصوُّفِ الإسلاميِّ بمَدارسِه وأذْواقِه ومَشارِبِه المتعدِّدَةِ، وهو عِلمٌ يعوِّلُ على وارداتِ القَلبِ وإشراقاتِه والإلقاءِ في الخاطرِ بعدَ التَّخلِّي والتَّحلِّي. وعِلمُ الأخلاقِ وَثيقُ الصِّلَةِ بعِلمِ التَّصوُّفِ، ويَقرُبُ أنْ يكونَ مُقدِّمَةً أو مَدخلًا لهذا العِلمِ.

وهذا المَنهجُ يُمثِّلُ وسَطيَّةَ الإسلامِ الَّتي هي أخصُّ وصفٍ لهذا الدِّينِ القَيِّمِ، كما يُمثِّلُ الفَهمَ المُعتدِلَ لنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وما نشَأ حولَهما مِن إبداعاتٍ علميَّةٍ وفكريَّةٍ وروحيَّةٍ، ثُمَّ هو يُرسِّخُ في ذِهنِ الطَّالبِ الأزهريِّ، منذُ نُعومةِ أظفارِه في قاعاتِ الدَّرسِ، مبدأَ الحِوارِ وشرعيَّةَ الاختلافِ، وثقافةَ: «إن قيل: قُلنا»، و«لا يُقال كذا؛ لأنَّا نقول كذا»، و«لا يُعترَضُ علينا بكذا؛ لأنا نُجيبُ بكذا».

وقَد تمثَّلَ كلُّ ذلك في نظامٍ تعليميٍّ تربويٍّ في آنٍ واحدٍ، يتيحُ للتِّلميذِ الصَّغيرِ المبتدئِ أن يختارَ منذُ الطُّفولةِ الباكرةِ مذهبًا من بينِ المَذاهِبِ الفقهيَّةِ المتعدِّدةِ، يَدرُسُه ويَتعمَّقُ فيه، ويهيِّئُ ذهنَه -شيئًا فشيئًا- لاستيعابِ أكثرَ مِن مذهبٍ وأكثرَ مِن رأيٍ فيما يدرُسُه مِن علومٍ ويحصِّلُه مِن معارِفِه، وأنَّ جَميعَ هذه الآراءِ -رغمَ تبايُناتِها الواسعةِ- مقبولةٌ وصحيحةٌ، ولَيْسَ من حَقِّ أحدٍ أن يُصَادِرَ على أحدٍ آخَرَ رأيًا ارتآهُ، بعدَ أنْ دَرَسَه دِراسةً علميَّةً، توفَّرت لها كُلُّ أدواتِ المعرفةِ والنَّظرِ والتَّرجيحِ.

هذا المنهجُ الحِواريُّ المُعتَدِلُ نجَحَ في أن يُجنِّبَ طُلَّابَ الأزهرِ الانغلاقَ في مذهبٍ واحدٍ بعينِه، يَراه صَحيحًا ويرى غيرَه باطِلًا.

انظرْ إلى الواقعِ العمليِّ لحياةِ علماءِ الأزهرِ وطلَّابِهم، وهم يُطبِّقونَ الشَّريعةَ في عباداتِهم ومعاملاتِهم في حياتِهم اليوميَّةِ، وتأمَّلِ الاختلافاتِ الحركيَّةَ والعمليَّةَ في أحكامِ الصَّلاةِ والصِّيامِ والحَجِّ والزَّواجِ والطَّلاقِ، والفَتاوَى التي تتغيَّرُ مِن بلدٍ لبلدٍ ومِن زمانٍ لزمانٍ ومِن شَخصٍ لشَخصٍ؛ لتُدرِكَ أنَّ منهجَ التَّعَلُّمِ والتَّعليمِ في الأزهرِ مُصَمَّمٌ -مِن قديمِ الزَّمانِ- على قاعِدةِ التَّعدُّدِ والتَّكامُلِ وقَبولِ الرَّأيِ والآراءِ الأُخرَى.. وهل ما بينَ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ -عندَ أهلِ السُّنَّةِ وغيرِهم- مِن تبايناتٍ في الفَتاوَى

والأحكامِ، منذُ الأئمَّةِ الأربعَةِ وحتَّى اليوم، إلَّا شاهِدُ صِدقٍ على أنَّ التُّراثَ الإسلاميَّ في مختلِفِ تجلِّياتِه ومظاهِرِه هو تُراثٌ حواريٌّ تعدُّدِيٌّ يرفُضُ الانغلاقَ في مذهَبٍ بعينِه أو التَّمسُّكَ برأيٍ واحدٍ يتقيَّدُ به ويُقصِي غيرَه مِنَ الآراءِ، أو يراه خُروجًا مِن الدِّينِ الصَّحيحِ؟!

ونحن لا نُنكِرُ أنَّ تاريخَ المسلمينَ -قديمًا وحديثًا- قد ابتُلِي بمدارسَ مذهبيَّةٍ متشدِّدَةٍ تَطَرَّفَتْ في إقصاءِ الرَّأيِ الآخَرِ، والمَذهبِ المخالِفِ، وكفَّرته وحكَمَت عليه بالخروجِ مِنَ المِلَّةِ، ولكن مِنَ الجَهلِ الفاضِحِ أنْ يُقالَ: إنَّ هذا الانحرافَ كان هو السِّمَةَ الغالِبَةَ على تُراثِ المُسلِمينَ، أو هو القاعِدَةَ التي جرَى عليها تاريخُهم في القديمِ والحديثِ؛ لأنَّ الأمانةَ العلميَّةَ والتَّاريخيَّةَ تحتِّمانِ القَولَ بأنَّ أمثالَ هذه المدارسِ مثَّلَت شذوذًا، أو جِسمًا غريبًا سرعانَ ما يَلفِظُه وعيُ الأُمَّةِ، ويُبقِيه استثناءً في تاريخِها العلميِّ والفكريِّ، وذلك رُغمَ ما حَظِيت به هذه المدارسُ -ولا تزالُ تحظَى- مِن دعمٍ ماديٍّ ومعنويٍّ مِنَ السُّلطانِ حينًا، ومِنَ الأموالِ حينًا آخر، ومِنهما معًا في أغلبِ الأحايينِ.

على أنَّ المُدقِّقَ في سيرةِ هذه المذاهبِ المُنغَلِقَةِ والمتأمِّلَ في تاريخِها - يكتشفُ أنَّ هذه المذاهبَ قد تطفو على السَّطحِ حينًا مِن الدَّهرِ، وتتسلَّطُ على البُسَطاءِ والأغرارِ من العامَّةِ والدَّهْماءِ، إلَّا أنَّها سرعانَ ما تسقُطُ وتنهارُ بعدَ ما يطمِئنُّ دُعاتُها ومُموِّلُوها إلى أنَّهم غزَوا عُقولَ شَبابِ الأُمَّةِ في شَرقِ البِلادِ وغَربِها، وأنَّهم قَضَوْا على البِدَعِ والشِّركِ والوَثنيَّاتِ.

والأحداثُ المُعاصِرَةُ التي نراها رَأيَ العَينِ في واقِعِنا المُعاصِرِ الآن تُغنِيني عن تفصيلِ القولِ في أمرِ هذه المناهجِ وما أثمَرَته مِن نتائجَ كانَت وَبالًا على الإسلامِ والمسلِمينَ.

ولا يقتصِرُ المَنهجُ الأزهريُّ على ترسيخِ مبدأِ الحوارِ وشرعيَّةِ الاختلافِ واحترامِ الرَّأيِ الآخَرِ في دائرةِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ والفِكْريَّةِ عند المُسْلِمين فحَسْبُ؛ بَل يَعمَلُ الأزهرُ على ترسيخِ المبدأِ ذاتِه في أذهانِ طُلَّابِه، فيما يختصُّ بعَلاقةِ الإسلامِ بالأديانِ السَّماويَّةِ، وبطبيعةِ الحَالِ لا يَتَّسِعُ الوقتُ لِعَرضِ مَا يتميَّزُ به عطاءُ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] المَنهَجِ الأزهريِّ في هذا المجالِ فِكرًا وتَطبيقًا.

وقَد أشَارتِ التَّقاريرُ الرَّسميَّةُ مَرَّةً إلى أنَّ قوائمَ قادةِ الحركاتِ الإسلاميَّةِ المُسَلَّحَةِ قد خَلَت مِن أبناءِ الأزهرِ والمتخرِّجين في جامعتِه. وكان البعضُ ممَّن يتوقَّفون عِندَ ظواهِرِ الأُمورِ ويستهويهِمُ التَّنقُّصُ مِن شَأنِ تُراثِ المُسلمِينَ - يَعْجَبُونَ مِن هذه المُفَارقةِ، وكأنَّ القاعدةَ -فيما يتوهَّمُ هؤلاء- أنْ يتخرَّجَ قادةُ الإرهَابِ في هذه الجامِعةِ الدِّينيَّةِ، لا في الجامعاتِ الأخرَى، والَّذي لا يعرِفُه هؤلاءِ المتوهِّمون، أو يعرفونه ويتجاهلونه لغرضٍ في نفوسِهم المريضةِ، وبُغضٍ دفينٍ لعلماءِ الإسلامِ والمسلمين - هو أنَّ مَنهَجَ التَّعليمِ الأزهريِّ، لمَّا كَانَ منهجًا تعدُّديًّا في تدريسِ الأصولِ والفُروعِ في جميعِ مَراحلِه التَّعليمِيَّةِ - فإنَّه يَصُوغُ عُقولَ تلاميذِه وطُلَّابِه صِياغةً قِوامُها احترامُ الرَّأيِ الآخَرِ وعَدَمُ إقصائِه، أو مناصبتِه العَداءَ والتَّحدِّيَ والانتقامَ، مِمَّا يَتعذَّرُ مَعه استقطابُ تلاميذِ الأزهرِ وطلابِه إلى الغُلُوِّ والتَّطَرُّفِ فَضْلًا عن الإرهَابِ المُسَلَّحِ.

وقد أَلْفِتُ نَظَرَ القارئِ الباحِثِ عن الحقيقَةِ في أمرِ هذا التُّراثِ إلى مَثَلٍ حيٍّ يُجَسِّدُ دَورَ المنهجِ الأَزهريِّ في مُحارَبةِ الجُمودِ والتَّعصُّبِ اللَّذين هُمَا أَساسُ الفُرقَةِ والنِّزاعِ بينَ المُسْلِمِين الآن:

إنَّك لَو اسْتَعرضتَ خارِطَةَ شُعوبِ دُوَلِ العالَمِ الإسلاميِّ، وتوقَّفتَ عندَ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الَّتي تتقيَّدُ بها هذه الشعوبُ في عباداتِهم ومُعَامَلاَتِهم وأحوالِهِمُ الشَّخصِيَّةِ، فإنَّه لا يُعييكَ أنْ تَلمحَ ظاهِرةَ الانحيازِ إلى مذهبٍ فقهيٍّ واحدٍ، يرتبطُ به هذا الشَّعبُ أو ذاك: تَعَلُّمًا وتَعْلِيمًا وتطبيقًا، فبعضُ الدُّوَلِ الإسلاميَّةِ -مثلًا- تَحرِصُ على الاقتداءِ بالمذهبِ الحنفيِّ فقط، وأخرَى بالمذهبِ الشَّافعيِّ، وثالثةٌ بالحنبليِّ، ورابعةٌ بالمالكيِّ، وخامسةٌ بالجعفريِّ، وسادسةٌ بالإباضيِّ، وسابعةٌ بالزَّيديِّ، مع نَزعةٍ -قد تبدو على استحياءٍ- إلى التَّعصُّبِ للمَذهَبِ المُختارِ، وحِرصٍ على دعمِه وترويجِه وتصديرِه للعالَمِ الإسلاميِّ بحُسبَانه الحقَّ الَّذي لا حقَّ غيرُه .. إلَّا مصرَ؛ فإنَّها ظلَّت -وستظَلُّ- تتبنَّى مذاهِبَ أهلِ السُّنَّة الأربعة، يطبِّقُها المِصريُّون في تَناغُمٍ وانسِجامٍ وتوقيرٍ مُتبادَلٍ، ولَو رُحتَ تبحَثُ عن السَّببِ الأعمَقِ الَّذي جَعَلَ مِصرَ تتميَّزُ بهذه التَّعدُّديَّةِ فَلَن تَجِدَ إلَّا الأزهرَ، الَّذي يتوزَّعُ طُلَّابُه على المَذاهِبِ الأربعةِ يَدرُسُونها ستَّ سنواتٍ قبلَ أنْ يلتحِقوا بالجامعةِ، ويخرجون بها بينَ النَّاسِ دُعاةَ رحمةٍ وتيسيرٍ وتوسِعةٍ عليهم.

ولأنَّ منهجَ الأزهرِ يَستبعِدُ جَذريًّا الأفكارَ والمَذاهِبَ التي تُشَجِّعُ على الانغِلاقِ الذِّهنيِّ، وما ينتجُ عنه مِن تَشدُّدٍ وغُلُوٍّ، ثُمَّ مِن تكفيرٍ وإسالةٍ للدِّماءِ، واستحلالٍ للعِرضِ والمالِ - تبنَّى الأزهرُ منذُ قَديمِ الزَّمنِ مذهبَ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ المتوفَّى سنةَ: ٣٢٤هـ، لِيَتَّخِذَه مَنهَجًا في تدريسِ العقيدةِ الإسلاميَّةِ لِطُلَّابِه وطالِبَاتِه الَّذين يَبلُغُ عددُهم أكثرَ مِن مليونَي طالبٍ، مِنهم ٢٦٠٠٠ وافدٍ ووافدةٍ من إحدى عَشرةَ ومائةِ دولةٍ من دُوَلِ العَالَمِ(١).

وقد يتساءَلُ البعضُ عن سببِ اعتمادِ المذهبِ الأشعريِّ مِن بينِ المذاهبِ الأخرى؛ ليكونَ مُعَبِّرًا عن عقيدةِ الإسلامِ في الأزهرِ؟

---

(١) وَفقًا لإحصائيات عام ١٤٣٨هـ/ ١٤٣٩هـ، ٢٠١٧م/ ٢٠١٨م.

والإجابة: لأنَّه المَذهَبُ الَّذي لا اختراعَ فيه لعقيدةٍ مُستحدَثةٍ طارئةٍ لم تكنْ على هَديِ النَّبيِّ ﷺ وصحابَتِه رِضوانُ اللَّهِ عليهم، وإنَّما هو محضُ تسجيلٍ وتقريرٍ لما كان عليه رسولُ اللَّهِ ﷺ وصحابتُه والسَّلفُ الأوائلُ، وما تَلقَّتهُ الأمَّةُ بالقَبولِ ودَرَجَ عليه المسلمون في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، على امتدادِ تاريخِهِمُ الطَّويلِ، ثمَّ هو المذهبُ الذي يجتثُّ من أصولِه وفروعِه نزعةَ التَّعصُّبِ والتَّكفيرِ بالمذهبِ أو بلازمِ المذهبِ، وهو المذهبُ الوسَطُ بين جُموحِ العقليِّين وجمودِ النَّصِّيِّين، والمذهبُ الَّذي وَسِعَ المسلمين جميعًا ما داموا يَشهدون أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللَّهِ، ويُقيمون الصَّلاةَ، ويُؤتون الزَّكاةَ، ويصومون رمضانَ، ويَحُجُّون إلى البيتِ ما استطاعوا إليه سبيلًا.

وأصغرُ طالبٍ أو طالبةٍ في الأزهرِ الشَّريفِ يَحفَظُ عن ظهرِ قلبٍ قانونَ هذا المذهبِ وهو: «لا نُكَفِّرُ أحدًا من أهلِ القِبلةِ، ولا يُخرجُكَ من الإيمانِ إلَّا جحدُ مَا أدخلَكَ فيه»؛ أي: لا يُخرِجُك من الإيمانِ إلَّا أن تَجْحَدَ وتُكَذِّبَ باللَّهِ أو ملائكتِه أو كتبِه أو رُسلِه... إلخ، وما لم تقترِفْ هذا الخروجَ فأنت مسلمٌ حتى وإنْ بلغَت ذُنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ.

فصاحبُ الكبيرةِ في هذا المذهبِ مُؤمنٌ، وإنْ مَاتَ وهو مُصِرٌّ على ارتكابِها فأمرُه مفوَّضٌ إلى اللَّهِ؛ إنْ شاءَ عاقبَه، وإنْ شاءَ عفا عنه.

ويحرِصُ منهجُ الأزهرِ على ترسيخ هذا الاعتقادِ في يقينِ طلَّابِه في القسمِ الثانويِّ في مقرَّرِ مادَّةِ «التوحيدِ» ويُحفِّظُهم فيما يحَفِّظُهم مِن مُتُونِ هذا العِلمِ قولَ صاحِبِ «الجَوهرَةِ»(١):

---

(١) البيتان لإبراهيم اللَّقَاني في «جوهرة التَّوحيد»: ١٧.
ولأهميَّةِ نظمِ الجوهرةِ فقد بلَغَت شروحُها والتعقيباتُ على متنِها أكثرَ مِن ٤٠ عملًا علميًّا بينَ شرحٍ وتهذيبٍ وتقريرٍ وحاشيةٍ؛ وللتوسُّعِ في ذلك انظر: «كشفَ الظنونِ» =

إِذْ جائزٌ غفرانُ غيرِ الكُفرِ فلا نُكَفِّرْ مُؤْمِنًا بالوِزْرِ
ومَنْ يَمُتْ ولَمْ يَتُبْ مِن ذَنْبِهِ فأمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

كما يحفَظُ عن ظَهرِ قَلبٍ -كذلك- في مقرَّرِ مادَّةِ التوحيدِ في كليَّةِ أُصولِ الدِّينِ وكُلِّ الأقسامِ المناظِرَةِ في كُلِّيَّاتِ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ المنتشِرَةِ في طُولِ مصرَ وعرضِها - يحفظُ قولَ الإمامِ النَّسَفِيِّ في عقيدَتِه الشَّهيرَةِ؛ وهو يَفْصِلُ فصلًا حاسِمًا بينَ الذُّنوبِ والكَبائرِ مِن ناحيةٍ والإيمانِ مِن ناحيةٍ أُخرَى، ليُبيِّنَ للنَّاسِ أنَّ الكبائرَ مهما عظُمَتْ وتفاقَمَت لا تُخرِجُ العبدَ مِنَ الإيمانِ، وذلك في نَصٍّ تُشبِهُ صياغتُه صياغةَ القوانين، يقولُ فيه: «والكبيرةُ لا تُخرِجُ العبدَ المؤمِنَ مِنَ الإيمانِ، ولا تُدخِلُه في الكُفرِ»(١).

وما ذهَب إليه الإمامُ الأشعريُّ -والأشاعرةُ مِن بعدِه- هو ما يُقرِّرُه القرآنُ الكريمُ في صريحِ نصوصِه، فقد سمَّى مرتكبَ الكبيرةِ مؤمنًا وحَكَمَ بإيمانِه، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩].

= لحاجي خليفة (ت. ١٠٦٧هـ)، وذيلَه «إيضاح المَكنونِ»، و«هديَّة العارفين» -كلاهما لإسماعيل البغداديِّ (ت. ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م)- و«فهرسَ مخطوطاتِ مكتبةِ الأزهرِ الشَّريفِ»، و«خِزانة التُّراثِ» قاعدة بياناتِ مركزِ المَلِك فيصل للبحوثِ والدِّراساتِ الإسلاميَّةِ؛ و«جامعَ الشُّروحِ والحواشي» للحبشي: ١/ ٧٨٨- ٧٩٢ ط. المجمع الثَّقافي بـ«أبو ظبي».

(١) انظر النص مع شروحه في «الحواشي البهية على شرح العقيدة النسفية»: ١/ ١٦٨، ١٦٩. ولأهميَّةِ هذه العقيدةِ ومركزيَّتِها العريقةِ في تعليمِ طُلَّابِ الأزهرِ؛ وصَلَ عددُ الأعمالِ التي دارت حولها: إلى أكثر من ٩٠ عملًا علميًّا بينَ شرحٍ وحاشيةٍ وتقريرٍ وتعليقٍ ونظمٍ وترجمةٍ وشرحٍ على شرحٍ وتخريجِ أحاديث للشَّرحِ، وتزخرُ المكتبةُ الأزهريَّةُ بأغلبِها ما بينَ مخطوطٍ ومطبوعٍ؛ وللتوسُّعِ في ذلك انظر: «كشفَ الظُّنونِ» لحاجي خليفة (ت. ١٠٦٧هـ)، وذيلَه «إيضاح المَكنونِ»، و«هديَّةَ العارفِينَ»، و«فِهرسَ مخطوطاتِ مكتبةِ الأزهرِ الشَّريفِ»، و«خِزانَةَ التُّراثِ» قاعدة بيانات مركز الملك فيصل للبحوثِ والدِّراساتِ الإسلاميَّةِ، و«جامع الشُّروحِ والحواشي»: ٢/ ١١٨٣-١١٩٧.

فهاهنا في هذه الآيةِ طائفةٌ وصفَها القُرآنُ بالإيمانِ وسمَّاهم مؤمنِينَ رغمَ ارتكابِهم كبيرةَ القتلِ، كما عَطَفَ القُرآنُ الكَريمُ العملَ على الإيمانِ عَطْفَ مُغايرةٍ بينَهما مِرارًا وتكرارًا في مِثلِ قولِه تعالى: ﴿... ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقانونُ اللُّغَةِ يقضِي بأنَّ الشَّيءَ لا يُعطَفُ على نفسِه، وأنَّ «واوَ العَطفِ» تقتضي أنْ يكونَ ما بعدَها مغايرًا في حقيقَتِه لما قبلَها.. فإذا توسَّطَت «واوُ العَطفِ» في هذه الآياتِ بينَ الإيمانِ والعملِ، فلا مفرَّ مِن أن يكونَ للإيمانِ معنًى وللعمَلِ معنًى آخَرُ، وأنْ تكونَ حقيقَةُ العملِ خارِجَةً عن حقيقةِ الإيمانِ، وأن يبقَى الإيمانُ ثابتًا رغم انتفاءِ العملِ الصَّالحِ وثبوتِ العَملِ السَّيِّئِ الذي هو الذَّنْبُ والكبيرةُ.

وهذا المذهبُ الَّذي اختارَه الأزهرُ، ونشَّأَ عليه أبناءَ المُسْلِمين هو الَّذي يُعبِّرُ عن رَجاءِ النَّاسِ في اللَّهِ، ورَجاءِ العُصاةِ والمؤمنينَ في عَفوِه ومغفرتِه ورحمتِه، فمهما أسرَفَ العبدُ على نفسِه في اقترافِ المعاصي، فإنَّ شعورَه بأنَّه لا يزالُ «مؤمنًا باللَّه ورسولِه واليومِ الآخِرِ» يفتحُ أمامَه آفاقَ الثِّقَةِ في التوَّابِ الغفورِ الرحيمِ، بخلافِ ما لو استقرَّ في وِجدانِه أنَّه كَفَرَ بسبَبِ اقترافِ الذُّنوبِ والكبائرِ -التي قلَّما ينجو من اقترافِها أَحدٌ- فإنَّه -حالتئذٍ- يمتلئُ يأسًا وقُنوطًا مِن رَحمةِ اللَّهِ، فيُكمِلُ مشوارَ حياتِه على طريقِ الشَّيطانِ ودَربِ الجريمةِ والضَّلالِ.. وقد حذَّر القرآنُ الكريمُ مِن سُوءِ الفَهمِ في هذه القضيَّةِ، قضيةِ الخَلطِ بينَ الإيمانِ والعملِ فقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

على أنَّ الذي يَقرأُ مُقَدِّمَةَ كتابِ أبي الحسنِ الأشعريِّ المُعَنْوَنِ بـ: «مقالات الإسلاميِّين» تهتزُّ مشاعِرُه لسماحةِ الإسلامِ المُدهِشَةِ الَّتي تتجَسَّدُ في فِكرِ هذا الإمامِ الجليلِ، فقد جَمَعَ في هذا الكِتابِ الاختلافاتِ المذهبيَّةَ

الَّتي حدَثَتْ بينَ المُسْلِمينَ على عهدِه، وقسَّمَتْهم إلى فِرَقٍ وطوائفَ مُعتَدِلَةٍ ومتشدِّدةٍ، ومُفَرِّطَةٍ، ثُمَّ وَصفَهم جميعًا بعدَ ذلك -رُغمَ اختلافاتِ مقالاتِهم- بوصفِ المُسلمينَ، وعَنْوَنَ كِتابَه الذي يجمَعُ هذه المقالاتِ المختلِفةَ بعنوان «مقالات الإسلاميِّين واختلاف المُصَلِّين»، وقالَ في مُقَدِّمَته: «اختَلَفَ النَّاسُ بعدَ نبيِّهم ﷺ في أشياءَ كثيرةٍ، ضَلَّلَ فيها بعضُهم بعضًا، وبَرِئَ بعضُهم من بعضٍ، فصاروا فِرَقًا مُتباينين، وأحزابًا مُشتَّتِين، إلَّا أنَّ الإسلامَ يَجمَعُهم ويَشتَمِلُ عليهم»(١).

وقد ختَمَ هذا الإمامُ الجليلُ حياتَه بعبارةٍ تُكْتَبُ بماءِ العَينَين -كما يُقَالُ- لِمَا تَختَزِنُهُ مِن أمانَةٍ في تبليغِ الإسلامِ للناسِ على وجهِه الصحيح، يندُرُ أن تجِدَ لها نظيرًا في المذاهبِ الإسلاميَّةِ الأخرَى قاطِبَةً؛ فقد روَى الحافظُ ابنُ عساكرَ (ت. ٥٧١هـ) أنَّ الإمامَ الأشعريَّ حين حضَرتْهُ الوفاةُ في بغدادَ قالَ لأحدِ تلامذتِه: «اشهَدْ عَلَيَّ أنِّي لا أكفِّرُ أحدًا مِن أهلِ هذه القِبلةِ؛ لأنَّ الكُلَّ يُشيرون إلى مَعبودٍ واحدٍ، وإنَّما هذا كُلُّه اختلافُ العباراتِ»(٢).

ولو أنَّ هُواةَ التَّكفيرِ والمُتاجِرين به في سُوقِ السِّياساتِ والمُؤامَراتِ توقَّفوا بعقُولِهم وأفئدتِهم لحظةً واحدةً أمامَ هذه العبارةِ وأمثالِها في تُراثِنا العظيم؛ إذن لاستبدلوا التَّفكيرَ بالتَّكفيرِ، ولأدركوا بَشَاعَةَ ما يرتكبُون مِن جرائمَ تُشَوِّهُ الإسلامَ، وتُسِيءُ للمُسلمِين.

وليَعذِرْني الباحثُ عن حقيقةِ المناهجِ التعليميَّةِ في أروقةِ الأزهرِ إن أَطلتُ عليه في بيانِ هذا المَنهجِ المُؤَسَّسِ على تَعَدُّديَّةِ المَذاهِبِ، وفلسفةِ الحِوارِ، ومنطِقِ العَقلِ المُؤيَّدِ بالنَّقلِ؛ لأنِّي أرى أنَّ هذا المنهجَ كان

(١) «مقالات الإسلاميين» للأشعري: ١-٢.
(٢) انظر: «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر: ١٤٩.

ولا يزالُ -وسيبقَى- أقدَرَ المناهجِ على علاجِ أزمَةِ العَقلِ الإسلاميِّ المُعَاصِرِ، وما آلَ إليه أمرُ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ من تفكُّكٍ واضطرابٍ وفوضَى، وبخاصَّةٍ ما آلَ إليه حالُ أمَّتِنا العربيَّةِ من تَمزُّقٍ، وتدميرٍ لآصرةِ العروبةِ، ودَعَواتٍ مُريبةٍ لضربِ استقرارِ الوَحدةِ الوطنيَّةِ، وزعزعةِ الولاءِ للوطنِ، وتشتيتِه بين ولاءاتٍ طائفيَّةٍ ومذهبيَّةٍ، لا تَرعَى حُرمَةَ الأوطانِ ولا حُرمَةَ الدِّماءِ، ولا تُقيمُ وزنًا لمسؤوليَّةِ العَيشِ المُشترَكِ والسَّلامِ بينَ النَّاسِ.

وفي هذا المَقَامِ لا مَفَرَّ لنا مِنَ القَولِ بأنَّه ليسَ صحيحًا ولا مَشرُوعًا ما شَاعَ مؤخَّرًا في بلادِنا؛ مِن ظاهرةِ التَّنكُّرِ لولاءِ الوطنِ، والاستبدالِ به ولاءاتٍ أُخرَى عَقَديَّةً أو مذهبيَّةً أو سياسيَّةً تَضرُّ بمصلحةِ الوطنِ الَّذي يعيشُ على ثَراهُ هذا الخائنُ للأهلِ وللوطنِ: يأكُلُ من خَيراتِه، ويَنعَمُ هو وأسرتُه وأولادُه بثَرَواتِه ومُقَدَّراتِه؛ ثُمَّ لا يجِدُ حرجًا في صدرِه أن يطعَنَه مِنَ الخَلفِ غَدرًا وخِيانَةً للَّهِ ورسولِه والإسلامِ والمسلمِينَ.

إنَّ للوطنِ حقوقًا شرعيَّةً وأخلاقيَّةً وإنَّ البِرَّ به ورعايةَ حقوقِه لمِن صَميمِ أحكامِ الإسلامِ ومقاصِدِ شريعتِه، وإنَّ العابثِينَ بحُرمةِ أهلِه وحُرمَةِ دمائِه والخارجِين على أمنِه وأمانِه هم «قتلَةٌ» وصَفَهم القرآنُ الكريمُ بأنَّهم يحاربون اللَّهَ ورسولَه ويسعون في الأرضِ فسادًا وحدَّد جزاءَهم الذي نعلَمُه جميعًا، خزيًا لهم في الدُّنيا وعذابًا عظيمًا يومَ يلقون ربَّهم.

ونحن لا نقولُ جديدًا حينَ نُذكِّرُ بكلماتِ النَّبيِّ ﷺ، لمَّا أُخرِجَ مِن مَكَّةَ المُكَرَّمةِ، وَودَّعَها بكلماتٍ جَسَّدَت ما في قَلبِه الشَّريفِ مِن برٍّ بالوطنِ، وتعلُّقٍ به، فقد قال وهو يودِّع مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ مسقط رأسه الشريف: «مَا أَطْيَبَكِ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»(١).

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٩٢٦) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما، وقال التِّرمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ»، وصحَّحه أيضًا ابن حبَّان والحاكم وغيرهما.

وعلينا أنْ نتأمَّلَ هذا الكلامَ الَّذي يَفيضُ حبًّا وحنانًا لأرض الوطن وترابه، والذي يُودِّعُ به النَّبيُّ ﷺ وطنَه وأهلَه رغمَ أنَّه أُوذِيَ وحُوصِرَ وضُيِّقَ عليه في هذا الوطنِ، ورغمَ أنَّ هذا البلدَ في ذلكمُ الوقتِ كان مركزًا للوثنيَّةِ والشِّركِ.

وأمرٌ آخَرُ نستشفُّ منه شرعيَّةَ حُبِّ الوطنِ، وما يفرضُه هذا الحبُّ من ولاءٍ والتزامٍ ووفاءٍ لأرضِه وترابِه؛ وهو أنَّ بعضَ الصَّحابةِ كأبي بكرٍ وبلالٍ -رَضِيَ اللَّهُ عنهما- لَمْ يَكُن سَهلًا عليهمَا أن يَتوارَى عنهما وطنُهما إلى الأبدِ، فكان بلالٌ إذا أفاقَ من الحُمَّى يُعَبِّرُ عن ألَمِه لفِراقِ وطنِه بقولِ الشَّاعرِ[(١)]:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ[(٢)]

وأمرٌ ثالثٌ؛ هو أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعدما آخى بين المهاجرين والأنصارِ كتبَ وثيقةَ المدينةِ بين المسلمين وغيرِ المسلمين؛ ليُؤمِّنَ الوطنَ الجديدَ، ويَضمَنَ ولاءَ غيرِ المسلمين لهذا الوطنِ؛ حتَّى لا تَتزَعزَعَ أركانُهُ، أو يَتصدَّعَ بنيانُه، وقد تأسَّست هذه الوثيقةُ في ذلك الوقتِ المبكِّرِ على مبدأِ المُواطنةِ الكاملةِ، واعتبرتِ اليهودَ المقيمين في المدينةِ مِن مُواطني الدَّولةِ الإسلاميَّةِ، ونصَّ النَّبيُّ ﷺ على: «أن يهودَ بَنِي عَوْف أُمَّةٌ مع المؤمنين»[(٣)].

ولكن لمَّا نقضَ اليهودُ ما جاء في بنود هذه الوثيقةِ، وشكَّلوا خطرًا يُهَدِّدُ أمنَ المجتمعِ بالتَّآمُرِ عليه مع كُفَّارِ قُريشٍ والقَبائِلِ المُحيطَةِ بالمَدينةِ، لَمْ يتردَّدِ

(١) ورد البيت الأول منهما في «ديوان الهذليين»: ٢/ ٤٥.
(٢) أخرجه البخاريُّ (١٨٨٩) من حديث أمِّ المؤمنين عائشة ﵂.
وشامة وطفيل: جبلان بنواحي مكة. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»: ٣/ ١٣٠.
(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٥٠٣.

النَّبيُّ ﷺ في التصدِّي لهذه الخيانةِ، وحمايةِ الوطنِ من الخائنين، وكان ما كان مِمَّا نَعلَمُه مِن موقفِ النَّبيِّ ﷺ والمسلمين من مواجهة اليهود الناكثين للعهدِ، وإجلائِهم خارجَ المدينةِ.

إن هذه المواقفَ هي -فيما أرى- حججٌ شرعيَّةٌ ساطعةٌ وبراهينُ عمليَّةٌ على انحرافِ هؤلاء الَّذين يعيشون بأجسامِهم فوقَ أرضٍ، بينما ولاؤهم رَهنٌ بأرضٍ أخرى، أو جماعاتٍ مشرَّدَةٍ في الآفاقِ، أو زعاماتٍ ضالةٍ مُضِلَّةٍ هنا وهناك.

وليس مِن غرضِي أنْ أُطيلَ هنا في سَردِ المآسي الَّتي أحاطَت بِنا مِنْ كُلِّ جانبٍ، والتذكيرِ بالأمثلةِ المُحزنةِ في سوريا والعراقِ واليمنِ وليبيا ولبنانٍ، ولكن أريدُ أن أتساءلَ معكم: هل هناك سببٌ واحدٌ معقولٌ يُسوِّغُ هذه الدِّماءَ العربيَّةَ التي تُسفَكُ -ليلَ نهارَ- بأيدٍ عربيَّةٍ وغيرِ عربيَّةٍ؟ وهل يوجدُ مطلَبٌ واحدٌ في هذه الدنيا، مهما عَظُم شأنُه، يستحقُّ أنْ تُراقَ على مَذابحِه -كُلَّ يومٍ- دِماءُ عشراتِ الآلافِ من العربِ والمسلمِينَ!!

ولماذا يَنعَمُ العالَمُ كلُّه بالأمنِ والسَّلامِ والرَّفاهيةِ، ويشقى عالَمُنا العَربيُّ بِحروبٍ طاحنةٍ، عرفنا قَوادِمَها وبداياتِها، واللَّهُ أعلمُ بخوافيها ومآلاتِها؟!!

إنَّ الإنصافَ يقتضيني أنْ أقولَ: إنَّني لا أَشُكُّ لحظةً في أنَّ هُناك مُؤامرةً مِن وراءِ البحارِ، ولكن هناك أيضًا قابليَّةٌ نكراءُ مُحزنة -ومخزية أيضًا- من جانبِنا، ومِن بني جِلدتِنا، لتنفيذِ هذه المؤامرةِ.

ولَعَلِّي لا أَقَعُ في الاختصارِ المُخِلِّ وأنا أَذكُرُ -في خِتامِ كلمتي عن مناهجِ الأزهرِ- وجهةَ نظري في الأسبابِ التي أدَّت إلى ما نَحْنُ فيه من آفاتِ التَّكفيرِ والإرهابِ والقتلِ على الطَّائفةِ والمذهبِ.

أوَّلُ هذه الأسبابِ -فيما أعتقدُ- هو أنَّنا أَغضَينا الطَّرفَ طويلًا عن نوعٍ

مِن التَّعليمِ لم يَضَعْ في برامجِه ولا في حُسبانِه وَحدةَ الأُمَّةِ ولا وَحدةَ العربِ، إن لم أَقُلْ: إنَّ هذا النوعَ مِنَ التَّثقيفِ والتَّعليمِ اجترَأ على العَبَثِ بهذه الغايةِ المقدَّسَةِ، ووجَد مَن يدعَمُه ويُبارِكُه، ويغذِّيه بما ساعدَ على تأصيلِ الفُرقَةِ والخلافِ المذهبيِّ والطَّائفيِّ وتضخيمِه، وتحويلِه إلى ما يُشبِهُ الخِلافَ على الدِّينِ نفسِه، وليس على الطَّائفةِ والمذهبِ، حتى أصبحَ الطَّريقُ مُمَهَّدًا والأرضُ خِصْبَةً لظهورِ مذاهبِ التَّكفيرِ والطائفيَّةِ، وإسالةِ الدِّماءِ قُربانًا على مذابحِهما.

وثاني الأسبابِ هو أنَّ فريقًا مِن عُلَماءِ الأُمَّةِ لَمْ يَعُد هَمُّهُمُ الأكبرُ هو حِفظَ وَحدةِ الأمَّةِ ومصلحةِ المسلمين، وحمايةَ شعوبِهم مِن التمزُّقِ والتَّنازُعِ الَّذي يصلُ أحيانًا إلى درجةِ تكفيرِ المسلمِ للمسلمِ، أو تفسيقِه، أو إخراجِه من المِلَّةِ في أمورٍ خلافيَّةٍ طالما عَذَرَ المسلمون فيها بعضُهم بعضًا بقدرِ ما أصبحَ همُّهم الأوَّلُ والأخيرُ هو الانتصارَ لمذهبٍ واحدٍ، وتفسيقَ أصحابِ المذاهبِ الأُخرَى، وتشويهَ إسلامِهم وإيمانِهم عندَ أتباعِ هذا الفريقِ وتلاميذِه، ولم يتحسَّبوا لهذه الكارثَةِ التي تكرث الجميع الآن.

وقد ظنَّ هذا البعضُ أنَّه يُحسِنُ صُنعًا، ويدافِعُ عن الدِّينِ الحقِّ، بينما هو في واقعِ الأمرِ يعملُ في بِناءِ الإسلامِ هَدمًا وتَقويضًا.

وثالثةُ الأَثافيِّ -فيما أعتقدُ أيضًا- هو انشقاقُ العلماءِ أَنفُسِهم، وانغلاقُهم في مذاهبَ بعَينِها؛ مِمَّا فتحَ البابَ على مِصراعَيهِ لتغذيةِ حروبٍ أهليَّةٍ يدفعُ المسلمون الآنَ ثَمَنَها دماءً وأشلاءً ودمارًا وتشريدًا.

ولو أنَّ السَّادةَ العُلَماءَ تخلَّوا عن التعصُّبِ المَذهبيِّ والطَّائفيِّ، ولَجَؤوا إلى الحوارِ والنُّصحِ والحِكْمَةِ، ومجابهةِ القضايا الشَّائكةِ بتجرُّدٍ وموضوعيَّةٍ، وقِراءَةٍ أمينةٍ لشريعةِ الإسلامِ وواقعِ المُسْلِمين؛ إذن لفوَّتوا

الفُرَصَ على المتربِّصين بهذه الأمَّةِ، ولأنقذوها مِن كثيرٍ ممَّا حلَّ بها من فُرقةٍ وانقسامٍ وضعفٍ.

وأختِمُ كلمتي بما يشبهُ الآمالَ التي لا أدري هل تتحقَّقُ أو لا تتحقَّقُ، فهي -على كُلِّ حالٍ- أحلامُ العاجزِ الذي لا حيلةَ له إلَّا الأمانيُّ والآمالُ، لكنَّها -رغم آلامِها وأوجاعِها وقسوتِها- لا تخلُو مِن ثِقةٍ في اللَّهِ تعالى وفي هذه الأُمَّةِ التي وعدَها اللَّهُ ما لم يَعِدْ به أُمَّةً مِن قبلِها، وضَمِنَ لها القوَّةَ والعِزَّةَ والحياةَ الطَّيِّبةَ إنْ هي تحاشت ما يؤدِّي إلى التنازعِ والفشلِ من فُرقةٍ واختلافٍ وتعصُّبٍ مذهبيٍّ.. وسبيلُها إلى ذلك -فيما أرَى- أمور:

أوَّلًا: ضَرُورَةُ العودةِ بالخلافيَّاتِ -في العقائدِ والأديانِ- مِن شاشاتِ الفضائيَّاتِ إلى أروقةِ الدَّرسِ في الكُلِّيَّاتِ الجامعيَّةِ المتخصِّصةِ، ومجالِسِ العُلَمَاءِ المُختصِّين مِن المتمكِّنينَ مِن العلومِ العقليَّةِ، وفي مقدمتِها: عِلمُ الكلامِ والمنطقِ وعِلمُ الجدلِ، وكذلك علوم اللُّغةِ، وفي مقدمتِها: علومُ البلاغةِ، ومعرفة مباحثِ الحقيقةِ والمجازِ معرِفةً دقيقةً.. وألَّا يُترَكَ تفسيرُ الآياتِ والأحاديثِ -في هذا المجالِ- للشباب من أنصار المذاهبِ المتشدِّدةِ والمتعصِّبةِ والمتطرِّفةِ والتي كان لجمهورِ علماءِ الأُمَّةِ موقفٌ راسخٌ وقويٌّ في رفضِها وتفنيدِها منذ ظهورِها وحتَّى أيَّامِنا هذه..

ثانيًا: ضرورةُ تصدِّي العُلَمَاءِ مِن جميعِ المَذاهِبِ الإسلاميَّةِ بفتاوى صَريحةٍ وواضِحةٍ للعَابثين بتراثِ الأُمَّةِ ومُقَدَّساتِها ورمُوزِها، والتبرُّؤِ المُعْلَنِ مِن كُلِّ ما يُعَكِّرُ صَفوَ عَلاقةِ الأُخوَّةِ مِن أجلِ حساباتٍ مذهبيَّةٍ أو طائفيَّةٍ سياسيَّةٍ داخليَّةٍ أو خارجيَّةٍ.

ثالثًا: وقفُ آلةِ التَّكفيرِ المُتبَادَلِ وقفًا تامًّا، والعَمَلُ الجادُّ للقضاءِ على ثقافةِ الحِقدِ والعَداءِ والرَّغبةِ المَحمومةِ في الاستحواذِ والإقصاءِ، وتشجيعُ

كلِّ ما يقف في وجه نزعات التَّربُّصِ والكَيدِ، وكل ما يُغذِّي هذه الآفةَ من هواملِ التُّراثِ وشواردِه الَّتي طَواها الزَّمنُ، وأصبحت في ذِمَّةِ التَّاريخِ، وأصبحَ بَعثُها مِن مَرقَدِها، والاقتتالُ في حَومتِها - فَضيحةً حضاريَّةً بكلِّ المقاييسِ، وظُلْمًا فادِحًا لتاريخِ أُمَّةٍ هي خيرُ أمَّةٍ أُخْرِجَت للنَّاسِ.

ولسنا في حاجةٍ بعد ذلك إلى التَّأكيدِ على أنَّه لا سبيلَ للخروجِ مِن هذه الأزَماتِ المُعاصرةِ الَّتي تَطحَنُنا -نَحْنُ العَربَ والمُسْلِمين من بينِ سَائِرِ خلقِ اللَّهِ- إلَّا بالحِوارِ، والحِوارِ وَحدَهُ؛ فالحِوارُ هو الحَلُّ الَّذي لا حَلَّ غيرُه: الحِوارُ بينَ المسلمِينَ والمسلمِينَ، والحِوارُ بينَ المسلمِينَ وغيرِهم، فهو وَحدَهُ الكفيلُ بتفويتِ الفُرَصِ على أعداءِ الأُمَّةِ، وهَدْمِ مُخطَّطاتِ حُروبِ الجيلِ الرَّابعِ، واستعادةِ الوعيِ، وبعثِ الأملِ في مُسْتَقبَلٍ أفضلَ، وعيشٍ آمِنٍ مُستقِرٍّ.

❊ ❊ ❊

كَلِماتٌ
في المنهجِ الأزهريِّ(*)

(٢)

معاليَ أ.د/ مودجينا راها ردجيو، عميد جامعةِ: مولانا مالك إبراهيم الإسلاميَّةِ الحكوميَّةِ..

إخواني وزملائي أساتذةَ الجامعةِ..

أبنائي وبناتي مِنَ الطُّلَّابِ والطَّالِباتِ..

السَّـــلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

وبعدُ:

فإنَّه لَيُسْعِدُني حقًّا أن أَلتَقِيَ بكم أيُّها السَّادةُ العلماءُ، والشَّبابُ الباحثون، وطلابَ العِلمِ، في رِحابِ «جامعةِ مولانا مالك إبراهيم الإسلاميَّةِ الحكوميَّةِ»، وأن أَشَمَّ عِطرَ البحثِ العلميِّ في أجوائِكم، وأَرى الشَّوقَ إلى المعرفةِ في عُيونِكم، حتَّى إنِّي لَأَغبُطُكم -عَلِمَ اللَّهُ- لِما أنتم فيه، وقد أَثَرتُم حنيني إلى أيَّامِ التَّبتُّلِ في مِحرابِ العِلمِ، والتَّنقُّلِ في أَروقةِ الجامعةِ، والتَّمتُّعِ بتَذوُّقِ نصٍّ تراثيٍّ، أو باكتشافِ فكرةٍ جديدةٍ، أو بتوجيهِ باحثٍ شابٍّ إلى أقرَبِ الطُّرُقِ إلى بُغيتِه المنشودةِ.

يَعرِفُ شُعوري هذا جيِّدًا مَنِ اختارَ التَّعليمَ مهنةً ورسالةَ حياةٍ، وهي رسالةُ

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقِيَت أمامَ أعضاء هيئة التَّدريسِ في جامعةِ مولانا مالك إبراهيم الإسلاميَّة الحكوميَّة، في مدينةِ «مالانق» في إندونيسيا، في: ١٦ من جُمادى الأولى، سنة: ١٤٣٧هـ/ ٢٥ من فبراير، سنة: ٢٠١٦م.

الأنبياءِ مِن قبلُ، ويكفي المعلِّمَ شَرَفًا قولُه ﷺ: «**إنَّما بُعِثتُ مُعلِّمًا**»[(١)].

كما يعرفُ هذا الشُّعورَ مَن ذاقَ حَلاوةَ اكتشافِ الحقيقةِ بعدَ عَناءِ البحثِ وطُولِ التَّأمُّلِ وصِدقِ الطَّلبِ؛ وقديمًا قيلَ لبعضِ العلماءِ: فِيمَ لذَّتُكَ؟ فقالَ: «في حُجَّةٍ تَتَبَختَرُ اتِّضاحًا، وفي شُبهةٍ تَتضاءَلُ افتِضاحًا»[(٢)].

وعندما كانت أمَّتُنا -أيُّها السَّادةُ- تُمارِسُ الفُروسيَّةَ، ويَثِبُ شَبيبتُها على الخيلِ وَثبًا؛ لم يكُن في شُعورِها مِن متعةٍ تنافسُ متعةَ الفروسيَّةِ غير متعةِ الجلوسِ الهادئِ إلى صَفَحاتِ كتابٍ، وكثيرًا ما ردَّدَ أبو الطَّيِّبِ[(٣)] المُتنبِّي -رحمه اللَّه-:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

إنَّ المعرفةَ هي أعزُّ غايةٍ تُطلَبُ، وأوَّلُ واجبٍ يُكلَّفُ به العُقلاءُ، وهي تُراثُ الأنبياءِ.. «**إنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ**»[(٤)]؛ وهي مِفتاحُ بابِ الجنَّةِ.. «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»[(٥)]؛ وهي عِصمةُ الأمَّةِ مِنَ الضَّلالِ والتِّيهِ.. «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِعُ العِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ العُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ، يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ**»[(٦)].

---

(١) أخرجه -بهذا اللَّفظ- ابن ماجه (٢٢٩) مِن حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما، وله شاهدٌ أخرجه مسلمٌ (١٤٧٨) من حديثِ جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما، بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا».

(٢) انظر: «الكشَّاف» للزَّمخشريِّ: ١/ ٣٧.

(٣) في ديوانِه: ٤٨٠، وانظر: «الأمثال السائرة مِن شِعْرِ المتنبي» للصَّاحب بن عباد: ٦٧.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والتِّرمذيُّ (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه، وحسَّنه حمزةُ الكِنانيُّ، كما في «فتح الباري» لابن حجر: ١/ ١٦٠.

(٥) أخرجهُ مسلمٌ (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجهُ البخاريُّ (٧٣٠٧) ومسلم (٢٦٧٣) من حديثِ عبد اللَّه بن عمرٍو رضي الله عنهما.

فهنيئًا لكم تلك الحياة الممتعة، وهنيئًا لمن رَفعَهُ اللَّهُ فرَعَى حقَّ ذلك التَّكريم ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ثمَّ أقولُ لكم أيُّها الإخوةُ:

منذُ ألفِ عامٍ -بل تزيدُ- قامت في مِصرَ، البلدِ الوحيدِ الَّذي يَمتدُّ في فضاءِ القارَّتينِ العريقتينِ: آسيا وإفريقيا، وهما مَنشَأُ الحضاراتِ الإنسانيَّةِ، ومَهبِطُ كلِّ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ، قامت مَنارةٌ سامقةٌ، تَبعَثُ بأضوائِها الهاديةِ إلى أطرافِ العالَمِ كلِّه، وبخاصَّةٍ شباب هاتينِ القارَّتينِ مِن أبناءِ الأمَّتَين: العربيَّةِ والإسلاميَّةِ..

إنَّه الأزهرُ الشَّريفُ الَّذي بفضلِه أَقِفُ بينكُم اليومَ، والَّذي أُعِدَّ له هذا التَّكريمُ المشكورُ مِن إخوتِنا في إندونيسيا، وفي جاوةَ، مَعقِلِ العِلمِ والعلماءِ، أُعدَّ تكريمًا للأزهرِ في الحقيقةِ جامعًا وجامعةً، بل تكريمًا للمسلمين متمثِّلًا في خادمِ الأزهرِ الشَّريفِ، وخادمِ العِلمِ والعلماءِ، والفقيرِ إلى اللَّهِ تعالى الَّذي يَقِفُ بين أَيديكمُ الآنَ.

وليس الأزهرُ -أيُّها السَّادةُ كما تعلمون- مجرَّدَ معهدٍ عريقٍ أو جامعةٍ عالميَّةٍ، هي الأقدمُ في تاريخِ الإنسانيَّةِ؛ من حيث تواصلُ عطائها دون توقُّفٍ، طَوالَ هذه القُرونِ العديدةِ إلى اليومِ، وإنَّما هو في جوهرِه رسالةٌ، ومنهجٌ، وخطابٌ فكريٌّ متمَيِّزٌ.

فالأزهرُ الشَّريفُ يَحمِلُ مسؤوليَّةَ الجانبِ العِلميِّ والدَّعْويِّ مِن رسالةِ الإسلامِ، خاتمةِ الرِّسالاتِ الإلهيَّةِ إلى البشرِ كافَّةً، رسالةِ السَّلامِ العالَميِّ، والمساواةِ، والعدالةِ، والكرامةِ الإنسانيَّةِ، والتحرُّرِ مِن الآصارِ والقيودِ التي تُثقِلُ كاهلَ البَشرِ، وتُؤمنُ بكلِّ ما أرسَلَ اللَّهُ مِن رسولٍ، وما أنزَلَ مِن كتابٍ.. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ويَسلُكُ الأزهرُ في فَهمِ هذه الرِّسالةِ وتعليمِها والدَّعوةِ إليها مَنهجَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ؛ كما تمثَّلَ في فِكرِ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ بمقالاتِه المُنصِفةِ، وسائرِ كُتُبِه الَّتي شَقَّت طريقَ النَّظرِ العقليِّ في الأصلَينِ(١) بعُمقٍ ووسطيَّةٍ واعتدالٍ.

كما يَتمثَّلُ هذا المنهجُ أيضًا في تَبَنِّي أصولِ الأئمَّةِ المتبوعينَ من فُقَهاءِ الأُمَّةِ، دونَ تعصُّبٍ أو إقصاءٍ؛ فأبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ أعلامٌ تتردَّدُ في رِحابِ الأزهرِ الشَّريفِ، وآراؤُهم وأقوالُهم تُدرَسُ في أَروقتِه وتحت قِبابِه، في سَماحةٍ فكريَّةٍ، ونظَرٍ موضوعيٍّ جنبًا إلى جنبٍ، وبحثٍ مُخلَصِ النِّيَّةِ والهدَفِ، عنِ الأقوى دليلًا، والأوفى بحاجاتِ الأمَّةِ في ظُروفِها المتغيِّرةِ، ونوازلِها المتجدِّدةِ.

وما أَروعَ ما قالَ أميرُ الشُّعراءِ أحمد شوقي في قصيدتِه المشهورةِ عنِ الأزهرِ الشَّريفِ(٢):

وَسَما بِأَروِقَةِ الهُدى فَأَحَلَّها ... فَرعَ الثُّرَيّا وَهيَ في أَصلِ الثَّرى
وَمَشى إِلى الحَلَقاتِ فَانفَجَرَت لَهُ ... حَلَقًا كَهالاتِ السَّماءِ مُنَوِّرا
حَتَّى ظَنَنّا الشّافِعِيَّ وَمالِكًا ... وَأَبا حَنيفَةَ وَابنَ حَنبَلَ حُضَّرا

هذا، وقدِ استقامَ للأزهرِ على مَدَى القُرونِ مَنهجٌ يقومُ أوَّلًا على بناءِ مَلَكَةٍ رَصينةٍ لدى أبنائِه في اللُّغةِ العربيَّة، وأسرارِها العبقريَّةِ، ثمَّ في دِراسةِ الكتابِ والسُّنَّةِ، والعُلومِ الَّتي تخدمُهما، واستخلاصِ الأحكامِ الاعتقاديَّةِ والعَمَليَّةِ منهما، أَعني: علومَ أصولِ الدِّينِ وأصولِ الفقهِ، وعلومَ القُرآنِ، وعلومَ

(١) أصول الدِّين وأصول الفقهِ.
(٢) وهي القصيدة التي ألقاها بمناسبة البدء في مشروع إصلاح الأزهر الشريف سنة ١٩٢٤م، انظر: «الأعمال الشعرية الكاملة» لأحمد شوقي: ١/ ١٥٢.

الحديثِ الشَّريفِ، وعلومَ الفقهِ المذهبيِّ والمقارَنِ، وعلومَ التصوُّفِ والأخلاقِ، مع إلمامٍ بما يُعينُهم على فَهمِ عصرِهم، وماضي ثقافتِهمُ الإسلاميَّةِ وأطوارِها المختلِفةِ، ومَنابعِ الثَّقافةِ الإنسانيَّةِ بوجهٍ عامٍّ، مِن الفلسفةِ الشَّرقيَّةِ والغربيَّةِ، والآدابِ القديمةِ والمعاصِرةِ؛ ليُزوِّدوا منها بما يُعينُهم على فَهمِ الماضي والحاضرِ، والقُدرةِ على استشرافِ المستقبلِ، والإفتاءِ في النَّوازلِ والوقائعِ المتجدِّدةِ على منهجٍ عِلمِيٍّ، وأصولٍ مقرَّرة.

ولئن سألتُموني عن السِّمةِ المميِّزةِ للمنهجِ الأزهريِّ في الدَّرسِ العِلميِّ فلَأقولَنَّ: إنَّه منهجُ التَّحليلِ النَّصِّيِّ العَمِيقِ الدَّقيقِ لعُيونِ التُّراثِ الإسلاميِّ والعربيِّ، ممَّا خلَّفَته القُرونُ الأربعةَ عَشَرَ مِن كنوزِ ثقافتِنا؛ حتَّى تتكوَّنَ إلى جانبِ المَلَكةِ اللُّغويَّةِ مَلَكةٌ شرعيَّةٌ تُعينُ الخرِّيجينَ النُّجباءَ في هذا المعهدِ على الوَفاءِ بحاجاتِ الأمَّةِ؛ ممَّا أهَّلَهُ للمَرجِعيَّةِ الإسلاميَّةِ الموثَّقةِ في العالَمِ الإسلاميِّ كلِّه.

وقد قُدِّرَ لي -بِحمدِ اللَّهِ- أنْ أَذْلِفَ إلى رِحابِ هذا المعهدِ العَتِيدِ بعدَ تَنشِئَةٍ عربيَّةٍ رُوحيَّةٍ في بيتِ عِلمٍ ودينٍ، وعلى يدِ أَبٍ حَفِيٍّ أورَثَني الكثيرَ الَّذي أسألُ اللَّهَ أن يَجزيَهُ عنِّي وعنِ العِلمِ خيرَ الجزاءِ، ثم نَعِمتُ بتوجيهِ أئمَّةٍ أعلامٍ من شُيوخِ الأزهرِ، جمَعُوا بينَ العِلمِ الشَّرعيِّ على نَهجِ الأئمَّةِ، والحكمةِ الإسلاميَّةِ كما أَبدَعَها الفيلسوفُ العربيُّ يعقوبُ الكنديُّ، ومَن بعدَه مِن فلاسِفةِ الإسلامِ والمسلمينَ ومتكلِّميهم، والمَسلَكِ الرُّوحِيِّ على طريقِ أئمَّةِ السُّلوكِ والتُّقَى: الجُنَيدِ البغداديِّ والحارثِ المُحاسِبيِّ وأبي القاسمِ القُشيريِّ وأبي حامدٍ الغزاليِّ، وهو مَزِيجٌ غلَبَ على الأوساطِ الأزهريَّةِ منذُ الإمامِ المجدِّدِ ابنِ دَقِيقِ العيدِ وشيخِ الإسلامِ زكريَّا الأنصاريِّ، وصاحبِ «**الفتح**» ابنِ حَجَرٍ العسقلانيِّ، ثم الأئمَّةِ حسنٍ العطَّارِ، وعِلِيشٍ، ومحمَّد عبده، والمراغيِّ، ومصطفى عبد الرَّازق، وعبد الحليم محمود، وسليمان دنيا، وغيرِهم، رحمةُ اللَّهِ عليهم أجمعينَ.

وتلكم هي أصولُ الخطابِ الأزهريِّ المتميِّزِ بالوسَطيَّةِ في العقيدةِ بينَ أتباعِ السَّلَفِ المحترزينَ من التَّشبيهِ ومِن مَزالقِ التَّأويلِ، والخلَفِ المستحسِنِينَ للنَّظَرِ والقائلين بالتَّأويلِ بحسَبِ قانونِ العربيَّةِ ولفظِ الشَّرعِ الشَّريفِ، جَريًا على ما رُوِيَ عن إمامِ دارِ الهجرةِ: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدعةٌ»، وكذا التوسُّطُ بين إيثارِ التَّشدُّدِ أوِ التَّعصُّبِ لمذهبٍ مُعَيَّنٍ في فَهمِ خطابِ الشَّارعِ، وبين التَّسيُّبِ العِلميِّ، أو التَّفلُّتِ مِن أصولِ الاستدلالِ، والتَّرجيحِ بين آراءِ الفقهاءِ على غيرِ هَديٍ.

وما يلقاهُ الخطابُ الأزهريُّ الوَسَطِيُّ المعتدلُ الآنَ من قَبولٍ في العالَمِ الإسلاميِّ وخارجِه، إنَّما يَرجعُ إلى هذه الرُّوحِ الَّتي تَمزُجُ الفِكرَ العِلميَّ بالرُّوحِ الصُّوفيَّةِ، وتتمسَّكُ بالحدِّ الأوسطِ الَّذي وُصِفَ في مجالي العقيدةِ والعملِ، والَّذي يعكسُ الرُّوحَ الإسلاميَّةَ الأصيلةَ التي تَسُودُ العالَمَ الإسلاميَّ -بحمدِ اللَّهِ- بصَرْفِ النَّظَرِ عن بعضِ الأصواتِ الهامشيَّةِ هنا أو هناك.

هذا، وإنِّي لَأشعُرُ بالسَّعادةِ البالغةِ -أيُّها الإخوةُ- لقُدومي في هذه المناسبةِ الكريمةِ، إلى إخوتي في الدِّيارِ الجاويةِ، وقد خدمتُ العِلمَ الشَّريفَ والجيلَ الجديدَ، في عديدٍ من الجامعاتِ في العالَمَين: العربيِّ والإسلاميِّ، وهأنَذَا آتي إليكم ممثِّلًا لمؤسَّستِكمُ الإسلاميَّةِ العريقةِ «الأزهرِ الشَّريفِ»، وقد وُسِّدَتْ إليَّ قيادتُها وتوجيهُ دَفَّتها في ظُروفِنا المتغيِّرةِ والمضطربةِ، وإنِّي لأَثِقُ بفضلِه سبحانَه وتوفيقِه، وبهِمَمِكم وإخلاصِكم وغَيْرتِكم على دِينِكمُ الحنيفِ، وتُراثِكم العريقِ، وثقافتِنا الإنسانيَّةِ السَّمحةِ.

ثُمَّ إنِّي شاكرٌ لحضراتِكم جميعًا تفضُّلَكم بمَنحِكم إيَّايَ الدُّكتوراه الفخريَّةَ الَّتي أعتقدُ أنَّها إعلانٌ منكم بتكريمِ الأُخُوَّة بين مِصرَ الأزهرِ وجامعةِ مولانا مالك إبراهيم الإسلاميَّةِ الحكوميَّةِ.

مكانة العلم وآداب العلماء(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

أيُّها الإخوة العلماء أعضاء مجلس جامعة بني سويف الفتية الناهضة..

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته في داركم «مشيخة الأزهر الشريف»

وبعد:

فإنَّ العلم أشرفُ ما يعتزُّ به الإنسان ويرتفع به قَدْره ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١]، وهو في الوقت نفسه يُلقِي بمسؤولية كبرى على أهله نحو مجتمعاتهم ومَن حولهم من المواطنين بالخير والنَّماء والنَّفع، وبالنُّصح والبيان، والإقناع والبُرهان «**فالدِّينُ النَّصِيحَةُ، قِيلَ: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

وتعلمون -أيُّها العلماءُ الأجلَّاء- أنَّ العلم رَحِمٌ بين أهلِه، وأنَّه رابطةٌ عقليَّةٌ وروحيَّةٌ يسلكُ بها العلماء -على اختلافِ تخصُّصاتهم- سبيلًا واحدةً لكشف آيات اللَّه في كونه ينتهي بهم إلى الجنة: «**فَمَن سَلَكَ طريقًا يلتمس فيه**

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في مشيخة الأزهر الشريف، بمناسبة منح فضيلة الإمام الأكبر الدكتوراه الفخرية من جامعة بني سويف برئاسة الأستاذ الدكتور أمين لطفي، تحريرًا في: ٢٧ من جمادى الآخرة، سنة: ١٤٣٧هـ، الموافق: ٦ من أبريل، سنة: ٢٠١٦م.

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

علمًا - كما ثبت عن نبيِّنا في الصَّحيحِ من حديثِه - سهَّل اللَّه لَهُ به طريقًا إِلَى الْجَنَّةِ»[(١)].

وأوَّلُ آدابِ العِلمِ في الإسلام، بل أوَّلُ واجباتِ المُشتَغِلين به -كما تعلمون حضراتكم - هو إشاعةُ نَشْرِه بينَ النَّاسِ، والاعتزازُ به والالتزامُ بتقاليدِه وتَبِعَاتِه اللائقةِ بالعُلَماءِ وطُلَّاب المعرفةِ والحقيقةِ، وألَّا يَتحوَّلَ العلمُ في أيِّ فرعٍ من فُروعِه وتَخصُّصاته إلى سِلعةٍ تَخضَعُ لقانونِ العَرضِ والطَّلَبِ، وتُبتَذَلُ في أسواقِ المَنافِعِ والمَصالِحِ الضيِّقةِ، فالعِلمُ رسالةٌ قبلَ أنْ يكونَ مَصدَرًا للكسبِ الماديِّ الذي ينبغي أنْ يأتيَ ثانيًا وبالعرضِ، وليس أوَّلًا وبالذاتِ.

والعالِمُ حُرٌّ مُتحرِّرٌ من كُلِّ القُيُود، والعالِمُ الحقُّ هو الذي يَرَى موطنَه فوقَ السحابِ حتى وإن كان فقيرًا.

وقد قُدِّر لجِيلِي -والحمْدُ للَّه- أن يتَتَلمَذَ على عُلماءَ فُقَراءَ ترَكُوا في عُقُولِنا ونُفُوسِنا قبَسَاتٍ ما زالت تقودُنا في مَسِيرتِنا العلميَّةِ والخُلُقِيَّةِ، وإن أنسى لا أنسى تَغنِّي بعضِهم بقولِ الإمامِ الشافعيِّ رضي الله عنه:

أنا إنْ عشتُ لَسْتُ أعدمُ قُوتًا ... وإذا متُّ لستُ أعدمُ قَبْرَا
هِمَّتِي همَّةُ المُلوكِ ونَفْسِي ... نَفسُ حُرٍّ تَرَى المَذلَّةَ كُفْرَا
وإذا ما قنعتُ بالقُوتِ عُمْرِي ... فلماذا أَهابُ زيدًا وعَمْرَا

أيُّها الإخوةُ الأعزاءُ، كم أنا فخورٌ وسعيدٌ بأنْ تَتَكرَّم عليَّ جامعةُ بني سويف بمنحي الدكتوراه الفخريَّة، هذه الجامعة الفَتيَّة، بشبابها الباكر، وعملها الدؤوب، وإخلاصها لأبناء مصر كافَّة وأبناء الصعيد الأدنى والأوسط بوجهٍ خاصٍّ، وإنه لَوِسامٌ على صدري أن تتكرَّم جامعة بني سويف

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على ابن من أبناء الصعيدِ الأقصى بهذه الدرجة العلمية الرفيعة الفاخرة، وإني -واللَّه- لأقدرها حق قدرها، وأعتزُّ بها أيما اعتزاز، وأعلم أنَّها تقدير علمي لمؤسسة الأزهر ومشيخته قبل أن تكون تقديرًا لشخصي الضعيفِ.

ولئن كان هناك ما يجبُ عليَّ أن أشارككم إيَّاه من فكر، في هذا المقام، فهو أن هذا التكريم أيضًا هو تقدير علمي لمنهج الأزهر الوسطي، ونزعته التجديدية الملتزمة منذ الشيخ محمد عبده ومن بعده الشيوخ: سليم البشري، ومحمد بخيت المطيعي، ومحمد مصطفى المراغي، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد عبد اللَّه دراز، ومحمود شلتوت، إلى أبي زهرة والغزالي، وسائر الكوكبة الشريفة المشرفة من علماء الأزهر وأئمته الأوفياء لما وسده إليهم رسول اللَّه ﷺ في قوله: «**يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ**»(١).

وأعِدُكم أيها الإخوة العلماء أن نَظَلَّ أوفياء لهذا المنهج التجديدي الوسطي، ننفي عنه تحريف الغُلاة المُخرِّبين للعُقول، المُحرِّفين للدين، ونعمل على تنقية تُراثه العريق ممَّا عساه ندَّ به من إفتاءٍ شاذٍّ، أو فكرٍ سقيم، ومقاومة التأويل الفاسد القائم على غير قواعد العلم والفهم والتفسير والدعوة الصحيحة.

أتوجه بالشكر مرَّةً أخرى للأستاذ الدكتور/ أمين لطفي، رئيس جامعة بني سويف والوفد المرافق لسيادته، كما أُعرِبُ عن اعتزازي لجامعة بني سويف، وانتسابي العلمي والفكري إلى رجالها الأوفياء، وأدعو لكم ولكلِّ أبناء وطننا من نخبةٍ علميَّةٍ أو جماهير وطنيَّة بحُسن القصد وإخلاص النيَّة، والسعي لتعمير الأرض وخِدمة مصر والإنسانيَّة.

والسَّلام عَلَيْكُم ورَحمةُ اللَّه وبَركَاته

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

طلَّاب الأزهر الشَّريف
أمل الأمَّة ودُعاة الحقِّ والعدل(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيدِنا رسول اللَّه ﷺ، وعلى آلِه وصَحْبِه ومَن اهْتَدَى بهَدْيِه إلى يَومِ الدِّين.

الحَفلُ الكَريم..

السَّلام عليكم جميعًا ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فَباسمِكُم، وباسْمِ الأزْهَر الشَّريف؛ أتقدَّمُ بخالِصِ الشُّكْرِ والتقديرِ للأستاذ الدكتور/ علي عبد العال -رئيسِ مجلس النُّوَّاب-، على مشاعِره النَّبيلة الرَّاقية، وحِرصِه على المُشاركة في الاحتفالِ بتكريمكُم، وتصْمِيمِه على تقديمِ بعض الجوائز لأوائلِ طلاب الشهادة الأزهرية المتفوقين هذا العام.

هذه المشاركة سيادة الرئيس لا تُعبِّر عن مشاعركم النَّبيلَة فقط، بل تُعبِّر عن مُشاركة شعب مصرَ بأكمله، تعبيرًا راقيًا يليقُ بهذا الشعب الوفيِّ العظيم، ويرسل من خلاله برسالةٍ كلُّها وفاءٌ واحترامٌ وتقديرٌ للأزهرِ الشَّريف وطُلَّابه وطالباته، وفيها أيضًا تأكيدٌ على أنَّ هذا الشَّعب لَنْ ينسَى أبناءه ولَنْ يبخسَهُم حقوقهم.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في حفل تكريم أوائل الشهادات الأزهرية، بقاعة مؤتمرات الأزهر الشريف، في: ١٥ من ذي القعدة، سنة: ١٤٣٨هـ، الموافق: ٨ من أغسطس، سنة: ٢٠١٧م.

إنَّ مشاركتكم اليَوْم لنا معالي الدكتور هي في الواقعِ تكريمٌ لأكثرَ من مليوني طالبٍ وطالبة من طُلَّاب الأزهر الشَّريف، في مرحلةِ التعليم ما قبلَ الجامعي، ولقرابةِ أربعمائةِ ألف طالب وطالبة في جامعة الأزهر، منهم أكثر من ثلاثين ألف طالب وطالبة وافدين ووافدات، من أكثر من: ١٠٠ دولة، فَشُكْرًا مَرَّةً أُخرى سيادة رئيس مجلس النواب، وَشُكْرًا للسادة النواب، وَشُكْرًا لشعب مصر الخلوق على هذه اللَّمْسَة المُقدَّرة والمشكورة، وهذا الوفاء، وهذا الحنوِّ على أبنائه وبناته من طلبة الأزهر الشريف.

أَمَّا أنْتُم أيُّهَا الطُّلاب الأذكياء النجباء، فإنِّي، ومعي قيادات الأزهر، نُهنِّئُكُم من كل قلوبنا على هذا الفوز العظيم، الذي وفَّقكم اللَّه إليه بفضلِ اجتهادكم وصبركم على مُكابدة تحصيلِ العِلْم النَّافِع من عُلُومِ الدِّينِ والدُّنيا، كما أُهَنِّئ أُسَرِكُم الكَريمة الَّتي وقَفَتْ مِن خَلفكُم تَدْعمُكُم، وتُشَجِّعُكُم، وتحثكُم على الجدِّ والتعب وتحمُّل المشقَّة والمُعاناة، وزرع الثِّقَة في اللَّه، والتعوُّد على الاعتماد على النَّفس؛ فلهذه الأُسَر المصريَّة الأصيلة المسؤولة الجادَّة كلُّ التقدير، وكلُّ التحيَّة، وكل الإجلال، والاعتزاز والافتخار..

وإنِّي إذ أُهَنِّئُكُم بناتي وأبنائي بما حقَّقتمُوه من تفوُّقٍ؛ فإني لأُهَنِّئُكم مَرَّتين:

- مَرَّة لأنكم حققتم هذا التفوق.

- ومَرَّة ثانية لأنكم تفوَّقْتُم في منهجٍ دراسيٍّ مثقل مُزدَوَج؛ إذا ما قيس بالمناهج الدراسيَّة في التعليم غير الأزهري.

لقد تفوقتم في كُل المواد التي تفوَّق فيها أقرانكم في التعليم العام بقسميه: الأدبيِّ أو العلميِّ، ثم انفردتم بتفوق آخر في مناهجكم الأزهرية في أصول الدِّين والشَّريعة واللُّغة العَربيَّة.. وهذه بطولة بكل المقاييس، وهي

أجدر بأن يُفرد لها تقدير خاص، نرجو أن نكون قد وُفِّقْنا اليَوْم في القيام ببعضِ حَقِّه.

ولِتذْكِرتكم -معالي الأستاذ الدكتور!- وتذكرة شعب مصر كلِّه من ورائكم- نبيِّن لكم أنَّ طالب الثانويَّة الأزهرية يَدرُس منهجًا مزدوجًا، يجمع فيه بين منهج وزارة التربية والتعليم كاملاً وبين منهج الأزهر، وأنَّ الكُتُبَ المُقرَّرَة في القِسْمِ العِلميِّ والأدبيِّ في التربيةِ والتعليم هي بعينها الكُتُب المُقَرَّرة بالقسمين: العلميِّ والأدبيِّ بالأزهر، وأنَّ هؤلاء المُكرَّمين الَّذين يَجلسون أمامَكم الآن، قد امتحنوا في أربعةَ عشر مُقرَّرًا في الصف الثَّالث الثانوي، بينما امتحن أقرانُهم في التربيةِ والتعليم في سبع مواد فقط.

ونتيجةً لهذا التفاوت الكبير في المقررات استمرَّ امتحانُ الثَّانوية الأزهريَّة شهرًا كاملًا، يُمتحَن فيه الطالب في ثلاثة مواد في كلِّ أسبوع، بينما استغرق امتحانُ الثانويَّة العامَّة ثلاثة أسابيع يُمتحن الطالب فيها في مادتين فقط كل أسبوع.

ولعل المقارنة المُنْصِفة تُغني في صَمتها الوقور عن أي ردٍّ على الهازئين والسَّاخرين من الأزهر ومناهجه.

بَنَاتِي وأبنائِي..

سِيروا على بركةِ اللَّه، وواصلوا العزيمةَ والإصْرار والاحتفاظَ بهذا التفوق في كُلِّيَّاتكم التي ستختارُونها؛ سَواءٌ في الكُليَّاتِ الأزهريَّة الأصيلة، أو الكُليَّات العمَليَّة والتقنيَّة.

ولا تظنُّوا أنَّ مفهومَ العِلْم مُنحصِرٌ في علومِ الدِّينِ واللُّغَة العربية فقط، بل يتعدد مصداقه ليشمل كلَّ عِلْمٍ ينفع الإنسانيَّة ويُسْعِد البَشريَّة ويُحقِّق لها المنافِع والمصالِح المُعتبرةَ عقلًا وشرعًا وأخلاقًا.

وسوف تترصد لكم مُزعِجاتٌ كثيرةٌ على جانبي الطَّريق، تُحاولُ أن تصرفكم عن أهدافِكُم الشَّريفة، فلا تلتفتوا إليها، وكونوا منها على حَذَر، وامضوا في طريقِ تحصيل العِلْم؛ فأنتُم الأُمَناء على رسالة اللَّه، وعلى يُسْرِ هذا الدين وإنسانيَّته.

أظهروا رحمة هذا الدِّين بالناس، وبالحيوان، والجماد، وانشروا تعاليمه السَّمْحَة، وبيِّنوا للنَّاسِ جَماليَّات القُرآن الكَريم والسُّنَّة المُطهَّرة، ودُلُّوهم على سماحة شريعته الغَرَّاءة، ولا تركنوا إلى المُنغَلِقين الذين أداروا ظهورَهم لفَهْم دين اللَّه فهمًا صحيحًا كما أراده اللَّه ورسوله، ورهنوا عقولَهم لدعاةٍ على أبوابِ جهنَّم من الأخسرين أعمالًا، الذين ضلَّ سعيهم في الحياةِ الدُّنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

فأنتم أَمَلُ الأُمَّة، ودُعاة الحق والعدل، وبدعوتكم ينتشرُ السَّلام بين النَّاس جميعًا، مهما اختلفت أديانهم وأعراقُهم وعقائدهم.

واعلموا أنكم تتفرَّدون من بين جامعات الدُّنيا كُلِّها بأنكم تَسندون ظهوركم إلى مُؤسَّسَةٍ عريقةٍ، مضى عليها الآن أكثرُ من ألف عام وهي تنشُر العِلْمَ والأدبَ والأخلاق، وتوجِّه سُلُوك النَّاس إلى ما فيه خَيْر الإنسانيَّة ومصلحتها.

واعلموا أن شيوخكم الأجِلَّاء رغم تمسُّكهم بتراثهم الجليل العظيم؛ فإنهم كانوا أَوَّلَ مَن انفتح من مصر كلِّها على ثقافةِ الغَرب ونهلَ من علومِه ومعارِفه، بعد أنْ مَيَّزوا فيها بين ما يُفيد وما لا يُفيد..

وإن كان لي من أملٍ أتطلعُ إليه وأتوسَّمَه في مُحيَّاكم الواعد الجاد؛ فهو أن تجمعوا في مَسيرتكم العِلْميَّة بين التضلُّع من التُّراث والانفتاح على ثقافاتِ الأُمَم وحكمتِها وآدابها المُعاصِرة، وأن تُمَيِّزوا فيها كما مَيَّز أسلافكم بين نافع تنقلونه لأوطانكم، وضار تَنْبذونه وتتركونه لأهله.

وإنَّ الأزْهرَ الشَّريف الذي أنجبَ الشَّيخ حسن العطَّار، ومحمد رفاعة الطَّهطاوي، ومحمد عيَّاد الطنطاوي، ومحمد عبده، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد عبد اللَّه دراز، وغلاب، ولفيفًا من شيوخ أُصُول الدِّين، والشَّريعة، واللُّغَة العَربيَّة، الَّذين دَرَسُوا في جامعات الغرب؛ هذا الأزهرُ لَنْ يَعْقُمَ أنْ يُنجبَ أمثالهم من بينكم، ليَحْمِلوا مشاعل الثَّقافَة الإسلاميَّة الصَّحيحَة، الَّتي تعتمدُ على النَّقل بكلِّ مُقدَّساته، والعَقلِ في أرْحَب آفاقه وانطلاقاته.

وإذا كان لي من نصيحةِ أبٍ وأستاذ فهي أنْ تحرصوا على تَعَلُّمِ لُغَةٍ من اللُّغَاتِ الأجنبيَّة، تكون لكم نافذةً على ما عند الآخرين.

ومن نِعَم اللَّه عليكم أنْ يَسَّرَ لَكُم الآن سُبل تَعَلُّم الإنجليزيَّة والفِرنسيَّة والألمانيَّة على أيدي أهليها، وفي مراكز لتعلم اللُّغات في قلبِ جَامِعَة الأزهر.

هذا ومن واجِبِ الوفاء؛ أنْ أؤكِّدَ لَكُم تقدير السيِّد الرَّئيس عبد الفتاح السيسي لدَورِكم ودَور الأزهر الشَّريف، وأنَّه يُعَوِّل عَلَيْكُم كثيرًا في نَشْرِ العِلْم الصَّحيحِ والفِكْر السَّويِّ، واجتِثَاث جذور التطرُّف والإرهَاب والتصَدِّي للفِكْرِ المُنحَرِف، وهو تقديرٌ نبيلٌ مشكورٌ يُشجِّعُ كُلَّ أزهريٍّ حُر مُخلِص لمعهده المعمور أنْ يُضاعِفَ الجهد والعَمَل، وأنْ يَمُدَّ في حبلِ الصَّبرِ على هؤلاء الذين لا يَعمَلُون ولا يُريدون للنَّاسِ أنْ يَعْمَلُوا.

هذا وقد قرَّرَت مشيخةُ الأزهر الشَّريف:

أوَّلاً: منحَ فرصةِ الحجِّ لهذا العام لكلٍ من والدي الحاصلين على المركز الأول على الجمهورية في كلِّ شعبةٍ من شعب الثانوية الأزهرية.

ثانيًا: إعفاءَ العشرةِ الأوائل في كلِّ شعبة من مصاريف الدِّراسة في مرحلة التعليم الجامعي.

ثالثًا: منحَ العشرة الأوائل في كلِّ شعبة فرصةَ دراسة اللُّغَة الإنجليزية مجَّانًا في مركز الأزهر للُّغات، الذي يشرف عليه المركز الثَّقافي البريطاني.

شكـرًا لحُسـن اسـتماعكـم.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

* * *

رسالةُ الأزهريِّ(*)

بسمِ اللّٰه الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ للّٰه، وصلَّى اللّٰه على سيدِنا محمد رسول اللّٰه، وعلى آلِه وصَحْبِه وسَلم.

الحَفْلُ الكَريم..

السَّلام عليكم ورحمةُ اللّٰه وبركاته

وبعد:

فإنِّي أشكر لجامعة الأزْهَر الشَّريف ممثَّلةً في السيِّد الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة، والسَّادة النواب، والعُمَدَاء وجميع الحاضرين، أشْكُر لكم جميعًا حُسن استقبالكم، وجميل ترحيبكم وحفاوتكم، وأشكر لكل مَن فكَّر وأسهم في إعدادِ هذا الحفل الرائع لتكريم المتفوقين من بناتنا وأبنائنا من خِريجي هذه الجامعة العريقة.

تلكم الجامعةُ التي تختزن جدرانُها على مدى ألف عام حضارةَ أربعة عشر قرنًا أو أزيد من عُمر الزمان، تتواصل عبر روَّادها، وحملَة مشاعلها من علماء الأزهر الشَّريف المُخلصين، المُنتَمين إلى مآذنه وقبابه وأروقته، والمستمسِكين بمنهجه الوسط في العلم وفي التربية، وما يُؤسِّسه هذا المنهج من علوم ومعارف، وثوابت وأصول وقواعد، وبيِّناتٍ تكشف عما تزدان به

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بتكريم أوائل كليات جامعة الأزهر، بقاعة مؤتمرات الأزهر الشريف، في: ٢٣ من ذي القعدة، سنة: ١٤٣٨هـ، الموافق: ١٦ من أغسطس، سنة: ٢٠١٧م.

شريعة الإسلام من عدل ومساواة، وتراحم، وإنصاف، وتقدير للناس، وشعور دافق بالأخوة المشترَكة بين المسلم وبين سائر عباد اللَّه في الأرض؛ هذا الشُّعور الذي عبَّر عنه نبي الإسلام ﷺ في قولِه: «**الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى عِيَالِهِ**»(١). وكان يردد في أعقاب صلواته قوله الشريف: «... أنا شهيدٌ أنَّ العِبادَ كُلَّهم إخوةٌ...»(٢).

هذا، ولايَزال الأزهر الشَّريف -بأبنائه الشُّرفاءِ الأوفياءِ لدينهم ولمنهجهم الأزهري- يَترفَّعون بعلمهم ونباهتهم أن تَرتهن عقولَهم وأذهانَهم ضلالاتٌ عقَديَّة أو فِكْريَّة أو سلوكيَّة، يَنفرُ منها الصَّغير قبل الكبير، ويَزدريها الجاهلُ قبل المتعلِّم، والخاملُ قبل النَّابه، ويَرفضها كلُّ مَن له فطرة نقيَّة لم تُفسدها مطامعُ الهوى ومُهلِكات المال والجاه والسُّلطان.

لا يَزال هؤلاء الأزهريون يَحملون على عواتقهم مهامَّ الدَّعوة إلى المؤاخاة، وإلى التَّعايش والاحترام المتبادل، ويَسعون في الشَّرق والغرب برسالة السَّلام بين النَّاس، وقد تعرَّف كثيرٌ من رجالات الدِّين والفكر في الغرب على رسالتهم، ولقيت من نفوسهم تقديرًا، فاضَت به رسائلُهم الرَّزينة المُتَّزنة، التي أرسَلوا بها إلى الأزهر الشَّريف، وكانت رسائلُ تَتَّسِمُ بالعقلانية والمنطق والاتِّزان، بقدر ما تتنزَّه عن السَّفسطة والمغالطات.

واعلموا -أيُّها الأبناء الأعزاء- علمَ اليقين أنَّ أزهرَكم هذا إن كان في الأصل مؤسَّسةً علميَّةً وتعليمية؛ فإنَّه في الوقت نفسه كان -وسيظل- مؤسَّسةً ذات رسالةٍ أخلاقيَّة، وأنَّ مناهجها العِلميَّة مُصمَّمةٌ بحيث تصوغ العقول في إطارين متشابكين؛ إطارٍ من العلم، وإطار من الأخلاق معًا.

---

(١) أخرجه البزار (٦٩٤٧) وأبو يعلى (٣٣١٥) من حديث أنس بن مالك ﵁.
(٢) أخرجه أبو داود (١٥٠٨) من حديث زيد بن أرقم ﵁.

وقد مَثَّل الأزهر بهذا المنهج كعبة الوسطية، والقمرَ المُشِعَّ الذي يُفتقد في الليلة الظَّلماء في تاريخ المسلمين، وسوف يَظل الأزهر كذلك ما ظلَّ معبِّرًا عن ضمير هذه الأمة الوسط، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢].

والذي يَتأمَّل تاريخ المسلمين يَعثُر على علاقة خفيَّة بين تأثير هذا المنهج الوسطي، وبين حماية تاريخ الإسلام من الانزلاق إلى ما انزلَقت إليها أُممٌ كثيرةٌ من الصِّراع المسلَّح والحروب الدِّينية المُدَمِّرة، التي كانت تَندلعُ بسبب النِّزاع العقَدي والمذهبي والطائفي.

ومن الشَّواهد التي تؤكِّد هذه العلاقة؛ أنَّ التَّاريخ العِلميَّ للمسلمين حافلٌ بالخلافات المذهبية، وبخاصَّة المذاهب العقدية، والمذاهب الفقهية، والنصِّية، والعقلية، والظاهرية، وأنَّ هذه الصِّراعات كانت كافية لاندلاع حروبٍ مسلَّحةٍ مُماثلة لما حدَث عند الآخرين، والتي استمرَّت عقودًا عديدة، وكادت أن تُهلِك الحرث والنسل.

والسُّؤال الذي يَطرحُ نفسَه هنا؛ هو: لماذا لم تُحدث الصِّراعات العَقَدية والمذهبيَّة بين المسلمين ما أحدثته بين غيرهم؟ وذلك رغمَ استِقواء بعضِ المذاهب بقوَّة السُّلطان والمال، كما نعرفُه في تاريخ الفِرق قديمًا وحديثًا؟!

ولا نعرفُ لهذا السُّؤال إجابةً أصدقَ من إجابة تُشيرُ إلى التزام علماء الأزهر قديمًا وحديثًا بمنهج القرآن الكريم، والسُّنَّة المُطهَّرة، والذي اختصره النبي ﷺ في قوله الكريم: «**مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكم المُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ**»[(١)]، أي: لا تَخونوا اللَّه في تضييع حقِّ مَن هذا سبيلُه.

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٩١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

هذا المنهجُ لا يؤمن بالإكراه على الدِّين، ولا بالمساوَمة عليه: إغراءً أو إكراهًا، وهو يَنبذُ التَّفتيش عما تُكِنُّ الصُّدور، ويُقرُّ حرِّيَّة الاعتقاد، ولا يُكفِّر المسلمَ إلَّا بحجة وبرهان ساطع سطوع الشَّمس في رابعة النهار، ولا يُصادر على النَّاس حرِّياتهم في أن يَعتنقوا من العقائد ما يَشاؤون، وقد وَكَلَ اختيارَ الناس عقائدَهم إلى حرِّياتهم الشَّخصية، بعد ما أوضح أمامَهم طريق الحقِّ وطريق الباطل.. ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا المنهجُ هو ما تَبنَّاه الإمامُ الأشعري في مذهبه المعروف، وهو ما يَستمسكُ به الأزهر الشَّريف، ويُعلِّمه لأبناء المسلمين في شتَّى بقاع الأرض لِمَا يَتضمَّنه من توسُّطٍ ويُسْرٍ، ورَفْعٍ للحرَج في الدِّين، وتقديسٍ للنَّصِّ، ومنزلة للعقل، ورِفعة لشأنه.

بناتي وأبنائي..

أُحَييكم على تفوقكم، وأُهَنِّئكم على تألُّقكم اليوم، وفرحتكم الغامرة بإتمام هذه المرحلة الأولى من مراحل التَّعليم العالي، وأرجو ألَّا تظنُّوا أنكم قد بَلغتُم بنجاحكم الباهرِ في هذه المرحلة نهايةَ الطَّريق، فلايَزالُ طريق العلم ومكابدةِ تَحصيله طريقًا مفتوحًا بلا نهاية.

وأتمنَّى للقادرين منكم أن يُواصِلوا دراساتِهم العُليا في كُلِّيَّاتهم العلميَّة والنظريَّة، قدر ما يَستطيعون.

أتمنَّى أن تُضاعفوا جهودَكم في البحث العلمي في مراحل الماجستير والدُّكتوراه، كلٌّ في تَخصُّصه، وفي مَيدانه ومجاله، وبهذا -وبهذا وحدَه- تُحقِّقون آمال بلادكم وشعوبكم في بناء حضارة جديدة، تَليق بتاريخ هذه الأُمَّة وسيرتها الأولى.

ونصيحتي لكم -إن كان لي من نصيحة- هي ما نصحتُ به بالأمس بناتي وأبنائي أوائلَ الثَّانوية العامة الأزهرية من التَّضلُّع من التُّراث، والصَّبر على فهمه، واكتشاف كنوزه، مع تحصيلِ الجديد في التخصُّصات العلميَّة والأدبية.

واعلموا أنَّ الغربَ الذي يُعدُّه كثيرٌ منا هو الأنموذج الأمثَل الذي يَجبُ أن نترسَّم خطاه، هذا الغربُ لم يَنهض، ولم يَتحرَّر، ولم يَتقدَّم بدعوات التَّحلُّل والكسَل، وتزييف الوعي، واللَّهاث وراء الثراء السَّهل، الذي لا يُقابله عمل حقيقي على الأرض، أو الانشغال بالشَّكل والمظهر والقشور، والبحث عن الحياة اللَّيِّنة المتراخية، وقتل الوقت والفراغ بالتسلية والجلوس على المقاهي، وسهر الليالي فيما يُشبه الثرثرة وطواحين الهواء..

وإنَّما نهض الغرب، وتقدَّمت أوروبا بالعَرَق، والتَّعب، وتحمُّل المشاقِّ والصِّعاب في مجال الصِّناعة والاختراع، والتقدُّم في جميع المجالات، والتفكير المُرهِق المتواصل في تسخير قوى الطَّبيعة، واكتشاف أسرارها، واستغلال ما أودع اللَّه فيها من نعم لخدمة الإنسان.

وليس أمامنا إذا أردنا التقدُّم العلمي والعملي الذي أراده الغرب وحقَّق منه المُنى والآمال -إلَّا أن تَنهضوا أيُّها الشَّباب، وتَجِدُّوا، وتحزموا أمركم، وتشعروا في قرارةِ أنفسكم بأنكم لَستُم أقلَّ عزيمة، ولا مِضاء، ولا جِديَّة، ولا رجولة من الشَّباب الأوروبي والأمريكي والياباني، الذي بنى بلاده على أكتافه، وبعَرَقه وكفاحه المتواصل، ووصلَ بها إلى عنان السَّماء، بل أزعم أنكم أقدرُ منهم بما تَملكون من دين وعقيدة، ومن أصالة وتراث عريق متجدِّد، أبهرَ الغرب، ولا يزال، ومِن تجاربَ تاريخيَّةٍ صَنَع فيها آباؤكم وأجدادُكم حضارةً لم تُنسَج على منوالِها حضارةٌ أخرى مِثْلُها حتى يوم الناس هذا.

أُهنِّئُكم، وأهنِّئ جامعة الأزهر ومشيخَته بكم، وبهِمَّتِكم، وتصميمكم على مواصلة مَسيرة العِلْم والتعلُّم، والخُلُق المُستقيم، وإنَّ أمَّتكم لترنوا إليكم اليوم بأبصارها، ولعلَّكم تكونون معها على موعدِ صدقٍ ووفاءٍ وإخلاصٍ.

شكرًا لحُسن استماعكُم.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبرَكاته

❊ ❊ ❊

الأزهرُ الشَّريف
والمحاضِر الشَّنقِيطيَّة المباركة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه وصلَّى اللَّه تبارك وتعالى على سيِّدِنا مُحمَّدٍ، وعلى آلِه وصَحبِه وسَلَّم.

أيُّهَا الحَفْلُ الكَريم..

اسْمَحُوا لي أنْ أبدأ كلمتي بالتَّعبيرِ عن سعادتي الغامرةِ بوُجودي أمام هذه النُّخبةِ المتميِّزةِ من العُلَماء والأُدباء والمُفكِّرينَ، وبالإعرابِ عن شُكْرِي الجزيلِ لدعوتِكُم الكريمة لزيارةِ هذا البَلَد الطَّيِّب، والضَّاربِ بجُذوره في أعماقِ التَّاريخ عِلْمًا وأصالةً وحِراسَةً للدِّينِ وأمَّهَاتِ الأخلاقِ والفضائِل.

هذا، وحين فكَّرتُ في إعدادِ موضُوعٍ عِلْمِيٍّ أتحدَّثُ عنه أمامَ حضراتكُم، بدا لي أنَّهُ من الصَّعبِ -إنْ لَمْ يَكُن من المُستحيلِ- أنْ أعثُرَ على موضُوعٍ جديدٍ عليكُم، لَمْ يَطرُق أسماعَكم ويُصافِح أذهانكُم من قبلُ، وأنَّ مُهمَّتي -حالَتَئِذٍ- تُعَدُّ مُهمَّة حامِلِ التَّمرِ إلى هَجَر، أو بائع الماء في حارةِ السَّقَّائينَ، كما يُقال، وبخاصَّةٍ أنَّ القضايا المتداوَلة على السَّاحةِ الآنَ، أو كما يُسَمُّونها: القَضَايَا السَّاخنة، وهي قضايا الغُلُو والعُنف والإرهاب المُسَلَّح، وإلصاق المسؤوليَّةِ عنها بالإسلامِ، هذه القضايا وأشباهها وما يتوَلَّدُ عنها؛ أصبحتْ من المعلوم بالضَّرورةِ عندنا وعندكُم، ولَمْ تَعُدْ هُناك زيادةٌ لمستزيدٍ، مِن كَثرةِ ما قِيلَ فيها

(*) كلمة ألقيت في قصر المؤتمرات بالعاصمة الموريتانية نواكشوط، في: ١من رجب، سنة: ١٤٣٩هـ، الموافق: ١٩من مارس، سنة: ٢٠١٨م.

حَقًّا أو باطِلًا، أو إلباسًا للحَقِّ بالباطِلِ، فمِنَ الحِكمَةِ إذًا -فيما أَعْتَقِدُ- أنْ نَغتَنِمَ فُرْصَةَ المُراجعةِ والمُذاكَرةِ مَعَكُم فيما يَعُودُ بالنَّفعِ على مَصْلَحةِ الأُمَّةِ وواقِعِها الملمُوسِ على الأرضِ، بعيدًا عن أحاديثِ الأمانيِّ والأحْلَام.

ومَا أتصوَّرُه في هذا المقام، وأرجو أنْ يكونَ تَصوُّرًا قابِلًا للتَّطبيقِ، هو أنَّ أفضلَ ما يُمكِن أنْ نُقدِّمَه لأُمَّتِنا في أزمتِها اليَوْم هو: تعميقُ الصِّلاتِ العلميَّة الأكاديميَّة بين عُلَماءِ الأزهرِ وعُلَماء الغَرب الإسلاميِّ، مِن خلالِ المدرسة الشَّنقيطيَّةِ، بما لها من خصائص علميَّة وتعليميَّة تميَّزَت بها عن كثيرٍ منَ المدارس الإسلاميَّةِ في العالَم الإسلاميِّ.

وقد تساءَلتُ عن أسبابِ هذا التميُّز في المدرسةِ الشَّنقِيطيَّة؛ فوجدتُ أسبابًا كثيرةً من أهمِّها في نظري: مُحافظةُ العُلَماءِ على تُراثِ الأُمَّةِ حِفظًا وروايةً، وشَرْحًا وتعليقًا، وهو ما يتَّسقُ ورسالة الأزهر الشريف في حِفظِ التُّراث وتنميَتِه وتعريف أبناء المسلمين به.

واسمحوا لي أن أُلخِّصَ لكم منهجَ الأزهر في تدريس علوم الإسلام في عُجالةٍ أرجو أنْ تُلقِيَ بعض الضَّوء على طبيعة هذا المنهج الذي عِشْتُه واقعًا على مدارِ أكثر من نِصف قَرنٍ قضيتُها مُتعلِّمًا ومُعلِّمًا في قاعاتِ الأزهر العلميَّة والبحثيَّة.

ولَعَلَّ من أبرز سِماتِ هذا المنهج: هو الجمع بين علوم العقل والنَّقل والذَّوقِ في تُراث المسلمين، وهذا المنهج التَّوفيقي الذي تَصالَح فيه المعقول والمنقول، يَعكِسُ طبيعةَ هذا التراث المتعدِّد الأبعادِ منذُ نشأتِه وعبر تطوُّرِه على أيدي كبار الأئمة وعظماء المجتهدين، وقد تَشرَّب المسلمون هذا التراث من ينابيع هؤلاء الأعلام كالعَسَل المصفَّى، ويُذكَر للأزهر أنَّه كان الحاضن والحافظ لهذا التراث بكلِّ أبعاده التي تَحدَّثنا عنها، ومن العجيب أن الأزهر لم يَقتصِر دورُه على الحِفاظِ على هذا التُّراث من التَّلَفِ

والضَّياعِ والاندثار؛ وإنَّما كان له دورٌ آخَر، كأنَّ اللَّه خَصَّه به، وهو دَور إعادةِ الحياة إلى هذا التُّراث، بعدما أشرفَ على الهلاك بالفعل، وهنا أستعيدُ كلامًا للأستاذ الكبير الدكتور زكي نجيب محمود -رحمه اللَّه- قال فيه: جاءتِ الحضارةُ الإسلاميَّةُ، وكلُّ مُسلِمٍ يَعرِفُ ما هي مِصرُ بالنِّسبةِ للحضارةِ الإسلاميَّةِ، هي التي حفِظَتِ التُّراثَ الإسلاميَّ كلَّه، ولولا ما عَمِلَه الأزهرُ في القرون: الثانيَ عَشَرَ، والثَّالثَ عَشَرَ، والرَّابعَ عَشَرَ، والخامسَ عَشَرَ، هذه القُرونُ الأربعةُ الميلاديَّة، لَما كان هنالك ما يُسَمَّى الآن بالتُّراث العربيِّ الإسلاميِّ، وكنَّا أين نَجِدُه والتَّتارُ أحرَقُوه من هُنا -أي من الشَّرق- وفي الأندلُسِ ضاعَ من هناك على أيدي الغُزاة، لكن انكبَّ الأزهرُ على التَّجميعِ، قبل أن يَضيعَ في الهواء، فجُمِّعَ، ولكن أيُّ تجميعٍ؟ تجميعٌ فيه الإيجابيَّةُ، وفيه الإبداعُ، وفيه الهدف.

وإذًا، فحينَ حانت فُرصةُ التَّفرُّد بريادة التُّراث من جديدٍ، لم ينهجِ الأزهرُ منهجَ الانتقاءِ والإقصاءِ والفَرزِ بين عُلومٍ يَستبقيها ويَسعَى في نَشرِها، وأُخرَى يُعتِّمُ عليها ويُعَرِّضُها لعوامل البِلَى والهلاك.

أيُّهَا السَّادَة العُلَماء..

إن هذه الأبعاد الثَّلاثة التي ألمعتُ إليها؛ والتي هي: النَّصُّ، والعقلُ، والذَّوقُ، قد تعانَقَت وتمازَجَت في مناهج التَّعليم في الأزهر قديمًا وحديثًا، وتلاشت بينها الحواجز المصطَنَعة، وأصبح كلٌّ منها يُغَذِّي الآخَرَ ويَغتَذِي به، ووَقَرَ في ذِهن الطَّالب الأزهري طَوال مراحلِ تحصيلِه العِلم في الأزهر أنَّ الاختلافات العَقَدِيَّة والفقهيَّة والذَّوقيَّة هي اختلافاتٌ مشروعةٌ؛ إمَّا للتَّيسيرِ ورفع الحرَجِ ورفع الضَّرَرِ، وإمَّا لأنَّ شريعةَ الإسلامِ لا يُمكِن أن تكون صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ إلَّا إذا تصالَحَتْ في ظلالها مطالب العقول،

وإشراقات القلوب، واستشراف الماورائيات، التي تَستمدُّ اليقينَ فيها من نَصٍّ معصومٍ، قد يَعتَلِي على مستوى إدراك العقل، ولكنَّه في كلِّ الأحوال لا يناقِضُ قوانينَه، ولا يصطدم بأوليَّاتِه، ولا ببدائِهِه، كما هو الحالُ في باب السَّمعيات من أبواب علم الكلام.

وأظنكم -أيها السادة العلماء- تتفقون معي في أنَّ الأمةَ ما ابتُلِيَت قديمًا ولا حديثًا بالغُلوِّ والتَّشدُّد وما صاحبهما من فُرقةٍ وتمزُّقٍ، إلَّا حين فَرَّطَت في هذا المنهج المتكامِل، وغابت عنها الطبيعة الامتزاجية في هذا التراث، والتي هي سِرُّ بقائه وخُلودِه وصُمودِه سَنَدًا لوَحدةِ هذه الأمَّة وظهيرًا لتماسُكِها.

ونَحْنُ حين نُنَادي بعودةِ الأمَّة لهذا المنهج؛ فإنَّنَا في الوقتِ نفسِه نُنَادي بأنْ تعودَ للمذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعة صدارتها في الفتوى والتشريع، بحسَب توَزُّعِها على الأمصار، وبحيث يُترَك كلُّ مصر وما نُشِّئَ عليه أهلُه، لا يحوَّلُون عنه، لا ترغيبًا ولا ترهيبًا، ولا تبشيرًا، وما خَبَرُ إمامِنا مالك وموطَّئِه مع الخليفة المنصور بخافٍ ولا بعيدٍ.

كما ننادي بأن يستعيد مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعة ريادته التي سادت الأُمَّة الإسلاميَّة عبرَ ألف عام وتزيد، وما ذلك إلَّا لأنها وَجَدَت فيه من حقائق الإيمان ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته والتابعون، ثم هو المذهب الذي نجح في تحقيق السِّلم الاجتماعيَّ حين أغلق باب التكفير بين المسلمين، وفتح باب القَبول أمام اختلافات المصلِّين، تمسّكًا بقولِه ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا؛ فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ**»[(١)].

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٩١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أيُّهَا السَّادَةُ العُلَمَاء. .

هذا إجمالٌ يُسعِدُني أنْ أسمَعَ تفصيلَه من عُلَماء المحاضرِ الشَّنقيطيَّةِ الكِرام، وهو تفصيلٌ سيكون له ما بعدَه إنْ شاءَ اللَّه، مِمَّا نأمُلُه من هذه الزيارة المُبارَكة.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

الأزهر وأفريقيا.. الجذور والتاريخ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه، وبعد؛

السيدات والسادة..

أبنائي الشباب..

السَّلامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

وأَهْلًا ومَرْحَبًا بحضراتِكم في بلدِكم مصرَ، وفي رِحَابِ الأزهرِ الشَّريفِ، وأَشكُركُم جميعًا على تفضُّلِكم بالحضُورِ وبالمشاركةِ في هذا الحفلِ الَّذي يَضُمُّ كوكَبةً من أبناءِ قارَّتِنا الحبيبة؛ قارَّة أفريقيا، والذي ينعقدُ تحتَ رعايةٍ مَشْكُورةٍ من السَّيِّد الرَّئيس/ عبد الفتَّاح السيسي - رئيسِ جمهوريَّةِ مِصْرَ العربيَّة، ودعمٍ كَريمٍ لاستضافةِ مصر لمقرِّ الاتِّحادِ الأفريقيِّ بجامعةِ الأزهرِ، فلسيادتِه ولضيوفِنا الأعزاء جزيلُ الشُّكرِ، وخالص الدُّعاء بموفورِ الصِّحَّة والعافيةِ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ..

إنَّ تدشينَ مقرِّ اتحادِ الجامعاتِ الأفريقيَّةِ في مصرَ لَهو حَدَثٌ تاريخيٌّ، يأتي في إطارِ التَّأكيدِ على عُمْقِ العلاقاتِ المصريَّة بكلِّ دولِ القارَّةِ السَّمْرَاءِ،

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في «حفل افتتاح المقر الإقليمي الدائم لشمال أفريقيا لاتحاد الجامعات الأفريقية بجامعة الأزهر» بمركز الأزهر الدولي للمؤتمرات، في: ٥ من رجب، سنة: ١٤٤٠هـ، الموافق: ١٢من مارس، سنة: ٢٠١٩م.

وانفتاحِها على كُلِّ الثَّقافاتِ والحضاراتِ والأديانِ المختلفة.

ومصر الَّتي قالَ اللَّهُ عَنْها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، هِيَ الدَّولةُ الأفريقيَّة المؤهَّلة -بِقَادَتِها وشَعْبِها وعُلَمائِها وقُواتِها المُسلَّحة ورجالِ شُرطَتِها- لحمْلِ رسالةِ اتِّحادِ الجامعاتِ الأفريقيَّةِ، وتَوصيلِ رسالَتِها العِلْميَّة والثَّقافيَّة لَيْسَ إلى القَارَّةِ الأفريقيَّةِ فَحَسب، بل إلى قارَّاتِ العالمِ أَجْمَع.

كما تأتي استضافةُ مصرَ مقرَّ الاتِّحادِ الأفريقيِّ انسجامًا وتناغُمًا مع دَورِها العالَميِّ في نَشْرِ قِيَم التعايُشِ والتَّسامُحِ والسَّلامِ، ومع خطواتِها الناجِحَة والمتسارعة في دَحْرِ الإرهابِ واجتثاثِ جذورِه واستئصالِ شأفتِه مِن أجلِ تأمين الشَّعب وتحقيقِ التنميةِ المستدامة، وتوفير الحياة الكريمة، وهو ما سينعكسُ أمنًا وتنميةً ورفاهيةً على كُلِّ شعوبِ القارَّة السمراء، وهذا قَدَرُ مصر تاريخيًّا وجغرافيًّا، فهي تُمثِّلُ -وكما تعلمون- البوابةَ الشماليَّةَ الشرقيَّة لقارَّة أفريقيا، وعلى عاتق أبنائِها تقعُ مسؤوليَّة التصدِّي لأيِّ عُدوانٍ يُحاولُ أنْ يَنْفُذَ مِنها إلى هذهِ القارَّةِ.

هذا وتجدُر الإشارة إلى أنَّ الأزهرَ الشَّريف يَدْرس في أروقَتِه العلميَّة في المرحلةِ الجامعيَّةِ وما قبلَها وما بعدَها أكثرُ من ستة آلاف طالب وطالبة من قارَّة أفريقيا، من بينهم أكثر من ثمانمائة طالبة، وتُقَدِّمُ مصر مِنحًا دراسيَّة مجانيَّة لألْفَي طالبٍ وطالبةٍ من أبناء هذه القارة، تتحمَّلُ نفقات تعليمهم؛ بدءًا من تذكرة سفر القدوم، وانتهاءً بتذكرة سفر العودة.

هؤلاء الطَّالبات والطلاب يَدرُسونَ العلمَ في الأزهر، ويتعلَّمون اللُّغة العربيَّة، ويتعرَّفون على سماحةِ الإسلام واحترامِه للأديانِ والثقافاتِ الأخرى، وقد جرت العادةُ منذ زمن قديم على أن يتفرَّغ الطلاب والطالبات

الأفارقة للدراساتِ الإسلاميةِ والعربية فقط، ويتوزعون على كليات: أصول الدِّين، واللغة العربية، والشريعة والقانون، والدراسات الإسلامية، والدعوة. واليوم، ومنذ ثلاثِ سنوات، فتحنا لهم أبواب التعليم الأزهري بمختلف أنواعِه وتخصصاتِه، واستقبلتهم -منذ هذا التاريخ- كلياتُ الطب والهندسة والصيدلة والزراعة وغيرُها من الكلياتِ العملية، كما بدأنا هذا العام التجهيز لفتح القسم العلمي للمرحلة الثانوية أمام الوافدين والوافدات من الطلاب والطالبات في معهد البعوث الإسلامية؛ إيمانًا منَّا بأنَّ قارَّة أفريقيا -على وجه الخصوص- قد تكون أَمَسَّ حاجةً إلى الطبيبِ والمهندس والصيدلي ومدرس العلوم والرياضيات منها إلى الإمام والواعظ ومدرِّس العلوم الشرعية.

وتجربةٌ أخرى بدأناها في أفريقيا منذ أكثر من عام، وبدأت تؤتي ثمارًا طيبةً مُبَشِّرة، وهي: اختيار النُّبهاء من الطُّلاب الأفارقة، المتخرِّجين من كُليَّات أصول الدِّين واللُّغة والشَّريعة، ومن الحاصلين على تقدير «امتياز» أو «جَيِّد جدًّا»، لإيفادهم إلى بلدانهم على نفقة الأزهر؛ لينشروا الفكر الإسلامي الصحيح الذي تعلموه في الأزهر، وليُفقِّهوا المسلمين هناك بمبادئ هذا الدِّين الحنيف، وذلك بعد تدريب هؤلاء «الخرِّيجين» وتعريفهم بالتحديات المعاصرة التي تتقنَّعُ باسمِ الإسلام، وكيفيَّة التصدِّي العِلمي لهذهِ التَّحديات بما يكشف زيفها وضلال دُعاتها.

ومدار الفِكرة هُنا هو أنَّ أبناءَنا هؤلاء هم أقدرُ من غيرهِم على التواصل مع شعوبهم، وتوضيحِ حقائق الأمور بلُغاتِهم ولهجاتِهم ومشاعرهِم وغيرها مِمَّا لا يتوفَّر كثير منه لأبنائنا المصريِّين المبتعثين إلى الدول الأفريقيَّة.

ونُؤكِّدُ على أنَّ الأفارقة المبعوثين من الأزهر لَيسُوا بديلًا لإخوتِهم

الأزهريين المصريين المبعوثين للخارج، فَلِكُلٍّ مجالُه من حيث النشاطُ العلميُّ، ومن حيث الجمهور المستهدَف.

وعلاقةُ القارَّةِ الأفريقيَّة بالأزهر علاقةٌ ضاربةٌ بجذورِها في تاريخ هذا المعهد العلمي العريق الذي مضى على إنشائِه أكثر من ألف عام، وهو يتحمَّلُ مسؤوليَّة تعليم الإسلام: قُرآنًا وسُنَّةً ولُغَةً وشريعةً، في منهجٍ خالصٍ نقيٍّ، لا تُعكِّر صفوه ولا تُسمِّمه الأجندات السياسيَّة أو المذهبيَّة أو القُطريَّة، التي آلَت إلى ما نعرف من تطرُّفٍ وعُنفٍ وإرهابٍ.

وقد لا يعلم كثيرون من تاريخِ العلاقة القديمة بين الأزهرِ الشَّريف ودول أفريقيا أنَّ أروقةً من أروقةِ الأزهر كانت مُسمَّاةً بأسماءٍ أفريقيَّة، مثل الرُّواق الَّذي كان يسكنه أهل تشاد وما جاور بُحيرتها.. ورواق «السنارية» المخصَّص لطلبةِ السُّودان، وما جاوره غربًا، وهو من أشهرِ أروقة الأزهر، وكذلك رواق «المغاربة» المخصَّص لبلادِ المغرب العربي: ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا، ورواق «الدكارنة»، ورواق «إقليم غرب أفريقيا»، ورواق «الجَبَرت» وغيرها.. واليوم تحلُّ «مدينة البعوث الإسلاميَّة» محلَّ هذه الأروقة، وللطلاب الأفارقة منها نصيب الأسد.

واليومُ أيضًا يُقدِّمُ الأزهر ثمانمائةِ مِنْحةٍ سنويَّةٍ للطلابِ[1] الأفارقة للدِراسَةِ بكليَّاتِه النَّظَريَّة والعَمَليَّة، وللأزهر ستةَ عشر معهدًا أزهريًّا في كُلٍّ من نيجيريا وتشاد والنَّيْجَر والصُّومَال وجنوب أفريقيا وأوغندا؛ يمدُّها بمدرِّسين أزهريِّين على نَفَقَتِه الخاصَّة، كما يُزوِّدها بالكُتُبِ الدِّراسيَّة والمناهج، ويُمنح الطُّلَّاب المتخرِّجُون في هذه المعاهد شهاداتٍ مُعتمدة من الأزهرِ الشَّريف.

---

(١) رُفع عدد المنح المقدم للدول الأفريقية إلى (١٦٠٠) منحة بتوجيه من السيد الرئيس عبد الفتاح السيسي.

ومِمَّا يعتزُّ به الأزهر في مجالِ التَّعاونِ مع الدولِ الأفريقيَّة قوافلُ البعثات الطبيَّة والإغاثيَّة لبعض هذه الدول، مثل: النيجر والصُّومال والسُّودان وتشاد وأفريقيا الوسطى ونيجيريا وبوركينا فاسو، وهذا قليلٌ من كثيرٍ مِمَّا يجبُ على الأزهرِ وعلمائِه أن يُقدِّمُوهُ للأشقاءِ في هذهِ القارَّةِ الشَّقيقة.

السَّادَةُ الحضُورُ..

تعالَوا لِنعْمَلَ مَعًا مِن أجلِ رَفْعِ جَودةِ التَّعليم العالي في أفريقيا وتَقويةِ دَورِه في التنميةِ والانخِراطِ في المجتمعِ، والتوافُقِ حولَ القضَايا الَّتي تُؤَثِّرُ في التَّعليمِ العالي، والتنميَةِ في أفريقيا.

وأُعْلِنُ لَكُم الآنَ أنَّ الأزهرَ كما استقبلَ كثيرًا مِن طَلبةِ العِلْمِ الأَفارِقةِ لَيَسُرُّهُ أنْ يَدْعمَ الأفكارَ البَنَّاءةَ لِشَبابِ القَارَّةِ، ويَتَبنَّى رُؤاهم الَّتي تَنْهَضُ بِقَارَّتِنا في كَافَّةِ المجالاتِ.

ويُرحِّبُ الأَزْهَرُ الشَّريفُ بِتعزيزِ التبادُلِ والاتِّصَالِ والتَّعاونِ بين الجامعاتِ وغيرِها من مُؤسَّسَاتِ التعليمِ العالي في أفريقيا؛ كما يُرَحِّبُ بِنَشْرِ المعلوماتِ المتعلِّقةِ بالتَّعليم العالي والبحوثِ، لا سيَّما في أفريقيا؛ ويُشَجِّعُ الأزهرُ المنتدياتِ العامَّةَ لِنَشْرِ المعلوماتِ وتَبادُلِها، وحوارِ السِّياسَات بِشأنِ قضَايا التعليمِ العالي.

كما يدعمُ الأَزْهَرُ الشَّريفُ المسابقاتِ الرياضيَّةَ الَّتي تضمُّ الشَّبابَ من مختلفِ دولِ العالَمِ، وبخاصَّةٍ الشَّبابُ الأفريقيُّ.

أيُّها الشَّبابُ الأفريقيُّ..

إنَّ نهضةَ قارَّتكم الثَّريَّةِ بمواردِها الطبيعيَّةِ والبَشَريَّة، لا يُمكن أن تتحقَّقَ إلَّا بعقُولِكم وسَواعدِكم أنتُم دونَ غيرِكم، واعلَمُوا أنَّ الاسْتِعمارَ الَّذي لم يستحيِ بالأمس أن يستعبدَ أحرارَكم، ويستوردهم لتَمدينِ دُوَلِه وأقطاره كما

يَستورد الأشياءَ والمتاع، لا يستحي اليوم من الاستِبداد بمواردِكم الغنيَّة لنهبِها وسرقتها مَرَّةً أُخرى، وسبيلكم الواضح لمقاومةِ هذا التغول والتوحش هو امتلاك العلم والمعرفة، والتطهُّرُ من مخلَّفاتِ الاستعمارِ ومُهملاته الثقافيَّة والخُلقيَّة والسُّلوكيَّة، والعضُّ بالنواجذ على موروثاتنا الَّتي تعلَّمناها مِنْ عقائدِنا الدِّينيَّة الإلهيَّة، ومِن حضارتِنا الشَّرقيَّة الَّتي تضربُ بِجذورِها في أعماقِ الأزمانِ والآباد.

أشكركُم على حُسْنِ اسْتِمَاعِكُم.

والسَّلام عَليكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

* * *

في ذكرى
المولد النبوي الشريف

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسول اللَّه وعلى آله وصحبِه ومن اهتدى بهداه.

الحفل الكريم!

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فلقد ولد سيدنا محمدٌ ﷺ، وولد بولادته صبحٌ جديد، أشرق على البشريَّةِ بعد ليلٍ طويل حالك الظلمات، أوشكت فيه الإنسانيَّةُ أن تتردَّى في وَهْدته وإلى الأبد..

وبدا جليًّا واضِحًا -فيما يقول المؤرخون- أن الحضارة العظيمةَ التي تراكمت في ذلكم الوقت، والتي استغرق بناؤها أربعة آلاف من السنين - كانت مُشرفة على الزَّوال، وأنَّ من المرجَّح أن الجنسَ البشري كان سيعود إلى حالة من الفوضى والهمجيَّة، تُصبح في ظلالها كلُّ قبيلة وكلُّ طائفة عدوَّة لجارتها، لا تعرف لها نظامًا ولا تتبين لها قانونًا.. وأنَّ العالم باتَ مُفتقِرًا إلى ثقافةٍ جديدةٍ تحل محلَّ ثقافة العرش والنُّظم التي كانت تستند إلى القوة والاستبداد وقرابة الدم.. وشاء اللَّه أن تأتي الثَّقافة البديلة من جزيرة العرب

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في ذكرى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، في: ١١ من ربيع الأول، سنة: ١٤٣٥هـ، الموافق: ١٢ من يناير، سنة: ٢٠١٤م.

«وأن تجد هذه الثَّقافة الجديدة في مبدأ التَّوحيد ولغة الوحي النبويِّ أساسًا لوَحدة العالم كله»[(١)].

ظهر النور المحمدي والعالم الإنساني يعاني من الأمراض والعِلل والأوبئة النفسية والاجتماعية والخُلُقيَّة، وسرعان ما أعاد هذا الوليد اليتيم الذي شبَّ وترعرع في صحراء العرب، بعد أن اختاره اللَّه رسولًا ونبيًّا.. سُرعان ما أعاد للعالَم توازنَه وتحرُّرَه من قيود الجهالة وظلمات الوهم، وجبروت القوة.. وبحيث أصبح بنو الإنسانيَّة كلُّهم مَدينين لنبيِّ الإسلام بالكثير الذي أنار لهم الطريق في منعطفاتها المظلمة، وحتى الإنسان الغربيُّ يظلُّ مدينًا، بل مُثقلًا بجميلٍ لا حدودَ له، للحضارة العالمية التي أرسى دعائمها هذا النَّبيُّ الكريم، وهو يؤصِّل لمعاني الرحمة والعدل والتعاون بين الناس، والكفِّ عن العنفِ والإيذاء، وترويع الآخر أيًا كان هذا الآخر..

وكيف لا!! وقد بلغت الرحمة مداها في نبي الإسلام حين حرَّم ترويعَ الناس وتخويفهم حتى لو كان على سبيل الملاعبة أو المزاح، يقول النبي ﷺ: **«مَنْ أشارَ إلى أخيه بحديدةٍ، فإنَّ الملائكةَ تلعنُهُ حتَّى ينتهيَ، وإن كان أخاه لأبيهِ وأُمِّهِ»**[(٢)].

وفي هذا الحديث نهيٌ شديد عن تَرويع النَّاس وتخويفِهم والتَّعرُّض لهم بما يؤذيهم وإن كان التَّخويف هزلًا ولعبًا، أو كان مع أقرب النَّاس إليه ممَّن لا يظن به إلحاق الأذى والضَّرر، فترويع النَّاس محرَّمٌ في الإسلام أيًّا كان هذا التَّرويع.

أمَّا قتل الآمنين وتفجيرهم بالأسلحة الفتَّاكة، فما أعرف دينًا ولا قانونًا

(١) نقلا عن إقبال، «تجديد التفكير الديني في الإسلام»: ١٦٩، القاهرة ١٩٥٥م.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا نظامًا اجتماعيًا، حرَّمه أو حذَّر من جرمه وشناعته مثلَ الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ.

ولا يزال القرآن الكريم هو القانون الديني الوحيد الذي يحكم على قاتل العمد بالخلود في النار، وذلك إذا ما قورن بنصوص أخرى دينية لا ترى بأسًا من إبادة الآخرين رجالًا ونساءً وأطفالًا وحيوانًا ونباتًا وجمادًا، ولا يزال هذا الفرق واضحًا بين الحضارة الإسلامية التي قامت على احترام الآخر، واحترام دَمِه ما لم يعلِن الحرب ويبدأ القِتال، وبين الحضارات الأُخرى التي أبادَت شُعوبًا بأسرها لتحلَّ محلَّها، وأسَّست حضارتَها في غيبة تامَّة عن المقوِّمات الأخلاقيَّة والدِّينيَّة.

إنَّ المسلم الحقيقيَّ في فلسفة الإسلام ومقاصده هو الذي يفرُّ بدينه من هذه الدماء التي عصمها اللَّه ورسوله، وحرَّم إراقتها، وتوعَّد الذين يقتلون النَّاس بغير حقٍّ بالعقابِ الأليم والعذاب المقيم في جهنم.. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

وجاءت تشريعاتُه ﷺ معضِّدة للقرآنِ الكريم في هذا الشَّأن، وذلك في أحاديث عدَّة يصعُب حصرُها؛ منها قوله ﷺ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ**»[1]. ومنها: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ**»[2]. ومنها: «**مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**»[3]. ومنها: «**لَوْ**

(١) أخرجه الترمذي (١٣٩٥) والنسائي (٣٩٨٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه النسائي (٣٩٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ؛ لأَكَبَّهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ»[(١)].

وعلى الذين يشجِّعون القَتَلة الآن ويَدْعمونهم بالأموال والتخطيط والفتاوى الضالة، ويدفعونهم دفعًا لقتل المواطنين، وتفجير أنفسهم بين الغافلين، وتحويلهم إلى أشلاء ممزَّقة في طرفة عين، مخلِّفين وراءهم جيلًا كاملًا من البؤساء واليتامى والأرامل والثَّكالى - على هؤلاء أن يتدبَّروا هذه الأحاديث ويأخذوها بعين الجِدِّ والاعتبار، ليَعلموا أنَّ أموالَهم وفتاواهم ليست بمانعتهم من اللَّه ولا من الخلود في جهنم يوم الحساب.

وقد ابتُلينا في هذه الأيام بمَن يقترفون هذه الجرائم، معتقدين أنَّها أفعالٌ مباحة شرعاً، انطلاقًا من آفة عُظمى انطلَت على عقولِ البَعض من شبابِنا المُضلَّل، وهي تكفير المسلمين والاعتقاد بأنَّ مجتمَعَهم كافرٌ وجاهليٌّ، وأنَّ قتالَه واجِبٌ عليهم، ومِن ثَمَّ فعليهم أن يقاتِلوا الكفَّار حتى وإن قتلوا أنفسَهم من أجلِ هذه الغاية. وهذه فتنة عمياء وضلال ما بعده ضلال، وكارثة كبرى على الإسلام قبل أن تكون فاجعةً للمواطنين الآمِنين.

إنَّ على هؤلاء المخدوعين أن يُفيقوا من سَكرتهم، وأن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى وطنهم ومجتمعهم؛ فإن من ورائهم يوماً ثقيلًا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النازعات: ٤٠].

عليهم أن يعلموا أن هذه الجرائم المنافيةَ للدين والأخلاق والإنسانية، أساءت إلى الإسلام كثيرًا وشوَّهت صورته السَّمحة النقيَّة، وقدمت لأعداء الإسلام والمسلمين صورة كريهة عن هذا الدِّين الحنيف: دين الرحمة

(١) أخرجه الترمذي (١٣٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، وقال: «حديث غريب».

والمحبة والتعارف بين الناس، وكم شوَّهت هذه المجازَفاتُ اللاأخلاقيَّة من صورة نبيِّنا الكريم ﷺ في أعينِ أعدائِه وشانئِيه، وأمدَّتهم بأخيلَةٍ مريضة، صوَّرته في صور تخطَّت حدودَ الأدَب والذَّوق وارتكَست في بربريَّةٍ ووحشيَّة لا حدودَ لها، هذا النبي الذي قال عن نفسه: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(١) والذي حمل إلى الناس كتابًا إلهيًّا تردَّدت فيه كلمة الرحمة ومشتقاتها مائتين وثمانين مرة، وهذا التكثيف لمعنى الرحمة لا نعرفه إلَّا للقرآن الكريم، وإلَّا لهذا النبي العظيم الرحيم الذي وسِعت رحمته المسلمين وغير المسلمين، والذي نهى نهيًا صريحًا قاطعًا عن قتل نساء الكُفَّار المحاربين وصبيانهم وشيوخهم وأطفالهم، وقال: «**لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً**»(٢) كما نهى عن قتل الأعمى في جيش الأعداء، وعن قتل الذرية والإماء والعبيد والأجراء والمدنيِّين الذين لا يشتركون في القتال، كما نهى عن قتل الرُّهبان واقتحام الأديرة وأماكن العبادة، بل إنَّ رحمته ﷺ تخطت عالم الإنسان -أيًّا كان هذا الإنسان- لتحنو على عوالم الحيوان والنبات والجماد في جيش العدو، وذلك حين حرَّم على جيوش المسلمين ذبح الحيوانات في معسكر عدوهم وقطع شجرهم المثمر وهدم مبانيهم أو تخريبَها، وحرَّم التمثيل بجثث القتلى من الكفار.

ومن أعجب ما قرأت في سيرة هذا النبي الرحيم ما رواه أصحابُ السِّيَر والمغازي في هذا المقام من أن النبي ﷺ وهو متَّجهٌ لفتح مكة على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، بَصُرَ في طريق الجيش بكلبةٍ تحنُّ على

---

(١) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصغير» (٢٦٤) والحاكم: ١/ ٣٥، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرطهما».

ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٨١٥٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أولادها، وهم حولها يَرضعونها، فأمر رجلًا من أصحابه يقال له: جُعيْل بن سُراقة أن يقوم حِذاءها، حتى لا يعرض لها أحدٌ من الجيش ولا لأولادها..

ولا تعجبوا - أيها السادة الفضلاء - فإنَّ اللَّه تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

شعب مصر العظيم..

تعلمون وتعلَم الدُّنيا بأسْرِها أنَّ مِصرَ بلدٌ عريق وشعبَها شعبٌ أصيل، له تاريخ ضاربٌ في جذور الأزمان والآباد، عرَك التاريخ، وعركته القرون، وصمد للغُزاة والطُّغاة، وقبَرَهم في ترابه ومياه نِيله، وكم تحطَّمت على صخوره العاتية من مؤامراتٍ حاكتها يد الغدر والخيانة والتربص، ومصرُ ليس بلدًا صنعته الأموال، أو الأطماع في ثروات الآخرين، وسَرقةُ مقدَّراتهم، وإنَّما هي بلدٌ صنعه التاريخ وصاغته القِيَم الدينيَّةُ والإنسانيَّة، وإن حضارته لم تكن تُحسب بعشرات السِّنين أو بمئاتها، بل هي حضارة سبعة آلاف عام أو تزيد، والمصريون -كما هو مقرَّر في تاريخ الحضارات القديمة- هم أول من قرؤوا وكتبوا وحسَبوا وتفلسفوا وسادوا في وقت كان الناس فيه في ظلام دامس.

«وفي مصر شعر الإنسان لأول مرة بنداء الضمير» والمصريون الذين عاشوا في عصر ما قبلَ التاريخ كانوا -فيما يقول المؤرخ الأمريكي هنري بريستيد(١) - «أقدم مجتمع عظيم على الأرض، استطاع أن يضمن لنفسه غذاءً ثابتًا من النبات والحيوان، وإن تغلّبهم على المعادن، وتقدمهم في اختراع أقدم نظام كتابي على وجه الأرض قد جعل في أيديهم السيطرة على طريق التَّقدُّم الطويل نحو الحضارة الإنسانية».

(١) في: «فجر الضمير»: ٢٩، منشورات مكتبة الأسرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٩م.

ولا ينبغي أيُّها المصريون بحالٍ من الأحوال أن نهوِّن من شأن هذا الموروث الحضاري الكامن في تراب مصر، والساري في عروق أبنائها أو نظنَّ أنه تبدَّد وتلاشى لغير رجعة.

إن هذا الموروث موجودٌ ومستكنٌ ومستعدٌ للعودة وللتجلّي ثانيةً إذا ما توفر له العمل في ظلال الحرية والعدل والأمن والاستقرار.

الحفل الكريم..

إن مصر التي وصفها اللَّه بالأمن والأمان في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، والتي أوصى بها صاحب الذكرى العطرة سيدُنا محمد ﷺ فقال: «**فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا**»(١) وأوصى بأقباطها خيرًا فقال: «**اللَّه اللَّه في قِبْطِ مِصْرَ؛ فإنَّكم ستظهرونَ عليهم، ويكونُون لكم عُدَّةً وأعوانًا في سبيلِ اللَّه**»(٢).

ومصر التي اختصَّها اللَّه بالأزهر الشريف الذي حافظ على علوم القرآن، وعلوم السُّنَّة، واللُّغة العربيَّة وآدابها، وتراث المسلمين: المنقول والمعقول، ونشر كل ذلك -ولا يزال ينشره- صحيحًا خالصًا على الدُّنيا كلِّها، واستمر أكثر من ألف عام -وسيظل إن شاء اللَّه- منارة للعالم العربي والإسلامي كله، ومرجعًا أصيلًا لوسطية الإسلام وسماحته.. أقول: إنَّ مصر هذه تستحق من كل الشرفاء والعقلاء والأصلاء، في الداخل والخارج، أن تلقى منهم الدعم والتأييد، والتصدِّيَ لدعاة العُنف والتكفير وشق الصفِ وترويع الآمنين.

فالمصريون أَوْلى الأمم قاطبة وأجدرها بأن يعيشوا في أمن وأمان، وأن يتمتعوا بالاستقرار والتَّقدُّم؛ ومن حقهم، بل من واجبهم، أن يوفِّروا كل ذلك من أجل رخاء البِلاد والعِباد، وأن يتكلوا على اللَّه وينظروا لمصلحة الوطن والمواطنين، غير عابئين ولا مكترثين بهذه الأصوات التي يبعثها

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢١٥٢٠) من حديث أبي ذرٍّ الغِفاريِّ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٦١) من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها.

البُغاة والطُّغاة والمستكبرون بين الحين والآخر، فقدرة اللَّه فوق قُدرتهم، ومكرُ اللَّه أشد من مكرهم، واللَّه أكبر منهم وهو غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وانطلاقًا من مسؤوليَّة الأزهر الوطنيَّة، وفي هذا الوقت الذي يحاول فيه الواهمون في الداخل والخارج، أن يوقفوا مسيرة شعب مصر، ويقفزوا على إرادته وآماله وتطلعاته. نؤكِّدُ لشعب مصر كله أن مشروع الدستور الذي ستخرجون للاستفتاء عليه بعد غدٍ إن شاء اللَّه دستورٌ شارك الأزهر -بمجموعةٍ من علمائه- في صنعه وصياغته[1]، واطمأن الأزهر إلى أن هذا الدستور جاء مُحَقِّقًا لآمال الشَّعب في الحفاظ على الشريعة الإسلاميَّة، والثوابت الدينيَّة وصون الحقوق والحريات، وكفالة العدل والمساواة، كما جاء ملبِّيًا لكل ما يحقق أحلام المصريين وتطلعاتهم إلى عيشٍ كريمٍ وحياة مستقرة بإذن اللَّه تعالى.

وفي ختام كلمتي أتقدَّم لكُم -سِيادَة الرَّئيس- ولمصر وللعالم العربي والإسلامي والعالم كله بخالص التهنئة بمناسبة ذكرى مَوْلِد سَيِّد النَّاس ونبي الإنسانيَّة محمد بن عبد اللَّه ﷺ، داعيًا المولى سُبحانه أن يعيدَ هذه الأيَّام ومصر في عزها ومجدها ومكانها اللائق بها بين الأمم.

شكرًا لحسـن استماعكم وكلُّ عامٍ وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

(١) كان الأزهر الشريف على مر التاريخ المصري علامة بارزة على النضال والدفاع عن هوية الأمة وعروبة الدولة المصرية، كما يؤكد ذلك دستور ٢٣ وما تبعه من دساتير. واستمرارًا في القيام بدوره الوطني شارك الأزهر الشريف في «لجنة الخمسين» المعنية بصياغة دستور جمهورية مصر العربية عام ٢٠١٤م. وكان للأزهر الشريف دور بالغ الأهمية في التأكيد على هوية الدولة المصرية الإسلامية العربية، وأن مستقبلها المشرق يكمن في السير على طريق الديمقراطية والمواطنة والتعددية السياسية.

من جوانب عَظَمَتِه ﷺ(*)

بسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ على سيِّدِنا ومَولانا محمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه. وبعدُ؛

الحَفلُ الكـريمُ..

السَّلامُ عَليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

وبعد:

ففي بِدَايةِ كَلِمَتي يُسْعِدُني أنْ أتقدَّمَ إليكم -سيادةَ الرَّئيسِ-، ولشعبِ مصرَ، والأُمَّتينِ: العربيَّةِ والإسلاميَّةِ؛ شُعوبًا وحُكَّامًا، بأَطيبِ التَّهاني بحُلولِ ذِكرَى مَولِدِ خَيرِ النَّاسِ وأَعظَمِهم، وأَرحَمِهم وأَنبَلِهم، سَيِّدِنا محمَّدٍ صَلواتُ اللَّهِ وسَلامُه عليه، وعلى إخوانِه مِنَ الأنبياءِ والمرسلينَ.

كما يَسُرُّني أنْ أَتقدَّمَ لإخوتِنا المسيحيِّينَ في مصرَ والعالَمِ كُلِّهِ: شَرقِهِ وغَربِهِ، بأَطيَبِ التَّهَاني بذِكرى ميلادِ نَبيِّ المَحَبَّةِ والمودَّةِ والسَّلام، سيِّدِنا عيسى بنِ مَريمَ، سلامُ اللَّهِ وتَحيَّاتُه عليه، يَومَ وُلِدَ، ويَومَ يَموتُ، ويَومَ يُبعَثُ حَيًّا.

وإنَّهُ لَمِن بَشائرِ الخَيرِ، وعَلائمِ اليُمنِ وأَماراتِ الفَأْلِ الحَسَنِ: أَن نُوَدِّعَ عامَنا هذا، ونَستقبِلَ بعدَ أيَّامٍ مَعدوداتٍ، عامَنا الجديدَ في ظِلالِ هاتينِ

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ١١ من ربيع أول، سنة: ١٤٣٧هـ، الموافق: ٢٢ من ديسمبر، سنة: ٢٠١٥م.

المناسَبتينِ الكَريمتينِ، وما تَبعَثانِهِ في نُفوسِ المسلمينَ والمسيحيينَ مِن نَفَحاتِ الأملِ في عامٍ جديدٍ، وغَدٍ مُشرِقٍ، حافِلٍ -بإذنِ اللَّهِ-بالأخوة، والوَلاءِ للوطنِ، وبَذلِ المزيدِ منَ الجُهدِ والعملِ والعَرَقِ، لترسيخ الاستقرارِ، وتَحقيقِ الخيرِ والنَّماءِ والتَّقَدُّم، والوُقوفِ صفًّا واحِدًا في مواجَهَةِ الإرهابِ وجماعاتِ العُدوانِ المسَلَّحِ على البِلادِ والعِبادِ.

أَيُّهَا الحَفلُ الكَريمُ..

يَصعُبُ كَثيرًا، بل يَستَحيلُ، على المتَأمِّلِ في تاريخ نَبيِّ الإسلامِ أنْ يُلِمَّ بسيرتِهِ العَطِرَةِ في جَلْسَةٍ، أو مُحاضَرَةٍ واحدةٍ، أو يَعرِضَ فيها لجانِبٍ واحدٍ من جَوانبِ عَظَمَتِه الإنسانيَّةِ والنَّبويَّةِ؛ ذلكم أنَّ حياةَ محمَّدٍ ﷺ إنَّما هي صورةٌ مُجَسَّدَةٌ للإنسانِ الكاملِ، والشَّخصيَّةِ العُليا، في شَتَّى وُجوهِهَا وجَميع أَنحائِها؛ إذ تَفَرَّدَ تاريخُه ﷺ بأنْ سُجِّلَ في كُتبِ التَّاريخ والسِّيَرِ تَسجيلًا دَقيقًا، حتَّى لم تَعُدْ تخفَى علينا خافيةٌ في طفولتِه أو شبابِه أو صفاته الخِلْقيةِ أو شمائلِه الخُلُقيةِ، وأكادُ أقولُ: بل وكلّ حركَاتِه وسكناتِه، كلُّ ذلك سَطَّره المؤرِّخون في أكثرَ مِن مائةِ بابٍ مِن أبوابِ السِّيرةِ والتاريخ، سرَدُوا فيها أحوالَه، وأحصَوْا فيها أنماطَ سلوكِه وتصرُّفاتِه في العاداتِ والمعاملاتِ والعباداتِ، وهذا أمرٌ لَمْ نعهَدْه في تاريخ عظيمٍ مِن العظماءِ غيرِ محمَّدٍ ﷺ.

وقد كانَتْ هذه العظمةُ الواسعةُ، في هذه الشَّخصيةِ الواسعةِ أيضًا، مصدرَ نورٍ وهدايةٍ للحَيارَى والتَّائهينَ، ومنبعَ قُدوةٍ وأُسوةٍ لكلِّ مُستشرِفٍ لمعنًى من معاني الحَقِّ والخيرِ والجمالِ.

ولقد جسَّدَتِ الذاتُ المُحَمَّديةُ «الأُسوةَ الصالحةَ والمنهجَ الأعلى للحياةِ الإنسانيةِ في جميع أطوارِها؛ لأنَّها جمَعَت بينَ الأخلاقِ العاليةِ، والعاداتِ الحسنةِ، والعواطفِ النَّبيلةِ المعتدلةِ، والنَّوازعِ العظيمةِ القويمةِ» (١).

---

(١) «الرسالة المحمدية» سيد سليمان الندوي، ترجمة محمد ناظم الندوي: ١١٧، دار =

فالغنيُّ الثَّريُّ لا يَعدَمُ الأُسوةَ بمحمَّدٍ ﷺ وهو يروحُ ويغدُو بقوافلِ التِّجارةِ بينَ الحِجَازِ والشامِ، والفقيرُ المُعدِمُ لا تفوتُه الأُسوةُ به ﷺ بعد أنْ صَدَعَ بأمرِ اللَّهِ وحَمَلَ رسالةَ الدِّينِ، وتخفَّفَ مِنَ الدُّنيا، حتَّى صَحَّ مِن سيرتِه ﷺ أنَّه خَرَجَ مِن الدنيا ولم يشبَعْ مِن خُبزِ الشَّعيرِ(١). وكذلكَ يتأسَّى به القائد مُنتَصِرًا كان أو مُنهَزِمًا، وكذلكَ التَّاجرُ والعَامِلُ، وقُلْ مثلَ ذلك في المعلِّمِ والمتعلِّمِ والصَّغيرِ والشَّابِّ والكَبيرِ والأبِ والزَّوجِ والصَّديقِ، واليتيمِ والمتألِّمِ والمهمومِ والمحزونِ والصَّحيحِ والمريضِ وغيرِهم(٢).

فكلُّ هؤلاءِ وأمثالُهم يجدونَ في سيرتِه ﷺ إمَّا القُدوةَ والأُسوةَ، وإمَّا التَّسليةَ والعَزاءَ، ويرونَ في شخصِه العظيمِ الأُنموذجَ والمثالَ.

ولا عجبَ في ذلكَ فقد اختارَهُ اللَّهُ مجمعًا للكمالاتِ الإنسانيةِ، والحقائقِ الإيمانيةِ، وقالَ فيه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، بل قال ما هو أبعدُ مِن ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١٠].

واليومَ أيُّها الحَفلُ الكَريم، ونحنُ نَحتَفِلُ بمولِدِ هذا الرسولِ العظيم؛ نَشْعُرُ بأنَّنا في أمَسِّ الحاجةِ إلى تجديدِ حياتِنا في شَتَّى مَناحِيها: الشخصيَّةِ والاجتماعيَّةِ والإنسانيَّةِ، على هَدْيٍ مِن الأخلاقِ المُحَمَّديَّةِ، وأن نلتَمِسَ في رياضِها عِلاجًا للأَزَماتِ التي تمرُّ بها أمَّتُنا العَربيَّةُ والإسلاميَّةُ، وبَدَتْ

= ابن كثير، دمشق: ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(١) أخرجه البخاري (٥٤١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «الرسالة المحمدية»: ١١٨.

سُحُبُها السَّوْداءُ تتجمَّعُ في آفاقِها، وتُنذِرُ بأَوْخَمِ العواقِبِ. .

ومَرَّةً أُخرى: لا يَصلُحُ آخِرُ هذه الأمَّةِ إلَّا بما صَلَحَ به أولُها، وكان أوَّل مَا صَلَحَ به أمرُ هذه الأمَّةِ هو تأسيسَ وَحدتِها على أساسٍ مِن الأُخوَّةِ الدينيةِ والوطنيةِ، كما هو مَسطورٌ في وثيقةِ المدينةِ المنوَّرةِ ودُستورِها[(١)].

ونَحْنُ نَعلَمُ أنَّ صاحِبَ هذه الذِّكرَى قد بُعِثَ في أمَّةٍ وثنيةٍ مُمَزقةٍ شرَّ مُمَزَّق؛ سواءٌ في عقائدِها، حيثُ اتخذَتْ كلُّ قبيلةٍ منها وَثنًا خاصًّا تعبُدُهُ وتتميَّزُ به عن القبائلِ الأخرى، أم في نِظامِها الاجتماعيِّ، حيثُ انقسَمَت إلى طبقاتٍ تنظُرُ كلٌّ منها إلى الأخرى نظرةَ استعلاءٍ ممزوجٍ بالعَداءِ، أو في شؤونِ حُكمِها وسياستِها، حيثُ لا حُكومةَ ولا قانونَ، بل عَصَبيَّةٌ قَبَليَّةٌ لا مَكانَ فيها لأُخُوَّةٍ في وطنٍ أو عَقيدةٍ أو عَيْشٍ مُشترَكٍ، اللَّهُمَّ إلا أُخوَّةَ القبيلةِ، وعقيدةَ الدَّمِ، ومَنطِقَ السَّطْوِ والغَلَبَةِ.

هذه الأمَّةُ التائهةُ تحوَّلَتْ على يدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأصحابِه بعدَ هِجرتِه للمدينةِ المنوَّرة إلى مجتمعٍ مثاليٍّ يقتربُ مِن الجُمهورياتِ المثاليَّةِ والمُدنِ الفاضلةِ التي داعَبَتْ أحلامَ الفلاسفةِ وأَخْيلَتَهم، ومِن العجيبِ أن يَتِمَّ هذا التحوُّلُ مِنَ النَّقيضِ إلى النَّقيضِ في فترةٍ زمنيَّةٍ لم تَزِدْ على عَشْرِ سنينَ!

نَعَمْ؛ لَيسَ أمَامَنَا الآنَ إلَّا أَنْ نَقِفَ إلى جِوارِ دَعَواتِ الاتِّحادِ والتَّحالُفِ، نَدعَمُها ونُؤازِرُها، فَهِيَ وَحْدَها -بعدَ اللَّهِ تَعَالى- الضَّامِنة لإنقَاذِ أُمَّتِنا مِنْ أَزَمَاتِها الخانِقَةِ، هَذِهِ الأُمَّةُ الَّتي يتوفَّرُ لَهَا مِنْ مُقَوِّمَاتِ التَّحَالُفِ ومصادرِ القوَّةِ والاتِّحادِ ما لَمْ يتوفَّرْ لغيرِها مِنْ دُوَلٍ أخرى اتَّحدتْ فيما بينها رَغْمَ تباينِ لُغَاتِها واختلافِ أعراقِها ومذاهِبِها وطوائفِها، ولعلَّ مِنْ نَفَحاتِ صاحِبِ هذهِ

---

(١) يراجع نص هذه الوثيقة في: «الأموال» لابن زنجويه (٢/ ٤٦٦) و«السيرة» لابن هشام (١/ ٥٠١) و«البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ٥٥٥).

الذِّكرى مَا أَلهمَ اللَّهُ بِهِ قَادَةَ العَرَبِ والمسلمينَ، وجمَعَ عَلَيهِ قُلُوبَهم مِنْ إعلانِ التَّحالُفِ الإسلاميِّ العَسكريِّ للتَّصدي للإرهَابِ ولجَماعَاتِ العُدوان المُسَلَّح(١). ونَحْنُ في الأزهر وإِنْ كُنَّا نُؤمنُ -سِيَادَةَ الرَّئيسِ- بضَرُورةِ التَّصَدِّي العَسكَريِّ والأمنيِّ لهذا الوَباءِ الَّذي أُبتُلِيَت بِهِ الأُمَّةُ، ونُرَحِّبُ أَوْسَعَ التَّرْحِيبِ بِهذا التَّحَالُفِ الَّذِي نَسْأَلُ اللَّهَ تَعالى أَنْ يَكتُبَ عَلَى يَدَيْهِ نِهَايَةَ هَذا الْكَابوسِ الجَاثِمِ عَلَى صُدُورِ النَّاسِ فِي الشَّرْقِ والْغَرْبِ؛ فَإِنَّ الأَزْهَرَ -إلى جانبِ ما بَذَلَه ويبذُلُه مِن جُهودٍ في هذا المجالِ- لا يمَلُّ مِن تَكرارِ نِدَائِه وَدَعْوَتِه لِتَحَالُفٍ عَرَبيٍّ إِسْلاميٍّ يتألَّف مِن العُلَمَاءِ المُسْلِمينَ الأحرارِ، الذين يَعِفُّون عن بَيعِ عقولِهم وأقلامِهم في سوقِ السِّياسَاتِ والمُؤامَراتِ المُغرِضة، وتتأثم ضمائرهم من دعواتِ القَتل، وسَفْك الدَّمِ، وخيانة الوطنِ، وترويع اِلمُواطنين، وذلك كي يتمكَّنَ هذا التحالُف من مُوَاجَهَةِ الإرهاب بنقض أفكاره، وتفكيك مَقُولاتِه فِي أَذْهَانِ ضَحَايَاهُ؛ لِإِيمَانِنَا بِأَنَّ العُدْوَانَ إذا كَانَ يُواجَهُ بِالسِّلاحِ، فَإِنَّ الْفِكْرَ إِنَّما يُواجَهُ بِالحِوَارِ وَالحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ.

هذا وإنَّ الأزهر في دعوتِه لتآلف الأُمَّة واتِّحَادِها لَيَعي جَيِّدًا خُصوصِيَّات الأقطارِ العَربيَّةِ والإسلاميَّة، وهو إذ يَدعو للتآلف فإنَّه يدعو إلى وَحْدَة الأهداف والمَصَالح المُشْتَركة المَبْنِيَّةِ عَلَى التكامُل والتَّشاور وتَوحِيد الجُهود.

(١) التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب، هو: حلف عسكري إسلامي، يعمل على محاربة الفكر المتطرف، وينسق الجهود كافة لمجابهة التوجهات الإرهابية، من خلال مبادرات فكرية وإعلانية ومالية وعسكرية. يضم التحالف إحدى وأربعين دولة مسلمة تحت قيادة المملكة العربية السعودية، أطلق هذا التحالف في: ٣ من ربيع الأول ١٤٣٧هـ الموافق: ١٥ ديسمبر ٢٠١٥م.

ولَا يَسَعُني في خِتَامِ كَلِمَتِي إلَّا أنْ أتذَكَّر شُهَدَاء مِصر الَّذين ضَحَّوا بأرواحِهِم وأنفسهِم، وقدَّموا أغلى ما يَمْتَلِكُون دِفَاعًا عَن وطَنِهِم وعن أهْلِيهم، سائِلًا المَولى سُبحانَهُ وتعالى أنْ يَتقبَّلَهُم في عُليا الجِنان، وأنْ يَرزُق أهلَهم وذويهم الصَّبرَ والرِّضَا بقضاء اللَّه الذي لا رادَّ لقضائِه.

وفَّقَكُم اللَّه -سِيادَة الرَّئيس-، وحقَّقَ على أيديكم آمال مِصرَ والمَصريين، حَفِظَكُم اللَّهَ لِمصر، وحَفِظَ مِصْرَ بِكُم، وكُلُّ عامٍ وأنتُم بِخَيْر.

والسَّلامُ عَليكُم وَرَحْمةُ اللَّهِ وَبرَكاتُه

* * *

ميلادُ النَّبيِّ ﷺ.. ميلاد أُمَّةٍ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للَّه، وأصلي وأسلم على سيدي صاحب هذه الذكرى العَطِرة؛ محمِّد بن عبد اللَّه، وعلى آله وصحبه.

الحَفْلُ الكَريم..

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فإنَّ يَومَ مَولِدِه ﷺ ليس فقط يومًا لميلادِ رَسُولٍ عظيمٍ، أنقذَ اللَّهُ به الإنسانيَّةَ وصحَّحَ به اتَّجاه الزمن والتَّاريخ، وإنَّما هو ذكرى ميلادِ أُمَّةٍ صَنعَها هذا النَّبيُّ الكريم، وربَّاها على كرائم الأخلاقِ وأُصُولِ الفضَائلِ، والدَّعوة إلى الخَيرِ والحَقِّ، ومُقاومَة الشَّرِّ والبَاطِلِ، وبفَضلٍ من هذه التَّعاليم النَّبويَّةِ قدَّمت هذه الأمة في مَسيرتِها الحضَاريَّةِ كثيرًا مِمَّا أسعَدَ الإنسانيَّة، وظلَّلها بظِلالٍ وارفةٍ من العدلِ والحُريَّةِ والإخاء، وعصَمَها مِمَّا ارتكَسَت فيه أمم وحضَاراتٌ أُخرى، كانت -في بعض انعكاساتِها- وَبَالاً وشَرًّا مُسْتطيرًا على البَشَريَّةِ قَديمًا وحَديثًا.

ولعَلَّ مِن أصعبِ الصَّعبِ، إنْ لَم يَكُن من رَابعِ المُستحِيلاتِ، تقديمَ شخصيَّةٍ استثنائيَّةٍ كشخصيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أو الإلمَامَ بِعَظَمَتِهَا، في كَلِمَةٍ

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ٩ من ربيع الأول، سنة: ١٤٣٨هـ، الموافق: ٨ من ديسمبر، سنة: ٢٠١٦م.

أو مُحاضَرةٍ أو كُتُبٍ صَغُرَت تلك الكُتُب أو كَبُرَت، فَضْلًا عن الإحاطةِ بملامِحِها وقَسَمَاتِها.

وإنْ شِئْتُم دَليلًا على ذلك فانظروا إلى الإمام محمدٍ بن يوسُفَ الصَّالحيِّ الشَّاميِّ، من عُلَمَاءِ القَرن العاشر الهجري، في مَوسُوعتِه الكُبرى «**سُبُلُ الهُدَى والرَّشَاد في سِيرةِ خَيْرِ العِبَاد**»، فقد قضى هذا الإمامُ عُمرَهُ في تأليفِ هذه المَوسُوعةِ التي وصَفَهَا في مُقَدِّمة كِتَابِه بقولِه: «وإذا تأمَّلتَ هذا الكتاب عَلِمْتَ أنَّه نتيجةُ عُمْرِي وذخيرةُ دَهْرِي» وقال عنه: إنَّه انتخبه من أكثَرَ من ثلاثِ مئةِ كتابٍ في السِّيرةِ، قرأها وتحرَّى فيها الصَّواب الذي أثبتَهُ في موسوعته هذه:(١)، وقد تَدهَشُونَ حين تَعْلَمُون حَضَراتُكُم أنَّ عدَدَ صفحَات مُجلَّدات هذا الكتاب بلغت سِتًّا وستينَ ومائةً وتسعةَ آلاف صحيفةٍ، دارت كلها من أوَّلِ سطرٍ فيها إلى آخر سطرٍ حول سيرة محمَّدٍ ﷺ.

ومن عَجَبِ أمرِ هذه السِّيرةِ العَطِرَة أنْ تنوَّعَت إلى أنواعِ عِدَّة من السِّيَر، لَمْ تُعْرَف لشخصيَّةٍ في التاريخِ البشريِّ إلَّا للذَّاتِ المُحمَّديَّة.

فمن هذه السِّيرة ما يُعْرَفُ بالخصائصِ، وهي: الصِّفَاتُ والفضائلُ والمكارِمُ التي اخْتُصَّت بها شخصيَّتهُ المُتفرِّدة على مستوى الإنسانيَّة، وعلى مستوى التاريخِ وامتداد الكَونِ.

ومنها ما أُطْلِقَ عليه «الشَّمائلُ المُحَمَّدِيَّة»، وهو عِلْمٌ مُستقلٌّ من علومِ السِّيرَةِ النَّبَويَّة، سُجِّلت فيهِ أدقُّ دقائقِ أوصَافِهِ ﷺ الخِلْقيَّةِ، والخُلُقيَّةِ، وأحوالُه الشَّخصيَّةُ والمنزليَّة والمُجتمَعيَّة.

وفي هذه الشَّمائِلِ نقرأُ وصفًا تفصيليًّا عن كل ذلك. حتى قرأنا عن: هَيئَتِه ﷺ: وقسماتِ وَجْهِهِ الشَّريف، ولَوْنِه وعينيه وأنفِه وفَمِه وشَعْرِه،

(١) «سبل الهدى والرشاد»: ١/٦، ط. وزارة الأوقاف المصرية: ١٩٧٣م.

وطُولِه وعَرْضِه، وكَفَّيه وقدَمَيْه، وكيفيَّة مِشْيَتِه، وكيفَ كان ينظرُ إلى النَّاسِ.. ثُمَّ ينتقلُ التَّسجِيلُ الدَّقيقُ إلى وصفِ خاتَمِه ﷺ، وخِضَابِه ولِباسِه وخُفِّه ونَعْلَيه، وسَيْفِه ودِرْعِه، وعِمَامتِه وإزاره، ثم جِلْسَتِه واتِّكائِه، وأكلِه ونَوْمِه، وضَحِكِه ومِزاحِه وبُكائه، إلى تفاصيلَ أُخرى يضيقُ المقامُ عن سَرْدِها..

أمَّا صِفَاتُه الخُلُقِيَّةِ فقد أُحْصِيت أصولُها، واستقلَّت بها أبوابٌ وفصولٌ، بل كُتُبٌ مستقلَّةٌ، مثل طول حِلْمِه وقوَّة احتمالِه وصَبرِه، وعَفْوِه ورحمته، وشَفَقَتِه ورأفتِه ﷺ، وجوُدِه وكَرَمِه، وشجاعتِه ونَجْدَتِه، وحيائِه وإغضائه، وحُسْنِ عِشْرَتِه، ووفائِه بعَهْدِه ووعدِه، وتواضُعِه، وعَدلِه وأمانته، ووَقَارِه، ومُروءَتِه ﷺ.

ولم يقتصر هذا الشَّغَفُ بتسجيلِ حياة النبيِّ الكَريم على قُدامى المؤرِّخينَ، وكُتَّابِ المغازي والسِّير، بل امتدَّ هذا الحُب والوَلَع لمؤرخي كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ، ومن أواخِرِ عُشَّاقِ هذه السِّيرةِ المُطَهَّرةِ -فيما نَعْلَمُ- الدكتور/ صلاح الدِّين المُنجِّد (ت. ٢٠١٠م) رحمه اللَّه والذي ألَّفَ كتابًا بعنوان: «**مُعْجَم مَا أُلِّفَ عن رَسُول اللَّه ﷺ**»، أحصى فيه ألفين وأربَعمائةٍ وثمانيةً وثمانينَ كتابًا تخصَّصَت في تسجيلِ حياتِه ﷺ في كلِّ جوانبِها ومناحِيها.

ورُغم هذه الكثرة من المؤرخينَ المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ مِمَّن نذروا حياتَهُم وأفنوا أعمارَهُم في تسجيلِ سيرة نبيِّ الإسلام، والكشفِ عن أسرارِها ودقائِقِها، رُغم ذلك بَقِيَ من ذخائرِ هذه السِّيرةِ الزَّكيةِ الكثيرُ مِمَّا تفتقِرُ إليه الإنسانيَّةُ اليوم، وتحتاجه احتياجَ الأعمى إلى قائد خبيرٍ بالطريقِ، بصير بمزالقِه ومهالِكِه.

على أنَّ ما كتبه المؤرِّخونَ واستنفدوا فيه ماءَ عُيونِهم، هو أقلُّ قليلٍ تُقدِّمُه

البشريَّةُ من إجلالٍ واعترافٍ بالعَظَمةِ والعُظماءِ، وإذا كان تكريمُ العظيم حقًّا على النَّاسِ، أيًّا كان الزمنُ الذي يُظِلُّ هذا العظيم، أو الأرضُ التي تُقلُّه؛ فإنَّه في زمننا هذا من ألزم اللَّوازم وأوْجَبِ الواجباتِ، بعد أن استبدَّت الحركاتُ السياسيَّةُ المُعاصرةُ، والمذاهبُ الاجتماعيَّةُ الوافدة، بتوجيه أبنائنا وبناتنا، ودندنت لهم طويلًا على وَتَرِ «المُسَاواةِ»، وتساوِي الرُّؤوس، وعَدَم التَّمايُز، حتى ظَنَّ كثيرٌ من الصِّغَارِ أنَّ لهُم قامات يُساوِقونَ بها مَنَاكِبَ العُظَماءِ والمُصْلِحينَ، والعِلْيَةِ مِمَّن لا يجودُ الزمن بأمثالهم إلَّا واحدًا بعد واحدٍ، وعلى سبيلِ النُّدرةِ، والاستثناءِ من القاعدةِ ومَجرَى العادات.

بل اعتقدَ كثيرٌ ممن تَضَخَّمت نُفُوسُهم بسبب من الفَهْمِ السقيم لمعنى المُسَاواة أنَّ مِن حقِّهم إنكارَ العَظَمةِ، وغَمْطَ العَظيمِ حقَّه، وأنَّ جديدَهُم جديرٌ بنَسْخِ القديم في كلِّ شيءٍ، حتى لو كان هذا القديمُ أصلًا أو جِذْرًا يَضُخُّ الغِذَاءَ، ويَهَبُ الحَيَاةَ، ولا مَفرَّ مع هذه الآفة التي يبعثُها الغُرور ويُثيرُها النَّزَقُ، من أن تضطربَ القِيَمُ، وتهتزَّ المَعاييرُ، وتَنْبَهِمَ معالمُ الحَقِّ، وتَهبِطَ قيمةُ الضَّميرِ الإنسانيِّ إلى الحضيضِ..

وما أصدقَ ما قالَه عملاقُ الأدبِ العربيِّ الأستاذ/ عباس محمود العقاد، وهو يُقدِّمُ للنبيِّ ﷺ في مُفتَتَحِ عَبْقَرِيَّة مُحَمَّد.. وما أوضحه من أنَّ الإنسان الذي لا يرى عظمة العظيم، هو إنسان لا يساوي شيئًا، وأنَّ المجتمعَ الذي يضيعُ فيه الكبير يضيعُ فيه الصغير قبله لا محالة. يقول رحمه اللَّه: «ماذا يُسَاوِي إِنْسَانٌ لَا يَزِنُ الإِنْسَانُ العظيمُ عنده شيئًا؟ وإذا ضاعَ العظيمُ بين النَّاس فكيف لا يضيع بينهم الصَّغيرُ!»(١).

---

(١) «عبقرية محمد» ضمن «موسوعة العقاد الإسلامية»: ٢ / ٢٤، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧١م، (بتصرُّف يسير).

وللَّه درُّ أمير الشُّعراء أحمد شوقي في قصيدته التي يَمتَدِحُ فيه الأزهرَ الشَّريفَ ويشكُرُ له حراستَه التُّراثَ الإسلاميِّ، الذي هو تراث إنساني، لا تزال تنهَلُ من حياضِه عظائِمُ العقولِ في الشَّرقِ والغربِ حتى يوم النَّاسِ هذا، ثم يُحذِّرُنا مِمَّا يُسَمِّيهِ «عِصَابَةً مَفتُونَةً» تتنكَّرُ لكلِّ ما هو قديم، حتى كادوا يُنكِرُونَ آباءهم وأجدادَهُم لا لشيء إلا لأنهم من أبناء جيل قديم.. وأن هذه العصابة المفتونة مُغرَمة بهدم القديم، وليس في أيدِيهِم جديدٌ يُقدِّمونَه، وإذا أتوا بجديدٍ فإنما هو الرثاثةُ والضحالةُ والثرثرةُ، يقول شوقي رحمه اللَّه:

لا تَحذُ حَذوَ عِصابَةٍ مَفتونَةٍ يَجِدونَ كُلَّ قَديمِ شَيءٍ مُنكَرا
وَلَوِ استَطاعوا في المَجامِعِ أَنكَروا مَن ماتَ مِن آبائِهِم أَو عُمِّرا
مِن كُلِّ ماضٍ في القَديمِ وَهَدمِهِ وَإِذا تَقَدَّمَ لِلبِنايَةِ قَصَّرا
وَأَتى الحَضارَةَ بِالصِناعَةِ رَثَّةً وَالعِلمِ نَزرًا وَالبَيانِ مُثَرْثَرا

الحفل الكريم..

إنَّ احتفالَنا اليوم بتكريم سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ هو احتفالٌ بتكريمِ العَظَمَةِ الإنسانيَّةِ في أعلى ذُراها وذُؤاباتِها، فقد كان ﷺ عظيمًا في مَوْلِدِه، عظيمًا في حياتِه، وسياستِه وإدارتِه، وحديثِه وبلاغتِه، عظيمًا في رئاستِه وفي قيادتِه، عظيمًا وهو أبٌ وزوجٌ وسيِّدٌ ورَجُلٌ، ثم هو عظيمٌ بالغُ العَظَمةِ في التَّاريخِ.. وقليلٌ عليه ﷺ وعلى أمثاله من عُظَمَاء الإنسانيَّة أن تُفْرَدَ المُجلَّدات الطِّوالُ لتاريخِهم وسيرِهِم، وأنْ يُنْفِقَ مئاتُ المؤرخين أعمارهم في تسجيل سيرهم، والاحتفال بذكرى مولدهم..

وتبقى كلمة توجبُها أمانةُ النَّصيحة لعامَّة المسلمين وخاصتهم، وهي أن هذا النبي الذي «وهب حياتَه الشريفة لنُصرةِ الحَقِّ، وصَبَر على الإيذاء يوما

بعد يوم سنينَ عَدَدا»[١] لَمْ يَعُد للأسفِ البالغِ هو مصدرَ التَّلقِّي والتوجيه لحياة المسلمين اليوم ومعاركِهِم الكبرى مع الفقر والجهل والمرض. . والتخلُّف العلمي والثقافي، وقد جَنَتْ هذه الأُمَّة من التنكُّب لهَدْي نبيِّها ﷺ ثمراتٍ مُرَّة، وهوانًا يصعب احتماله والصبر عليه، وكان المأمول أن تكون ذكرى مولد نبيهم تجديدًا لخيرية هذه الأمة التي خاطبها القرآن الكريم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإذا كان المسلمون يخوضون اليومَ معاركَ جديدةً ومتنوعةً من أجل التنمية والتقدُّم العلمي والتِّقَني والحضاري، بعد أن سُحب البساط من تحت أقدامهم لصالح حضاراتٍ أخرى، وأصبح ميزانُ العِلْم والقُوَّة في أيدي غيرهم، فأحرى بهم أن يتوقَّفُوا طويلًا عند ذكرى ميلاده ﷺ، يتأمَّلون ويقتبسون من مِشْكَاتِهِ مشاعل على طريق النهوض، والعزيمة ومواصلة التحدِّي والصَّبرِ على الأزماتِ، فقد ترك لنا صاحبُ الذِّكرى العَطِرَة ثروةً هائلة من تعاليمه ووصاياه، ونماذجَ لا مثيلَ لها من أفعالِه ومواقِفِه وسُلوكِه، وكان الظَّنُّ أن نفيد من هذا الكنز الخُلقي، والعَقَدِيِّ، في معركتنا اليوم ضِدَّ العَجْز والتَّخلُّف، والتَّبَعِيَّة والهَوَان، حتى أصبحَ الباحثُ المتأمِّلُ الذي يقارِنُ بين الميراثِ النَّبويِّ، وبين حالِ المسلمينَ الآن يَنتابُه ما يُشبِه دُوارَ الرَّأسِ من هذا الانفصام بين ما تَملِكُه هذه الأمَّة من مصادِرِ القوَّة وأسبابِ التحضُّر والانطِلاق، وبين الواقع المتواضع، بل الشديد التواضُع، والذي طالَ عليه الأمدَ وأصبحَ من أهمِّ ملامحِ هذه الأُمَّة وأبرز قَسَمَاتها. .

ولسنا -علم اللَّه!- من هُواة تثبيط الهِمَم والبكاء على الأطلال، ولكنه

(١) ماركس دودز، في كتابه: «محمد وبوذا والمسيح»، نقلًا عن المصدر السابق ص ١٦٢.

الواقعُ الذي يصعب تجاهلُه أو غض الطرف عنه، وإلَّا فإنِّني -والحمد للَّه- مَمْلُوءٌ أملًا وثقة لا حدود لهما في هذه الأمة، وأنها وإن أصابها الوَهْنُ والمرض، فإنها -بإذنه تعالى- لن تموتَ ولن تفنى، ولن تذوب في غيرها، وستظلُّ حاملةً لشُعلة الحَقِّ والخَيْرِ وستبقى «خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» كما وصفها القرآن الكريم. .

والأملُ -بعد اللَّهِ تعالى- معقودٌ على شباب أمتنا وشاباتها، مِمَّن نقرأُ في عيونهم بشائرَ الأملِ ومخايِلَ العَزْمِ على الخُروجِ بهذه الأُمَّةِ من حالة السُّكونِ والرُّكُودِ، والتصميمَ على الانطلاقِ بها في سباقِ الحضاراتِ والرُّقيِّ والتقدُّم، مستضيئينَ بالوحي المعصُوم وبَهْديِ صاحبِ هذه الذكرى صلواتُ اللَّه وسلامه عليه وعلى إخوته من الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

سيادة الرئيس. .

إنِّي إذ أُقَدِّر لسيادتكم الاهتمام الخاص بشبابِ مصر، فإنِّي أوصي نفسي أولًا، وأوصي جميع المسؤولين بأن يضعوا هذا الشَّباب نُصْبَ أعينهم، فهم ثروة مصرَ وكنزُها الدَّفين، وباعثُ نهضة هذا الوطن المُثقل بالهموم والآلام، لكنه المفعمُ بالآمال والثقة في اللَّه تعالى.

وأختِم كلمتي بتهنئَتي لكم -سيادة الرئيس- وللشعب المصري، وشعوب الأمتين: العربية والإسلامية، بذكرى المولد النبوي الشريف، سائلًا المولى سبحانه أن يوفقكم لما فيه خير البلاد والعباد. وكل عام وأنتم جميعًا بخير. شكرًا لحسن استماعكم.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

ذِكرَى المولِد
والانحراف عن المنهج النَّبَوِيّ (*)

بسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

الحمدُ للَّهِ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ على صاحب هذه الذِّكرى العطرة؛ سيِّدِنا محمَّد، وعلى آلِه وصحبِه الطَّيبين الطاهرين.

الحَفْلُ الكَـريمُ..

السَّلامُ عَليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

وبعد:

فإنَّ احتِفالَنا اليَوم بذكرى المولد النَّبويِّ الشَّريف، هو في الحقيقةِ احتفالٌ بظهُورِ النبوَّة الخاتمةِ، والرِّسالة الإلهيَّة الأخيرة، التي وضعَت الإنسانيَّة بأسْرِها على الطَّريقِ الصَّحيح، وأخرجَتها من ظُلُماتِ الجهل والضَّلال، بعد ما أطلقَت العقلَ البشريَّ من قيود العصبيَّة، وسُلطان القبيلة، ونِظام العائلة، وبعد ما حرَّرت ضمير الإنسان من أغلال الظُّلم، ومن طبائعِ الاستبدادِ والاستِعباد.

ولم يَكد يَمضي على انتقالِ صاحب الرِّسالة الخالدة إلى الرَّفيق الأعلى عشرُ سنواتٍ فقط[1] حتَّى بدأت عروشُ الطُّغاةِ والجبابرةِ والمتألِّهين تتهاوى

(*) أصل هذه المحاضرة كلمة ألقيت في ذِكرَى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ١١من ربيع الأول، سنة: ١٤٣٩هـ، الموافق: ٢٩ من نوفمبر، سنة: ٢٠١٧م.

(١) يُسمِّي المسلمون معركة نهاوند، سنة: ١٩هـ/ ٦٤٠م، بـ«فتح الفتوح»؛ لأنهم قضوا فيها =

وتسقطُ عرشًا إثْرَ آخر، وبدأت الإنسانيَّة -ولأوَّلِ مرَّة في تاريخِها- تتنسَّمُ عَبقَ الحُريَّة، وتَتذوَّقُ طَعم العدالة، وتَعرِف معنى المُساواةِ بين النَّاس، وواجبَ تحرير الإنسان من ظُلْم أخيهِ الإنسان.

يَذكر الإمام الطَّبَريُّ في «**تاريخِه**» أنَّ رَبعيَّ بن عامر -أحدَ قادَة الفتح الإسلاميِّ- لمَّا دخلَ على رُسْتُم -قائدِ جيش الفُرس- ليتفاوضَ معه قبل بدء الحرب في معركة القادسيَّة، قال له رُسْتُم: ما جاءَ بكم؟ قال رَبْعِي: «اللَّه ابتعثَنا، واللَّهُ جاء بنا؛ لنُخرِجَ مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدُّنيا إلى سَعتها»[(١)].

كلماتٌ قليلة، تعكسُ افتِقادَ هذا الصَّحابي الجليل قبلَ مجيء هذا الدِّين الجديد لقيمة الحريَّة، وقيمة العدل، وتعطُّشه لأن يعيشَ النَّاسُ في ظلالهما.

ولنا أن نتأمَّلَ عبارتهُ ﷺ: «من ضيقِ الدُّينا إلى سَعتها»؛ لنُدرك كيف أنَّ حياةَ النَّاس قبل هذا الدِّين كانت تَئِنُّ تحتَ وطأة الضِّيق الذي فرضته عليهم أنظمتُهم السِّياسيَّة، وأنماطُهم الاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّة، وأنَّ هذه الرِّسالة الخاتمة جاءت لتحرُّرَ العقل والفِكر والوجدان، وأنَّ سبيلها في تحريرِ الإنسان هو: مبدأُ الحريَّة المنضبطُ بمبدأ العدل، والذي يَضمنُ إعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه؛ إذ بدون العدل المطلَق تَفسُد الحريَّة، وتنقلِب إلى فوضَى تُطيحُ بكلِّ المبادئ الإنسانيَّة الأخرى.

الحفلُ الكريـم..

وإذا كانت نبوةُ صاحب هذه الذكرى العطرة -صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه-

---

= على آخر الجيوش الفارسية السيسانية، وانتهت بذلك -وللأبد- دولة الفرس. حسين مؤنس، «أطلس تاريخ الإسلام»: ١٢٩. أما سقوط الدولة البيزنطية؛ فقد كان ما بين سنتي: ١٢-١٦هـ، وهي سنة تسليم القدس لعمر ﷺ المصدر السابق: ١٢٦.

(١) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٥٢٠.

ضرورةً لهداية البشر؛ فإنَّ تنكُّبَ طريقها من أخطرِ ما تُمنى به الحضاراتُ والمجتمعات.

ويُثبت التَّاريخُ أنَّ سقوطَ الحضارات كان بأسبابٍ وعواملَ ذكَّرَ بها القرآنُ الكريمُ وحذَّرَ منها، وهي المسماةُ في القرآن بسُنن اللَّه في الكون والإنسان..

وأهمُّ هذه الأسباب: هو الانحراف عن منهجِ النبوةِ في سياسة النَّاس والمجتمَعات، وأخذهِم بمكارمِ الأخلاق التي هي الغايَة من بَعثة الأنبياء، وبرحمةِ الخَلْق كل الخَلْق؛ فقد قالَ ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(١)، وقالَ عن نفسِه: «**أيُّهَا النَّاس، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(٢) بعد أن قالَ اللَّه عنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكما يكونُ الانحرافُ عن منهج الأنبياء بإنكار الدِّين ومحاربته، والدَّعوة إلى الإلحاد والكُفر باللَّه وملائكته وكتُبه ورُسُله واليوم الآخر - يكونُ الانحرافُ أيضًا بصورةٍ أشدَّ خطرًا، وأكثرَ فَتْكًا، وأعتَى تخريبًا- بانحرافِ جماعةٍ شاذَّة شاء لها خيالُهم المريض أن يتصوَّروا أنفسهُم أوصياءَ على النَّاس، وأنَّهم وكلاءُ اللَّه في الأرض، وهُم وحدَهم القائمون على فهم الدِّين وتفسير أحكامه.

هذه الجماعة أو الجماعات الإرهابيَّة -على اختلافِ مشاربِها وتسمياتها- تنطلق من اعتقادٍ خاطئ، يَبْرأُ منه اللَّهُ ورسوله والمؤمنون، هذا الاعتقاد هو:

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢) والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٢٧٣) من حديث أبي هريرة ﵁. أمَّا اللَّفظ المذكور فقد أخرجه البيهقيُّ: ١٠/ ١٩١.

(٢) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصَّغير» (٢٦٤) والحاكم: ١/ ٣٥، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة ﵁. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرطهما».
ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا.

أنَّ من لا يعتقدُ معتقدهم من المسلمين فهو كافر، وأنَّ الكافر مُستباحُ الدَّمِ والمالِ والعِرض..

وأمثالُ هذه الفِئة الضَّالة ليست بِدعًا في تاريخِ المسلمين، بل وُجِد نُظراؤهم وأضرابهم في سائر الأديان والعقائدِ والمذاهب، وما يُرَوَّج الآن من أنَّ الإرهاب صناعةٌ إسلاميَّةٌ خالصةٌ -حديثُ خُرافة، يُكذِّبه الواقع الذي يُزيِّف هذه الأراجيف، ويفضَح نوايا مُروِّجِيها، فكتُب التَّاريخ وكتُب السِّياسة مَلأى بالحديثِ عن الإرهاب والإرهابيين المنسوبين إلى الأديان، وإلى المذاهب السِّياسيَّة والاجتماعيَّة.

ولا نريد أن نسترسلَ في الحديث بعيدًا عن أثر المصيبة التي زلزلت قلُوب المصريين يوم الجمعة الماضية[١]، بل زلزلت كِيان الإنسانيَّة جمعاء في الغرب وفي الشَّرق؛ فقد كان حادث مسجد الرَّوضَة بَشِعًا شنيعًا، وكان تنفيذه من الوَضاعةِ والخِسَّة والدَّناءة غير مُتصوَّر، ولا متوقَّعٍ صدورُه، لا من الإنسان ولا من الوَحْش في الغابات.. وهذا الرُّصَاص الذي حصَد أرواحَ المصلِّين في المسجد هو في المقام الأوَّل حربٌ على اللَّه ورسوله، وتحدٍّ له سبحانه في عُقْرِ بيتٍ من بيوتِه.

وهؤلاء المجرمون ليسوا أوَّل مَن نفَّذ مثلَ هذه الجرائم في بيوت اللَّه؛ فقد قُتِل الخليفةُ الثَّاني لرسول اللَّه ﷺ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه وهو قائمٌ يُصَلِّي في محراب مسجد رسُول اللَّه ﷺ، وقُتل الخليفةُ الثَّالث عثمان رضي الله عنه وهو يَقرأُ القرآن، وتناثَر دَمُهُ على صفحاتِ المصحف الذي كان يَقرأُ منه، وقتَل الخوارجُ -أسلافُ هؤلاء المجرمين وأجدادُهم- عليًّا -كرَّم اللَّه وجهه- وهو ذاهبٌ لصلاة الفجر، وكان يُنادي في النَّاس؛ الصَّلاة.. الصَّلاة.

(١) يوافق ٥ من ربيع الأول ١٤٣٩هـ -٢٤ من نوفمبر ٢٠١٧م.

وفي قِتْلَة خلفاءِ رسولِ اللَّه ﷺ واستشهادِهم بسلاحِ الغَدر والخيانة عزاءٌ -وأيُّ عزاءٍ- لنا ولأهلينا ممَّن فقدوا وفَقَدْن فلذات الأكباد، وراحَ عنهم العائل والسَّند. .

وإن كنتم -أهلَنا في بئر العبد- قد رُوِّعتُم وفُزِّعتُم؛ فاذكروا أنَّ تاريخ هؤلاء الخوارج معروفٌ في ترويعِ أصحابِ رسول اللَّه ﷺ، والإغارةِ عليهم، وتكفيرهم عليًّا وقتلهم إيَّاه، بعد ما خذلُوه وانشَقُّوا عليه.

ونحن -سيادة الرَّئيس-؛ إذ نُعزِّيكم ونُعزِّي شعبَنا الصَّامد في شهدائنا الأبرار، نسألُ اللَّه تعالى أن يتقبَّلهم بواسع رحمته ورضوانه، ويُسكِنهم فسيح جنَّاته، ويَربط على قلوب أهليهم وذَويهم، وأن يَمُنَّ بالشِّفاءِ العاجل على المُصابين والجَرحى والمكْلومين.

وخِتامُ كلمتي: اعتذارٌ كلُّه حياءٌ وخجَل واستِحياءٌ منك -يا سيد المُرسلين و يا سيد الأنبياء، و يا سيد النَّاس، اعتذاري إليك إن تطاول على مقامك الرَّفيع في ذِكراك العَطِرَة طُغْمَةٌ من الجهلة وقُساة القلوب وغلاظ الأكباد، والخارجين على نهجِك القَويم، والذين لم تَزدهم جرائمُهم إلَّا بعدًا منك ومن دينك وشريعتِك، فعُذرًا -رَسُولَ اللَّهِ- عن هذا التَّطاول، وهذه الإساءَة وسُوء الأدب والعبَث برسالتك السَّمحة.

وغدًا سيَعلم المفسدون في الأرض، المارِقون من الدِّين، حين يُحرَمُون شفاعتك يوم القيامة -أيَّ مُنقلَبٍ يَنقلبون.

شكرًا لحسن استماعكُم.

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

* * *

السُّنَّة النَّبويَّة المشرفة ومَوْجَات التَّشكِيك(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيدِنا رسولِ اللَّه وعلى آله وصَحْبِه ومن اهْتَدَى بِهُدُاه.

الحَفْلُ الكَريم..

السَّلامُ عَـلَيْكُم وَرَحـمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

وبعد:

فَيُسْعِدُني أنْ أتقدَّمَ إليكُم، ولشَعب مِصْرَ العريق، والأمَّتينِ: العربيَّةِ والإسلاميَّةِ بأطيبِ التهاني بحلولِ ذكرى مَولدِ نَبيِّ الرَّحمة ورَسُولِ السَّلام، سيِّدنا محمَّد بن عبد اللَّه صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه وعلى إخوتِه من الأنبياءِ والمُرْسَلين.

هذه الذِّكرى التي تُثيرُ في وَعْيِ كُلِّ مُسلم، ووعْيِ كلِّ مَن يَعرفُ هذا النَّبيَّ الكَريم ويَعرفُ سيرَتَهُ وأخبارَه، ويَقْدُرُه حقَّ قَدْره، تُثيرُ عوالمَ من ذكرياتِ العَظَمَةِ والعُظماء، الذين غيَّروا التَّاريخ وأنقَذُوا الإنسانيَّة، وصَحَّحوا مَسَارَها، وكانوا حَلْقةَ الوَصْل في تبديدِ ظُلُماتِ الأرضِ بأضواءِ السَّماء.

وهذا النَّبِيُّ -العالي القَدْرِ العظيمُ الجاه -الذي يَحْتَفِلُ بمَولدِه -اليوم-

(*) أصل هذه المحاضر؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ١١ من ربيع أول، سنة: ١٤٤٠هـ، الموافق: ١٩من نوفمبر، سنة: ٢٠١٨م.

قَرابةُ مِليارٍ ونصف المليار من أتباعِه في مَشَارقِ الأرضِ ومغاربِها، هذا النبيُّ له في رقابِنا نحنُ المؤمنينَ بِه وبسُنَّتِه وتعاليمِه وتوجيهاتِه، لَهُ أكثرُ من حقٍّ وأكثرُ من واجبٍ، لأنَّه صلواتُ اللَّه وسَلامُه عليه، لم يَكُن عظيمًا في بابٍ واحدٍ من أبوابِ العظمةِ الإنسانيَّة يَشُدُّ الأنظارَ ويُدْهِشُ العُقُول، ولكنَّه كان مَجْمَعَ العَظَمَة في كلِّ أبوابِها التي تستوجبُ الاحترامَ والتوقير في كلِّ عَصْرٍ وقَبيل.

وإنَّهُ، وإن كان من المُستحيلِ في هذه الكلمةِ المُحَدَّدةِ: زمانًا ومِسَاحَةً، أن نُلِمَّ ولو بجانبٍ واحدٍ من جوانبِ العَظَمَة المُحَمَّديَّة، المتراميةِ الأطرافِ والأبعاد، والتي اجتمعت في هذا الإنْسَانِ الكَامِلِ، فإنِّي لأرجو أن يكونَ لكلمتي مُتَّسَعٌ في الإشارةِ إلى أمْرٍ قَديمٍ مُتجدِّد، يَتعلَّقُ بهذه المناسبةِ الشَّريفة من قريبٍ أو بعيد. . ذلكُم هو: هذه الصَّيحاتُ التي دأبَت على التَّشكيكِ في قيمةِ السُّنَّةِ النبويَّة، وفي ثُبوتِها وحُجِّيَّتِها، والطَّعنِ في رُواتِها: من الصَّحابةِ والتَّابعين ومَن جاءَ بعدَهُم، والمطالبةِ باستبعادِ سُنَّتِه الشَّريفةِ جُملةً وتفصيلًا من دائرةِ التَّشريعِ والأحْكَامِ، والاعتمادِ على القرآنِ الكريمِ وَحْدَه، في كُلِّ مَا يأتيهِ المسلم وما يَدَعَهُ من عباداتٍ ومعاملاتٍ، وأنَّ ما لم نَجِدْه مَنصُوصًا عليه في القرآن فإنَّ المسلمينَ فيهِ أحْرَارٌ مِن قيودِ الأمرِ والنَّهْيِ، والحلالِ والحرَام.

وقد ظَهَرتْ هذه الدعوةُ أوَّلَ ما ظهرتْ في عصرِنا الحاضر في الهند، منذُ بداية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وشارَكَتْ فيها شخصيَّاتٌ شَهيرةٌ هناك، منهم مَن انتهى به الأمرُ إلى ادِّعاءُ النُّبوَّة، ومنهم مَن كان ولاؤُه للاستعمارِ، ومنهم مَن أدَّاهُ اجتِهادُه إلى إنكارِ الأحاديث النبويَّة: ما كانَ منها متواترًا وما كانَ غيرَ متواتر، وأنَّ السُّنَّةَ ليْسَت لها أيَّةُ قيمَةٍ تشريعيَّةٍ في الإسلامِ، وأنَّ القُرآنَ وحدَهُ هو مصدَرُ التشريع، ولا مَصْدَرَ سِواه، ضاربًا عرضَ الحائط بما أجمع عليه المسلمونَ من ضَرورَةِ بقاء السُّنَّة إلى جوارِ

القرآن جنبًا إلى جنبٍ، وإلَّا ضاعَ ثلاثةُ أرباع الدِّين.. وأنَّ سَلْخَ القرآنِ عن السُّنَّة يَضَعُه في مَهَبِّ الرِّيح، ويفتحُ عليه أبوابَ العَبَثِ بآياتِه وأحكامِه وتشريعاتِه، وضَربوا لذلك مثلًا: الرُّكنَ الثانيَ من أركانِ الإسلامِ بعدَ الشَّهادتين وهو: الصَّلاة.

فمن المعلومِ أنَّ الصَّلاةَ ثابتةٌ بالقُرآن، لكن لا تُوجَدُ آيةٌ واحدة في طولِ القُرآنِ وعَرْضِه يتبيَّنُ منها المسلِمُ كيفَ يُصَلِّي ولا ما هي كيفيَّةُ الصَّلاة، ولا عددُ ركعاتِها وسَجَدَاتِها ولا هيئاتِها، من أوَّلِ تكبيرةِ الإحرام إلى التَّسليمِ من التَّشَهُّدِ الأخير.. فهذه التفاصيلُ وأضرابُها لا يُمْكِنُ تَبيُّنها ولا مَعرِفتُها ولا الاستِدلالُ عليها إلَّا من السُّنَّةِ النَّبَويَّة التي هي المصْدَرُ الثاني من مَصادِرِ التَّشريعِ في الإسلامِ.

وحينَ طُولِبَ أَحَدُ كبرائِهم في مُناظَرة، بإقامةِ الدَّليلِ على هيئاتِ الصَّلاةِ من القُرآنِ فقط حتَّى يَتَّبِعَهُ المسلمون، قال -وهو غَارِقٌ إلى أُذُنَيهِ في قياسِ الإحرَاجِ-: «إنَّ القرآن لم يَأمُرْنا إلَّا بإقامةِ الصَّلاةِ، أمَّا كيفيَّةُ أداءِ الصَّلاةِ - من ركوعٍ وسجودٍ... إلخ- فأمْرٌ مَتْرُوكٌ لرئيسِ الدَّولَة، يُحَدِّدُه بمشُورة مُسْتشاريه حَسَبَ الزَّمانِ والمكان»[1].

وفي هذا الاتجاه سارَ كثيرٌ من المقرَّبين من أجهزةِ الاستِعمارِ البريطاني في الهِند، فأنكَرُوا آياتِ الجهاد، وأفتَوا بحُرمةِ التصدِّي للمُسْتَعْمِرين، وأنكَرُوا كُلَّ ما تُنكِرُه الثقافةُ الغربيَّة ولو كان دينًا، وأثبتوا ما تُثبِتُه هذه الثقافة حتى لو جاءَ صادِمًا للإسلامِ وإجماع المسلمين.

ثم ما لبثت الفتنةُ أن انتقلت إلى مصر، وتعصَّبَ لها طَبيبٌ بسجنِ طُرة،

(١) نقلًا عن: «دراسات في الأحاديث النبوية» لمحمد مصطفى الأعظمي: ٢٩، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

نَشَرَ مَقالَتين في «مَجلَّة المنار» عام: ١٩٠٦، ١٩٠٧م بعنوان: «**الإسلامُ هو القُرآنُ وَحْدَهُ**» ولقيَت فِكْرَتُه دعمًا من بعضِ الكُتَّابِ المتربِّصينَ بالسُّنَّةِ النبويَّةِ.

وهؤلاءِ على اخْتِلافِ أماكِنِهم وأزْمَانِهم، وتبايُناتِ مَشارِبهم وأذواقِهم يجمعهم قاسمٌ مُشتركٌ، هو: التشكيك في رواةِ الأحاديث، والإغضاءُ من قيمةِ جهودٍ علميَّةٍ جَبَّارةٍ مُضْنيةٍ، أفنى فيها عُلَماءُ الأُمَّة وجهابِذتُها أعمارًا كامِلَةً، أراقُوا فيها ماءَ أعيُنِهم، من أجل هدفٍ واحدٍ، هو تمييزُ الصَّحيحِ من غيرِ الصَّحيحِ مِن مرويَّات السُّنَّة، وذلك من خلالِ بَحْثٍ دقيقٍ، مُتفرِّدٍ وعجيب، في تاريخ الرُّواة وسِيَرِهِم العِلْميَّة والخُلُقيَّة، ومنزِلَتِهِم في الصِّدْقِ والضَّبْطِ والأمَانَةِ، ومَن المُعَدَّلُ ومَن المجْرُوح؟ حتى نشأ بين أيديهِم من دِقَّةِ التَّعَقُّبِ والتَّقصِّي والتَّتبُع عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ يُعرفُ عند العُلَماء بعلمِ «الإسنادِ» أو «علمِ الرِّجال»، وهو عِلْمٌ لا نظيرَ له عِنْدَ غيرِ المسلمين، لا قَدِيمًا ولا حَدِيثًا، وقد شَهِدَ بذلك الأفذاذُ من عُلَماءِ أوروبا مِمَّن توفَّروا على دراسةِ السُّنَّةِ النبويَّة؛ حتَّى قال المُسْتَشْرق الألماني ألويس شِبرِنجَر: «إنَّ الدُّنيا كلَّها لم ترَ ولن تَرى أُمَّةً مثلَ المسلمين- فقد دُرِسَ بفضلِ عِلْم الرِّجال الذي صَمَّمُوه حياةُ نِصفِ مليونِ رَجُل»، وحتى قال المستشرق الإنجليزي الكبير مارجليوث في إحدى محاضراتِه عن هذا العِلْمِ، قال: «رُغْمَ أنَّ «نظريَّةَ الإسناد» (عند عُلَمَاء الحديث) قد سَبَّبت كثيرًا من المتاعِب؛ نظرًا لما يتطلَّبه البحثُ في توثيقِ كلِّ راوٍ من رواةِ الأحاديث، إلَّا أنَّ قيمَةَ نَظريَّةِ «الإسناد» فيما يتعلَّقُ بدِقَّةِ الحديثِ النَّبويِّ لا يُمكنُ الشَّكُّ فيها، ومِن حَقِّ المسلمين أنْ يَفتخِروا بعِلْمِ الحديثِ من علومِهِم».

هذا الكلام المُنْصِف لم يَصدُر عن عُلَمَاءِ الغرب -رُغْمَ صُعوبَتِه على ألسنتِهِم- إلَّا بعدَ مُكابداتٍ طويلةٍ في الدَّرْسِ والبَحْثِ والتَّنقِيب، وبعدَ ما تبيَّنَ لهم أنَّ التَّاريخَ لا يَعْرِفُ شخصًا آخرَ نَبيًّا أو زَعيمًا أو بطلًا غيرَ محمَّدٍ ﷺ،

سُجِّلَت -فيما يَقُولُ العُلَمَاء- جميعُ وقائعُ حَياتِه، وجميعُ أفعالِه وأقوالِه وأسْفَارِه وأخلاقِه وعاداتِه حتَّى شَكْلُ لِباسِه، وخطوطُ وجهِه وكيفيَّةُ تكلُّمِه ومَشْيِهِ وأكْلِه وشُرْبِه ونومِه وتبسُّمِه، ونمط عَشيرته في أهْلِ بيتِه وأصدقائِه وأعْدَائِه، وغيرُ ذلكَ مِمَّا حفَلَتْ به مراجع السِّيَر والتاريخ.

وأختمُ كلمتي بالعودةِ إلى رِحَابِ صاحبِ هذه الذِّكْرَى صلَواتُ اللَّه وسلامُه عليه؛ لأتساءَل تساؤلَ تعجُّبٍ ودهشةٍ بالغة: مَن أنبأ هذا النبيَّ الكريم - قبلَ أربعةَ عشرَ قرنًا من الزَّمانِ- أن أُناسًا مِمَّن يَنتسِبونَ إليه سَيخرُجُونَ يومًا من الأيَّامِ يُنادُونَ باستبعادِ سُنَّتِه والاكتِفاءُ بالقُرآنِ عنها، لِيُحَذِّرَنا من صَنيعِهِم وهُمْ لايَزالونَ في كَتْمِ العَدَمِ وغيَاهِبِ الظُّلُمات، وليقولَ لَنا ﷺ في حَديثٍ صَحيح: «**يُوشِكُ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ عَنِّي فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلُ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ**»[(١)] .. أليسَ هذا دليلًا مِن دَلائِلِ نبوَّتِه -ﷺ- ومُعْجِزةً من مُعْجِزاتِه الَّتِي لا يَنْطَفِئُ سِراجُهَا الوهَّاج على مَرِّ الزَّمانِ وكَرِّ الدُّهُور.

سِيادَة الرَّئيس..

أُكَرِّرُ تهنئتي لسِيادتِكُم وأسْأل اللَّه تعالى لكُم المزيدَ من العَزْمِ والتَّوفيقِ والسَّدَاد.. وأنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ على أيديكُم آمال البِلادِ والعِبَاد. شُكْرًا لِحَضراتكم وكل عام وأنتُم بخير.

والسَّلام عَليكُم وَرَحـْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

❃ ❃ ❃

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٢٨٥٥).

الرِّسالة المحمديَّة ومبادئ الأخوَّة الإنسانيَّة(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ رب العالمين، وصلى اللَّه تعالى وسلَّم وبارك على سَيدِنا ومولانا محمد وعلى آله وصَحْبِه.

الحَفْلُ الكَريم..

السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

وبعد:

فرغمَ مُرورِ أَلْفٍ وأربعمائةٍ وتِسْعَةٍ وأربعينَ عامًا، على مَولِدِ خاتم الأنبياءِ والمرسَلين سَيِّدنا محمَّدٍ ﷺ، لا تزالُ الإنسانيَّةُ حتَّى هذه اللَّحظَة، تَرْنُو نَحْوَ هذا الإشراق النَّبَوي الَّذي انبَعث شُعاعُه حول البيت الحرام في مكَّة المكرَّمة، كُلَّما تَعَثَّرت خُطاها وادْلَهَمَّ ليلُها، وتاه دليلُها في ظُلُماتِ المادَّةِ ودَنَسِ الشَّهَوَات، وسُعار التَّسَلُّطِ، وغَطْرَسَةِ القُوَّة.

وما كان لرسالةِ هذا النَّبيِّ الكريم أن تكونَ مُلْهِمَةً للحضَارات على اختلافِ توجُّهاتِها لولا هذا البُعْد الفَوْقِي العجيب الَّذي تميَّزت به، وأعني به بُعْدَ «الآداب الإنسانيَّةِ العاليَة»، العَابِرةِ لحدُودِ الزَّمانِ والمكان والأفرادِ والجماعات، وهو بُعْدٌ اعترفَ به، وعجبَ له كثيرون، حتَّى من مُؤرِّخي الغَرب المنصِفين، مِمَّن رُزِقوُا حَظًّا من اسْتِقَامَةِ الشُّعُورِ، وَيَقَظَةِ الضَّمير في

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، بمركز المنارة للمؤتمرات الدولية، في: ١٠ من ربيع أول، سنة: ١٤٤١هـ، الموافق: ٧ من نوفمبر، سنة ٢٠١٩ م.

فَهْمِ معاني القُرآن الكريم، وبلاغة السُّنَّة المشرَّفة، ووضعوا أيديَهُم على مبدأ «الأخوةِ الإنسانيَّةِ الجامعة»، المتغَلْغِل في أطواءِ هذه الرِّسالةِ الخالدة: عقيدةً وشَريعةً وأخلاقًا.. حتَّى قالَ قائلهم: «إنَّ محمَّدًا ﷺ نَبِيَّ العَرَب لهو من أكبرِ مُحبِّي الخير للإنسانيَّة، وإنَّ ظهورَهُ للعالم أجمَع لهو أثرُ إرادةٍ عُليَا، ولِقارةِ آسيَا أنْ تَفْتَخِرَ بهذا الرَّجُلِ العظيم»(١). وحتَّى قالت الموسُوعةُ البريطانيَّة: «إنَّ محمَّدًا اجْتَهد في سَبيلِ الإنسانيَّة جمعَاء»، ثم تقول الموسوعة: وما أجملَ ما قالَه هذا المعلِّم العظيم: «الخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّه، وتَحْتَ كَنَفِه، فَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى عِيَالِهِ»(٢).

ولا يحتاجُ المتابعُ لِسيرةِ صاحبِ الذكرى العَطِرَة إلى كبيرِ عناءٍ ليكتشفَ في رسالته العالميَّة هذه الواشجة، وهذه الرَّحِمَ المشتبكة بين خلق اللَّه جميعًا: مؤمِنهم وكافرِهم، صالحِهم وطالحِهم، وها هي مَراجعُ السُّنَّة تروي لنا أنَّهُ ﷺ كان يقولُ عَقِبَ كُل صلاة: **«اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ الرَّبُّ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ»**(٣).

---

(١) ماكس فان برشم: «العرب في آسيا»: ٥٧، نقلًا عن: «نبي الرحمة: الرسالة والإنسان» لمحمد مسعد ياقوت: ٩٦، ط الزهراء للإعلام ٢٠٠٧.

(٢) أخرجه البزار (٦٩٤٧) وأبو يعلى (٣٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
ولَه شاهد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٣٣) وفي «المعجم الأوسط» (٥٥٤١) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٤٨).
وله شواهد أخرى، أوردها السخاوي في «المقاصد الحسنة»: ٣٢٥، وذكر أن بعضها يؤكِّد بعضًا.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٠٨) والنَّسائيُّ في «السُّنن الكبرى» (٩٨٤٩) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وإذًا فهذه شهاداتٌ ثلاث: شهادةٌ بالألوهيَّة، وبالنبوَّة، وبالأُخوَّة الإنسانيَّة، وهي ذاتُها شهادة على أنَّ الإسلام إذا كان هو دينَ التوحيد الخالص فهو بالقَدْرِ نفسِه دينُ الإنسانيَّةِ كلِّها ودينُ المساواةِ بين النَّاس، ثم هو دينُ عِصْمَة الدِّماء والأموال والأعراض، ودينُ مقاصِدَ أخرى خُلقيَّة، أوجَزَها نبيُّ هذا الدِّين في خطبة حجة الوداع التي خاطب فيها الإنسانيَّة كلَّها من وراء حشد من المسلمين بلغ مئة ألفٍ وأكثر.. وقد توفَّر لهذه الخطبة من دِقَّةِ التوثيق والتاريخ من حيثُ عددُ المسلمين، ومن حيثُ الزمانُ والمكانُ والكلماتُ وأسماءُ المبلِّغين، ما لم يتوفَّر لغيرِها.. كانت هذه الخطبة يومَ الجمعة التاسع من ذي الحِجَّة من العام العاشر للهجرة، بعد أن وصلَ النبي ﷺ إلى عرفة، وضُرِبَت له قُبَّةٌ من شَعْرٍ في مكانٍ اسمُه: نَمِرَة، استراح فيه، حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته «القصواء» فرُحِلَت له فأتى بطن الوادي وخطب في هذا الجمع المتلاطم الأمواج، الذي لم يُسَجِّل التاريخ أنَّ أحدًا قبل محمد ﷺ من الأنبياءِ والمرسلين، أو الملوكِ والأُمراء، جُمِعَ له مثلُ هذا الحشد ليخطبَ فيه.. وكان مِمَّا قاله ﷺ في هذا اليوم:

أيُّها النَّاس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقفِ أبدًا.

أيُّها النَّاس، إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم إلى أن تلْقَوا ربَّكم، كحرمةِ يومِكم هذا في شهرِكم هذا في بلدِكم هذا، وإنَّكُم سَتَلْقَون ربَّكُم فيسألُكم عن أعمالِكم. ألا هل بلَّغتُ. اللَّهم فاشهد. واعلموا أن الصدور لا تَغُلُّ (أي: لا تخون في قليلٍ ولا كثير).

أيها الناس، إنَّ ربَّكُم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، إلا بالتقوى اللَّهمَّ بلَّغت! اللَّهمَّ فاشهد.

أيها الناس، إسمعوا قولي واعقلوه؛ ألا لا تَظلِموا، ألا لا تَظلِموا، ألا لا تَظلِموا.

ثم قال: ألا أخبركم من المسلم؟ المسلمُ من سَلِمَ الناسُ من لسانِه ويدِه، والمؤمنُ من أَمِنَهُ الناسُ على أموالهم وأنفسُهِم. والمهاجرُ من هَجَرَ الخطايا والذنوب. والمجاهدُ مَن جاهَدَ نفسَهُ في طاعةِ اللَّه. تعلمون أنَّ كُلَّ مُسلِمٍ أخٌ للمسلم، وإنَّما المسلمون إخوة، وإنَّه لا يَحِلُّ مالُ امرئ مسلم إلا بطيب نفسٍ منه، ثم قال: فلا تظلمُنَّ أنفسكم..

اللَّهمَّ هل بلغت؟ قال الناس نعم، قال: اللَّهم فاشهد.

ولم ينسَ ﷺ في آخرِ خُطبتِه عميدَة الأسرة، فصرخ في المسلمين صرختَهُ الخالدة: «اتقوا اللَّهَ في النِّسَاءِ».

وأوَّلُ ما يُطالعُ المتأمِّلَ في هذه الخطبة التاريخيَّة هو أنَّها لم تكن موجَّهةً للمسلمين فقط، بل كانت موجَّهةً للناس كُلِّهِم، أينما أقلَّهم المكان، وحيثُما أظلَّهم الزَّمان، وكانت عبارته المفضَّلَةُ في لَفْتِ العقولِ والأنظارِ إليه هي «أيُّها النَّاس» وليس «أيُّها المسلمون» ولا «أيها المؤمنون»، وقد بدأ خُطبتَهُ بما يُشْعِر بدنوِّ أَجَلِه الشَّريف، وقد تحقَّق ما قال، فلم يلتقِ بهذا الجمع مرَّةً أخرى، لا في هذا المكان ولا في غيرِه، ولم يَعِشْ بعد هذا الموقف إلَّا زُهاءَ ثلاثة أشهر لحق بعدها بالرفيقِ الأعلى.

وقد كان أوَّلُ بندٍ من بنودِ هذه الخطبة تحذيرًا للعالَم أجمَع من فوضى الدِّماء والعَبَث بالأموالِ والأعراض، وقد كرَّر التحذيرَ من هذه الجرائم المنكرة البشعة مَرَّتين في هذه الكلمة، ولا عجبَ في ذلك فهي حقوقٌ أوليَّة، بل حُرُماتٌ أوليَّةٌ للإنسان، وللمجتمعِ على السَّواء، ويستحيلُ على مجتمعٍ يَنْشُدَ السَّعادةَ والاستقرار أن يستويَ على سُوقِه إلَّا إذا ارتكز على هذه

الحُرُمات الثلاث: حُرْمَةِ الدَّم، حُرْمَة الملكيَّة الفرديَّة الخاصَّة، حُرْمَة الأُسرة والعِرض والشَّرف.

ولسنا في حاجةٍ إلى التذكير -والألمُ وخيبةُ الأملِ يعتصران القلوب اعتصارًا- بأن أُمَّة الإسلام هي أوَّلُ مَن خرج على هذا الدستور الخالد، ومزَّق أستاره، وهتك حُرماتِه، وضرب به عرض الحائط، وكان جزاءُ هذا التمرُّد أنْ غَرِقَت الأُمَّة بدمائها وأموالها وأُسَرِها في مُستنقعٍ من الفوضى والهوان جعلَ بأسَها بينَها شديدًا.

ثم تنتهي فقرةُ الدِّماءِ والأموال والأعراض بقولِه ﷺ: «اللَّهُمَّ هل بلَّغْت»، وهو يرفع أصبعه الشَّريفةَ إلى السَّماء، وكأنَّه كان يُشْهِدُ اللَّه علينا في شأن هذه الحُرمات الثلاث، بل كأنَّه كان يُشير من وراء الغَيْبِ، إلى ظهورِ طائفةٍ من أشرارِ أُمَّتِه استباحت الدِّماء والأعرَاض والأموال، وزَيَّن لها الشيطانُ والجهلُ وعمَى البصَائر وانحِرافُ الفِطْرَة، زيَّن لها سوءَ عمَلِها، فراحَت تقتلُ وتقطعُ الرِّقاب، وتفجِّرُ وتخرِّب، وتغتالُ في غَدْرٍ وخِسَّةٍ، بل راحَت تستبيحُ أعرَاض الحرائر من النِّسَاء والفتيات وتتخذُ منهُن سَبايا وإماءً، تجبرهن جَبْرًا على الخنا والفاحشة والرذيلة والقاذورات.

ثم قال ﷺ: «واعلموا أنَّ الصُّدُور لا تَغُلّ» أي: لا تخون، لافتًا أنظار الأُمَم إلى ضرورة مبدأ التكافُل والتعاون في كُلِّ مجتمع، وأنَّ المجتمعات التي تستبدلُ بهذا المبدأ مبادئ أخرى «كالصِّراع» والتشرذُم والتفتُّت أو التسلُّط والانقِضَاض على مُقدَّرات الآخرين، لا مفرَّ لها من الانحِلال ثم السُّقُوط.

وقد رأينا في جِيلِنا هذا كيف سقَطَتْ حضارةٌ كُبرى اتخذَت من مبدأ «الصِّراع» فلسَفةً لنهضتِها في الاقتِصَادِ والاجتِماعِ والسِّياسَة، فما بلغت عامها السَّبعين حتى كانت حِبْرًا على ورق، وكذلكم الحضارات التي تتغنَّى اليوم بالمبادئ ذاتِها فإنَّها لا محالةَ سَتَلْقَى المصيرَ نَفْسَهُ إنْ عاجلًا أو آجلًا.

ثُمَّ حَذَّرَ ﷺ من الظُّلم، وكرَّرَ التحذير منه في خطبتِه ثلاثَ مرَّات، وذلك لأثرِه التدميريِّ على الأفرادِ والأُسَر، والدُّولِ والمجتمعات، وقد حَذَّرَ القرآنُ الكَريم من الظُّلْمِ في مائةٍ وتسعينَ آية، كما حذَّر منه النبيُّ ﷺ في سبعينَ حديثًا من أحاديثِه الشَّريفة.

ثم حذَّرَ ﷺ من ظاهرةِ الثأر، ومن آفاتِ الرِّبا، ومن العَبَثِ بالزَّمانِ ودوراتِ الشُّهورِ وترتيبِها، ثم ختمَ خُطبتَه التاريخيَّة بقولِه ﷺ: «وإنِّي قد تَركتُ فيكُم ما إن اعتصمتُم به فلن تضلُّوا أبدًا كتاب اللَّه وسُنَّة نبيِّه» ثم قال: فما أنتُم فاعِلُون؟ قالوا: نَشْهَدُ أنَّك قد بلَّغت وأدَّيْت ونصَحت. قال: «اللَّهُمَّ فاشْهَد».

سِيادَة الرَّئيس.. الحفلُ الكَريم..

إنَّ الأزهرَ الشَّريف خِلالَ مَسيرتِه الَّتي تزيد على ألفِ عام يقوم على حراسة هَذَيْن الأصلَين اللَّذين تركهما لنا رَسُول اللَّه ﷺ: دِفاعًا عن ثقافةِ الأُمَّة ووحْدَتِها، ودِفاعًا عن الوَطَنِ وتاريخِه، وهو الآن عاكفٌ على صِياغةِ خريطةٍ ثقافيَّة لتجديدِ الخطاب الدِّيني، وترشيد الوَعْي الثَّقَافي، والوقوفِ إلى جوارِ كُلِّ المؤسَّسَات الَّتي تسهرُ على حمايةِ هذا الوَطَن من عَدْوَى الإرهاب الفِكري والجسَدي، وتقاومُ تيَّارات الغُلو والإفساد، بمنهجٍ إسلاميٍّ يجعلُ من مقاصِدِ الشَّريعةِ في حِمايةِ الدِّينِ، والنَّفْسِ، والمالِ والعِرض، حمايةً للإنسانِ، قبل حماية الأدْيَان.

وبهذِهِ المناسَبَةِ الكَريمَة أتقدَّمُ لَكُم سِيادَة الرَّئيس وللشَّعبِ المصريِّ وللأُمَّتين: العَربيَّةِ والإسلاميَّة ولحضَرَاتِكُم جَميعًا بأطيبِ التَّهاني بذكْرَى مَوْلِد رسُول الإنسانيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

شُكْرًا لحضَراتكُم وكل عام وأنتُم بخير.

والسَّلامُ عَليكُم وَرَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ (*)

الحُضور الكَريم!

إنَّنا إذ نحتفلُ اليومَ بذكرى مولدِ محمَّد ﷺ فإنَّنا لا نحتفلُ بمجرد شخصٍ بَلَغَ الغايةَ في مدارجِ الأخلاق العليا، ومراتبِ الكمال القُصوى، وإنَّما نحتفلُ -في حقيقةِ الأمرِ- بتجلِّي الإشراقِ الإلهي على الإنسانيةِ جمعاء، وظهورِه في صُورةِ رسالةٍ إلهيةٍ خُتِمَتْ بها جميعُ الرسالات، وكُلِّفَ بتبليغها للبشريَّةِ، نبيٌّ خاتمٌ بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأُمَّة، ولم يتركْها حتى وضَعَها على محجَّةِ الحقِّ والخيرِ والجمال، وحذَّرها من الهوانِ والمذلَّةِ إنْ هي انحرفت إلى طُرُقٍ أخرى لا ترجعُ منها إلَّا إلى هلاكٍ محقَّقٍ ودمار مؤكَّدٍ.. يقولُ العِرْبَاضُ بنُ سَارِيةَ ﵁: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إنَّ هَذِه لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: قد تركتُكم على البيضاءِ؛ لَيْلُها كنهارِها لا يزيغُ عنها بعدي إلَّا هَالِكٌ»(١) و«البيضاءُ» هي: شريعتهُ الواضحة السَّهْلة، ثم قال: «ومَن يَعِشْ منكُم فسَيَرى اختِلافًا كثيرًا فعلَيْكُم بما عَرَفتُم مِن سُنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ مِن بَعْدِي، عَضُّوا عليها بالنَّواجذِ».

ثمَّ ما لَبِثَ هذا الدِّينُ الأخير أن انتشرَ انتشارَ الشمس في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، وكان انتشارُه السَّريع تحقيقًا لمعجزةٍ من مُعجزاتِه ﷺ، فحواها:

(*) أصل هذه الكلمة: كلمة ألقيت في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، في: ١٠ من ربيع الأوَّل سنة ١٤٤٢هـ، الموافق: ٢٧ من أكتوبر سنة ٢٠٢٠م.

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٦٠٧) والترمذي في «جامعه» (٢٦٧٦) وابن ماجه في «سننه» (٤٣) وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

أنَّ هذا الدِّين سَيَطْوي الكونَ ويلُف الوجودَ بأَسْرِه، وكان حديثُه عن هذا الأمر حديثَ الواثق الذي يرى الأحداثَ من وراءِ حُجُبِ الغَيب رأيَ العين، بل يراها بأشدَّ مِمَّا تَراه العين، يقولُ هذا النبيُّ الكريم: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»[(١)]، ويقولُ في روايةِ ثوبان: «إنَّ اللَّهَ تعالى زَوى لي الأرضَ، فرأيْتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أُمَّتي سيبلغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي منها»[(٢)].

وملكُ أُمَّته: دِينُها وشريعتُها.

ومعقِدُ الإعجاز في هذين الحديثين الشريفين يَكمُنُ في أنه ﷺ كشف لأصحابِه ولأعدائه -أيضًا- عن بلوغِ الإسلام ما بَلَغَ الليل والنهار في وقتٍ كانت حدودُ الإسلام فيه لا تتجاوزُ حدودَ جزيرة العرب، وكان هذا الوعدُ في ذلكم الوقت أشبَهَ بحُلمٍ مستحيلِ التحقيق، ولولا أنَّه ﷺ كان واثقًا من وعدِه هنا وثوقَه من نفسه التي بين جنبَيْه، ما غامر بهذا الكلام، ولا صَدَعَ به في وجهِ أعداء يتربصون به، ويترصَّدون هفوةً يَشْغَبون بها على دِينِه الجديدِ الذي قَلَبَ حياتَهم رأسًا على عَقِب.

هذا الحديثُ وأمثالُه -أيُّها الحفلُ الكريم!- هو ما يبعثُ في قلوب المسلمين يقينًا لا يهتزُّ بأنَّ بقاءَ الإسلام وخلودَه، وطبعَ اسمِ نبيِّه على جَبِينِ الزمان، أمرٌ تَولَّاه اللَّه بنفسِه، وأراه لنبيِّه رأيَ العَيْن، وهو يُشاهد مشارقَ الأرض ومغاربها.

والأمرُ كذلك فيما يتعلَّقُ ببقاء القرآن الكريم وحِفظِه وخُلودِه، فهو ممَّا تولَّاه اللَّه وحدَه، ولم يعهد به إلى أحدٍ غيره.. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهكذا نحن المسلمين لا نرتابُ لحظةً في أنَّ الإسلامَ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٩٥٧) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٨٠) والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٤٣٠) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين».

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

والقرآنَ ومحمَّدًا ﷺ مصابيحُ إلهيَّةٌ تُضيء على الأرض طريقَ الإنسانيَّةِ وهي تبحث عن سعادتها في الدنيا والآخرة، وأنَّ هذه المصابيحَ الثلاثةَ محفوظةٌ بحفظ اللَّه ومشيئتِه ووعده، كما لا نرتاب في دَحْرِ المعتَدين عليها؛ أيًّا كانت أجناسُهم وأعراقُهم، وكيفما كانت مِلَلُهم وعقائدهُم، وكيف نخاف واللَّهُ يقول لنا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢]، وفي آية أخرى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]، وفي آيةٍ ثالثةٍ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٠-٢٤].

أمَّا محمَّد ﷺ فهو هذا هو الرسولُ الذي مَنَّ اللَّه به على عبادِه المؤمنين، في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

نعم.. لولاه ﷺ ولولا ما أُرسِل به من عند اللَّه لبَقِيت الإنسانيَّة كما كانت قبلَ بَعثَتِه في ظلامٍ دامس؛ وفي ضلالٍ مُبين إلى يوم القيامة، ومحمَّدٌ ﷺ -بنصِّ القرآنِ أيضًا- هو «النُّور» الذي يُبدِّد اللَّهُ به الظلمَ والظلمات، يقولُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، أي: جاءكم من اللَّه نور هو محمَّدٌ ﷺ، وكتاب مبين هو القرآنُ الكريم.

وكما سَمَّاهُ اللَّه «نورًا» سمَّاه «سراجًا منيرًا»، وخاطَبه به خطابًا مباشرًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا

مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. ومحمَّد ﷺ، هو الرحمة المرسلة من اللَّه للعالَمين أجمع: مُؤمنِهم وكافِرهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكما كان يقول عن نفسِه: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»(١).

الحَفْلُ الكَريم!

هذا قليلٌ من كثيرٍ مِمَّا قدَّمه للعالَم صاحبُ هذه الذكرى العَطِرة، وأنقذ به الأُممَ والشعوبَ، وصحَّح به التواءاتِ الحضاراتِ واعوجاجاتِها، وهو مِمَّا يُوجِبُ علينا -نحن المؤمنين به- تجديدَ مشاعر الحب والولاء لهذا النبيِّ، والدِّفاع عنه بأرواحِنا ونفوسِنا وبكل ما نملِك من غالٍ ونفيسٍ..

واعلموا أيُّها الإخوةُ أنَّ محبته ﷺ فرضُ عينٍ على كل مسلمٍ من أُمَّتِه.. وقد نبَّهَنا القرآن لذلك في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

فمَن كان أبوه أو ابنه أو عائلتُه أو ماله أحبَّ إليه من اللَّه ومن رسول اللَّه؛ فعليه أن ينتظرَ ما سيحلُّ به عاجلًا أو آجلًا، ثم هو مِن الفاسقين، ويُعضِّدُ ذلك قولُه ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٢)، وليس المرادُ بالحبِّ هنا الحُبَّ العاطفيَّ الحسيَّ الذي هو مَيْلُ النَّفس وهواها، والذي لا يدَ للإنسانِ في جَلْبِه أو صرفِه، ومنه: حُبُّ النَّفسِ والولد والمال، فهذا الحبُّ خارجٌ عن اختيار المرء، وعن استطاعته، بل

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٥) ومسلم في «صحيحه» (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

المطلوبُ -في الحديث الشَّريف- هو الحبُّ العقليُّ الاختياري الذي يتكوَّنُ نتيجةَ النظرِ والعلم والمقايسة؛ كمحبَّةِ الأبطالِ والعظماءِ وأصحابِ الخُلُق الرفيعِ وغيرهم من المتميزين بالسموِّ في مدارج الكمال الإنساني، ويقولُ العلماء: إنَّ هذا الحبَّ العقليَّ هو المطلوبُ في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف، وهو «أول درجات الإيمان، وأمَّا كمالُ هذا الحُب فهو أن تصيرَ عواطفُ المسلم تابعةً لعقلِهِ في حُبِّه عليه الصَّلاة والسَّلام»().

الحَفْلُ الكَريم!

إنَّ العالَم الإسلامي ومؤسساته الدينيَّة وفي مقدمتها: الأزهر الشريف قد سارع إلى إدانة حادثِ القتل الإرهابي البغيض للمدرس الفرنسي في باريس، وهو حادثٌ مؤسِفٌ ومؤلمٌ، لكن من المؤسفِ أشدَّ الأسفِ، ومن المؤلم غاية الألم أيضًا أن نرى الإساءةَ للإسلام والمسلمين في عالمنا اليوم وقد أصبحت أداةً لحشدِ الأصوات والمضاربةِ بها في أسواقِ الانتخابات، وهذه الرسومُ المسيئةُ لنبيِّنا العظيم والتي تتبنَّاها بعضُ الصُّحف والمجلات، بل بعضُ السياسات هي عبثٌ وتهريجٌ وانفلاتٌ من كلِّ قيود المسؤوليَّة والالتزام الخُلُقي والعرف الدولي والقانونِ العام، وهو عداءٌ صريحٌ لهذا الدِّين الحنيف، ولنبيِّه الذي بعَثَه اللَّه رحمةً للعالَمين.

وإنَّنا ومن موقعِ الأزهر الشَّريف إذ نرفضُ مع كلِّ دول العالَم الإسلامي وبقوَّةٍ هذه البذاءات التي لا تُسيء في الحقيقة إلى المسلمين ونبيِّ المسلمين، وإنَّما تسيء إلى هؤلاء الذين يجهلون عظمة هذا النبي الكريم محمد ﷺ، نحن إن نفعل ذلك؛ فإنَّنا ندعو المجتمع الدولي لإقرار تشريع عالمي يُجرِّم معاداةَ المسلمين والتفرقةَ بينهم وبين غيرِهم في الحُقوقِ والواجباتِ والاحترام الكامل المتبادل.

كما أنَّنا ندعو المواطنين المسلمين في الدولِ الغربيةِ إلى الاندماجِ الإيجابيِّ الواعي في هذه المجتمعات، والذي يحفظُ عليهم هُويَّاتهم الدينيةَ والثقافيةَ، ويحولُ دون انجرارِهم وراءَ استفزازاتِ اليمينِ المتطرف والعنصريَّة الكريهةِ، واستقطاباتِ جماعاتِ العنفِ والتَّطرُّفِ، وعلى المسلمين المواطنين أن يتقيدوا بالتزام الطرقِ السِّلميةِ والقانونيةِ والعقلانيةِ في مقاومةِ خطابِ الكراهيةِ، وفي الحصولِ على حقوقِهم المشروعة؛ اقتداءً بأخلاق نبيِّهم الكريم ﷺ.

وإنِّي لأعجبُ العجبَ كلَّه أن تُوقَدَ نارُ الفتنةِ والكراهيةِ والإساءةِ في أقطارٍ طالما تغنَّت بأنها مهدُ الثقافةِ وحاضنةُ الحضارةِ والتنويرِ والعِلم والحَداثة وحقوق الإنسانِ، ثم تضطربُ المعاييرُ في يديها اضطرابًا شديدًا، حتى بِتنا نَراها وهي تُمسك بإحدى يدَيْها مِشكاةَ الحريةِ وحقوقِ الإنسانِ، بينما تُمسِكُ باليدِ الأخرى دعوة الكراهية ومشاعلَ النيران.

أيُّهَا المسلمون! لا تبتَئِسوا مِمَّا حدث ومِمَّا سيحدثُ أيضًا، فقد تَعرَّضَ نبيُّكم ﷺ في حياته وبعدَ رحيلِه لما هو أشد من ذلك مِمَّا كان يُقابِلُه بالصَّفحِ والإحسانِ والدُّعاءِ للجاهلين به بالهداية.. وكان يقولُ: «اللَّهمَّ اهْدِ قَوْمي فإنَّهم لَا يَعْلَمُون»؛ عملًا بما أمرَه اللَّهُ به في قوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وإنِّي لأستبشرُ كلَّ الاستبشارِ حين أتذكَّرُ الآيةَ الكريمةَ المعجزةَ التي تكفَّلَ اللَّه فيها -وحده- بالدِّفاعِ عن نبيِّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] صدق اللَّه العظيم.

وفي الختام، ومن وحيِ هذه الذكرى العطرةِ، يُشرِّفُني غايةَ الشرفِ أن أُعلن عن إطلاقِ الأزهرِ الشَّريف مِنَصَّةً عالميَّةً للتعريفِ بنبيِّ الرَّحمة ورسولِ

الإنسانيَّة ﷺ يقومُ على تشغيلِها مرصدُ الأزهر لمكافحة التَّطرف، وبالعديدِ من لغاتِ العالم.. وكذلك تخصيصُ مسابقةٍ بحثيةٍ عالميَّةٍ عن أخلاقِ محمَّد ﷺ وإسهاماتِه التاريخيَّة الكبرى في مَسيرةِ الحُبِّ والخَيْر والسَّلام.

شُكْرًا لكم سِيادةَ الرئيس، وأدعو اللَّه أن يُوفقَكم ويُهيِّئَ لكم الأسبابَ لخدمةِ مصرَ والنهوضِ بها وتحقيقِ آمال شعبها.

شُكْرًا لحضَراتكُم وكل عام وأنتُم بخير

والسَّلامُ عَليكُم وَرَحـْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

في
ذكرى ليلة القدر

القرآن وحقوق الإنسان
تقرير وضمان(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهُداه.

الحفلُ الكَريم:

السَّلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

في ليلة القدر، من هذا الشَّهر الكريم، ومنذ أكثرَ من أربعةَ عشر قرنًا من الزَّمان -بدأَ نزولُ القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد ﷺ، ثمَّ تتابعت تَنزُّلاتُه على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، هي عمرُ دعوتِه ﷺ في مكَّة والمدينة.

والاحتفالُ بليلة القَدْر هو في المقام الأوَّل احتفالٌ بالقرآن الكريم، ذلكم الكتاب الذي أنشأ حضارةً إنسانيَّة هائلة، سادَت الدُّنيا من أقصاها إلى أقصاها في ظرفِ ثمانين عامًا فقط، وحمَل للنَّاس أغلى الإنجازات الحضاريَّة، التي كانوا يَحلُمون بها ولا يَجدونها.

يقولُ المنصفون من المؤرِّخين: إنَّه لم تُعلَن حقوقٌ وحرِّيات عامَّة للإنسان قبلَ نزول القرآن في القرن السَّادس الميلادي؛ لأنَّ الإنسان قبلَ الإسلامِ

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة أُلقِيت في ذكرى الاحتفال بليلة القَدْر، بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ٢٦ من رمضان، سنة: ١٤٣١هـ، الموافق: ٥ من سبتمبر، سنة: ٢٠١٠م.

لم يكن على وعي بالحقوق أو الحرِّيات العامَّة؛ بمعنى: أنَّ مساواة الإنسانَ لأخيه الإنسان في الحقوق والواجبات أمر لم تعرفه الدُّنيا قبل ظهور الإسلام.

وحسبُنا أن نعلَم أنَّ حضارة اليونان في ذلكم الوقت كرَّسَت نظام الرِّقِّ ومبدأَ الاستعباد في نُظُمها الاجتماعية، وقد تبنَّى ذلك الفيلسوفُ اليوناني الكبير أفلاطون، ودافع عنه في جمهوريَّته، التي تُعَدُّ الأنموذج الأمثلَ لسياسات المُدُن الفاضلة.

ثمَّ جاء أرسطو، وهو أكبرُ عقلٍ عرَفته الدُّنيا في ذلكم الوقت، فسارَ على درب أستاذه، وأعلَن أنَّ النَّاس صنفان: صِنف مخلوقٌ للسِّيادة والرِّئاسة، وصِنف مخلوقٌ للسُّخرة والطَّاعة، وأنَّ الصِّنف الثَّاني ليس إلَّا آلاتٍ مثل آلات الحَرث والسَّقي، ونادى بأن تكون المرأةُ خادمة للرَّجل، تَتبعه وتَخدم أولاده في البيت والحقل والمَتجر، وليس لها أن تُفكِّر في مساواة الرَّجل في أمر من الأمور، أو مشاركته في المسؤوليَّات العامَّة.

ولم يكن الأمرُ بأحسنَ حالًا في حضارات العالَم الأخرى القائمة آنذاك؛ كالحضارة الرُّومانية، والفارسيَّة، والهنديَّة، والعربيَّة.

في هذا الوَسط الموبوء بالأمراض الاجتماعية والسياسية والإنسانية نزلَ القرآنُ الكريم، الذي نحتفِلُ اللَّيلة بنزولِه على سيِّدنا محمَّد ﷺ ليُحرِّر الإنسان من كلِّ هذه القيود والمظالم الأخلاقيَّة، وجهرَ النَّبي -ولأوَّل مرَّة- بحقوق الإنسان وبالمساواة بين بني البشر، وقرعَ أسماعَ النَّاس قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولأوَّل مرَّة سَمِع العربُ والعجم بيانَ النُّبوة الحاسم: «**النَّاسُ سواسيةٌ**

كأسنان المُشطِ»[١]، «**النَّاسُ رجلان؛ رجلٌ بَرٌّ تَقيٌّ كريمٌ على اللَّه، وفاجرٌ شقي هيِّن على اللَّه، والنَّاسُ بنو آدم، وخلَق اللَّهُ آدمَ مِن تراب**»[٢].

ولم يَنس وهو يودِّع أمَّته في حجَّة الوداع أن يُذكِّرهم بمبدأ المساواة بين النَّاس؛ فقال في بداية خطبتِه الخالدة: «**أيُّها النَّاس، إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، كلُّكم لآدمَ، وآدمُ من تراب، إنَّ أكرمَكم عندَ اللَّه أتقاكم، ليس لعربيٍّ على عجَميٍّ، ولا لعجَميٍّ على عَربيٍّ، ولا لأحمرَ على أبيضَ -فضلٌ إلَّا بالتَّقوى، ألَا هل بلَّغتُ؟ اللَّهمَّ فاشهد، ألَا فليُبلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائبَ**»[٣].

كما سمع المجتمعُ العربي -ولأوَّل مرَّة أيضًا- صيحةَ نبيِّ الإسلام: «**النِّساءُ شقائقُ الرِّجال**»[٤]، وقولَه: «**ولو كنتُ مُفضِّلًا أحدًا لَفضَّلتُ النِّساءَ**»[٥]، وتلا عليهم قولَه تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩]، وكان المُتوقَّع أن يقول: «فإن كرهتموهنَّ فطلِّقوهن، أو تزوَّجوا عليهن»، ولكنَّه لم يَقُل ذلك، وأغرى الزَّوج الكاره بالصَّبر الجميل، ووعدَه بالخير الكثير إن هو صبرَ على

---

(١) أخرجه ابن عَدِيٍّ في «الكامل»: ٥/ ١٩١، وأبو الشَّيخ في «أمثال الحديث» (١٦٦) والقُضاعيُّ في «مسند الشِّهاب» (١٩٥) وغيرهم، من حديث أنس بن مالك ﵁.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٢٧٠) من حديث عبد الله بن عمر، وقال: «حديث غريب»، وصحَّحه ابن حبَّان.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٤٨٩) من حديث رجل من أصحاب النَّبي ﷺ. وقد رُوي أيضًا من حديث جابر بن عبد الله ﵄ وغيره.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٣٦) والتِّرمذيُّ (١١٣) من حديث عائشة ﵂.
ولَه شاهد من حديث أمِّ سلمة ﵂، أخرجه أحمد (٢٧١١٨) وغيره.

(٥) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «المسند» -كما في «بغية الباحث»: ٤٥٤-، والطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١١٩٩٧) والبيهقيُّ: ١٦/ ١٧٧، وغيرهم، من حديث عبد الله بن عبَّاس ﵄. وحسَّنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: ٥/ ٢١٤.

مواصلة الحياة مع شريكٍ ليس له في أمرِ الحبِّ والكره حولٌ ولا قوَّة.

والقرآنُ هو الذي أوقفَ فوضى الزَّواج في الجاهليَّة، وهو الذي جعلَ المرأة ترِث مع الرَّجل بعد أن كانت تُورَث ضمن تركات الأموات، وهو وإن كان قد جعلَ ميراث البنت على النِّصف من ميراث أخيها في أربع حالات فقط، فإنَّ هناك أكثر من ثلاثين حالةً تأخذُ فيها المرأة مثلَ الرَّجل أو أكثرَ منه، بل هناك حالات ترثُ فيها المرأة ولا يَرِث الرَّجل.

والقرآنُ هو الَّذي قرَّر حرِّيَّة العقيدة، ورفع الحجر عن العقل والإرادة، وبلا حدود: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

والحضارةُ التي صنَعها القرآنُ حضارةُ تعارفٍ وتكاملٍ بين بني البشَر، وقد سَعِد بها الإنسان في الشَّرق والغرب على السَّواء، ولم تكن -كما يُقال عنها زورًا وبُهتانًا- حضارةَ سيفٍ، أو حضارة حربٍ، كيف! وكلمةُ السَّيف ليست من كلمات القرآن الكريم ولا من مُفرداته؟! إنَّها لم ترِد فيه؛ لا مُفرَدة، ولا مُثنَّاة، ولا مجموعة، ولو أنصفَ المُغرِضون لقالوا إنَّها حضارة السَّلام بامتيازٍ.

ويَكفينا شاهدًا على ذلك: أنَّ كلمة السَّلام ومشتقَّاتها وردَت في القرآن

الكريم إحدى وأربعين مرَّةً، بينما وردَت كلمةُ حرب في القرآن ثلاث مرَّات فقط.

والقرآنُ يُنكر تسلُّط حضارةٍ على أخرى أشدَّ الإنكار، ونحن المسلمين نعتقدُ أنَّ العلاقة بين الحضارات إنَّما هي علاقةُ تعارف وتعاون وتكامل، وأنَّها إنْ سارَت في اتِّجاه الصراع البائس المشؤوم؛ فإنَّ النَّتيجة لن تكون أبدًا سيطرةَ حضارةٍ على أخرى، أو سيادة ثقافة أو دين على سائر الثَّقافات والأديان، وإنَّما المصيرُ المحتوم حينئذ سيكون -لا محالةَ-؛ إمَّا انهيارَ الحضارات المُتَغطرِسة، أو عودةَ البشريَّة كلِّها إلى حالةٍ من الهمَجيَّة والفوضى، ربَّما لا يَعرِف التَّاريخ لها مثيلًا من قبل.

نسألُ اللَّه العليَّ القدير في هذه اللَّيلة المباركة أن يَأخذ بيد الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة إلى ما فيه عزُّها وقوَّتُها ومجدُها..

كما نسألُه سُبحانه أن يمتعكم -سيادة الرئيس- بمَزيد الصحَّة والعافية والسَّعادة، وأن يَحفظكم لمصر، ويَحفظ مصر بكم، وأن يسدد على طريق الحق والخير خطاكم. وكل عام وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

حَضارَةُ الإِسلامِ وحَضارَةُ الغَربِ والسَّلامُ المَفقود(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، والصَّلاة والسَّلامُ على سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ، وعلى آلِهِ وصَحبِهِ ومَن والاهُ.

ها هو شهرُ رمضانَ الكريمُ يُلملِمُ أطرافَه ويَستعدُّ للرَّحيلِ، وتدنو شَمسُه مِن الغروبِ، ولا ندري هل سيُقدَّرُ لنا أن نَتفيَّأَ ظِلالَ جلالِه وجمالِه مرَّةً أُخرَى، أو سيَقضي اللَّهُ دونَ ذلك أمرًا كانَ مفعولًا؟

إنَّ هذا الشهرَ الكريمَ هو شهرُ القرآنِ، وهو شهرٌ أوَّلُه رحمةٌ، وأَوسَطُه مَغفرةٌ، وآخِرُه عِتقٌ من النارِ[1]، وفيه ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهرٍ، وصَفَها القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، ثمَّ أوصانا بها النَّبيُّ ﷺ في قولِه الشَّريفِ: «**التَمِسوها في العَشرِ الأَواخِرِ**»[2].

والاحتفالُ بِلَيلةِ القَدرِ هو في حقيقةِ الأمرِ احتفالٌ بالقرآنِ الكريمِ، ذلكم الكتابُ الَّذي صَنَعَ حضارةً إسلاميَّةً رائعةً، ثمَّ حماها -ولا يزالُ يَحمِيها- مِنَ

(*) كلمة ألقيت في احتفال ليلة القدر بقاعة مؤتمرات الأزهر الشريف في: ٢٦ رمضان: ١٤٣٢هـ الموافق ٢٦ أغسطس: ٢٠١١م.

(١) جزء من حديث أخرجه ابن أبي الدنيا في فضائل رمضان (٤١)، وابن خزيمة في صحيحه (١٨٨٧)..

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٦) ومسلم (١١٦٧) من حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٢٠٢١) أيضًا مِن حديث عبد اللَّه بن عبَّاس رضي الله عنه، ومسلم (١١٦٥) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

الذَّوَبانِ والاندثارِ، وهو الَّذي يَقِيها الآنَ ضَرَباتِ الانتقامِ الَّتي تُوجِّهُها إليها اليومَ حضاراتٌ أُخرى مُعاصِرةٌ، أَدارَت ظُهورَها لِهَدْيِ الأديانِ، واتَّخذَت مِن صِراعِ الحضاراتِ وصِداماتِها المسلَّحةِ مَذهبًا وفلسفةً وعقيدةً، وقد أعلنَ شاعرُهم جوزيف كبلنج (ت. ١٩٣٦م) Joseph Kipling في سنةِ: (١٨٩٠م) في مُستهَلِّ قصيدتِه الشهيرةِ: «أُنشودةِ الشَّرقِ والغربِ».. ما ترجمتُه: «الشَّرقُ شرقٌ والغربُ غربٌ، وأبدًا لن يَلتَقِيا»، وقد سَرَتْ مقولتُه هذه في سياساتِ الغربِ مَسرى المبدأِ والقاعدةِ في تكييفِ عَلاقةِ الغربِ بالشَّرقِ، بل عَبَّرت منذُ أكثرَ من قَرنٍ عن أخصِّ وَصفٍ للثَّقافةِ الغربيَّةِ الرَّافضةِ للشَّرقِ الإسلاميِّ، والمناهِضةِ لحضارتِه وتراثِه في القرنِ الماضي وما قبلَه أيضًا.

وكنَّا نظنُّ أنَّ ثقافةَ «رفضِ الإسلام» هذه قد عَفَى عليها الزَّمانُ بعدَ التَّقدُّمِ المُذهِلِ الَّذي حقَّقَه الغربُ، وبخاصَّةٍ في مجالِ المعلوماتِ، حيثُ يُمكِنُ الآنَ قراءةُ الإسلامِ قراءةً صحيحةً، ويسهُلُ التَّعرُّفُ على يُسرِه وإنسانيَّتِه بكلِّ دِقَّةٍ ووضوحٍ من جانبِ الغربيِّين، وبحيثُ لا يَبقَى أيُّ مُسوِّغٍ لثُبوتِ الغَربِ على موقفِه العدائيِّ التَّقليديِّ مِن الإسلامِ وحضارتِه.

ومع ذلك فُوجِئنا بسياساتِ الغربِ الحديثةِ تَنسُجُ على مِنوالِها القديمِ، بعد تغييرِ اللَّافتاتِ، واختراعِ الدَّعاوَى والنظريَّاتِ، فبعدَ أن كان الباعثُ على الاستعمارِ في القرنَيْن الماضيَيْن رسالةَ الرَّجُلِ الأبيضِ تِلقاءَ الشَّرقيِّين الهمَجِ، وتهذيبِهم وتمدينِهم، طالَعَنا الغربُ بدَعوَى جديدةٍ هي: «صِدامُ الحضاراتِ»، و«حتميَّةُ مواجهةِ الإسلام»، و«نهايةُ التَّاريخ»، و«الفوضى الخلَّاقةُ»، و«نشرُ الدِّيمقراطيَّةِ»، وكلُّها مُغالَطاتٌ وتَعِلَّاتٌ زائفةٌ، يكشفُ زَيفَها نُورُ الآيةِ الكريمةِ الَّتي تُقرِّرُ تَعارُفَ الحضاراتِ وتكامُلَها وتآخيَها، وذلك في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأيضًا النُّورُ

النَّبويُّ الذي أكَّدَ بدَورِه على مبدأ المساواةِ بين الناسِ: «**النَّاسُ سَواسِيةٌ كَأسنانِ المُشْطِ**»، «**النَّاسُ بنو آدمَ، وخَلقَ اللَّهُ آدمَ من ترابٍ**»[(١)].

إنَّ نظريةَ صدامِ الحضاراتِ الَّتي تحكُمُ سياساتِ الأنظمةِ الغربيَّةِ، هي نظريةٌ استعماريَّةٌ بامتيازٍ، وهي مُصَمَّمةٌ بعنايةٍ لتَسويغِ الصِّدامِ المحتومِ -في ظنهم- مع الإسلامِ؛ والَّذي يَستولي هاجِسُه على أصحابِ القرارِ في الغربِ، وقد صِيغتْ هذه النَّظريَّةُ في كُتيِّبٍ نُشِرَ في الولاياتِ المتَّحدةِ، سنةَ: ١٩٩٦م، ثم سرعان ما تبنى كبار الساسة هذه الدَّعوى -ومعَها دَعاوَى أُخرى- وحوَّلوها إلى واقعٍ بائسٍ مريرٍ يعيشُه العَرَبُ والمسلمونَ في أكثرَ مِن بلدٍ مِن بُلدانِهم وأوطانِهم.

إنَّ حضارةَ الإسلامِ لا تَعرِفُ استِقطابَ الحضاراتِ الأُخرى، ولا نَفيَها ولا استِبعادَها، ولو كانَت كذلك لَما صمَدَتْ حضارَةُ المسلِمينَ على وجهِ التَّاريخِ، ولَما بقِيَتْ حتَّى الآنَ.

والمسلمونَ وَسَطِيُّونَ، وهذا هو مُقتضى خطابِ اللَّهِ إيَّاهم في كتابِه الكريمِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والأُمَّةُ الشَّاهدةُ على غيرِها من الأُمَمِ هي أمَّةُ العدلِ، والعدلُ هو الوَسَطُ.

وقد تميَّزَتْ حضارةُ الإسلامِ بهذه الوسطيَّةِ عن الحضاراتِ الأُخرى الَّتي انحازَت إمَّا إلى المادَّةِ، وإمَّا إلى الرُّوحِ؛ والفضلُ في ذلك يرجِعُ لوسطيَّةِ القرآنِ الكريم نفسِه، وتوازنِه وتعادلِه في خطابِ الإنسانِ، ولأنَّ الإنسانَ مُواطِنٌ في عالَمَيْن -كما سَبَقَ أن ذَكَرنا- يَنتمي برُوحِه إلى عالَمِ الغَيْبِ، وبجَسَدِه إلى عالَمِ المادَّةِ والشَّهادةِ، فقد نزَلَ القرآنُ الكريمُ بكُلِّ ما يُلبِّي الازدواجَ في هذه الحاجاتِ.

---

(١) سبق تخريج الحديثين الشريفين ص ٢٠٦ فانظره.

وفي هذا المجالِ، يُمكِنُ أنْ يُقالَ الكثيرُ في وَسَطِيَّةِ الخطابِ القرآنيِّ من حيثُ الاعتقادُ والأخلاقُ والتَّشريعُ، والرُّؤيةُ المُتوازِنةُ للثُّنائيَّاتِ الكُبرى، كعالَمِ الغَيبِ والشَّهادةِ، والدُّنيا والآخِرَةِ، والجَبْرِ والاختيارِ، والفكرِ والمادَّةِ، والدِّينِ والدَّولةِ، والرَّجُلِ والمرأةِ، وحُرمةِ الاعتداءِ معَ وجوبِ الدِّفاعِ عن النَّفْسِ، إلى ثُنائيَّاتٍ أُخرى يصعُبُ حصرُها.

وقد استفادَتِ الحضارةُ الإسلاميَّةُ، بفَضلِ هذا المبدأِ العِلميِّ الأخلاقيِّ كلَّ ما خَسِرَتْه الحضاراتُ الأُخرى بسَبَبِ غِيابِ المبدأِ ذاتِه؛ فالإنسانُ في حضارةِ الإسلامِ مُتحرِّرٌ مِن كلِّ التَّناقُضاتِ الدَّاخليةِ الَّتي تَنشأُ مِن جرَّاءِ الاستِقطابِ بينَ الرُّوحِ والجسدِ، أو بين مُتطلِّباتِ الهَدْيِ الإلهيِّ ومُتطلِّباتِ الحياةِ الدنيا والمجتمعِ البشريِّ، والإنسانُ المسلمُ مُؤَهَّلٌ للقفزِ على الهُوَّةِ المُصطَنَعةِ للقطيعةِ بينَ الدُّنيا والآخِرةِ، والأخذِ مِن كلٍّ بما يحقِّقُ طُموحاتِ جَسدِه وأشواقَ رُوحِه، فلا ثنائيَّةَ ولا استقطابَ ولا صِراعَ، وإنَّما التقاءٌ وتكامُلٌ وتمازُجٌ يُبدِعُ نظرةً مُتكامِلةً، وشعورًا هادئًا مُتوازنًا، وإدراكًا متميِّزًا للكونِ ولمُبدِعِ الكونِ في الوقتِ نَفْسِه.

ولعلِّي لا أَقعُ في مُجازفاتِ المُبالَغةِ لو قلتُ: إنَّ الحضاراتِ غيرَ الإسلاميَّةِ، والَّتي بَنَتْ تصوُّراتِها في غَيْبةٍ مِن نورِ الوَحيِ والسَّماءِ، لم يكُنْ أمامَها -بعد استبعاد هدي السماء عن عمد- إلَّا فلسفةُ الصِّراعِ أداةً أو آلةً للتَّعامُلِ معَ الغيرِ، فماذا ننتظرُ -مثلًا- من حضارةٍ عَجَزت عن الجمعِ بين الإيمانِ بالمادَّةِ والإيمانِ باللَّهِ، فآمَنَت بالمادةِ وكفَرَت باللَّهِ؟ ماذا ننتظرُ منها إلَّا أنْ تُشكِّلَ كلَّ تصوُّراتِها وتصرُّفاتِها في إطارِ هذه الحياةِ الأرضيَّةِ الخانِقةِ؟ وبحيثُ تُصبحُ اللَّذَّةُ أو المَنفعةُ أو حبُّ الذَّاتِ هو مِعيارَ الفضائلِ والرَّذائلِ الَّذي لا مِعيارَ غيرُه؟!

ولك أنْ تتصوَّرَ أنَّ حضاراتٍ كُبرى بمؤسَّساتِها السِّياسيَّةِ والعسكريَّةِ يحكُمُها هذا المنطِقُ الماديُّ الصِّرْفُ، ثمَّ يحتاجُ تأمينُ الاقتصادِ عندَها - مثلًا- إلى تشغيلِ مصانعِ السِّلاحِ، أو السَّيطرةِ على مصادرِ الثَّروةِ خارجَ حدودِها، فهل ستَتردَّدُ هذه الحضاراتُ في الحصولِ على ما تُريدُ، حتَّى لو تمَّ ذلك على جُثثِ الآخَرينَ وأشلائِهم؟ وهل ستتورَّعُ عن اقترافِ هذه الجرائمِ؟ ومن أينَ لها هذا المبدأُ الَّذي يَعصِمُها مِن ارتكابِ هذه الفظائعِ؟

لا يُقالُ: يَعصِمُها حاجزُ الأخلاقِ والضميرِ؛ لأني أقولُ: أيُّ ضميرٍ وأي خُلُقٍ يحجز اليوم دُولًا تُعَدُّ في ذؤابةِ التَّحضُّرِ والعِلمِ والرُّقيِّ - مِن أن تَكذِبَ - عامدةً متعمِّدةً- في دعوَى العُثورِ على أسلحةِ الدَّمارِ الشَّامِلِ في العِراقِ، لتتَّخِذَ مِنَ رذيلةِ الكَذِبِ وقبحه مسوغًا لتسييرِ الجيوشِ الجرَّارةِ لدكِّ العراقِ وتدميره ولتشعل حروبًا لم ينطفئْ أُوارُها حتى اليوم؟! وأيُّ ضميرٍ وأيُّ خُلُقٍ يَسمحُ لطائراتِ الغربِ بتدميرِ دولةٍ في حجمِ ليبيا تدميرًا كاملًا في يومٍ أو بعضِ يومٍ، ثم تتركها ساحاتِ حربٍ مفتوحةً للمليشياتِ والقتلةِ والسَّفاحِين؟!

ستقولُ: ولكنَّ الضميرَ الغربيَّ واضحٌ في تجنُّبِ الحروبِ والصِّراعاتِ بينَ الشُّعوبِ في أوروبا وأمريكا.

وأقولُ: إنَّ التاريخَ يُسجِّلُ على هذه الشعوبِ حروبًا وحشيةً -فيما بينَهم- لم يشهدِ التاريخُ -ولن يشهدَ- لها مثيلًا، وما يحجزُ السِّياساتِ الغربيَّةَ اليومَ ليس هو العامِلَ الخُلُقيَّ، بل العاملَ الأنويَّ الاقتصاديَّ، المتمثِّلَ في تصديرِ الحروبِ إلى الشرقِ -أسلحةً وعتادًا وخُططًا ومؤامراتٍ وتدبيراتٍ- طلبًا للاستقرارِ الداخليِّ وللتوحُّدِ في مجابهةِ عدوٍّ مشترَكٍ تَصنعُه هذه السياساتُ وتَتعهَّدُه بكلِّ ما يَلزَمُ مِن أجلِ بقائِه في صورةِ الإرهابِ الدوليِّ الذي إنْ تُرِكَ فإنَّه لا يلبثُ أن يُدمِّرَ الغربَ والغربيِّين، ثم هو مبررٌ لاستمرارِ دورانِ مصانعِ السِّلاحِ

وإنتاجها وبيعها بالأسعارِ التي تدعمُ اقتصادَ الرفاهيةِ والارتقاءِ العِلميِّ والتِّكنولوجيِّ على حساب أشلاء الفقراء والبؤساء والأطفال واليتامى.

ولستُ في حاجةٍ إلى تذكيرِ القارئِ -المُتَنبِّهِ- ولفتِ نظرِه إلى المناوراتِ السِّياسيَّةِ التي واكبتْ كوارثَ سوريا والعراقِ واليمنِ، وما أسمَوه بالربيعِ العربيِّ، والتي ما أن ظهرَت فجأةً، وكأنَّها نَبْتٌ شيطانيٌّ، حتى غرقتِ المنطقةُ بأَسْرِها في بحورٍ مِنَ الدماءِ والدمارِ والفقرِ، والحاجةِ -مِن جديدٍ- إلى كُهَّانِ السِّياسةِ الدَّوليةِ، في تبادلٍ -واضحٍ- للأدوارِ وللملاعبِ أيضًا.

وأنا هنا أتحدَّثُ عن السِّياساتِ الغربيَّةِ، وليس عن الشُّعوبِ الغربيَّةِ، فمِنَ الإنصافِ ومِنَ العدلِ الذي يُوجِبُه الإسلامُ على المسلمِ في قولِه، أن نُفرِّقَ تفرقةً حاسِمةً بينَ هذه الشعوبِ وبين سياساتِها الدَّوليَّةِ العليا، وقد لَمَستُ بنفسي مدَى سُخْطِ بعضِ الأوروبيِّين والأمريكانِ على السِّياساتِ الخارجيَّةِ لدُولِهم، وتَبيَّنَ لي -مِن خلالِ لقاءاتٍ محدودةٍ- أنَّ رَجُلَ الشارعِ الغربيِّ لا يَعرِفُ مِن مآسي الشرقِ الأوسطِ إلَّا صورًا إعلاميَّةً تزيدُه نفورًا وتقزُّزًا مِنَ الشَّرقِ والشَّرقيِّين، فلسنا نتحدَّثُ عنِ الشُّعوبِ ولا عن فضلِ الغربِ في التَّقدُّمِ العِلميِّ التِّكنولوجيِّ الحسيِّ الماديِّ، وإنَّما نتحدَّثُ عن الخلفيَّةِ الخُلُقيَّةِ والإنسانيَّةِ لمؤسساتِ صناعةِ القرارِ وخلفيَّاتِها اللاإنسانيَّةِ.

أمَّا حضارَةُ الإسلامِ والمسلمِينَ فما كان لها أنْ تعتمِدَ الصِّراعَ مَنهجًا تتعامَلُ به معَ الحضاراتِ الأُخرى، وتُمارسُ من خِلالِه نفيَ الآخَرِ، وتدميرَ ذاتِه، أو تَبديلَ هُويَّتِه، وتاريخُ الفُتوحاتِ الإسلاميَّةِ يَشهَدُ على أنَّ الحضارةَ الإسلاميَّةَ كانَت تَحمِلُ فيما تَحمِلُه حُلولًا جِذريَّةً لمُشكِلاتٍ اجتماعيَّةٍ حقيقيَّةٍ، فكانَت تُحرِّرُ المُضطهَدِينَ والمظلومين مِن ظُلمِ الطُّغاةِ وبأسِهم، ولم يُعرَفْ في تاريخِ هذه الحضارةِ قَطُّ أنَّ المسلمين كانوا يُحرِّرون الضُّعفاءَ

مِن أجلِ السَّيطرةِ عليهم، أو استعبادِهم والاستيلاءِ على مُقدَّراتِهم؛ إذ مِن المعلومِ لَدى المُنصِفين -حتَّى مِن غيرِ المسلمينَ- أنَّ القتالَ في الإسلامِ لم يكُنْ أبدًا لتغييرِ الأديانِ، أو لفرضِ ثقافَةٍ على أُخرَى وتفرُّدِها بالإملاءِ والتأثيرِ(١)، وأكبرُ برهانٍ على سماحَةِ المسلمِينَ في هذا الأمرِ هو امتزاجُ ثقافَةِ المسلمِينَ بالثَّقافاتِ السَّائدةِ، وتلاحُمُها وتبادلُ التَّأثُّرِ بها والتَّأثيرِ فيها، كالثقافةِ اليونانيَّةِ وغيرِها، وهل كانَت حركاتُ التَّرجمَةِ في فجرِ حضارَةِ الإسلامِ إلَّا دليلًا على انفتاحِ المسلمِينَ على الحضاراتِ الأُخرَى!!

وهل سجَّل التَّاريخُ -يومًا- أنَّ المسلمينَ ذهبوا إلى قومٍ ليسَ بينَهم وبينَهم عداوةٌ وتِراتٌ وقالوا لهم: إمَّا الإسلامَ وإمَّا السَّيفَ؟! والإجابة بالنفي القاطع على هذا التساؤل هي من القضايا الواضحة بذاتها، لولا ما يُثيرُهُ أصحابُ الدَّعاوى المُريبةِ والشُّكوكِ المُصطَنَعةِ، ويكفي أن نشير - في عُجالةٍ - إلى أنَّ الإسلامَ ما كان يُطرَحُ من قِبَلِ الفاتِحينَ المسلمينَ على أنَّه الحلُّ الوحيدُ الَّذي لا خِيارَ معَه ولا بَدائِلَ له، بل كانَ يُطرَحُ معَه -وجَنبًا إلى جَنبٍ- خيارُ بقاءِ الآخَرينَ على أديانِهم، مع تقديم كل الضمانات التي تكفل لهم حُرِّيتِهم كاملةً في ممارَسةِ طقوسِهم وشعائرِهم.

ولو أنَّ القرآنَ الكريمَ أو السُّنَّةَ المُطَهَّرةَ أشارتْ -ولو مِن بعيدٍ- إلى أنَّ فرضَ الدِّينِ واحتلالَ الأرضِ هما الغايةُ مِن القِتالِ، لَما قَبِلَ المسلمونَ المنتصرونَ بقاءَ الآخَرينَ على دِينِهم مُقابِلَ دفعِ مبلغٍ زهيدٍ هو أيسرُ ما يَقبلُه غالبٌ مِن مغلوبٍ -فيما يقولُ العقادُ-، وكيف! والتاريخ يُحدِّثُنا أنَّ المسلمينَ الفاتحينَ كانوا يعيشونَ جَنبًا إلى جَنبٍ معَ أهلِ هذه البلادِ، ممَّن ظَلُّوا على دِينِهم وعاداتِهم وتقاليدِهم، أي: كان المسلمون يَسمحون بوجودِ حضارةٍ

(١) انظر رسالتنا المسماة: «مفهوم الجهاد في الإسلام»: ١٤، ١٥.

أُخرى تختلفُ عن حضارتِهم، يتفاعلون معَها، بل يتعايشون ويمتزجون، على أنَّ إقرارَ الآخَرِينَ على أديانِهم وما يَستلزِمُه هذا الإقرارُ من قَبولٍ لحضارةِ الأديانِ السَّماويَّةِ الأُخرى، وأنماطِ حياتِها، وظواهرِ الاجتماعِ النَّاشئةِ في ظِلالِها - برهانٌ واضحٌ على أنَّ الحضارةَ الإسلاميةَ لم تكُنْ أبدًا حضارةً تنفر من الآخر ناهيك عن استبعاده والسطو على مقدراته.

وهذا هو أَثَرُ الوسطيَّةِ الَّتي تَتجلَّى في احترامِ الإسلامِ للأديانِ الأُخرى وقَبولِه إيَّاها حتَّى وإنِ اختلفَ معها، وهذا هو ما طبَّقَتْهُ الحضارةُ الإسلاميَّةُ في البلادِ الَّتي دَخلَتْها، وكانَ أهلُها مِن أتباعِ الدِّيانةِ المسيحيَّةِ كمصرَ مَثَلًا، بل هذه الوسطيَّةُ الحضاريَّةُ كانَت مِن وراءِ دخولِ النَّاسِ في الإسلامِ في تلك البلادِ، وما زالَت هذه الوسطيَّةُ تَعمَلُ عملَها في جَذبِ الغربيِّين والأمريكيِّين وغيرِهم إلى الإسلامِ، حتّى أصبحَ الاطِّرادُ في زيادةِ أعدادِ المسلمين الغربيِّين مصدرَ قَلَقٍ وتَوتُّرٍ لدى الجهاتِ الرَّسميَّةِ في هذه الدُّوَلِ.

ولعلَّ الَّذين يتنكَّرون لوسطيَّةِ الإسلامِ لا يَرتابون في أنَّ هذه الملايينَ مِن الغربيِّينَ الَّذين يختارونَ الإسلامَ دِينًا، لم يحمِلْهم على هذا الاختيارِ سيفٌ مُشْرَعٌ على رؤوسِهم في لندن أو باريس أو برلين أو روما أو واشنطن، وذلك بالرَّغمِ من حَملاتِ التَّشويهِ المُمَوَّلةِ والَّتي لا تترُكُ لحظةً إلَّا استغلَّتْها في التَّنفيرِ مِن الإسلامِ والمسلمينَ.

والذي يَتتبَّعُ تاريخَ عَلاقةِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ بغيرِها من الحضاراتِ، يَهُولُه الأثرُ الأخلاقيُّ والإنسانيُّ لوسطيَّةِ الإسلامِ التي عصمت المسلمين مِن التَّردِّي فيما تردَّى فيه غيرُهم مِن أبناءِ الحضاراتِ الأُخرى حينَ قُدِّرَ لهمُ الغَلَبةُ على المسلمين، فما إنْ ظَفِرُوا بهم حتَّى قَلَبوا لهم ظَهْرَ المِجَنِّ، وقابلوا سماحتَهم بقَسوةٍ مُنقطعةِ النَّظيرِ.

ولْنتَّخِذْ مِنَ الأندلسِ حالةً تُوضِّحُ الفَرْقَ بينَ إنسانيَّةِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ وتسامُحِها حينَ سادَت في هذه البلادِ، وبين انغلاقِ حضارةِ الإسبانِ حينَ جاءَ دَورُهم وملَكوا زِمامَ الأمورِ في بلادِهم، وسوفَ نكتفي هنا بمَثَلٍ واحدٍ فقط، هو ما ذَكَرَه المؤرِّخونَ في مَعرِضِ سماحةِ المسلمينَ في الأندلسِ مِن ظاهرةِ المشاركةِ الكاملةِ في أعيادِ المسيحيِّينَ، وتَغاضِي كثيرٍ مِن فقهاءِ الإسلامِ وتساهلِهم، ولدَرَجةِ أنْ أَفْرَدَ بعضُ الأندلسيِّين مِنَ المسلمينَ مُصنَّفاتٍ مستقلةً للحديثِ عن هذه الأعيادِ غيرِ الإسلاميَّةِ، ومنهم: أبو عامرٍ السَّلَميُّ، وأبو القاسم العَزَفيُّ، وابنُ بَشْكُوالَ القرطبيُّ[(١)].

ويُعلِّلُ المؤرِّخونَ انفتاحَ المسلمِينَ على المسيحيِّينَ أيامَ الحُكمِ الإسلاميِّ للأندلسِ، بشيوعِ زواجِ المسلمينَ بالإسبانيَّاتِ، وأنَّ هؤلاء الإسبانيَّاتِ كُنَّ يحتفِلنَ في بيوتِ أزواجِهنَّ مِنَ المسلمِينَ بأعيادِ المسيحِ عليه السَّلامُ، ونحن نصدِّقُ هذه الرِّواياتِ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ الإسلامَ لا يَحولُ بين أحَدٍ وبين البقاءِ على دِينِه، ولا يمنعُه مِن ممارسةِ عِباداتِه وشرائعِه، وأنَّ شريعة الإسلام أباحت للمسلم أن يتزوج بالكتابية: يهودية أو مسيحية، وأن يغمرها بعاطفة المودة والرحمة، وحرمت عليه إكراهها على ترك دينها[(٢)]، وأنَّ الوثيقةَ الَّتي كتَبَها النَّبيُّ ﷺ عهدًا لنصارى نجرانَ هي السَّنَدُ الشَّرعيُّ في ذلك، وفيها من صُورِ التسامحِ الرَّفيعِ ما لم يَعرِفْه التَّاريخُ، ولن يعرفَه لغيرِ نبيٍّ

(١) انظر محمد عبد اللَّه عنان: «نهاية الأندلس».

(٢) نصَّ الشَّافعيَّةُ على أنَّ السَّيِّدَ لا يجوزُ له إجبارُ أَمَتِه المَجوسيَّةِ أو الوثنيَّةِ عَلَى الدُّخولِ في الإسلامِ، فما الظَّنُّ بإجبارِ الزَّوجِ زَوجَتَه المسيحيَّةَ على الإسلامِ؟ إنَّ المَنعَ مِنَ الإجبارِ ساعتئذٍ يكونُ أحَقَّ وأولَى. وقد جاءَ في كِتابِ النَّبيِّ ﷺ لأهلِ اليمَنِ: «ومَن كَرِهَ الإسلامَ مِن يهوديٍّ ونصرانيٍّ فإنَّه لا يُحَوَّلُ عن دِينِه...» أخرجَه عبد الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٠١٠٠) (٦/ ٩٠). وينظر: «التهذيب في فِقهِ الإمام الشَّافعيِّ» للبغوي: ٥/ ٣٨٥، و«أسنَى المطالِبِ في شرحِ رَوضِ الطَّالِبِ» لزكريا الأنصاري: ٣/ ١٦١.

الإسلامِ، وقد جاء في هذه الوثيقةِ: «. . . وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ؛ عَلَى دِمَائِهِم، وَأَمْوَالِهِم، وَمِلَّتِهِم، وَبِيَعِهِم، وَرَهْبَانِيَّتِهِم، وَأَسَاقِفَتِهِم، وَشَاهِدِهِم، وَغَائِبِهِم، وَكُلِّ مَا تَحتَ أَيْدِيهِم مِن قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، عَلَى أَلَّا يُغَيِّرَ أُسْقُفٌ مِنْ سِقِّيفَاهُ، وَلَا وَاقِفٌ مِنْ وِقِّيفَاهُ، وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَعَلَى أَلَّا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا، وَلَا يَطَأَ أَرْضَهُم جَيْشٌ . . . وَعَلَيْهِمُ الْجَهْدُ وَالنُّصْحُ فِيمَا اسْتَقْبَلُوا غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مَعْنُوفٍ عَلَيْهِم»(١).

ولعلَّ القارئَ المُنصِفَ لهذه الوثائقِ لا يتمارَى في أنَّ أيَّ تعقيبٍ على هذه البنودِ يفقِدُ قِيمتَه أمامَ دهشةِ المُسلم، وغيرِ المُسلم أيضًا مِن هذا الإنصافِ المُتفرِّدِ، والذي لا يخرُجُ إلَّا من مِشكاةٍ كمِشكاةِ النُّبوَّةِ المحمَّديَّةِ، وبخاصةٍ في تلك العصورِ التي كانت تُفرضُ فيها الأديانُ والعقائدُ فرضًا بالحربِ وحدِّ السيفِ.

أيُّها الحَفلُ الكريمُ . .

إنَّ دروسَ رمضانَ وتجربتَه الرُّوحيَّةَ تفرِضُ علينا فرضًا أنْ نتذكَّرَ -ونحن نَمُرُّ بهذا المنعطَفِ الخطيرِ في تاريخِ أمَّتِنا - أنَّ علينا واجباتٍ وفروضًا لا مَناصَ مِن أدائِها، وأهدافًا لا مَفرَّ مِن تحقيقِها، وأوَّلُ هذه الواجباتِ هو: وَحدةُ الصَّفِّ، ويَقَظةُ الضَّميرِ، وتحمُّلُ المسؤوليَّةِ، والشُّعورُ بأنَّنا لَسنا وَحدَنا في هذا العالَمِ، ولنا أصدقاءُ، ولنا أعداءٌ لا يرقأ لهم جَفْنٌ إلَّا بتَمزيقِ وَحدتِنا، وتَبديدِ ثَروتِنا، وإعادتِنا إلى ما قبلَ قرنَيْنِ مِن الزَّمانِ، فَلْنَنتصِرْ على أهواءِ النُّفوسِ، وَلْنَرتفِعْ إلى مُستوى الحَدَثِ، ولنعلم أن مَعرَكتَنا معركةُ بقاءٍ

(١) أخرجه أبو عُبيد القاسم بن سلَّام في «الأموال»: ١/ ٢٤٤ (٥٠٣)، وابن زَنْجُويه في «الأموال»: ٢/ ٤٤٧ (٧٣٢)، وعمر بن شبَّة في «تاريخ المدينة»: ٢/ ٥٨٤.

وصُمودٍ أمامَ تَحدِّيَاتٍ قاسيةٍ، ورياحٍ عاتيةٍ، تعصِفُ بأوطانِنا وببلادِنا وبتاريخِنا وثقافتِنا.

الحفل الكريم:

على مَقرُبةٍ منَّا شعبٌ مسلمٌ يُعاني منذ عَقدَينِ مِن الزَّمانِ مِن التَّفكُّكِ السِّياسيِّ، والتَّراجعِ الأمنيِّ، وأهلُه يموتُ أغلبُهم جُوعًا وفقرًا وجَفافًا، وإنِّي أدعو مِن مِنبَرِ الأزهرِ الشَّريفِ: المصريِّينَ والعربَ والمسلمينَ إلى حَمْلةِ مُساعداتٍ واسعةٍ وعاجلةٍ؛ لجمعِ الأموالِ والغذاءِ والدَّواءِ؛ إنقاذًا لهؤلاءِ البُؤَساءِ في الصُّومالِ الشَّقيقِ، ونحن بهذه الدَّعوةِ إنَّما نُراهِنُ على أخلاقِ الإسلامِ الَّتي أَرساها نبيُّه ﷺ فيما يَرويه عنه الإمامُ البخاريُّ[(١)]: «**تَرَى المؤمنين في تَراحُمِهم وتَوادِّهم وتَعاطُفِهم كمَثَلِ الجسدِ، إذا اشتَكى عُضوٌ، تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهرِ والحُمَّى**».

لقد آنَ الأوانُ -ونحن في وَداعِ هذا الشَّهرِ الكريمِ- أنْ نَعمَلَ على إنجازِ مشروعٍ حضاريٍّ إسلاميٍّ، يُواجِهُ التَّحدِّيَاتِ، ويُصحِّحُ مسارَ الأُمَّةِ، ويُلبِّي طموحاتِ شعوبِها.

ويقيني أنَّ ترتيبَ البيتِ الإسلاميِّ مِنْ داخلِه، وبسواعدِ أبنائِه، وعلاجَ ما فيه مِنْ عِلَلٍ وأمراضٍ، هو تحدِّي اللَّحظةِ الرَّاهنةِ بكلِّ ما يَضطرِبُ فيها مِن مخاطِرَ وآلامٍ، ومِن آمالٍ وأشواقٍ إلى نهضةٍ يَقِظةٍ، تُعيدُ إلينا ما نستحِقُّ مِن مَجْدٍ وعزٍّ وقيادةٍ وريادةٍ.

❊ ❊ ❊

(١) في صحيحه (٦٠١١) وأخرجه أيضًا مسلم في صحيحه (٢٥٨٦) بنحوه، مِن حديث النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما.

المصالح العُليا للوطن
مقاصد شرعية(*)

بِسمِ اللَّهِ الرَّحمن الرَّحيمِ

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهداه.

السَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

وبعدُ:

فتأتي الذكرى العَطِرَة الطَّاهرة لليلةِ القَدر، التي هي خيرٌ مِن ألفِ شَهر، ومِصْرُ العزيزة، تَستنهضُ أبناءَها الشُّرفاء، أن يكونوا على المستوى المطلوب، والمسؤوليَّةِ الجادَّة، وهُم يَتحَوَّلونَ بها، من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ أفضل، على طريق الحرِّيَّة والتقدُّم والأمن والرَّخاء.

ومصر هي -أولًا وأخيرًا وقبلَ كُلِّ شيءٍ وبعدَه-وطنٌ غالٍ، عزيزٌ على نفوسنا جميعًا، وهي بلد عظيمٌ، ذو تاريخٍ ضارب في جذور الأزمانِ والآبادِ، تَعرفه الدُّنيا بأسرها، وتَشهدُ به لها ولأهلها، إنَّها بلدٌ عريق، يَستحقُّ من كلِّ الشرفاءِ والعقلاءِ والحكماءِ، من داخل مصر وخارجها -أن يَقدُروا لهذا البلد قدرَه اللائق به، وأن يَبذلوا ما في وسعهم للنهوضِ بها والانطلاقِ بشعبِها نحوَ آفاقِ الرُّقيِّ والتقدُّم والرخاء والاستقرار.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في ذكرى الاحتفال بليلة القدر، بقاعة مؤتمرات الأزهر، في: ٢٤ من رمضان، سنة: ١٤٣٣هـ، الموافق: ١٢ من أغسطس، سنة: ٢٠١٢م.

ولقد كان لنبي الإسلام ﷺ والذي أُنزِلَ عليه القرآن في رمضان، كان له هَدْيٌ وتوجيهٌ في حرمةِ الأوطان، وحرمةِ أراضيها وترابها، وضرورةِ اجتماعِ أهلِيها على كلمةٍ واحدة.

والدَّارسون لسيرته ﷺ، والمتتبعون لسياساتِه وتصرفاتِه في العهدين؛ المكِّي والمدني على السَّواء، يعلمونَ هذا الهديَ النبوي، ويَعونَه جيدًا ولايزال المسلمون يَحفظون عن ظهر قلبٍ قوله ﷺ: «**يَدُ اللَّه مع الجماعة، ومن شَذَّ شَذَّ في النَّار**»(١)، وقولِه: «**إنَّ اللَّهَ لا يجمعُ هذه الأُمَّة على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافًا فعليكم بالسَّوادِ الأعظم**»(٢).

إنَّ هذه الأحاديث وغيرها كثيرٌ في هذا الباب -قد عصمت شباب الأمَّة الإسلامية في القديم والحديث من الانزلاقِ إلى ما انزلَقت إليه شعوبٌ وحضاراتٌ أخرى من التردِّي في مهاوي التنازع والفشل والهلاك الذي حذَّر منه القرآن الكريم، والمسلمون جميعًا يدركون ما يتضمنه النهيُ الإلهيُّ الصريحُ القاطع، من مغبة الوقوع في التنازع والانقسام حتى لا يكون الفشلُ أو الدمارُ هو النتيجةَ المحققَّة التي لا مفرَّ منها، ويدركون كذلك ما ترمى إليه النصوص المقدَّسة من الحثِّ والإغراء بالبحثِ عن مواطنِ الاتفاق بالرَّويَّة، وبوزنِ المواقفِ بميزانٍ دقيقٍ لا يَطغى فيه موقفٌ على آخر.

وهنا لا مفرَّ من القول بأن المصالحَ العليا للوطن، وعصمة الأموال والأنفُس والأعراض، يَجب أن تمثِّلَ الإطار الأوحد لحراك الجميع.

وقد نصَّت الشريعة الإسلامية على أن هذه المصالحَ العليا هي مقاصد

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٨٠) والدُّولابيُّ في «الكنى والأسماء» (١٤٣١) والحكيم التِّرمذيُّ في «نوادر الأصول» (٥٤٩) والحاكم في «المستدرك»: ١/ ١١٥، وغيرهم، من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، بنحوه.

كليَّةٌ شرعيةٌ، يَجب التقيُّد بها وبآفاقها وأبعادها؛ حتى يستقيم للناس أمرُ دينهِم ودنياهُم.

أيُّها الإخـوة..

إنَّ التَّحديات التي تواجهُنا ثقيلةٌ، والهمومَ التي تشغلُنا كثيرةٌ، فجراحُنا في فلسطين لا تزالُ تنزف، وحرمُنا الثَّالث في بيتِ المقدس لا يَزالُ يرسفُ في قيودِ البغيِ والظلمِ والاحتلال، ولنا إخوة في بورما، وأفغانستان، وسوريا، والصومال، وغيرها من البُلدان يُعانون من المظالم الباغية، والقوَّة الطاغية، ونحن نعلم حجم هذه المعاناة، التي يَتجاهلُها العالَم الذي يَصفُ نفسَه بالرقيِّ والتحضُّر، وهي معاناةٌ تفرضُ على المسلمين أينما كانوا أن يَتداعَوا لها بالحمَّى وبالسَّهر، وألَّا يُشغلوا عنها بعبث العابثين هنا أو هناك، من الذين لايعرفونَ أعداءهم الحقيقيين، ولا حقوقَ إخوانِهم في الدِّين.

وأُذكِّرُ كلَّ مسلم كائنًا ما كانَ مكانُه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

وليَعلم الجميعُ أنَّه لن يضيعَ حقٌّ وراءه مُطالِبٌ، وأنَّ التاريخَ يعلِّمُنا أنه على الباغي تدور الدَّوائر، ورُبَّ ضارةٍ نافعة، فشدةٌ توحِّدُنا خيرٌ من غنيمة تُفرِّقنا، وليس المسلمون إلَّا طُلابَ حقٍّ في مواجهةِ الظَّلَمة والطُّغاة، وإنَّهم على يقين من أنَّ النصرَ من عند اللَّه، ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبًا.. ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤- ٥].

ولا ننسى أيها الإخوة في هذه الذِّكرى الطيبة أن نترحَّمَ على شُهدائِنا

الأبرار، الذين قَضَوا بيَد الغدر والعُدوان على مشارفِ رفح، وهم يَختمون صيامَهم يوم الأحد الماضي[١]، ونتقدَّمُ لأُسَرِهم وأهليهِم وذويهِم بخالصِ المواساةِ وأحرِّ التَّعازي، وللمصابين الذين يَتلَقَّون العلاج والرِّعايةَ الطبيَّة بالشِّفاءِ التَّام، ونشدُّ على أيدي الأبطال الشُّجعان من قوَّاتنا المسلَّحة الباسلة ومن رجال الشُّرطةِ الأقوياء.

هذا ونتقدَّمُ إليكم -سيادة الرئيس- ولمِصرَ؛ رئيسًا وحكومةً وشعبًا، وللأمةِ الإسلاميَّة بخالص التَّهنئة، وبالدُّعاء إلى اللَّه تعالى أن يأخذَ بأيدينا جميعًا، وأن يوفِّقنا لفتح باب الأمَل أمامَ المواطنين لتحقيق طموحاتهم وتطلُّعاتهم لمستقبلٍ واعدٍ إن شاء اللَّه يَنعمُ فيه الجميعُ بالخيرِ والرَّخاءِ والازدهار.

وفَّق اللَّه الجميعَ لما فيه الخير، وكلُّ عامٍ وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

❊ ❊ ❊

(١) الموافق: ١٧ من رمضان ١٤٣٣هـ/

العمل في الإسلام(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيدِنا محمدٍ رسول اللَّه، وعلى آلِه وصَحبِه ومن اهتدى بهداه.

الحفل الكريم..

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فإنَّ ليلةَ القدرِ -كما يقولُ اللَّه تعالى- هي: ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ٣]، وهي الليلة المباركة كما أخبرنا اللَّه تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]، وقد ارتبطت هذه الليلة بنزول القُرآن فيها، ونالت شرفها من شرفه، واستمدَّ رمضانُ كلُّه فضلَه وخيره وبركته من ملامسة لياليه لهذه الليلة الكريمة..

وإذا كان المسلمون متفقين على أنَّ القُرآنَ نزَل في ليلةِ القدرِ، استنادًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ فإن تفسير النزول في هذه الليلة يمكن فهمه على وجهين: فهل نَزَلَ القُرآن جُملةً واحدةً من اللَّوْحِ المحفوظِ إلى مكانٍ ما، ثُمَّ تنزَّلت آياتُه بعد ذلك مُفرَّقة طوالَ ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا، هي مدَّةُ رسالة النبيِّ ﷺ بمكة والمدينة، أو أنَّ معنى نزوله هو ابتداءُ نُزولِه في هذه الليلةِ ثم تَتابَعَ النزولُ بعدَ ذلك؟

(*) كلمة ألقيت في ذكرى الاحتفال بليلة القدر، بقاعة مؤتمرات الأزهر الشريف، في: ٢٧ من رمضان، سنة: ١٤٣٦هـ، الموافق: ١٤ من يوليو، سنة: ٢٠١٥م.

ومعنى القَدْرِ الذي أُضِيفَ إلى هذه الليلةِ وشَرُفَتْ به هو : «التقديرُ» بمعنى «التمييز» بين الخيرِ والشرِّ، والحقِّ والباطِل، وهو التكليفُ الذي مَيَّزَ اللَّهُ به الإنسانَ عن باقي مخلوقاتِه، ورفَع به قدرَه، ومن أجله حمَّله المَسؤوليَّةَ عمَّا كُلِّفَ به من عملٍ، وعن نيَّته التي تسبقُ أعماله ويُناط بها حُسنُها أو قُبحها : **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَتِهِ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**(١) .

ويأتي العمل الذي يمثل حجر الزاوية في بناء الأمم ونهضة الشعوب في مقدمة ما كلِّف به الإنسان في تعاليم القرآن الكريم الذي أنزل في ليلة القدر .

ويُخطِئ مَن يظنُّ أنَّ عملَ الخير الذي فرَضَه اللَّه على الناسِ في هذه الليلةِ هو العملُ المُختَصُّ بالعِبادة فقط، وهو المُتعلِّق منه بأركانِ الإسلام من صَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ وعُمرةٍ، وبحيث يصبح المسلم -إذا أدَّى ما عليه من فرائضَ وسُنَنٍ ومندوبات- في حلٍّ من أن يَعمَلَ أو لا يَعمَل، أو يَتكاسَل في عَمَلِه، أو يَخُونَ الأمانةَ فيما أُسنِدَ إليه من أعمالٍ تتعلَّقُ بحياةِ الناس ومجتمعهم . .

إنَّ هذا الاعتقادَ الخاطئ يَقَعُ فيه -للأسف- كثيرٌ من العامِلين والمُوظَّفين والمسؤولين وأساتذةِ الجامعات والطلاب والطالبات، بل وكثيرٌ من العُلَماء الذين يَتَصدَّرون لتعليم الدِّين للناس ونذروا أنفسهم للدعوة إلى اللَّه، وتكرَّس في وجدان الكثير منهم هذا الانفصام الرديء المغلوط، بين قِيمَةِ العبادات وقِيمَةِ العملِ، مع تساويهما في المسؤوليَّةِ أمامَ اللَّه تعالى . .

إنَّ هذا القُرآن الكريم الذي أُنزِل في ليلة القدر وردت فيه كلمةُ «العمل»

(١) أخرجه البخاريُّ (١) ومسلم (١٥٥) من حديث عمر بن الخطَّاب ﷺ.

ومُشتقَّاتها في (٣٧١) آية من آياتِه الكريمةِ . . وقد وردت كلُّها بمعانٍ مُطلَقة تسوِّي بين أعمال العبادات وأعمال المُعاملات في التكليف وفي المسؤولية وفي الجزاء .

ولكم أن تَنظُروا - أيُّها السادةُ - في أيِّ مرجعٍ من مراجع الفقه في شريعة الإسلام لتجدوا أن كل مرجع منها ينقسمُ إلى قِسمين مُتَلاصقَيْن مُتَجاوِرَيْن :

- الأوَّل : قسمٌ لأبواب العبادات ؛ من طَهارةٍ وصَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ وزواجٍ وطلاقٍ . .

- ثُمَّ قسمٌ لأبواب المعاملات ؛ من تجارةٍ وزراعةٍ وصناعةٍ وقضاءٍ وجناياتٍ . .

وسيلفت نظركم أنَّ قسم العِبادات يَشغلُ رُبعَ مِساحة الكِتاب ، بينما يشغل قسم المعاملات التي تدور حول «العمل الدنيوي» ثلاثة أرباع مساحته . . ممَّا يدلُّنا على عِظمِ أمر العملِ في الإسلام ، وأنَّه أمر لا تغني عنه العبادات بحال ، بل هو والعبادة أمران ممتَزِجانِ ومُتداخِلانِ تمامَ التَّداخُل .

ولا يُفرِّقُ الإسلامُ في نَظرتِه للعمَلِ بين نوعٍ ونوعٍ ، يَنظرُ لأحدِهما نظرةَ تقديرٍ واحترامٍ ، وينظُر للآخر نظرةَ استعلاءٍ واستهجانٍ ، فلا فرقَ في قيمةِ العمَلِ في الإسلام بين أعمالٍ مِهْنيَّةٍ أو تجاريَّةٍ أو إداريَّةٍ أو زراعيَّةٍ أو صِناعيَّةٍ ، وإن كُنَّا نلمحُ بوضوحٍ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَنحازُ إلى العمَلِ اليدويِّ ويخصُّه بمزيدٍ شرَف وفضلٍ . . وذلك حينَ سألَه أحدُ أصحابِه عن أفضَلِ الكسبِ - أي : أفضل العمَلِ - فقال ﷺ : «**بَيْعٌ مَبْرُورٌ ، وَعَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ**»[(١)] .

(١) رواه الإمام أحمد في مُسنَدِه ٢٥/١٥٦ (١٥٨٣٦)، والحاكِم في مُستَدْرَكِه ٢/١٠، والبيهقي في سُنَنِه ٥/٢٦٣، والطَّبرانيّ في معجمه الكبير ٢٢/(٥٢٠)، وهو حَديثٌ صحيحٌ، وانظر : محمد فهر شقفة : «أحكام العمل وحقوق العمال في الإسلام» ص ٢٩، دار الإرشاد. بيروت : ١٩٦٧م.

وقال أيضًا: «**لأَنْ يَحْتَزِمَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَحْمِلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ**»[(١)]، أي: «خيرٌ له من أن يَسأَلَ غيرَه» حتى لو كان هذا الغيرُ أبًا أو أُمًّا أو أخًا أو أُختًا.

وقال في حديثٍ آخر: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[(٢)]، وكان هذا النبي الكريم -عليه السلام- يصنع الدروع بيده ويبيعها، رغم أنَّه كان ملكًا عظيمًا.

وإنَّ المرءَ لَيَدْهَشُ كثيرًا وهو يُقارِنُ بين نظرةِ الإسلام للعملِ اليَدَويِّ، وبين التَّفرقةِ الجائرةِ في فلسفةِ الحضارات الأُخرى بين عملٍ وعملٍ.

فقد عاشت طبَقةُ الفلَّاحين والزُّرَّاع في حضارةِ اليونان وفلسفاتها وقوانينها حالةً سيئةً من الظُّلم والاضطهاد، وكان الفلاحُ الذي يعجزُ عن دَفعِ أُجرةِ الأرض التي يَزرَعُها يُباع هو وزوجتُه وأولادُه بَيْعَ الرَّقِيقِ!

وفي الحضارةِ الرُّومانيَّة كان الفلَّاحون والتُّجَّارُ وأصحابُ المِهَنِ الحُرَّةِ محرومين من حُقوقِهم؛ يَستَذِلُّهم الرُّومانُ ويَستَضعِفونهم ويُجنِّدُونَهم في أعمالِ السُّخرَةِ. ولم يكن الحالُ بأسعدَ حظًّا في حضارةِ الفُرس، أو الحضارةِ المصريَّةِ القديمة، بل في حضارةِ العرَبِ أنفُسِهم؛ حيث اعتَبَرُوا مهنةَ التجارةِ والرَّعيِ أفضلَ المِهَنِ وأشرفَها، بينما أَنِفُوا من مِهنة الزراعة والصناعة وترَكُوها للمَوالي والعَبِيد[(٣)].

وهنا يُسجِّل التاريخ أنَّ الإسلام حين ظهر للوجود قضى على هذه التفرقة، ورفع من شأن العمل أيًّا كانت صورته، وأنَّ نبي الإسلام كان يفخر

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٢) من حديث المِقدام بن مَعدِي كَرِب.

(٣) محمد فهر شقفة: أحكام العمل . . . ص ٢٦.

بأنه كان أجيرًا في مهنة الرعي، وتاجرًا لأم المؤمنين خديجة رضوان اللَّه عليها، كما كان يفخر أيضًا بالعمل في خدمة أهله بالمنزل، وبمشاركته أصحابه في أعمال الحفر في الغزوات.

والعمَلُ في الإسلام لا يصنَّف في قائمة الحقوق التي يجوز التنازل عنها، بل يرقى إلى درجة التكليف الإلهي الذي يبلغُ حَدَّ الوجوبِ، بل إنَّ قيمته لتسمو وتعلو لتُكافئ قيمةَ الجهاد في سبيل اللَّه، وقد رُويَ(١) أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ مع أصحابِه برجلٍ فرَأى الصحابةَ من جُهدِه وعرَقِه وقوَّته في العملِ ما أثارَ إعجابَهم، فقالوا: يا رسولَ اللَّهِ، لو كان هذا في سبيلِ اللَّه؟ فقال -عليه السلام-: «**إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(٢).

وإنْ تَعْجَبُوا أيُّهَا السَّادة الفُضَلاء فاعجبوا لقول النبي ﷺ في حديث يجب أن نتوقف عنده ونتأمله طويلًا، يذهب فيه نبي الإسلام إلى أبعد مدًى يمكنُ تصوَّرُه في إيجاب العمل على المسلم في كل الظروف والأحوال والملابسات، وذلك فيما يرويه أنس بن مالك من أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»(٣).

وانظروا كيفَ يُؤَسِّسُ النَّبيُّ ﷺ للعَملِ بحسبانه قِيمَةً موضوعيَّةً تَستَمِدُّ شَرَفَها مِنْ ذاتِها، وليس من ظُروفِ الزَّمانِ ولا أحوالِ المكانِ.. وإنَّ المُتأمِّلَ ليتساءلُ: أيَّة فائدةٍ تترتَّبُ على غَرسِ هذه الفسيلَة، والأرض تتبدَّلُ

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ في «المعجم الكبير»: ١٩/ ١٢٩ (٢٨٢) وفي «المعجم الأوسط»: ٧/ ٥٦ (٦٨٣٥) وفي «المعجم الصغير» ٢/ ١٤٨ (٩٤٠).

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ٤/ ٣٢٥ «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ، وَرِجَالُ الْكَبِيرِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

(٣) أخرجه أحمد (١٢٩٨٢) والبَّزار (٧٤٠٨) وسنده صحيح.

غير الأرض في هذه اللَّحظة؟ وكيفَ يتوجَّهُ الخِطابُ بالأمرِ بالغرْسِ لشخصٍ ذاهِلٍ مِنْ هَوْلِ القيامةِ؟ وهذا الغَرْسُ لِمَن والقيامة تقومُ؟ وهل سيبقى الغرسُ ليُؤتِي أُكُلَه أو أنَّ هذا العمل لا يلبث أن تعصِف به عواصف القيامة؟.

إنَّ كلَّ ملابساتِ الموقف في هذا الحديث تحكم بأنَّ عملًا كهذا في وقتٍ كهذا لا طائلَ من ورائه، ومع ذلك يأتي التَّوجيهُ النَّبويُّ العظيم: «فَإِنْ اسْتَطَاعَ أنْ يَغرِسها فليغرسها» لِتَعلَم الأُمَّة بأسرها أنَّ «العملَ» في حَدِّ ذاتِه واجب شرعي يُكَلَّف به المسلم ما بَقِيَ فيه نفسٌ يَتردَّدُ، وما بَقِيَ عُمر الكَونِ ساعة أو لحظة.

وإذا كان الإسلامُ قد فرَضَ العمَلَ وأوجَبَه على كلِّ مسلم قادرٍ، فإنَّه -في المقابلة- حارَبَ البطالة والتَّبطُّل، ونهى عن التواكُل والرُّكون إلى الدَّعةِ والكسَلِ، وفرَضَ على المسلمِ أن يَنزِلَ إلى سُوقِ العمَلِ ليُمارِسَ أيَّ عملٍ يدرُّ عليه دخلًا يَكفِي حاجتَه، ويُحقِّقُ به لوطَنِه نفعًا ومصلحةً، وقد ذهَب النبيُّ ﷺ إلى أبعد مدًى في مُحاربة البطالة، وما يترتَّب عليها من آثارٍ سلبيَّةٍ، ومضارَّ نفسيَّةٍ على الفَرْدِ والمجتمع؛ فنهَى عن السؤال، ونهى عن تَرْكِ العمَلِ حتى لو كان بحُجَّةِ التفرُّغ للعِبادةِ، وقد ورد في تراث المسلمين أن عيسى بن مريم عليه السلام لَقِيَ رَجُلًا، فَقَالَ لَهُ: «**مَا تَصْنَعُ؟**» قَالَ: «**أَتَعَبَّدُ**». قَالَ: مَنْ يَعُولُكَ؟ قَالَ: أَخِي. قَالَ: «**أخوك أَعْبَدُ منك**»[(١)].

وقد نهى الإسلامُ عن تكليفِ الصِّغارِ بأعمالٍ مُرهِقة؛ فقال -عليه الصلاة والسلام-: «**ولا تُكلِّفوهم ما لا يُطيقون، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم**»[(٢)]، وأجازَ عملَ المسلم عند غيرِ المسلم، ونهى عن الغشِّ وعن سَرِقَةِ الوقتِ في العمل. ولفُقَهائنا الأجلَّاء كلامٌ طويلٌ في هذه المسألة ما أحوَجَنا إليه الآن،

(١) رواه أبو بكر الدِّينَوَري في المجالسة وجواهر العلم: ٣/ ١٢٣.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠) ومسلم (١٦٦١) من حَديثِ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

ومنه: أنَّ الشريعةَ تُوجِبُ على العامِلِ المسلم أن يملأ بعمله كل الفترة الزمنيَّة التي يَشترطها التعاقُد أو التوظيفُ، وتُحرِّمُ عليه أن يُضيِّع لحظة واحدة منها، فإنْ تَشاغَلَ العاملُ أو تهرَّب أو نام أو تلهَّى، فإنَّه يكون خائنًا لربِّ العمل أو للدولة، وآثمًا عند اللَّه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

ونحن نقرأ في مُتون شريعةِ الإسلام «أنَّ الأجير (وهو الموظَّف أو العامل بلُغة اليوم) إذا قرَأَ القُرآنَ أثناء عمَلِه، وأضرَّت القِراءةُ بالعمل، فإنَّ لصاحب العمل أو للدولة مطالبة العامل بقيمةِ ما فوَّت من العملِ بسبَبِ قراءةِ القُرآن، أو تُستقطع القيمةُ من الأجرة[١]، وكذلك إن تأخَّر العامل في إنجاز عملِه عن المُدَّة المُبيَّنة فإنَّ عليه أن يُعوِّضَ الضَّرَرَ الذي لَحِقَ بصاحب الصَّنعة».

كما فرَض الإسلامُ على المُسْلِم العاملِ إتقانَ العملِ، وإخراجَ المُنتَج في أكمَلِ صورةٍ وأحسَنِ وجهٍ قال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ**»[٢]، و: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**»[٣].

ويقول العلماء: إنَّ رضا اللَّه -تعالى- يَنزِلُ على العامل بحسَبِ إتقانه لعمَلِه، ويَتضاعَفُ الرِّضا وتزدادُ الحسنات كُلَّما ازدادت درجةُ إتقان المُنتَجِ ودقَّته وجودتُه...

وهنا دُرَرٌ غوالٍ مكنوزةٌ في بُطون تُراثنا العظيم لا يتَّسِعُ المقامُ لسَردِ بعضِها، تتعلَّقُ بترغيبِ العامل في العمل الجادِّ المُتقَنِ، وتنفيرِ المسلم من

(١) «مطالب أولي النهي»، نقلًا عن المصدر السابق ٥٢.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٦) والطَّبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٨٩٧) والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٤٩٢٩) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

البطالة والكسل أو التساهل في قدسيَّة العمل والجُهدِ والعرَقِ، أو التقليل من دورِه الحاسم في بناء الاقتصادِ، وتنميةِ المجتمعِ، وتجديد الحياة، وإعداد المواطنين وتأهيلهم لمواجهة التحدِّيات وتجاوُز الصعاب، وكلُّ ذلك انطلاقًا من دور الإنسان في الأرض كخليفةٍ عن اللَّه -تعالى-، وكمسؤولٍ عن إعمار الكون وإصلاح ما يَفسُد فيه..

وهذا هو الفرق الحاسِمُ بين فلسفة العمل في الإسلام، وبين النَّظريَّات والقوانين التي تَصُوغُ علاقة العامل بالعمل في موادَّ جافَّةٍ تدورُ كلُّها على مِحوَرِ «الجزاء» إثابةً أو عقوبةً، والأمرُ جِدُّ مختلف في شريعةِ الإسلامِ وتراثِه العظيمِ، حيث تستندُ فلسفةُ العمل إلى خلفيَّاتٍ هائلةٍ من القِيَمِ الأخلاقيَّة وأحكام الحلال والحرام، والثواب والعِقاب، وظِلالٍ وارفةٍ من الآداب والفضائل:

فالتاجر الصَّدُوقُ الأمين -فيما يقول ﷺ- مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ[1]، والبائع والمشتري -فيما يقول صلوات اللَّه وسلامه عليه: «...**إِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[2].

السيد الرئيس.. الحضور الكريم..

إنَّ هذه اللَّمَحَات الخُلُقيَّةَ التي ألمَمْتُ ببعضها في كلمتي هذه، هي ما يَجِبُ أنْ نَستَلهمه -نحن المصريِّين- من ليلةِ القدرِ، وهو الدَّرسُ الذي يَجِبُ أن نَتعلَّمُه من وَحيِها وفي ظِلالِها، فهي ليلةُ العملِ وليلةُ التكليفِ، والليلةُ التي انتَقَلَ فيها القُرآنُ الكريمُ من السماءِ إلى الأرضِ ليُخرِجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النُّور، وليست ليلةُ القدرِ -كما يظنُّ كثيرون- مَوسِمًا لتلمُّسِ

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (١٢٠٩) من حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن».
(٢) أخرجه مسلم (١٥٣٢) من حديث حَكِيم بن حِزَام رضي الله عنه.

السَّعد والغنى، ولا هي لاختصارِ رحلةِ الحياة الشَّاقَّة في دعوةٍ يُستَمطَرُ بها الرزقُ والمال والجاه والولد، إنَّها أبعد من ذلك بكثير. . إنَّها الليلةُ التي فُرِضَ فيها العملُ والجهدُ والعَرَقُ، ورُبِطَتْ فيها النتائجُ بالمُقدِّمات، والمُسبَّبات بالأسباب، وهي الليلةُ التي تعلَّمنا من وحيها أنَّ السَّماء لا تُمطِر ذهبًا ولا فضَّة، وأنَّ ميزان التفاضُل بين الناس هو ميزانُ العمل النافعِ للبلاد والعباد. . ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

أيُّهَا المِصريُّون والمصريَّات في كُلِّ مكان. .

إنَّ واجب الشَّرع والوطن يُلقي على عواتقكم مُهِمَّة ثقيلة اختاركم اللَّه لها، وهي أن تُقدِّموا أقصى ما تستطيعون، بل كل ما تستطيعون من الجُهد والعَرَق من أجل رفعة هذا الوطن الكريم، واستعادة مجده وعزِّه بأحرُفٍ من نور، وواجب المسؤولية يُحَتِّم علينا القول بأنَّ أيَّ مُقابل يحصل عليه العامل أو الموظف دون أن يُؤدِّي ما يوازيه مِنْ عملٍ جادٍ مُتقَن، فإنَّ هذا المُقابل تَشوبُه الحُرمة وأكل أموال الشعب بالباطل.

إنَّ مصرنا في أمَسِّ الحاجة في هذا الوقت الصَّعب إلى الأيادي الخَشِنة وإلى العزمات الصَّادقة وإلى التَّضحية والجِدّ والعَرَق والبَذل والفِداء، حتى يَنهضَ وطننا من كبوته، ويتَمَكَّن من تجاوز هذا الظَّرف الرَّاهِن الذي ينُوءُ به. .

وعلى جميع فئات الشَّعب أنْ تتَكاتَف وتَقِف صَفًّا واحِدًا لِتُجابِه قُوَى الشَّرِّ والطُّغيان التي تَكيد لهذا البلد العريق، بل تَكيد لديننا الحنيف نفسه، ولتقاوم هذا الإرهاب اللَّعين الذي يَخطِفُ بِخسَّة وغَدر أرواح أبنائنا الأطهار وأصغرهم عندنا، بل في عيوننا وقلوبنا، أعزُّ من الدُّنيا وما فيها.

سيادةَ الرئيس . .

إنَّ احتفالَنا بذِكرى ليلةِ القدر، هذه المَرَّة، تختلطُ فيه أحاسيسنا ومشاعرنا، وتضطربُ ما بين ألمٍ مُمِضٍّ وحُزنٍ عميقٍ على استِشهادِ جُنودِنا الأبطالِ ومُواطنينا الأحبابِ، الذين اختطفَتْهم يَدُ الغدرِ والذُّعرِ والأحقادِ المُرَّةِ على مصرَ والمصريِّين، وبينَ استرجاعٍ وصبرٍ على ما أَصابَنا، وتسليمٍ لقضاءِ اللَّه الذي لا رادَّ لقضائه في خَلقِه . . وبين استبشار بما أعَدَّه اللَّه لهؤلاء الشُّهَداء من رضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم .

ومهما يَكُن من أمرٍ، فتَحيَّةً وتقديرًا لشُهَدائِنا الأبرار الذين سقَطُوا فداءً لمصر ولشعبِها، ولأمنها واستقرارها؛ بل لبقائها عزيزة شامخة تغيظ أعداء الشعوب من الكائدين والمتربصين، تحية لهؤلاء الذين جادوا بأرواحهم ونُفُوسِهم من رجال القُوَّات المُسلَّحة والشُّرطة المدَنيَّة، وشَوامِخ رجال القضاء وشَبابهم، وكافَّة المواطنين المعصومين في دمائهم وأموالهم .

تغمَّدَهم اللَّهُ جميعًا بواسِعِ رحمتِه ورضوانه، وألهَمَ أهليهم وذَوِيهم وألهَمَنا معهم الصبرَ والثَّباتَ والتسليمَ .

سيادة الرئيس . .

أختمُ كلمتي بالتوجُّه إلى اللَّه -سبحانه وتعالى- أن يَحفَظَكم ويَرْعاكم، وأنْ يَحفَظَ رجالَك المُخلِصين مِن حولِك، وأن يُحَقِّقَ اللَّه على أيديكم آمالَ مصرَ وأماني المصريِّين، إنَّه قريبٌ مجيبُ الدَّعوات .

كُلُّ عامٍ وأنتُم بِخَير .

والسَّلامُ عليكُم ورَحمــــة اللَّه وبركاته؛

❋ ❋ ❋

الاحتفاء بالعلم
في ذكرى ليلة القَدْر(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيدِنا رسول اللَّه، وعلى آلِه وصَحبِه وإخوانِه من الأنبياءِ والمُرسلين.

الحَفْلُ الكَريم..

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فإنَّ الاحتفالَ بليلةِ القَدْرِ هو احتفالٌ بنزولِ القُرآنِ الكَريمِ على رسولِ الإنسانيَّةِ محمدٍ ﷺ، وهو في الوقتِ نفسِه احتفالٌ بقدرِ العِلم وقيمَته في هذا الكتابِ الكريم..

ومن نعمةِ اللَّه على المؤمنين بهذا الكتاب أن الباحثَ فيه عن شأنِ العِلم وعلوِّ رُتبته لا يحتاج إلى أكثر من تدبُّر أول ما نزلَ من القُرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١-٥]، خمسُ آياتٍ قَصيراتٍ ورد فيها أمرٌ بالقراءةِ مَرَّتين، وتنويهٌ بشأنِ العِلْمِ والتعلُّم ثلاثَ مَرَّات، وذِكْرٌ للقَلَم الذي هو أداةُ العلمِ ووسيلتُه.

(*) كلمة ألقيت في الاحتفال بذكرى ليلة القدر، بفندق الماسة بالقاهرة، في: ٢٦ من رمضان، سنة: ١٤٣٨هـ، الموافق: ٢١ من يونيو، سنة: ٢٠١٧م.

وفي هذا الاستهلال ما فيهِ من احتفاءِ الإسلام بقيمةِ العلم، والتنويه بمنزلتِه، والتذكير بخطرِه الشَّديد في التمييز بين الحقِّ والباطلِ والصَّوابِ والخطأ.

ومِمَّا يَعْجَبُ له المُتفطِّنُ لأمرِ العِلمِ في القُرآنِ، أن يُبعثَ نبيٌّ يدعو للقراءة ويُشيد بالعلم وبالقلم، وهو أُميٌّ لا يَقرأُ ولا يَكتُب، ولم يُمْسِك بالقلمِ طول حياته لا تعلُّمًا ولا تعليمًا، وفي مجتمعٍ جاهليٍّ لا عهدَ له بالقراءةِ ولا الكتابة، ولا بالعلمِ ولا التعلُّم من قريبٍ أو بعيد-وتكونُ كلمة «اقرأ» هي الكلمةَ الإلهيَّةَ الأولى التي تطرُقُ سَمعُه الشَّريف، وتغمُر أقطار عقله وقلبه، ثُمَّ يكون حديث العِلْم والتعلُّم هو الرسالة الأولى التي يَقرعُ بها آذانًا صُمًّا وقلوبًا عُميًا لا تدري ما العلم ولا التعليم.

وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ أمرُ هذا النبيُّ الأُميِّ الذي يُؤمر بالقراءةِ وما هو منها بسبيل، فقد كان لا يقرأُ خطًّا ولا يكتُبه بيدِه، كما يُقرِّر القُرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ووَجهُ الإعجاز في هذه الآية هو إثباتُ عِلْمِه ﷺ مع ثبوتِ أُميَّته، لأنَّ العلمَ والأُميَّةَ نقيضانِ لا يجتمعانِ في الواقعِ، وثبوتُ أحدهما ينفي الآخرَ لا محالة، بحكمِ الضَّرورة ومنطِق العادَةِ والمألوفِ المُشاهَدِ.

وقد ذكر الإمام البُوصيري السَّكندري هذه المعجزة في قصيدته البُردة، فقال مخاطبًا رسول اللَّه ﷺ:

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ في الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً   في الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ في الْيُتُمِ

والمقصود بالعلم هو ما تضمنه القرآن من الحث على طلب الحكمة والمعرفة وما يحقِّق سعادة الدنيا والآخرة، ومن الإخبار بالأمور الغائبة،

وبما في الكتب المنزَّلة قبل القرآن، ومن أخبار الأنبياء السابقين وقصص القرون الغابرة، ثم الإخبار بالأمور المستقبلية والتي وقعت في حياته ﷺ، كما قال وعلى الوجه الذي أخبر به.

وقد حارت عقولُ قريشٍ في أمرِ رجل أميٍّ عاشَ بين أظهرهم أربعين عامًا، لا يعرفون له رحلةً واحدةً في طلب العلم عند الفُرس أو الرُّوم أو اليَهُود في يَثْرِب، وفجأةً يطالعهم بكلامٍ منضبطٍ بالعلم، ومحكومٍ بالعقل، ولا يجدونَ من تعليلٍ لهذه الحكمة التي تتدفَّقُ من فَمِه، غير مفترياتٍ وأكاذيبَ يرمونه بها، فقالوا -من ضمن ما قالوا-: إنه يتعلَّمُ من غُلامٍ نصراني في مكَّة، كان حدَّادًا يعملُ في صناعة السيوف، وكان يقرأُ من التوراة والإنجيلِ بلسانٍ غير اللِّسَان العربيِّ...

وقد سَخِرَ القرآن من هذه الفِرية، وتولى تفنيدها بصورةٍ معجزةٍ في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ومعنى الآية باختصار: كيفَ يقولونَ ذلك واللُّغَةُ التي يقرأ بها هذا الحدَّاد لُغةٌ أعجميَّة، بينما لسانُ محمدٍ ﷺ لسَانٌ عربيٌّ مبينٌ!!

وَنُلاحِظُ أنَّ تفنيدَ القُرآن لهذا الاتِّهام لا يتمُّ إلَّا إذا أقرَّ العقلُ بمُسَلَّمةٍ تاريخيَّةٍ هي أنَّ التوراةَ والإنجيل لم يُترجَم أيٌّ منهما إلى اللُّغةِ العربيَّة في ذلكُم الوقت، وهذه المُسَلَّمة تُشَكِّلُ حَجَر الزَّاوية في استدلالِ القرآنِ على بطلانِ هذا الافتراء، إذ لو افترضنا وجودَ ترجمةٍ عربيَّةٍ لهذين الكتابين الإلهيين في شبه جزيرة العرب في عصر محمدٍ ﷺ، فسوفَ ينهارُ الاستدلالُ من الأساس، ويتمكَّن المشركون من قلب حُجَّة النبيِّ ﷺ رأسًا على عقب، ولكان لهم أن يقولوا: إنَّكَ تنقلُ عن روميٍّ يقرأُ هذه الكُتُب في ترجمةٍ عربيَّةٍ، وليس من نصٍّ أعجميٍّ، فلا حُجَّة لك فيما تقول..

ولحضراتكم أن تتأمَّلُوا الثِّقةَ المُطلَقَة التي كانت تملَأُ جوانحه ﷺ وهو يواجه القوم ويتحدَّاهم باستحالةِ أن تكونَ اللُّغةُ العربيَّةُ قد عرفت ترجمةً عربيَّة لهذين الكتابين في ذلكم الوقت.

ولم يكد ينتصف القرن العشرون بأبحاثِه الأوربية المتعمِّقة في تاريخِ الأديان، حتى قرَّر علماءُ الغرب المختصُّون في هذا الحقل من حقول المعرفة أنَّ أوَّلَ ترجمةٍ عربيةٍ للتوراةِ والإنجيل ظهرت بعد وفاة محمدٍ ﷺ بمائةٍ وخمسينَ عامٍ على الأقل، وإذن فكيف علم هذا النبي الأمي علم اليقين هذه المُسَلَّمة التي أثبتتها أبحاثُ القرن العشرين! بل كيف واجهَهُم بأمرٍ كهذا يتطلب إثباته مسحًا شاملًا دقيقًا لكل ما هو مكتوب باللغةِ العربيةِ في جزيرة العرب! وبخاصةٍ ما هو موجود منها في الأديرةِ والمعابد في بلادِ الشَّام لو لم يكن هذا الذي يقوله وحيًا من اللَّه الذي لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السَّماء.

الحَفْلُ الكَـريم..

كان من المتوقَّعِ أنْ تجيءَ الآياتُ الأولى من القُرآنِ الكَريم مُوقِظَةً لفطرةِ الإيمانِ باللَّهِ تعالى؛ إذ هي أصل الأصول في الأديان، بل الأصل الذي لا يثبتُ في غيابه أصل آخر، لكن وجدنا القرآنَ يبدأُ رسالته للناس بقرع أجراس العلم والمعرفة في آذانهم وعقولهم أوَّلًا، ليتنبَّهوا -بعد ذلك- إلى أنَّ أمرَ العقيدةِ في الإسلام إنَّما يتأسَّسُ في المقامِ الأوَّل على «العِلْم» والنظر العقليِّ، وليس على «التسليم القلبي» الخالي من حُجَجِ العقل واستدلالاته.

وقد تعلَّمنا في الأزهر الشَّريف أن إثباتَ وجود اللَّه تعالى يعتمدُ أولَ ما يعتمد على دليل العقل وما يتطلبه من نظرٍ ومقايسةٍ واستنباط، وأنه لا يعتمدُ -أولًا وبالذات- على دليل النقل، بل على العقل الذي هو مناط معرفة اللَّه سبحانه وتعالى، والأساس الذي يعتمد عليه القرآن في خطابه للناس، وتكاليفه الشرعية؛ سواءٌ في العباداتِ أو المعاملات، وهذا هو سرُّ تكرار

كلمتي «العقل والعلم» لفظًا ومعنًى واشتقاقًا ٨٦٥ مرة، وهو ما لا نجدهُ لأية مفردة أخرى من مفردات القرآن سوى «العلم والعقلِ والمعرفة».

على أن تنويهَ القرآن بطريق العقل في تحصيل الإيمان باللّه تعالى، لا يعني أنه أهملَ طريق الفِطرة، والتي هي: الشعور الدافق القوى والميل الجارف الذي يدفع الإنسان دفعًا نحو الإقرار بوجودِ إلهٍ خالقٍ للكون ومُدَبِّرٍ له.

هذا الشعور الذي يُمثِّل قدرًا مشتركًا بين الناس جميعًا لا يخلو منه أحدٌ من الناس منذ بدء الخليقة وإلى أنْ يَرِثَ اللّهُ الأرض ومن عليها، يشعر به الصغير والكبير، والعالم والجاهِل، والمتحضِّر والمتخلِّف، ويستوي في الإحساسِ به الفيلسوف والخامل البليد: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

غير أنَّ الفطرةَ وإنْ كانت الطريق الأقرب لمعرفة الإنسان بربه، إلَّا أنَّها كثيرًا ما تعرض لها عللٌ وأمراضٌ معنوية، وصوارفُ اجتماعيَّة وبيئيَّة تفسدها وتقعد بها عن دورها الخطير في حياةِ الإنسان.. وتأتي في مُقدِّمة هذه العِلَلِ والصوارف وسوسةُ الشياطين وغوايتُهم، ثُمَّ تتلوها أمراضٌ أخرى؛ كإلحادِ الأبوين وضلالهما، واضطراب الوسط الفكري والعقلي، وطُغيان المادَّةِ، وعبادةِ الجسد، وتأليهِ الإنسان، والاعتداد بالدُّنيا ونسيان الآخرة.

وقد نبَّهَنا النبيُّ ﷺ إلى ذلك في الحديث القُدسيِّ الذي يقول اللّه تعالى فيه: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ (أي: حوَّلتهم) عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**»(١). لذلك كان خطابُ العقلِ في القُرآنِ هو الخطاب المُعَوَّل عليه تكليفًا وثوابًا وعقابًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه، وانظر في ذلك مبحث الاستدلال على وجود اللّه تعالى في كتابنا: مقومات الإسلام: ص ٢٩ وما بعدها. ط. الحكماء للنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٩م.

الحَفْل الكريم . .

أعلمُ أنَّ هذه المُقدِّمة قد طالت ربَّما أكثر مِمَّا ينبغي، وعُذري أننا نحن المُنتسبين إلى العلم وأهلِه مأمورونَ بالتذكير، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ الذي أمره ربه بذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ٩-١٠].

والذي أُذكِّرُ به نفسي وإيَّاكم في هذه المناسبةِ الطيبة هو: أنَّ العلمَ والعقل اللذين بَنَى عليهما الإسلام أمرهُ منذ أول كلمةٍ فيه، وجعلهما مناط تكاليفه كُلِّها، كبيرة كانت أو صغيرة، أوشَكَ -هذا العلم وهذا العقل- أن يخلَى مكانه في حياتنا المُعاصرة إلى أخلاطٍ من ظنونٍ وأوهامٍ وتخيلات، استبدَّت -أو كادت- تستبدُّ بالعقول، وبطريقة التفكير، وبمنهجِ البحث عن الحقيقة، وتؤثِّر على مجتمعاتنا سلبًا وارتيابًا وشكوكًا، بل تُؤثِّرُ على استقرار الشعوب وتماسكها الذي هو الشرط الأساس في نهضة الدولِ ونمائِها وتقدمِها . . ومِمَّا يُتألَّمُ له أشدَّ الألم أن صارت الظنونُ والأهواءُ هي فيصلَ التفرقة في التعرُّف على الحقِّ والباطل، والخطأ والصَّواب، وأصبح اللَّبس والغبش الذي تثمره هذه الظنون هو الحقَّ الذي لا حقَّ سواه، حتى صار المتمسكُ بمعيار العقلِ والمستضيءُ بمنطقهِ وقواعدِه يشعُر بغربةٍ مُوحِشَةٍ من شِدَّةِ ما يتناثر على طريقِ الحقِّ من أغاليطَ ملتوية وشبهاتٍ مظلمة وتعميماتٍ كاسحة لو خُلِّي بينها وبين نور الدَّليل وسطوع البُرهان لانْمَحَقَ زيفُها وبَهْرجُها، وانقطع ضجيج حناجر الصارخين بها، وقد صدقت الحكمةُ التي تقول: «إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه»، ولِلَّهِ دَرُّ الإمام الغزالي في كتابه: «**فيصل التفرقة بين الإسلام والزَّندقة**»[(١)] حين قال: «لو سَكَتَ من لا يدري لقلَّ الخلافُ بين الخلق».

---

(١) صفحة: ٩٣ (ط. دار المنهاج، جدة).

والقرآنُ الكريم يؤكِّدُ على هذه الحقيقة حين يأمرُ بسؤالِ أهل الذِّكر في الأمور التي تخفى على الناس، ولا يعلم حقيقتها إلا العالمون بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي موطنٍ آخرَ ينهى عن تحكيمِ الظَّنِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ويقول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

وقد حذَّر النبي ﷺ أمته من أن يتخذوا الظَّنَّ معيارًا يتعرَّفون به على حقائق الأشياء، ويُصدرون أحكامهم على أساسها، وكأنَّها الحقُّ الذي لا حقَّ غيره، فقال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»؛ مِمَّا يعني أن من يَركَنُ إلى الظَّن ويتخذه سبيلًا إلى العلم هو كذوبٌ أفَّاكٌ أثيم، وأخطرُ ما يتكشَّف عنه هذا المنهجُ المغلوط هو شيوع الشحناءِ والبغضاء والتخوين الذي هو آفةُ الآفات في إيغار الصدورِ، وتفكُّكِ أواصِر المجتمعِ وذهاب ريحه.

أيها الحضور الكَريم..

لا مفرَّ لنا من الاتِّحاد والوَحدة والالتفاف حول قضايانا الوطنيَّة، وكلِّ ما هو متعلِّق بمصيرنا ومستقبلِنا، وليس أمامنا إلَّا العمل على تفويت الفُرصة، وبشتَّى الطُّرق، على المُتربِّصين بالعربِ والعروبة من أعدائِهم في الخارج وأعوانِهم في الدَّاخل، ولم يكن العرب والمسلمون بحاجةٍ إلى الوقفة الجادَّة والكلمةِ المسؤولة بمثل ما هم عليه اليوم، فقد بدأت الغيوم السوداء تلوحُ في الأفق، وإن هبَّت العواصف -لا قدَّر اللَّه- فإنها لا تبقي ولا تذر، فعلى العابثين بمصائر الأُمَّة أن يُقدِّروا حجم الخطَر الذي يؤدي إليه هذا العبث وسوءُ التقدير في وزن مصائر الأمور.

سِيادَة الرَّئيس . .

إنَّني إذْ أُعَبِّرُ عن الأزهَرِ الشَّريف بهيئاتِهِ وعُلَمائِهِ وطُلَّابِه الوافدين عليه من أبناء المسلمين من أكثرَ من مائة دولةٍ حول العالَم - أتقدَّم لسيادتكم بالشُّكرِ الجزيلِ وبالغ الاعتزاز والتَّقدير لدعمِكُم المتواصِل للأزهرِ، وحِرصكُم على تمكِينه من تحقيقِ رسالَتِه المحليَّة والعالَميَّة في تبيينِ حقائق الإسلام وإنسانيةِ شريعته، ونَشْر ثقافَة السَّلام في الشَّرقِ والغربِ، هذا الأزهر الذي وهبه اللَّه لمصر وأكرمها به فاحتضنتهُ، ودَعَمَتْهُ، ومكَّنتهُ من أداء رسالته العالَميَّة التي حافظَ فيها على هُويَّةِ الأُمَّة وتُراثِها ومنهجِها العلميِّ المستقيم، حتى أصبحَ مثابةً تهوى إليه أفئدة المسلمينَ من شتَّى بِقاع العالَم.

وقبلَ أنْ أختمَ كَلِمَتِي، أتوجَّهُ إلى اللَّهِ العليِّ القدير أنْ يُغدِقَ سحائبَ رَحْمَتِه ورضوانِه على شُهدائِنا الأبرار من أبطالِ القُوَّاتِ المُسَلَّحة والشُّرطةِ المصريَّة والآمنين من المواطنين، وأنْ ينتقمَ مِمَّن غدرَ بهم في الدُّنيا قبل الآخرة، وأن يديمَ على أهْليهِم وذَويهِم الصَّبرَ الجميل، وأن يعوِّضهُم خيرًا في دنياهُم وآخرتهم، وأن يعيننا على الوفاء لهم والقيام بحقوقهِم.

سِيادَة الرَّئيس، كل عام وسيادتكم والحفل الكريم بخير وعافية.

حفظكم اللَّه لمصر وحفظ مصر بكم، وشُكرًا على حُسْنِ اسْتِماعكُم.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

أعلن شيخ الأزهر في نهاية الحفل تقدُّم الأزهر الشريف إلى السيد رئيس الجمهورية بمشروع قانون لمكافحة الكراهية والعنف لإحالته إلى السلطة التشريعية لاتخاذ إجراءات استصداره.

ليلة القدر

ذِكرَى نزول القرآن وتحدِّيات الحداثة(*)

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

الحفل الكريم..

السَّلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته

وبعد:

فإنَّ ليلةَ القَدْرِ هي -فيما يقول اللّٰه تعالى- ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهر. ولا خلافَ بين علماء الإسلام في أن القرآنَ نزل في ليلة القَدْر، وأنَّ ليلةَ القدر هي إحدى ليالي شهر رمضان، وهذا هو ما اتفق عليه العُلَماء لا خلاف بينهم فيه ولا جدال، وإن كانوا يختلفونَ فيما عدا ذلكم اختلافًا يتَّسِعُ له الفَهْم والتأويل، وتحتمله ظواهر النُّصُوص القرآنية احتمالًا قريبًا أو بعيدًا:

فهل نزل القرآن كلُّه في ليلة القدر؟ أو كان ابتداء نزوله في هذه الليلة، ثم تتابع تنزُّله بعد ذلك على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، هي مجمل فترة نزول القرآن على رسول اللّٰه ﷺ؟ وهل ليلة القدر ليلةٌ واحدةٌ في هذا الشهر الكريم، أو أكثر من ليلةٍ من لياليه؟ وإذا كانت ليلة واحدة، فأيةُ ليلةٍ هي؟ وهل ما اعتاده المسلمون من تحرِّيها في ليلة السابع والعشرين من رمضان أمر مقطوع به شرعًا، أو هو من الأمور المظنونة المرجوحة؟ وهل القَدْرُ مأخوذ

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بليلة القدر، بقاعة مؤتمرات الأزهر، القاهرة، في: ٢٦ من رمضان، سنة: ١٤٣٩هـ، الموافق: ١١ من يونيو، سنة: ٢٠١٨م.

من «التقدير»، أي: «تحديدِ خطة العمل التي سيتبنَّاها نبي الإسلام ﷺ في إنقاذ الناس مما كانوا فيه، أو مأخوذ من معنى «العظمة والشَّرف» من قولهم: «فلانٌ له قَدْر»، أي: له شرفٌ وعظمة؛ وأن اللَّه عظَّم قَدْر نبيِّه في هذه الليلة وشرَّفه بتبليغ رسالة الإسلام للناس؟»[(١)] إلى آخر هذه المسائل التي لا يعلمُ حقيقة الأمر فيها إلَّا علَّام الغيوب.

وأيًّا ما كان أمر هذه التساؤلات، فإن الدرس الذي يجبُ أن يستخلصه المسلم في ذكرى هذه الليلة ليس ما هو درج عليه المسلمون من رصدها أملًا في إجابة الطلبات وتحصيل أمور الدنيا وتحقيق الأغراض والمصالح، بل الدرسُ هو: نزول القرآن في هذه الليلة فُرقانًا بين الحق والباطل، وتمييزًا للخير من الشر، وبيانًا للمباح والمحظور[(٢)]، وبدايةً لعهدٍ جديدٍ أصبح الإنسان فيه خليفةً عن اللَّه تعالى في عمارة الكون وتسخيره، ومسؤولًا مسؤولية كاملة عن السير على منهج اللَّه من أجل إقامة العدل والحكم بالحق، وتطبيق المساواة بين الناس، ودفع البغي والعدوان والظلم والتظالم بينهم.. وهذه هي أبرز القِيَم التي يرتفع بها مجتمع أو يهبطُ بدونها مجتمعٌ آخرُ في منطق القرآن وفلسفة الإسلام.

هذا القرآن هو الكتابُ الإلهيُّ الذي شكَّل حِصْن الأمة، وكان -وسيظل- دِرعَها الواقي، وسياجها الفولاذي الذي حماها -على طول تاريخها- من السقوط والانسحاق والذوبان. وانظروا أيها السادة الأجلاء إلى أعتى حضارتين عرفهما التاريخُ في عصر ظهور الإسلام، وهما الحضارة الفارسية

---

(١) من «تفسير جزء عم» للإمام محمد عبده، ص ٩٨-٩٩ من سلسلة كتاب الشعب رقم: ١، ١٩٥٧م، «بتصرف».

(٢) انظر ما كتبه الأستاذ العقَّاد، عن ليلة القدر في كتابه: «الإسلام دعوة عالمية»: ٥٧ كتاب الهلال ١٩٧٠م.

والحضارة البيزنطية، أو دولةُ الأكاسرة في الشَّرق، ودولةُ القياصرة في الغرب، وكانتا حديث الدنيا قُوَّةً وصراعًا واستعمارًا للأرضِ، حتى لم تكد بقعةٌ من بقاعِ جنوب جزيرة العرب وشمالها، ومن بقاع وادي النيل، لم تخلو من سيطرة جيش من جيوش إحدى هاتين الدولتين، ولم تكن هاتان القوتان تتحسبان لأيِّ خطرٍ يأتيهما إلَّا من خطر إحداهما على الأخرى، غير أن ما حدث لهاتين الدولتين يومئذٍ كان أمرًا من أعجب العجب، فيما يقول مؤرِّخو الحضارات، فقد جاءهما الخطر من قلب الجزيرة العربية، ومن جيشٍ مجهولٍ قليل العدد، ضعيف العتاد فقير السلاح.. ولم تمض بضع سنين حتى هُزمت الدولتان أمام هذا الجيش، وأصبحتا أثرًا بعد عينٍ، بينما بقيَت حضارة المسلمين تتحدَّى الزَّمن وتُراهن على البقاءِ والتشبثِ بالوجود، رغم تلاحق الضَّربات، ومحاولات التَّمزيق والتَّفريق، وطمس الهُويةِ، وإثارة الفِتَن، وإشعال الحروب.

وقد قيل الكثير في تعليل انهيار القُوَّتين العظميين، وانتصار الإسلام وانتشارِه في الأرضِ غربًا وشرقًا، حتى ساد العالَم كلَّه ولم يمض على ظهوره ثمانون عامًا.

ومع أن أسبابًا كثيرةً قيلت في تفسير هذه الظاهرة النادرة؛ إلَّا أن السبب الحقيقي الذي حرص أعداءُ الإسلام على إخفائه واستبعاده هو هذا «القرآن الكريم» الذي كان بأيدي هذه القِلَّة الضعيفة: يعرضون قِيَمه وأخلاقَه على الناس، فيُسارعون إليه فرارًا من رَهَقِ الظُّلم والعبودية، والتمييز والطبقية والعنصرية التي لبست رداء الدِّين زُورًا وبهتانًا، وغيرِ ذلك من أمراض الدول العظمى في ذلكم الوقت، والتي كانت تَنخُرُ في بنيانها العميق؛ قبل أن يجيئها أمر اللَّه فيجعلها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس.

لقد نزل القرآن في ليلة القدر ليُعلن احترام الإنسان ويؤكِّد تكريمه وتفضيله على سائر المخلوقات، ويفتح أمامه آفاق العلم وأبواب المعرفة بلا حدود، ويدفعه دفعًا للتفكير والنَّظرِ والبحثِ والتأمل، بعدما حرَّر فيها عقله من أغلال الجهل والجمود والتقليد، والاتِّباع الأعمى بغيرِ حُجَّةٍ ولا دليل.

كما أعلن القرآن تحرير المرأة، وأعاد لها ما صادرته عليها أنظمة المجتمعات في ذلكم الوقت من حقوقٍ لا يتَّسِعُ المقامُ لتعدادِها وبيانِها. وجاء بفلسفةٍ جديدةٍ للحُكم تقوم على العدل والمساواة والشُّورى ومنع الاستبداد: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وجاء القرآن بأمهات الفضائل وجوامع الأخلاقِ والآداب، وقرَّر المسؤولية الفردية ومسؤولية المجتمع كذلك، ومع أنَّ القرآنَ قد أقرَّ سُنَّة التفاوت بين الناس في العلم والخُلُق والرِّزق والمعيشة، إلَّا أنه هَدَم العصبية وأتى على بُنيانها الجاهلي من القواعد، فساوَى بين الناس ولم يُفرِّق بين إنسانٍ وإنسان، ولا بين جنسٍ وجنس، ولا بين أمةٍ وأمةٍ إلَّا بالعمل الصالح، وكان التعدُّدُ والاختلاف بين عقائد الناس وألوانهم ولُغاتهم وسيلةً لتعارفهم واجتماعهم وتعاونهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهناك الكثير -أيُّها السَّادة الفُضلاء- مِمَّا نزل به القرآن الكريم في شؤونِ المجتمعات وفي العلاقات الدولية وفي أمر العقوبات وفي الأسرة وغير ذلك.. دع عنكَ ما يتعلَّق بالعقيدةِ والعبادةِ والمعاملاتِ بتنوعاتِها والغيبيَّات والدَّار الآخرة (١).

(١) لقد جمع الأستاذ عباس محمود العقاد هذه الأمور: في «الفلسفة القرآنية» وكُتب =

وكان أمرًا طبيعيًّا أن يتعرَّض القرآن على مدى أربعةَ عشَرَ قَرْنًا لحملات التشويه والازدراء وتنفير الناس منه، ولايزال يتعرَّض لهذه الحملات المضلِّلة في عصرِنا هذا، ومن بعض أقلامٍ ينتمي أصحابها إلى الإسلام، ممن يؤمنون بالمذاهب الأدبية النقدية في الغرب، وبخاصة ما يسمى بالحداثة وما بعد الحداثة، وهي مذاهب تقوم في صورتها الأخيرة على قواعد صنعوها، ومُسَلَّماتٍ اخترعوها اختراعًا؛ مثل: إلغاءِ كلِّ حقيقةٍ دينيَّةٍ فوقيَّة، والتمسُّكِ بالأَنسَنةِ أو الذَّاتيَّة الإنسانيَّةِ كمصدرٍ أَوْحَدَ للمعرفة أيًّا كان نوعُ هذه المعرفة، وأنَّ الإنسانَ وحده قادرٌ على أنْ يمتلكَ الحقيقة، وهو بعلمه المحدود -ورغم أهوائه وشهواته وتقاطعاته مع الغير- هو وحده معيار الحق والباطل والخير والشَّرِّ، ومقياس كلِّ حقيقة، ولا حقيقة خارج الإنسان، ولا توجد سُلطةٌ تعلو عليه أو على العالَم «حتى لو كانت هذه السلطة هي اللَّه تعالى»[(١)]، وهذا المذهب يستدعي معظم العناوين الاجتماعية الحديثة التي تتطاير غربًا وشَرْقًا، كالديموقراطية «وحقوق الإنسان والعلمانية، والدولة الليبرالية والملكية الفردية»[(٢)].

ومن مُسَلَّمات هذا المذهب التقاطعُ مع الدِّين ومع التُّراث، ونزع القداسة وتفكيكُ المقدَّس، وموتُ مُؤلِّف النَّص وموت غرضه ومقصوده معه، وتعدُّدُ القراءاتِ بتعدُّدِ القُرَّاء، ولكم أن تتساءلوا عن مصير نصٍّ كنصِّ القرآن الكريم -بأبَدِيَّاته وثوابته وغيبيَّاته- إذا ما تناولته القراءةُ الحداثية بهذا المبضع الذي لا يفرِّقُ بين إلهٍ وإنسانٍ، ولا بين غيب وشهادة.. ولا بين

= أخرى من «إسلامياته».

(١) «القراءة الحداثية للنص القرآني» لمحمد سالم النعيمي: ٧، «بتصرف» ط. القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع ٢٠١٥م.

(٢) «الإسلام بين الحداثة وما بعد الحداثة» لجميل حمداوي، . دار التنوير. الجزائر ٢٠١٤م.

مقدَّس ودَنِسٍ. . ألا يُطلب من المسلمين آنذاك أن ينفضوا أيديهم من هذا الكتاب الذي لم يَعُدْ وحيًا إلهيًّا صالحًا لكلِّ زمانٍ ومكان؟!.

وآخر ما حملته إلينا الأنباء ونحن نحتفل بنزول القرآن الكريم من ثمرات الحداثة المُرَّة، البيان الذي صدر بعنوان «المسيرة البيضاء» في الغرب الأوروبي بعد مقتل سيدةٍ فرنسيةٍ يهودية مُسِنَّة تبلغ من العُمر خمسة وثمانين عامًا في شقتها، ورغم ما في البيان من إشاراتٍ سلبيةٍ واضحة للإسلام والمسلمين يمكن التغاضي عنها من كثرة ما تردَّدت على مسامعنا وتكرارها، إلَّا أن الذي لا يمكن التغاضي عنه عبارةٌ وردت في البيان تُطالب السُّلطاتِ الدِّينيَّةَ الإسلاميَّة: «بأن تُعلن أنَّ آيات القرآن التي تدعو إلى قتل اليهود والمسيحيين وغير المؤمنين ومعاقبتِهم قد عفى عليها الزمن، -كما كان حال التناقضات في الإنجيل- وهذه عبارة البيان- ومعاداة السامية التي تتبنَّاها الكنيسةُ الكاثوليكية من قِبل المجلس الفاتيكاني الثاني؛ بحيثُ لا يستطيعُ أيُّ مؤمنٍ الاستناد إلى نصٍّ مقدَّسٍ لارتكاب الجريمة».

وأُبادر بالقول بأن هذه الجرأة على مُقَدَّساتِ الآخرين هي من أقوى أسباب الإرهاب وأشدِّها، بل هي أقوى مشجعٍ على إهدار دماء الآمنين، ويَحْزُنُني كثيرًا ألا ينتبه قائلو هذا الكلام إلى كمِّ الحقدِ والكراهية الذي يتركه كلامهم في قلوب أكثر من مليارٍ ونصف المليار ممن يقدِّسُون هذا الكِتاب، وقد رجعنا إلى مضابط الفاتيكان فلم نجد حذفًا ولا تجميدًا لأيِّ حرفٍ من الكتاب المقدس، وما وجدناه هو: أن المجمع الفاتيكاني وإن كان يُقرُّ بأن بعض اليهود من ذوي السلطان وأتباعهم هم المسؤولون عن قتل المسيح، إلَّا أنه يرى أن ما اقترفته هذه الأيدي الآثمةُ لا يمكن أن يُنسَب لليهود كافة في عصر المسيح عليه السلام، ولا في عصرنا الحاضر، ثم يطالب المجمع سائر الكنائس بأن تراعيَ هذه الروحَ وهي تُعلِّم الإنجيل أو تَكْرِزُ به.

وما نقوله إزاء هذا البيان هو أنه :

لا توجد آيةٌ واحدةٌ في القرآن الكريم تدعو إلى قتل اليهود والنصارى، وليس في هذا الكتاب الكريم مكانٌ لمثل هذه القسوة الوحشية . . وما ورد في القُرآن من آياتٍ تدعو إلى القتال فإنما ورد في شأن العدوان ووجوب التصدِّي للمعتدي ومقاتلته، حتى لو جاء هذا العدوان من بعض المسلمين على بعض : ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩].

ولماذا يأمر القُرآن بقتل النصارى واليهود؟ وأي شيء يدعوه إلى ذلك؟ هل لإجبار المسيحيِّين واليهود على الإسلام؟ وكيف يقول عاقلٌ بذلك؟! وماذا نَصنع بالآية التي تقرعُ أسماع الجميع بأنه : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؟ بل كيف نَصنع بالحديث النبوي الشريف في قوله : «وأَنَّهُ مَنْ كَرِهَ الْإِسْلَامَ مِنْ يَهُودِيٍّ، أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ لَا يُحَوَّلُ عَنْ دِينِهِ. . .»؟ هل يأمر بقتال اليهود والنصارى لأنهم «آخَرُ» مُغاير من الأميين؟! وكيف؟ والقُرآنُ يأمرُ بالبرِّ والقِسط مع كلِّ مَن لا يُقاتل المسلمين حتى لو كان وثنيًّا! كيف والمنصفون من اليهود أنفسهم يُقرُّون بما نعموا به من العيش الآمن مع المسلمين ويعترفون به للدولة الإسلامية في الأندلس وفي مصر وغيرهما .

ثم إن الإسلام لم يأخذ اليهود المعاصرين بجريرة الأسلاف، ولم يخاطب يهود المدينة بخطاب واحد، بل كان في غاية الدِّقة وهو يتحدث عن اليهود بحسبانهم أمةً فيها البر والفاجر مثل سائر الأمم بما فيهم المسلمون . . وقد سمع يهود المدينة بآذانهم هذه التفرقة المنصفة بين المحسن والمسيء من أهل الكتاب في قوله تعالى : ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥]،

كما سمعوا قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ثم يقول اللَّه تعالى في الآية التي تليها مباشرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

ثم إن الوصف باللَّعنة والذلة والغضب في القرآن الكريم لم يكن مُوجَّهًا لليهود جميعًا كما يُريد البيان أن يتهم به القُرآن.. بل كان مُوجَّهًا للذين كفروا من أهل الكتاب بالتوراةِ والإنجيل وباللَّه: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم يقول القُرآن: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، ولم يَقُل لُعن بَنُو إسرائيل، ويقول القُرآن: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

الحفل الكريم..

لم تكن بنا حاجةٌ في هذه الذكرى إلى هذا التعقيب الموجز على البيان المذكور لو كان لدى من كتبوه ونشروه قَدْرٌ من الشجاعة في الاعتراف: بأن اليهوديَّةَ شيءٌ والصهيونية شيء آخر، وأن اليهود شيء والكيان الصهيوني شيء آخر، وأنه لا يلزم من نقد الكِيان الصهيوني نقدُ اليهود والدِّين اليهودي، وأن مسألة «عداء الساميَّة» هي أكذوبةٌ لم تعد تَنطَلي على الشعوب الآن.

وما أقوله الآن هو كلام بعض الحاخامات الأفاضل من حركة ناطوري كارتا ممن حضروا معنا مؤتمر الأزهر العالمي لنصرة القدس وجاؤوا وأعلنوا هذا الذي سمعتموه مني الآن، بل أعلنوا أكثر مما سمعتموه.

وعزائي كمسلم أن الذين أصدروا هذا البيان أغلبهم من صُنَّاع السياسات وليسوا من صُنَّاع العقول ولا المعارف.

سيادة الرئيس..

كلُّ عام وحضراتكم بخير وعافية وسعادة.. وأسأل اللَّه تعالى لسيادتكم المزيد من التوفيق والسداد، وأن يعينكم على أمركم، وأن يمُدَّكم بمددٍ من عنده، وأن يهيئ لكم البطانة الصالحة المخلصة للَّه وللوطن من أُولي الأمر من حولكم.

أعتذر عن الإطالة وشكرًا لكم، وكُل عام وأنتم بخير.

والسَّلامُ عَلـيْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

* * *

حضارة القرآن..
والإسلاموفوبيا(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاة والسَّلام على سيدِنا رسول اللَّه، وعلى آلِه وصَحبِه ومَن اهتَدى بِهُدَاه.

الحَفْـلُ الكَـريم..

السَّلام عليكُم ورحمة اُللَّهِ وبركاتُه

يَطيبُ لي أنْ أبدأَ كلمتي بأنْ أتقدَّمَ إليكُم، سيادَةَ الرَّئيس، ولشعب مصر الأبيِّ، ولعالمنا العربيِّ والإسلاميِّ: قادةً وشعوبًا، بأصدقِ الأماني وأخلص التهاني بهذه المناسبةِ الكريمة؛ مناسبةِ الاحتفالِ بليلةِ القَدْر، ليلةِ تنزُّل القرآن الكريم من اللَّهِ تعالى على قلبِ نَبيِّه محمَّد ﷺ ليُبَلِّغه للناسِ، مِصْبَاحًا يُنير لهم طريق الحق والخير، ويهديهم به سُبُل السَّعادة في الدُّنيا والآخرة..

هذا، وإنَّ الحديثَ عن القرآن الكريم -الذي هو آخرُ التنزُّلات الإلهيَّة- حديثٌ لا يستوعبه الزَّمان ولا يحصُره المكان؛ لأنَّه يتعالى فوقَ الزمانِ وفوقَ المكانِ، ويتسامى إلى ما بعد العقول، ويذهبُ بعيدًا إلى ما وراء التَّاريخ ومطارحِ الوهمِ والخيال.. وقد تكفَّل اللَّه -سبحانه وتعالى- بحفظِه وصيانتِه وحِراسَتِه، ولم يترك أمر ذلك إلى أحد من البشر، لا من الأنبياءِ ولا من غيرهِم.

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في الاحتفال بليلة القدر، بقاعة الأزهر للمؤتمرات، في: ٢٨ من رمضان، سنة: ١٤٤٠هـ، الموافق: ٢ من يونيو، سنة: ٢٠١٩م.

وكما تفرَّد اللَّه تعالى بتنزيله تفرَّد بحفظِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والعارفون بالقرآن وبأسرار بلاغتِه يُدركون ما اشتملت عليه هذه الآية القصيرة من أساليب التأكيد بالحروف، وبالإظهار في موضع الإضمار، وقد صدق اللَّه وعده فقيَّض لهذا الكتابِ من وسائلِ الحفظِ في الصُّدورِ وفي السُّطور ما لم يُقيَّض لأيِّ كتاب آخر من الكُتُب، وقد مرَّ على نزول هذا القرآن ما يقرُب من خمسة عشر قرنًا من الزمان، وجيوشُ المتربِّصين به ساهرةٌ تلتمسُ فيه العيوب وتُفتِّشُ عن الهفوات، إلَّا أنَّ أحدًا منهم لم يظفَر ببُغيته، ولم يستطع أن يُسَجِّلَ عليه هفوةً واحدة يأباها العقلُ السَّليم، أو انحرافًا تَضِيقُ به الفِطْرة، أو خطأً واحدًا يَصدِمُ ثوابتَ العلم وتجاربَه المستقرَّة.

هذا الكتابُ الكريم حرَّر ضميرَ الإنسان من عبادة الأحجارِ والحيوانات والأشخاص، وخَلَّص عَقْلَه من الأوهامِ والأساطيرِ والخرافات، وتسامى بنفسِه ومشاعرِه فوق رَهَق المادَّة وعبوديَّة الغرائِز، وإغراءِ الشَّهواتِ واسترقاقاتها.

هذا الكتاب المجيد صنع رجالًا، بل صنع أمةً نقلها -على ضعفِها وبساطتِها ورثاثة حالها- من المحليَّةِ إلى العالميَّةِ في غضونِ عقودٍ قليلةٍ، واستطاعت أن تنشرَ في شرقِ الدُّنيا وغربِها حضارةً لايزالُ دَيْنها ثقيلًا في أعناقِ صُنَّاعِ حضارة اليوم، ورموزِها وفلاسفتِها وعلمائِها ومفكِّريها، وكانت حضارةً مُعجزةً بِكُلِّ المقاييس، لايزال علماء التاريخ في الغرب قبل الشرق في حيرةٍ من أمرِ تفسيرِها.

والحديث عن هذا الدِّيْن الحضاري الإسلامي الذي يُجازَى أهلُه اليوم جزاء «سينمار» حديثٌ طويل، وهو أقربُ إلى أن يكونَ حديثًا عن طبيعة «اللِّص» الذي يعيشُ على مقدَّرات النَّاس، ثم يكره أن يذكرهم بكلمةِ شُكرٍ أو تقديرٍ، أو عِرفانٍ بالجَميل.

وأنا أقصدُ هُنا جزاء الأُمَّة العربيَّة والإسلاميَّة في مرآةِ الغرب الحديث، وما تمخَّضت عنه قيمه الحضارية في باب سداد الديون، والاعتراف بالجميل لأصحابِه.. أقصدُ هذا المصطلح الكريه الذي نجح في تصويرِ الإسلام بصورةِ الدِّين المتعطِّش لسَفْكِ الدِّماء، ومُطالبةِ العالَم المتحضِّر بتعقُّبه والإجهازِ عليه أنَّى وجدَه في غربٍ أو شرق.. أتحدَّثُ عن «الإسلاموفوبيا»..

تلكم الكلمة اللقيطة والتي ما فَتِئ علماء المسلمين ومفكروهم الأحرار يفنِّدونها، ويكشفونَ عن زيفِها وتهافتِها منذُ أكثر من خمسة عشر عامًا في ندواتٍ ومُؤتمراتٍ وأوراقٍ علميَّة ونقديَّة وحواراتِ الأديان والحضارات، دون أيَّةِ ثمرةٍ تُذْكَر في لجمِ الآلة الإعلاميَّة الغربيَّة، وردعِها عن غرسِ كراهية الإسلام في عقولِ الشعوبِ الأوروبيَّة والأمريكية وقلوبهم، وبأساليبَ مُتعدِّدةٍ ما بين أفلام وبرامج وكُتُب وروايات وصُحُف ومجلَّات وغيرها..

وهذه الكلمة، التي تَعني: «التخويف من الإسلام» أو «صناعة التخويف من الإسلام»، ما كان لها أن تتجذَّر في ثقافة السِّياسيين والإعلاميِّين الغربيِّين، ثُمَّ في وعيِ جماهير الغرب لولا التمويلُ الضَّخم المخصَّصُ لدعمِ الاستعمار الحديث وسياستِه في الهيمنة والتوحُّش والانقضاضِ -الجديد- على ثروات العالَمَيْن: العربي والإسلامي، بل لولا تقاعُسنا -نحن العربَ والمسلمين- عن التصدِّي الجاد لمطاردةِ هذا المصطلح، والاحتجاجِ عليه رسميًّا وإعلاميًّا.

ومن المؤلِم أن أقول: إنَّ لدينا من الإمكانات الماديَّة والإعلاميَّة ومن هذا السَّيْل العَرِم من محطاتنا وأقمارنا الفضائيَّة ما يُمْكِن أن نُنْصِفَ به هذا الدِّين الذي ينتمي إليه أكثر من مليار ونصف المليار مسلم.. ولكنَّا آثرنا اهتماماتٍ أخرى زادتنا ضعفًا وهوانًا، وأطمعتْ فينا أُممًا تداعت علينا كما تتدَاعى الأكَلَة على قصعتِها.

إنَّنا حتى هذه اللَّحظة لا نسمعُ عن فوبيا المسيحيَّة، ولا فوبيا اليهوديَّة ولا البوذيَّة ولا الهندوسية، ويقيني أنَّه لن تجرؤ جريدة أو قناة أو برنامجٌ فضائيٌّ، لا في الغرب ولا في الشَّرق أيضًا، على مجرَّد النطقِ بفوبيا ما شئتَ من المِلَلِ والنِّحَلِ والمذاهب؛ فالعصا غليظةٌ وحاضرةٌ.. مع أنَّ التاريخَ يَشْهَدُ على أنَّ الأديانَ كلَّها نُسِبَت إليها أعمالُ عُنف، وأن من هذه الأعمال ما اقتُرف تحت لافتة ديانات كبرى في العالم.. وفي قلب أمريكا نفسِها، غير أنَّ المقام لا يتَّسِعُ لسَرْدِها..

وعلم اللَّه أننا لا نريدُ تأريثَ الأضغان، ولا بعث الكراهية بيننا وبين إخوتنا من أبناء الأديانِ والمذاهبِ في الغرب، فهذا ما يأباه علينا الإسلام، ولكنَّا أردنا فقط أن نتوقَّفَ عند نقطةٍ فارقةٍ يندُر إلقاء الضوء عليها من المسلمينَ وغير المسلمين؛ وهي: أننا حين نَذْكُر المجازر البَشِعَة التي تعرَّض لها المسلمون على أيدي أبناء الأديان الأخرى - فإنَّنا لا نُحمِّل الدِّين المسيحي ولا المسيحَ عليه السَّلام ولا موسى عليه السَّلام ذرَّةً واحدةً من المسؤوليَّة، ولا نَصِمُ دينًا من الأديان بوصمة الإرهاب والعُنف والتوحش، بل نظلُّ على وعيٍ عميقٍ بالفرقِ الهائل بين الأديان وتعاليمِها، وبين سماسرةِ الأديان في أسواق السِّلاح وساحات الحروب..

ونحنُ نعلمُ أنَّ المسلمينَ دَفَعُوا ثمنًا فادِحًا من دمائِهم وأشلائهم في الحروب الصليبيَّة، وفي فلسطين وما حولها منذ عام (٤٨) وحتى الآن، وكذلك في البوسنة والهرسك وفيتنام والفلبين والهند وميانمار ونيوزيلاندا، ومع ذلك لم يجرؤ مُؤرِّخٌ ولا كاتبٌ مسلم أن يتفوَّهَ بكلمةٍ واحدةٍ تُسيء إلى المسيحيَّةِ أو اليهوديَّةِ كأديانٍ إلهيَّةٍ؛ لأنه يَعْلَمُ أنَّ كلمةً واحدةً من هذا القبيل تُخْرِجه من الإسلام قبل أن تخرج من فمه.

ونقطة فارقة أخرى تظل حجر عثرة في طريق الحوار بين الإسلام والغرب هي: حرصُ رؤساء المسلمين وملوكهم وأمرائهم وعلمائهم ومفكريهم على إدانةِ جماعاتِ الإرهاب، بكُلِّ لافتاتِها وانتماءاتِها، والحُكْمُ الجازمُ عليهم بأنَّهم فِرَقٌ ضالَّةٌ مارقةٌ من الدِّين كما يَمْرُقُ السَّهم من الرمية، وأنَّ جرائمَهم ومجازرهم إنَّما تحصدُ من أرواح الأبرياء من الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفال المسلمين أضعاف أضعاف ما تحصده من غير المسلمين.. ومع ذلك لم يُفلح كلُّ ذلك في تصحيحِ صورة الإسلام والمسلمين في نظر الغرب وأمريكا؛ لأن المطلوب هو: «إدانةُ الإسلام» ورميُه بأفظع البذاءات والاتهامات، وتصويرهُ بأنه دينٌ قادمٌ من عصور الظَّلام، يُعادي المنطق والحداثة، وأنه النظام الثقافي الوحيد الذي ينتجُ القاعدة وداعش وأخواتِها وأبناءها وحفدتَها، وهو دينُ صُوَرِ الانتحاريين، واختطاف الطائرات، والاغتيالات والانتفاضات، إلى أوصافٍ أخرى يعفُّ اللِّسانُ والمقامُ عن ذكرِها.

سِيادَة الرَّئيس..

لقد سعدتُ وسَعِدَ الأزهر الشريف بعلمائه وطلابه وهو يستمعُ لحديثكم المتزن الهادئ الجريء، في مؤتمر القِمَّة الإسلاميَّة بمكةَ المكرَّمةِ أوَّل أمس، والذي لمستم فيه -بحكمة- جُرْحَ الأُمَّة النازف بسبب ما ابتُليت به من جماعات العُنف والإرهاب، في الشرق وبسبب «الإسلاموفوبيا» وأكاذيبها في الغرب، وطالبتم كلَّ المؤسَّسات المعنية بالتصدِّي لوباءِ الإرهاب، كما طالبتُم بوقفِ خطاب «الإسلاموفوبيا» وكراهية العرب والمسلمين، والذي لم يَعُد مقبولًا لا إنسانيًّا ولا حضاريًّا، فجزاكم اللَّه سيادة الرَّئيس عن الإسلام والمسلمينَ خير الجزاء.

والأزهرُ الشريف وهو يؤكِّدُ على ما طالبتم به -سيادة الرئيس- فإنه ليطالبُ أيضًا علماء المسلمين، ويطالب إخوتَهم من رجالات الكنائس في

الشرقِ والغربِ أن يبذلوا الجهود المنظمة من أجلِ مكافحة هذه الأكذوبة الماكرة الخدَّاعة، فما كان الإسلامُ يومًا إلَّا دعوة سلامٍ وتراحم بين النَّاس.

وفي نهاية كلمتي أوجه حديثي إليكم سيادة الرئيس:

إنَّ الأزهرَ الشريف لَيَعْلَم ويُقدِّرُ جَيِّدًا ما تبذلونه من جهودٍ كبيرةٍ من أجلِ تحقيقِ آمال شعب مصر وتطلُّعاتِه إلى عَيْشٍ كريمٍ، ومستقبلٍ أفضل، وعدالةٍ اجتماعيَّةٍ أرحب.

كما يُقدِّرُ جهودَكم في استعادَةِ مِصْرَ دورَها الرَّائد في محيطِها العربيِّ وفي المحيط الأفريقيِّ والإسلاميِّ.

وإنَّه لا يَخْفَى على أحدٍ ما تمرُّ به منطقتُنا العربيَّة والإسلاميَّة من مخاطرَ وظروفٍ صعبة تَستدعي استمرارَ جهودكم مع إخوتِكُم من حُكَّامِ العربِ والمسلمين للعبور بمنطقتِنا من هذه الفترة العصيبة ولتحقيقِ السَّلامِ والاستقرار للشُّعوب.

والأزهر الشَّريف بعلمائِه ورجالِه وطُلَّابه وانتشارِه في أفريقيا وجنوب شرق آسيا، ومكانتِه في نفوسِ العربِ والمسلمين لَيدعمكم -سيادة الرَّئيس- ويُقدِّرُ جهودكم ويَشُدُّ على أيديكم في هذه المرحلة الدَّقيقة.

نَسْأل اللَّه تعالى أن يُعينكم على تحقيقِ آمال مصر والمصريِّين، وأنْ يُوفِّقَكُم لما فيه خَيْر البِلاد والعِبَاد.

وكل عام وحضراتكم جميعًا بخير.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

* * *

كلمات

في التطرف والإرهاب

قراءة في ملف العنف(*)

ربَّما كانت «مصر» مِن أوائلِ البلادِ التي عانَت من عمليَّات العُنف في وقتٍ مبكر نسبيًّا، وذلك بالقياسِ إلى بلادِ منطقةِ العالم العربيِّ والشَّرقِ الأوسط، وكانَ أبرز مظهرٍ للعُنفِ في مصر آنذاكَ هو اغتيالُ الرئيسِ المصريِّ السَّابق «أنور السادات» عام ١٩٨١م.. ثم شهِدت مِصر بدءًا مِن صيفِ ١٩٩٢م مع بعضِ البُلدانِ العربيَّةِ كالجزائِرِ موجةَ عنفٍ غيرَ مسبوقةٍ في الفترةِ من سنة ١٩٩٢حتى عام ١٩٩٧م، وهو العامُ الذى شهِد انحصارَ ظاهرةِ العُنفِ إثرَ المواجهةِ الأمنيَّةِ الصَّارمةِ.

حتى ذلك الحين كانت النَّظرةُ إلى العُنفِ تختلفُ ما بينَ العالَم الغربيِّ - وبخاصة: أمريكا- والعالم العربي... ويُمكِنُ القولُ بأنَّه في عام ١٩٩٨م حدَثَ نوعٌ من التَّقارُبِ بينَ وجهتَي النَّظرِ، وذلك إثرَ تشكيلِ ما يُسمَّى «الجبهةَ الإسلاميَّة العالميَّة لقتالِ اليهودِ والصَّليبيين» والتي قيلَ إنَّها كانت وراءَ تفجيرِ السِّفارةِ الأمريكيَّةِ في كينيا وتنزانيا في أغسطس من ذلكَ العامِ.. ولكِن ظَلَّ التَّباينُ بينَ الموقفينِ واضحًا حولَ «عالميَّةِ» ظاهرةِ العُنفِ كما يراهُ العالَم العربيُّ، أو «مَحليَّتِه عربيًّا وإسلاميًّا» في التَّقديرِ الغربيِّ والأمريكيِّ..

وبينما رأى العالَمُ العربيُّ أنَّ أسبابَ هذه الظَّاهرةِ تكمُن أساسًا في عوامِلَ عدَّةٍ، مثل انحرافِ الجماعاتِ الإسلاميَّةِ عن الفَهم الصَّحيح للإسلام، ومُساندةِ البَعضِ لهذه الجماعاتِ ودعمِها ماديًّا وفكريًّا، إضافةً إلى سلبيَّةِ الغربِ وعدمِ جِدِّيَّتِه في تقديرِ ظاهرةِ العنفِ تقديرًا دقيقًا، وتجاهلِه

(*) محاضرة ألقيت في إحدى المنتديات بروما أيام رئاسة فضيلته للجامعة الأزهرية.

لتداعياتِها الخطيرةِ، بينما كانت هذه هي نظرةَ الغربِ للعُنفِ وأهلِه؛ فإنَّ النظرةَ التي سادَت دوائرَ الغربِ والإدارةَ الأمريكيَّةَ كانت تركز على عواملَ محليَّة عربية/ إسلامية. . في مقدِّمةِ هذه العوامِلِ: صَحوةُ الثَّقافةِ الإسلامية، والتَّخلُّف الاقتصادي وما يثمره هذا التخلُّفُ من مُشكلاتٍ اجتماعيَّةٍ وخَلَلٍ كبيرٍ في تَوزيعِ الثَّروةِ والخِدماتِ.

ومع هجومِ ١١ سبتمبر بدأت مرحلة جديدة اتَّحدت فيها النظرتان «الغربية والعربية الرسمية» وانطلقتا من فلسفةٍ واحدةٍ، تعاملت مع العُنفِ على أنَّه ظاهرةُ عنفٍ دوليَّةٍ، وخطرٌ يهدِّد العالم بأسرِه، وتأكَّدت هذه الفلسفةُ بعد تعهُّد الإدارةِ الأمريكيَّة بشنِّ الحَربِ على العُنفِ أينَما كانَ وحيثَما وُجد. وممَّا يَلفِتُ النَّظرَ أنَّ الإدارةَ الأمريكيَّةَ اتكأت كثيرًا على العناصِرِ التي سادَت النَّظرةَ العربيَّةِ في تحليلِ أسبابِ هذا العُنفِ، وما لبِثَت أن رجَعت بأسبابِ هذه الظَّاهرةِ إلى أنَّ الثَّقافةَ الإسلاميَّةَ تنطوي على جُذورٍ مذهبيَّةٍ وفكريَّةٍ تبعثُ على العُدوانِ وتُشجِّعُ على العُنفِ، وأنَّ دولًا عربيَّةً وإسلاميَّةً تقِفُ وراءَ إحياءِ هذه الجُذورِ والعَناصِرِ العُدوانيَّةِ، وبعثِها مِن جديدٍ في صورةِ إرهابٍ منظَّمٍ مدعومٍ، هذا في الوقتِ الذى ظَلَّت فيه الفَلسفةُ العربيَّةُ ثابتةً على موقِفِها السَّابقِ مع التَّركيزِ على إلقاءِ الضَّوءِ على عُنصرينِ هامَّينِ جديدينِ، هما: السِّياسات القمعيَّةُ التي انتهجتها إسرائيل مؤخرًا ضِد الفلسطينيين، والاحتلالُ الأمريكي للعراق، وإن كان الحديث عن الاحتلال الأمريكي كثيرًا ما كان يبدو على استحياء.

وأغلبُ الظنِّ أن الغربَ قد استقرَّ الرأيُ فيه على أنَّ ريح العُنفِ ريحٌ تهبُّ من جهةِ الشَّرقِ، لتُرهِبَ العالمَ بأسرِه، وأنا أختلِفُ كُليًّا وجزئيًّا مع ما استقرَّ في الأذهانِ من أنظارٍ ورؤًى غربيَّةٍ عن العُنف وفلسفتِه وتَحليلِ أسبابِه، وأحتفِظُ برؤيةٍ أبعدَ وأعمقَ، أحسَبُ أنها جديرةٌ بأنَّ تُسلَّطَ عليها الأضواء إذا

ما أراد الغربُ أن يكون موضوعيًّا في نظرتِه إلى هذا الملفِّ الشائِكِ.

إنَّ التَّهديدَ الحقيقيَّ الذى يتربَّص بالعالمِ كلِّه ليس هو -في التحليل الأعمق- العنفَ الذى تحدَّثنا عنه ، بل هو: هذه الحالةُ من «الفوضى العالمية غير المسبوقة» والتي أفرخَت العنفَ، وتُعدُّ مسؤولةً عنه مسؤولية تامة.. وإذا صَحَّ مثلُ هذا الطَّرحِ أصبحَ من الضَّروريِّ أن يتبنَّى الغَربُ استراتيجيَّاتٍ أخرى تُمكِّنه مِن مُقاربةِ الأسبابِ الأولى أو العِلَلِ البَعيدةِ التي صَنعَت هذا الكابوسَ الكريهَ، وصَدَّرته إلى كُلِّ أسرةٍ في كلِّ بلدٍ من بُلدانِ العالم في الشَّرقِ والغربِ.

ويكفي أن أذكُر فقط بأنَّ هذا العُنفَ أو ما يسمى بالإرهابِ الذي يَحتلُّ الآنَ الأولويَّةَ الأولى والرئيسةَ في اهتماماتِ العالمِ بأسرِه، لا يزال أمرًا غامضًا وغائِمًا وغيرَ محدَّدٍ، سواء على مستوى مفهوم العنف والإرهاب، أو على مستوى مكانه وزمانه.. فليسَ هناكَ تعريفٌ محدَّد ولا مقنَّن لهذا المصطلح الذي «صُكّ» فيما وراءِ البحارِ ثم صُدِّرَ إلى الشَّرقِ كما تُصدَّر البضائعُ الضارَّةُ والأغذيةُ الملَّوثةُ.

وقد رافقَ هذا المصطلحَ شيءٌ غير قليلٍ من الفوضى الفِكريَّة وخلطِ الأوراقِ وتعويمِ المفاهيمِ وتداخُلِها، وبحيثُ أصبحَ أمرًا مألوفًا أن يُفرَّغَ مَفهومُ الإرهابِ من معناهِ الحقيقيِّ إذا استعمل في دولةٍ، ثم تُعادُ تعبئتُه بالمعنى الحقيقيِّ من جديد إذا استُعمِلَ في دولةٍ أخرى.

إنها حربٌ غامِضةٌ تُشَنُّ على عدوٍّ غامضٍ ، ولا يُعرَف متى ولا أين تتوقَّفُ رحاها، وقد ضاعَف مِن هذه الفَوضى ما تقومُ به المراكزُ الأمريكيَّةُ -الخاصَّةُ بالأبحاثِ والتَّطورِ- من إعدادِ «خطة استراتيجيَّةٍ محكمةٍ لتعديل الأوضاع الاجتماعية للمواطن العربي» ومحاولةِ خلقِ بيئةٍ عربيةٍ جديدةٍ تتوافَقُ كليًّا مع

المصالِحِ الأمريكيَّةِ، ولا تُشكِّلُ عقبةً أو تهديدًا لهيمنة الكيان الصهيوني وأهدافه الاستعمارية.

وتستهدِفُ هذه الخُطَّة أولَ ما تستهدِفُ تغييرَ المناهجِ الدِّراسيَّة في مدارس المسلمين ومعاهدهم وجامعاتِهم، بل وضعتْ بالفِعل على صفحات الشبكة الدوليَّة خطة لتغيير مفهوم المسلمين عن الدين الإسلامي..

وزادَ الطِّينَ بِلَّة -كما يقولون- احتلالُ أمريكا بمساعدةِ حليفَتِها «بريطانيا» لبلدٍ عربيٍّ هو العراق وهو حدث بشع وقبيحٌ، فقد كُنا نظن أن احتلال الشعوب بالقوات المسلَّحةِ وبالطَّائراتِ والدَّبابات والسفن الحربية هو من مخلفات القرن الماضي، وأن حضارة القرن الواحد والعشرين لا تسمح باقتراف مثل هذه الجرائم.. غير أنَّا فوجئنا بهذا الاستعمار الجديد، وبما أغرق فيه المنطقة من الفَوضى ومِن عدمِ الاستقرارِ، والشُّعورِ بالقَهر والظُّلمِ.. وأمر منطقي جدًّا أن تتنامى في هذا الجوِّ المفعَم بالفَوضى والاضطراب ظاهرة العُنف وتتعدَّد وجوهُها ومَظاهرُها، وثِمارُها المُرَّة..

وأوَّل هذه الثِّمار تنامي العَداءِ للولاياتِ المتَّحِدةِ ولإسرائيل، وإذا كانت القضيَّةُ الفلسطينيَّةُ قد مَرَّ عليها أكثر مِن نِصفِ قرنٍ دونَ أن تجِد لها طريقًا نحو الحَلِّ، بسببِ المساندةِ الأمريكية والبريطانية، فكم من الزمن يحتاجُه تحررُ العِراقِ تحررًا نهائيًا من الاحتلالِ الذى تُمارِسُه أمريكا وبريطانيا بالفعل؟!

ولعلَّنا لا نبالِغُ لو قُلنا إنَّ احتلالَ العِراق هيأ مناخًا جديدًا لانتشارِ الحركاتِ الإسلاميَّةِ المسلَّحةِ في المنطقةِ العربيَّةِ بشكلٍ لم تعْهده من قبل.. ولا يخفى علينا ما تعرَّضت له بعضُ دولِ المنطقةِ مِن عمليَّات رعبٍ بسبب من العداء الشَّديد لأمريكا أو لِنَقُل: بسببِ الاحتلالِ الأمريكيِّ للعراقِ.

أيُّها السَّادةُ العلماء: تطمحُ هذه الوَرقةُ إلى قراءةِ ظاهرةِ العُنفِ في ضَوءِ

القاعدةِ العقليَّةِ التي تُقرِّرُ استحالةَ تَصحيحِ النَّتائجِ بدونِ تَصحيحِ المقدِّماتِ.

ومن هذا المنطلَقِ أرجو ألَّا تتهمونَني بالمبالغة أو التبسيط السَّهل لو قلت: إنَّ العِلل القُصوى والجرثومةَ الأولى لهذا الدَّاء الوبيلِ ليست صناعةً عربيةً ولا إسلاميةً، بل هي صناعةٌ أمريكيةٌ غربيةٌ، وأنه من الصعوبة بمكانٍ أن تُعالَج ظاهرةُ العُنفِ خارجَ هذا السِّياقِ أو مَقطوعةً عن مُحيطِه، وأقصِدُ به تحديدًا: سياقَ ما بعدَ الحادي عشر من سبتمبر، وإلا اختلطت الأوراق واضطربت النتائجُ.

ويقتضينا واجبُ الإنصافِ والعَدلِ أن أؤكِّد في نهايةِ كلِمتي على الحقائقِ التَّالية:

الحقيقة الأولى:

نحن -المسلمين- نستشعرُ المحبَّة والصَّداقة للغربِ كشعوبٍ وجمعيَّاتٍ خيريَّةٍ وكأفرادٍ يبادلونَنا المودَّة والصَّداقةَ ويفتحونَ قلوبَهم لنا وكأنَّنا إخوةٌ أو أصدقاءُ.. وقد حَمَلني هذا الشُّعورُ على أن أزورَ جمعيَّة سانت إيجيديو في روما وفي ميلانو مرتين في أقل من شَهرين.. وذلك لما أَشعُرُ به من صِدقٍ ووضوحٍ ومحبَّةٍ للشُّعوبِ الإسلاميَّةِ من قِبَل القائمينَ على هذا المؤتمرِ.

الحقيقة الثانية:

أنَّنا نستشعرُ أيضًا مودَّة المواطِن الأمريكيِّ ونعلم جيِّدًا أنَّ الذين يصنَعون مُعاناتنا هناك ويدفعونَ الإدارةَ الأمريكيَّة لممارساتِها ضِدَّ حضارتِنا الشَّرقيَّةِ هم حِفنةٌ قليلةٌ تعملُ من أجلِ مصالحَ ضيِّقة.. وأنَّ المواطِنَ الأمريكيَّ يتمنَّى -مِثلَنا- لو أنَّ هذه المليارات مِن الدُّولاراتِ أُنفِقَت مِن أجلِ محاربةِ البَطالةِ والفَقر والمرض، ومِن أَجلِ مُساعدة الفقراء والمحرومين والبائسين..

الحقيقة الثالثة:

يجب أن نتواصَلَ، وبصورةٍ مستمرَّةٍ، مع شُعوبِ الغَربِ ومَع المواطِنِ الأمريكيِّ العادي البسيط ، وأن نحذر الوقوع في فخ تعميم الأحكام، وألَّا نُعيد إنتاجَ الكراهيةِ والعَداواتِ التَّاريخيَّةِ، التى ولَّت بخيرِها وشَرِّها وقُبِرت في مَقبرةِ التاريخ. . وعلينا أن نعي جيِّدًا أنَّ بعثَ هذه العداواتِ أمرٌ مطلوبٌ للدوائرِ المشبوهةِ، فإنَّ حياتَها ورفاهيَّتَها واعتماداتِها مرهونةٌ بهذه العَداواتِ وما تُثيرُه من تَهديدٍ وحروبٍ مستمرَّةٍ ومن استباحةٍ للدِّماءِ وللمَزيد من المشوَّهين والمعوَّقين واليتامى والأرامل.

❊ ❊ ❊

كَلِماتٌ فِي التَّطَرُّفِ والإرهابِ(*)

(١)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ وبارَكَ على سيدِنا رسولِ اللَّهِ وعلى آلِه وصحبِه.

الحفلُ الكريمُ..

السلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

أهلًا بحَضَراتِكم جميعًا، وبضُيوفِنا الأعزَّاءِ الذين تكرَّمُوا بتَلبيةِ الدعوةِ، وجاءوا من بلادٍ شتَّى من أقصى الشرقِ، ومن أقصى الغربِ.. ونَشكُرُكم جميعًا، ونُرحِّبُ بحَضراتِكم في مصرَ الكِنانةِ بلدِكم الثاني، وشقيقتِكم التي نَظُنُّ أنَّ لها في قلوبكم مكانةً خاصةً ومنزلةً متميزةً، ومَرحبًا بكم في الأزهرِ الشريفِ الذي يَسْعدُ بمَقْدِمِكم، ويَتطلَّعُ للإفادةِ من تعاوُنِكم ومِن مُباحَثاتِكم في هذه المرحلةِ الحَرِجةِ من مَراحِلِ تاريخِ هذه الأُمَّةِ وحاضِرِها.

إنَّ هذا المؤتمرَ الجامعَ لشخصيَّاتٍ بارزةٍ مِن الشرقِ العربيِّ والإسلاميِّ، ومِن العالَمِ الواسعِ الفَسِيحِ، من مُسلِمين: سُنَّةٍ وشِيعةٍ، ومسيحيِّين على اختلافِ طوائفِهم، ومن عقائدَ أُخرى نشأت على أرضِ هذا الشرقِ وترَعرَعتْ على تُرابِه، وتربَّت على ثِمارِه وخَيْراتِه -هذا المُؤتمرُ يأتي في

(*) كلِمةٌ أُلقيت في افتتاحِ مؤتمرِ الأزهرِ العالَميِّ لمواجَهَةِ التَّطَرُّفِ والإرهابِ الذي عُقِدَ في الأزهَرِ الشَّريفِ، يوم ١١ صفر: ١٤٣٦هـ/ ٣ ديسمبر: ٢٠١٤م.

وقتٍ بالغِ الدِّقَّةِ والتعقيدِ، والخطَرُ المُطبِقُ على بِلادِنا وشُعوبِنا قد دهَمَها من داخِلِها وخارِجِها. . فإنَّك حَيثُما قلَّبتَ النَّظَرَ في خارطةِ الشرقِ الأوسطِ فإنَّه يَرُوعُك هذا الوضعُ المَأساويُّ، والذي يُعْيِيك البحثُ فيه عن سببٍ منطقيٍّ واحدٍ، يُسوِّغُ هذا التدميرَ المُتعمَّدَ الذي حاقَ بالأرواحِ والدِّيارِ والمُمتَلَكاتِ، وراحَ يَستهدِفُ تفتيتَ أُمَّةٍ، وفَناءَ حَضارةٍ، وزَوالَ تاريخ.

وإنَّني لَأُسائِلُ نفسي ليلَ نهارَ عن أسبابِ هذه المِحنةِ العرَبيَّةِ، وهذه الفتنةِ العَمياءِ المُفعمةِ برائحةِ الدَّمِ والموتِ، والتفجيراتِ، وقطعِ رُؤوسِ البَشَرِ، والتهجيرِ بالمَلايينِ، والتَّدميرِ للعُمرانِ والأوطانِ، في وَحشيةٍ لم يَعرِفْها التاريخُ من قَبلُ، ولَن يَعرِفَها مُستَقبَلًا لغيرِ هذه الفصائلِ التي طرأَت علينا وعلى بلادِنا واستجدَّتْ على حَضارتِنا وثقافتِنا، وتَجاوَزت كلَّ الحُدودِ التي رسمتها الأديانُ والأخلاقُ والأعرافُ الإنسانيَّةُ؛ وحدَّدْتها كفوارق حاسمة بينَ الوحشِ المُفترِسِ، وبينَ الإنسانِ العاقلِ المُفكِّرِ.

وثالثةُ الأثافي -في هذه المأساة- أنَّ هذه الجرائمَ البربريةَ النَّكراءَ، ما لَبِثَت أن تدَثَّرَت بدِثارِ هذا الدِّينِ الحَنِيفِ، وأطلَقَت على الأوكارِ التي تُدبِّرُ فيها أمرَ جرائمِها اسمَ «الدولة الإسلاميَّة»، أو «دولة الخِلافة الإسلامية»، أو غيرَ ذلك من الأسماءِ والعناوينِ، في مُحاولةٍ لتصديرِ صُورةٍ مغشوشةٍ لإسلامهم بِحُسبانِه دِينًا ينتشر بالذبحِ، وقطعِ الرؤوس، وتهجير الآمنين من ديارهم وأوطانهم.

ولطالما كانت هذه الصُّورُ الكَريهةُ أملًا تَمنَّاه أعداءُ الإسلامِ وانتَظَرُوه، بل طالَما دَندَنُوا حولَه ونسَجُوا من أجلِه أفانينَ من الأباطيلِ والمُفتَرَياتِ والأكاذيبِ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ هؤلاء الأعداءَ سوف يُواجِهوننا اليومَ بهذه الصورةِ الشَّوهاءِ، ويَبهَتُوننا بها عَبْرَ الشاشاتِ الفضائيَّةِ؛ ليَتِمَّ لهم ما يُريدونَه مِن تحذيرِ شُعوبِ العالمِ مِن هذا «الإسلام» الذي يطلّ عليهم من شاشات الفضاء دينًا متوحشًا متعطشًا للدماء.

والباحِثُ في أسبابِ ظُهورِ هذه التنظيماتِ المُسلَّحةِ، وتمَدُّدِها السريعِ في الدولِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، تُطالِعُه تفسيراتٌ شَتَّى، منها: الدِّينيُّ، ومنها الاقتصاديُّ، ومنها الحضاريُّ، ومنها السياسيُّ، ومنها غيرُ ذلك ممَّا سوف يَتَّسِعُ له البحثُ في مُؤتمرِكم اليومَ.

لكنِّي أودُّ الإشارةَ إلى سببٍ آخَرَ، يَستَحِقُّ أن نتأمَّلَه قليلًا، وهو أنَّ ما نُعانِيه اليومَ إنْ هو إلَّا مُؤامرةٌ من مُؤامراتِ الأعداءِ على الشرقِ العربيِّ، لِصالحِ الكيانِ الصهيوني ومَصالِحِه، وبقائِه الدولةَ الأقوى والأغنى في المنطقةِ، ونَحنُ -من جانِبِنا- لا نستَبعِدُ ذلك؛ لأنَّ دولةَ العراقِ قد غُزِيت عام: **٢٠٠٣**م تحتَ أسبابٍ مُلفَّقةٍ، وعِلَلٍ وأكاذيبَ فضَحَتْها الصحافةُ الدوليَّةُ، واعترَفَت بتَلفيقِها كُبرَياتُ النُّظُمِ السياسيَّةِ العالميَّةِ، وكان أوَّلُ ما حاكَه الغُزاةُ في العِراقِ من خُيوطِ المُؤامَرةِ أنْ قاموا بتسريحِ الجيشِ العراقيِّ الذي كانَ من أقوى الجيوشِ العربيَّةِ في ذلكم الوقتِ، وكذلك تسريحُ ضُبَّاطِه وجنودِه، وتَركُ أسلحتِه نَهبًا لفصائلَ و«ميلشياتٍ» يَعلَمُ الغُزاةُ جيِّدًا أنها «ميلشياتٌ» مُتَناحِرةٌ: مذهبًا وعقيدةً ووَلاءً..

فماذا كانت النتيجةُ بعدَ إحدى عشرةَ سنةً من اجتياحِ العراقِ؟

لقد دخَلَ العِراقُ في دوَّامةِ الاقتِتالِ، وظلَّ يَسبَحُ في بُحورٍ من دماءٍ، لم تُبصِر لها شُطْآنٌ، حتى يومِ الناسِ هذا.

والشيءُ نفسُه يُقال على سوريا، وعلى اليمنِ، وعلى ليبيا؛ حيث تَلعَبُ المُؤامرةُ على التوتُّرِ المذهبيِّ والعِرقيِّ والطائفيِّ، مع إمدادِ المُتوتِّرين بالسِّلاحِ لتَندَلِعَ الحرائقُ، ويَحصُدَ الموتُ أرواحَ الآلافِ من شبابِ هذه الأُمَّةِ، واللَّهُ وَحدَه الذي يعلمُ متى تَصمُتُ آلةُ الحربِ اللَّعينة في هذه الدولِ المَنكوبةِ، ومتى يُقدَّرُ لهذه البلادِ أن يكونَ قَرارُها من رأسِها، لا بضغوطٍ أو تدخُّلاتٍ إقليميَّةٍ أو دوليَّةٍ.

ومِن المُؤكَّدِ لدَيْنا أنَّ أصحابَ هذه الخُططِ يَجنُونَ -في خططهم الحديثة هذه- ثِمارًا هائلةً مِن وراءِ اقتتالِ العربِ والمُسلِمينَ فيما بينهم، فهذا الاقتتالُ المُستَعِرُ دومًا من شأنه إلقاء العَربِ والمُسلِمين في حالةِ هُزالٍ وضَعفٍ ويأسٍ مُستمرٍّ، ولا يَسمَحُ لهم بامتلاك أسباب القُوَّةِ والتطوُّرِ والتقدُّمِ، ثم هو حربٌ بالوكالةِ، لا يَخسَرُ النافِخون في نيرانِها خسائرَ تُذكَرُ، سواءٌ في الأرواحِ أو العَتادِ.

ثم إنَّ هذا الاقتتالَ العربيَّ - العربيَّ يَفتَحُ أسواقًا كُبرى لمصانعِ السلاحِ، وتُجَّارِ الحروبِ، وسَماسِرةِ الموتِ والخَرابِ..

ويَكفِي دليلًا على ذلك أنَّ المَسرحَ السوريَّ باتَ -على مَدَى سنواتٍ- ساحةً مفتوحةً لحربٍ يَصطَرِعُ فيها السلاحُ من الغربِ والسلاحُ من الشرقِ علَى حَدٍّ سَواءٍ.

ولَكَم أتمنَّى -والأمانيُّ حيلةُ المَغلوبِ- أن تَبحَثَ مصانعُ الأسلحةِ في الغربِ، عن صحراءَ أو بيداءَ تُجرِّبُ فيها أسلحتَها، وتختَبِرُ قوَّتَها وطاقتَها، بَدلًا من صُدورِ أبناءِ العرَبِ ودِيارِهم ومُنشآتِهم.

إنَّ نظريَّةَ المُؤامَرةِ -أيُّها السادةُ- ليست هي كلَّ ما هنالك، فهناك سَببٌ أعمَقُ يَذهبُ بَعيدًا في أطواءِ تاريخِنا العربيِّ والإسلاميِّ، ويَكادُ يَكونُ مَنهجًا ثابتًا يَحكُمُ علاقاتِنا في الداخلِ والخارجِ، ذلكم هو مَنهجُ الفُرقةِ والتنازُعِ والاختلافِ، ولا أُريدُ أن أتوقَّفَ قليلًا ولا كثيرًا عند هذه الآفةِ التي حذَّرَنا القُرآنُ الكريمُ من مَغبَّتِها المُهلِكةِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولكن أُسَجِّلُ فقط أنَّ أُمَّتَنا رُغْمَ ما خَصَّنا اللَّهُ به من بينِ سائرِ الأُمَمِ مِنْ مُقوِّماتِ الوَحدةِ والاتِّحادِ؛ من لغةٍ واحدةٍ، وجنسٍ واحدٍ، وعِرقٍ واحدٍ، وأديانٍ سماويَّةٍ واحدةٍ، وتاريخٍ وجُغرافيا أيضًا، وبرَغْمِ جامعتِنا العربيَّةِ

ومُنظَّمةِ التعاوُنِ الإسلاميِّ، وقد مضَى على إنشائِهما أكثرُ من نصف قرنٍ مِن الزمانِ - رُغْمَ كلِّ ذلك لا نزالُ نفتقرُ إلى اتِّحادٍ يُشبهُ الاتحادَ الأوروبيَّ، وهو أمرٌ مُمكِنٌ، وليس من عِدادِ المُستَحِيلاتِ، ولا يَحتاجُ إلَّا إلى صِدقِ النَّوايا والنَّظرةِ البَعِيدةِ، والاعتلاءِ على الخِلافاتِ البَيْنيَّةِ، والعَربُ لا شَكَّ مُؤهَّلون، بل قادِرون على صُنعِ هذا الاتِّحادِ إن أرادوا.

وبهذه المُناسبةِ؛ فإنَّ الأزهرَ الشريفَ يُقدِّرُ حَقَّ التقديرِ جُهودَ خادمِ الحَرَمَيْنِ الشريفينِ المَلِكِ عبد اللَّهِ في سعيِه الدَّؤوبِ لجَمعِ الشَّملِ العربيِّ في مُواجهةِ التَّحدِّياتِ والأخطارِ التي تُحدِقُ بالأُمَّةِ، والتي لا عاصمَ منها إلَّا أن نتناسَى -نحن العربَ- كلَّ خلافاتِنا البينيَّةِ، وأن نطفئَ الحرائقَ المشتعلةَ، وأن نتوحَّدَ في مواجهةِ هذا الوحشِ الكاسرِ.

وعلى التحالُفِ الدوليِّ أن يَستنفِرَ كلَّ طاقاتِه الماديَّةِ والمَعنويَّةِ للقضاءِ على هذا الإرهابِ بكلِّ توجُّهاتِه ومذاهبِه ومدارسِه، والتصدِّي للدولِ التي تَدعَمُه وتقفُ وراءَه وتمدُّه بالمالِ والسلاحِ، وهذا التحالفُ -إن يفعلْ ذلك- فإنما يُدافِعُ عن شُعوبِه أوَّلًا قبل أن يُدافِعَ عن شُعوبِ العَرَبِ.

على أنَّنا لا ينبغي أن نَغُضَّ الطَّرْفَ عن مسؤوليتِنا عن أفكارِ الغُلوِّ والتَّطرُّفِ التي تسَرَّبَت إلى عُقولِ بعضٍ من شَبابِنا، ودفَعَت بهم دَفعًا إلى تَبنِّي الفكرِ التكفيريِّ، واعتِناقِ التفسيراتِ المُتطرِّفةِ والعَنِيفةِ، وظُهورِ الحَركاتِ المُسلَّحةِ التي خرَجَت من عَباءةِ هذا الفِكرِ، وراحَت تَعمَلُ ليلَ نهارَ على مُهاجمةِ الأوطانِ وزَعزعةِ الاستقرارِ، وقد ظهَرَ مُؤخَّرًا على الساحةِ تنظيمُ «داعش» الذي نادَى بالخِلافةِ الإسلاميَّةِ، وظهَرَت قبلَه وبعدَه ميلشياتٌ طائفيَّةٌ أخرى، تملكُ قوَّةً دِعائيَّةً هائلةً، عادَت -للأسَفِ- بأسوأ العَواقِبِ على الإسلامِ والمُسلِمين في العالمِ كُلِّه.

وليست «داعش» هي الفصيلَ المُسلَّحَ الوحيدَ على الساحةِ، بل هناك ميلشياتٌ أخرى طائفيَّةٌ تَذبَحُ وتُهجِّرُ قَسرًا في العِراقِ وسوريا واليَمنِ، وهناك طوائفُ مَذهبيَّةٌ تُحاوِلُ جرَّ الأوطانِ إلى وَلاءاتٍ إقليميَّةٍ خارجيَّةٍ باسمِ الديمقراطيَّة وحُقوقِ الإنسانِ، كما يَحدُثُ في البحرين مثلًا، ولكلِّ هؤلاء وأولئك شيوخٌ ومُفتون، يُحلِّلُون لهم هذه الجَرائمَ، ويُشجِّعونهم على اقتِرافِها.

وفي الفَمِ ماءٌ كثيرٌ، يَحُولُ دونَ الاسترسالِ في الحديثِ عن هذه المَأساةِ اللاإنسانيَّةِ واللاأخلاقيَّةِ، حِرصًا مِنَّا على وَحدةِ المسلمين التي هي الهدفُ الأسمى للأزهرِ الشريفِ منذُ قامَت مُؤسَّستُه، وانتشَرَت دعوتُها في الآفاقِ على مدى أكثرَ من ألفِ عامٍ.

والذي يجمعُ هذه المليشياتِ والجماعاتِ المُسَلَّحَةَ كلَّها قاسِمٌ مُشتَرَكٌ واحدٌ يُسَوِّغُ لها جرائمَها البشِعَةَ، ذلكم هو: تكفيرُ المسلمين بالذَّنْبِ، ثم استِحلالُ دِمائِهم بعدَ ذلك، الأمر الذي يُعِيدُ إلى الأذهانِ جرائمَ جماعاتٍ قديمةٍ -طَواها التاريخُ- قتَلَت المسلمينَ بعدَ أن رمَتْهم بالكُفرِ والخُروجِ مِن الإسلامِ؛ استنادًا إلى فَهمٍ خاطئٍ مُنحرِفٍ لنصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

وهؤلاء الغُلاةُ الجُدُدُ يَنطَلِقون مِن المُعتقَدِ نَفْسِه، بعد تحريفِهم مفهومَ «الكُفرِ» و«الإيمان» والانحرافِ به عن مَعناه الصحيحِ، بعدما حدَّدَه النبيُّ ﷺ وسارَ عليه المسلمون، واستقر عليه فقه الأُمَّة من عدمِ تكفيرِ المسلم بالذنوبِ حتى لو كانت من الكبائرِ، ما لم يستَحِلَّها، وتحديد معنى الكُفرِ بأنَّه إنكارُ القلبِ وجحدُه، وخلوُّه من التصديقِ باللَّهِ وملائكتِه وكتبِه ورُسلِه واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ؛ خيرِه وشرِّه، أمَّا مَن آمَنَ بكلِّ ذلك وصَدَّقَ به فهو مُؤمنٌ وليسَ بكافرٍ.

كما حُرِّفَ مفهومُ الجهادِ عند هذه الجماعاتِ المُسلَّحةِ المُتطرِّفةِ، التي

راحَت تسفِكُ الدِّماءَ بغيرِ حِسابٍ؛ زَعمًا منها بأنَّها تجاهِدُ في سبيلِ اللَّه واعتقادًا بأنَّ قتلاهم شُهَداءُ في الجنةِ. وهذا مِن أشنَعِ الخَطَإِ في فَهم شريعةِ الإسلام.

فأولًا: شُرِعَ الجهادُ في الإسلامِ للدِّفاعِ عن النَّفْسِ والدِّينِ والوطَنِ، ونحن نحفظُ عن شُيوخِنا في الأزهر ونحن صِغارٌ قولَهم: «إنَّ العِلَّةَ المُبيحةَ لقتلِ الغيرِ هي العدوانُ وليس الكُفرَ»(١).

ثانيًا: إعلانُ الجهادِ ومُباشرتُه حقٌّ أصيلٌ قاصِرٌ على وَليِّ الأمرِ ومَن يُعاوِنُه في هذا الأمرِ، ولا يَجوزُ لأفرادٍ أو جماعاتٍ أن تتَولَّى هذا الأمرَ بمُفردِها مهما كانت الأحوالُ والظروفُ، وإلَّا كانت النتيجةُ دخولَ المجتمعِ في مُضطرَبِ الفوضَى وإراقةِ الدِّماءِ وهَتكِ الأعراضِ واستحلالِ الأموالِ، وهو ما تُعانيه بعضُ مجتمعاتِنا اليومَ من جَرَّاءِ هذا الفهمِ الخاطئِ المَغلُوطِ لهذه الأحكامِ الشرعيَّةِ.

من هنا؛ حرَّمَ الإسلامُ الاعتداءَ على النَّفْسِ الإنسانيَّةِ أيًّا كانت دِيانتُها أو اعتقادُها.. ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

ومِن هُنا أيضًا؛ انفتَحَ الإسلامُ على أبناءِ الأديانِ الأخرى، ولدرَجةِ الاختلاطِ بالزواجِ والعيشِ المُشترَكِ في بيتٍ واحدٍ، وتحت سَقفٍ واحدٍ.

وفي هذا إقرارٌ من الإسلامِ بالعيشِ الواحدِ بين الأديانِ، والتداخُلِ الأُسريِّ بين أبنائِها وأتباعِها.

---

(١) قال شمسُ الأئمَّةِ السرخسي في «شرح السِّيَر الكبير»: ١٤١٥: «الكفرُ وإن كان مِن أعظمِ الجِناياتِ فهو بينَ العبدِ وبينَ ربِّه جَلَّ وعَلا وجَزاءُ مثلِ هذه الجنايةِ يُؤَخَّرُ إلى دارِ الجزاءِ».

أمَّا الفهمُ الخاطئُ لموضوعِ الخِلافةِ أو الإمامةِ عندَ المسلمينَ، فمِن المُقرَّرِ عند علماءِ أصولِ الدِّينِ أنَّ الإمامةَ مِن مَسائلِ الفُروعِ وليست مِن مَسائلِ الأُصولِ، ومِن هنا احتمَلَت الخِلافَ والأخذَ والرَّدَّ، والرَّأيَ والرَّأيَ الآخَرَ، وأصغرُ طالبٍ في كُليَّةِ أصولِ الدِّينِ في جامعةِ الأزهرِ يَحفَظُ عن ظهرِ قلبٍ من كتابِ «**شرح المواقف**» المُقرَّرِ في علمِ العقيدةِ، وهو أحدُ أعمدةِ كتبِ المذهبِ الأشعريِّ: «الإمامةُ ليست من أصولِ الدِّياناتِ والعقائدِ عندنا، بل هي عندنا من الفُروعِ»[(١)].

وكذلك كتابُ «**شرح المقاصد**» المُقرَّرُ ضِمنَ علومِ العقيدةِ، في كلِّيةِ أصولِ الدِّينِ، يقولُ فيه مؤلِّفُه السعدُ التفتازانيُّ -من أئمَّةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ-: «لا نِزاعَ في أنَّ مباحثَ الإمامةِ بعلمِ الفُروعِ ألْيَقُ»[(٢)].

ونحن نتساءل، ويتساءل معنا كل متأمل باحث عن الحقيقة: إذا كانت مسألة الإمامة فرعًا خلافيًّا وليست من أصول الدين: فكيف انقلبت في فقه هؤلاء الشباب أصلًا فارقًا بين الكُفرِ والإيمانِ، وصارَت فتنةً تُراقُ على جوانبِها الدِّماءُ، ويُخرَّبُ بسبَبِها العُمْرانُ، وتُشوَّهُ بها صورةُ هذا الدِّينِ الحنيفِ؟

ويَطولُ بنا المقامُ لو رُحتُ أُعدِّدُ المفاهيمَ الشرعيَّةَ التي تَحكَّمَت فيها أَمزِجةُ هذه الجماعاتِ، وأخرَجَتْها عن سِياقاتِها الصحيحةِ، وراحت تُسَوِّغُ بها قتلَ الناسِ. ولكن أتركُ لعلماءِ هذا المؤتمرِ مَهَمَّةَ تصحيحِ هذه المفاهيمِ، وإعادتِها إلى وضعِها الصحيحِ في تُراثِنا المَنقُولِ والمَعقُولِ، ثم إذاعتِها في البيانِ الخِتاميِّ على العالَمِ كُلِّه؛ إعذارًا للحقِّ، وإبراءً للذِّمَّةِ.

(١) «شرح المواقف» [ج ٢، ص ٦٠٣، ط. بولاق ١٢٦٦هـ].
(٢) «شرح المقاصد»: (٥/ ٢٣٢/ الفصل الرابع في الإمامة)، ط عالم الكتب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

أيُّها الإخوةُ، وأيُّها الأصدقاءُ الأفاضلُ..

نحن في أشدِّ الحاجةِ إلى أن يَتَّجِهَ جهدُ شَبابِنا لتحقيقِ التَّقدُّمِ العِلميِّ والتِّقْنيِّ والحضاريِّ، وحتى نَلحَقَ برَكبِ الأُمَمِ التي سبَقَتنا إلى قيادةِ العالَمِ والتأثيرِ في مَصائرِ الإنسانيَّةِ، وتوجيهِ مَسيرتِها وتَحديدِ وجهتِها، وإنَّ هذه المسيرةَ لفي أشدِّ الحاجةِ إلى الانضِباطِ بضَوابطِ الدِّينِ والأخلاقِ ونُورِ الوحيِ وهَديِ السماءِ، وحتى تَخِفَّ عذاباتُ الناسِ وآلامُهم التي سبَّبَتها السياساتُ العالميَّةُ، والتي تعملُ في غَيْبةٍ عن قِيَمِ الأنبياءِ والمُرسَلين، الذين ما بعَثَهم اللَّهُ إلا لِهدايةِ الإنسانِ وإسعادِه في الدُّنيا والآخِرة.

أيُّها الإخوةُ..

إنَّ الأزهرَ الشريفَ بذَلَ -ولا يزالُ يبذلُ- جُهدًا مُتواصِلًا في سبيلِ صِياغةِ خِطابٍ دِينيٍّ واعٍ رشيدٍ، يَتَأسَّسُ بُنيانُه على القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النبويَّةِ الشريفةِ والاجتهاداتِ التي تلقَّتها الأُمَّةُ بالقَبولِ(١).

ومن هذا المنطلقِ؛ أتوجَّهُ للمُسلِمين كافَّةً، طالبًا إليهم أن يَثِقوا ثقةً مُطلَقةً في الأزهرِ الشريفِ جامعًا وجامعةً، فهو الأمينُ -أيُّها المسلمون- على تلقينِكم أمورَ دِينِكم: عقيدةً وشريعةً خالصةً كما أرادَها اللَّهُ وبلَّغَها رسولُه الكريمُ ﷺ،

(١) يَتَبَيَّنُ مِن ذلك أنَّنا هنا في الأزهرِ الشَّريفِ، بعدَ أن استشعَرنا ضرورةَ صِياغَةٍ جديدةٍ للخِطابِ الدِّينيِّ، بدَأنا ذلك بالفِعلِ -وفي صَمتٍ- قبلَ أن تُصبحَ هذه القضيَّةُ قضيةً إعلاميَّةً، فيها قليلٌ مِنَ الحَقِّ وكثيرٌ مِنَ الباطِلِ الذي شَغَلَ النَّاسَ في غيرِ جَدوَى، راجع -إن شِئتَ- كلامَنا في «ضَرورَةِ التَّجديدِ» في المؤتمرِ العامِّ الثَّالث عَشَرَ للمجلِسِ الأعلَى للشُّئونِ الإسلاميَّة بوزارةِ الأوقافِ سنة ٢٠٠١م، وقد طُبعَ سنة ٢٠٠٢م، كما عقَدنا في الأزهرِ الشَّريفِ مؤتمرًا تمهيديًّا في موضوعِ «تجديدِ الفِكرِ والعلومِ الإسلاميَّةِ» شارَكَ فيه مجموعةٌ مِن كِبارِ عُلماءِ الأزهرِ الشَّريفِ، وقد طُبعَ بعُنوان: «مقالات في التَّجديدِ» بمشيخَةِ الأزهرِ سنة: ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

وبعيدًا عن تحريفِ الغالين، وانتحالِ المُبطِلين، وتأويلِ الجاهِلين.

وأخيرًا: ونحن نتَصدَّى للإرهابِ والغُلوِّ والتطرُّفِ، فإنَّنا نُؤكِّدُ على أنَّ هذه التَّحدِّياتِ التي تَشغَلُنا ليلَ نهارَ لا يُمكِنُ أن تَأخُذَنا بعيدًا عن قضيَّةِ العَرَبِ والمسلمين الأُولى، وهي قضيَّةُ المسجدِ الأقصى أُولَى القِبلتين وثالثِ الحرمين. والقضيَّةُ الفلسطينيَّةُ التي لا سلامَ للعالَمِ إلَّا بسلامِها وبحلِّ مُشكلتِها حلًّا جِذْريًّا وعادلًا.

هذا، وقد عزَمَ الأزهرُ الشريفُ على تخصيصِ مُؤتمرِه الخامِسَ عشرَ، والذي سيُعقَدُ قريبًا -إن شاءَ اللَّهُ تعالى- لنُصرةِ الأقصى والقضيَّةِ الفلسطينيَّةِ.

وفَّقَنا اللَّهُ وإيَّاكم لما فيه خيرُ الإنسَانيةِ جمعَاءَ.

عُذرًا للإطالةِ.. وشُكرًا لحُسنِ استماعِكم.

والسَّلام عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

* * *

النَّزَعات التَّكفيريَّة ...الدَّواعِي والأسباب(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، وصلَّى اللَّه وسلَّم وبارك على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه.

الحَفلُ الكَرِيم..

السَّلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

الحَفلُ الكَرِيم..

إنَّ هذا المُؤتمر الذي نتداعى لساحته اليوم، ونتنادى بخطره وأهمِّيته البَالِغة يأتي في وقته الصَّحِيح، وتَوقيتِه الدَّقِيق مَع أشباهه ونظائره مِن المُؤتمرات الكُبرى في الشَّرقِ والغرب، والتي تتصَدَّى لهذا البَلاء الشَّديد الَّذي أُبتليت بِه مَنطِقتُنا العَرَبيَّة، والذي تبعثه جمَاعَاتُ العُنف والإرهاب، الغَريبةُ عن الإسلام: عَقيدةً وشَريعةً وأخلَاقًا، وتاريخًا وحضَارة، والَّتي لَا تَمُت إلى هَدْي هذا الدِّين الحَنيف بِأدنى صِلَة أو سبب..

هذه الجَمَاعات التي نبذت حُكم القُرآن الكَريم والسُّنَّة وراء ظهورها، واتَّخذَت مِن الوَحشيِّة البربريَّة منهجًا ومذهبًا واعتقادًا، وبعدما نُزِعَت الرَّحمَةُ مِن قلوبهم، وأصبحت كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً، وبعدما برئ اللَّهُ مِنْهُم ورَسُوله وصَالِح المؤمنين.

ومِن المُؤلِم -أيها السادة الأفاضل- أنَّ هَؤلَاء، من قُسَاةِ القلوب وغلاظِ

(*) كلمة ألقيت في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، بعنوان: «مكافحة الإرهاب»، في الفترة من: ٣-٦ جمادى الأولى: ١٤٣٦هـ، الموافق: ٢٢-٢٥ فبراير: ٢٠١٥م.

الأكباد، قد خَرجوا عَن السَّيطَرة، وانتشرت شناعاتهم حتَّى كدنا نعتَاد أسَاليبهم المتوحِّشة، ومُمَارسَاتِهم اللاإنسانيةَ في تَنفِيذ جَرائِمهم البَشِعة، وكأنهم يتحرقون تحرق الظمآن إلى القَتل وقَطع الرُّؤوس وحَرق الأبرياء وهم أَحياء، إشاعة للذعر والخوف والرَّهبة في قلوب النَّاس، وقد بلغني مِمَّن يحتملون مشاهدة هذه الفظائع على وسائل التواصل، أنَّ هؤلاء المُجرِمين بلغوا من قسوة القلب وتحجُّر الشُّعور أنهم كانوا يَتقَاذفُون رؤوس القَتلى بين أرجلهم، ويَلعَبُون بِها وهُم يَضحَكُون، وحسبك من شرٍّ سماعه.

ولَعَلِّي لَا أُبَالِغ لَو قُلْتُ: إنَّه لَمْ يَحدُث للمُسلِمين -في تاريخهم- أن أمسى بأسُهم بينهم شديدًا على هذه الشَّاكِلة الشَّنعَاء التي نراها اليوم، وأن هَذِه الأُمَّة التي قال اللَّه تعالى فيها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] -قد أفضَت بها الأيَّام إلى حاضِر بئيس، ارتكست معه الأمَّة في حمأة الفوضى والاضطراب والتَّمَزُّق والانفلات، وتشوَّهت فيه صورة الإسلام في عيون النَّاس في الشَّرقِ والغرب.. بل أكاد أقول في عيون الناشئة من أبناء المسلمين أنفسهم.

لقد قِيل الكَثير في تَفسير ظَاهِرة الإرهاب القَاتِل الذي يجثم الآن على صَدر هَذِه الأُمَّة المَغلُوبة عَلَى أمرها... وتَنوَّعَت التَّفسِيرات إلى أسباب شَتَّى: فَمِن المُحَلِّلِين مَن ذَهب إلى أنَّ السَّببَ في ظُهور هؤلاء المُجرِمين هو الفَقر المدقع الذي عاشوا فيه، والبيئات المُهَمَّشة المنبوذة التي ترعرعوا فيها في بعض المُجتَمَعات الإسلَاميَّة والأوروبيَّة.

ومع أنَّنا لا نُقلِّل مِن شَأن الفَقر والعَوَز في تَعلِيل نَشأة كَثير من حالات التَّغيُّر الاجتِماعيّ، حتَّى هذا الذي يتَّخذ من العُنف والبَغي منحى ومنهجًا، إلَّا أنَّ النَظرَة المَوضُوعيَّة تَدفعنا إلى البَحث عن أسباب أخرى بجانب الفَقر

والحاجة، ذلِك أنَّ الفَقرَ أو العَوَز لَيس أمرًا مُستَحدثًا في دنيا النَّاس، وإنما هو أمر قديم رُبَّمَا قِدَم الإنسان نفسه، فقد كان النَّاس مذ كانوا -ولا يزالون- فُقَرَاء وأغنياء، ووجهاء وخاملين، ونَحنُ نَعلَم أنَّ طبقات العُلَمَاء والمُفكِّرين والفَلَاسِفة والشُّعَرَاء إنَّما نسجت خيوطها مِن الفُقَرَاء والبُسَطاء والزُّهَّاد، ورُغمَ ذَلِك كانوا مَصَابيح يُهتَدَى بها في دياجير الجَهل والضَّلال.

وقِيل في تَعلِيل هَذِه الظَّاهِرة أيضًا: إنَّ جذورها نَبَتت في غياهب السجون وظلمة المعتقلات، وما لقيه شَبَاب الجمَاعات الإسلاميَّة مِن قَسوة في التَّعَامُل وانتِهاكَات لِحُقوق السُّجَناء والمُحتَجَزين، ومع وجاهة هذا القَول فإنَّ الجَماعات الإسلاميَّة لَمْ تَكُن وحدَها الَّتي صدمهم هذا اللون مِن العُنف والأذَى البَدَنيّ والنَّفسِيّ، بَل صُدِمَ به كثيرون مِمَّن يَنتَمُون إلى مَذاهِب سِياسيَّة إلحادية نذرت نفسها لِنشر الشِّيوعيَّة والإلحَاد والتَّبشِير بتيَّارات سِياسيَّة لا تَعرفها بِلاد المُسلِمين وتنكرها أشدّ الإنكَار، ومَع ذلِك لَمْ يَتحوَّلوا -في غالبهم- إلى جماعات مُسَلَّحَة تفرِض رأيها بقوَّة السِّلَاح وتَقُضُّ مضاجِع أوطانها قتلًا وتفجيرًا ورُعبًا وتَخويفًا.

إنَّ السُّجون -أيُّها الإخوة العُلَمَاء- لَيْسَت السَّبَب الأوحَد في النزعة التَّكفِيريَّة، واستفحالها وتوحُّشها، وهي وإن كانت مِن بين الدَّوافِع في هذا الأمر، إلَّا أنَّ هُنَاك أسبَابًا أكثر عمقًا يَجِبُ أنْ تُؤخَذ في حُسْبَان لقائنا هذا الذي يُحاوِل ما وسعته المُحَاولة أنْ يكفكف قَليلًا أو كَثيرًا مِن غلواء هذا الشَّر المُستَطير.

وأبرز هذه الأسباب - فيما أرى-: هو التَّراكمات التَّارِيخيَّة لنزعات الغُلُوّ والتَّشَدُّد في تراثنا، والَّتي نشأت مِن تأويلات فاسِدة لِبَعض نصوص القُرآن الكَريم والسُّنة النَّبويَّة وأقوال الأئمة..

ففي هذه التَّرَاكمات مُنزَلقات تُؤدِّي إلى التَّكفِير لأدنى مُلَابسة أو سَبَب، وفيها نزعَات قد انغلقت على بعض الآراء الفِقهية والعقديَّة، تراها الحقَّ الَّذي لا حقَّ غيره، وتَحكُم على مَن يُخالفها بالكُفرِ وبالخروج مِن المِلَّة، وهذا ما حفظه لنَا التَّاريخ عَن الخَوارِج -قديمًا- واجترائهم على قتل الصَّحابة بَعد تكفيرهم، وقتل عليٍّ كرَّم اللَّه وجهه، وَبقْر بطون الحَوامِل.

وهو -أيضًا- ما يعود اليوم إلى السَّاحة مِن جَديد على أيدي هؤلاء التَّكفيريين، ومِن قَبلهم على أَيدي كثيرين سلكوا مسلك التَّكفير المُتبَادل بين أتبَاع المَذَاهِب المُختَلِفة، الَّتي يتَّسِع لَها الإسلام ويَطويها تحت جناحه الرحب؛ وَرَاحوا يعلنون الجِهاد على المُسلِمين الآمنين، يقطعون الرَّؤوس ويحرقون الأسرى وهُم أحياء.. ويقتلون العسيف الذي نهَى رسول اللَّه ﷺ نهيًا صَرِيحًا عَن قَتله في جيش العَدو، فَكَيف بِقتل المواطنين الآمنين في بِلاد الإسلام؟

إنَّ هؤلاء ما كانوا لِيُقدِموا على تَنكُّب هذه الحدود الشَّرعيَّة لولا أنَّهم يَعتَقدون اعتقادًا خاطئًا زائفًا بأنَّهم قَادة جيوش مُسلِمة ضِدَّ شعوب كَافِرة، وفي ديار كَافِرة، ولولا أنَّهم يَعثرون على ما يُبرِّر انحرافهم الدِّينيّ والعقديّ مِن تراث الخَوارِج وغير الخَوارِج مِمَّن اعتنقوا عقيدة التكفير وتمذهبوا به قَديمًا وحديثًا، وصاروا مبعث فتنة ومَصدر فرقة واختلاف وتمزُّق لوحدة المُسلِمين في القَديم والحَديث أيضًا.

واسمَحُوا لِي -أيُّها العُلَمَاء الأجلَّاء-، بالقَول بأنَّه ما لَم نُحكم السَّيطرة التَّعليميَّة والتربويَّة -في مدارسنا وجامعاتنا- على فوضى اللجوء إلى الحُكم بالكُفر والفِسق على المُسلِمين فإنَّه لا أمل في أن تستعيد هذه الأمة قوَّتها ووحدتها، وقدرتها على التحضر ومواكبة الأمم المُتَقدِّمة، وقد لا ينتبه البعض -أيُّها السَّادة!- إلى الأثر المدمر لنزعة التَّكفير في تَمزيق وحدة الأمة،

وما تُثمره هذه النَّزعة المَقِيتة مِن أشوَاك الكراهية والأحقاد بين المُسلِمين، وما يَترتَّب على ذَلِك مِن التَّشرذُم والانقِسَامات، وكلٌ يَزعم أنَّه المُسلِم الحَقِيقي وأن غيره إما خَارِجٌ عَن المِلَّة، حلالُ الدم والعِرض والمَال، أو فَاسِق يَجب اجتنابه، وتجب كراهيته ومفاصلته شعوريًّا ونفسيًّا وتحرم موالاته، وغير ذلك من الفتاوى العابثة بدين اللَّه ورسوله.

وإنِّي لأتمنَّى أن ندعو جميعا إلى مؤتمر نخرج منه بإقرار سلام فيما بيننا أوَّلًا، نَحْنُ أهل العلم والمنتسبين إليه، بمختلف مذاهبنا ومشاربنا، نَستَثمِر فيه ما هو ثابت بيننا مِن الأصول المشتركة نجتمع عليها، ونتآخى حولها، ونتلاقى في رحابها، وأنْ يترك المجال لأهل كل بلد في اتباع المذهب الذي ارتضوه ودرجوا عليه. تحقيقًا للاستقرار الاجتماعي الذي ننشده جميعًا، وألَّا يروج لهذا المذهب أو ذاك -في البلاد التي تتجافى عنه- بِالمَالِ واستغلالِ الفُقَراء والمعوزين، وتجنيدهم ليكونوا دعاةً للتعصب الطائفي أو المذهبي، وسُرعَان ما يَبْعثُ النَّقيضَ ويبدأ الصِّراع الذي يفتت وحدة هذه الأمة.

أتمنى لو يُترَك الناس يتمذهبون بما نُشِّئوا عليه من مَذاهِبَ تلقتها الأمة بالقبول ووَسِعَها الإسلامُ وضمن لأهلها السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

كما أتَمنَّى لَو أنَّ مُقررًا دِراسيًّا في مَدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا يُعنى عناية خاصَّة بتصحيح المفاهيم المغلوطة والملتبسة حول قضايا شَغلت الأذهان والعقول، مثل: قضية الجِهَاد، وقضية التكفير، وسائر القضايا التي سيتناولها مؤتمرنا هذا، وبخاصة خطرَ الفُرقة والتَّنازع، وكيف أنَّه طريق معبَّد لِلفَشَل الذَّرِيع، وربط القُرآن الكَريم بينهما ربطَ المُسبَّب بالسَّبب والمَعلُولِ بالعِلَّة فَقَال: «﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

السَّادة العُلَمَاء . .

تعلمون أنَّنا نواجِه مخطَّطات دوليَّة كُبرى تَستهدِف العَرب والمُسلِمين، وتُريد أن تصوغهم صِياغة أُخرى، وتشتتهم في بلادهم بما يتفق وأحلَام المستعمر الجديد المُتَحالفِ مَع الصُّهيُونيَّة العَالَمِيَّة يَدًا بِيدٍ وكَتِفًا بِكَتِف . . وتعلمون -أيضًا- أن الوسيلة الوحيدة التي يَستخدمها الاستِعمار الجَديد الآن، هي الوسيلةُ ذاتُها التي كان يستخدمُها هذا الاستعمار في القرن الماضي، وهي مَقُولَته القاتلة: «فَرِّق تَسد» والتي تلعب هذه المَرَّة على بؤر التَّوَتُّر والخِلاف الطَّائفيّ والمَذهَبيّ، ومن المؤلم أن أقول: إن هذه المقولة استطاعت أن تَعبَث بهذه الأُمَّة ما شاء لها العبث وما شاء لها المكر والغَدر والتَّسَلُّط، وكان من آثار هذا العبث أن ضَاعَت العِرَاق، واحترقت سوريا، وتَمَزَّق اليَمن، ودُمِّرَت ليبيا . . ولايزال في جُعبَتهم الكثير مِمَّا لَا يَعلَمه إلَّا اللَّه تعالى، ومما نعوذُ باللَّه منه ومِن شرورِه، فَلننس خلافاتنا الَّتي لَمْ نَجنِ مِن ورائها إلَّا الضَّعف والذلة والهَوان، ولِيَكُن مُؤتمرنا هذا علامةً فارِقة وبداية موفَّقة نتصَدَّى بها كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ الَّذي يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا لهذا الخطر الماحِق الذي يحدق بِنَا جَميعًا.

شكرًا لحسن استماعكم.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

كَلِماتٌ فِي التَّطرُّفِ والإرهابِ(*)

(٢)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّ الرَّحمةِ ورسولِ السَّلامِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللَّهِ، وعلى آلِهِ وصَحبِهِ.

أيُّها السَّادةُ الفُضلاءُ الأجلَّاءُ حُكماءَ المسلمين..

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.

اسمَحُوا لي في البدايةِ أن أَستهِلَّ اجتماعَنا هذه المرَّةَ بالتَّوقُّفِ عندَ مصيبةِ الإرهابِ الَّتي ابتُلِيَ بها العالَمُ كلُّه الآنَ، ووصَلَ إلى أماكنَ وبلدانٍ بعيدةٍ، ما كنَّا نظنُّ أن يَصِلَ إليها.

لقد طالَ الإرهابُ الأَسودُ لبنانَ العروبةِ، والتَّعايُشَ المشترَكَ بينَ طوائفِ اللُّبنانيين[(١)]، وطالَ في الأسبوعِ الماضي العاصمةَ الفرَنسيَّةَ باريسَ[(٢)]، مدينةَ العِلمِ والثَّقافةِ، واغتالَ من أبنائِها وبناتِها ما يزيدُ على المِئَةِ مِن القتلى والضَّحايا، وأصابَ مِئاتٍ أُخرى مِن خِيرةِ شبابِهم ومُواطنِيهم، كثيرٌ منهم حبيسُ حالاتٍ حَرِجةٍ تَتأرجَحُ بين الحياةِ والموتِ.

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقِيَت في اجتماعِ مجلسِ حُكماءِ المسلمين المُنعقِدِ بمشيخةِ الأزهرِ الشَّريف بالقاهرة: ٨ من صفر، سنة: ١٤٣٧هـ/ ٢١ من نوفمبر، سنة: ٢٠١٥م.

(١) كان ذلك في ١٢/ ١١/ ٢٠١٥ في منطقة برج البراجنة أَسفَر عن ٤٣ ضحية، و٢٣٩ جريحًا، وتبنى العملية تنظيم داعش الإرهابي.

(٢) كان ذلك يوم ١٣/ ١١/ ٢٠١٥م في الدائرة (٨٥-٨٨) في مسرح باتكلان (Bataklan).

ولنا أن نَتخيَّل كم مِن الأُسَرِ الفرَنسيَّةِ الآنَ تَبدَّلَ حالُها مِن أمنٍ وسلامٍ، واستقرارٍ وأُنسٍ بالحياةِ، وأملٍ مُتوثِّبٍ دومًا نحوَ غدٍ أفضلَ؛ تَبدَّلَ كلُّ ذلك -وفي غمضةِ عينٍ- إلى ما يُشبِهُ حياةَ الجحيمِ والأسى والحُزنِ المُقيمِ والبُؤسِ المُخيِّمِ على الأُسَرِ والبيوتِ والنِّساءِ والأطفالِ، ولم يكن لأيٍّ مِن هؤلاءِ الأبرياءِ يَدٌ فيما حاقَ بهم مِن مصائبَ وكوارثَ وموتٍ وخرابِ ديارٍ.

وما إن بَدَأنا نُفيقُ مِن كارثةِ باريسَ حتَّى جاءت كارثةُ جمهوريَّةِ مالي، وما قُتلَ فيها مِنَ الرَّهائنِ المُحتجزينَ في «باماكو»(١)، واللَّهُ وَحدَهُ الَّذي يَعلَمُ إلى أين يَتَّجِهُ مُستقبَلُ البشريَّةِ القريبُ معَ عصاباتِ الموتِ، ومُقاولي الأسلِحَةِ، وسماسرةِ الدِّماءِ، وكنَّا نظنُّ أنَّ ما حاقَ بنا -نحنُ العربَ والمسلمين في الشَّرقِ مِن آثارِ الدَّمارِ الَّذي طالَ البَشَرَ والحجَرَ- هو نهايةُ المأساةِ، وأنَّ تدميرَ دُوَلٍ عربيَّةٍ وإسلاميَّةٍ بأسرِها على رؤوسِ أَهلِيها وتشريدَهم وهَيَمانَهم على وجوهِهم في القِفارِ والبحارِ، هو كلُّ ما تُخبِّئُه لنا اللَّيالي والأيَّامُ، لكنَّا فُوجِئنا به يَتمدَّدُ غربًا وشَمالًا وجنوبًا كما تمدَّدَ شرقًا مِن قبلُ.

ولعلَّه باتَ مِن المحتَّمِ أن نَعلَمَ أنَّ الإرهابَ هو أوَّلًا وأخيرًا اعتقادٌ وفِكرٌ، بل لعلِّي لا أُجاوِزُ الحقيقةَ لو قلتُ: إنَّه عندَ مُعتنِقيهِ فلسفةُ حياةٍ يَهُونُ مِن أجلِها الموتُ والانتحارُ، وإنَّه ليس إفرازًا لدِينٍ سماويٍّ -أيًّا كان هذا الدِّينُ- بل هو مرضٌ فكريٌّ ونفسيٌّ، يبحثُ دائمًا عن مسوِّغاتِ وُجُودِه في مُتشابهاتِ نصوصِ الأديانِ، وتأويلِ المؤوِّلِين، ونظَراتِ المفسِّرين.

ويُثبِتُ التَّاريخُ -والواقعُ المعاصرُ كذلك أيضًا- أنَّ بواعثَ الإرهابِ ليست قَصرًا على الانحرافِ بالأديانِ نحوَ فُهومٍ مغشوشةٍ مُدلَّسةٍ، بل كثيرًا ما خرَجَ الإرهابُ مِن عباءةِ مذاهبَ اجتماعيَّةٍ واقتصاديَّةٍ، بل وسياسيَّةٍ، وراحَ

(١) كان ذلك يوم ٢٠/ ١١/ ٢٠١٥ في فندق «رادسون بلو» «Radisson Blo».

ضحيَّةَ الصِّراعِ والحروبِ بين هذه المذاهبِ والفلسفاتِ المادِّيَّةِ الَّتي لا تَمُتُّ للدِّينِ بأدنى سببٍ - الآلافُ، بل الملايينُ، مِن الضَّحايا والأبرياءِ.

والدَّرسُ الَّذي يجبُ أن يَعِيَهُ الجميعُ -وبخاصَّةٍ في هذه الظُّروفِ العصيبةِ الَّتي يَمُرُّ بها العالَمُ- أنَّ الإرهابَ لا دِينَ له ولا هُوِيَّةَ له، ومِنَ الظُّلمِ البيِّنِ - بل مِن التَّحيُّزِ الفاضحِ- نِسبةُ ما يَحدُثُ الآنَ مِن جرائمِ التَّفجيرِ والتَّدميرِ الَّتي استَشرَت هنا أو هناك إلى الإسلامِ؛ لمجرَّدِ أن مُرتكبِيها يُطلِقُون حناجرَهم بصَيحةِ: «اللَّهُ أكبرُ»، وهم يَقترِفُون فظائعَهمُ الَّتي تَقشَعِرُّ منها الأبدانُ.

ونحن هنا في مجلسِ الحكماءِ وفي الأزهرِ الشَّريفِ إذْ نُواسي أُسَرَ الضَّحايا في أوروبَّا وأفريقيا ونُشاطِرُهمُ الأَسى والألَمَ؛ فإنَّنا ننتظرُ مِنَ الجميعِ -وعلى رأسِهمُ المفكِّرون والمثقَّفون والسِّياسيُّون ورجالُ الأديانِ- ألَّا يَصرِفَهم هولُ هذه الصَّدَماتِ عن واجبِ الإنصافِ والموضوعيَّةِ، ووضعِ الأمورِ في مَوضِعِها الصَّحيحِ فيما يَتعلَّقُ بالفصلِ التَّامِّ بينَ الإسلامِ ومبادئِه وثقافتِه وحضارتِه، وبين قلَّةٍ قليلةٍ لا تُمثِّلُ رَقمًا واحدًا صحيحًا بالنِّسبةِ إلى مجموعِ المسلمين المُسالِمين المُنفتِحين على النَّاسِ في كلِّ رُبوعِ الدُّنيا.

ونحن المسلمين قد مررنا -ونمرُّ الآن- بأضعافِ أضعافِ هذه الهجَماتِ الإرهابيَّةِ الَّتي شنَّتها علينا جيوشٌ وعصاباتٌ اتَّخذَت مِن الأديانِ رداءً وسِتارًا، وسالَت منَّا دماءٌ لم تَتوقَّف حتَّى هذه اللَّحظةِ التي أَتحدَّثُ فيها إليكم.

ولم يحدُث أنِ اختَلَطَ الأمرُ في أذهانِنا، ولا وَعْينا، بينَ هذه الجرائمِ وبينَ الأديانِ الَّتي ارتُكِبَت باسمِها هذه الجرائمُ، وعلى الَّذين أَقدَمُوا على ارتكابِ جريمةِ حرقِ المُصحَفِ وحرقِ بُيوتِ اللَّهِ في الغربِ أن يَعلَمُوا أنَّ هذه الأفعالَ هي الأخرى إرهابٌ بكلِّ المقاييسِ، بل هي وَقودٌ للفكرِ الإرهابيِّ الَّذي نُعاني منه، فلا تَرُدُّوا على الإرهابِ بإرهابٍ مُماثِلٍ، وليس

مِن المُنتَظَرِ أبدًا ممَّن يَزعُمُون التَّحضُّرَ والتَّقدُّمَ إهانةُ مُقدَّساتِ الآخَرِينَ على مَرأًى ومَسمَعٍ مِنَ النَّاسِ.

السَّـادةُ الحكماءُ..

آن الأوانُ أن نَتحمَّلَ هذا العِبءَ الَّذي يزدادُ يومًا بعدَ يومٍ، فهذا قَدَرُكُم وقَدَرُنا جميعًا، وقد باتت مَهَمَّتُنا بالغةَ التَّعقيدِ، ومُتعدِّدةَ الأبعادِ، وأصبحَ مِن الواجبِ المُتعيِّنِ علينا:

أولًا: أن نسيرَ في اتِّجاهِ إطفاءِ الحرائقِ، ورَدمِ بُؤَرِ التَّوتُّرِ في عالَمِنا العربيِّ والإسلاميِّ ما استطَعنا إلى ذلك سبيلًا.

ولعلَّ وجودَ الأخِ الفاضلِ وزيرِ الأوقافِ الصُّوماليِّ الأستاذِ عبدِ القادرِ شيخ علي إبراهيم بيننا اليومَ فاتحةُ خيرٍ نَبدأُ بها عملَنا مِن أجلِ وَحدةِ الشَّعبِ الصُّوماليِّ، وخُروجِه مِن أزَماتِه الَّتي طالَت دُونَ مُسوِّغٍ ولا سببٍ معقولٍ، ودَفَعَ ثمَنَها البسطاءُ والفقراءُ مِن أبناءِ هذا الشَّعبِ العريقِ الأصيلِ، والمؤهَّلِ لأن يكونَ مَنارةَ حضارةٍ وتَقدُّمٍ وسلامٍ في القَرنِ الأفريقيِّ.

وثانيًا: في اتِّجاهِ التَّصدِّي للفكرِ الإرهابيِّ بمُختلِفِ صُورِه وأشكالِه، ودعوةِ النُّخَبِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ -كلٌّ في مجالِ تَخصُّصِه- لتجفيفِ ينابيعِ هذا الفِكرِ مِن خلالِ منظومةٍ متكاملةٍ تَشمَلُ التَّعليمَ والثَّقافةَ والشَّبابَ والإعلامَ، وخطابٍ دينيٍّ مُعبِّرٍ عن حقيقةِ الإسلامِ وشريعتِه.

وثالثًا: في مُحارَبةِ ثقافةِ الكراهيةِ والحقدِ، ونشرِ ثقافةِ الأُخُوَّةِ والمودَّةِ والزَّمالةِ العالَميَّةِ الَّتي دعا إليها شيخُ الأزهرِ الأستاذُ محمَّد مصطفى المراغي في رسالةٍ مشهورةٍ بعَثَ بها إلى مؤتمرِ علماءِ الأديانِ الَّذي عُقِدَ في لندن عام: **١٩٣٦**م من القرنِ الماضي.

وفي هذا المَقامِ يَطِيبُ لي أن أُوَجِّهَ الشُّكرَ لشابَّاتِ وشبابِ علماءِ الأزهرِ

الَّذين قادُوا قوافلَ السَّلامِ الَّتي بعَثَ بها مجلسُ الحكماءِ إلى إحدى عشْرةَ عاصمةً من عواصمِ أوروبَّا وأمريكا وأفريقيا وآسيا.

وسوف يُطلِقُ المجلسُ اليومَ إن شاءَ اللَّهُ ستَّ عشْرةَ قافلةَ سلامٍ حولَ العالَمِ يَنشُرون بها ثقافةَ السَّلامِ، ويُصحِّحون المفاهيمَ المغلوطةَ، ويَحمِلُون شعارًا مُوحَّدًا «كلُّ شعوبِ العالَمِ نُظراءُ في الإنسانيَّةِ، ومِن حقِّ الجميعِ أن يَعيشَ في أمنٍ وأمانٍ وسِلمٍ وسلامٍ».

والسَّلامُ عَليكُم وَرَحْمةُ اللَّهِ وَبرَكاتُه

***

كلماتٌ فِي التَّطرُّفِ والإرهابِ(*)

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّادةُ الحضورُ..

السَّلامُ عليكُم جميعًا ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

اسمَحُوا لِي في البِدَايَةِ أنْ أتقدَّمَ لكم بخالص الشُّكْرِ والتَّقْدِير على دَعوتي لهذا اللِّقاءِ الَّذي يَجْمَعُنا في ظرُوفٍ قاسيةٍ يَمُرُّ بها عالَمُنَا اليوَمَ، وتحت ضغوطِ أزمَةٍ دينيةٍ أخلاقيَّةٍ تعيشُها الإنسانيَّةُ جَمْعَاء، حتَّى أصبَحَت قيم الأخوة والمَحبَّةِ والسَّلامِ تبدو وكأنَّها استثناءاتٌ مِن قاعدةٍ كُلِّيَّةٍ تحكُمُ العالَمَ؛ هِيَ الأنانِيَّةُ والكَراهِيةُ والصِّرَاع.

ولَعَلِّي لا أُبَالِغُ لو قُلتُ: إنَّنا لا نكادُ نَجِدُ الآنَ وطنًا مِن الأوطانِ إلَّا ويَشْتَاقُ إلى سَلَامٍ دائِمٍ وعَيشٍ لا عُنفَ فيه ولا إرهابٍ.

وإنَّهُ لَمِن دَواعِي الحُزْنِ الشَّدِيدِ أنْ باتَت أصَابعُ الاتِّهام كُلُّها تتوجَّهُ إلى الأديانِ راميةً إيَّاهَا بتُهمةِ صُنعِ هذا الإرهابِ اللَّعِين.

ومن المؤكَّدِ -فيما أرَى- أنَّ أصْحَابَ هذا الاتِّهَامِ يَغفُلونَ أو يتغافلون عن حقيقتَينِ هامَّتينِ في هذا الشَّأنِ:

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقيت في افتتاح الحوار بين مجلس الحكماء المسلمين، ومجلس الكنائس العالمي، بسويسرا في: ٢٨ من ذي الحجة، سنة: ١٤٣٧هـ/ ٣٠ من سبتمبر، سنة: ٢٠١٦م.

أوَّلُهما: أنَّ الأديانَ إنَّما جاءت لترسيخِ السَّلامِ بين النَّاسِ، ورفع الظُّلم عن المظلومِ، والتَّأكيدِ على حُرمةِ دم الإنسانِ، ودليلي على ذلك أنَّ الدِّينَ الذي أعتنقُه اشتُقَّ اسْمُهُ مِن السَّلامِ؛ فكانَ اسْمُهُ «الإسْلام»، وأنَّ السَّلامَ في هذا الدِّينِ اسمٌ من أسماءِ اللَّه تعالى، ومنها: الرَّحمَنُ الرَّحِيمُ والرَّءُوفُ الوَدودُ اللَّطيفُ، كما أنَّ رسُولَ الإسلامِ حدَّدَ مَن هو المسلمُ فقالَ: «**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[(١)]؛ أي: من أذى لِسَانِهِ وأذَى يَدِه.

والحَقِيقَةُ الثانية الَّتي يَتَناساها هؤلاءِ: أنَّ الإرهَابَ الَّذي تُتَّهَمُ بِهِ الأديانُ عامَّةً، والإسْلَامُ خاصَّةً هو إرهابٌ لَا يُفَرِّقُ بين مُتدَيِّنٍ ومُلحدٍ، أو بين مُسْلِمٍ وغيرِ مُسْلِمٍ.

وإنَّ نظرَةً سَريعةً على ضَحايا الإِرْهَابِ لَتُؤكِّدُ أنَّ المُسْلِمينَ هم أكثرُ مَن يَدفَعُون ثمنَ هذا الإرهابِ مِن دمائِهِم وأشلائِهم، ليس فقط في الشَّرقِ حيث يَضرِبُ الإرهابُ دُوَلَ العِراقِ وباكستانَ ولُبنَان ومِصْرَ وليبيا، وحيثُ تمزَّقَت سوريا التي هدَمُوا فيها أكثرَ مِن ألفِ مسجدٍ حتَّى الآنَ، وقُتِلَ فيها أكثرُ مِن أربعِمائةِ ألفِ قتيلٍ، بل أوروبَّا التي سُفِكَت فيها دماءُ المسلمين جنبًا إلى جنبٍ مع دماءِ الأوروبِّيِّينَ في حوادثِ هذا الإرهابِ، ورغمَ هذه الخَسَارةِ، فإنَّ الخسارَةَ الأشَدَّ فَداحَةً والتي أُصيبَ بها المسلمون هي -فيما أعتقدُ- إلصَاقُ هذا الإرهابِ بدِينِهم، وإفرادُهُ بهذه التُّهْمَةِ مِن بينِ سائِرِ الأدْيَانِ، وترديدُ هذا الاتِّهامِ وتكرارُه حتَّى أثمرَ خطابَ الكَراهِيةِ الذي تبنَّاهُ يَمِينيُّونَ متطرِّفُون أهانوا المسلمين، ونادَوا بعَزلِهم وتَهجيرِهم مِن أوطانِهم وألحَقُوا الأذَى بِدُورِ عبادتِهم، فبَاتَ الأبرياءُ بَيْنَ مِطرَقَةِ الإرْهَابِ وسِنْدَانِ «الإسلامُوفوبيا».

---

(١) أخرجه النسائي (٤٩٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السَّـادةُ الحضُـورُ. .

لَا أُرِيدُ أن أَسْتَرسِلَ في الدِّفاعِ عن الأَدْيَانِ ضِدَّ هذه التُّهَمَةِ الظَّالِمَةِ، فأنتُم خَيْرُ مَن يعترف بظُلْمِ هذه التُّهَمَةِ وزَيفَها، ولكنْ أُرِيدُ أنْ أُؤَكِّدَ أنَّ مَسْؤوليَّةَ الأديانِ تجاهَ ترسيخِ السَّلامِ ونَشرِهِ في رُبوعِ الأرضِ، أصبحت هي المسؤوليَّةَ الأُولى لِقَادَةِ الأديانِ، والرِّسَالَةَ الأصِيلةَ للدِّينِ، والتي يجبُ أن تطرُقَ أسمَاعَ النَّاسِ صَبَاحًا ومَسَاءً، فما مِن دينٍ إلَّا وَحَرَّمَ دمَ الإنْسَانِ ومالَهُ وعِرضَه، ولا أعلَمُ دِينًا سَمَاويًّا سَمَحَ بإراقَةِ الدِّمَاءِ، واغتيالِ الحقُوقِ، وترويعِ الآمِنينَ.

وفي اعتِقَادِي أنَّهُ لَنْ يَعُمَّ السَّلَامُ، ولَنْ تَنْعَمَ بِهِ البشَرِيَّةُ؛ إنْ لَمْ تعمَل مؤسَّساتُ الأديَانِ وقادتُها يدًا بيدٍ على صُنعِ السَّلَامِ.

وأُكَرِّرُ على مَسامِعكُم ما نادَى بِهِ الأزهرُ منذُ أكثرَ مِن سبعينَ عامًا وفي عواصِمِ الغربِ هنا أنَّه لابُدَّ أوَّلًا مِن صُنعِ السَّلامِ بينَ رجالِ الأدْيَانِ أنفُسِهم، وبينَهُم وبينَ المُفَكِّرين، وأصْحَابِ القراراتِ المَصِيريَّةِ قَبْلَ العَمَلِ على نَشْرِهِ بين عامَّةِ النَّاسِ.

السيِّداتُ والسَّـادَةُ. .

إنَّ الإدَانَاتِ والبيانَاتِ الَّتي تصْدُرُ من أهلِ الأديانِ ضِدَّ عمليَّاتِ العُنفِ والإرهَابِ وخطاباتِ الكراهيةِ، لم تعد تكفي لوقف هذا الوباء العالمي، بعدما بات واضحًا أنَّه لا تأثيرَ لها على أرضِ الواقعِ، ولذلك، وجب التنسيق -من جديد- للبدء في عملٍ مُشْتَرَكٍ لِمُواجَهةِ ظاهِرَةِ العُنْفِ، ومِن خلالِ مشروعٍ عالَميٍّ يَمَسُّ الواقِعَ ويُغيِّرُه، تقومُ عليه القِيادَاتُ الدِّينيَّةُ، عَبْرَ عدِيدٍ من اللِّقَاءَاتِ الَّتي تَبحَثُ في أسبابِ الظَّاهِرَةِ والوقوفِ على أهمِّ الحُلولِ المُقترَحةِ لِمُواجَهَتِها مواجهةً فكريَّةً عِلميَّةً واجتماعيَّةً وتربويَّةً.

وقد بادرت مُؤسَّسَةُ الأزهرِ فاستَحْدَثَتْ مادَةً جدِيدَةً في مناهِجِهَا التَّعلِيمِيَّةِ لتوعيةِ التلامِيذِ والطُّلَّاب بمَخاطرِ التَّطرُّفِ والإرهابِ، وتَحْصِينِهِم مِنَ الوقوعِ في أيِّ فِكْرٍ يَدْعُو إلى العُنْفِ، أو الانضِمَامِ إلى جماعَاتٍ تَرْفَعُ لافِتَةَ الإِسْلَامِ، وتنتَهِجُ العُنْفَ المُسَلَّح، وبمُوازاةِ ذلك؛ نتمنى أن تقوم مؤسساتُ الأديانِ المختلفةِ بدَورِها في توعيةِ شبَابِ العالَم بقِيَمِ الأخوةِ والرَّحْمَةِ والرِّفقِ، مِن خلالِ تنظيم مُلتقيَاتٍ شبابيَّةٍ دوليَّةٍ كُبرى تُعنَى بتَعريفِ المفاهِيم الدِّينيَّةِ، وفي مقدِّمتِها: ترسيخُ مفهُومِ المواطنةِ الَّذي لَا يُفَرِّقُ بينَ مُواطنٍ وآخرَ على أساسِ الدِّينِ أوِ العِرقِ، ويَسْتَمِدُّ قوَّتَهُ مِن الإيمانِ بالتعدُّدِيَّةِ والحُريَّةِ والمُسَاواةِ، وقَبُولِ الآخَرِ واحترام مُعْتَقَدَاتِه.

وإني إذ أتمنى ذلك فإني أَسْند ظهري إلى سياسة رسولِ الإسلامِ محمَّدٍ ﷺ، في دعوته التي سَبَقَ بها دساتِيرَ العالَمِ حينَ رسَّخَ مبدأ العيش المشترك والمساواة في الحقوق والواجبات بين مُواطني المَدِينةِ المُنَوَّرَةِ مِن مُهاجرِينَ وأنصار وطوائفِ اليهودِ، وهو ما تقرأه في دستور الدولة الإسلامية الأولى في قوله ﷺ: «**أنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ يَثْرِب واليَهُود أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْف أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمَيْنَ دِينُهُمْ**»(١).

وهو تجسيد شديد الوضوح في ترسيخ مبدأ المُساواةِ بين المُواطنِينَ من المسلمين وغيرِ المسلمين في نموذجِ أول دولة للإسلام، سُجِّل في كتابٍ معروفٍ عندنا باسْم «وثيقةِ المَدِينَة».

وفي هذا السِّياقِ نؤكِّدُ أنَّ الإيمانَ بقيمةِ هذا المبدأِ فيه الخلاصُ مِن مشاكلَ دينيَّةٍ واجتماعيَّةٍ لا حصرَ لها سواءٌ في دُوَلِ الشَّرقِ أو في دُوَلِ الغربِ.

ومن هنا كان من الطبيعي أنْ تؤكد شريعة الإسلام على اعتبار أبناء

(١) انظر هذه الوثيقة النبوية في «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٥٠٣.

الديانات الأخرى في بلاد المسلمين مُواطِنين مُشاركينَ في بِناءِ الوطنِ والدِّفاعِ عنه، حتى اشتُهِرَت القاعدةُ الشَّرعيَّةُ الإسلاميَّةُ التي تقولُ: «لَهُمْ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا»(١). وسارت مسرى الرُّكبان.

ومن هذا المنطلق نفسه يشجع الأزهرُ الشَّريفُ المواطنينَ المُسْلِمِين في دُوَلِ الغربِ على اعتبارِ أنْفُسِهِم جُزءًا من مُجتمعاتِهِم، واندماجهم فيها اندماجًا إيجابيًّا وتفاعلهم معَها تفاعُلًا يُحَقِّقُ الرَّخاءَ والسَّلَامَ المُجْتَمَعِيَّ.

ولا شَكَّ أنَّ لرجالِ الدِّينِ هنا دَورًا لا يَنبغي أن يَتجاهلوه، وبخاصة دورهم في كَسْرِ الحواجزِ النَّفْسِيَّةِ التي بناهَا دُعاةُ العُنْفِ والعُزلةِ والكَراهيةِ بين المختلفينَ في الاعتقادِ، وذلك مِن خلالِ إبرازِ حقائقَ كثيرةٍ يأتي في مقدِّمتِها أنَّ مبدأَ الاختلافِ، ومنه: الاختلاف في العقيدة والدين - هو سُنَّةُ اللَّهِ وإرادتهُ في عبادِه، وهي العاصم من التردي في علاقات الصراع والحروب، وأن مصادرة هذا المبدأ باسم الإسلام يوقع في بؤرة التناقض بين حق الاختلاف ومصادرة هذا الحق.. وهو ما يستحيل على شريعة القرآن أن تقع فيه.

وفي نِهَايَة كَلِمَتِي -أيها الحفل الكريم!- أتطلَّعُ لبذل المزيد من الجُهُودِ لِمُواجهةِ جَميعِ المظاهرِ والمُمَارسَاتِ الَّتي تَقِفُ في طريقِ نشرِ السَّلامِ والرَّحمَةِ والعَدْلِ بين النَّاسِ في الشَّرقِ والغربِ، والخُروجِ بمَشروعٍ إنسانيٍّ مُتَكَامِلٍ ينتهي بِنَا إِلَى التأثيرِ الإيجابيِّ على مَجرَياتِ الأحداثِ مِن حَولِنَا، علَّنَا نقابِلُ اللَّهَ ولَدَينا مِن أعمَالِ الخَيْرِ مِا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ حِسَابِهِ وعقابِه.

شُكْرًا لَكُمْ.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمــةُ اللَّهِ وبركاتُه

❊ ❊ ❊

(١) أخرج الشافعي في «المسند» (١٦٢٣) عن عليٍّ رضي الله عنه قال: «من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا». وينظر: «مقاصد الشريعة الإسلامية» للطاهر بن عاشور: ١/ ٦٨٣.

صِناعةُ الإرهابِ والوَعيُ الغائبِ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحضور الكريم . .

السَّلامُ عَلَـيْكُم ورَحْمَـةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

وبعد :

فيُسعدني في بداية كلمتي هذه أنْ أتوجَّهَ بالشُّكرِ الجزيل لسلطنة بروناي : سُلطانًا وحكومةً وشعبًا على حُسْنِ الاستقبال وكرم الضِّيافة ، مُقَدِّرًا لهذا البلد الطَّيِّب الكريم تمسُّكَه بأصولِه وجذوره، وصموده في وَجْه التيَّارات العاتية والرياح المُدَمِّرَة التي هَبَّت علينا في الآوِنَة الأخيرة، وجَعَلت بأسَنا بينَنا ، وأطمَعَت فينا الطَّامِعين والمتربِّصين بأُمَّتنا وبحضارتها العريقة وتاريخها المجيد .

أمَّا عن كلمتي التي يُسعدني أن أطرَحها على مسامع حضراتكم ، مِمَّا يتعلَّق بموضوع تحديَّات العالَم الإسلامي والإرهاب، فما أظنُّ أني سأتلُو عليكم فيها جديدًا لم تعرفوه من قبل . . فقد قُتِل هذا الموضوع : بحثًا ومحاضراتٍ وندواتٍ ومؤتمراتٍ ، حتى اعتقد البعض أنه لم يَعُد يقبلُ المزيد من البَحث والنَّظر من كَثْرَةِ مَا كُتِبَ عنه ، وما أُنفِقَ فيه من جهدٍ وطاقاتٍ وأموالٍ ، لكن لا ينبغي -بل لا يجوز- أنْ نتوقَّف عن الحديث عنه ، أو نصمت لحظةً عن التَّنبيه إلى خَطَرِه وتأثيره البالِغ السُّوءِ على الإسلام والمسلمين .

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في بمركز المؤتمرات الدولي بدار السلام بسلطنة بروناي، ٢١ من شعبان، سنة : ١٤٣٩هـ، الموافق : ٧ من مايو، سنة : ٢٠١٨ م .

أما الإرهاب فإنَّه ظاهرةٌ شديدة التَّعقيدِ والغموض إذا ما رُحتَ تحاوِلُ التَّعرُّف على أسبابها الحقيقيَّةِ، أو تحاول البحثَ عن حلٍّ لهذا التناقض الشَّديد بين أسبابها الظاهرة ونتائجها في واقع الأمر.

فحَسَبَ نظريَّة «الإسلاموفوبيا»؛ يجب أن يُفسَّر الإرهاب بأنَّه ظاهرةٌ «إسلاميَّةٌ» نشأت في أحضان نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة، ويجبُ -حسب هذا المنطق- أن يكون «غيرُ المسلمينَ» هم المستَهدَفين بهذا الإرهاب.. ولكن انظروا إلى الواقع على الأرض، لتَجِدُوا أنَّ المسلمين هم ضحايا هذا الإرهاب، وأنهم المستَهدَفُون بأسلحتِه وبطريقتِه البَشِعة في القَتل وإزهاقِ الأرواحِ، وأنَّ ضحاياه من غير المسلمين عدَدٌ لا يكاد يُذْكَر إلى جوارِ الآلافِ المؤلَّفة ممَّن سُفِكَت دماؤُهم المعصومة على مرأًى ومَسمَعٍ من ضَميرِ العالَم المُتحضِّرِ، وتحت سَمعِ وبصَر مؤسَّساتِه الدَّوليَّة التي نصَّبَت من نفسِها ضامنًا لسلام الشُّعوب وأَمنِها، وحاميًا لحريَّات الإنسان وحقوقِه في حياةٍ آمنةٍ وعَيشٍ كريمٍ في ظِلال السَّلام.

وانظروا أيضًا إلى خريطة العالَم وتعرَّفوا على الشُّعوب التي دَفعت -وَحدَها- «فاتورة» هذا الوَباء، وسوف تجدون مرَّة ثانيةً أنَّ دولًا من عالمنا العربي والإسلامي هي التي قُدِّمت «قربانًا» على مذابح «الفوضى» التي تقود العالم الآن.

وقد نَفهمُ إمكانَ أن يَنشأَ إرهابٌ في أحضان بعض المسلمين يتعقَّبُ غيرَ المسلمين ذبحًا وفتكًا وتشريدًا، وقد نفهم إرهابًا ينشأ في أحضان بعض المسيحيِّين ليتعقَّب المسلمين إبادةً واجتثاثًا من الجذورِ كما حَدَث في القُدس والشَّام في «حروب الفرنجة»، أو ما يُعرف عند الغرب بالحروب الصليبية، ولكن لا نفهم إرهابًا مسيحيًّا ضحاياه من المسيحيِّين دون غيرهم، ولا إرهابًا إسلاميًّا يستهدف المسلمين دون غيرهم - فهذا هو التّناقض في

الحدود والذي يُفسد القضايا ويُفرِّغها من أي معنًى منطقي ويحيل القضية برمتها إلى محض سفسطة ومغالطات.

الحفل الكريم..

لقد هبَّ العالَم الإسلامي بحُكَّامه وبعلمائه ومُثقَّفِيه وكُتَّابه وكلِّ شُعوبه لِيَستنكر حادثة الإرهاب المشهورة بحادثة: ١١ سبتمبر من عام ٢٠٠١م، تلكم الحادثة التي استهدفت مئات الضحايا من الأرواح التي زُهِقَت ظُلمًا وعدوانًا، ومنذ وقوع هذا الحادث الذي هزَّ ضمائر المسلمين قبل غيرِهم -وحتى اليوم -لا تكف الألسنة والأقلام عن إدانة «الإرهاب» و«الإرهابيين» وعن التَّأكيد على أن هذه الفئة الشاردة الضالة لا تمثِّل الإسلام وإن مارست جرائمها باسمه، وتحت لا فتته، وأن هؤلاء مجرمون محاربون للَّه ورسوله، ومُفسدون في الأرض، ولهم جزاء معلوم في كتاب اللَّه وسُنَّة رسوله ﷺ.

ورُغم هذا الموقف الصريح المُعلَن لازالت «الاتِّهامات» الجائرة تشوِّه سُمعة هذا الدِّين الحنيف، وتخوِّف الناس من المسلمين ومن دِينهم، مما يدلُّنا -بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة-على أن هناك قوة خفية متربصة تُصِرُّ على إساءة فهم الإسلام وسُوءِ الظَّنِّ بالمسلمين، وتَشويهِ سُمعة دينِهم، واستخدامِ منهج انتقائيٍّ في قراءة نصوصِ القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة بعد اجتزائها وإخراجها من سياقاتها التي لا يتَّضِح معناها الحقيقيُّ إلَّا على ضوئها وضمن دَلالاتِها المحدَّدَة، ورُغم أنهم يعلمون علم اليقين أن منهجهم هذا لو طبَّقُوه على الكتب المقدَّسة الأخرى التي يؤمنون بها؛ فلن يَسلَم لهم دِينٌ من الأديان السَّماويَّة من تُهمة الإرهاب وقَطعِ الرُّؤوس وإحلالِ السَّيفِ محلَّ السَّلام، وإبادةِ الأبرياء من النِّساء والأطفال، بل الحيوان والنَّبات والجماد.

السَّيِّداتُ والسَّادة . .

كثيرٌ من كِبار المحلِّلين من الغرب والشَّرق ممن رَصدُوا ظاهرة الإرهاب، وحاولوا سَبرَ أغوارها - تنبهوا إلى أن عودة «السلام العالَمي» ليعم العالَم كله تقف في وجهها تحديات كثيرة، أهمها ما ظهر في أعقاب نهاية الحرب «الباردة» من نظريات سياسية تُؤصِّل للصِّراع بين الأديان والحضارات، ورأت في الإسلام وثقافته عدوًّا للحضارة التي وصَفَها بعضُ المنظِّرين السِّياسيِّين الغربيِّين بأنها نهاية الحضارات أو نهاية التاريخ، وبات الباحثون المنصفون على يقينٍ من أنَّ هناك فلسفة تَحكُم السياسات الدَّولية تقوم على مبدأ صراع الحضارات، واستنفار الطاقات لمواجهة الإسلام كعَدُوٍّ أوَّلَ في حَلَبةِ هذا الصِّراع، وجدوا فيه.

وفرصة ذهبيَّة لتوحيد كلمة الغرب، وتجنُّب النِّزاع الذي قد يُفضِي بهم إلى حروب داخلية، وهم قد جرَّبوا عواقبها المدمرة من قبل، فقرَّروا عدم السماح بتكرار هذه الحروب مرَّةً أخرى حِرصًا على شُعوبهم وصونًا لدماءِ أبنائهم، وحفظًا لمقدَّرات حضارتهم ومكتسباتها التي حقَّقُوها بالعَرَق والعمل الجاد المسؤول.

وفيما أعتقد؛ فإنَّ هذا الجوَّ، أو هذه الظُّروف السِّياسيَّة المعقَّدة، هي أنسب الظُّروف التي يجبُ أن نبحث فيها عن «الإرهاب»: نشأةً وأسبابًا ومقاصدَ وغاياتٍ، وسوف نكتشف في ضوء هذه الظروف أن السياسات الجائرة هي الأم الرؤوم والحاضنة للإرهاب ولتنمره وتغوله، وليست نُصوصُ القرآن الكريم ولا السُّنَّة النبوية الطَّاهرة، ولا الكُتُب التي أنزلها اللَّه على رُسُله وأنبيائه بمسؤولة عن هذا «الإرهاب» الذي يُدمر دُولًا بأكملها، وهو ينتقل بمعداته الثقيلة وجيوشه الكثيفة بين الحدود في عالمنا العربي، وفي حرية وتأمين يُحسد عليها.

ونحن نتساءل: من وفر له هذا الأمن؟ ومن سمح له باختراق الحدود؟ ومن يدعمه بالمال والسلاح والتدريب؟

نتساءل عن كل ذلك، في الوقت الذي يتردد فيه على أسماعنا أن أية ذبابة تطير فوق البحر الأبيض المتوسط مرصودة وتحت السيطرة!![1] وهل نصوص القرآن الكريم تصلح لتفسير هذه الأهوال التي تندلع فجأة هنا أو هناك، ثم يكون المسلمون وحدهم وقودَها وضحاياها!!

إنَّ البحث النَّزيهَ المنصِفَ لابدَّ أن ينتهي إلى أنَّ الإسلام بريءٌ من هذه البربريَّة الهمجيَّةِ، ولا علاقةَ لها به، لا نشأةً ولا رعايةً ولا دعمًا، بأي لونٍ من ألوان الدَّعم. كيف! وفلسفةُ الإسلام في معاملة الآخَرينَ لا تَعرِفُ مبدأ الصِّراع، ولا التَّصنيف بين أسود وأبيض، ولا بين شرقيٍّ وغربيٍّ، وإنَّما تَعرِف مبدأً واحدًا فقط في معاملة النَّاس هو: «مبدأ التعارف» الذي يعني التَّفاهم والتَّعاون وتبادل المنافع والمصالح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذه الآية الكريمة، رُغم تداولها على ألسنة الكثير من المسلمين وغير المسلمين، فإن كثيرين لا يتنبهون إلى أنها تُذَكِّر -في المقام الأول- بوَحدَة الأصل وبأخوَّة البشر والتقائهم بكلِّ شُعوبهم في أبٍ واحِدٍ وأمٍّ واحدةٍ.. وأنَّه لا مَفرَّ لكي تستقيمَ الحياةُ، ويتحقَّقَ مرادُ اللَّه من خِلافة الإنسان في الأرض - من أن يكون «التَّعارفُ» هو الإطار الحاكم للعلاقات بين الناس.

(١) هذا التشبيه هو للسيد عمرو موسى في كلمة بعنوان «**تحدِّيات السَّلام**» في مؤتمر الأزهر العالمي للسلام، انظر: أعمال المؤتمر: ٥٠، دار القدس العربي، القاهرة: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

وقد أكَّدَ نبيُّ الإسلام ﷺ هذا المبدأ في خطبته في حجة الوداع، وهي الخطبة الأخيرة التي كانت بمثابة «الدستور» النهائي الموجَّه للناس كافة، وليس للمسلمين وحدهم - أكد مبدأ حرمة الدماء والأعراض والممتلكات، فقال: «**أيها الناس، إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ**»(١).

من هنا كان من المستحيل أن يَأمُر القرآنُ بالحروب التي تُفضي إلى القتل وسَفك الدِّماء وتشريد الآمِنينَ، وجَني الأرباح الاقتصادية الهائلة من مصانع الموت والتَّدميرِ والتَّفجيرِ، ومن هنا -أيضا- كانت الحرب في الإسلام استثناءً لا يُلجأُ إليه إلَّا في الضَّرورات القُصوى التي لا مَحيد عنها بحالٍ من الأحوال. . وهذه هي نصيحةُ القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠].

وهي -نفسُها- نصيحةُ نبيِّ الإسلام ﷺ: «**لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ**»(٢).

ويتساءلُ كثيرونَ: إذا كان الأمرُ كذلك فلماذا قاتلَ الإسلام غير المسلمين كما هو معلومُ من التَّاريخ؟

والجواب: أن الإسلامَ لم يُقاتِل أحدًا تحت بَنْد «الكُفر»، وكيف يُتصوَّر ذلك والقرآن الذي يصطحبه جيشُ المسلمين في رِحَالهم يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٩٦٦) ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه.

وكيف يَشُنُّ المسلمُ حربًا لإكراه الناس على الدُّخول في الإسلام وهو يتلو في قرآنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؟

نعم، لا يقاتل الإسلام أحدًا تحت راية الكُفر أو الإكراه على الدِّين، وإنما يقاتل تحت مبدأ «العدوان» وردع «المُعتدي» سواء كان هذا المُعتدي كافرًا أو مؤمنًا.. وتأمل كيف أمر القرآن بقتال المعتدي المؤمن في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٩]، ففي هذه الآية يأمُرُنا اللَّه تعالى أن نقاتلَ المؤمنين البُغاة المعتَدِين على النَّاس، وهذا الأمرُ آكِدٌ في الوجوب إذا كان المعتدِي من غير المؤمنين، لأنه يكون أكثرَ فَتكًا وأشدَّ أذًى.

السَّيِّداتُ والسَّادة..

هذه هي أهمُّ التَّحديات التي تواجِه المسلمين اليوم وهم يَتطلَّعُون إلى إطفاء نيران الحروبِ التي اشتعلت في ديارهم، وإلى حقِّهم في الأمن والسَّلام والعيشِ الكريمِ كبقيَّة خَلْقِ اللَّه.

والذي أعتقدُه جَزمًا ويقينًا أنَّ أمَّةَ العرب والمسلمين قادرةٌ على تحقيق هذا الأمل؛ إذا ما استطاعت أوَّلًا أنْ تُنهيَ ما بينها من خلاف وفُرقةٍ وصراعٍ بدَّد طاقتَها وأوهنَ عزيمَتَها، وهي قادرةٌ على أن تَقطَعَ الطَّريق على العابثين بوَحدَتِها وأُخوَّتِها، والعازفين لها على أوتار الطَّائفيَّةِ والعِرقيَّةِ والمذهبيَّةِ، وذلك ما استمعوا لقول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] استماع تذكر وتدبر وطاعة وتسليم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [مُحمَّد: ٢٤].

وعلينا -أيها الجمع الكريم- ونحن نتصدَّى لتحدِّيات الإرهاب أن نَلتفِتَ جَيِّدًا إلى مناهج التعليم في بلاد المسلمين، وبخاصةٍ في مراحله: الابتدائيَّةِ والإعداديَّة، وأن نُقدِّمَ الإسلامَ للنَّاشئة كما أنزله اللَّه تعالى وبلَّغه رسوله ﷺ،

هذا الإسلام الذي مَكَّن أتباعه من إضاءة العالَم وتمدينه وترقيتِه وتحضيرِه ولم يمض قَرنٌ أو قرنان على انتقالِ صاحب الرسالة صلوات اللَّه عليه إلى الرَّفيقِ الأعلى.

والأملُ معقودٌ -بعد اللَّه تعالى- على علماءِ هذا الثَّغْر الإسلامي الرَّاسخ في أقصى الشَّرق الإسلامي، وما يُمثِّلُونه من حِفاظٍ على مذهب «أهل السُّنَّة والجماعة» وتمسُّك بأهدابه: أصولًا على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، وفروعًا على مذهب الإمام الشَّافعي رضي اللَّه عنهما.

وقد سَعِدتُ كثيرًا حين عَلِمتُ من كِبار المسؤولين الذين لقيناهم بالأمسِ أنَّه قد تخرَّجَ في الأزهر الشَّريفِ من أبناء هذا البلد وبناته أكثر من ستِّ مِئَةٍ وخمسينَ خرِّيجًا منذ خمسينيات القرن الماضي وحتى اليوم، وأنَّ أبناء الأزهر هنا ينتشرونَ في مواقع الدَّولة المختلفة: قُضاةً ووزراءَ وسفراءَ وأساتذةً وسياسيِّين وإعلاميِّين، وأنَّ هؤلاء العلماء كانوا وسيظلون أوفياء لمنهج الأزهر الشريف ورسالته الوسطية، ونَشرِ عُلومِه وثقافَتِه، وقد انعكس كل ذلك على هذا الشَّعب الطيِّب الكريم: أمنًا وسلامًا ورخاءً وكفاية، ورُقيًّا حضاريًّا رائعًا، يزهو بخَلفيَّة إسلاميَّة راسخةٍ من التَّمسُّك بالجذور والحفاظ على الهُويَّة والجمع بين الأصالة والمعاصَرة في اتِّزانٍ بديعٍ لا يطغَى فيه طرفٌ على طرفٍ.

وختامًا أُكرِّرُ خالِصَ الشُّكر الجزيلِ لحضراتِكُم، وأُؤكِّد على استعدادِ الأزهر، غير المحدود، لدَعمِ هذا البلد الكريم بكلِّ ما يحتاجُه في مجالِ التَّعليمِ والدَّعوة والثَّقافة بما يُحَقِّق نشر رسالة الإسلام خالصةً كما أنزلها اللَّه وسطًا لا إفراطَ فيها ولا تفريط.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعِكُم.

والسَّلامُ عَلَيْكُم ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه

صناعةُ الإرهاب في العالَم المعاصر(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السادة الحضور..

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد:

فيُسعِدُني أن أتقدَّمَ بخالصِ الشُّكرِ الجزيلِ إلى جمهوريَّةِ «كازاخستان» رئيسًا وحكُومَةً وشَعبًا، لدعوتي للمُشاركة في المؤتمر السَّادس لزعماء الأديان، والذي ينعقدُ في عاصمةِ هذا البلد الطَّيِّب أهله، لمواصلة البحث، وتدقيق النَّظَر في إقرار السَّلام والوفاق والتَّعاون البَنَّاء من أجلِ رخاءِ الإنسانيَّةِ جمعاء.

وأُكَرِّر الشُّكرَ العميقَ لفخامة الرَّئيس نور سلطان نازار باييف على تبنِّي سيادته هذا المؤتمر.

فخامة الرَّئيس..

قد يكون من الصَّعبِ على أمثالي، مِمَّن شاركوا في مؤتمراتٍ عديدةٍ للحوارِ بين الأديان، ولبحث ظاهِرة الإرهاب -أن أضيفَ اليوم في كلمتي هذه جديدًا على أسماع السَّادة المشاركين في هذا المؤتمر الكبير، ولكن قد يكون لكلمتي مُبرِّر لو أفلحت في لفتِ الأنظَار إلى محوريَّةِ موضوعِ هذا

(*) أصل هذه المحاضرة؛ كلمة ألقيت في افتتاح مؤتمر زُعماء الأديان، الذي أقيم بقصر السلام والوفاق، بالعاصمة الكازاخية «أستانا» بحضور رئيس جمهورية كازاخستان، في: ١ من صفر، سنة: ١٤٤٠هـ، الموافق: ١٠من أكتوبر، سنة: ٢٠١٨م.

المؤتمر وخطرِه البالغ الأهميَّة في تكييف «أزمة عالمنا المعاصر» وأنَّه لا مفرَّ في حلِّها من ضَرورة العودة إلى الدِّين ومرجعيَّته كحارسٍ للأخلاقِ وضوابطِها، ومُنقِذٍ لحضارتِنا الحديثة ومكاسبِها ومُنجزاتِها مِمَّا يَنتظرها من مصيرٍ تؤكِّده سُننُ اللَّه في سِيَر الحضارات وتاريخ الأُمَم والشُّعُوب.

الحَفلُ الكَريم..

لعلَّ من نافِلَةِ القول التأكيد على أنَّ عالمَنا اليوم يُعاني من أزمةٍ شديدةِ التَّعقيد، نُسجتْ خيوطها من الأَلم والتوتُّرِ والتَّوجُّس والجزَع، وتوقُّع الأسوأ في كلِّ يوم، حتى أصبحَ العُنف المتبادَل أشبهَ بأن يكون قانونَ العلاقات الدوليَّة، أو لُغةَ الحوار بين الغربِ والشَّرق، ولا يحتاج المتأمِّل في هذه الأزمة إلى أكثر من أن يلتفت حوله ليُدركَ أنَّ ظاهِرةَ «البُؤس» هي السِّمَة التي تكاد تتفرَّد بها حضارتنا المعاصرة عن باقي الحضارات التي مَرَّ بها تاريخ الإنسانيَّة قديمًا وحديثًا.

كيف لا؟! وقد كان القرنُ التاسع عشر، الذي هو قرن التَّطوُّر والمذاهب العلميَّة والفلسفيَّة، هو نَفسه قرن التوسُّع الشَّرِه اللاإنساني في استعمار الأُمَم والشُّعُوب ونَهبِ ثرواتها ومُصادَرة حقوقها واستغلال مواردها ومُقدَّراتها، بعد ما زعم منظِّروا الاستعمار أنَّ النَّاسَ ليسوا سواء لا في أصل خِلقَتِهم، ولا في أجناسهم، وأنَّ الجنسَ الأبيض، أو الجنس الآري هو الجنس الأعلى، ورسالته التي كُلِّفَ بها من السَّماءِ هي تهذيب الأجناس الأخرى التي هي أدون منه: إنسانيَّةً وعقلًا وتفكيرًا.

ثم جاء القرن العشرون، وقد ظَنَنَّا أنه قرن الإنصاف وعودة الوعي السَّليم إلى صُنَّاع السياسات العالميَّة المندفعين بهَوَسِ العُنصريَّات ودعاوَى القوميَّات حتى في داخل العُنصر الأوروبي الآري نَفسِه، ولكن جاء هذا القرن فإذا به قرن

الحربين العالميتين التي راحَ ضحيَّتها أكثر من سبعين مليون ضحيَّة من الشَّباب والرِّجال والنِّساء والأطفال من كل الملَلِ والنِّحَل والأديان. . وكانت هاتان الحربان وَصمَة عار في جبين دعاوى التقدُّم العلمي والفلسفي والفَنِّي.

ثم أفاقَ قادَةُ العالَم، وتنبَّهوا لفداحة الثَّمن، وتفاهَة البواعث التي أشعلت نيران الحرب، فتواضعوا على ضرورة أن يعيشَ العالَم في أمانٍ وسلامٍ، وأسَّسُوا لهذا الهدف النَّبيل مُنظَّمات دوليَّة، وأذاعوا على أسماع الدُّنيا، في الشَّرقِ والغَربِ ما عُرِفَ بإعلانِ الأُمَم المتَّحِدَة، أو «الميثاق» الذي يَضمنُ للشعوبِ حقَّها في الأمنِ والتقدُّمِ والرفاهية.

وتكفَّلَت المادة الأولى في هذا الإعلان بحفظِ الأمن والسَّلام الدَّوليَّين، وتطبيق مبدأ المساواة بين الدول والأعضاء، ومنع استخدام القُوَّة، أو التهديد بها في العلاقات الدولية، ومنع «التدخل في الشؤون الداخلية للدول» ولم يدر بَخَلَد جيلي الذي أنتمي إليه أن هذا «الميثاق العالمي» الذي تعهَّد بحماية المستضعَفين وردع المتسلِّطين سوف يصبح مجرَّد حبر على وَرَقٍ حين يتعلَّق الأمر بالبلاد النَّامية، وببلدان الشرق الأوسط، والشعوب المغلوبة على أمرها، وأنَّ القائمينَ على حراسة هذه المواثيق وتطبيقها سوف يَكيلون للشُّعُوب بمِكيالين، فيمنحون السَّلام مَن يَشاؤون، ويصرفونه عَمَّن يشاؤون، حَسب ما تَشاء الأهوَاء وتقضي المصالح والأغراض، ووَفقًا لمنطقِ القُوَّة والهيمَنة، والقاعدة اللاأخلاقيَّة التي تُقرِّر: «أنَّ الغايةَ تُبرِّرُ الوَسيلَة».

ثم أطَلَّ القرن الواحد والعشرون فجاء امتدادًا لنوعٍ آخر من الحروب، هو حروب الإرهاب، وسُرعان ما أُلصق اسم «الإرهاب» بالإسلام وحده من بين سائر الأديان، وبالمسلمين وحدهم من بين سائر المؤمنين بهذه الأديان.

ويحزنني كثيرًا -أيتها السَّيِّداتُ والسَّادة- أن أقول: إنَّنا كدنا نُصَدِّق هذه

الأكذوبة الماكرة، وطفقنا نهدر الجهد والطَّاقة في الدِّفاع عن الإسلام، وتَبرئته من تُهمَةِ «الإرهاب»، مع أنَّ المقام ليس مقام دفاعٍ بقَدرِ ما هو مقام فضحٍ للنوايا السَّيِّئة والحمَلات الإعلاميَّة المُمَنهَجة التي أفلَحت، نعم: أفلحت، وأقولها بكل أسى ومرارة، أفلحت في أن تربط في وعي جماهير الغرب بين الإسلام والإرهاب، والمسلمين والمتوحشين المتبربرين، ونجحت في ترويع شباب العالَم وأطفاله ونساءه ورجاله من هذا الدِّين القَيِّم، ومن نبيِّه الكريم الذي أرسله اللَّه رحمةً للعالمين صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

والحديث في قضيَّةِ الإرهاب حديث ذو شجون، أكتفي فيه بملاحظة عابرة هي: أنه عند التأمُّل الدَّقيق يتَّضح أن إمكانات المنطقة العربية التِّقنيَّة والتدريبيَّة والتَّسليحيَّة لا تَكفي لتفسير ظهور هذا الإرهاب ظُهُورًا مُباغِتًا بهذه القُوَّةِ الهائلة التي تُمكِّنه من التنقُّل والتحرُّك واجتياز حدود الدول، والكَرِّ والفَرِّ في أمانٍ تامٍّ، ممَّا يحملنا على الشَّكِّ كل الشَّك في أن هذا الإرهاب، وقد وُلِدَ بأسنانٍ وأنيابٍ ومخالبَ، صناعةٌ عربيَّة إسلاميَّة خالصة، نقول هذا مع اعترافنا بأن المسرح فعلًا مسرحٌ عربيٌّ إسلاميٌّ، وأنَّ اللاعبينَ مُسلِمُون وعَرَب، لكنَّنا نرتاب كثيرًا في أن يكون أي من نص المسرحية وإخراجها عربيًّا خالصًا أو إسلاميًّا خالصًا.

هذا الإرهاب الذي مارس جرائمه البشعة تحت لافتة الإسلام استهدف المسلمين رجالًا ونساءً وأطفالًا، ولم يستهدف غيرهم إلَّا استثناءً من قاعدته التي روَّع بها المنطقة العربيَّة بأسرها من أقصاها إلى أقصاها، واستهدف قطع رؤوس المسلمين وحدهم في صور بشعة نكراء مقترنة بصيحة «اللَّه أكبر» ليترسَّخ في وجدان الآخرين أن هذا هو دين الإسلام، وأن الصبر عليه

وعلى المؤمنين به لم يعد محتملًا، وأنَّ سياساتٍ عالميَّة جديدة يجب أن تَنزلَ على الأرض لتُغيِّر هذه الأوضاع الوحشية.

الحَفلُ الكَريم..

إنَّ عقيدتي في موضوع «الإرهاب» -وقد أكون مصيبًا وقد أكون غير ذلك- هي أنه ليس صنيعة لا للإسلام ولا للمسيحيَّة ولا لليهوديَّة كأديانٍ سماويَّة، ورسالاتٍ إلهيَّة بَلَّغَها أنبياء اللَّه ورسله: موسى وعيسى ومحمد صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، ولكنه صنيعة سياسات عالمية جائرة ظالمة ضَلَّت الطَّريق وفَقَدَت الإحساسَ بآلامِ الآخرين من الفُقَراء والمستضعفين من الرِّجالِ والنِّساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدونَ سبيلًا..

هذا التفسير يكشف لنا عن سر استقطاب جماعات الإرهاب طائفةً من الشَّباب في أوروبا لم يُعرف لهم ولا لعائلاتهم سابقة في التديُّن أو الالتزام بشريعة الإسلام.

ولقد قرأتُ في دراسةٍ عن الحركاتِ المتطرِّفة في أوروبا «أن أغلبية الشباب الأوروبي من المجندين في العراق وسوريا ليسوا من المُتديِّنين».

وتَبيَّن من إحصاءاتٍ أُجريَت هناك على أربعمائة عائلة أوروبيَّة «التحق أبناؤها أو بناتها بالجهاد في سوريا والعراق أنَّ ٤٠٪ من هذه العائلات ملاحدة، و٤٠٪ كاثوليكية، و١٩٪ مسلمة، وواحد في المائة يهودية».

إذًا فليست القضيَّة قضية شباب مُسلِم وجهاد إسلامي، وإنَّما هي قضية الظُّلم والتَّهميش، والإحساس بالدُّونيَّة وانتِقَاص الحُقُوق، وقَسوَة الاغتراب النَّفسي عند بعض الشباب، نتيجة فراغ الحضارة المعاصرة من قِيَم الدِّين وأخلاقياته وتعاليمه هذا الفراغ الذي لا يملؤه إلَّا هَدي السَّماء ونُور النُّبوَّة.

وأختمُ كلمتي أيُّها الحفلُ الكَريم، بمعلومةٍ طالَعتنا بها صُحف يوم الثالث عشر من سبتمبر الماضي تقول: «إنَّ المسؤولينَ عن السِّياسةِ الدوليَّة أنفَقُوا تريليون ونصف تريليون دولار على الحروب المندَلعة في أفغانستان والعِراق وسُوريا في الفترة من ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وحتى ٣١ مارس ٢٠١٨م، وأن هذا المبلغ يُعادل ميزانيَّة دولة كُبرى مثل ألمانيا لمُدَّة ٥ سَنوات».

وتساءلت: لماذا؟ ولمصلحةِ مَن؟ وهل كان يُسمَح بإنفاقِ عُشر مِعشار هذا الرَّقم لمصلحةِ الشُّعُوب البائِسة المحتاجة، ولمُحاربة الفَقر والمرَض والجهل، ومِن أجل الجوعى والمُشرَّدين والمهجَّرين من بيوتِهم وأوطانِهم رغم أنوفهم، في ميانمار وفي القُدسِ وفلسطين وغيرها؟

شُكرًا لِحُسنِ استِمَاعِكُم، وَعُذرًا للصَّراحَةِ والإطالة أيضًا.

والسَّلامُ عَلَيكُم ورَحمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

* * *

في
السلام وما إليه

الحضارة الإسلامية

حضارة المساواة والحرية(١)

بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ للَّه، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ المرسلينَ، سيدِنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ، أمَّا بعدُ:

فمنذُ أكثرَ من قرنٍ من الزَّمانِ، في سنةِ ١٨٩٠م تقريبًا، كتب الشَّاعرُ البريطانيُّ جوزيف كيبلينج (١٨٦٥-١٩٣٦م) قصيدتَه الشَّهيرة: «أنشودة الشرق والغرب» استهلها بقوله: «الشرق شرقٌ والغربُ غربٌ، وأبدًا لن يلتقيا»:

Oh, East, is East, and West is West, and never the twain shall meet,

وبرغم دفاعِ الكثيرينَ من النُّقادِ عن كيبلينج، وأنَّه حاول في ثنايا «أنشودة الشرق والغرب» أن يكفكفَ كثيرًا مما يُوحيه مطلعُ القصيدةِ من تأصيلٍ للهوَّةِ السَّحيقةِ بين حضارة الغربِ والشرقِ، إلَّا أنَّ قولتَه هذه سرتْ مسرَى الحكمة في رسمِ العلاقة بين هاتين الحضارتيْنِ.

وقد لا نعدُو حدودَ الحقِّ لو قلنا: إنَّ مقولتَه هذه قد عبَّرتْ -وفي وقتٍ باكر- عن أخصِّ وصفٍ للثَّقافةِ الأوروبيَّةِ الرَّافضة للشَّرقِ الإسلاميِّ- والمناهضةِ لحضارتِه ولتراثه، في القرن الماضي، وفيما قبله أيضًا، وكنَّا نظنُّ

(١) بحث شارك به الإمام الأكبر في ندوة الأزهر الشريف بالتعاون مع جمعية كرامة بواشنطن، مركز الأزهر للمؤتمرات، تاريخ: ٤ جمادى الأولى: ١٤٣٢هـ/ الموافق: ٧ أبريل: ٢٠١١م.

أنَّ ثقافةَ الرفضِ هذه قد عفا عليها الزمنُ بعد التقدُّمِ المُذهلِ الذي حققتْه تقنياتُ الغربِ، وبخاصة في مجالِ الاتصالات، فقد أصبح الإسلامُ -ومعه الشرقُ الإسلاميُّ كلُّه- مقروءًا قراءةً صحيحةً، وبكل دقَّةٍ ووضوحٍ، في منظورِ الغرب، وبحيث لم يعد ثمةَ مبررٌ لثبات الغربِ على موقفِه التَّقليديِّ، والذي لَعِبَ الجهلُ والخلطُ وندرة المعلومات دورًا أساسيًّا في تكوينِ هذا الموقفِ.

لكنَّا فُوجئنا بالغرب يَقلب لنا ظَهْرَ المجَنِّ، ويُديرُ لنا ظهره كرَّةً أخرى، ووجدنا مقولة كيبلينج: «الشرق شرق والغرب غرب، وأبداً لن يلتقيا» يُعادُ إنتاجُها في صيغٍ فلسفيَّةٍ وسياسيَّةٍ على أيدِي كبارِ المنظرينَ للحضارةِ الأمريكيَّةِ في عصرِنا هذا، ولتدشن من جديد نظرية «صراع الحضارات» عند صمويل هنتنجتون (١٩٢٧- ٢٠٠٨م) و«نهاية التاريخ» عند فرنسيس فوكوياما (١٩٥٢ - ٠٠٠)، وهما نظريَّتانِ تُذكِّران بالدعوة العنصريَّة، أو ما سُمِّيَ آنذاك بنظريَّة «الجنس الأبيض» والتي بَشَّر بها الأوربيون فيما بين الحربين العالميتين في عزَّةٍ واستكبارٍ على غيرهم من بني الشعوب الإنسانيَّةِ.

والمتأمِّلُ في نظرية «الجنس الأبيض» ونظرية «صراع الحضارات» لا يُعييه أن يكتشف تشابهًا لافتًا للنظرِ بين الدوافع والمقاصد التي صاحبت هذه الدعوات العنصرية، سواءٌ في القرن الماضي أو في أيَّامنا هذه، ذلك أنَّ أيًّا من هاتينِ الدَّعوتينِ لم تجِئْ نتيجةَ بحثٍ عقليٍّ دقيقٍ، ولا ثمرةَ موازنةٍ علمية معتبرةٍ، بل جاءت الدعوة الأوروبيَّة دعوة عنصرية «أشبه شيء بمفاخراتِ الصبيان بآبائهم وأمهاتهم وبيوتهم التي يسكنونها (...) وليس هذا من القياس المنطقي ولا الموازنة العلميَّة في شيءٍ»[(١)]. وكذلك كانت نظرية

(١) العقاد «بلال بن رباح، داعي السماء ومؤذن الرسول» ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية: ٣/٤٢٦. ط/ دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٧٠م.

«صدام الحضارات» تهويلًا خاليًا من التَّحصيلِ، إذْ هي -في أفضل ما تُوصفُ به- ليست إلا مغالطات، أو هي كلمة باطلٍ أُريدَ بها باطلٌ، وقد كفانا كثيرونَ من الغربيين والأمريكيين -أنفسُهم- مؤنةَ ردِّ هذه النظرية وبيان تهافتها، وأذكرُ على سبيل المثال- لا الحصر- المحاولةَ القيمة التي اضطلعَ بها العالم الأمريكيُّ الكبير جون ل. إسبيوسيتو التي أثبت فيها أن التهديدَ الإسلاميَّ الذي يرجف به هنتنجتون هو «خرافة» لا حقيقة.. وسجَّل عليه أنه يُحرِّف التاريخَ، ويتلاعبُ بالأسماءِ ويُسفسط في المفاهيم ليخلص من كل هذه المغالطات إلى وَضع الإسلامِ قُبالة الغربِ، ومن ثَمَّ فالصدامُ أمر محتومٌ ونتيجةٌ لا مفرَّ منها.. إن المشكلة بالنسبة للغرب لا تكمُنُ- فيما يرى هنتنجتون- في الأصوليَّةِ الإسلاميَّةِ، بل «تتمثَّلُ في الإسلامِ؛ لأنه حضارةٌ مختلفةٌ، أهلها مقتنعون بتفوق ثقافتهم ويستحوذُ عليهم قصورُ قوتهم»[(١)]. والمشكلة بالنسبة للإسلام -فيما يقول- ليست هي الولايات المتحدة، وإنما الغربُ باعتباره حضارة أخرى يعتقد أهلها أنَّها حضارة عالمية وأنَّ قوتهم القاهرة «تفرضُ عليهم التزامًا بنشر هذه الثقافةِ في جميع أنحاء العالم، وهذه هي المقوماتُ الأساسيَّةُ التي تشعل الصراع بين الإسلام والغرب»[(٢)].

إنَّ نظريَّةَ الصراع التي لا تمتُّ إلى الواقع من قريبٍ أو بعيدٍ- تفترضُ أن الغربَ كتلةٌ واحدةٌ، وأنه حضارةٌ واحدةٌ وثقافةٌ واحدةٌ، وقد نسي هنتنجتون أنَّ فرنسا مثلًا إذا كانت تقاوم تغلُّلَ الثقافة العربيَّة في الثقافة الفرنسيَّة فإنها تقاوِمُ -في الوقت نفسه- تغلُّلَ الثقافة الأمريكية في ثقافة الفرنسيين، وتُطارِدُ مظاهرَها على جميعِ الأصعدةِ.

(١) «التهديد الإسلامي، حقيقة أم خرافة» لجون ل. إسبيوسيتو، ترجمة د. قاسم عبده: ٣١٤ وما بعدها، دار الشروق ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) نفس المصدر.

لقدِ انزلقَ هنتنجتون إلى المفهوم العنصريِّ للتَّهديدِ الثَّقافيِّ، وهو ما انزلقَ إليه أسلافه الأوروبيّون من قبلُ، متجاهلًا، عن قصدٍ، قانونَ التفاعلِ الإيجابيِّ وحقيقةَ التأثيرِ والتأثر المتبادلَيْنِ بين الحضاراتِ، ونحنُ المسلمين نعترفُ بأن حضارتَنا أخذتْ من حضارةِ الغرب كثيرًا منَ العناصر التي نقلناها وترجمناها وضممنَاها إلى تراثِنا وثقافتِنا، وأنَّ هذه العناصر ساعدَت على تطوير «حضارةٍ راقيةٍ، صنعتْ إسهاماتها الخاصة في الفلسفةِ والعلوم والتكنولوجيا، في الوقت الذي دخل الغرب فيه في كهوفِ العصور المظلمة، ثم جاء دور الغرب ليأخذ من الحضارة الإسلامية تراثًا مجددًا في الفلسفةِ والعلومِ وما لبث أن أعاد ترجمةَ المعارف ومواءمتَها؛ وأصبحت أساسًا لنهضته»(١).

وأمرٌ آخرُ تتشابَه فيه الدعوتانِ: الأوروبيَّة والأمريكيَّة، هو أن العنصرية الأوروبيةَ التي اتَّسع نطاقها في القرن التاسع عشر، وحشرها الداعون إليها في مباحث العلم والتاريخ زُورًا وبهتانًا كانت دعوى مصطنعةً اصطناعًا لتغطية استعمارِ أوروبا لبلاد الشرق، والانقضاض على خبراته وثرواتِه، ومعلومٌ أنَّ القرن التاسع عشر كما كان قرن الثورة العلميَّة التي طالت كل شيءٍ في أوروبا، كان بالمثل قرنَ المطامع الاستعمارية، وقرنَ تسخيرِ العلم وتوظيفِه؛ لتحقيق مطامع المستعمرينَ.

والشيء نفسُه نلمحُه في دعوى صدام الحضاراتِ؛ فإن هذه الدعوى -كما هو معلومٌ- أطلقها صمويل هنتنجتون في بحثٍ صغير نُشر سنة: ١٩٩٣م، ثمَّ أعاد نشره في كتيب سنة: ١٩٩٦م، ولم تَلبث السياسةُ الأمريكيَّة أن تبنَّتْ هذا الكتابَ الصغيرَ، وسرعان ما حوَّلَت هذه الدعوى إلى واقعٍ بائسٍ مريرٍ يعيشُه العرب والمسلمون في أكثرَ من بلدٍ من بلدانِهم وأوطانِهم.

---

(١) المصدر نفسه: ٣١٧.

- **الحضارة الغربية وقفت في منتصف الطريق:**

وهنا نتذكَّر ما يقوله Rene Guenu (١٨٨٦-١٩٥١) عن الحضارة الغربية وطبيعتها، من أن هذه الحضارة وقفتْ في منتصف الطريق، وشكَّلت نشازًا في تاريخ الحضارات، لأنَّ الحضارةَ الغربيَّةَ -فيما يرى هذا الفيلسوف- «تتكشَّف في سياقِ التَّاريخِ عن شذوذٍ حقيقيٍّ، فمن بين كلِّ الحضارات التي عرفناها معرفةً تامَّةً أو معرفة ناقصة تبدو حضارة الغرب الحضارة الوحيدة التي اتَّجه نماؤها في اتجاه ماديٍّ بحتٍ، صاحبَتْه ردَّة أو نكوص عقلي مباشرٌ، بلغ حدًّا جعل الغربيين عاجزينَ عن إدراك العقلانيَّة الخالصة المجردة عن المادة، ومن هنا كان ازدراؤهم لا للحضارات الشرقيَّة فحسب، بل للعصر الأوروبيّ الوسيط». ثم يتساءل جينو: «كيف يكونُ من المُستطاعِ إدراكُ قيمة المعرفة التأمليَّة الخالصة لأُناسٍ لا يعني الذكاءُ عندهم شيئًا، غير التأثير في المادةِ والتحكمِ فيها من أجلِ أغراض نفعيَّة، ولا يُقدِّرون العلم بالمعنى الضَّيقِ الذي حصروه فيه إلا بمقدارِ ما يكون قادرًا على الوصولِ إلى تطبيقاتٍ صناعية»[(١)].

وسواءٌ اتفقنا مع تحليلات جينو المعمَّقة أو اختلفنا معها، فإنَّ الذي لا شكَّ فيه هو أنَّ البونَ شاسع جدًّا بين الأخلاقيتينِ في الحضارةِ الإسلاميَّة والحضارة الغربيَّة، ضرورة اختلافهما اختلافًا جوهريًّا، فبعيدٌ ما بين حضارةٍ يشكل نورُ النبوة فيها حجر الزاوية، وحضارة تتأسَّس على فلسفة الحريَّات وفلسفة الإنتاج والاستهلاك ولا شيءَ بعد ذلك. ثم إن الطرح الثقافي الَّذي تثمرُه حضارةٌ يحكمها المبدأ الإلهي لا بدَّ أن يجيء طرحًا أعقلَ وأحفلَ بالقيم الإنسانيَّةِ من ذلك الذي تُثمرُه حضارةٌ أعلن فلاسفتها موت الإله، ووصفُوا مَن يؤمن بالغيبِ بأنَّه رجلٌ أعمى يبحث عن قُبعةٍ سوداءَ في حجرةٍ مظلمَةٍ.

(١) رينيه جينو: «شرق وغرب» تعريب سعد الموجي: ص ١، من الفصل الأول (الحضارة والتقدم).

إن هذه المقدمةَ التي طالَتْ قليلًا تَسمحُ لي أن أتحدَّث عن الحضارةِ الإسلاميَّةِ باعتبارها حضارةً إنسانية نزلت إلى الواقع وأسعدتِ الإنسان شرقًا وغربًا، ولم تشكل يومًا ما بالنسبةِ للضَّميرِ الإنسانيِّ كابوسًا يَخْنق الأحلامَ، ويمحو البسمةَ من الوجوه.

إنَّ التاريخَ يحدِّثنا أن هذه الحضارةَ نزلَتْ إلى أرضِ الواقعِ، ونجحَتْ نجاحًا باهرًا مُدهشًا في مَهدِها الذي أشرقَت فيه، وفي بيئاتٍ قصيَّةٍ عنها رغم اختلافِها عنها: لغةً وجنسًا وعرقًا وعقيدةً وتاريخًا.. وأنَّ هذه البيئاتِ تلقفت حضارة الإسلام تلقُّفَ الغريقِ لطوقِ النجاةِ المنقذ من دمارٍ محقَّقٍ.

وهنا ينقُلُ الفيلسوفُ المسلم محمد إقبال في كتابه: «**تجديد التفكير الديني في الإسلامِ**» عن بعض مؤرِّخي الحضارةِ المحدَثينَ أنَّه وصفَ حالة العالم المتمدينِ حوالي الزمن الذي ظهر فيه الإسلامُ فقال: «لقد بدا حينئذ أنَّ الحضارةَ العظيمةَ التي استغرقَ بناؤُها أربعة آلاف من السنينَ كانت مشرفةً على الزوالِ، وأن المرجِّحَ أن الجنسَ البشريَّ كان سيعودُ إلى حالةِ الهمجيَّةِ التي كانت في ظلالِها كلُّ قبيلةٍ وكلُّ طائفة عدوًّا لجارتِها، لا يعرفون لهم نظامًا، ولا يتبينون لهم قانونًا... ثم يقول المؤرِّخ: ومما يَبعثُ على الدهشةِ أن تقوم ثقافةٌ كهذه في جزيرة العربِ وأن تحدوَ هذه الثقافة الجديدةُ في مبدأ «التوحيد» ولغة «الوحي النبوي» أساسًا لوحدةِ العالمِ كلِّه»[(١)].

وأقول: إنه ما كان لهذه الثقافةِ أو الحضارةِ أن تكتسِحَ العالمُ من شرقِهِ إلى غربِهِ في غضون ثمانين عامًا فقط، لولا أنَّها ثقافة ترتكز فيما ترتكز «المساواة بين الناس».

وأنا ممَّن يصدِّقُ كثيرًا من المؤرِّخين المنصفينَ الذين قرَّروا أنه لم تُعلن

---

(١) «تجديد التفكير الديني في الإسلام»: ٢٢٤، ٢٢٥.

حقوقٌ وحريَّاتٌ عامة يتساوَى فيها الناس قبلَ ثورةِ الإسلامِ في القرن السادس الميلادي لا في المجتمعات الدينيَّة ولا غير الدينيَّة، لسببٍ بسيطٍ: هو أنَّ الإنسان الذي يتساوى مع غيره في كل مكانٍ لم تعرفْه الدنيا؛ لأنَّ الفلسفات بل الأديان التي سادتِ المجتمعات البشرية قبل ظهور الإسلام كانت تتَّسعُ لصور متفاوتة من التفرقةِ بين الناسِ، أو إن شِئتَ: منَ الطبقةِ العنصريَّةِ بين بني البشر بشكلٍ أو بآخرَ:

فمن المستبعدِ جدًّا أن يكون القدماءُ المصريونَ قد عرفوا مبدأَ المساواة بين الناس، وتاريخهم يقصُّ علينا أن حياتَهم الاجتماعيَّةَ كانت تعتمدُ النظامَ الطبقيَّ والتفرقةَ العنصريَّةَ، وكان لدى المصريِّين القدماء قناعةٌ تامةٌ بأنَّهم أفضلُ شعوب الأرض، ولهم الحقُّ في استرقاق الآخرين، وقد حُرِمَ الأجانبُ في ظلِّ هذا النظام حتى من حقِّ التقاضي فضلًا عن الحقوقِ الأخرى. ويذكر المؤرخونَ أنَّ الاسترقاقَ كان عقوبةً يُقضى بها على الغارمين والعاجزين عن سدادِ الديون من الفقراءِ والمعوزين، وأنَّ العبيد كانوا يُستخدمون «كآلات للعمل الشاق، وكمظهر من مظاهر الزينة في قصور الملوك وبيوت الكهان ودور المقاتلين»[(١)].

وفيما يتعلقُ باليهوديَّة؛ فإنه لا سبيلَ إلى البحثِ في مسألة المساواةِ في هذه الديانةِ، لأن أسفارَ التوراةِ والتلمودِ تُقدِّم لنا هذا الدينَ في صيغةٍ عنصريَّةٍ مغلقةٍ، وفكرةُ الشعب المختار- كما هو معلومٌ- تشكِّل حجر الزاوية في بناء العقيدة اليهوديَّةِ، والعنصريَّةُ أصلُ الأصولِ في الذِّهنيَّة اليهودية - كما يقول المؤرِّخون- وهي من وراءِ النزعة الاستعلائيَّة التي صاحبَتْ هذا الشعبَ في

(١) «نظرية المساواة في الشريعة الإسلامية» لرشاد حسن خليل، دار الفاروق للنشر والتوزيع، القاهرة: ٢٠٠٧م.

كل مراحل تطوره، ونصوصُ التوراة صريحةٌ في تبرير الكيل بميكيالين ومشروعيته في الجريمة الواحدةِ حين يقترفها اليهوديُّ ويقترفها الآخر من الأميين، وأما عن جواز استرقاق الآخرين فحدِّثْ ولا حرجَ فيما يتعلَّق بهذا الأمرِ.. فالاسترقاق مُحرَّم بين اليهود، وإن وقع يهودي في الرق فلا يجوز أن يستمر استرقاقه أكثر من سبعة أعوام، أما الاسترقاق في الأمم الأخرى فأمرٌ جائزٌ مشروع ولا حرج منه.

وحتى الحركات الديمقراطية في بلاد اليونان التي بدَتْ وكأنها ضَمِنَتِ الحقوق والحريات، فإنها لم تكن كذلك؛ لأن بواعثَها لم تكن من قبيلِ الاعتراف بالحقِّ الإنسانيِّ الذي يتساوَى فيه الناس كافةً، بل كان باعثها أمرًا أو أمورًا أخرى مثل مصانعة القبيلة واتقاء غضبها.

والفيلسوف اليونانيُّ الشهيرُ «أفلاطون» وهو أحدُ قِمم الفكرِ الإنسانيِّ، وأكبرُ عقلٍ عرفته الدنيا في ذلك الوقت، واعترفت له بقدرةٍ جبارة في مجالِ التَّطور الاجتماعيِّ للإنسانِ، هذا الفيلسوف- وهو يخطِّط جمهوريتَه الفاضلة والحكومةَ المثالية التي تحكم الجمهورية- أقرَّ نظامَ الاسترقاق، واعترفَ بأهميَّةِ العبوديَّة والاستعبادِ في السُّلَّمِ الاجتماعيِّ الإنسانيِّ، ورآه ضرورةً لا مفرَّ من الإبقاءِ عليها لإرضاءِ الآخرين وإسعادِهم، ولم يَرَ هذا الفيلسوف بأسًا في أن يسلبَ من الرقيق حقَّ المواطنة وحقَّ المساواةِ، بل أباحَ قَتلَ الرقيق إذا تطاوَلَ على سيد غير سيِّدِه، وحكم بتسليم الرقيق إلى هذا السيد ليقتصَّ منه بالطريقة التي يرضاها «وإذا وَجبتِ الرحمةُ بالرقيقِ فإنَّما تجبُ من قبيلِ التَّرفعِ عن الإساءةِ إلى مخلوقٍ حقيرٍ، لا يليقُ بالسيد أن يهتمَّ بإساءتِه»[1].

---

(١) عباس العقاد: الفلسفة القرآنية ص ٨٨-٨٩ (بتصرف)، كتاب الهلال، عدد ٢٢٩، ١٩٧٠م.

ثم جاء الفيلسوفُ الأكبرُ أرسطو فقفَّى على آثار أستاذه أفلاطون، وجعل مِن الرِّقِّ خاصةً لازمةً للطبيعةِ البشريَّةِ، ولم يستطع هذا العقلُ الكبير أن يستوعب فكرةَ مجتمع بشري حرٍّ يخلو من العبودية والاستعبادِ، ثم ما لَبِثَ أن أعلن أنَّ الناس صنفيْنِ: صنف مخلوق للسيادة والرِّئاسة، وصنف مخلوق للسخرة والطاعة والخضوع، وهذا الصنف الثاني ليس إلا آلات أو أدوات مثل آلات الحرثِ والسقي، والفارقُ بين هذا الصنف وبين الآلات هو أنَّ صنفَ العبيدِ آلاتٌ متصرفة، في حين آلات الزَّارع والصانع آلات مُسخَرة، ولم يَفُتْ أرسطو أن ينصح السادة بأن يتكرَّموا على عبيدهم بتشجيعِهم على الارتقاءِ من مستوى الآلةِ «المسخَّرة» إلى مستوى الآلةِ «المتصرفة» إذا بَدرَ منهم ما يدلُّ على الوعي والفَهم»[(١)].

وغنيٌّ عن البيان أنَّ العبيدَ في هذا النِّظام غيرُ مؤهَّلين للمشاركةِ في الحكمِ، ولا في أدوات الحكمِ كالانتخاباتِ وغيرها؛ لأنَّهم فيما يقول أرسطو- كالحيوانات التي خُلِقتْ لتُمتَلك، ولتَخدِمَ في الزرع والسقي والحصاد. ويذهب فيلسوفُ الإغريق الأكبر إلى أبعدَ من ذلكَ فيقرِّرُ أن من الخيرِ للعبدِ أن يظلَّ رقيقًا؛ حيثُ وضعَه اللَّه أو وضعَتْه الطبيعةُ، ليخدمَ الوطنَ كما يخدم الحيوان الأعجمُ سواء بسواء.

وكذلك لم تنجُ حريَّةُ المرأةُ من ظلمِ الديمقراطيَّةِ الأرسطيَّة، فليس للمرأةِ في هذه الديمقراطيَّة حريةٌ، وكل ما لها أنَّها خادمةٌ للرجلِ، تَتبَعُه، وتقبعُ في بيتِه، وتتفرَّغُ لخدمتِه وخدمةِ أولادِه. وتعملُ في حقلِه أو متجرِه، وليس لها أن تفكِّرَ في مساواتِه أو مشاركتِه في إدارةِ الحكمِ؛ لأنَّها ليست إلا متاعًا للرَّجلِ، وأكبرُ عيبٍ مُنيتْ به هذه الديمقراطية الكسيحةُ هي أنها ديمقراطيَّةٌ

(١) المصدر نفسه.

تُبيحُ الاعتداءَ على الآخرِ، وتبرِّرُ السيطرةَ على أرضِه وسلبَ ثرواتِه.

وخلاصةُ القولِ في الحريَّةِ التي تكفلُها ديمقراطيةُ الإغريق: هي أنَّها حرية مكفولةٌ للأحرار اليونانيينَ دون غيرهم، وهي في أفضلِ حالتها ديمقراطيةٌ محليَّةٌ، وليست إنسانيةً.

وينبهنا الأستاذُ العقادُ إلى أنَّ كلمة «ديموس» التي تُشكِّلُ نصف كلمةِ ديمقراطية تعني «المحلَّة» أو «المكانَ» الذي تسكنُه القبيلةُ، الأمرُ الذي يعني أنَّ الديمقراطية اليونانيَّة ديمقراطيةُ مكان وليستْ ديمقراطيةَ إنسانٍ بما هو إنسانٌ.

ثم ظهرت المسيحيَّةُ بعد ذلك في بلاد اليونانِ، وكان من أمر المبشرينَ بها أن باركُوا حضارةَ الإغريق وفلسفتَهم في تقسيمِ الناس إلى سادةٍ وعبيدٍ، وأنَّ الناس كما يختلفون بالطول والقِصَرِ والبياض والسوادِ والذَّكاء والغباءِ، فلا جرمَ يختلفونَ أيضًا بالحريَّة والعبوديَّةِ، وكما أنَّ الحريَّةَ وصفٌ لازمٌ غير مفارقٍ للسادة الحكام والأمراء فكذلك العبودية وصفٌ لازمٌ غير مفارق للعبيدِ والأُجراءِ والمستضعفين[(١)].

ووجدنا من بين الرَّسائلِ الدينيَّةِ التي كتبَها القديس «بولس» لأتباعِه، رسالةً يأمُرُ فيها العبيدَ بأن يبذلُوا قصارى جهدهم في الإخلاصِ لسادتهم وطاعتَهم طاعةً عمياء ويضمن له -إن هم أخلصُوا في طاعةِ سادتِهم- أن يكونَ ذلك معادلًا للإخلاصِ في طاعة السيد المسيح، يقول القديسُ بولس في رسالته إلى أهل أفسُس: «أيها العبيدُ أطيعوا سادتكم في هذه الدنيا بخوف ورعدة وقلب صاف، كما تطيعون المسيح، لا طاعة عبيد للعين كمن يبتغي رضا الناس، بل طاعة عبيد للمسيح تطيب نفوسهم أن يعملوا بمشيئة اللَّه، واخدموا بنفس طيبة خدمتكم للرب لا للناس» (رسالة بولس إلى أهل أفسُس ٦/ ٥ - ٧).

---

(١) المصدر نفسه.

والشيء نفسُه نجده في وصايا الحواري «بطرس» لطبقة العبيدِ.

ولم تكنِ الجزيرةُ العربيَّةُ بأحسن حالًا إبانَ ظهور الإسلامِ، وقد حَفِظتْ لنا كتبُ التاريخ غرائبَ من أخبارِهم، وإن كانت تعد في ذلك الوقتِ حكمًا من أحكام العادة والمألوفات -كما يقول العقاد، فقد كان عمرو بن هند ملكًا عربيًّا، وكان من المألوفِ والمعتاد أن يخاطبَ الناس من وراء ستارٍ، وكان النعمان بن المنذر يتَّخذ لنفسه يومًا يَرضَى فيه فيُغدِقُ من النعمِ -بما يهوَى- على كل داخل عليه، ويومًا آخر يغضبُ فيه فيقتل مَن يدخل عليه.. وأيضًا ما يُروى من أن ملك طسم وجاديس كان يَستبيحُ كلَّ عروس قبل أن تُزفَّ إلى زوجها[1]، وأن الفتاة العربية: «عُفيرة» ضاقت صدرًا بهذا الاستبداد المذل، فعيرت رجال قبيلتها، ونصحتهم بأن يكونوا نساء يكتحلن ويتطيبن ويلدن البنين والبنات، وقالت تخاطبهم:

فَإِنْ أنتمُ لم تَغضبُوا بعد هذِه فكونُوا نساءً لا تُعابُ على الكُحلِ
ودُونكمُ طِيبَ العروسِ فإنَّما خُلقتم لأثوابِ العروس وللنَّسْلِ[2]

وربما وجدنا في قوله تعالى على لسان إحدى الملكات: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] ما يؤكِّد من مضمون هذه القصص.

- ظهور الإسلام وتغيير مفهوم الحرية:

في هذا الوسط الموبوءِ بأمراضِ العصبيَّةِ والتَّفرقةِ العنصريَّةِ، ظهر الإسلام ونزل القرآن وجهرَ النبيُّ ﷺ ولأول مرةٍ بحريَّةِ الإنسان وآدميتِه ومساواته بغيرِه، ودفعَه دفعًا لأنْ يكسِرَ القيودَ والأغلالَ، وألا يكونَ عبدًا

(١) «موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية»: ٥/ ١٥٢.
(٢) الديمقراطية في الإسلام: ٢٧-٣٢.

لمخلوق مثلِه، كائنًا مَن كان هذا المخلوقُ، اللَّهم إلا أن يكون عبدًا للَّه وحدَه لا شريك لَه. وقرعَ أسماعَ الطغاة فيما قرعها قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

ولأول مرة يسمعُ العربُ والعجمُ البيانَ النَّبويَّ الحاسمَ: «**النَّاسُ سواسيةٌ كأسنانِ المُشطِ**»(١) ولم ينسَ ﷺ وهو يودِّع أمتَه في حجَّةِ الوداع أن يذكُرَ في أول بندٍ من خطبته الشهيرةِ بأصلِ المساواةِ بين الناس جميعًا فقال: «**أيُّها النَّاسُ إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، كلُّكم لآدمَ، وآدمُ من ترابٍ، إنَّ أكرَمَكم عند اللَّه أتْقاكُم. وليس لعربِيٍّ على عجميٍّ ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ولا لأحمرَ على أبيضَ فضلٌ إلَّا بالتَّقوى، ألا هل بلغتَ.. اللَّهم فاشْهَدْ. ألا فليبلغِ الشَّاهدُ منكُم الغائبَ**»(٢).

ولم تكتف خطة الإسلام في جَعلِ الحرية بين البشر حقًّا أصيلًا من حقوقِ الإنسان بالمستوَى النظريِّ فحسبُ أو مستوى تعزيزِ القواعدِ والأحكامِ، بلِ التفتتْ إلى قطاعِ المستضعفينَ والمُستبعدينَ، ونزلَتْ إلى واقعهم البائس بأحكامٍ شرعيَّةٍ وإجراءاتٍ عمليَّةٍ حاصرت بها نظامَ الرقِّ، وردَمت أغلبَ مصادرِه ومنابعِه، ولم يبقَ منه إلا القدرُ الذي لا زالَ مباحًا حتى الآن، وهو ما اتَّفقت عليه الدولُ المتحضرةُ التي ألغَت نظامَ الرِّقِّ في القرنِ الثامنَ عشرَ، من إقرارِ نظامِ الأَسْرِ في الحروبِ، والإبقاءِ على الأسرى إلى أن يتمَّ الاتفاقُ على افتدائِهم بالتعويضِ أو بالتبادلِ.

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠٦.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٤٨٩) من حديث رجل من أصحاب النَّبي ﷺ. وقد رُوي أيضًا من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما وغيره.

على أن المَيزةَ التي انفرد الإسلامُ بها في تحريرِ الأرقاءِ هي أنَّه حرَّرَ الأرقاءَ، في الوقت الذي كان فيه الرِّقُّ أمرًا مبررًا في أعرافِ المجتمعاتِ وعاداتِها وشرائعِها، ولو أنه تركَ هذا النظامَ دون تغييرٍ أو تعديلٍ لَمَا توجَّه عليه نقضٌ ولا اعتراضٌ، وبخاصةٍ إذا أخذنا في الحُسبانِ أن عدد الرقيقِ بين المسلمينَ الأوائلِ لم يتجاوَزْ أصابع اليدينِ، وكان في مقدوره ﷺ أن يتركَهم على حالهم دون أن يكونَ في ذلك أيَّةُ غرابةٍ، لا من المسلمينَ ولا من غير المسلمينَ. ومع ذلك لم يغفلِ النَّبيُّ ﷺ الأمنَ عن هذه المهمةِ الأساسيَّةِ في رسالتِه، وعالجها بمنهجِه في التَّدريجِ، وإصلاح ما يقبل الإصلاحَ، مع التمهيدِ للمزيدِ من ذلك كلما سَمحتِ الظروفُ وتوفَّرت الدَّواعي.

في هذا المجالِ شَرَعَ الإسلامُ العِتقَ وشجَّعَ عليه وطالَبَ به المسلمَ، وأدخلَ العتقَ ضِمن الأحكامِ الشرعيَّةِ، وجعله كفَّارةً لكثيرٍ من المخالفاتِ والأخطاءِ مثلَ القتلِ الخطأ، والظِّهار، اليمين الحانثة . . . وألزمَ الدولة بأن تخصِّصَ بابًا من أبوابِ مِيزانيتها لتحريرِ الأرقَّاء، وهذا البندُ هو المَصرِفُ الخامسِ من مصارفِ الزَّكاةِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

- مفهوم الحرية في الإسلام:

أما عن مفهوم الحريَّةِ في الإسلام فإنَّه يقومُ على مبدأ أساسٍ يُمكنُ تلخيصُه في أنَّ «الناس كلُّ الناس يولدونَ أحرارًا، وأنَّ اللَّهَ هو وحدَه واهبُ هذه الحريَّةِ، وأن حريةَ الناسِ في الحياةِ مطلقةٌ، وفي كلِّ شيءٍ، وتبقى مطلقةً ما لم تصطدِمْ بالحقِّ أو بالمصلحةِ العامَّةِ»(١).

(١) «فلسفة الحرية في الإسلام» لنديم الجسر: ٢١٣.

وربما كانَت أهمُّ القضايا هي قضيَّةَ حريَّةِ العقيدةِ أو حريةِ التدين، والحديثُ في هذه القضيَّة أو هذا النَّوعِ من الحرياتِ حديثٌ طويلٌ؛ لأنَّه أوسعُ دوائرِ الحرياتِ في الإسلام.

والأصلُ الذي تقوم عليه حريَّةُ الاعتقادِ هو أنَّ للمواطن غيرِ المسلم في الدولة الإسلاميَّةِ الحقَّ في أن يُعلنَ اعتقادَه، في وسطه الخاصِّ، أو في الوسطِ العامِّ للدَّولةِ، بشرطِ عدم انتهاكِ حريَّةِ المسلمينَ في اعتقادِهم، ولغير المسلم الحقُّ نفسُه على المسلمين، أي عدم انتهاكِ حريَّةِ اعتقادِه من قبل المسلمينَ.

وحرية الاعتقادِ تستلزم بالضَّرورةِ حرمةَ الإكراهِ على عقيدةٍ معيَّنةٍ، وهذا أمرٌ ثابتٌ بنصِّ القرآن الكريم، ولا مجالَ فيه لرأيٍ أو اجتهاد، يقول اللَّه تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ويقول: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

ثم جاءت السُّنة لتطبق القرآن على واقع الناس، وقرأنا في سُنَّته ﷺ: أن أحد الأنصار أراد أن يحمِلَ ابنين له على الإسلامِ كُرهًا، فنهاه النبيُّ ﷺ عن ذلك(١). وأنَّ عمرَ رضي الله عنه لما كان بالشام أُتي بماء للوضوء من بيت عجوز نصرانية، فدعاها إلى الإسلام فأبَتْ، وقالت: «أبعَدَ هذه السِّن؟» فخَشِيَ عمر أن يكون بكلامِه هذا قدِ اقتربَ من منطقة الإكراهِ، فقال «اللَّهمَّ اشهد» ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾(٢).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ٤/٥٤٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الواحدي في أسباب النزول: ٢١٤-٢١٥، عن مجاهد وغيره.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٥٤)، وأبو عُبيد في الناسخ والمنسوخ: ٢/٧٧، =

ومن يتأمَّلْ آيات القرآنِ الكريم يجدُ أنَّ أولَ آية نزلت لتشرِّعَ للمسلمين حقَّ القتال هي قولُه تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. وفي هذا النص الإلهيِّ يتضح تحديدًا أن أول أسبابِ مشروعيَّةِ القتال في الإسلام هو: نصرة المظلومينَ وتمكينهم من حياة آمنةٍ مثل غيرهم، وليس مطاردة الكفار والخارجين على الإسلام كما يتَّضحُ أنَّ الحرب في هذا النصِّ مشروعةٌ للدفاعِ عن الأديانِ السماويَّةِ الأخرى ضد عدوان الوثنية والشِّرك والمشركينَ.

ومنَ العجيبِ في هذا المقامِ أنَّ حريةَ العبادةِ التي شُرِعَ القتالُ من أجلها ليسَتْ قاصرةً على الإسلامِ فقط، بل كما كُلِّفَ المسلمونَ بالقتال للدِّفاعِ عن حرية العبادة في الإسلامِ كُلِّفوا أيضًا بالقتال للدفاعِ عن حرية العبادة في الأديانِ السماويَّة الأخرى، وهذا ما يُفهَم صراحة من قول ابنِ عباس رضي اللَّه عنهما في تفسيرِ هذه الآيةِ: «يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذمة من اليهود والنصارى»[١].

وقد تساءلَ المفسرون عن دخول الصوامعِ والبِيَعِ والصلواتِ في خطة الدفاعِ الإسلاميِّ، وكان من إجابتِهم أن هذه المواضعَ أجمعُ مواضعِ المؤمنينَ، وإنِ اختلفتِ العبادات فيها.

وها هو الإمام الرازيُّ يؤكِّدُ أنَّ الدفاعَ عن بيوت العبادة غير الإسلامية -

---

= والدارقطني في سننه (٦٣، ٦٤).

(١) تفسير الرازي: ٢٣/٢٦.

حتى لا تُهدم- مقصود في الآية، ومطلوب من المسلمين ويعلل ذلك لكيلا تهدمَ في أيام الرسول ﷺ؛ بقوله: إن صوامعَ الرهبانِ وبِيعَ النصارى وكنائسَ اليهود: «يجرى فيها ذِكرُ اللَّه تعالى فليسَتْ بمنزلة عبادة الأوثانِ»[١].

وإذن فالآيةُ الكريمةُ تأخُذُ في حسبانها دفاعَ المسلمينَ عن أماكن العبادةِ الخاصَّةِ بغير المسلمين.

وانطلاقًا من المحافظةِ على حرية غيرِ المسلم في أن يتديَّنَ بأحكام دينه قرَّر الفقهاءُ تركَ غير المسلم في سلوكِه وأحكامِ أسرتِه إلى دينِه الذي ارتضاه، بل ذهب أبو حنيفةَ وأصحابُه إلى إعفاءِ شاربِ الخمرِ منهم من عقوبةِ الخمر.

وذهب كثيرٌ من فقهائنا الأجلاءِ إلى أن المجوسيَّ المواطن في دولة إسلاميةٍ إن تزوَّجَ بابنته أو أمِّه فإنه يُترك وشأنَه؛ لأنَّ أحكام أسرتِهم متروكةٌ لما تقرِّره ديانتهم.

وقد كنتُ أراجعُ مسألةً فقهيَّةً في حاشية ابن عابدين أو «**رد المحتار على الدر المختار**» وهو من أدقِّ وأعمق الموسوعاتِ في الفقه الحنفي، ولم أكد أصدقُ عيني وأنا أقرأُ في مسألة الجنابةِ وكيف أنَّه يحرُمُ على الجنب دخولُ المسجدِ وتلاوةُ القرآن؛ كما يحرُمُ على المسلم أن يمسَّ المصحفَ بدون وضوءٍ[٢]، وهذه أحكامٌ معلومةٌ ومعروفةٌ لنا منذ أن كنا في القسم الثانويِّ في المعهدِ الديني، والجديد الذي أعترفُ بأني أعلمُه لأوَّل مرة فقط هو أنَّ كثيرًا من الفقهاءِ قرروا نفسَ الحكم بالنسبة للتوراةِ والإنجيلِ، وقرَّروا حرمةَ مسِّ التوراةِ والإنجيلِ بالنسبة للرجلِ المسلم الجُنُب، والمرأةِ المسلمةِ في الحالاتِ الخاصة المعروفةِ التي يحرُمُ فيها أن يمسَّ كل منهما المصحفَ،

(١) المصدر نفسه.
(٢) «رد المحتار على الدر المختار» لابن عابدين: ١/ ١٧٥.

وما قالُوه من حرمةِ مسِّ التوراةِ والإنجيلِ قالُوا مثلَه بالنسبةِ للقراءةِ، وعللوا الحرمة بقولهم: «لأن الكل -التَّوراة والإنجيلَ والزبور- كلامُ اللَّه، وما بُدِّلَ غيرُ معيَّن»(١).

وتحريرُ المسألةِ عندهم أننا نحنُ المسلمينَ وإن كنا نعتقدُ بأنَّ هذه الكتبَ قد لحقَها شيء من التغيير إلَّا أننا لا نعلمُ ما هو هذا البعضُ الذي تغير، ويقولون: إنَّ ما غُيِّر شيءٌ قليلٌ، وما لم يغير هو الأغلبُ الأعمُّ، وهو واجبُ التعظيمِ والصَّونِ، وكونه منسوخًا بالقرآنِ لا يُخرجُه عن كونِه كلامَ اللَّه تعالى؛ فلذلك حَرُمَ على المسلمِ الجنبِ أن يمسَّ التوراةَ والإنجيلَ، وحَرُمَ عليه أن يقرأَ فيهما، كما حَرُمَ عليه مسُّ المصحفِ والقراءةِ فيه.

نعم هناك بعضٌ من الفقهاءِ خالفَ القولَ بالحرمةِ، وقال بالكراهية، وبعضُهم قال بالجوازِ، لكنِّي وجدتُ القائلينَ بالحرمةِ يردُّونَ على مَن خالفهم، وكانوا أبلغَ حجةً وأبعدَ نظرًا.

ومن هذا القبيلِ اختلافُ الفقهاءِ أيضًا في مسألة الصبيِّ إذا بلغ هل يُحملُ على دِينِ أبويْهِ؟ أو تكونُ له حريةُ اختيار الدينِ الذي يراه؟! وقد ذهبَ جمهورُ الفقهاء إلى أنَّ الصبيَّ يُحملُ على دين أبويْه، فهو مسلمٌ إذا كان أبواه مسلمَيْنِ، فلو بلغ سِنَّ الرشدِ كافرًا كان مرتدًّا، وذهب الإمام الشافعيُّ إلى أنَّ الصبيَّ لا دينَ له؛ لأنه غيرُ مكلَّفٍ، فإذا اختارَ الإسلامَ بعد البلوغِ، ثم تركَه فهو في هذه الحالة فقط يكون مرتدًّا.

وتتفرَّعُ عن حرية المعتقدِ مسألةُ الردةِ وحكمُ المرتدِ، وأكتفي فيها بتوضيحِ الخطوطِ العامة التي نجدُها في تراثنا الفقهيِّ، وخلاصةُ القول فيها أنَّ الفقهاء على فريقيْنِ:

الجمهورُ منهم يرى قتلَ المرتد، ويَعدُّ ذلك حدًّا واجبَ النَّفاذِ، ويختلفونَ

(١) المصدر نفسه.

فيما بينهم هل يُستتابُ أو لا؟ وإذا استُتيبَ فهل يستتابُ ثلاثةَ أيامٍ وهو ما قالَه مالك وأبو حنيفةَ، أو شهرًا، أو طول العمر، وهو ما قاله النَّخعيُّ.

الرأي الثاني: لا يرى قتلَ المرتدِّ، إلا إذا شكَّلَ المرتدُّ خطرًا على أمنِ المجتمعِ وعلى عقيدةِ المسلمينَ، فهنا تكون العقوبةُ تعزيرًا يُقدَّرُ بقدرِ الخطورةِ، وأمرُ ذلك متروكٌ للحاكِمِ وحدَه.

وهؤلاء يستدلونَ على مذهبِهم هذا بأنَّ النبيَّ ﷺ عفَى عند دخولِه مكَّةَ عن قومٍ كان قد توعَّدهم بالقتلِ، منهم: عبدُ اللَّه بن أبي سرحٍ، وكان من كَتبةِ الوحي، لكنَّه ارتدَّ، وقد قبِلَ النبيُّ ﷺ فيه شفاعةَ عثمانَ، في حين امتنعَ عن العفوِ عن آخرينَ، مما يدلُّ دلالةً واضحةً على أن عقوبةَ الردةِ ليست حدًّا، بل هي من التَّعزيراتِ؛ لأنَّ الحدود لا تجوزُ فيها الشفاعةُ، وهؤلاء الذينَ قتلهم النبيُّ ﷺ ولم يقبل منهم شفاعةً كانوا يشكِّلون خطرًا شديدًا على مجتمعِ المسلمينَ، كما استدل أصحاب هذا الرأي بأنَّ عمرَ بن الخطابِ ﵁ عفا عن أبي شجرةَ، وكان قدِ ارتد، واكتفى بطردِه.

وهذا الفريق يقرأ حروبَ الردةِ وقَتْلَ أبي بكر ﵁ للمرتدينَ من منظور الحركات السياسية والخروج على الدولة، وهؤلاء بخروجهم المسلحِ ضدَّ نظامِ الدولةِ يستوجبون محاربتَهم، في كل ملة ونظام وقانون، ولو أن قتاله ﵁ لهولاء الخارجين كان حدًّا لما حدث نقاشٌ وخلافٌ بينه وبين كثيرٍ من الصحابةِ رضوان اللَّه عليهم.

وهذا الرأيُ الثَّاني يقول به -على استحياءٍ- الإمامُ السرخسيُّ وابنُ القيِّم منَ المتقدمين، ويَجهرُ به الإمامُ محمد عبده والشيخ عبد المتعال الصعيديُّ، وعبد الوهاب خلَّاف وأبو زهرة وعبد العزيز جاويش وآخرون من علمائِنا ومفكِّرينا المعاصرينَ.. وجمهور أهل العلم في عصرنا هذا.

ومن الثابت أنَّ الإسلام لا يعالجُ قضيةَ الحرية من نهايتها، وعلى مستوى

الناس، بل يعالجها من مبدأ الخليقةِ وأصلِ الوجود، وذلك حين يُقرِّرُ وحدة الأصلِ الإنسانيِّ، وأنه نفسٌ واحدةٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. وأيضًا حين يُعلن النبي ﷺ في مجتمع الطبقاتِ والعنصريَّة والتفاخر بالأحسابِ والأنساب أنَّ «**النَّاس رجلانِ: رجلٌ برٌّ تقيٌّ كريمٌ على اللَّه، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّنٌ على اللَّهِ... والناس بنُو آدمَ، وخلَقَ اللَّه آدمَ من ترابٍ**»(١).

وكثيرًا ما يَرِدُ الخطاب في القرآن للناس عامة، كما يعلن نبي الإسلام أنه ليس رسولًا لقوم معينينَ، ولا لإقليمٍ خاص: «**بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود**»(٢).

وقد أنصفَ جُورج برناردشو حين قال: «الإسلامُ يُوحِّد بين المؤمنينَ دون أن يجعلَ أيَّ فرقٍ بينهم بسبب أوطانهم وألوانِهم وجنسياتهم. وقد قرَّر أُخوّةَ الإسلام منذ خمسين وثلاثمائة وألف سنة، وهو المبدأُ الذي لم يُعرف عند الروم السابقين، ولا عند الأوروبيين والأمريكيين الآن». وأختتم بعبارة توينبي التي يقولُ فيها: «إنَّ الإسلام قد قضى على النَّزعة العنصريَّةِ والصراعِ الطبقيِّ لتقرير مبدأ الإخاء والمساواةِ المطلقة بين المسلمين، وعلى الغربِ أن يأخذَ بهذا المبدأ الإسلامي لتنجو المدنيَّة الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر العداء»(٣).

وفي الختام أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم، وشكرا لحسن استماعكم.

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٢٧٠) من حديث عبد اللَّه بن عمر ﵄، وقال: «حديث غريب»، وصحَّحه ابن حبَّان. وراجع «مبدأ المساواة في الإسلام»: ٢٦٧.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٧٤٢) من حديث عبد الله بن عباس ﵄.

(٣) أنور الجندي، «الإسلام في غزوة جديدة للفكر الإنساني»: ١٢٣. و: ٢٢٦. نقلا عن: «حقوق الإنسان في الفكر العربي الإسلامي والفكر العالمي» د. رجاء الشاوي.

من أجل السلام(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

إنَّ الصَّلاةَ هي قاعدةُ الإسلامِ الصُّلبةُ الَّتي تُجسِّدُ السَّلامَ في أعماقِ المُصلِّين، وتُذكِّرُهم به على مدارِ السَّاعةِ.

وهذا المَعنى ليس خاصًّا برسالة إلهية معينة، بل يَنطبِقُ على سائر الرسالات الإلهية ومن بينها رسالة الإسلام؛ فالصَّلاةُ عِمادُ الدِّينِ الإلهيِّ كلِّه، في مختلف رسالاتِه الَّتي حمَلَها الأنبياءُ والمُرسَلونَ، ونحنُ -المسلمين- قد اهتَدَيْنا إلى هذه الحقيقةِ في ضوءِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ الَّتي تُقرِّرُ في موضوعِ العَلاقةِ بينَ السَّلامِ والصَّلاةِ أمرَيْنِ هامَّين:

الأمرُ الأوَّلُ: قاعدةُ الصَّلاةِ في كلِّ رسالةٍ إلهيَّةٍ.

الأمرُ الثَّاني: ارتباطُ السَّلامِ البَشَريِّ بهذه القاعدةِ وُجودًا وعَدَمًا.

وفيما يتعلَّقُ بالأمرِ الأوَّلِ؛ فإنَّ القرآنَ يُبيِّنُ في أكثرَ مِن مَوضِعٍ أنَّ الصَّلاةَ والإيمانَ كأنَّهما وَجهانِ لعُملةٍ واحدةٍ، بل استعمَلَ القرآنُ كلمةَ «الإيمانِ» وكلمةَ «الصَّلاةِ» في معنًى واحدٍ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ الصَّلاةَ هي الإيمانُ، والإيمانَ هو الصَّلاةُ؛ كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والصَّلاةَ هي الطَّريقُ الأَوحدُ للوُصولِ بالإنسانيَّةِ إلى السَّعادةِ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ؛ وعليه: فإنَّ الحضاراتِ الَّتي لا تَشتمِلُ أجندتُها ورُؤَاها على فلسفةِ الصَّلاةِ هي حضاراتٌ قَلِقةٌ ومتوترةٌ بكلِّ المقاييسِ، ولها

(*) كلمةٌ أُلقِيَتْ في اليوم الثاني لمؤتمر: «الدُّعاء من أجل السَّلام»، والمنعقد بمدينة أسيسي بإيطاليا، في ١١، ١٢شعبان: ١٤٢٧هـ، الموافق: ٤، ٥ سبتمبر: ٢٠٠٦م.

انعكاساتٌ سَلبيَّةٌ على أهلِها وعلى غيرِهم مِن أبناءِ الحضاراتِ الأُخرى.

مِن هنا قرَّرَ القرآنُ أنَّ الأنبياءَ جميعًا حمَلوا رسالةَ الصَّلاةِ إلى النَّاسِ، لإنقاذِهم مِن عبادةِ الأصنامِ ومِن ضلالِ الشَّياطينِ، يَتجلَّى هذا في موقفِ أبي الأنبياءِ إبراهيمَ -عليه السلام!-: حينَ جَمَعَ كلَّ همومِه ومَخاوِفِه بعدَما فرَغَ مِن بناءِ الكعبةِ، وتوجَّهَ إلى اللَّهِ طالبًا منه أنْ يجعلَ هذا البلدَ آمِنًا، وأنْ يَحمِيَ ذُرِّيَّتَه مِن عبادةِ الأصنامِ، وأنَّه ما جاءَ بأهلِه وذُرِّيَّتِه إلى هذا المكانِ الَّذي لا زَرعَ فيه ولا ماءَ إلَّا مِن أجلِ أنْ يُقيموا الصَّلاةَ للَّهِ حولَ هذا البيتِ، ثمَّ دعا ربَّه أنْ يَجعلَه مِن مُقيمي الصَّلاةِ، وأنْ يجعلَ مِن ذُرِّيَّتِه مِن أبناءِ إسماعيلَ وإسحاقَ مَن يُقيمُ الصَّلاةَ دائمًا في كلِّ مكانٍ وزمانٍ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥-٤٠].

وفي هذه المناجاة بين اللَّه -تعالى- ونبيه إبراهيم -عليه السلام!-: ما يدلنا على ضَرورةِ الصَّلاةِ في تحقيقِ الأمنِ والسَّلامِ، فقد كانَ شاغِلُ إبراهيم هو تحقيقَ السَّلامِ والعيش المستقر عَبرَ الصَّلاةِ، وعبر تجنُّب عبادةِ الأصنامِ، وكأنَّ السَّلامَ في فلسفةِ الدِّينِ لا يتحقَّقُ إلَّا بأمرَيْنِ مُتلازِمَيْن: الصَّلاةُ للَّهِ، ورفضُ عبادةِ الأصنامِ.

وفي سورةِ «الأنبياءِ» يَتحدَّثُ اللَّهُ عن إبراهيمَ ولوطٍ وإسحاقَ ويعقوبَ،

ويُثني عليهم، ويصِفُهم بأنَّهم أئمَّةٌ وقادةٌ يَهدُونَ النَّاسَ، وأنَّ اللَّهَ يُوحي إليهم فِعلَ الخيرات وإقامَ الصَّلاةِ، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

والنبيُّ زكريَّا حينَ طَلبَ في صلاتِه أنْ يَهَبه اللَّهُ ذُرِّيَّةً طيِّبةً رَغمَ كِبرِ سِنِّه وعُقمِ زوجتِه، بشَّرتْه الملائكةُ بيحيى، وهو قائمٌ يُصلِّي في مِحرابِه، وكأنَّ الصَّلاةَ في هذا السِّياقِ تُحقِّقُ المستحيلَ، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

كذلك كانتِ الصَّلاةُ هي البَنْدَ الثَّانيَ في وَصايا لقمانَ لابنِه، بعدَ بَنْدِ النَّهيِ عنِ الشِّركِ باللَّهِ، ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وحينَ اختارَ اللَّهُ سيِّدَنا موسى عليه السلام لتبليغِ الرِّسالةِ للنَّاسِ، كانَت الصَّلاةُ هي الأمرَ الإلهيَّ الثَّانيَ بعدَ الأمرِ بعبادةِ اللَّهِ: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

ولم تَخْلُ المُعجِزةُ الأُولى لسيِّدِنا عيسى عليه السلام مِن بَيانِ خَطَرِ «الصَّلاةِ» في حياةِ الإنسانِ، وكانَت كلماتُه الَّتي نَطَقَ بها في المَهدِ: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

ولم يَكُنِ الأمرُ فيما أُوحِي إلى سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ في شأنِ الصَّلاةِ بعيدًا أو غريبًا عمَّا أُوحِيَ مِن قَبلُ إلى إخوانِه من الأنبياءِ والمرسَلينَ؛ فالصَّلاةُ في

الإسلامِ لا تَنفصِلُ عنِ الإيمانِ، وأيٌّ مِنهما لا يُمكِنُ أنْ يَثبُتَ معَ نفيِ الآخَرِ، ومِن هنا قرأنا في الحكمة الإسلامية: «لا إيمانَ لِمَنْ لا صَلاةَ له».

ونَخلُصُ مِن كلِّ ما سبَقَ إلى أنَّ الآياتِ القرآنيةَ الَّتي ورَدَ فيها ذكرُ الصَّلاةِ -في ثلاثةٍ وتسعين موضعًا- كلُّها تُؤكِّدُ أنَّ الصَّلاةَ هي المظهرُ الأسمَى الذي تَتجلَّى فيه وَحدةُ الدِّينِ الإلهيِّ، ووَحدةُ رسالةِ الأنبياءِ جميعًا، ووَحدةُ الكُتُبِ السَّماويَّةِ، وأنَّ خطابَ اللَّهِ إلى البشريَّةِ منذُ يومِها الأوَّلِ وحتَّى آخِرِ يومٍ في عُمُرِها خطابٌ واحدٌ، تُشكِّلُ الصَّلاةُ فيه حَجَرَ الزَّاويةِ الَّذي لا يَقومُ بُنيانُ الدِّينِ إلَّا عليه.

وإذا ما انتقَلنا إلى الأمرِ الثَّاني؛ وهو عَلاقةُ السَّلامِ بالصَّلاةِ وُجودًا وعَدَمًا؛ فإنَّ فلسفةَ الإسلامِ في هذا الأمرِ تَنطلِقُ مِن أنَّ الصَّلاةَ في حقيقتِها ليسَت إلَّا تدريبًا مُنتظِمًا للإنسانِ عَلَى الارتباط باللَّه تعالى، والتعود على التسامح والتَّجاوُزِ والتَّسامي؛ ذلك أنَّ الإنسانَ بطبيعتِه يُشبِهُ أنْ يكونَ مُواطِنًا في عالَمَيْنِ: عالَمٍ ضيِّقٍ خانقٍ، وعالَمٍ آخَرَ واسعٍ فسيحٍ، وهو وإن كان يعيشُ بجَسَدِه في عالَمِ المادَّةِ الَّذي تَتَعارَضُ فيه المَصالِحُ وتَتَزاحَمُ المَطامِعُ، إلَّا أنَّه يَنتمي برُوحِه وقلبِه إلى عالَمٍ مُفارِقٍ مُتعالٍ، ليس فيه أغراضٌ تَتَعارَضُ ولا مصالحُ تتضاربُ.

والصَّلاةُ في الإسلامِ مَدرسةٌ يَتعلَّمُ فيها المسلمُ كيف يَتخلَّصُ مِن الغرائزِ الوَحشيَّةِ الَّتي تُغذِّي نَزَعاتِه الشِّرِّيرةَ؛ كالعُدوانِ والتَّقاتُلِ وصراع الآخر، وفي الوقتِ نَفْسِه يَتدرَّبُ على السَّلام النَّفسيِّ، والسَّكينةِ الدَّاخليَّةِ، والارتقاءِ بالفكرِ والوِجدان، وهذا التَّجاوزُ أو الارتقاءُ يتساوَى فيه الإنسانُ البسيطُ السَّاذَجُ، والإنسانُ العالِمُ العبقريُّ؛ فكِلاهُما ذو نوازِعَ وَحشِيَّةٍ ضاريةٍ، وقد ثَبتَ أنَّ التقدُّمَ العِلميَّ والحضاريَّ لم يَستطِعْ أنْ يُهذِّبَ الإنسانَ أو يُخلِّصَه مِن

الوَحشِ الَّذي يَسكُنُ بداخلِه، وأنَّ التَّربيةَ الدِّينيَّةَ الصَّحيحةَ والسَّليمَةَ هي القادرةُ على صُنعِ هذا التَّحوُّلِ الَّذي لا تَستقيمُ الحياةُ بدونِه.

وأنا باعتباري مُسلِمًا أتوقَّفُ طويلًا أمامَ النُّصوصِ الشَّارحةِ لأهميَّةِ الصَّلاةِ في التدريبِ على السَّلامِ النَّفسيِّ والدَّاخليِّ، وذلك حينَ أتأمَّلُ تَجرِبةَ الصَّلاةِ في حياةِ النَّبيِّ محمَّدٍ -عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ-؛ حيثُ يقولُ عن نفسِه: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ**»(١) أي أنَّه يَجِدُ فيها هدوءَ نَفْسِه وسَكِينةَ قلبِه وعَقلِه، وكانَ يقولُ لمؤذِّنِه بلالِ بنِ رَباحٍ: «**قُمْ فأرِحْنا بالصَّلاةِ**»(٢)، وكان يُعالِجُ بها ثورةَ الغَضَبِ والغَيظِ، ونزعةَ العُدوانِ في داخلِ الإنسانِ: «**ألَا إنَّ الغَضَبَ جَمرةٌ في قَلْبِ ابنِ آدَمَ؛ فمَن وَجدَ مِن ذلك شيئًا فلْيُلصِقْ خَدَّهُ بالتُّرابِ**»(٣).

وهذه العبارةُ الأخيرةُ تُشيرُ إلى الصَّلاةِ؛ لأنَّ المُصلِّيَ يضَعُ جَبينَه على الأرضِ خضوعًا للَّهِ وخشيةً ومَهابةً، فإذا وَضعَ وجهَه -وهو أعَزُّ أعضاءِ جَسَدِه- على الأرضِ؛ فلا بُدَّ أنْ تذهبَ عنه مشاعِرُ التَّكَبُّرِ والغَضَبِ والتَّعالي على الغيرِ.

إنَّ حاجةَ الإنسانيَّةِ الشَّديدةَ إلى هَدْيِ السَّماءِ، وإلى نُورِ النُّبوَّةِ أصبحَت الآنَ مِن الضَّرورَةِ بحيثُ يجِبُ عَلَى قادَةِ الفِكرِ في العالَمِ أن يَقْدُروها قَدرَها، وأن يَضعُوها على رأسِ القَضايا التي تُعالِجُ أزمَةَ العالَمِ الحَديثِ، وفي اعتقادِي أنَّ خَلاصَ البشريَّةِ مِن أمراضِها المعاصِرةِ -وفي مُقدِّمتِها مَرَضُ

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ (٣٩٣٩) مِن حديثِ أنس ﷺ. وقال ابن الملقِّن في البدر المنير: ١/ ٥٠١: «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٦) عن رجل من الصَّحابة ﷺ.

(٣) أخرجه التِّرمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخُدريِّ ﷺ، وقال: «حديث حسن».

العَمَى عن الحقيقةِ- لم يَعُدْ رَهْنَ أيِّ تقدُّمٍ مادِّيٍّ أو رُقِيٍّ تِكنُولوجيٍّ، وإنَّما هو -فيما أَتيَقَّنُ- رَهْنُ تقدُّمٍ رُوحِيٍّ وأخلاقيٍّ، تقومُ فيه الصَّلاةُ والدُّعاءُ بدَورِ طَوقِ النَّجاةِ مِن غَرَقٍ مؤكَّدٍ.

* * *

السَّــماحةُ في الإسـلام
«الإســـلامُ والأديـان؛ أنمــوذجًا»(*)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الإسلامُ هو الحلقة الأخيرة في منظومة الدِّين الإلهي، الذي بشَّر به كُّل الأنبياء والمرسلين؛ من آدم وحتى محمَّد صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

أيها السادة الحضور:

إنَّ مَن يتأمَّل آيات القرآن الكريم يَعلم أنَّ الإسلام ليس هو تحديدًا الرِّسالة التي نزلت على محمد ﷺ، وإنَّما هو: الاسم الجامع لكلِّ الرسالات التي حملَها الأنبياء؛ على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.

ولذلك كان من الطَّبيعي أن يوصَف الأنبياء السابقون على محمَّد ﷺ بأنهم مسلمون، وأن يُطلق على كلٍّ من: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى اسم مسلم، كما أُطلق على نبي الإسلام محمد نفس الاسم سواء بسواء.

ويَكفي أن نقرأ في القرآن الآيات: ١٢٨، ١٣٢، ١٣٣ من سورة البقرة، والآية: ٥٢ من سورة آل عمران، والآيتين: ٨٤ من سورة يونس، والآية: ٩١ من سورة النمل؛ لنتأكَّد من أنَّ هذه الأسماء المتألقة في لوحة النُّبوة يُسمِّيهم القرآن مسلمين.

(*) أصل هذه الكلمة محاضرة ألقيت بالمنتدى العالمي من أجل الحوار بين الحضارات ومستقبل الشرق الأوسط؛ بعنوان: السماحة في الإسلام؛ الإسلام والأديان نموذجًا، بطرسبرج - روسيا، في الفترة: ٩-١٠/ ١١/ ٢٠٠٧م.

وليس الاشتراك بين الإسلام كرسالة أخيرة والرِّسالات السَّابقة عليه هو مجرَّد اشتراك في اسم أو عنوان فحسب، بل هو اشتراك في مضمون الإسلام وجوهره وحقيقته؛ لأنَّ البحث في القرآن يُثبت أن ما جاء به محمَّد ﷺ من عقائد، وأخلاق، وسلوك هو نفسُ ما جاء به نوح، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، وأنَّ اللَّه لم يُشرِّع للمسلمين دينًا جديدًا، بل شَرَع لهم نفسَ الدِّين الذي أوحاه إلى الأنبياء السَّابقين.. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

هذا الدِّين المشترَك بين المسلمين وغيرهم من الأُمم السَّابقة عليهم هو التَّوحيد المطلق، والتَّصديق برسُل اللَّه، وكتبه، والإيمانُ بكلِّ ذلك دون تفرقةٍ أو تمييزٍ عُنصري أو طائفي بين رسول ورسول، أو كتاب وكتاب.. ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

والإسلامُ بهذا المعنى لا يُتصوَّر أن يكون بينه وبين الرِّسالات الإلهية السابقة عليه خلافٌ، أو تعارض، أو افتراق(١).

ولا يَنبغي أن نفهم من اشتراك الرسالات الإلهية في دين واحد أنَّها تَشترك في شريعة واحدة كذلك؛ لأنَّ الدِّين مضمون ثابت في كلِّ رسالة، لا يَتعدد ولا يَختلف، بينما تَختلفُ الشَّريعة وتتعدَّد بين رسالة ورسالة أخرى من رسالات السماء.

---

(١) انظر بحثا بالغ الدقة في هذا المعنى، في: «الدِّين»، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان لمحمد عبد الله دراز: ١٧٦، دار القلم، الكويت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

ونَعني بالدِّين هنا: البيانَ الإلهي المتعلِّق بالعقيدة وأصول الأخلاق والعبادات.

أمَّا الشَّريعة فهي القوانين الإلهيَّة التي تُنظِّم حياة المؤمنين وتصرفاتهم الاجتماعية، التي تتغيَّر من زمان لزمان ومن مكان لآخر.

والذي يَتصفَّح آيات القرآن يَتَّضح له أنَّ التَّوحيد كان يُمثل قطبَ الرَّحى في كل الرسالات، وأنَّ دعوة الأنبياء إليه تشابَهت شكلًا ومضمونًا؛ فالنبي نوحٌ يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وكذلك إبراهيم: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وهود: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وصالح: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وشعيب: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وفي خطاب اللَّه لموسى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٣-١]، وعيسى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧].

وإذا كان أمرُ الدِّين واحدًا في فلسفة الإسلام؛ فإنَّ الشريعة ليست كذلك، إنَّها تختلف باختلاف بيئات الناس، وأزمانهم، وأماكنهم، وأحوالهم، وباختلاف الأمراض الاجتماعية السَّائدة في هذه البيئات، وبحيثُ تكون وظيفةُ الرَّسول الجديد وظيفةً مزدوَجة؛ هي التَّذكير بالمشترَك من الرسالات، مع مكافحة الأمراض الأخلاقية والاجتماعيَّة التي تفرِزُها مراحل التطور والتَّقدم.

ومن هنا؛ أكَّد القرآنُ على اختلاف الشَّرائع بين المؤمنين.. ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولا يَنبغي أن نفهم أن اختلاف الشرائع بين المؤمنين بالرسالات المختلفة يصنع بينهم ما يشبه الفرقة والعزلة النفسية؛ لأن وحدة الدين المشتركة تصنع من علاقات المودَّة ما يُشبه صلة الرَّحم ووشائج القربى التي تربط بين المؤمنين جميعًا، حيثما كانوا، وكيفما كانت شرائعُهم ورسالاتهم.

وإذا ما تقدَّمنا خطوة أخرى في بيان علاقة الإسلام بالأديان؛ وجدنا أنَّ هذه الوحدة العُضوية لم تتوقف عند حدود الدِّين عقيدةً، وعبادةً، وأخلاقًا[(١)]؛ بل امتدَّت لتشمل علاقة نبيِّ الإسلام بالأنبياء السَّابقين، وعلاقة القرآن بالكتُب السماوية السَّابقة.

فنبيُّ الإسلام يُصدِّق إخوانه الأنبياء، ويُؤمن بهم، ويُتمم ما بدأوه من دعوة الناس إلى اللَّه، ويقرأ المسلمون في هذا المعنى قرآنًا يتلى على مسامعهم صباح مساء.. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد صوَّر محمد ﷺ هذه الوحدة العضوية التي تجمع بينه وبين إخوته من الأنبياء والمرسلين عبر التاريخ، في كلام جميل رائع يقول فيه: «**أنا أوْلَى النَّاس بعيسى بنِ مريمَ في الدُّنيا والآخرة، والأنبياءُ إخوةٌ لعَلَّات؛ أمَّهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**»[(٢)]؛ أي: أنَّ الأنبياء يُشبهون إخوةً من أبٍ واحد

(١) نلفت النَّظر هنا إلى أن الصلاة مثلًا؛ شكلت مظهرًا قويًّا تجلت فيه وحدة الرسالات الإلهية، وبحيث وجدنا دعوات الأنبياء تتحد فيها كما اتحدت في العقيدة سواء بسواء، ولإثبات هذه القضية يمكن الرجوع إلى القرآن الكريم في المواضع الآتية: ٣: ٣٩؛ ١٤: ٣٥-٤٠؛ ١٩: ٢١ - ٢٣؛ ٢٠: ١٣-١٤؛ ٢١: ٧٣؛ ٣١: ١٧. وما يقال عن الصلاة يقال عن الصوم كذلك، انظر أيضاً القرآن الكريم ٢: ١٨٣. أما الاتحاد في «الأخلاق والفضائل العامة؛ فهو أظهر من أن يكون محل بحث وتحليل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأمَّهات شَتَّى، والأبُ الواحد هو الدِّين الذي يجمعهم جميعًا، والأمهات التي تفرقهم هي الأزمنة والأمكنة التي يَختلف بها نبي عن نبي، ورسولٌ عن رسول.

والشَّيء نفسه يقال على القرآن الكريم: إنه يُصدِّق الكتب السَّماوية التي نزلت على الأنبياء والمرسلين السابقين على النبي ﷺ.

ونحن نتعلَّم من القرآن أن الإنجيل مصدِّق ومؤيد للتوراة، وأن القرآن مصدق ومؤيد للإنجيل وللتوراة، ولكل ما سبقه من الكتب السماوية.. ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وأساسُ التصديق المتبادل بين هذه الكتب السَّماوية هو: وَحدة المصدر الإلهي، وضرورةُ اتِّحاد الرسالات السَّماوية في كل الأديان، ومن ثَمَّ؛ فإنَّ إيمان كلِّ رسالة بالرسالات السابقة عليها ليس تبرُّعًا منها ولا تفضُّلًا عليها، بل هو ضرورةٌ منطقية دينية تاريخية لا مفر منها.

وهذه الأصول القرآنيَّةُ هي التي حكمَت تصورات المسلمين، وتركَت بصَماتِها قوية وعميقة على علاقتهم بغيرهم من أهل الأديان السماوية منذ أيامهم الأولى؛ فنحن نؤمن بموسى وعيسى كما نؤمن بمحمد سواء بسواء، ونعتقد أنَّ التوراة التي نزلت على موسى كتاب اللَّه، وأن الإنجيل الذي نزل على عيسى كتابُ اللَّه، وأنَّهما هدى ونور للناس، بل نقول: إن كثيرًا من فقهاء الإسلام يُقرِّرون أنه إذا كان لا يَجوز للمسلم أن يمسَّ القرآن وهو جنب وكذلك المسلمة الحائض؛ فإنه لا يجوز لأي منهما أن يمس التوراة أو الإنجيل حتى يَغتسل(١).

(١) من محاضرة بعنوان: «الإسلام والأديان»، أُلقيت في معهد الشرق الأوسط للسلام =

- سماحة الإسلام مع الأديان:

إن دينًا تتأسَّس فلسفتُه في علاقته بالرسالات الإلهيَّة الأُخرى على هذه الوحدة العُضوية، التي بيَّناها في الفقرات السابقة، ومن خلال نصوص صريحةٍ، لا مجال فيها لغموض أو خفاء؛ لا بُدَّ وأن يُنشئَ حضارة سمحة ومنفتحة على الحضارات الأخرى، تتعامل معها من منطلَق التَّعارف والتكامل، وليس من منطلق الصراع أو الإقصاء.

ولو رُحنا ندلِّل على هذه الفرضية؛ فإن وقت المحاضرة لا يَتَّسع لتفصيل القول في ذلك، ولكن أكتفي بتسجيل الحقائق التالية:

يُقرر القرآن الذي يَحفظه كثيرٌ من المسلمين عن ظهر قلب أنَّ اللَّه لو شاء أن يجعل الناس علي دين واحد، وعقيدة واحدة، ولون واحد، ولغة واحدة - لفعل، لكنَّه لم يَشأ، وشاء بدلًا من ذلك أن يَخلقهم مختلفين في أديانهم، وعقائدهم، وألوانهم، ولغاتهم، وأن يَستمر هذا الاختلاف إلى آخر لحظة في عمر هذا الكون.. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، ويَترتَّب على هذا الاختلاف الذي أراده اللَّه للناس أن تَختلف الأديانُ والمعتقدات، وتبقى مختلفة إلى أن يَرِث اللَّه الأرض ومَن عليها.

ويمكن أن نقول: إنَّ اختلاف العقائد مع استمرارها إلى آخر لحظة في عمر الكون حقيقةٌ قرآنية وكونية معًا، ومن هذا المنطلَق؛ لا يمكن للمسلم أن يتصوَّر اجتماع البشرية كلِّها على عقيدة واحدة أو دين واحد، ولا أن يَتصور تحويلَ الناس إلى دين واحد، حتى لو كان هذا الدِّين هو الإسلام، وما دام الأمرُ كذلك؛ فإن العلاقة بين المسلم وغير المسلم لا تُتصور -حينئذ- أن تكون علاقة نفي وصراع وعداء، بل علاقة التواصل والتكامل، أو بكلمة

= والتنمية بنيويورك.

واحدة: «التعارف» هي علاقة التَّعارف.. وهذا ما حدده القرآن في نصٍّ صريح واضح يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والتَّعارف في قانون اللغة العربية يقتضي بالضَّرورة طرفين يعترف كلٌّ منهما بالطرف الآخر، بل يضيف إلى الاعتراف الاحترام، بل يضيف إلى الاحترام المودة والرفق، بل يضيف إلى كل ذلك أن يكون الحوار بينهما بالتي هي أحسن.

إنَّ استعراض تاريخ الحضارة الإسلامية يُبرهن على التزام هذه الحضارة بهذه الأصول القرآنية وهي تتعامل مع الأديان والحضارات والشُّعوب التي انفتحت عليها، ولا نَستطيع بطبيعة الحال أن نتقصَّى تاريخ الحضارة الإسلامية في هذا المجال، ولكن نركِّزُ فقط، وفي إيجازٍ شديد على تاريخ الإسلام وسماحته مع المسيحية؛ رسالة، ورسولًا، وأتباعًا.

فانظر إلى القرآن الكريم وتأمل كيف تحدث حديثًا جميلًا عن سيدنا عيسي -عليه السَّلام- وعن أمِّه مريم العذراء -عليها السلام-، وكيف وجدنا فيه سورة «مريم»، وسورة أخرى تسمى سورة «الرُّوم» وهم المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يُتاخمون حدودَ الدولة الإسلامية، ويُشكِّلون الجار الأقرب للمسلمين..

وقد حدثنا التاريخ أن الفرس الوثنيين حين هزموا الروم المسيحيين، سخرَ الوثنيون العرب من المسلمين، وعيَّروهم بهزيمة الرُّوم المسيحيين، ولما شكا المسلمون أمرهم إلى النَّبي ﷺ نزل وعدُ اللَّه بأنَّ الرُّوم سيَغلبون الفرس الوثنيين في بضع سنوات قلائل، وأن المؤمنين من مسلمين ومسيحيين سيفرحون بنصر اللَّه، وهنا نقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢

فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٢-٦]، وقد صدق وعد اللَّه، وفرح المسلمون لانتصار الروم المسيحيين.

ويَلفت النظر في هذه الآيات؛ أنَّ القرآن ذكر كلمة «المؤمنون» عنوانًا جامعًا، يَنطبق علي المسلمين وعلى الروم، وهذا العنوان هو وَحدة الدِّين التي تحدَّثنا عنها من قبل، والتي كادت تجعل من الفريقين أمَّة واحدة في مقابل أمَّة الوَثنية والشرك.

وسورة «الروم» هذه من السور المتقدمة جدًّا في نزول القرآن، مما يَعني أن علاقة الأخوة بين الإسلام والمسيحية تَضرب بجذورها منذ السَّنوات الأولى في تاريخ المسلمين، وأنها استمرَّت حتى السنوات الأخيرة في عصر الرسالة المحمدية؛ حيث نقرأ في سورة «المائدة» خطاباً من اللَّه لرسوله يقول فيه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، ومعلوم أن سورة المائدة نزلَت بعد سورة الفتح، أي: بعد فتح مكة في رمضان سنة ثمان من الهجرة.

والذي يتأمَّل سيرة النبي ﷺ طوال فترة الرِّسالة، في مكة والمدينة -لا يَصعب عليه أن يرصد المودَّة الخاصَّة، الكامنة وراء كلِّ تصرُّفاته وتعاملاته مع المسيحيين أو النصارى كما كانوا يُسمَّون آنذاك..

نجد ذلك فيما هو معلومٌ من هجرة المسلمين المستضعفين في مكة إلى الحبشة المسيحية، وملكها المسيحي، وقد حدثت هذه الهجرةُ مرتين في العهد

المكِّي، وكان من بين المهاجرين عثمان بن عفان، وزوجه رقيَّة ابنة النبي ﷺ، وقال النَّبي ﷺ لأصحابه الفقراء والمستضعفين: «**إنَّ بأرضِ الحبَشةِ مَلِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه، فالْحَقوا ببلادِه حتَّى يَجعَلَ اللَّهُ لكم فرَجًا ومَخرجًا ممَّا أنتُم فيه**»[١].

كما يُحدِّثنا التاريخ أنَّ ملك الحبشة استقبل المسلمين استقبالًا حسنًا، وحماهم، وأمَّنهم، ولم يُسلمهم إلى وفد قريش الذي جاء يطلب عودة هؤلاء المستضعفين إلى ساداتهم في مكة، ولما يَئِسَ وفدُ قريش من استجابة الملك المسيحي العادل لجأ عمرو بن العاص -ولم يكن أسلم بعدُ- إلى حيلةٍ يوقع بها بين الملك وهؤلاء المهاجرين الغرباء، فقال للنجاشي: أيُّهَا المَلِك، إنَّهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا، فأرسَل الملك إلى جعفر بن أبي طالب وسألَه، فقال له جعفر: «نقول هو عبد اللَّه، ورسوله، وكلمته، وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، وقرأ عليه آيات من سورة «مريم». فبكى النَّجاشي وأعطى الأمان للمسلمين، وكان كما قالت أم سلمة -زوج النبي ﷺ-: «نزَلنا بخيرِ دارٍ، إلى خير جارٍ، آمنَّا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا»[٢].

وقصَّة نصارى نجران، وهي قصَّةٌ موثَّقة في السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، تَقصُّ علينا أنَّ وفدًا مكوَّنًا من ستين رجلًا من أشراف نجران من المسيحيين، يَتقدَّمهم الأسقف: أبو حارثة ابن علقمة، ذهبوا ليُحاوِروا نبي الإسلام في أمر رسالته الجديدة، فاستقبلهم النبي ﷺ في مسجده بالمدينة، واستضافهم فيه، وجرى الحوارُ بينه وبين الوفد المسيحي في رحاب المسجد النبوي بالمدينة

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البيهقيُّ في «السنن الكبرى»: ٩/ ٩، وفي «دلائل النُّبوَّة»: ٢/ ٣٠١، من حديث أمِّ سلمة ﵂.

(٢) جزء من الحديث السَّابق.

المنورة، ولما حان وقتُ صلاتهم قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، إن هذا وقت صلاتنا، وإنا نريد أن نؤدِّيها. فقال لهم: «**دونكم هذا الجانب من المسجد، صلُّوا فيه**»[(١)]، وصلَّى المسيحيون صلواتهم الكَنَسية في مسجد النبي بالمدينة، ولم يَجد النَّبي ولا المسلمون أدنى حرج في أن يصلي المسيحيون في مسجد النبي ﷺ[(٢)]، وهو أوَّل مسجد في تاريخ الإسلام.

وقد شجَّعتني هذه الحادثة، حين كنت مدعوًّا للغذاء في إحدى كنائس مدينة فريبورج بسويسرا -أن أطلُبَ من كبير الأساقفة أن يَأذن لي بالصَّلاة، فأذن لي مشكورًا، وهيَّأ لي غرفة صغيرة، أحضروا فيها نسخةً من القرآن الكريم، وصلَّيت في هذا المكان، بمذاق خاصٍّ من الروحانيَّة الأخَّاذة، لا أنسى سحرَه حتى هذه اللحظة، وعلمت وقتَها كيف أنَّ الأديان حين تَخلو من التَّعصُّب الممقوت؛ فإنَّها تشيع المحبة والسماحة في نفوس المصلين، أينما كانوا، وكيفما كانت عقائدهم وأديانهم.

وكثيرًا ما توقفت عند حادثة هذا الوفد المسيحي، الذي قطع آلاف الأميال على ظهور المطايا ليُحاوِرَ نبيَّ الإسلام، وكيف أنَّ هذا الحوار حدث في أقدس مكان في عاصمة الإسلام الأولى، وتم في جوٍّ من المودَّة الخالصة، رغم الحساسيَّة الشديدة، والحرج البالغ على طرفي مائدة الحوار، وكيف انتهت المهمَّة في حرِّية تامَّة مكفولة للطرفين، وتساءلت: هل يمكن أن نتصوَّر حدوث حوار من هذا النوع في مساجدنا وكنائسنا الآن؟ وهل ينتهي بنفس الحرية والسَّماحة التي انتهى بها حوار أسلافنا القدامى؟

---

(١) أخرجه بنحوه ابن إسحاق في «السِّيرة»، ومن طريقه ابن هشام في «السِّيرة»: ١/ ٥٧٤، والطَّبريُّ في «تفسيره»: ٥/ ١٧٢، والبيهقيُّ في «دلائل النُّبوَّة»: ٥/ ٣٨٢، وغيرهم، عن محمَّد بن جعفر بن الزُّبير بن العوَّام.

(٢) «تفسير ابن كثير»: ١/ ٣٦٠.

أو أن حوارًا على هذا المستوى سوف يَبعث منذ اللَّحظات الأولى تاريخًا كاملًا من الكراهية والحقد والتعصُّب والفرقة بين المؤمنين في الشرق والغرب؟ وأكبر الظَّن أن ما نعلمه الآن ونراه، من المضاربة بالأديان في سوق السياسات والصراعات الدولية يُرشِّح الاحتمال الثاني بكل قوَّة.

ولا يَفوتني هنا أن ألفت النَّظر إلى موقف النبي محمَّد ﷺ من السيد المسيح وأمِّه مريم العذراء -عليهما الصَّلاة والسَّلام-، حين دخل مكَّة مع المسلمين، وحطَّم الأصنام من حول الكعبة، ووجد صور الأنبياء والملائكة معلَّقة على حوائطها، فأمرَ بإزالة كل الصور، ما عدا صورة واحدة وضع يديه الشريفتين عليها، ولما فرغوا من إزالة الصور المرسومة على جدران الكعبة رفعَ النبي يديه، فإذا الصُّورة التي خبأها هي صورة عيسى المسيح مع أمه مريم، وكانت هي الصَّورةَ الوحيدة التي بقيت مرسومة على أحد الأعمدة الداخلية للكعبة، وذلك قبل أن يُزيلها تجديد الأعمدة الذي حدث بعد ذلك بفترة طويلة.

وقد رأى كثيرٌ من الصحابة والتابعين هذه الصورة؛ منهم: عطاء بن أبي رباح، وقد سُئل: هل رأيت صورةَ مريم وعيسى؟ فقال: نعم، أدركت تمثال مريم مزوَّقًا، في حجرها عيسى قاعد، وكان في البيت -الكعبة- ستَّة أعمدة، وكان تمثال عيسى ومريم في العمود الذي يلي الباب[1].

أيها السَّـادة..

إذا عُدنا إلى علاقة التَّعارف التي أشرنا إليها من قبل، والتي وضعَها الإسلام كقانون يحكم علاقة المسلمين بغير المسلمين؛ فإن هاهنا سؤالًا يَطرحه كثيرون ممن لا يَعرفون حقيقة هذا الدِّين وسماحته مع الآخرين، هذا

(١) انظر «أخبار مكة» لأبى الوليد الأزرقي: ١١١.

السُّؤال هو: إذا كان التعارف هو المقصد الإلهي الذي خلق اللَّهُ الناس من أجله، وجعلهم شعوبًا وقبائل، فلماذا الحرب إذن؟

والإجابةُ في كلمة واحدة؛ هي: أنَّ الحرب أو القتال في فلسفة الإسلام استثناء أو ضرورة، تفرضها ظروفٌ ومناسبات خاصَّة.

وبتَساؤل آخر: ما الذي يَدفع المسلمين لأن يَحملوا السِّلاح في وجوه الآخرين؟ هل هو كفر الآخرين وعدم إسلامهم؟ أو هو اعتداء الآخرين عليهم؟

والإجابة الثَّانية هي الإجابة الصحيحة، التي يُقرُّها الإسلام، وتقرها فلسفته في علاقات المسلمين بغيرهم.

ومن هنا؛ قرَّر جمهور فقهاء المسلمين أنَّ الاختلاف في الدِّين لا يُمكن أن يكون سببًا مبيحًا للحرب، وأن السَّبب الوحيد هو العدوان.

والدَّليل على ذلك أن فقهاء المسلمين جميعًا متَّفقون على حرمة قتل طوائف معيَّنة في جيش العدو؛ مثل: المرأة، والصبي، والأعمى، والمقعد، والمعوق، والراهب، ولا يوجد فقيه واحدٌ في تاريخ شريعة الإسلام خرج عن هذا الحكم، وأجاز قتل واحد من هؤلاء، رغم وجودهم في معسكرِ العدوِّ وجيشه.. لماذا؟ لأن هؤلاء وأمثالهم لا يُتصوَّر منهم عدوان ولا قتال، وإذن فلا يجوز قتالهم.

وهنا أذكِّر بدستور الحرب في الإسلام، وبالوصايا التي كان يُزوَّد بها قائدُ الجيش قبل خروجه لملاقاة العدو: «**إنَّك سَتَجِدُ قومًا زَعَموا أنَّهم حبَسُوا أنفُسَهم للَّه**[(١)]**، فذَرْهُم وما حبَسُوا أنفُسَهم له، وإنِّي أُوصِيك بعشرٍ؛ لا تَقْتُلَنَّ امرأةً، ولا صَبيًّا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تَقطَعنَّ شجرًا مُثمِرًا، ولا تُخرِّبنَّ عامِرًا، ولا تَعْقِرنَّ شاةً، ولا بَعيرًا إلَّا لِمَأْكَلَةٍ**[(٢)]**، ولا تَحْرِقَنَّ نخلًا،**

(١) يقصد الرهبان والعباد في صوامعهم وأديرتهم.
(٢) لا تذبح شاة ولا بعيرًا إلا لضرورة الأكل والطعام.

ولا تُغْرِقنَّه، ولا تَغْلُل[(١)]**، ولا تَجْبُن**»[(٢)].

وقد رأى النَّبيُّ ﷺ في بعض ساحات القتال امرأةً مقتولة، فأنكر ذلك، وقال: «**ما كانت هذه لتُقاتِل**»[(٣)] أي: إنها لم تَحمل السِّلاح وتقاتل، فكيف قُتِلَت؟! وهذا الحديث أصلٌ في أنَّ سبب القتال أو الحرب هو حملُ السِّلاح والعدوان من الآخرين. فإذا انتفى العدوان حرم القتال وكل ما يؤدي إلى اندلاعه واشتعاله.

وإذن؛ فالأساس الذي قام عليه تشريع الجهاد في الإسلام هو العُدوان، وما دام الآخرون لا يَعتدون على المسلمين، فلا يَجوز للمسلمين أن يَبدؤوهم بالقتال، كيف وقد قرَّر القرآن الكريم في نصوص صريحة قاطعة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

ومثلُ الاعتداء على الوطن الاعتداءُ على العقيدة؛ فكلاهما عدوان يَجب دفعُه، وإذا ردَّ المسلمون الاعتداء، فعليهم أيضًا ألَّا يَتجاوزوا الحد.. ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويَكفي أن نقول: إنَّ أوَّل آية نزلت لتشرع للمسلمين حقَّ القتال هي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

---

(١) لا تَخُن: لا تكن من الخائنين.

(٢) أخرجه مالك (١٢٩٢) وعبد الرَّزَّاق (٩٣٧٥) وابن أبي شيبة (٣٣٧٩٣) وغيرهم.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٦٩) من حديث رَبَاح بن ربيع رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبَّان والحاكم.

وفي هذا النَّص القرآني يَتَّضح تحديدًا أنَّ أوَّل سبب لمشروعيَّة القتال في الإسلام هو: نصرة المظلومين، وتمكينُهم من حقِّهم في حياة آمنة، وهو سببٌ لا يَختلف على مشروعيَّته اثنان من العقلاء، كما يَتَّضح أيضًا أنَّ الحرب في هذا النَّص مشروعةٌ للدِّفاع عن الإيمان باللَّه ضد عدوان المشركين والوثنيين.

ومما يَدهش له الباحث المنصِف؛ أنَّ الدِّفاع المشروع في هذه الآية ليس قاصِرًا على الدِّفاع عن الإسلام فقط، بل يدخل فيه الدفاع عن حرية العقيدة في أيِّ دين من الأديان السماوية الأخرى.

ومعنى ذلك: أنَّ الإسلام يُكلِّفُ المسلمين بالحرب ليُؤَمِّنوا للمسيحيين ولليهود حرِّيَّة العبادة في الكنائس والمعابد، كما يُؤمِّنوا لأنفسهم حُريَّة العِبَادة في المساجِد، وقد قال ابن عباس -وهو من كبار الصَّحابة- في تفسير هذه الآية: «يَدفعُ بدين الإسلام وبأهله المسلمين عن أهل الذِّمَّة من اليهود والنصارى».

وإذن فالهدفُ من الحرب الدفاعية في الإسلام ليس الدِّفاع عن المساجد فقط، بل الدفاع عن أماكن العبادة الخاصَّة بغير المسلمين سواء بسواء.

ولعلَّ القارئ العربي يَلمح ما توحى به كلمة «أُذِنَ» في الآية السَّابقة؛ من أنَّ القتال في الإسلام من الأصول الممنوعة وأنه استثناءٌ يحتاج إلى إذن تشريعي يُعمل به في الضرورات، وهذا ما نجدُه صريحًا في القرآن الكريم.. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وقول الرسول الكريم ﷺ: «**لا تَتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللَّهَ العافيةَ**»[(١)]، وقولُه: «**اترُكوا الحَبَشَةَ ما تَرَكُوكُم، ودَعُوهم ما وَدَعُوكُم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٩٦٥) ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٢) والنَّسائيُّ (٣١٧٦) من حديث رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ.

ولعلَّه يتبيَّن مما تقدَّم أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السِّلم، وليس الحرب، وأنَّ هذا الرأي هو رأي جمهور علماء المسلمين، وأنَّه الرأي الذي يُعبِّر عن فلسفة القرآن في مسألة الحرب، وعن الحكمة من إرسال محمَّد ﷺ. . ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وخطاب القرآن للمؤمنين بأن يدخلوا في السَّلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

أيُّها السَّـادة. .

هناك آفاقٌ عديدة لبيان سماحة الإسلام مع أهل الأديان الأخرى، لا يَتَّسع الوقتُ لعرضها عرضًا مُفَصَّلًا، ولكن نختم ورقتنا هذه بأنَّه إذا كنا قصدنا من هذه المحاضرة أن نبيِّن جانبًا من سماحة الإسلام، التي تمثَّلت في إقرار حقيقة الاختلاف في العقائد والألوان واللغات، وفي قيام العلاقات الدولية على أصل السَّلام والتعارف والتآلف، وعلى بناء جسور المودة بين أتباع الديانات السماوية الثلاث؛ فإنَّ من المهم -فيما نعتقد- أن نُبيِّنَ أنَّ الإسلام يَهتمُّ أيضًا بألَّا تتميَّع هذه السَّماحة إلى حدِّ الهوان وقَبول الاستِباحة والتسلُّط. .

فالسَّلام إذا كان يمثِّل أحدَ وَجْهي العملة في علاقة المسلمين بغير المسلمين؛ فإن الوجه الآخر هو القوَّة والمنعة والاستعداد المستمرُّ؛ وليس الجهاد في الإسلام إلا هذين الوجهين مُجتَمعين متلازمين، فإذا أُخِذَ على أنه السَّماحة مطلقًا، أو الحرب مطلقًا، فقد بطلَ مفهومُ الجهاد في الإسلام وفسد معناه.

ونحن نعتِب كثيرًا على مثَّقفي الغرب، الذين يَتخذون موقفًا رسميًّا جاهزًا ضِدَّ الإسلام والمسلمين، ويَصفوننا بالدمويَّة وبالفوضى وبالإرهاب على طول الخط، وبالرَّغم من إجماع المسلمين؛ سياسيين، ومفكرين على إدانة

هجوم سبتمبر ورفضِه؛ فإنَّ وَصْم الإسلام بالإرهاب أصبح نغمَة لا تُشكِّل أيَّ ملل في آذان كثير من الغربيين؛ سياسيِّين، ومفكرين.

وهنا أوَدُّ أن أقارن سريعًا بين صورتين: صورة المسلمين الذين تعرَّضوا لمجازر وحشيَّة بسبب الحروب الصليبيَّة قديمًا والصربيَّة حديثًا، وبسبب الدمار والخراب الذي لا يَهدأ لحظةً في العراق، وبؤَر التوتُّر المُلتهبة دومًا في فلسطين ولُبنان ودارفور والصُّومال وأفغانستان، والتي سالت فيها دماء المسلمين أنهارًا، وبأكثر مِمَّا سال من دماء المركز التجاري الأمريكي مئات المرات، برغم ذلك فإنك لا تَجد كاتِبًا مُسْلِمًا واحدًا يَخلط بين جرائم الصليبيِّين الشَّنعاء وبين المسيحيَّة كدينٍ إلهيٍّ، ولم نسمع كلمةً واحدة نابية تَمسُّ المسيحيَّة ولا اليهوديَّة من قريبٍ أو من بعيد، وكان المسلمون دائمًا متيقظين وعلى وعيٍ عميقٍ بالمُفاصلة بين ما يَدعوا إليه دين سيدنا عيسى وسيدنا موسى عليهما السَّلام، وبين ما يدعو إليه هؤلاء الدمويون، لكنك -للأسف- لا تَجد لهذا الموقف الجادِّ المسؤول مَثيلًا في الغرب، الذي اختلَطت في ذهنه كلُّ الأوراق في لحظة غضب وانفعال، وفقَدَ القُدرة على التَّمييز بين القاعدة والشُّذوذ، ووصفَ الإسلام ونبيَّ الإسلام والمسلمين جميعًا بالإرهاب والتطرُّف والهمجيَّة والبربريَّة.

وعلى أن واجبَ الإنصاف يُحتِّم علينا ألَّا نُعِّمم ما قُلناه على كل المُشتغلين بالإسلاميات من الغربيِّين؛ فهناك أقلام حُرَّة ومسؤولة رفضَت مقولات المستشرقين المسوِّقة لخدمة التيَّارات اليَمينية، والاتِّجاهات المحافظة والمُتعصِّبة، وتسهيل مُهِمَّة الانقِضاض على ثروات الغير، وقد استطاعت هذه الأقلامُ أن تكشفَ عن الصُّورة الحقيقيَّة للإسلام، بحُسبانه وحيًا وهديًا إلهيًّا للنَّاس كافَّة، ومن حسن الحظ أن عدد هؤلاء يتزايد، ومنهم

مَن لم يَسعه إلَّا اعتِناقُ هذا الدِّين، وهم كثيرون، ولعلَّ هؤلاء أقدرُ منَّا على إزالة هذا الخَلْط أو الغبش الذي أصاب مرآةَ الغرب وهي تعكسُ صورةَ الإسلام للغربيِّين.

أيُّها السَّادة..

إنَّ من حق هذا البلد الذي يحرص على استضافة مؤتمر «حوار الحضارات ومستقبل منطقة الشرق الأوسط» أن نُقدِّم له خالص الشُّكر الجزيل على مبادرته الطَّيبة، وعلى توجُّهاته الإنسانية، واحترامه أديان الآخرين ومعتقداتهم، فهذا هو المحكُّ الحقيقي الذي تُقاس به دعاوى حوار الحضارات، التي ترفع به لافتات الحُريَّة والديمقراطية وحقوق الإنسان، ومنها حضارات كثيرة تقوم دعاواها على تجزئة هذه القيم، والكيل فيها بمكيالين، بل بمكاييل عدة، ولا تشعر فيها الضَّمائر بأي حرَجٍ في أن تمنح أو تمنع من حقوق الإنسان حسب لونه، أو حسب بيئته الجغرافية أو الحضارية، وما يصير حقًّا لإنسان ما وراء البحار لا يَجوز لغيره من الآدميين أن يتطلع إليه، فضلًا عن أن يستمتع به.

وهُنا نُقدِّر كثيرًا الجهود الرسميَّة، والرؤى الاستراتيجية المتوازنة، التي تهدف إلى تقوية العلاقات بين روسيا والعالم الإسلامي، من أجل مكافحة الإرهاب، ومن أجل الحوار بين الحضارات.

وقد سمعنا بلجنة الحُكَمَاء التي يَشترك فيها كبارُ المسؤولين من روسيا وماليزيا وتركيا والأردن ومصر، وما حقَّقته هذه اللَّجنة المُوقَّرة من تقارب حقيقي بين مختلف الأديان والثقافات، وأيضًا مركز الدِّراسَات العَربيَّة والإسلاميَّة، ومطبوعاته القيِّمة، التي تُشَجِّع التفاهُم وتبادل المعرفة بين المسلمين والمسحيِّين الرُّوس، وكذلك مركز «شَراكة الحضَارات» في

جامعة موسكو، ووزارة الخارجيَّة الرُّوسِيَّة، التي يَحرص وزيرُها المُوقَّر في كل مناسبة على التأكيد على أنَّ الإسلام جزء من تاريخ روسيا، ومكوِّن أساسي في ثقافتها الخالدة على صفحات الزمن، والالتزام الجاد بالوقوف في وجه الدعاوى الكاذبة التي تربط بين الإسلام وبين الإرهاب.

ولا عجب في ذلك؛ فالشَّعب الروسي من أقدر الشُّعوب على معرفة الإسلام، وطبائع المسلمين، وأخلاقهم، وتاريخهم، وحضارتهم، ورسالتهم في التقارب بين الثقافات، والتآخي بين المِلَلِ والأدْيَان.

أيُّها السَّادة..

مِن مُنْطَلَق التَّعاليم المُحمَّديَّة التي تقول للمسلمين: «**مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاس لَا يَشْكُرِ اللَّه**»(١)؛ أُزجي الشُّكر خالصًا لروسيا: حكومةً، وشعبًا، وأُحيي شعبها العظيم الذي نحتفظ له بزخَمٍ هائل لا يَنْفَد من الصَّداقة والوَفاء، ومن العِرفان بالجميل، وبخاصةٍ في مواقف الشِّدة والأزمات، والتعاون الحقيقي البَنَّاء.

شكرًا لحُسن استماعكم

والسَّلام عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاته

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١) والتِّرمذيُّ (١٩٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال التِّرمذيُّ: «حديث صحيح».

قيم الأديان المشتركة والسلام العالمي(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن نُدركُ -منذُ بدايةِ الأمرِ- أنَّ الحديثَ عن الأديانِ السَّماويَّةِ لم يعُدْ هو ذلك الحديثَ الَّذي تسمعُه الإنسانيَّةُ المُعاصِرةُ فتُسارعُ إلى الإصغاءِ إليه، والتعويلِ على هَدْيِه في تحرِّي الصَّوابِ والخطأِ، والحُسْنِ والقُبْحِ، والصِّدقِ والكَذِبِ في أفعالِ النَّاسِ وأقوالِهم وتَصرُّفاتِهم.

ونعلمُ أنَّ الإنسانَ اليومَ، وإن كانَ قد كَسَبَ الرِّهانَ في معركتِه ضِدَّ التّخلُّفِ، واستطاعَ أن يُحقِّقَ طَفرَةً مُدهِشةً في جميعِ مجالاتِ التَّقدُّمِ التِّقْنيِّ والتِّكنُولوجيِّ والمعلوماتيِّ؛ فإنَّه قد مُنِيَ بخسارةٍ رُوحيَّةٍ وأخلاقيَّةٍ فادحةٍ لا تُخطِئُها عَينٌ واعيةٌ، وأنَّه بعدَ أن أدارَ ظهرَه للهَديِ الإلهيِّ لم يَتَبَقَّ له من بَدِيلٍ يُصحِّحُ به خُطُواتِه على الطَّريقِ، ويَحجُزُه عن السُّقوطِ في الفَوضَى إلَّا الفرديَّةُ والأنانيَّةُ وتآكلُ المسؤوليَّةِ الأخلاقيَّةِ؛ وكلها آفاتٌ وأدواءُ كادَت تُفرِّغُ كُبرى الثَّوْراتِ الحضاريَّةِ والتَّاريخيَّةِ مِن كلِّ معنًى جميلٍ، بل كادَت تُحيلُ هذا التَّقدُّمَ نَفْسَه إلى سِلسِلَةٍ مِنَ الأَزماتِ الَّتي يَختنِقُ بها الإنسانُ في الغربِ وفي الشَّرقِ على السَّواءِ.

لقد جاءَتِ الرُّؤيةُ الحضاريَّةُ الَّتي ارتضاها الغربُ منهجًا في تحريرِ الإنسانِ مِن أغلالِ الماضي وقيودِه -خاليةَ الوِفاضِ مِن نَزَعاتِ السَّلامِ

(*) بحثٌ أُلقِيَ في مؤتمر الدوحة الخامس لحوار الأديان المنعقد بدولة قطر يوم الإثنين: ٢٠ربيع الثاني: ١٤٢٨هـ، الموافق: ٧ مايو، عام: ٢٠٠٧م.

الرُّوحيَّةِ، وفي مُقدِّمتِها: نزعةُ الإيمانِ باللَّهِ ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ.

ولا ريبَ أن هذا الفراغَ قد أدَّى إلى مُشكِلاتٍ إنسانيَّةٍ كُبرى، مُعقَّدةٍ ومُتشابِكةٍ، أصابَتِ المتأمِّلَ في سُرعَةِ انتشارِ هذه الحضارةِ وزحفِها المتغلِّبِ، بشيءٍ غيرِ قليلٍ مِن الإحباطِ الممزوجِ بالخوفِ والرُّعْبِ.

وأرجو ألَّا يُفهمَ من هذه البداية الحزينة أنَّني مُتطيِّرٌ أو مُتشائِمٌ، ففي هذه القاعةِ الَّتي يَعكِسُ كلُّ جزءٍ منها مَظهرًا مِن مظاهرِ التقدُّمِ الحضاريِّ المادِّيِّ، رجالُ دِينٍ فُضلاءُ مِن أبناءِ هذه الحضارةِ، أعرِفُهم، وأعرِفُ عنهم انزعاجَهم مِن المجهولِ الَّذي تُخبِّئُه السِّياساتُ العالميَّةُ المُصِرَّةُ على تجاهُلِ الأديانِ ودَورِها المتفرِّدِ في إقرارِ السَّلام العالَميِّ، وترسيخِ قِيَمِ الأُخوَّةِ والمحبَّةِ بين النَّاسِ.

نعم، لستُ مِن المتشائمِينَ، ولكنَّ قِراءةَ الأحداثِ قراءةً أمينةً لا تَسمحُ بالتَّفاؤلِ، وإلَّا فما الَّذي يَحمِلُ أنظمةً عالميَّةً عُظمَى على أن تُنفِقَ مِئاتِ الملياراتِ مِن الدُّولاراتِ على تدميرِ شُعوبٍ بائسةٍ فقيرةٍ، وكانَ في مَقدورِها -لو أرادَت- أن تُنفِقَ عُشرَ مِعشارِ هذا المبلغِ من أَجلِ تَمدِينِ هذه الشُّعوبِ وتخليصِها مِن براثنِ القهرِ والجهلِ والفقرِ والمرضِ؟!

وهذا أحدثُ الأمثلةِ والنَّماذجِ على هذا السلوكِ الرَّديءِ الذي يَتَدَثَّرُ بمِعطَفِ التَّحَضُّرِ، بينما يعمَلُ بمَشاعرِ الأنانيَّةِ والغَطرسَةِ، ويضربُ -في مقتلٍ- حقوقَ الضُّعفاءِ والمُستضعَفِينَ دونَ أَيِّ شُعورٍ بواجِبِ المسؤوليَّةِ ووَخزِ الضَّميرِ.

ولقد كنَّا نظنُّ أنَّ إقصاءَ الدِّينِ مِن البناءِ الحضاريِّ -المعرفيِّ والنفسيِّ والخُلُقيِّ- خيارٌ ارتضاه كثير من الأنظمة العالمية عن اقتناعٍ، بحِسبانِه خِيارًا يُحقِّقُ لها مصلحتَها ومَنفعتَها، وأنَّ هذه الأنظمةَ، وهي تختارُ هذا المنحى إنَّما تُمارِسُ حقًّا خالصًا لا تُصادِرُه عليها حضارةٌ أخرى، ولا ثقافةٌ تتقاطعُ مع ثقافاتِها، بل ولا الأديانُ الّتي رَضِيَتْ لها هذه الحضارَة بأن تأوِيَ في ظلِّ سياساتها المادية إلى رُكنٍ مهجورٍ مِن أركانِ دُورِ العبادةِ.

وكنَّا نظنُّ أنَّ الفلسفاتِ اللَّادِينيَّةَ وأنماطَها الحضاريَّةَ أمرٌ غيرُ قابلٍ للتَّصديرِ ولا التَّسويقِ بينَ شعوبِ العالَم، ولكنَّا فُوجِئنا -ومن أَسَفٍ بالغٍ- بمُحاولاتِ فرضِ هذه الفَلسفاتِ على النَّاسِ، والزَّجِّ بها -علانيةً- في أدقِّ خصوصيَّاتِ الآخَرينَ، وبالقوَّةِ أحيانًا إن لزِمَ الأمرُ فيما يَزعُمون.

ولَيتَ الأمرَ وقَفَ عندَ هذا الحدِّ، إذًا لهانَ وسهُلَ، لكنَّه تجاوَزَه إلى تأصيلِ نظريَّاتٍ فلسفيَّةٍ وسياسيَّةٍ؛ كنظريَّةِ صراعِ الحضاراتِ، والعولمةِ، وتنميطِ الثَّقافةِ، وسياسةِ المركزِ والأطرافِ، وكلُّها سياساتٌ تُعيدُ إلى الأذهانِ عصورَ الاستعمارِ والتسلُّطِ وإزاحةِ الآخَرِ.

وفي مقابلِ ذلك، تُعلِّمُنا الأديانُ أنَّ اللَّهَ قد خَلقَ النَّاسَ أحرارًا، وخلَقَهم مُختلِفِينَ في عقائدِهم وأفكارِهم، ومشاعرِهم وأديانِهم، ولُغاتِهم وأجناسِهم وألوانِهم، وضَمِنَ لهم بقاءَهم مُختلفِينَ حتَّى آخِرِ لحظةٍ في عُمُرِ الشُّعوبِ والجَماعاتِ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، والنَّتيجةُ العَمليَّةُ لِما يقرِّرُه القرآنُ الكريمُ في هذا الشأنِ وفيما يعتقده المؤمنون باللَّه اعتقادًا راسخًا - أنَّه ليس في مقدورِ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ، ولا حضارةٍ مِن الحضاراتِ -كائنًا ما كان بَطشُها وجَبَروتُها- أن تَرُدَّ النَّاسَ جميعًا إلى حضارةٍ واحدةٍ، أو تُصيغَهم في ثقافةٍ مُعيَّنةٍ، وأنَّ الحضارةَ الَّتي تُحاوِلُ ذلك إنَّما تُحاولُ تغييرَ مشيئةِ اللَّهِ في خَلْقِه، وَاللَّهُ -كما يقولُ القرآنُ- ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

على أنَّ مَنطِقَ الأديانِ لا يَعرِفُ تَسلُّطَ الحضاراتِ بعضِها على بعضٍ، بل يُؤكِّدُ على أنَّ العَلاقةَ بينَ الحضاراتِ المختلِفةِ لو تُركت تسيرُ في هذا الطريق المظلم، فإنَّ النَّتيجةَ لن تكونَ أبَدًا سيطرةَ حضارةٍ على حضارةٍ، أو سيادةَ ثقافةٍ على ثقافةٍ أُخرى، وإنَّما القَدَرُ المحتومُ آنَئِذٍ هو: إمَّا انهيارُ الحضاراتِ

المُتَسَلِّطَةِ والمتغطرسةِ[١]، أو عَودةُ البشريَّةِ كلِّها إلى حالةٍ مِن الهمجيَّةِ والفَوضَى، رُبَّما لا يَعرِفُ التّاريخُ لها مثيلًا مِن قبلُ.

وواضحٌ مِن هذه المقارنةِ السَّريعةِ، أنَّ منطقَ الأديانِ في عَلاقةِ أبناءِ الحضاراتِ بعضِهم ببعضٍ؛ يتناقضُ جذريًّا ومنطقَ صراعِ الحضاراتِ ومنطقَ نهايةِ التَّاريخِ، ومِن قَبلِهما مَنطقُ المجتمعِ الشُّيوعيِّ ذي الطَّبقةِ الواحدةِ، الَّذي تَداعَت أركانُه قبلَ أن يكتملَ بُنيانُه؛ فالأديانَ إنَّما تُعوِّلُ في أمرِ هذه العَلاقةِ على نَزعةِ التَّديُّنِ الَّتي هي غريزةٌ وفِطرةٌ مُشتَرَكةٌ، وشعورٌ عامٌّ وشائعٌ بين النَّاسِ جميعًا، لم تخلُ منه أمَّةٌ مِن الأُمَمِ في القديمِ أو الحديثِ، وقد أَثبتتِ الحَفريَّاتُ ودِراسةُ الأساطيرِ وعِلمُ مُقارَنةِ الأديانِ في الغربِ أنَّ نزعةَ التّديُّنِ أقدمُ في تاريخِ الإنسانِ مِن كلِّ حضارةٍ مادِّيَّةٍ، وأنَّ فِكرةَ التَّأليهِ أو الأُلوهيَّةِ لم تكُن -كما يقولُ فولتير Voltaire وروسُّو Rousseau: فِكرةً مصنوعةً اخترعَها دُهاةٌ ماكرون مِن الكَهَنةِ والقَساوسةِ الَّذينَ وَجدوا مَن يُصدِّقُهم مِن الحَمقى والسُّخفاءِ»[٢].

إنَّ الإنسانَ المتديِّنَ هو المؤهَّلُ للإحساسِ بأخيهِ الإنسانِ، والشُّعورِ بالأُخُوَّةِ الإنسانيَّةِ الَّتي هي أساسُ القِيَمِ الرُّوحيَّةِ المشترَكةِ بينَ الأديانِ، وهذه الحقيقةُ شديدةُ الوُضوحِ في الإسلامِ الَّذي أَدِينُ به، والَّذي يُقرِّرُ

(١) راجع في أسباب انهيار الحضارات المتغطرسة: ما كتبه مؤسس علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون (ت. ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م) في مقدمته الشهيرة، بتحقيق إبراهيم شبوح، دار القيروان، الطبعة الأولى، تونس: ٢٠٠٧م، وأرنولد توينبي Arnold J.Tonybee (ت. ١٩٧٥م) في «دراسة التاريخ»، والمؤرخ الأمريكي ويل ديورانت will durant (ت. ١٩٨١م) في «قصة الحضارة»، والكاتب الإنجليزي كولن ويلسون colin wilson (ت. ٢٠١٣م) في «سقوط الحضارة».

(٢) انظر: «بحوث ممهِّدة لدراسة تاريخ الأديان» لمحمَّد عبد اللَّه دراز: ٨٠، وما بعدها.

انتسابَ النَّاسِ جميعًا إلى أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، ولا يكتفي بذلك، بل يُقرِّرُ الأخُوَّةَ الدِّينيَّةَ بينَ الإسلامِ وبينَ الرِّسالاتِ الإلهيَّةِ السَّابقةِ عليه، ويَربِطُه بها رَبْطًا عُضويًّا لا يَنفصِمُ؛ سواءٌ أكانَ ذلك على مُستوى الإسلامِ دِينًا، أم كتابًا مُقدَّسًا، أم نبيًّا مُبلِّغًا لهذه الرِّسالةِ.

وانظروا كيف كان الإسلامُ في القرآنِ عُنوانًا على الدِّينِ الإلهيِّ الواحدِ، الَّذي حَملَ مُهمَّةَ تبليغِه للنَّاسِ جميعُ الأنبياءِ والمرسَلِينَ، مِن آدمَ إلى مُحمَّدٍ - صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليهم أجمعين.

والأنبياءُ في الإسلام -كما يقولُ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ**»[1] أي: إخْوةٌ مِن أَبٍ واحِدٍ وأُمَّهاتٍ شَتَّى، والأبُ الواحدُ في هذه الصُّورةِ النَّبويَّةِ يَرمُزُ للدِّينِ الواحدِ الَّذي يَنتسِبُ إليه الأنبياءُ، أمَّا تعدُّدُ الأمَّهاتِ فيَرمُزُ إلى تعدُّدِ شرائعِ الأنبياءِ واختلافِها حسَبَ تَطوُّراتِ الزَّمانِ والمكانِ.

وانظروا أيضًا كيف يُسجِّلُ القرآنُ أنَّه جاءَ مُصدِّقًا للتَّوراةِ والإنجيلِ، وكيف يَصِفُ كلًّا منهما بأنَّه هُدًى ونُورٌ، بل انظُروا صِلةَ الرَّحِمِ المُدهِشَةِ بين مُحتوى رسالةِ الإسلامِ، وبين مُحتوياتِ الرِّسالاتِ السَّابقةِ، في الخطابِ القرآنيِّ الَّذي يقولُ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشُّورى: ١٣].

ومادامَ الدِّينُ واحدًا والمصدرُ واحدًا، فمِن المستحيلِ ألَّا تتفِقَ الأديانُ وتَتداعى حولَ أُصولٍ عامَّةٍ وقواعدَ مُشترَكةٍ؛ تكونُ بمثابةِ الشُّعلةِ الَّتي يحمِلُها الأنبياءُ، ويَتداولونها واحِدًا وراءَ الآخَرِ.

وليسَ صحيحًا ما يَشْغَبُ به الغافلونَ عن هذه الحقيقةِ؛ ويُفسِّرون ما يجِدُونَه في القرآنِ ممَّا يُشبِهُ نظائرَه الوارِدَةَ في الكُتُبِ الإلهيَّةِ السَّابقةِ - بأنَّه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﵁.

اقتطاع وسرقة مِن هذه الكُتُبِ، ولو أنَّهم فَطِنُوا إلى وَحْدَةِ الدِّينِ الإلهيِّ، لَتَنبَّهوا إلى أنَّ هذه الأشباهَ والنَّظائرَ بُرهانٌ على وَحْدَةِ المصدَرِ، ووَحدَةِ الخطابِ الإلهيِّ في القَضايا الكُبرى الَّتي تَثبُتُ على وَجهِ الزَّمانِ، وليسَت -كما زعَموا- دليلًا على فُرقةِ هذه الكُتُبِ، وأخذ اللاحق من السابق.

ونحن -المسلمين- نعتقدُ تمامَ الاعتقادِ أنَّ الرِّسالاتِ الإلهيَّةَ مُتَّفِقةٌ في قضيَّةِ عَقيدَةِ التَّوحيدِ، وأيضًا في أمَّهاتِ الفضائلِ والأخلاقِ، وأنَّ شيئًا مِن ذلك لا يُتصوَّرُ أن يَختلِفَ مِن رسالةٍ إلى أخرى مِن رسالاتِ الدِّينِ الواحدِ.

فَالوَصايا العَشرُ الَّتي ورَدَت في سِفرِ الخروجِ مَثَلًا لا يُعيِيك أن تجدَها مَذكورةً ومَبثوثةً في آياتِ القرآنِ الكريمِ[(١)].

وكذلك عِظةُ السَّيِّدِ المسيحِ -عليه السَّلام- على الجَبلِ، وما جاءَ بها مِن بيانِ معنى السَّلامِ، والبرِّ والصَّدَقةِ والزُّهدِ، وبُشرى الفقراءِ والوُدعاءِ والرُّحماءِ والمحزونينَ والسَّاعينَ لنشرِ السَّلامِ. لا يُعْيِيك أن تجِدَ لكُلِّ هذا أَشباهًا ونظائرَ مِنَ القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ الصَّحيحَةِ.

الحفل الكريم: ما أشبه الليلة بالبارحة كما يقولون!! لقد كَتَبَ الأستاذُ الإمامُ محمَّد مصطفى المَراغي شيخُ الأزهرِ الشريفِ (ت. ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) منذ أكثرَ مِن ثمانين عامًا رسالةً بعُنوانِ: «**الزَّمالةُ العالَميَّةُ**»[(٢)] أرسلَ بها إلى المؤتمرِ العالَميِّ للأديانِ، الَّذي عُقِدَ في لندن عام: ١٩٣٦م، بيَّنَ فيها أسبابَ الفُرقةِ والاختلافِ، ولفَتَ النَّظرَ فيها إلى سَببٍ هامٍّ مِن أسبابِ الصِّراعاتِ العالَميَّةِ، هو استغلالُ الأديانِ، وبَيعُها وشِراؤُها في سُوقِ

(١) قارن الوصايا العشر بالآيات الكريمة ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) طبعت أوَّلًا بمجلَّة الأزهر، المجلد (٧) سنة: ١٩٣٦م، ثمَّ طُبعت مستقلَّة في مطبعة الرَّغائِبِ في القاهرة، عام: ١٩٣٦م. وانظر الصفحة التالية من هذه الرسالة.

السِّياساتِ والصِّراعاتِ، وكان يَرَى أنَّ الحياةَ المادِّيَّةَ تَغلَّبت على الدِّينِ وتحكَّمت فيه وعبثَت به، وأنَّ البدايةَ الصَّحيحةَ هي بَعثُ الزَّمالةِ الدِّينيَّةِ أوَّلًا بينَ رُؤساءِ الأديانِ أَنفُسِهم، فهم أَقدَرُ مِن غيرِهم على إدراكِ هذه المعاني السَّاميةِ، وأَوْلَى النَّاسِ بأن يَفهَموا أنَّ الخطرَ الَّذي يُداهِمُ الإنسانيَّةَ لا يَجيءُ مِن أديانِ المُخالِفينَ، وإنَّما يجيءُ مِن الإلحادِ، ومِن الفَلسفاتِ الَّتي تُقدِّسُ المادَّةَ وتَعبُدُها، وتستهينُ بتعاليم الأديانِ، وتعدُّها هُزُؤًا ولَعِبًا(١).

وقد اقترحَ الأستاذُ الإمامُ خُطَّةً مُحدَّدةً لتَفعيلِ بَرنامَجِ «الزَّمالةِ العالَميَّةِ» هذه، وحَدَّد لها الوسائلَ والآليَّاتِ، ومنها:

أوَّلًا: إيجادُ هَيئةٍ تَعملُ على تَنقيةِ الشُّعورِ الدِّينيِّ مِن الضَّغائنِ والأحقادِ، ويُتوصَّلُ إلى ذلك بأمورٍ:

- توجيهُ النَّشاطِ الدِّينيِّ في الأديانِ المُختلِفةِ إلى هذا الاتِّجاهِ الإنسانيِّ، بدَلًا مِن توجيهِه صَوْبَ الصِّراعِ بينَ الأديانِ والمُتديِّنينَ.

- جمعُ المَعاني الإنسانيَّةِ السَّاميةِ العامَّةِ في كلِّ دِينٍ، مِن الرِّفقِ بالبَشرِ والبِرِّ بهم، دونَ نظرٍ إلى الفوارقِ الَّتي تُفرِّقُ بينهم، وإذاعةُ ذلك بمُختلِفِ الوسائلِ في مُختلِفِ اللُّغاتِ.

- الاعتمادُ في نشرِ هذه المَعاني العامَّةِ على أساسٍ عَقليٍّ مَحْضٍ، وحُبٍّ للحقيقةِ، مع تَجنُّبِ الاعتمادِ على وسائلَ غيرِ بريئةٍ في توجيهِ الاعتقادِ أو الإغراءِ به(٢).

---

(١) رسالة الأستاذ الإمام الشَّيخ المراغيِّ للمؤتمر العالميِّ للأديان، مجلَّة الأزهر، مجلَّد (٧) عام: ١٩٣٦م، صفحة: ٣٠٦.

(٢) لعلَّه يقصِدُ وسائلَ الإغراءِ بالمالِ والعِلاجِ والخدماتِ الذي كانَ مُتَّبَعًا في نظامِ التَّبشيرِ في أفريقيا وغيرِها. ولا بُدَّ مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ سَهمَ المؤلفةِ قلوبُهم ليس تبشيرًا حتَّى لا يُعترَضَ على الشَّيخِ المُراغي، بل هو وسيلةٌ لتقويةِ الإسلامِ الذي كان يحتاجُ إلى أتباعٍ فلمَّا اشتدَّ عُودُه انتهَتِ الحِكمةُ من تشريعِه، بدليلِ أنَّه لا يُؤثَرُ أنَّ هذا السَّهمَ استمَرَّ طويلًا.

ثانيًا: إيجادُ هيئةٍ تَقومُ بتقويةِ الشُّعورِ الدِّينيِّ لدى الطَّبقاتِ النَّيِّرَةِ، حتَّى يُمكِنَ تدعيمُ مراكزِ التَّديُّنِ أمامَ البحثِ العلميِّ والتَّفكيرِ الحرِّ؛ تدعيمًا يتأيَّدُ بمُقابَلةِ الدَّليلِ بالدَّليلِ، والبُعدِ عن التَّضليلِ، وعن الرُّكونِ إلى السُّلطةِ الرُّوحيَّةِ المُستبِدَّةِ، وبالجُملةِ: البُعدُ عن الأخطاءِ الماضيةِ الَّتي دَفعَت الإنسانيَّةُ ثَمَنَها باهظًا ومُرهقًا[١].

هذه هي رسالةُ الأزهرِ الشَّريفِ إلى مؤتمرِ لندن للحوارِ العالَميِّ للأديانِ، منذُ سبعينَ عامًا مَضتْ، ورغمَ أنَّ العالَمَ قد تغيَّرَ الآنَ كثيرًا؛ فإنَّه ما يزالُ أمسَّ حاجةً إلى رُوحِ هذه الرِّسالةِ الَّتي تَشهَدُ على عالميَّةِ الأزهرِ الشَّريفِ ونفاذِ رؤيتِه، وأنَّه -منذُ القِدَمِ- يَحمِلُ همَّ البشريَّةِ كلِّها، ويَستجيبُ لكلِّ دعوةٍ جادَّةٍ تَهتَمُّ بنشرِ السَّلامِ العالَميِّ المؤسَّسِ على العدلِ، واحترامِ حقوقِ الإنسانِ، والمساواةِ بينَ النَّاسِ، وأنَّ الأزهرَ في كلِّ ذلك يَنطلِقُ مِن أنَّ الأغراضَ الإنسانيَّةَ وأشواقها النبيلة حين تَتغيَّاها مؤتمرات جادة، تحت أي اسم أو عنوان - لا تُنافي قواعدَ الإسلامِ العامَّةَ، إنْ لم تكُن تقع في قلب مقاصدِه وأغراضِه.

وأنَا لا أَمَلُّ مِن تَكرارِ القولِ والتذكيرِ بأنَّ الإنسانيَّةَ في أشدِّ الحاجةِ اليوم إلى نُورِ الوحيِ، فقد أَخفقَتِ المدَنيَّةُ الأوروبيَّةُ الحديثةُ في سَعيِها لتوفيرِ سعادَةِ الإنسانِ، وأَسلَمَتْه إلى رَحًى تَدُورُ بأسبابِ الطُّغيانِ والغَلَبَةِ وازدِواجيَّةِ المعاييرِ، وليسَ بين قُطبَيْ هذه الرَّحَى ما يبعثُ الأملَ في نُفوسِ البائسينَ والمحرومِينَ، أو يُبَشِّرُ بانطفاءِ الحُروبِ بينَ شُعوبٍ لم يُؤخَذْ لهم فيها رَأيٌ ولم يُستَشارُوا، بل لم تَكُنْ لتَخْطُرَ على بالِهم قط، ولا يزالون يتساءلون عمَّن أشعَلَ هذه الحروبَ ومَن الذي سَيُطفِئُها؟ وكيف؟ ومتى؟ فهل يُمكِنُ أن يتطهَّرَ العالَمُ الحديثُ مِن مظالِمِه وظُلُماتِه على أساسٍ مِنَ العَودِ الحميدِ إلى هَدْيِ السَّماءِ؟!

(١) المصدر نفسه: ٣٠٨ - ٣٠٩ (بتصرُّف).

حَدِيثٌ في السَّلام(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

إنَّ الحديثَ عن السَّلامِ حديثٌ مُتشعِّبُ النَّواحي والاتِّجاهاتِ، يصعُبُ، بل يستحيلُ أنْ تُستَقصَى جوانبُه في كلمةٍ كهذه؛ وسوف تَظَلُّ التَّساؤلاتُ حولَ «السَّلامِ» ومعناهُ، وعَلاقتِه بحُقولِ المعرفةِ البشريَّةِ الأُخرَى - مفتوحةً تستعصي على فَصلِ المقالِ فيها حتَّى يومِ النَّاسِ هذا، بل أصبحَ الآنَ للسَّلامِ عِلمٌ خاصٌّ به، يُبحَثُ فيه عن السَّلامِ وعن الحُروبِ وأسبابِها، وارتباطِ كلِّ ذلك بالعُلومِ الاجتماعيَّةِ والسياسيَّةِ والدِّراساتِ الاستراتيجيَّةِ والعُلومِ العسكريَّةِ، وعلومِ الأخلاقِ كذلك.

ولا يَزالُ فلاسفةُ التَّاريخِ يَتجادَلون حولَ السَّلامِ؛ فمنهم مَن يَذهَبُ إلى أنَّ «التَّاريخَ البشريَّ إنَّما هو تاريخُ بُحَيراتٍ دَمويَّةٍ»[1]، ومنهم مَن يَذهَبُ إلى أنَّ «السَّلامَ» هو القاعدةُ في حياةِ البشَرِ، وأنَّ الحربَ أو العُنفَ استثناءٌ وشُذوذٌ مِن القاعدةِ[2].

ويُنبِّئُنا التَّاريخُ أنَّ الإنسانيَّةَ لم تنعَمْ دهرًا طويلًا بالعَيشِ في ظِلِّ سلامٍ كاملٍ ودائمٍ، وأنَّها ستظلُّ تُعاني من الحُروبِ المُهلِكةِ، ومِن آثارِها ونتائجِها، حتَّى وجَدْنا الحَضاراتِ الكُبرَى المُعاصِرةَ لا تَجِدُ أدنَى حَرَجٍ -

---

(*) أصلُ البحثِ كلمةٌ أُلقِيَت في افتتاحِ مُنتدَى: «تعزيز السِّلْمِ في المجتمعاتِ المُسلِمةِ» المنعقِدِ بأبو ظبي، خلالَ الفترة من: ٨-٩ من جمادى الأولى، سنة: ١٤٣٥هـ، الموافق: ٩-١٠ من مارس، سنة: ٢٠١٤م.

(١) «السَّلام من أجل عالم أفضل»، عبد الفتاح محسن بدوي: ١٥.

(٢) المصدر نفسه.

حينَ تُعوِزُها بواعِثُ الحُروبِ- أنْ تَختَرِعَ لها عَدُوًّا موهومًا تُدِيرُ عليه رَحَى الحَرْبِ؛ لتتماسَكَ مِن حولِه، وتَقِفَ في وجهِه صَفًّا واحدًا، وتَنقُلَ إليه بُؤَرَ الصراعِ والاقتتالِ بعيدًا عن أَراضيها وشُعوبِها، وهذا السُّلوكُ الَّذي تتَّخِذُه بعضُ الكِياناتِ السِّياسيَّةِ المُعاصِرةِ هو -بدونِ شَكٍّ- دعوةٌ سافِرةٌ إلى وَأدِ الأمنِ والسِّلمِ العالَميَّينِ، وتَشجيعٌ على العُدوانِ، وخُروجٌ على كلِّ الأُطُرِ الأخلاقيَّةِ والإنسانيَّةِ الَّتي تجعَلُ من «السَّلامِ» أبسطَ حقٍّ من حُقوقِ البشرية والمجتمعات الإنسانية وغير الإنسانية.

وإنِّي وإنْ كُنتُ لا أُعوِّلُ كثيرًا في تفسيرِ مَصائبِنا الَّتي تُحدِقُ بنا في الشَّرْقِ، على نظريَّةِ «المُؤامرةِ» الَّتي تُؤكِّدُ أنَّ تآمُرَ الغربِ «الأنجلو أمريكي» هو الباعِثُ الرئيسُ لمُشكلاتِنا في الأمنِ والاقتصادِ والصِّحَّةِ والتَّعليم، إلَّا أنَّ المَسرَحَ الَّذي تَجري على خشبتِه هذه الأحداثُ البَشِعَةُ، هو مَسرَحٌ عَبَثِيٌّ وفَوضَوِيٌّ يُشِيرُ بكلِّ قوَّةٍ إلى أن أصابعَ خفيَّةً سَوداءَ تُمسِكُ بخُيوطِ اللُّعبةِ الماكِرةِ، وتُحرِّكُها مِن وراءِ سِتارٍ.

إنَّ شواهدَ الواقعِ ومُجرَياتِ الأحداثِ على طُولِ نِصفِ قَرْنٍ -أو يَزيدُ- تُرشِّحُ هذا الفَهمَ، بل تَفرِضُه فرضًا على كلِّ المَهمُومين بقَضايا السِّلمِ العالميِّ بعامَّةٍ، والسِّلمِ العربيِّ والإسلاميِّ بخاصةٍ، وإلَّا فكيفَ نفهَمُ بقاءَ قارَّةٍ كإفريقيا الغنيَّةِ بالذَّهبِ والبترولِ - قارَّةً مُتخلِّفةً عاجزةً عن اللِّحاق برَكْبِ التَّطوُّرِ والتَّقدُّمِ؟! وكيف بَقِيَتْ دُوَلُ العالَمِ الثَّالِثِ بكلِّ ما تَملِكُه مِن ثَرَواتٍ طبيعيَّةٍ وطاقاتٍ بشريَّةٍ في ذَيلِ قافلةِ التَّطوُّرِ العِلميِّ والتَّقدُّمِ التِّكنولوجيِّ؟!

وفي مسألةِ السلامِ أَستبيحُ لنفسي أنْ أدَّعيَ أنَّ القائمينَ على مُؤسَّسةِ الأُمَمِ المتَّحِدةِ والإعلانِ العالَميِّ لحقوقِ الإنسانِ، والذين أكَّدُوا -بكلِّ وضوحٍ- في المادَّةِ الأُولى مِن مِيثاقِ هذه المؤسَّسةِ: مبدأَ حِفظِ السَّلامِ

والأمنِ الدَّوليَّين، ومبدأ المُساواةِ السِّياديَّة بينَ الدُّوَلِ الأعضاءِ، وتحريمَ استخدامِ القوَّةِ، أو مُجرَّدِ التَّهديدِ بها في العَلاقاتِ الدَّوليَّةِ، والامتناعَ التامَّ عن «التَّدخُّلِ في الشُّؤونِ الدَّاخليَّةِ للدُّوَلِ»- هؤلاءِ لم يَكونوا جادِّينَ فيما يَقولونَ، وفيما يَضَعونَ مِن مَواثيقَ زعَمُوا أنَّها مِن أجلِ الإنسانِ، ومِن أجلِ حِمايةِ حُقوقِ الدُّوَلِ، لا تتميَّزُ فيها دَولةٌ عن دَولةٍ، ولا يتفاضَلُ فيها الإنسانُ الغربيُّ عن أخيه الشَّرقيِّ؛ ومِن ثَمَّ لم يَكُن غريبًا ألَّا نَرى لمنظَّمةٍ كمُنظَّمةِ الأُمَمِ المتَّحدةِ أيَّ دَورٍ في رَدْعِ كثيرٍ من السِّياساتِ الجائرةِ والظَّالمةِ، ورغمَ مُرورِ ستَّةٍ وستِّين عامًا على مُنظَّمةِ الأُمَمِ المتَّحدةِ التي أُنشِئَت مِن أجلِ مُواجَهةِ تهديدِ السَّلامِ العالميِّ، ووَقْفِ أعمالِ العُدوانِ بينَ الدُّولِ، وفرضِ الاستقرارِ والسِّلمِ في رُبوعِ الأُمَمِ والبلادِ، فإنَّ القُوَى الكُبرى في العالَمِ لا زالَت تمنَحُ السَّلامَ للأُمَمِ وتمنَعُه عنها حَسَبَ مَصالِحها الخاصة بها، وحَسَبَ نظامِ الهَيْمنةِ، بل حَسَبَ منهجِ الظُّلمِ الذي تُسوِّغه القاعدةُ اللَّاأخلاقيَّةُ التي تُقرِّرُ أنَّ «الغايةَ تُبرِّرُ الوسيلةَ».

ولعلِّي لا أَعدو الحقيقةَ لو قلتُ: إنَّ النِّظامَ الأساسيَّ للأمم المتَّحِدة ومَواثيقِها ومُؤسَّساتِها الكُبرَى لا يَسمحُ بنَشرِ سَلامٍ قائمٍ على قِيَمِ العدلِ والإنصافِ ومُراعاةِ حُقوقِ الآخرينَ، وإن ما تُعطيه مِن حَقِّ السِّلمِ العالميِّ والأمنِ الجماعيِّ بإحدى يدَيْها سُرعانَ ما تَسْلُبُهُ باليَدِ الأُخرَى وهي تَشترِطُ ضرورةَ إجماعِ الدُّوَلِ الخَمسِ دائمةِ العُضويَّةِ في مجلسِ الأمنِ على القَراراتِ التي يُصدِرُها هذا المجلسُ[1]، تلكم القَراراتُ التي تتعلَّقُ باستخدامِ القوَّةِ العسكريَّةِ في بُؤَرِ الصِّراعِ المحليَّةِ والدَّوليَّةِ.

ولَستُ في حاجةٍ إلى التدليلِ على أنَّ هذه الخُروقاتِ أو النَّواقصَ في

(١) «السلام من أجل عالم أفضل» لبدوي: ١٧.

النِّظامِ الأساسيِّ لمفهومِ السَّلامِ العالَميِّ في الأُمَمِ المُتَّحدةِ كانَت أسبابًا مُباشِرةً في اشتِعالِ الحُروبِ في مَناطقَ ليسَ لشُعوبِها فيها ناقةٌ ولا جملٌ.

ومِن أخطَرِ عَوامِلِ هَدمِ السَّلامِ العالَميِّ هو ما يُسمَّى بحقٍّ: «الڤيتو» أو «النَّقضِ»، والإسرافُ في استِخدامِه، وبخاصَّةٍ مِن القُطبَيْنِ الرَّئيسَيْنِ، وهذا الحقُّ المزعومُ هو الذي يَغُلُّ يَدَي هذه المُنظَّمةِ عن مُلاحَقةِ المُجرِمين، وإقرارِ «السَّلامِ العادلِ» في كثيرٍ من مَناطِقِ التوتُّرِ العالميِّ.

مِن هنا ذهَبَ كثيرٌ من النَّاقدينَ إلى أنَّ «الڤيتو الأمريكيَّ» كان من أهمِّ أسبابِ الإرهابِ الدَّوْليِّ والتَّشجيعِ عليه، فيما يَتعلَّقُ بالنِّزاعِ الصِّهيونيِّ الفِلَسطينيِّ، بل والمشاركةِ فيه بصُورةٍ أو بأُخرَى، وذلك على الرَّغمِ ممَّا يَصدُرُ عن أصحابِ هذا «الڤيتو» من بياناتٍ تَصِفُ ضحيَّةَ الإرهابِ بأنَّهُ الإرهابيُّ الأوَّلُ(١).

ورَغمَ اعترافنا بأنَّ هذه المُنظَّماتِ الدوليَّةَ إنَّما نشَأتْ في الأصلِ لإقرارِ مبدأِ السلامِ والعدلِ والأمنِ الجماعيِّ، وبخاصَّةٍ بعدَ ما خلَّفَتْه الحَرْبانِ العالميَّتانِ مِن هلاكٍ للحَرثِ والنَّسلِ، رغمَ ذلك لم تُفلِحْ هذه المُنظماتُ في أن تُصبحَ طَوْقَ نجاةٍ للإنسانيَّةِ ممَّا يَتربَّصُ بها الآنَ من الزَّجِّ بها في مَعاركَ تَعُودُ بها إلى الوَراءِ عشراتٍ من السِّنينَ، وتَفقِدُ بسببِها كلَّ ما أحرزَتْه من إنجازٍ وتنميةٍ وتقدُّمٍ.

وهنا تَستوقِفُني دائمًا -كما استوقَفَتْ كثيرينَ غيري- مُقارَنةٌ بينَ المِيثاقِ الدَّولي الذي أعلَنَه نبيُّ الإسلامِ محمدٌ ﷺ في خُطبتِه في حَجَّةِ الوَداعِ(٢)،

(١) «الإرهاب والعنف السياسي» لمحمد السماك: ٣٧.

(٢) أخرجها البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه وغيره، وفيها: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ».

وقرَّرَ فيه حُقوقَ السلامِ والعدلِ والمُساواةِ بين الناسِ، وبَيْنَ مِيثاقِ الأُمَمِ المتحدةِ في هذه الحقوقِ، سَواءٌ منها ما يتعلَّقُ بحُقوقِ الإنسانِ أو المُجتَمعاتِ أو الدُّوَلِ، وكيف أنَّ المِيثاقَ النبويَّ حَقَّقَ أهدافَه كاملةً غيرَ منقوصةٍ في نَشْرِ السلامِ العالميِّ في بضعة عقود، بينما أخفَقَ إعلانُ الأممِ المتحدةِ في إنشاءِ مِظَلَّةٍ دوليَّةٍ تُنصِفُ المظلومِينَ من المُتربِّصين بهم من خارجِ هذه المُنظَّمةِ، أو حتى مِن بينِ الدولِ الأعضاءِ في هذه المُنظَّمةِ الكُبرَى.

والسببُ عندي هو أنَّ نبيَّ الإسلامِ -صلواتُ اللَّهِ وسلامُه عليه- كان مُخلصًا وصادقًا في دَعوتِه لنشرِ السِّلمِ وتحقيقِ العَدْلِ والمُساواةِ بينَ الناسِ، ولم يَكُنْ يعمَلُ مِن أجلِ الإنسانِ العربيِّ أو الإنسانِ المُسلِمِ دُونَ غيرِهما من سائرِ الناسِ، بل كان يُصدِّرُ فِقراتِ خِطابِه بنداءٍ للإنسانيةِ كلِّها: «**أيُّهَا النَّاسُ...**»[١]، وكان يَقولُ: «**لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ**»[٢].

بل تحدَّى ﷺ الحاضِرين بأنَّ مِظَلَّةَ الأمنِ والسِّلمِ سوفَ تنشُرُ آفاقَها على البلادِ والعِبادِ في الجزيرةِ العربيةِ في فترةٍ وَجيزةٍ: «**وَاللَّهِ! لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[٣].

أمَّا القائمونَ على المُنظَّماتِ الدوليَّةِ التي أخَذَت على عاتِقها نشرَ السلامِ في العالَمِ؛ فإنَّهم لم يكونوا صادقينَ في دَعواهُم، إذ كانوا يُفرِّقون في دَخائِلِ

(١) يراجع: «صحيح البخاري» (مثلًا: ١٧٣٩، ٤٦٢٥، ٦٤٣٨، ٦٧٨٨) و«صحيح مسلم» (مثلًا: ١٣٣٧، ١٥٧٨).

(٢) كما في خطبته بعد فتح مكة: أخرجها البخاري (١٠٤) ومسلم (١٣٥٤) مِن حديثِ أبي شُرَيح العدوي ؓ، وخطبته يوم النحر في حجة الوداع: وقد تقدَّم تخريجُها مِن حديثِ أبي بَكْرَةَ ؓ وغيره.

(٣) رواه البخاري (٣٦١٢) مِن حديثِ خبَّاب بن الأَرَتِّ ؓ.

أنفُسِهم بينَ الغربِ والشرقِ، وبينَ حقِّ الإنسانِ الغربيِّ في الأمنِ والسِّلْمِ، وحقِّ غيرِه من سائرِ الناس، وإلَّا فلماذا تَخْلو أوروبا وأمريكا من بُؤَرِ الصِّدامِ والاقتِتال، في الوقتِ الذي تُصنَعُ فيه أسبابُ الصِّدامِ صُنعًا في الشَّرقِ وفي أفريقيا وبلادِ المسلمينَ على وجهِ الخُصوصِ؟!

إنَّنا نعلَمُ عِلمَ اليَقِينِ أنَّ مَصانِعَ السلاحِ في الغربِ لا تتوقَّفُ عن الدَّورانِ لحظةً واحدةً، فإذا كان مِن المتَّفقِ عليه -عندَهم- أنْ لا يَعمَلَ هذا السلاحُ في الغربِ، ولا يُصوَّب إلى صُدور الغربيِّين، وهذا ما يؤكِّدُه واقعُ الغربِ الآنَ - فأين يَعمَل إذن هذا السلاحُ؟ ولمَن يتوجَّهُ؟ إذا لم يَعمَلْ في الشرقِ ويتوجَّهْ إلى صُدورِ أبنائِه وبناتِه؟!

إنَّ آفةَ الآفاتِ في فلسفةِ «السلامِ» أنْ يَرتَبِط بمقاصدِ السياساتِ الدوليَّةِ ومِزاجِها المُتقلِّبِ، وأنْ يتخلَّى عن مَقاصِدِ الأخلاقِ وغاياتِها الثابتةِ، وفي هذه الآفةِ يَكمُنُ الفرقُ بينَ نَظرةِ الرِّسالاتِ الإلهيَّةِ لمَفهومِ «السَّلامِ»، وضَرورتِه القُصوَى كشرطٍ أساسٍ للتقدُّمِ والرُّقيِّ والتحضُّرِ، وبينَ «السلامِ» في مفهومِ الأمزِجَةِ السياسيةِ المُتقلِّبةِ حِينًا، والمُتَصارعةِ حِينًا، والظالمةِ في أغلَبِ الأحيانِ.

ويَطولُ المَقامُ لو رُحْنا نَستعرضُ أهميَّةَ «السلامِ» في شريعةِ الإسلامِ، لا أقولُ: للإنسانِ فقط، بل للحيَوانِ والنباتِ والجمادِ أيضًا. وضَرورةُ السلامِ للإنسانِ في هذه الشريعةِ تَنبُعُ مِن أنَّ الإسلامَ يُسوِّي بينَ الناسِ جميعًا في الحُقوقِ والواجباتِ، وأوَّلُ هذه الحقوقِ هو حقُّ «الاختلافِ»، فاللَّهُ خلَقَ الناسَ مُختلفِين: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

وإذا كان الاختلافُ مَشِيئةً إلهيَّةً في خَلقِ الناسِ لا رادَّ لها؛ فإنَّ العَلاقةَ بين المُختلِفين -فيما يُقرِّرُ الإسلامُ- هي عَلاقةُ التعارُفِ والالتقاءِ والتعاونِ على

البرِّ والتقوى، و «السلامُ» هو مُقتَضى علاقةِ التعارُفِ ولازِمُها الأوَّلُ[١].

ويَنظُر الإسلامُ إلى «السلامِ» على أنَّه الأصلُ في العَلاقاتِ الدوليَّةِ، وفي عَلاقةِ الناسِ بعضِهم ببعضٍ، كما يُقرِّرُ أنَّ الحروبَ ضرورةٌ واستثناءٌ، يُضطَرُّ إليها المسلمون في حالةٍ واحدةٍ، هي: الدِّفاعُ عن أنفُسِهم أو أراضِيهم أو عقيدتِهم ضدَّ عُدوانٍ مُحقَّقٍ، ويَنطبِقُ على الحربِ حينئذ ما يَنطَبِقُ على حالاتِ الضرورةِ في الإسلامِ، ومعلومٌ أنَّ الضروراتِ تُقدَّر بقَدْرِها، ومن هُنا حَرَّمَ الإسلامُ التجاوزَ والاعتداءَ في القتالِ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩١].

ونقول -ولا نَمَلُّ مِن تكرارِ القَوْلِ-: إنَّ الإسلامَ حَرَّمَ قَتْلَ الأعمَى والمُقعَدِ ومَقطوعِ اليدِ والأجيرِ والفلَّاحِ والرُّهْبانِ في جَيْشِ الأعدَاءِ؛ لأنَّ هؤلاءِ وأمثالَهم مِن المُعاقِينَ والضُّعفاءِ لا يُتصَوَّرُ مِنهم عُدوانٌ أو حَملٌ للسِّلاحِ على المُسلِمين، وذلكَ رَغمَ كُفرِهم ووجودِهم في مُعسكَرِ الأعداءِ.

ومِن هُنا أيضًا؛ حَرَّمَ الإسلامُ التمثيلَ بجُثَثِ القَتْلَى مِن المسلمين ومِنَ الأعداءِ على السَّواءِ[٢]، بل حرَّمَ التمثيلَ بجُثَّةِ كَلبٍ عَقُورٍ يَصُولُ على الناسِ ويَعقِرُهم[٣]؛ كما حرَّم الإسلامُ الاعتداءَ على أمنِ الحيوانِ والنَّباتِ

(١) انظر ما سبق في رسالة «مفهوم الجهاد في الإسلام» ص ١٧، وما بعدها.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٢٤٧٤) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النُّهْبَى وَالمُثْلَةِ».

(٣) أخرج الطبراني في «معجمه الكبير»: ١/ ٩٧-١٠٥ (١٦٨) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ الْمُثْلَةِ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»، وأخرج البخاري في صحيحه (٥٥١٥) مِن حديثِ عبدِ اللَّه بنِ عُمَرَ ﷺ قال: «لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ مَثَّلَ بِالحَيَوَانِ».

والجمادِ؛ فَمَنعَ المُسلمين مِن هدمِ البناءِ العامرِ في جيشِ الأعداءِ، وحرقِ النخيلِ، وتغريقِ النحلِ، وقتلِ الحيوانِ أو ذبحِه في جيشِ العدوِّ، اللَّهمَّ إلا لضرورةِ الأكلِ فقط، وتُقدَّر بقَدْرِها أيضًا(١).

مِن هُنا؛ جاءت حضارةُ الإسلامِ حضارةَ «أمنٍ وأمَانٍ»، كما جاء الإسلامُ دينَ «سلامٍ» ومودَّةٍ ورحمةٍ، ولم يُحدِّثنا التاريخُ ولا الواقعُ بأنَّ الأممَ شَقِيَت بحضارةِ المسلمين، أو ازدادت بسببِها خوفًا وجُوعًا وموتًا.

وإنَّه لحَسَنٌ أن يَفطنَ «مجلسُ حُكماءِ المسلمينَ» لخَطَرِ موضوع السِّلمِ والأمنِ الاجتماعيَّينِ، وحاجةِ العالمِ المُلِحَّةِ -الآنَ- إلى إحياءِ مفهومِ السلامِ العادلِ، وتطبيقِه وتنزيلِه على واقعِ الناسِ الذي يُعاني الأمرَّيْنِ بسببِ غِيابِ هذا المفهومِ واحتجابه فترةً تَزيدُ على نصفِ قَرنٍ، ورأى أنَّه آنَ الأوانُ لمجلسِ حُكماءِ المسلمينَ الذي يَجمَعُ طائفةً منتقاةً مِن أهلِ العِلمِ والحكمةِ والثقافةِ والرأيِ - أنْ يخطُوَ خُطواتٍ واسعةً وواثقةً نحوَ إحياءِ مَفهُومِ السلامِ العادلِ، والسعيِ من أجلِ بناءِ مُؤسَّساتٍ دوليَّةٍ فعَّالةٍ تَستبعِدُ الحروبَ وتَتجنَّبُها، وتَتخطَّاها إلى إيجادِ بَدائلَ سياسيَّةٍ ودبلوماسيَّةٍ وحواريَّةٍ لحَلِّ النِّزاعاتِ الدوليَّةِ، وفي مُقدِّمتِها: النِّزاعُ في القضيةِ الفِلَسْطِينيَّةِ وما نَشأَ عنها من توتُّراتٍ كريهةٍ أَسفرت عن وَجهِها القبيحِ في بعضِ بُلدانِنا العربيَّةِ، ووَجَدَتْ -للأسفِ- مَن يَنفُخُ فيها من بني جِلدتِنا وممَّن يَتكلَّمُ بلسانِنا.

وعلى هذا المجلسِ الذي يُبشِّرُ بكلِّ خيرٍ أنْ يتبنَّى قاعدةَ «التعارُفِ» التي وردَتْ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) رُوي عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا غَزَوْتَ فَلَقِيتَ رَجُلًا فَلَا تَجْبُنْ، وَوَجَدْتَ فَلَا تَغُلَّ، وَلَا تُؤْذِيَنَّ مُؤْمِنًا، وَلَا تَعْصِيَنَّ ذَا أَمرٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلَا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ». رواه أبو داود في «المراسيل» (٥٤٢) والطَّبرانيُّ في «مسند الشَّاميِّين» (٣٤٧١).

وإذا كان فلاسفةُ الحضارةِ المعاصِرةِ الآنَ في الغَربِ لا يَتحرَّجون من أن يُسَوِّقوا في عالَمِنا هذا نظريَّاتِهم في الصِّراعِ الحَضاريِّ، ونهايةِ التاريخِ، والفَوْضى الخلَّاقةِ، وكلُّها دَعَواتٌ تدعو إلى الصِّراعِ والقِتالِ، أفَلا يكونُ من حقِّنا -نحن حُماةَ العدلِ والسَّلام- أنْ نُبشِّرَ بنظريَّةِ «التعارُفِ» كأساسٍ ثابتٍ لا يتزحزَحُ للعَلاقاتِ الدَّوليَّةِ في عالَمِنا المُعاصِر؟! ومن أجلِ إنسانيَّةٍ آمِنةٍ مُستقِرَّةٍ لا تَعرِفُ الخوفَ ولا القهرَ ولا الفقرَ ولا الحاجةَ؟!

على هذا المجلسِ بعُلَمائِه وحُكَمائِه أنْ يَنشَطَ اليومَ -وليس غدًا- لتَعزيزِ السِّلمِ في المُجتَمعاتِ، وأنْ يَتوسَّلَ لذلك بفتحِ قَنَواتِ اتِّصالٍ مُباشِرٍ بينَ العُلَماءِ والحُكَماءِ من جانبٍ، وصُنَّاعِ القَرارِ مِن السياسيِّينَ في الشرقِ والغربِ من جانبٍ آخرَ، وأنْ يَدْعُوَ إلى ترسيخِ قِيَمِ السلامِ والأمانِ والأُخوَّةِ والمحبَّةِ، عبرَ برامجِ الحِوارِ، وعبرَ برامجَ تعليميَّةٍ لتربيةِ النَّشْءِ والأطفالِ على اختيارِ المُمارَساتِ السلميَّةِ في الحياةِ اليوميَّةِ، ليتعودَ الجِيلُ القادِمُ على دَعمِ السَّلامِ الإيجابيِّ وتَجنُّبِ النِّزاعِ والعُنفِ.

وأخيرًا: على هذا المجلسِ أنْ يتحرَّكَ فورًا مِن أجلِ دعوةٍ عامَّةٍ لعُلَماءِ المسلمين، مِن أجلِ السلامِ المحليِّ والعالميِّ، يجلِسون بقُلوبٍ صادقةٍ ومُخلِصةٍ، لا تَشوبُها شوائبُ المصالحِ والأغراضِ والانتماءاتِ الصغيرةِ، التي كانت ولا تزالُ سببًا في تدهور أُمَّتِنا العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، وتفكُّكِها وضَعفِها وهَوانِها على الناسِ، وما لم يتَّفِقِ العُلَماءُ على إقامةِ السلامِ العادِلِ بينَهم أولًا، فلا أملَ في أنْ يَسوسُوا الناسَ بقِيَمِ الحقِّ والخيرِ والجمالِ، كيف وفاقِدُ الشيءِ لا يُعطِيه، والذي يَعجِزُ عن قيادةِ نفسِه، هو عن قيادةِ غيرِه أعجَزُ؟!

❊ ❊ ❊

دينُ الرَّحمةِ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ، وصلَّى اللَّهُ وسلَّمَ وباركَ على سيِّدِنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصَحبِه.

السَّـادةُ الحضـورُ..

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

وبعدُ:

فأبدأُ كلمتي بحمدِ اللَّهِ وشُكرِه والثَّناءِ عليه بما هو أهلُه؛ أن هيَّأَ لي وللوفدِ المرافقِ مِن الأزهرِ الشَّريفِ ومِن مجلسِ حكماءِ المسلمينَ -زيارةَ جمهوريَّةِ إندونيسيا، والالتقاءَ بشعبِها الطَّيِّبِ العريقِ بكلِّ طوائفِه، وبخاصَّةٍ أشقَّاءنا في الإسلامِ وإخوتَنا في الدِّينِ، هذا الشَّعبُ الذي يَحظى باحترامِ مِصرَ وشعبِها؛ لِما يُمثِّلُه مِن ثِقَلٍ في مِيزانِ الأمَّةِ، وعلامةٍ بارزةٍ في تاريخِ الإسلامِ والمسلمين، وإخلاصٍ في التمسُّكِ بالإسلامِ: عقيدةً وسلوكًا وتطبيقًا لشريعتِه الغرَّاءِ.

ولَعَلِّي لا أُبالِغُ في مدحِكم والثَّناءِ عليكُم -أيُّهَا الشَّعبُ الإندونيسيُّ الأصيلُ- لو قلتُ: إنَّ إندونيسيا قد حباهَا اللَّهُ قدرةً خاصَّةً على تقديمِ الإسلامِ للعالَمِ كلِّهِ في صورةِ الدِّينِ الذي يدعو إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ،

(*) أصلُ الكلمةِ: محاضرةٌ أُلقيت بأندونيسيا في: ١٥ من جمادى الأولى، سنة: ١٤٣٧هـ/ ٢٤ من فبراير، سنة: ٢٠١٦م.

وتمتزجُ تحت ظلالِه أصالةُ القديمِ وروعةُ الجديدِ، وتتصالحُ في رِحابِه حاجاتُ الفردِ ومصالحُ المجتمع.

وقد يُحسبُ لهذا الشَّعبِ اكتشافُه المبكِّرُ كُنوزَ الإسلامِ الحنيفِ، وقِيَمَه التَّشريعيَّةَ والخُلُقيَّةَ، واستخراجَ ما تَختزِنُه مِن قِيَم العدلِ والمساواةِ والانفتاحِ على النَّاسِ، والتَّشجيعِ على امتلاكِ مصادرِ القوَّةِ وأسبابِ التَّقدُّمِ العِلميِّ والتِّقْنيِّ، والتَّوكُّلِ على اللَّهِ والاعتمادِ عليه في امتلاكِ هذه الطَّاقاتِ الرُّوحيَّةِ والمادِّيَّةِ.

وقد مَكَّنَ هذا الامتزاجُ بين الإيمانِ والعلمِ والعملِ دولةَ إندونيسيا لأن تقفزَ إلى صَدارةِ الدُّوَلِ المتقدِّمةِ في المنطقةِ، وتُصبحَ «نِمرًا» رابطَ الجأشِ، شديدَ البأسِ بينَ النُّمورِ الآسيويَّةِ، وأن تضربَ أروعَ الأمثالِ على أنَّ الإسلامَ هو دِينُ الدُّنيا والآخرةِ، ودِينُ الحياةِ ودِينُ الإنسانيَّةِ كلِّها، وأن تُفنِّدَ بالدَّليلِ العمليِّ مُفترَياتِ أعداءِ الإسلامِ وتخرُّصاتِهم بأنَّه دِينُ الكسلِ والتَّواكُلِ، والتَّخلُّفِ الاجتماعيِّ، وأنَّه يُعيقُ التَّنميةَ الاقتصاديَّةَ والسِّياسيَّةَ، وكيف يَصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ مِن هذه المُفترياتِ وها هو النَّموذَجُ الأندونيسيُّ المُسلِمُ الواعِدُ، تَرْمُقُه الأبصارُ وتَلتفِتُ إليه الأنظارُ في جَنوبِ شَرقِ آسيا وفي أُوروبا وأمريكا!!

لقَدِ استقبَلَ أهلُ إندونيسيا رسالةَ الإسلامِ التي وصَلَت إليهم على أيدي التُّجَّارِ المسلمينَ منذُ زَمَنٍ بَعيدٍ[1]، ووافقَت ما جُبِلَ عليه أهلُ هذا الأرخبيلِ

(١) من العسيرِ -حسَبَ رأيِ المؤرِّخِ الكبيرِ الأستاذ حسين مؤنس- تحديدُ تاريخِ بَدءِ دخولِ الإسلامِ في هذه الجزائرِ العظيمةِ، وتقولُ المراجعُ: إنَّ تجَّارَ المسلمين أنشأوا لأنفسهم مراكزَ تِجاريَّةً على سواحلِ سومطرة وشبه جزيرة الملايو في وقتٍ مبكرٍ، ربَّما من أواخرِ القرنِ الثَّاني وأوائلِ القرنِ الثَّالث الهجريَّين (الثَّامنِ والتَّاسعِ الميلاديَّين) وقد جاء أوائلُ التجَّارِ بادئَ الأمرِ من جزيرةِ العربِ: من عُمَانَ وحَضرَمَوت والساحلِ الجنوبيِّ لليمنِ، =

مِن الوداعةِ ولِينِ القلبِ ونزعةِ الأمنِ والميلِ إلى السَّلامِ، مع ما تميَّزَت به عقيدةُ الإسلامِ وشريعتُه مِن وضوحٍ وعدالةٍ وسماحةٍ.

وكانت مناطقُ «نوسانتارا» أوَّلَ مُستقبِلٍ للإسلامِ في ذلكمُ العهدِ، ثمَّ انتشَرَ منها بعدَ ذلك، وتوسَّع وتجدَّدَ حتَّى أصبَحَت إندونيسيا أكبرَ دُوَلِ الإسلامِ قاطبةً، وأكثرَها عددًا، وأشدَّها حُبًّا للَّه تعالى ولرسولِه ﷺ، وللقرآنِ الكريمِ وشريعتِه وأحكامِه.

أمَّا أمرُ العَلاقةِ بين شعبَيْ مِصرَ وإندونيسيا؛ فإنَّه يرجعُ -فيما يقولُ بعضُ المؤرِّخين- إلى عهدٍ مُوغِلٍ في القِدَمِ، وقد تطورت هذه العَلاقةَ عبرَ القرونِ إلى تبادلٍ تِجاريٍّ وعلميٍّ وثقافيٍّ، وكان بعضُ الحجَّاجِ الإندونيسيِّين يَمكُثون بعدَ الحجِّ بِمَكَّةَ المُكَرَّمةِ والمَدينةِ المنوَّرةِ، ليَدرُسوا العِلْمَ على أيدي أساتذةِ الأزهرِ وعُلمائِه في الأَراضي الحِجازيَّةِ.

ويُسجِّلُ المؤرِّخون الأوروبِّيُّون أنَّ خمسينيَّاتِ القرنِ التَّاسعَ عشَرَ شَهِدَتِ استقرارَ أوَّلِ جاليةٍ إندونيسيَّةٍ بمصرَ، جاءت لِتَدرُسَ العِلْمَ في الأزهرِ الشَّريفِ على أيدي علمائِه وشيوخِه، وقد سكَنَ طُلَّابُها في رِواقٍ مِن أروقةِ الأزهرِ سُمِّي باسمِهم؛ وهو «الرِّواقُ الجاوي»، وكانت مطابعُ القاهرةِ تَطبَعُ مؤلَّفاتِ عُلَمَاءِ الدِّين بإندونيسيا، كما تأثَّرَ الإندونيسيُّون -عبرَ أبنائِهم المُقيمِين بالأزهرِ- بحرَكاتِ تجديدِ الفكرِ الإسلاميِّ في مِصرَ الَّتي اضطَلَعَ

= وبعد ذلك وصَلَ إلى هذه الجُزُرِ تجَّارُ المسلمين من الهنودِ ومن شِبهِ جزيرة الكُجرات «Gujrat» . . . واتَّخَذَ تُجَّارُ العربِ الأُوَل مراكزَهم الأُولى على الشَّاطئِ الغربيِّ لسُومَطرةَ . . . وكانوا أهلَ سُنَّةٍ على المذهبِ الشَّافعيِّ، أمَّا الهنودُ فقد دخلوا الجُزُرَ بالمذهبِ الحنفيِّ . . . وقد كانت هذه الجُزُرُ معروفةً معرفةً تامَّةً عندَ العربِ، فهُمُ الذين سمَّوا ساحلَ شبهِ جزيرةِ الملايو كلَّه «بار» ومعناه: برٌّ كلُّه «اسم الساحل». «أطلس تاريخ الإسلام»: ٣٨٠.

بها الإمامُ محمد عبده وتلاميذُه مِن بعدِه، والحركاتِ الوطنيَّةِ بزَعامةِ مصطفى كامل وزعماءِ التيَّارِ الوطنيِّ في ذلكم الحينِ.

والآنَ يَدرُسُ بالأزهرِ الشَّريفِ أكثرُ مِن خمسمائةٍ وثلاثةِ آلافِ طالبٍ إندونيسيٍّ، يَدرُسُ منهم على نفقةِ الأزهرِ اثنانِ وستُّون ومائتا طالبٍ وطالبةٍ، ويُقدِّمُ الأزهرُ في كلِّ عامٍ لدولةِ إندونيسيا عشرين منحةً دراسيَّةً، كما بلَغَ عددُ المبعوثين للتَّعليم الأزهريِّ في إندونيسيا واحدًا وثلاثين مُعَلِّمًا[١].

الجَمْعُ الكَريمُ..

لَعلَّ مِن نافلةِ القَولِ أنَّ عالَمَنا المُعاصِرَ الذي نعيشُ فيه الآنَ تستبدُّ به أزَماتٌ عديدةٌ خانقةٌ؛ سياسيَّةٌ واقتصاديَّةٌ وبيئيَّةٌ، ولعلَّ أسوأَها وأقساها على دُوَلِ العالَمِ الثَّالثِ وشعوبِه أزمةُ الأمنِ على النَّفسِ والعِرضِ والمالِ، والأرضِ والوطنِ، وما نشَأ عنها مِن افتقادِ السَّلامِ، وشيوعِ الفوضى والاضطرابِ، وسيطرةِ القوَّةِ، واستِباحةِ حُرُماتِ المُستضعفين.

والأقسى مِن كلِّ ذلك والأمرُّ أنْ تُرتَكبَ هذه الجرائمُ الوحشيَّةُ -مِن قتلٍ وإراقةٍ للدِّماءِ- باسمِ الدِّينِ، وتحديدًا دِينَ «الإسلامِ» وَحدَه مِن بينِ سائرِ الأديانِ، حتَّى أصبحَ «الإرهابُ» عَلَمًا على هذا الدِّينِ، ووصفًا خاصًّا به، لا يُوصَفُ به دِينٌ آخَرَ مِن الأديانِ السَّماويَّةِ الأُخرَى.

وهذا ظلمٌ في الحُكمِ، وتدليسٌ تَزدَريه العقولُ والأفهامُ، ويُنكِرُه الواقِعُ والتَّاريخُ، فمِن البيِّنِ بذاتِه أنَّ بعضَ أتباعِ الدِّياناتِ الأخرى مارسوا باسمِ أديانِهم، وتحتَ لافتاتِها، وبإقرارٍ مِن خواصِّهم وعوامِّهم، أساليبَ مِن العنفِ والوحشيَّةِ تقشعرُّ منها الأبدانُ، وتَشيبُ لها الوِلدانُ، وإلَّا فحدِّثوني عنِ الحروبِ الصليبيَّةِ في الشَّرقِ الإسلاميِّ، والحروبِ الدِّينيَّةِ في أوروبَّا،

(١) أُعلِن في هذه الزِّيارة زيادةُ المِنحِ الأزهريَّةِ المقدَّمَةِ إلى طُلَّاب إندونيسيا إلى مائةِ منحةٍ سنويًّا.

ومحاكمِ التَّفتيشِ ضدَّ اليهودِ والمسلمين، ألم تكُن هذه الحروبُ «إرهابًا» ووحشيَّةً، ووصمةَ عارٍ في جبينِ الإنسانيَّةِ على مرِّ التَّاريخِ؟!

وقد يُقالُ: إنَّ هذه التَّجاوُزاتِ أصبحت في ذمَّةِ التَّاريخِ، ولم يَعُد لها تأثيرٌ تنعكسُ آثارُه المُدمِّرةُ على عالَمِ اليومِ.. وإذن فحدِّثوني عمَّا يُسَمَّى الآنَ بالحربِ الصَّليبيَّةِ الثَّانيةِ، وهذه العبارةُ لم يَجرِ بها لساني بوحيٍ مِنَ الصِّراعِ الذي نعيشُه في العالَمين: العربيِّ والإسلاميِّ، وإنَّمَا هي عُنوانٌ لكتابٍ صدَرَ لباحثٍ أمريكيٍّ مشهورٍ هو «جون فيفر» «Fever - John»، عُنوانُه: «الحربُ الصَّليبيَّةُ الثَّانيةُ: حربُ الغربِ المُستعِرةُ مجدَّدًا ضدَّ الإسلامِ».

ولا يتَّسِعُ الوقتُ بطبيعةِ الحالِ لعرضِ ما جاءَ في هذا الكتابِ أو تلخيصِه، ومِثلُه عشَراتُ الكتبِ في هذا الموضوعِ، ولكنِّي أردتُ أن أَلفِتَ النَّظَرَ إلى أنَّ الانحرافَ الذي حَدَا بقلَّةٍ قليلةٍ مِن المُنتسِبين إلى الإسلامِ لارتكابِ هذه الفظائعِ، التي أنكرَها عُلَمَاءُ المسلمين ومفكِّروهم وعقلاؤُهم وعامَّتُهم وخاصَّتُهم أشدَّ الإنكارِ؛ هذا الانحرافُ حدَثَ مِثلُه -بل أضعافُ أضعافِه- في الأديانِ والمِلَلِ الأخرى، وشجَّعَ عليه رجالُ الأديانِ وبارَكُوه ووعَدُوا مُرتكبِيه بالخُلودِ في الجِنانِ.

وأؤكِّدُ لكم -أيُّهَا السَّادةُ- أنَّ النَّظَرَ في تاريخِ: «الإرهابِ المقارنِ» -إن صحَّت هذه التَّسميةُ- يُثبِتُ أنَّ المسلمين كانوا في قمَّةِ الإنصافِ والموضوعيَّةِ وهم يُفرِّقون بينَ الأديانِ ومبادئِها ورموزِها وبين انحرافاتِ المُنتسِبين لهذه الأديانِ.

إنَّ علماءَ المسلمين ومؤرِّخِيهم كانوا يُسمُّون هذه الحروبَ الإرهابيَّةَ بـ: «حروبِ الفِرنجةِ»، ولم يَنسُبُوها للأديانِ التي نَشَبَت هذه الحروبُ باسمِها، بل ما نَسبُوها حتَّى للصَّليبِ؛ وَعيًا منهم بالفرقِ الشَّاسعِ بين الدِّينِ كهَديٍ

إلهيٍّ، وبين المُتاجِرين به في أسواقِ الاستعمارِ وأطماعِه، وسياساتِ التوسُّعِ والهيمنةِ، واحترامًا لمعتقَداتِ الآخَرِينَ وما يَدينون به، وذلك رغمَ ما تعرَّضَ له المسلمون قديمًا -ولا يزالون يتعرَّضون له حديثًا- في مناطقَ كثيرةٍ معلومةٍ للجميعِ، ولكن لا يُمكِنُ الصَّمتُ عمَّا يَحدُثُ الآنَ للمُستضعَفِين مِن المسلمين اليومَ؛ مِن قتلٍ وإبادةٍ جماعيَّةٍ وتهجيرٍ قَسريٍّ في «ميانمار»، وَسْطَ صمتٍ مُخجِلٍ مِن المؤسَّساتِ الدَّوليَّةِ المَعنيَّةِ، التي أَناطت بها مواثيقُها وقوانينُها أمرَ الحفاظِ على أمنِ الإنسانِ وحقِّه في الحياةِ، لا فرقَ في ذلك بين مسلمٍ وغيرِ مسلمٍ.

وكذلك لا يُمكِنُ الصَّمتُ عمَّا يُعانيه «المسجدُ الأقصى» أُولى القبلتَين وثالثُ الحرمَين ومَسرَى رسولِ اللَّهِ ﷺ، مِن احتلالٍ وتهويدٍ وتغييرٍ لمعالِمِه الإسلاميَّةِ.

وإذا كانت بعضُ المؤسَّساتِ الدِّينيَّةِ الغربيَّةِ قد سَمَحَت لنفسِها مناشدةَ العالَمِ الآنَ لحلِّ ما أَسمَتهُ مشكلةَ اضطهادِ المسيحيِّين في الشَّرقِ، وذلك رغمَ ما يُؤكِّدُه الواقعُ مِن عيشٍ مشتركٍ وسلامٍ متبادَلٍ بين المسلمين والمسيحيِّين الشرقيِّين، وأنَّ ما يقعُ على بعضِ المسيحيِّين مِن اضطهادٍ وتشريدٍ وتهجيرٍ في الآونةِ الأخيرةِ يقعُ أضعافُ أضعافِه على مئاتِ الآلافِ مِن المسلمين الذين هَلَكُوا هم ونساؤُهم وأطفالُهم في القِفارِ والبحارِ؛ هربًا مِنَ الجحيمِ الذي يُلاقونه في بلادِهم.

أقولُ: إذا كانت بعضُ المؤسَّساتِ الدِّينيَّةِ الكبرى في الغربِ قد سمَحت لنفسِها أن تُطلِقَ هذا النِّداءَ؛ فإنِّي -بدَوري- أُناشِدُ عقلاءَ العالَمِ وحكماءَه وأحرارَه لحلِّ مشكلاتِ اضطهادِ غيرِ المسلمين للمسلمين في الشَّرقِ وفي الغربِ أيضًا، حتَّى يتحقَّقَ الأمنُ ويَعُمَّ السَّلامُ، وتَنعمَ الإنسانيَّةُ شرقًا وغربًا.

الجَمْعُ الكَرِيمُ . .

مِن المعلومِ أنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى لم يُنزِلِ الأديانَ مِن لَدُنهُ لِشقاءِ النَّاسِ، ولا لتعريضِهم للضَّررِ والرَّهبةِ والخوفِ والرُّعبِ، وإنَّما أنزَلَها نورًا وهدًى ورحمةً، والمسلمون على وجهِ الخصوصِ أبعدُ الخلقِ قاطبةً عنِ الإرهابِ، وعمَّا يتولَّدُ عنه مِن عنفٍ، وقتلٍ، وسفكٍ للدَّمِ، وإزهاقٍ للرُّوحِ.

وأنا -شخصيًّا- لا أعلمُ دِينًا ولا كِتابًا سماويًّا توعَّدَ سافكَ الدِّماءِ بالعقوبةِ المغلَّظةِ في الدُّنيا والآخرةِ مِثلَ الإسلامِ ومِثلَ القرآنِ الكريمِ؛ فقد أَوجَبَ القرآنُ القِصاصَ في القتلِ العمدِ في الدُّنيا، وتوعَّدَ قاتلَ العمدِ بجزاءٍ شديدٍ في الدَّارِ الآخرةِ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ٩٣].

وكيف يُوصَفُ الإسلامُ بالإرهَابِ وهو الدِّينُ الَّذي أَعلَنَ رسولُه ﷺ أنَّ المسلمَ هو: «**مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(١)، و: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»(٢).

ولم يقتصرِ الإسلامُ على تحريمِ القتلِ وتحريمِ إسالةِ الدَّمِ فَحَسبُ، بل حرَّمَ ترويعَ النَّاسِ وتخويفَهم، حتَّى لو كان التَّرويعُ والتَّخويفُ على سبيلِ المِزاحِ؛ فقال ﷺ: «**مَنْ أشارَ إلى أخيه بحديدةٍ، فإنَّ الملائكةَ تلعنُهُ حتَّى يَدَعهُ، وإنْ كان أخاه لأبيهِ وأُمِّهِ**»(٣)، وقال: «**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا**»(٤).

وكيف يُتَّهَمُ هذا الدِّينُ بالإرهابِ والعنفِ والقتلِ والهمجيَّةِ وقد وَصَفَ اللَّهُ النَّبيَّ الَّذي حَمَلَ هذا الدِّينَ وبلَّغَه للنَّاسِ بأنَّه رَحْمَةٌ لِّلْعَالَمِينَ؛ فقال

(١) أخرجه -بهذا اللفظ- النسائي (٤٩٩٥) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٣) أخرجه مسلم (٢٦١٦) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٠٤) من حديث جماعة من أصحاب النبي ﷺ.

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهو ﷺ وصف نفسَه بقوله: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(١)، أي: أنا رحمة اللّٰه المهداةُ للعَالَمين.

والمتأمِّلُ في الآيةِ الكريمةِ والحديثِ الشَّريفِ لا بدَّ له مِن أن ينتهيَ إلى حقيقتَين لا مَجالَ فيهما لرِيبةٍ أو شكٍّ:

الحقيقةُ الأُولى: أنَّ «الرَّحمةَ» بمفهومِها الأعمِّ الواسعِ هي الحكمةُ العليا الَّتي مِن أجلِها بعَثَ اللّٰهُ نبيَّه إلى النَّاسِ، وهذا ما يقتضيهُ أسلوبُ القصرِ البلاغيِّ في الآيةِ وفي الحديثِ، وبحيث تتطابقُ الآيةُ مع الحديثِ تطابقًا تامًّا في الدَّلالةِ على أنَّ نبيَّ الإسلامِ هو -حصرًا- نبيُّ الرَّحمةِ، وأنَّ بعثتَه للناسِ هي مِن أجلِ الرَّحمةِ بهم، وأنَّ الرَّحمةَ بالخَلقِ هي الغايةُ مِن مجيئِه إلى هذا الوجودِ.

والقرآنُ الكريمُ نفسُه يُثبِتُ هذه الحقيقةَ مِن خلالِ رَصدِ دَوَرانِ كلمةِ «الرحمة»، وعددِ مرَّاتِ وُرودِها في آياتِ التَّنزيلِ، فمِن بين سائرِ الفضائلِ التي ورَدَ ذكرُها في القرآنِ الكريمِ كالصِّدقِ والحِلمِ والعدلِ والأمانةِ والعفوِ والكرمِ وغيرِها، تنفردُ صفةُ «الرَّحمةِ» بكثرةِ وُرودِها في القرآنِ كثرةً لافتةً للنَّظرِ؛ فقد وردت بمشتقَّاتِها في خمسةَ عشَرَ وثلاثِمائةِ موضعٍ، مقارنةً بصفةِ «الصِّدقِ» التي وردَت خمسًا وأربعِين ومائةَ مرَّةٍ، و«الصَّبرِ»: تسعين مرَّةً، و«العفوِ»: ثلاثًا وأربعِين مرَّةً، و«الكرمِ»: اثنتين وأربعين مرَّةً، و«الأمانةِ»: أربعين مرَّةً، و«الوفاءِ»: تسعًا وعشرين مرَّةً(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم: ١/ ٣٥. وقال: «حديث صحيح، على شرط الشيخين».

(٢) راجع في هذا: مادة «الرحمة» في «نضرة النعيم» و«المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، مادة (ر ح م): ٣٠٤، ومادة (ص د ق): ٤٠٤، ومادة (ص ب ر): ٣٩٩. ومادة (ع ف و): ٤٦٦، ومادة (ك ر م): ٦٠٢، ومادة (أ م ن): ٨١، ومادة (و ف ي): ٧٥٦.

والحقيقة الثانية التي نستخلصُها من التَّأمُّلِ في الآيةِ والحديثِ: هي عمومُ رحمتِهﷺ بالعوالِمِ كلِّها؛ بمعنى أنَّه رحمةُ اللَّهِ إلى الخلقِ كافَّةً وإلى الناسِ أجمعِين، وأنَّ رحمتَه ليسَت خاصَّةً بالمسلمين فحَسبُ، بل تتعدَّاهم -بنصِّ الآيةِ- إلى غيرِهم مِن سائرِ الأممِ والشُّعوبِ، وهذا ما يُؤخَذُ مِن كلمةِ: «العالَمِين»، والَّتي لا يتوقَّفُ مفهومُها ومعناها عندَ حدودِ عالَمِ الإنسِ فقط، بل يَشمَلُ أيضًا كلَّ العوالِمِ الَّتي أحصاها العلماءُ والحكماءُ والفلاسفةُ، وحَصَرُوها في عوالِمِ الإنسانِ والحيوانِ والنَّباتِ والجمادِ.

وأنتم لو ألقَيتُم نظرةً سريعةً على سِيرتِهِ ﷺ فسوف يُدهِشُكُم شمولُ رَحمتِهِ لكلِّ هذه العوالِمِ، بدءًا مِنَ الجمادِ وانتهاءً بالإنسانِ؛ فقد كانت له مع الجمادِ صِلاتُ مودَّةٍ وسلامٍ، عبَّرَ عنها في قولِهِ الشَّريفِ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[(١)]، وفي قولِهِ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»[(٢)].

وأَوضَحُ مِن ذلك نَهيُه الصَّريحُ لجيوشِ المسلمين أن يَهدِمُوا في حروبِهم بيوتَ الأعداءِ، أو يُخرِّبُوا عُمرانَهم، أو يقطعوا شجرَهم، ويَقلَعُوا نباتَهم، ويَعقِرُوا نخيلَهم، وقد ورَدَ ذلك وغيرُه في أوامرَ حاسمةٍ يقولُ فيها النَّبيُّ ﷺ: «... **لا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا وَلا تُمَثِّلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وليدًا**»[(٣)]، وفي حديثٍ آخَرَ: «... **ولا تَهدِموا بَيْعَةً، ولا تَحرِقوا نَخلًا، ولا تَحرِقوا زَرعًا، ولا تَحشُروا بَهيمةً، ولا تَقطَعوا من شَجَرةٍ مُثمِرةٍ، ولا تَقتُلوا شيخًا كبيرًا**»[(٤)]، ووصايا أُخرى سارَ عليها أصحابُه وخلفاؤُه مِن بعدِه، ومنها وصيَّةُ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٢) ومسلم (١٣٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الطُّوسيُّ في «مختصر الأحكام» (١٣٠٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

لجيشِ أسامةَ، وفيها تحذير صريح مِن قتلِ الأطفالِ في بلادِ العدوِّ، أوِ الشَّيخِ الكبيرِ، أوِ المرأةِ، أوِ الأجيرِ، أوِ الرُّهبانِ، أو ذبحِ الحيوانِ، إلَّا لضرورةِ الأكلِ، وعلى قدرِها، دُونَ تَجاوُزٍ أو زيادةٍ.

ولَكُم أيُّهَا السَّادةُ، بل للعالَمِ كلِّه أن يُقارِنَ ويتأمَّلَ الفرقَ بين هذه الأخلاقِ الإنسانيَّةِ العُليا الَّتي حَكَمَت سيوفَ المسلمين في حروبِهم، وألجَمَتها عن تَجاوُزِ العدلِ حتَّى في مواجهةِ العدوِّ، وبين همجيَّةِ الحروبِ الحديثةِ الَّتي تُبيدُ النِّساءَ والرِّجالَ والأطفالَ إبادةً جماعيَّةً، وتَهدِمُ البُيوتَ على رؤوسِ أصحابِها، وتُزيلُ قُرًى كاملةً مِنَ الوجودِ، كي يتبيَّنَ للجميعِ أنَّ الإسلامَ هو دِينُ الرَّحمةِ، وأنَّ نبيَّه ﷺ هو نبيُّ الرَّحمةِ.

أيُّهَا السَّادةُ..

يطولُ بِنا الوقتُ لو رُحنا نَتتبَّعُ مظاهرَ تطبيقِ هذه الرَّحمةِ في عالَمِ الإنسانِ والحيوانِ والنَّباتِ والجمادِ، ولكن قصدتُ مِن وراءِ هذه اللَّمحةِ أن أتساءلَ: كيف صُوِّرَ هذا الدِّينُ الَّذي يدورُ على مفهومِ الرَّحمةِ ومعناها؛ وجودًا وغايةً وهدفًا، في صورةِ العُنفِ والقتلِ وإرهابِ الآمِنين؟!

إنَّ هذا الدِّينَ الحنيفَ ما كان لِيُوصَمَ بهذا الإفكِ المُفترَى لولا ما ابتُلِيَت به هذه الأُمَّةُ في الآونةِ الأخيرةِ بنابتةِ سُوءٍ مِن أبنائِها وشبابِها؛ يقترفون جرائمَ القتلِ والذَّبحِ والتَّحريقِ والتَّمثيلِ بجُثَثِ المسلمين وغيرِ المسلمين، ويظنُّون أنَّهم بجرائمِهم هذه يُجاهِدُون في سبيلِ اللَّهِ، ويُحيُونَ دولةَ الإسلامِ، وقد كفَّروا مَن خالَفَهم مِنَ المسلمين ولم يَعتنِق أفكارَهمُ الشَّاذَّةَ، ومذاهبَهمُ المُنحَرِفةَ، الَّتي يَرفُضُها الإسلامُ، ويَبرَأُ منها، ويُنكِرُها أشدَّ الإنكارِ.

والأزهرُ الشَّريفُ -وهو يتحمَّلُ مسؤوليَّةَ البلاغِ والبَيانِ أمامَ اللَّه تعالى يومَ القيامةِ- لا يَألُو جُهدًا في التَّنبيهِ المُسْتَمِرِّ على انحرافِ هذه الأفكارِ،

وأنَّها ليسَت مِنَ الإسلامِ ولا القرآنِ ولا الشَّريعةِ، لا في قليلٍ ولا كثيرٍ، وأنَّ هؤلاءِ مضلَّلُون في تنكُّبِهم هديَ اللَّهِ ورسولِه، وأنَّهم مِن حيثُ يعلمون أو لا يعلمون أساؤوا إلى الإسلامِ بأكثرَ مِمَّا أساءَ إليه أعداؤُه، وشوَّهوا صورتَه السَّمحةَ النَّقيَّةَ، وقدَّموا بعَبَثِهم هذا صُوَرًا مغشوشةً شائهةً استغلَّها أعداءُ هذا الدِّينِ السَّمحِ في داخلِ العالَمِ الإسلاميِّ وخارجِه، وطَعَنُوا بها على الإسلامِ وثوابتِه، وسَخِرُوا من رسولِه ومِن سُنَّتِه وشريعتِه.

ولايزالُ الأزهرُ يُنادي هؤلاءِ الشَّبابَ، ويَطمَعُ أن يُفيقوا مِن سَكرَتِهم، وأن يَثُوبوا إلى رُشدِهم، وأن يَعلَموا أن الغُلُوَّ الذي أدَّى بهم -وبنا معهم- إلى هذه الفِتَنِ العمياءِ قد حذَّرَنا منه رسولُ اللَّهِ ﷺ في قولِه: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(١)، وفي قولِه: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»(٢)، أي: المُغالون والمُتجاوِزُون في الأقوالِ والأفعالِ.

ونحن نُذكِّرُ هؤلاء الَّذين بَغَوا علينا، وأساؤوا إلى دِينِنا وأمَّتِنا وتاريخِنا، نُذكِّرُهم بأنَّ الرُّجوعَ إلى الحقِّ خيرٌ مِنَ التَّمادي في الباطلِ، وأنَّه قد آنَ الأوانُ أن يُراجِعُوا أنفسَهم، ويندَمُوا على ما فرَّطُوا في جَنبِ دِينِهم وأمَّتِهم، واللَّهُ عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

هذا، وأُذَكِّرُ نفسي وأُذكِّرُ علماءَ الأُمَّةِ بواجبِنا الذي سنُسألُ عنه جميعًا

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧) وابن ماجه (٣٠٢٩) والحاكم: ١/ ٤٦٦، وقال: «حديث صحيح، على شرط الشَّيخين».

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ.

أمامَ اللَّهِ تعالى يومَ القيامةِ، وهو بذلُ المستطاعِ مِن الطَّاقةِ والقوَّةِ والجُهدِ، والتَّناصُحُ مِن أجلِ الحفاظِ على وَحدةِ الأمَّةِ وصيانةِ عقائدِها مِن تحريفِ الغَالِينَ، وانتحالِ المُبطِلِين، وتأويلِ الجاهِلِين.

وعلينا أن نَنتبِهَ إلى ضرورةِ العملِ على ترسيخِ فقهِ التَّيسيرِ، ومقاومةِ فقهِ الغُلوِّ والتَّشدُّدِ والتَّطرُّفِ، مع مقاومةِ ثقافةِ التَّحلُّلِ والتَّغريبِ وتدميرِ هُوِيَّةِ المسلمين وثوابتِهم وتُراثِهمُ العريقِ جَنبًا إلى جنبٍ.

وأن نَلتفِتَ إلى خطرِ التَّعليمِ في ترسيخِ فقهِ التَّيسيرِ وثقافةِ التَّعايُشِ، وتجديدِ المناهجِ؛ انطلاقًا مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ، وما أَجمَعَ عليه المسلمون، وأن نبتعدَ كلَّ البُعدِ عن وضعِ الخلافيَّاتِ في الفروعِ موضعَ القواطعِ والثَّوابتِ.

وَمِمَّا يَجبُ التنبُّهُ له شرعًا: ضرورةُ طلبِ الفتوى مِن أهلِ العِلمِ، المُلتزمين بمذاهبِ أهلِ السُّنَّةِ أصولًا وفروعًا، ومِمَّن لهم خبرةٌ وبصرٌ بمُستجِدَّاتِ الواقعِ ونوازلِه، ويُدركون خطرَ الآراءِ الخارجةِ عمَّا أَجمَعَت عليه الأمَّةُ، أو وقَعَ عليه اختيارُ الجمهورِ مِن العُلَماءِ والفُقَهاءِ على مدَى أكثرَ مِن أربعةَ عشَرَ قرنًا مِن الزَّمانِ.

وأنْ نَعلَمَ أنَّ التَّعصُّبَ لهذه الخلافيَّاتِ والفتاوى الغريبةِ قد دفعَ الأُمَّةَ إلى ما تُعانيه الآنَ مِن انقسامٍ وتَنازُعٍ وفشَلٍ، وفتَحَ البابَ على مِصراعَيه للتَّدخُّلاتِ الخارجيَّةِ، بمخطَّطاتِها الماكرةِ؛ لِتَعبَثَ، ما شاء لها العبثُ، بأمورِ المسلمين، وكانت النَّتيجةُ الكريهةُ لهذا الوضعِ أنْ صارَ بأسُنا بيننا شَديدًا.

وليسَ أمامَنا -مَرَّةً أُخرى أيُّها السَّادةُ الأفاضلُ- إلَّا الاعتصامُ بحبلِ اللَّهِ، والتمسُّكُ بما أَمَرَ به في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ

تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]؛ وذلك حتَّى لا يتحقَّق فينا الوَعيدُ الإلهيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وأيضًا الوعيدُ النَّبويُّ في قوله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**»، **قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ**: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**». **قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ**: «**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»(١).

وعَلينا -يَا عُلَمَاءَ الأُمَّةِ بكلِّ مذاهبِها ومَشارِبِها- أن نتأمَّل جَيِّدًا التَّشبيهَ النَّبويَّ المُعجِزَ في هذا الحديثِ الشَّريفِ، والَّذي يُصوِّرُ قَصعةً فيها طعامٌ شهيٌّ، وحولَها جائعون مُتلهِّفون، يَدعُو بعضُهم بعضًا لالتهامِها وابتلاعِها، على مَرأًى ومَسمَعٍ مِن أصحابِ القَصعةِ وحُرَّاسِها المُتشاغِلِين فيما بينهم بتوافِهِ الأمورِ وغرائبِ الأحوالِ.

ولو أنَّنا استعَرنا هذا التَّصوُّرَ النَّبويَّ، وطبَّقناهُ على حالِ العربِ والمسلمينَ اليومَ، وما أفاءَ اللَّهُ عليهم مِن ثَرَواتٍ ظاهِرةٍ وباطنةٍ لا يَحصُرُها العَدُّ، تتربَّصُ بها الأُمَمُ؛ لأَدركنا إذَن أين نَقِفُ اليومَ مِن هذا الحديثِ الشَّريفِ الذي يكادُ يستشرِفُ واقعَنا الآنَ مِن وراءِ خمسةَ عشَرَ قرنًا مِنَ الزَّمانِ، فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟!

شكرًا.

والسَّلامُ عَلَيْكُم ورَحمةُ اللَّهِ وبَرَكاته

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٧) وأبو داود (٤٢٩٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

موقفُ الأديانِ
مِنَ السَّلامِ ونَبذِ العُنفِ والكراهيةِ(*)

السادة الحضور..

السَّلامُ عليكُم ورَحمـــةُ اللَّهِ وبركاتُه

يُسعِدُني في البِدَايَةِ أن أُحيِّيكم جميعًا بهذه التَّحيَّةِ، تحيَّةِ المحبَّةِ والأُخوَّةِ والسَّلامِ، وأن أتقدَّمَ باسمي وباسم الوفدِ المُشارِكِ مِن «الأزهرِ الشَّريفِ» و«مجلسِ حكماءِ المسلِمين» بالشُّكرِ الجزيلِ على هذه الدَّعوةِ الكريمةِ لحضُورِ هذا اللِّقاءِ الهامِّ غيرِ المسبُوقِ، والَّذي أرجُو أن يُسفِرَ عن نتائجَ وحلولٍ عمليَّةٍ، تَقُودُ خُطَانا -نَحْنُ المُؤمِنينَ باللَّهِ مِن مُختلفِ أقطارِ الأرضِ- لتحقيقِ آمالِ الإنسانيَّةِ في تجاوُزِ أزَمَاتِها اللَّاحضَاريَّةِ، والَّتي أوشكَت أن تعودَ بها إلى عُصُورِ الظَّلامِ والجهلِ ومَنطِقِ الغَابِ.

وحسنًا فعَلَ مجلسُ الكنائسِ العالَمِيِّ حينَ دعَا إلى هذا اللِّقاءِ الَّذي يَضُمُّ نخبةً مختارةً مِن قادةِ الأديانِ السَّماويَّةِ الكُبرى وعلمائِها، ليَلتقُوا في قلبِ أوروبَّا، وفي مدينةِ «جِنيف» الهادئةِ الوادعةِ، وليَحمِلُوا مسؤوليَّاتِهِم أمامَ ضمائرِهم وأمامَ اللَّهِ تعالى، في الإسهامِ في بعثِ الأملِ في قُلُوبِ المَلايين من الخائِفينَ والمذعُورينَ والمُشَرَّدِين، وإعادةِ البسمةِ إلى البؤساءِ واليتامَى والأراملِ، مِمَّن شاءت لهم أقدارُهم أن يَدفَعُوا ثمنَ حروبٍ فُرِضَت عليهم فرضًا، وليسَ لهم فيها ناقةٌ ولَا جملٌ، كمَا يقولُ المَثَلُ العربيُّ.

(*) أصل هذه الكلمة؛ محاضرة ألقيت في مؤتمر مجلس حكماء المسلمين ومجلس الكنائس العالمي «موقفُ الأديانِ مِنَ السَّلامِ ونَبذِ العُنفِ والكراهيةِ» (جنيف، سويسرا، ٣٠ سبتمبر- ١ أكتوبر: ٢٠١٦م).

وليس من شكٍّ في أنَّ العالَمَ لم يكن في عصرٍ ما من العصورِ بحاجةٍ إلى حِكمتِكم -أيها الحكماء!- لتخفيفِ عذاباتِه ووَيلاتِه مِثلَ ما هو عليه اليومَ.

فهناك العديدُ من الإحصاءاتِ الدَّوليَّةِ الَّتي تكشفُ عن الإنفاقِ المُرعبِ لإنتاجِ السَّلاحِ والتكسُّبِ ببيعِه، وإشعالِ الحروبِ بين الشُّعوبِ الجائعةِ لضخِّ الأموالِ في اقتصاداتِ أنظمةٍ عالَميَّةٍ كُبرى لا تَشعُرُ بوخزِ الضَّميرِ، وهي تَقتاتُ على دماءِ القَتلى وأشلائِهم، وتنام ملء جفونها عن صُراخِ الأطفالِ وعويلِ النِّساءِ.

وهناك السِّياساتُ الجائرةُ التي تَعبَثُ بمصائرِ الفقراءِ والبؤساءِ، وتعملُ على تفكيكِ مجتمعاتِهم، وتُصادِرُ إرادةَ شعوبِها واختياراتِها، وتُراهنُ على حاضرِها ومستقبلِها، بفلسفاتٍ ونظريَّاتٍ مُعلَنَةٍ ومكشوفةٍ، من أمثالِ صراع الحضاراتِ، ونهايةِ التَّاريخِ والفوضى الخلَّاقةِ، وكلُّها نظريَّاتٌ سفسطائيَّةٌ حديثةٌ، تذكِّرُنا بالنَّظريَّاتِ التي كانت تسعى بين يدي الاستعمارِ في القرنِ الماضي، لِتُزيِّنَ للمُستعمَرين -والمستعمِرين أيضًا -أن هذه الهيمنةَ لم تكن سطوًا على مقدَّراتِ الشُّعوبِ، وإنَّما كانت رسالةَ حضارةٍ وتمدُّنٍ ورُقيٍّ، جاء بها الرَّجُلُ الأبيضُ الآريُّ لإنقاذِ أخيه السَّاميِّ من الجهلِ والفقرِ والمرضِ.

وكنَّا نظنُّ أنَّ قادةَ العالَمِ وحُماةَ الحريات وحقوقِ الإنسانِ لن يسمحوا بمصادرةِ حقوقِ الشُّعوبِ في أن تعيشَ في أمانٍ وسلامٍ، وما كان للنَّاسِ أن يَخطُرَ هذا على بالِهم بعدَ أنِ اجتمعَت أممُ العالَمِ في أعقابِ الحربِ العالميَّةِ الثَّانيةِ، وأسَّست منظَّمةَ الأممِ المتَّحدةِ، وأذاعَت على أسماعِ الدُّنيا في الشَّرقِ والغربِ ما يُعرَفُ بإعلانِ حقوقِ الإنسانِ، وزعَمَت لنا أنَّ هذا «الإعلانَ» -أوِ «الميثاقَ»- إنَّما وُضِعَ مِن أجلِ إنقاذِ الإنسانيَّةِ وحمايةِ حقوقِ الشُّعوبِ في الأمنِ وفي التَّقدُّمِ والرَّفاهيةِ، بعد حربين عالميتين كادتا تفنيان العالم وتأتي على الأخضر واليابس فيه، تكفَّلَتِ المادَّةُ الأُولى في مِيثاقِها

بحفظِ السَّلامِ والأمنِ الدَّوليَّينِ، وتطبيقِ مبدأِ المساواةِ بين الدُّوَلِ الأعضاءِ، وتحريمِ استخدامِ القوَّةِ، والتهديد بها في العَلاقاتِ الدَّوليَّةِ، وتجريم «التَّدخُّلِ في الشُّؤونِ الدَّاخليَّةِ للدُّوَلِ».

ولم يَدُر بخَلَدِ جِيلي الَّذي أَنتمي إليه -وأنا الآنَ في سنِّ السَّبعين- أنَّ هذا الميثاقَ العالَميَّ الَّذي تعهَّدَ بحمايةِ الضعفاء والمستضعفِين وردعِ المتسلِّطِينَ عليهم، يُصبحُ حِبرًا على ورقٍ حينَ يتعلَّقُ الأمرُ بالشُّعوبِ النَّاميةِ في قارَّةِ أفريقيا، وفي العالَمَينِ: العربيِّ والإسلاميِّ، وأنَّ هذه التعهُّداتِ الَّتي صِيغَت في عباراتٍ مُفعمة بالأمل والاستبشار، وتعلَّقَت بها أنظارُ الأممِ المغلوبةِ قُرابةَ سبعين عامًا- صارت مصدر الألم واليأس والإحباط، بل صارت هي بعينها من وراء السياسات الجائرة الظالمة.

ورغمَ أنَّ ثمانيةً وستِّين عامًا مرَّت على هذا الميثاقِ، الَّذي تكفَّلَ وتعهَّدَ أمامَ محكمةِ الضَّميرِ ومحكمةِ التَّاريخِ بمواجهةِ تهديداتِ السَّلامِ العالَميِّ، ووقفِ أعمالِ العدوانِ بين الدُّوَلِ، وفرضِ الاستقرارِ والسِّلمِ في رُبوعِ العالَمِ؛ رغمَ ذلك فإنَّ القائمين على حراسةِ هذا الميثاقِ لا يزالون -هم أنفسهم- يَمنَحُون السَّلامَ مَن يشاؤون، ويمنعونه عمَّن يشاؤون، حسَبَ الأهواءِ والمصالحِ، ووَفقًا لمنطقِ الهيمنةِ والتسلُّطِ، بل حسَبَ منهجِ «الظُّلمِ» الَّذي يُسوِّغُونه بقاعدتِهم اللَّاأخلاقيَّةِ التي ترى: «أنَّ الغايةَ تبرِّرُ الوسيلةَ».

وأظنُّكم -أيُّها السَّادةُ- تتَّفِقون معي في أنَّ آفةَ الآفاتِ في قضيَّةِ السَّلامِ العالَميِّ اليومَ أن ترتبطَ -وجودًا وعدمًا- بمقاصدِ السِّياساتِ الدَّوليَّةِ ومصالحِها الجشِعةِ، ومِزاجِها المتقلِّبِ، بعيدًا عن ضوابطِ الأخلاقِ والقِيَمِ الرُّوحيَّةِ والدِّينيَّةِ وغاياتِها الثَّابتةِ، والَّتي نادَت بها الأديانُ السَّماويةُ، وفَرَضَت على الزُّعماءِ والقادةِ والسَّاسةِ أن يلتزموا بها إن أرادوا للنَّاسِ أن يَتَراحموا في هذه الدُّنيا وأن يَسعَدُوا بها في الآخرةِ أيضًا، «وفي هذه الآفةِ يَكمُنُ الفرقُ بين

فلسفةِ الرِّسالاتِ الإلهيَّةِ في مفهومِ «السَّلامِ»، وضرورتِه كشرطٍ أساسٍ للعيشِ المشتركِ، وبين معنى السَّلامِ في مفهومِ السِّياساتِ المعاصرةِ المتقلِّبةِ حينًا، والمتصارعةِ حينًا آخَرَ، والظَّالمةِ في أغلبِ الأحايينَ»[(١)].

السِّيِّداتُ والسَّادةُ. .

لا أقولُ جديدًا على مَسامِعِكم لو رُحتُ أتحدَّثُ عن مركزيَّةِ قضيَّةِ السَّلامِ في الرِّسالاتِ الإلهيَّةِ، ومِحوَرِيَّتِها في توزانِ الكونِ بكلِّ ما عليه من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ، وكيف أنَّ كلمةَ «السَّلام» تردَّدَت في الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد، وفي القرآنِ الكريم، في عشرات المواضع من أسفار هذه الكتب وإصحاحاتها، وسُورِها وآياتِها، وكيف أنَّ رُسُلَ اللَّهِ وأنبياءَه إنَّما كانوا رُسُلَ سلامٍ ومحبَّةٍ ومودَّةٍ، وأنَّ رسالاتِهم وشرائعَهم إنَّما تدورُ على إقرارِ مبدأِ السَّلامِ بينَ النَّاسِ، وكيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى توعَّدَ الظَّالمين والمستكبِرين بعقوباتٍ تقشعرُّ الأبدانُ مِن التفكُّرِ في عواقبِها.

ويُعلِّمُنا التَّاريخُ أنَّ الحضاراتِ الَّتي تَتَّخِذُ مِن القوَّةِ والغَطرسةِ منهجًا وطريقًا -سُرعانَ ما تَسقُطُ وتَبيدُ وتُصبِحُ أثرًا بعد عينٍ، ولا عجبَ في ذلك؛ فالنَّاسُ جميعًا في تعاليمِ الأديانِ خَلقُ اللَّهِ وصَنعتُه، بل عِيالُه فيما يقولُ نبيُّ الإسلامِ محمَّدٌ ﷺ: **«الخلقُ كلُّهم عِيالُ اللَّهِ، فأحبُّ الخلقِ إلى اللَّهِ مَن أَحسَنَ إلى عِيالِه»**[(٢)].

وهو سبحانَه يَغارُ على خلقِه، ويُدافِعُ عن المؤمنين به ويَدفَعُ عنهم، وأنا أَعلَمُ أنَّ مِثلَ هذه العباراتِ لا تكادُ تعني الآنَ شيئًا في أذهانِ كثيرين

---

(١) من كلمة عن السلام العالمي، أُلقيت في افتتاح منتدى السلم، أبو ظبي ٩-١٠ مارس: ٢٠١٤م، (بتصرف).

(٢) أخرجه الطبراني وغيره في «المعجم الكبير» (١٠٠٣٣) وفي «المعجم الأوسط» (٥٥٤١).

مِن النَّاسِ، وبخاصَّةٍ مِن الشَّبابِ في الغربِ، وكذلك عند البعضِ في الشَّرقِ أيضًا، مِن كثرةِ ما أَلِفُوا مِن الغُربةِ عن منهجِ اللَّهِ، وآنَسُوا مِن نسيانِ تعاليمِه، وتأثَّروا بسُخريَّاتِ المُلحِدين والمستهزئين بالأديانِ والنَّاقِمين عليها وعلى أهلها.

وأنا أَعلَمُ أيضًا أنَّ هذه الفئةَ المُستكبِرةَ عن عبادةِ اللَّهِ لا مفرَّ مِن وجودِها ما دامَ الشَّرُّ موجودًا -في هذه الحياة- إلى جِوارِ الخيرِ، وما دامَ للشَّيطانِ جنودٌ ودُعاةٌ للإغواءِ والتَّضليلِ.. ولكن يجبُ علينا -نحن المؤمنين باللَّه والمكلَّفِين بنشرِ رسالةِ السَّلامِ والمحبَّةِ بين النَّاسِ- أن نُصِرَّ على مواجهةِ هذا الشَّرِّ قدرَ ما نستطيعُ، وأن نتصدَّى لخطابِ الكراهيةِ بين النَّاسِ، واستغلالِ الدِّينِ في نشرِ الرُّعبِ والعُنفِ، ومطاردةِ الإرهابِ، بعد أنِ استَفحَلَ أمرُه وانتَشَرَ خطرُه، وتَطايَرَ شرَرُه شرقًا وغربًا وشَمالًا وجنوبًا.

وممَّا يؤكِّدُ على حتميَّةِ العودةِ إلى فلسفةِ الدِّينِ وما تَزخَرُ به هذه الفلسفةُ مِن عناصرِ السَّلامِ والعيشِ الآمِنِ والمشتركِ بينَ النَّاسَ - أنَّ عالَمَنا المعاصرَ الذي قامَ على أنقاضِ العالَمِ الحديثِ شَقِيَ كثيرًا بالبدائلِ الَّتي ظنَّ أنَّها ستُغنيهِ عنِ الدِّينِ وتحِلُّ محلَّه، وأَسلَمَ لها قِيادَه وتصوُّراتِه للَّهِ والكونِ والإنسانِ، وأنَّ هذه البدائلَ، وإن تكُن قد حقَّقَت في مَيدانِ العِلمِ والتَّقْنيةِ والعُمرانِ مِن الإيجابيَّاتِ ما حقَّقت، إلَّا أنَّها أَخفقَت تمامَ الإخفاقِ في توفيرِ عنصرِ السَّعادةِ والاستقرارِ والأمنِ لدى أغلبيَّةِ الأممِ والشُّعوبِ، ولستُ بحاجةٍ إلى أن أذكِّرَ بالحربَينِ العالميَّتَينِ في القرنِ الماضي، وما خلَّفَتاه مِن دمارٍ وخرابٍ، ومِن أكثرَ مِن (٧٠) مليونًا من الضَّحايا في أقلَّ مِن ثلاثةِ عقودٍ، وأنَّ هاتينِ الحربينِ لم يكُن للدِّينِ ولا لأخلاقيَّاتِه ولا لتعاليمِه شأنٌ بهما من قريبٍ أو بعيدٍ، بل كان التَّنكُّرُ للدِّينِ ونَبذُه والتَّضييقُ عليه هو مِن وراءِ هذه الكارثةِ الَّتي لا يَنساها التَّاريخُ مهما طالَ الزَّمنُ.

ولقد جرَّبتِ الإنسانيَّةُ مِن الأنظمةِ السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ ما انتهى بها إلى إسعادِ قلَّةٍ قليلةٍ على حسابِ شقاءِ أغلبيَّةٍ كاسحةٍ، لكن هذه الأنظمةَ لم تحقِّقِ الاستقرارَ للنَّاسِ، ولا التَّعاوُنَ بين الشُّعوبِ.

والأدهى مِن ذلك ما يَرصُدُه بعضُ حكماءِ الغربِ هنا في «سويسرا» مِن أنَّ هذه القلَّةَ التي أمسكَت باقتصادِ العالَمِ بين يدَيها وسيطَرَت على أسواقِه، تعيشُ تحدِّياتٍ مُربكةً مِن «أشكالِ السَّلبِ الحديثِ وإفلاسِ العديدِ مِن المنشآتِ والبنوكِ وصناديقِ التَّوفيرِ.. وطردِ عشَراتِ الآلافِ من العمَّالِ» ممَّا يعني -فيما ينقل اللَّاهوتي «هانز كينج» «Hans Kung» عن مجلة «تايم مجازين» «TIME Magazine»: «أنَّ مبدأَ العرضِ والطَّلبِ لا يؤدِّي بالضَّرورةِ إلى التَّوازُنِ، وأنَّ فلسفةَ السُّوقِ لا يُمكِنُ أن تَحِلَّ محَلَّ فلسفةِ الأخلاقِ، ومِن المُفرِحِ -فيما يقولُ كينج- أن تتزايدَ الأصواتُ في الولاياتِ المتَّحدةِ محذِّرةً مِن سياسةِ الأنانيَّةِ والانطواءِ على الذَّاتِ، وجشَعِ الكوادرِ، وسفَهِ الاستهلاكِ مِن قِبَلِ الأقلِّيَّةِ الثَّريَّةِ»[(١)].

ولنا -أيُّها السَّيِّداتُ والسَّادةُ- أن نتساءَلَ: ماذا نتوقَّعُ لشعوبٍ فقيرةٍ ونامِيةٍ مِن أضرارٍ بالغةِ السُّوءِ حينَ يُجعَلُ أمرُها في أيدي سياساتٍ عالميَّةٍ، عابرةٍ للقارَّاتِ لا تَعرِفُ للألمِ والجوعِ والإرهاقِ معنًى، ولا تَفهَمُ ماذا يَعني الفقرُ أوِ المرضُ أوِ الجهلُ، دَع عنك تَصوُّرَ الدِّماءِ والأشلاءِ واليُتمِ والفِرارِ في الصَّحراءِ دون غطاءٍ ولا غذاءٍ ولا دواءٍ، وغيرِ ذلك ممَّا يَصعُبُ تَصوُّرُه على المُترَفِينَ النَّاعمين، فضلًا عن العابثِين مِن أبراجِهم العاجيَّةِ بمصائرِ الشُّعوبِ.

السَّيِّداتُ والسَّادةُ..

في هذا الإطارِ المملوءِ بالمظالمِ والمآسي العالميَّةِ أنظرُ إلى لقائي بكم،

---

(١) هانز كينج، Hans Kung، «مشروع أخلاقي عالمي»: ٣١، ترجمة: جوزيف معلوف، وأورسولا عسَّاف، المكتبة البوليسية - لبنان ١٩٩٨م.

وأقدِّرُ أهمِّيَّتَه، بل ضرورتَه القُصوى في تحمُّلِ المسؤوليَّةِ من أجلِ تخفيفِ معاناةِ البشريَّةِ، وأُراهِنُ على أَهْليَّةِ مجلسِكم للتَّحرُّكِ الإيجابيِّ في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ، مع يقيني بأنَّ النَّوايا الحسنةَ والإيمانَ الصَّادقَ باللَّهِ تعالى يُزيلُ العوائقَ، بل يُزحزِحُ الجبالَ.

هذا، وقد جاء الأزهرُ المهمومُ بقضايا السَّلامِ إلى مجلسِكم العالَميِّ للتَّباحثِ حولَ عملٍ أو برنامجٍ مُشتركٍ بين حكماءِ المسلمين وعلماءِ الأزهرِ مِن جانبٍ، وحكماءِ المجلسِ العالَميِّ للكنائسِ مِن جانبٍ آخَرَ، وهذا اللِّقاءُ هو اللِّقاءُ الثَّالثُ للأزهرِ ومجلسِ الحكماءِ بإخوتِهم المسيحيِّين في الغربِ، فقد كان لنا لقاءٌ في كنيسةِ «كنتربري» برئاسةِ أساقفتِها في العامِ الماضي، ولقاءٌ ثانٍ مع البابا فرنسيس بالفاتيكانِ في هذا العامِ، وأسفرَ اللِّقاءانِ عن دعوةِ الأزهرِ لمؤتمرٍ دوليٍّ للسَّلامِ يُعقَدُ في «أبو ظبي» في بدايةِ العامِ القادمِ إن شاءَ اللَّهُ، وكذلك مؤتمرٌ للسَّلامِ في مِصرَ في منتصفِ العامِ القادمِ إن شاءَ اللَّهُ، يحضُره البابا فرنسيس.

ويُسعِدُني أن أقدِّمَ دعوتي لمجلسِ الكنائسِ العالَميِّ للمشاركةِ بالحضورِ، في هذين المؤتمرَين، وأتمنَّى أن يكونَ لشبابِ المجلسِ -من البنين والبناتِ- نصيبٌ مُعتبَرٌ في الوفدِ المشاركِ، فقد ترك لقاء شبابكم الناجح لطلاب وطالبات الأزهر بالقاهرة خلالَ الفترةِ من: ١٨-٢٢ أغسطس: ٢٠١٦م - أثرًا عميقًا في القاهرةِ وفي الإعلامِ المصريِّ والعربيِّ، وكذلك في وسائلِ التَّواصلِ الاجتماعيِّ عندنا. وكم سعدتُ بما قدمه شبابكم مِن استعدادٍ للمشاركةِ -قدرَ المستطاعِ- في مشاريعِ السَّلامِ العالَميَّةِ، وفي التَّبشيرِ بخطابِ المحبَّةِ بديلًا عن خطابِ الكراهيةِ.

بناتي وأبنائي الشَّبابُ..

أرجو ألَّا تُسْلموا عقولَكم وتفكيرَكم لهذه الدَّعَواتِ التي تَربِطُ الإرهابَ

بالإسلامِ ربطًا خاطئًا، فأنتم أعرفُ النَّاسِ بأنَّ الدِّين والعنفَ نقيضانِ لا يجتمعانِ أبدًا، وأنهما لا يستقيمانِ في ذهنٍ عاقلٍ، وأنا لا أشكُّ لحظةً في أنَّكم على يقينٍ بأنَّ الأديانَ السَّماويةَ ما نزلَت إلَّا لِتُسعِدَ الإنسانَ، وتَنتشِلَه مِنَ الضَّياعِ والضَّلالِ، وتحرِّرَه مِنَ الاستعبادِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، وأنَّ الجماعاتِ الدِّينيَّةَ المسلَّحةَ الَّتي تَرفَعُ لافتةَ الدِّينِ هي خائنةٌ لِدِينِها قبلَ أن تكونَ خائنةً لأنفسِها وأماناتِها، واعلموا أنَّ رَفعَ لافتاتِ الدِّينِ على ممارساتِ القتلِ والذَّبحِ والتَّفجيرِ جرائمُ لا تتحمل الأديانُ وِزرَها، وقد علمتم أنَّ جرائمَ وَحشيَّةً ارتُكِبَت في التَّاريخِ باسمِ الصَّليبِ، وباسم تأويلاتٍ وشروحٍ فاسدةٍ لنصوصِ الكتابِ المقدَّسِ، وأن المسلمين كانوا ضحاياها، وأنهم دفعوا فيها ثمنًا باهظًا مِن دمائِهم وأَهلِيهِم، ومعَ ذلك لم يَجرُؤ مسلمٌ واحدٌ -حتَّى الآنَ- على أن ينحى باللائمة على المسيحيَّةِ، ولو بجملةٍ واحدةٍ تحملها مسؤولية الجرائمِ الَّتي ارتُكِبَت باسمِها.

كما أَرجو أنَ تتنبَّهوا إلى أن هذا الإرهابَ بكلِّ أسمائِه وألقابِه ولافتاتِه لا يَعرِفُ الإسلامَ، ولا يَعرِفُه الإسلامُ، وأنَّ البحثَ عن أصولِ هذا الإرهابِ في القرآنِ وشريعتِه تضليلٌ للنَّاسِ، وتزييف للحقائق، وانحرافٌ عن منهجِ الاستدلالِ المنطقيِّ الصَّحيحِ.. وأَولى بهؤلاءِ المضلِّلين الَّذين يَنشُرون هذا الإفكَ أن يَبحَثُوا عن أسبابِ الإرهابِ فيما أَشَرنا إليه من السِّياساتِ العالمية المتسلِّطةِ الَّتي تكيلُ بألفِ مِكيالٍ ومكيالٍ، والأطماعِ الدَّوليَّةِ والإقليميَّةِ، وفي مصانعِ السِّلاحِ وأسواقِ التَّسليحِ، وقبلَ ذلك يجبُ أن يبحثوا عن أصولِ الإرهابِ في نسيانِ اللَّهِ تعالى، والتنكُّرِ له، والسُّخريةِ مِن دِينِه وأنبيائِه وكُتُبِه ورُسُلِه.

شكرًا لحُسنِ استماعِكم.

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

* * *

السَّلام أوَّلًا(*)

بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم

السَّادَةُ العُلَمَاءُ أعضاءَ هَيْئَةِ التَّدْرِيسِ بجامعةِ «مونستر»..

البَنَاتُ والأبنَاءُ مِنْ طالِبَاتِ وطُلَّابِ الجَامِعَةِ..

السَّلامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبرَكَاتُه

أُحَيِّيكُم جَمِيعًا، وأتقَدَّمُ بِخَالِصِ الشُّكرِ والتَّقدِيرِ إلى أ. د/ نيليس Ursula Nelles؛ لِتَكرُّمِها بِدَعوَتي للمُشارَكةِ في هذا المُلتقَى العِلْمِيِّ، وللتحَدُّثِ إلَيْكُم والاسْتِمَاعِ مِنكُم حَوْلَ أَخْطَرِ قَضِيَّةٍ تأخُذُ بخِناقِ عالَمِنا المُعَاصِرِ، وتَتحَدَّى كُلَّ إنجَازَاتِه الحضَارِيَّة، وتكَادُ تُلْقِي بِهَا في مَهَبِّ الرِّيحِ، هَذِه القَضِيَّةُ هِيَ قضيَّةُ ٱلسَّلامِ الإقلِيمِيِّ والدَّولِيِّ، وحِمايَةِ الحضَاراتِ الإِنْسانيَّةِ مِمَّا يَترَبَّصُ بِهَا مِنْ مَخَاطِرَ عَدِيدَةٍ، على رأسِها الإرهَابُ العَابِرُ للقَارَّاتِ، والَّذي إنْ تُرِكَ يَنْمُو ويَقْوَى فإنَّ النَّتيجَةَ الحَتْمِيَّةَ هِيَ عَودةُ البَشَرِيَّةِ كُلِّها إلى حَالَةٍ مِن الهَمَجِيَّةِ والفوضَى، رُبَّمَا لَا يَعْرِفُ التَّارِيخُ لَهَا مَثِيلًا مِنْ قَبْلُ.

وَاسْمَحُوا لِي أيُّهَا السَّادَةُ العُلَمَاءُ والمُفَكِّرُون، أَنْ أَطْرَحَ رُؤيَتِي في هذا المَوضُوعِ بأسلُوبٍ غيرِ تقليديٍّ، وَهِيَ رُؤيَةٌ تكَوَّنَت لَدَيَّ مِن انشِغالي بقَضِيَّةِ البَحْثِ عَنِ ٱلسَّلَامِ، الَّذِي افتَقَدْتُه طَويلًا، وبِخَاصَّةٍ في السَّنَواتِ الأَخيرةِ الَّتي أصْبَحَ فيهَا شَرْقُنا العَربيُّ مَسْرَحًا يَومِيًّا للعبثِ بالأرواحِ للموتِ والدمارِ والخَرَابِ.

(*) أصل الكلمة محاضرة أُلقِيَت في جامعة «مونستر Mnster» بألمانيا، بتاريخ: ٨ جمادى الآخرة: ١٤٣٧هـ/ ٢٧ مارس: ٢٠١٦م.

إنَّ المُتحَدِّثَ الَّذِي يَقِفُ بَين أيديكم -أيُّها السَّادةُ- ينتمي إلى جيل، لَا أَعْدُو الحَقِيقَةَ لَوْ قُلْت: إنَّهُ لَمْ يَنْعَم فيه بالسَّلَام حِينًا، إلَّا كرَّت عَليه الخطوبُ والحُروبُ أحْيَانًا كَثيرَةً، وذَلِكَ في غَيْرِ مَا سَبَبٍ مَعْقُولٍ ولَا مَنطِقٍ مَقبُولٍ.

لَقَدْ شَهِدتُ -وأنا طِفْلٌ لَمْ أُكمِلِ العَاشِرةَ بَعدُ- العُدوَانَ الثُّلَاثيَّ عَلَى مِصْر عَام: ١٩٥٦م، وعَانَيتُ مع لِدَاتي(١) مِنْ صُوَرِ الفَزَعِ والرُّعبِ مَا لا أُريدُ أنْ أَسْتَعيدَه في ذاكِرَتي وأنَا في العَقدِ السَّابعِ من عُمُري الآنَ، وَلَمْ تكد تمر على هذه الصورة المفزعة عَشَرَةُ أعوامٍ حَتَّى دَهمَتنا حَربُ: ١٩٦٧م، عِشْنَا معها سَنواتٍ خَمْسًا في أجْوَاءٍ خَانِقةٍ ثَقِيلَةٍ مُحْبِطةٍ، فَقَد ضَاعَت سيناءُ بأكمَلِهَا في طَرْفَةِ عَيْنٍ، وأصْبَحَ الخَطَرُ ماثلًا أمام أبوابِ البيوت، وعِشْنَا اقتِصَادَ حَربٍ لَا يَكَادُ يُلَبِّي الحَاجَاتِ الضَّرُورِيَّةَ، وإنْ أَنْسَ فلَا أَنْسَى تَدْمِيرَ مَدْرَسَةٍ كاملةٍ بقاذفاتٍ أمريكيَّةٍ دمَّرَ بها الكِيانُ الصهيونيُّ كلَّ أطفالِها وتلاميذِها مِنَ البَنَاتِ والبَنِينَ.

ويَحَارُ العَقْلُ السَّويُّ في البَحْثِ عَنْ سَبَبٍ واحِدٍ مَنطِقِيٍّ لِهَذا الدَّمَارِ الَّذي حَلَّ بأغْلَبِ دولِ المَنْطِقَةِ، ولو سَلَّمنا -جَدَلًا- بأنَّ هدفَ هذه الحروبِ هو تحريرُ شُعوبِ المَنطقَةِ والتَّخَلُّصُ مِن بعضِ أنظِمَةِ الحُكم الديكتاتوريِّ -فيما يقولُ بعضُ السَّاسَةِ الغربيِّين- إلَّا أنَّ أيَّ عاقِلٍ في هذه الدُّنيا لا يفهَمُ أنَّ التَّخَلُّصَ مِنَ الأنظمَةِ الديكتاتوريَّةِ يقتضي قَصْفَ الشُّعُوبِ الآمِنَةِ بالطَّائِرات، وهَدْمَ البُيُوتِ عَلَى رُؤوسِها ورؤوسِ نِسَائِها وأطفَالِها، ثم إنَّ الطَّوائِفَ العِرقِيَّةَ والمَذْهَبِيَّةَ طَالَمَا تعَايشَت في هَذِهِ المَنْطِقَةِ في أمَانٍ وسَلَامٍ دهرًا طويلًا، كما أنَّ الأديَانَ والمَذَاهِبَ في هذه المنطقة قَديمَةٌ قِدَمَ العصور والآباد، وَقَد عَاشَت هِيَ الأُخرَى في سَلَامٍ تَحت ظِلَالِ الحَضَارةِ الإسْلَامِيَّةِ،

(١) جمعُ «لِدَة»، وهو الإنسانُ الذي يُولدُ مع الرجل في وقت واحد، فينشأ معه، ويكون في مِثل سِنِّه، ويُقالُ له أيضًا: القِرْن، والقَرِين، والتِّرْبُ. ينظر: تاج العروس» (ولد): ٩/ ٣٢٦.

لَمْ تُرزأ في مُعتَقداتِها، وَلَا مُقدَّرَاتِها، بَلْ كانَت عُنْصرَ ثَراءٍ وتَمَاسُكٍ في بُنيَانِ المُجْتَمَعاتِ ولُحمَتِها ونسيجِها المُشْتَرِكِ. وإذن فلا مجال لتعليل هذه الحروب الفجائية بالاختلافات المذهبية أو الدينية.

كَمَا يَحَارُ العقلُ في تفسيرِ تَزامُنِ اندلاعِ هَذِه الحُروبِ في مَنْطِقَةٍ وَاحِدةٍ، وَبينَ أبنَاءِ الشَّعبِ الوَاحِدِ؛ دُونَ سَائِرِ الشُّعُوبِ عَلَى وَجْهِ الأرْضِ.

وَقَد وَضَعْتُ خَرِيطَةَ العَالَمِ مَرَّةً أَمَامِي، وَرُحْتُ أَبْحَثُ بين قارَّاتِها عَن مَنْطِقَةٍ أَسْمَعُ فيها قَعْقَعَةَ السِّلَاحِ، أو أرَى شَلَّالَاتِ الدِّمَاء، أو طَوابيرَ الفَارِّين والهَائمين عَلَى وجُوهِهِم في الصَّحراءِ تَحت الثُّلُوجِ والأمْطَارِ بِلَا مَأوًى ولَا غِذَاءٍ ولَا دَوَاءٍ، فَلَمْ أَجِدْ مَسْرَحًا لِهَذِه المَآسِي غَيْرَ الحِزَامِ العَربيِّ والإسْلَاميِّ.

وتسَاءَلتُ؛ هَل كَانَت مَنْطِقَتُنا تَمُرُّ بِظُروفٍ أَو تَغيُّرَاتٍ تَفرِضُ عَلَيْهَا حُروبًا كَتِلْكَ الَّتي بَدأت ولَا ندرِي مَتَى تَنْتَهِي؟ وَهَل الثَّورَةُ عَلَى نِظَامٍ مِنْ أنظِمَةِ الحُكْمِ في عَصْرِنا هَذا يُشْعِلُ في البِلَادِ حُروبًا داخِلِيَّةً لأعوامٍ عِدَّةٍ لَا يَتوقَّفُ فيهَا شَلَّالُ الدَّمِ يَومًا أو بعضَ يَوم؟! إلى أَسْئِلَةٍ كَثيرَةٍ تَبحَثُ -حَتَّى الآنَ- عَنْ إجَابَةٍ مَنطِقيَّةٍ دونَ جَدوَى.

واليَقِينُ الوَحِيدُ الَّذي فَرَضَ نَفْسَه في خِضَمِّ هَذِه الأَسْئِلَةِ الحَيْرَى هو أنَّ الإِسْلَام -أَو الأديَانَ- لَا يُمْكِنُ بِحَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ أَنْ يكُونَ مِنْ ورَاءِ هَذا الجَحِيمِ الَّذي انْدَلَعَ وفَقَدنا السَّيْطَرةَ عَلَيْه، وأنَّ المُسْتَفيدين مِن هَذِه الحُرُوبِ هم الَّذين بَرعُوا في اسْتِغْلَالِ الدِّينِ ليكونَ وقودًا يَضْمَنُ اشْتِعَالَ الحَربِ واسْتِمْرَارَ الخَرَابِ والدَّمَارِ.

وَلَا أُرِيدُ -أيُّهَا السَّادَةُ الأَكَادِيميُّون العُلَمَاءُ- أَنْ أُطِيلَ عَلَيْكُم في سَرْدِ هَذِه الشَّوَاهِدِ المَأسَاوِيَّةِ الَّتي تَعيشُهَا مَنْطِقَتُنا، فَأَنْتُم تَعْلَمُونهَا مثلي، وَلَكِن أُريدُ أنْ أَقُولَ: إنَّه لَيْسَ صَحِيحًا أَنْ يَتوَجَّهَ بَحْثُنَا عَنْ أَسْبَابِ السَّلَامِ المَفْقُودِ صوب تعَالِيمِ الأديَانِ السَّمَاوِيَّةِ، أو في نصوصِ القُرآنِ الكريمِ، أو في تاريخِ

الإسلامِ بعدَ تزييفِه وتشويهِه، فكُلُّ هذه أسبابٌ مُلَفَّقَةٌ، وتَعِلاتٌ مصطنَعَةٌ لتبريرِ تجارَةِ السِّلاحِ التي أصبحَت مِن أقوَى دعائمِ الاقتصادِ القوميِّ في دولِ الاستعمارِ الجديدِ..

أمَّا الأسبابُ الحقيقيَّةُ، أو الأوَّليَّةُ وراءَ هذه الحروبِ العبثيَّةِ، فيجِبُ البحثُ عنها -فيما أرى- في الظُّرُوفِ السِّيَاسِيَّةِ العالميَّةِ وتَضارُبِهَا إقْلِيميًّا وَدَوليًّا، وسِيَاسَاتِ الهَيْمَنَةِ العَالَمِيَّةِ، وأيضًا في المَذَاهِبِ الاقتِصَادِيَّةِ المُنْفَلِتَةِ مِنْ ضَوَابِطِ الأَخْلَاقِ، والَّتِي لَا يَجِدُ دُعاتُهَا وفَلاسِفَتُها ومُنظِّرُوهَا أيَّ حَرَجٍ في أنْ تَسْعَدَ قِلَّةٌ مِنَ البَشرِ عَلَى حِسَابِ الكَثرةِ الكَاثرةِ مِنْهُم، وأنْ يُكرَّسَ الغِنَى والثَّرَاءُ والعِلْمُ والتَّقَدُّمُ والرَّخاءُ في الشَّمَالِ، ويُكَدَّسَ الفَقْرُ والمَرَضُ والجَهْلُ والبُؤسُ في الجَنُوبِ.

يَجِبُ أنْ نَبْحَثَ عَنْ أسْبَابِ غِيَابِ السَّلَامِ في هَذَا الخَلَلِ المُقَنَّنِ بَيْنَ ضِفَّتَي المُتَوسِّطِ، وفي سُلُوكِ الحضَاراتِ الكُبْرَى المُعَاصِرةِ الَّتِي لَا تَجِدُ بأسًا في اخْتِراعِ عَدوٍّ مَوهُومٍ، تُدِيرُ عَلَيْه رَحَى الحَربِ، وتُصَدِّرُ لَه الصِّرَاعَ بَعِيدًا عن أراضيها، حَتَّى تَظفَرَ هِيَ بِوحدةِ الصَّفِّ، وبِسَلامِها الاجتِمَاعيِّ الدَّاخِلِيِّ في مُوَاجهَةِ عَدوِّها الخَارِجيِّ.

إنَّ هَذِه التَّعقِيدَاتِ الدَّولِيَّةَ -والَّتِي أَشَرْتُ إلَى بعضِ انعكَاسَاتِها السَّلْبِيَّةِ- مَسْؤولَةٌ عَنْ كَثيرٍ مِنْ مُعَانَاةِ العَالَمِ العَرَبِيِّ والعَالَمِ الإسْلَامِيِّ الآنَ، وَبِإمكَانِ مُؤَسَّسَةِ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ الَّتِي أُنْشِئَت مِنْ أَجْلِ حِفْظِ الأَمْنِ والسَّلَامِ الدَّولِيَّين أنْ تُسْهِمَ في احتِواءِ مُشْكِلَاتِ الشَّرقِ الأَوسَطِ، وتُحَاصِرَ نِيرَانَه، وتُنقِذَ الأَرَامِلَ والثَّكَالَى واليَتَامَى -الَّذين لَا نَاقَةَ لَهُم ولَا جَمْلَ- مِن وَرَاءِ هَذا الصِّرَاعِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ..

أَرْجُو أَنْ تَعْذُرُونِي في صَراحَتِي هَذِه الَّتِي رُبَّمَا تَجَاوزَتِ المُتَعَارَفَ عَلَيْه

في هَذِه المُخَاطَبَاتِ، وعُذْرِي أَنَّني أَتَحدَّثُ إِلَى زُمَلَاءَ وَعُلَمَاءَ لَا أَعْتَقِدُ أنَّ مَنْهَجَهم العلمي في بَحْثِ القَضَايَا الشَّائِكَةِ يَسْمَحُ بِانتِقَاءِ بَعضِ الفُروضِ وإغفَالِ البَعضِ الآخَرِ في اسْتِخْلَاصِ النَّتَائِجِ الصَّحِيْحَةِ. .

مِن هُنَا؛ وَجَبَتِ المُصَارَحةُ، وهَذا الَّذي صَارَحتُكُم بِهِ هُو رأيُ الغَالبيَّةِ السَّاحِقَةِ مِن المُثَقَّفِين والمُفكِّرين والمُحَلِّلين في الشَّرقِ، وما تُقَدِّمُه وسَائِلُ الإِعْلَامِ وشَبَكَاتُ التَّواصُلِ الاجتِمَاعِيِّ وكأَنَّه أَمْرٌ ثَابِتٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

أمَّا عَن مُقَوِّمَاتِ السَّلَامِ في الأَدْيَانِ، فَإِنَّ هَذَا المَوضُوعَ لَا أَسْتَطِيعُ اليَومَ أَنْ أَزِيدَ فِيه كَلِمَةً وَاحِدةً عَمَّا قُلْتُه وكَرَّرتُه في مُؤتَمراتِ حوارِ الأَدْيَانِ في عَواصِمِ أُوروبَّا وأمريكا وآسيا، على مَدَى خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا خَلَت، وحَتَّى لَا أُرْهِقَ مَسَامِعَكُم اسْمَحُوا لي أَنْ أُلَخِّصَ عَقِيْدَتِي في هَذَا المَوضُوعِ، مِن خِلَالِ الدِّينِ الَّذي أَنْتَسِبُ إِلَيْه، وَأُومِنُ بِسَمَاحَتِه وَرَحْمَتِه للعَالَمِين:

أوَّلًا: إِنَّ الأَدْيَانَ السَّمَاويَّةَ مَا نَزَلَت إِلَّا لِتَرسُمَ للإِنْسَانِ طَريقَ السَّعَادَةِ في الدُّنيَا والآخِرةِ، وتُعَلِّمَه قِيَمَ الرَّحْمَةِ والحَقِّ والخَيْرِ، وأنَّ اللَّهَ كَرَّمَ الإنسانَ عَلَى سَائِرِ الكَائِنَاتِ الأُخْرى، واتَّخَذه خَلِيفَةً لَهُ عَلَى الأَرْضِ، وَحَرَّمَ دَمَه ومَالَه وعِرْضَه. . وإذَا سَمِعْتُم أو قَرَأْتُم أَنَّ دِينًا مِن الأَدْيَانِ السَّمَاويَّةِ سَمَحَ بِإراقَةِ الدِّمَاءِ واغْتِيَالِ الحُقُوقِ فَاعْلَمُوا أَنَّ هَا هُنَا تَدْلِيسًا في تَصْويرِ حَقِيقَةِ هَذَا الدِّين.

ثَانِيًا: نُؤْمِن -نَحْنُ المُسْلِمين- بِأَنَّ الإِسْلَامَ لَيْسَ دِينًا مُنْفَصِلًا عَن الأَدْيَانِ السَّمَاويَّةِ السَّابِقَةِ عَلَيْه؛ كَالمَسِيحِيَّةِ واليَهُودِيَّةِ والإِبْرَاهِيمِيَّةِ، بَل يُعَلِّمُنَا القُرآنُ أَنَّ الدِّينَ الإِلَهِيَّ دِينٌ وَاحِدٌ اسْمُه الإِسْلَامُ؛ بِمَعْنَى الخُضُوعِ للَّه تعَالَى وعِبَادَتِه، وإِسْلَامِ الوَجْهِ إِلَيْه، وَأَنَّ مَا يُسَمَّى بِالأَدْيَانِ في مُحَادثَاتِنا هُوَ: رِسَالَاتٌ إِلَهِيَّةٌ تُشَكِّلُ حَلَقَاتٍ مُتَّصِلَةً في سِلْسِلَةِ الدِّينِ الوَاحِدِ.

وَمِن هُنَا؛ وَجَدْنَا الإسْلَامَ يَتَّفِقُ مَعَ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ عَلِيْه في أُصُولِ العَقَائِدِ وأُمَّهَاتِ الأَخْلَاقِ، ويَرْتَبِطُ بها ارتباطًا عضويًّا؛ فَالإِيمَانُ بالأنبياءِ والرُّسُلِ السَّابِقِين وبِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهم مِن الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ جزءٌ لا يتجزَّأُ من إيمانِ المسلم بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وبالقُرآنِ.

بَلْ يُحَدِّثُنا القُرآنُ بِأَنَّ مَا شَرَعَه اللَّهُ من الدِّينِ لِمُحَمَّدٍ هو نَفْسُ مَا شَرَعَه لِنُوحٍ وإبرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى عَلَيْهم جَمِيعًا أفضَلُ الصَّلَاةِ والسَّلَامِ، وهَذَا مَا يُفَسِّرُ لنَا انفِتَاحَ الإسْلَامِ عَلَى الأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ عَلَيْه وبِخَاصَّةٍ المَسِيحِيَّة منها، مِمَّا نَعْلَمُه جَمِيْعًا وَلَا نَحْتَاجُ إلى شرحِه وبيَانِه، لشِدَّةِ ظُهورِه ووضُوحِه.

ثَالِثًا: في القُرآنِ حَقَائِقُ ثَلَاثٌ يَترتَّبُ بعضُها على بعضٍ، تتعلَّقُ بِنَظْرةِ الإسْلَامِ للبَشَرِيَّةِ، وتحدِيدِه لِنَوعِ العَلَاقَةِ الَّتي يَجِبُ عَلَى المُسْلِمين أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهَا في مُعَامَلاتِهم معَ غيرِهم:

الحَقِيقَةُ الأُولى: هِيَ أنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ في خَلْقِه قَضَت أنْ يَخلُقَهم مُختَلِفين في الدِّينِ والعَقِيدَةِ واللَّونِ واللُّغةِ والجِنسِ، وأنَّ هَذا الاختِلافَ لا يتبَدَّلُ وَلَا يَزُولُ.

الحَقيقةُ الثانيةُ: وهي المترتبةُ ترتبًا منطقيًّا على ذلك؛ أنَّه لا مفرَّ -والحالةُ هذه- مِن أن تكونَ العَلاقةُ بين هذه القبائلِ والشُّعوبِ هي عَلاقةُ ٱلتَّعارُفِ»، التي تَعني: التعاونَ المتبادَلَ، وقد نصَّ القرآنُ على هذه العَلاقةِ وعبَّرَ عنها بلفظةِ ٱلتَّعارُفِ في الآيةِ: (١٣) من سُورةِ الحجراتِ.

والعَلاقةُ بين هاتين الحقيقتين عَلاقةُ تلازمٍ منطقيٍّ صارمٍ؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ أن يَخلُقَ اللَّهُ الناسَ مختلِفينَ في الأديانِ، ويسمَحَ لهم -في الوقتِ نفسِه- بالاقتتالِ بينَهم أو إشعالِ الحروبِ مِن أجلِ فَرضِ دِينٍ معيَّنٍ وإكراهِ النَّاسِ

على الدُّخولِ فيه، فهذا تناقضٌ بين حريَّةِ التعددِ في المُعتقَدِ، ومصادرةِ هذا الحقِّ بإباحةِ القتالِ الذي ينتهي إلى حملِ الناسِ على عقيدةٍ واحدةٍ.

وهنا تظهرُ حقيقةٌ تاريخيةٌ، هي: أن المسلمين لم يُشهِروا السيوفَ في وجوهِ غيرِهم بسببِ معتقداتِهم أو أديانِهم، اللَّهمَّ إلا إذا تحوَّلَ الغيرُ إلى عدوٍّ يقاتلُ المسلمين، فهاهنا يقع القتالُ بسببِ الاعتداءِ وليس بسببِ الدِّينِ.

أمَّا الحقيقةُ الثالثةُ: التي ترتبطُ بالحقيقتين السَّابقتين ارتباطَ النتيجةِ بالمقدِّماتِ؛ فهي «حريةُ الاعتقادِ»، وتكفُّلُ الإسلامِ بحمايتِها، ولعلِّي أذكِّرُ هنا بنصوص قرآنية تحفظونها عن ظهر قلب من كثرة ما طرقت أسماعكم، منها: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومنها: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، كما أذكر بحديثِ النبيِّ محمَّدٍ ﷺ في الوثيقة الرسمية التي بعث بها إلى اليمن بعد دخول أهلها في الإسلام، وقال فيها: «**مَنْ كَرِهَ الْإِسْلَامَ مِنْ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ، فَإِنَّهُ لَا يُحَوَّلُ عَنْ دِينِهِ**»(١).

رابعًا: يُقرِّرُ القرآنُ أنَّ اللَّه سبحانه ما أَرسَلَ محمدًا إلا رحمةً للعالَمِين، ومعنى كلمةِ «العالَمين» أوسعُ بكثيرٍ من معنى كلمةِ المسلمين، إذ هي في الفلسفةِ الإسلاميةِ تشمل عالَمِ الإنسانِ، وعَالَمَ الحيوانِ والنباتِ والجمادِ، جاءَ في القرآنِ الكريم خطابًا لمحمدٍ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال النبيُّ محمدٌ ﷺ مخاطبًا الناس جميعًا: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(٢).

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المُصنَّف» (١٠١٠٠) عن ابنِ جريج... فذكَرَه.

(٢) أخرجه البزَّار (٩٢٠٥) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٩٨١) وفي «المعجم الصغير» (٢٦٤) والحاكم: ١/ ٣٥، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الحاكم: «حديث صحيح، على شرطهما».

ورواه ابن أبي شيبة (٣٢٤٤٢) والدَّارميُّ (١٥) من طريق أبي صالح مرسلًا.

ويضيقُ المَقامُ بالطبعِ عن السُّلوكِ المذهلِ الذي كان يَسلُكُه نبيُّ الإسلام -صلوات اللَّه عليه- مع هذه العوالِم، وأكتفي بالإشارةِ -فقط- إلى ما هو معلوم محفوظ عن تعاليمِه في حُرمةِ قتلِ الكبيرِ والضعيفِ والمرأةِ والصبيِّ والأعمَى في جيشِ الأعداءِ وقَتْلِ الَّذين لا يشاركُون في القِتالِ بصُورَةٍ مباشِرَةٍ أو غيرِ مباشِرَةٍ، وكذلك حرمة قَتلِ الحيواناتِ في جيشِ العَدوِّ، إلَّا إذا كان لضرورةِ الطَّعامِ وعَلَى قَدرِ ما تقتضيه هذه الضرورةُ، وحُرمة هدم بيوتِ العَدوِّ أو تخريبِها، والاعتداءِ على الزُّروعِ والنَّباتاتِ وما فيها مِن خلايا النَّحلِ وأعشاشِ الطُّيورِ.

والعجيبُ أن يأتِينا درسُ الرحمةِ بالإنسانِ والحيوانِ والنباتِ والجمادِ من قلب المَواطن والمواقع التي لا تُستَساغُ فيها الرحمةُ في حُكم العادةِ، وأعني بها مواطنَ الحروبِ ومواقع التدافع والصراع والتي يُستساغُ فيها من القسوةِ ما لا يُستساغُ في غيرِها، ولكنَّه نَبِيُّ الإسلامِ، والرَّحمةُ المُهداةُ، التي بَسَطَت رِداءَها على العالَمِين، وكان للعدوِّ منها نصيبٌ.

هذا النبيُّ الرَّحيمُ بالحيوانِ أخبرَنا أنَّ امرأةً دخلتِ النارَ في هِرَّةٍ حَبَسَتها؛ فلا هي أَطعَمَتها ولا هي ترَكَتها تأكلُ مِن خشاشِ الأرضِ[١].

وأخبرَ أنَّ رجلًا سقى كلبًا في يومِ حرٍّ شديدٍ فغَفَرَ اللَّهُ له وأدخلَه الجنةَ[٢].

خامسًا: لم تقتصِر توجيهاتُ القرآنِ في ربطِ الإسلامِ بالسَّلامِ على أصلِ الرَّحمةِ، وتركِ المسلمين وشأنَهم يتحلَّون بهذا الخُلُقِ الإنسانيِّ الرَّفيعِ أو يتخلَّون عنه مُضطرِّين أو مُختارِين، وإنَّما كثَّفَ مِن لفظِ «السَّلام» ومفهومِه في القرآنِ بشكلٍ لافتٍ للنَّظرِ، حتى أصبحَ الإسلامُ والسلامُ وَجهَين لعملةٍ واحدةٍ إن صحَّ هذا التعبيرُ، ويكفي للتدليلِ العاجلِ على ذلك أن نَعلَمَ أنَّ

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨) ومسلم (٢٢٤٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٦٦) ومسلم: (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كلمةَ ٱلسَّلام بمشتقَّاتِها وَرَدَت في القرآنِ مائةً وأربعين مرَّةً مقابلَ كلمةِ ٱلحرب، التي وَرَدَت بمشتقَّاتِها (٦) مرَّات فقط، ومِن هنا لم يكُن مُستغرَبًا أن يُقرِّرَ الإسلامُ مبدأَ ٱلسَّلام كأصلٍ في معاملةِ المسلمين وعَلاقاتِهم بغيرِ المسلمين، وأنَّ فلسفةَ القرآنِ لا مكانَ فيها لعَلاقاتِ الصِّراعِ والقتالِ مع المُسالِمين مِن غيرِ المسلمين.

أيُّهَا السَّـادةُ العُلَمَاءُ..

والآنَ كيف نَنزِلُ بمفهومِ السَّلامِ في الأديانِ إلى واقعِ الإنسانيةِ المعاصر والمعقَّدِ؟

والإجابةُ التي أَختِمُ بها كلمتي هي: لابُدَّ أوَّلًا مِن صنعِ السَّلامِ بين طوائف رجالِ الأديانِ أنفسِهم، وليس بين رجالِ الدِّينِ الواحدِ، وهذه مشكِلَةٌ تحتاجُ إلى حوارٍ باحثٍ عن المُشترَكاتِ بين الأديانِ، وما أكثرَها بل ما أهمَّها! فما لم يَتصالَح رجالُ الأديانِ فيما بينهم فإنَّه لا أَمَلَ في قدرتِهم على الدَّعوةِ للسَّلامِ والتَّبْشيرِ به بين النَّاس؛ إِذْ فاقِدُ الشَّيءِ لَا يُعْطِيه.

أمَّا كَيف ذَلِكَ؟

فَهَذَا مَا أحتَاجُ إلى أنْ أسْمَعَه من حَضَراتِكُم.

شُكْرًا لِحُسْنِ اسْتِمَاعكُم.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبرَكَاتُه

* * *

كلمةٌ في التَّسامُحِ(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمدُ للَّهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وبارَكَ عليه وعلى آلِه وصَحبِه.

السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

في بدايةِ كلمتي هذه يُسعِدُني أن أتقدَّمَ بخالصِ الشُّكرِ الجزيلِ للسَّيِّدِ الرَّئيسِ محمد بوهاري ونائبِه الدكتور يمي أوسينباجو، على دعوتي لزيارةِ دولةِ نيجيريا، والالتقاءِ بعلمائها ومفكِّريها ومثقِّفيها؛ مِن أجلِ توطيدِ العَلاقاتِ الأَخَويَّةِ بين شعبِ مِصرَ وشعبِ نيجيريا، وهي -كما تعلمون- عَلاقاتٌ تاريخيَّةٌ قويَّةٌ تميَّزَت بالتَّعاوُنِ المُشترَكِ على مُختلِفِ الأصعدةِ إقليميًّا ودوليًّا.

هذا وتأتي زيارةُ الأزهرِ الشَّريفِ لتؤكِّدَ لكلِّ طوائفِ الشَّعبِ النَّيجيريِّ العريقِ أنَّ الإسلامَ الحنيفَ -كما تعلَّمناه وكما نُعلِّمُه لأبناءِ المسلمين في أروقةِ الأزهرِ- هو دِينُ الإنسانيَّةِ، ودِينُ الأمنِ والأمانِ، ودِينُ السَّلامِ الإقليميِّ والعالَميِّ، وأنَّه لم يكن في يومٍ مِن الأيَّامِ -ولن يكونَ أبدًا- دعوةً إلى العُنفِ والقتلِ والثُّكلِ واليُتمِ والتَّرمُّلِ والحُزنِ، وسائرِ الكوارثِ الَّتي تُلِمُّ بالآمِنينَ والوادعِينَ وتَكْرِثُهم صباحَ مساءَ.

(*) أصل هذه الكلمة؛ محاضرة أُلقِيَت في المركز العالمي للمؤتمرات بالعاصمة النيجيرية «أبوجا»، بتاريخ ١٤ شعبان: ١٤٣٧هـ/ ٢١ مايو: ٢٠١٦م.

جئنا ليزدادَ المسلمون هنا عِلمًا ويقينًا وتأكيدًا، وليَعلمَ عنَّا غيرُ المسلمين، ولِيَتأكَّدوا أيضًا أنَّ دِينَنا هو دِينُ «سلام»، لا أقولُ: يُسالِمُ النَّاسَ فقط. بل أقولُ: إنَّه يُسالِمُ الحيوانَ والنَّباتَ والجمادَ والكَونَ كلَّه، وأنَّ عقيدتَنا في الأديانِ السَّماويَّةِ هي كذلك أيضًا؛ فقد نزلَت كلُّها مِن عندِ اللَّه تعالى، الَّذي وصَفَ نفسَه في القرآنِ الكريم بأنَّه الرَّحمنُ الرَّحيمُ الودودُ اللَّطيفُ الرَّؤوفُ العفُوُّ الغفورُ، الَّذي يغفرُ الذَّنبَ، ويَقبَلُ التَّوبةَ عن عبادِه، ويعفُو عنِ المُسيئِين، ويَعذُرُ من عرَفَ الحقَّ ورجَعَ إليه، وأقرَّ بخطئِه ونَدِمَ عليه، وأنَّه تعالى طيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طيِّبًا[(١)]، وأنَّه جَميلٌ يُحِبُّ الجمالَ[(٢)]، ثمَّ هو القادرُ المقتدرُ الجبَّارُ المنتقمُ مِن كلِّ مَن بَغى على عبادِه، واستطالَ عليهم، وأراقَ دماءَهم ويتَّمَ أطفالَهم، ورمَّلَ نساءَهم، وفتَحَ عليهم أبوابَ الحزنِ والكمَدِ والحسرةِ والألم، في غيرِ جريرةٍ اقترفوها، ولا ذنبٍ ارتكبوه.

وقضى اللَّهُ ألَّا يُفلِتَ الجُناةُ والظلمة والبغاة مِن عدالةِ القويِّ العزيزِ، التي إن أَمهلَت فإنَّها لا تُهمِلُ ولا تنسَى أبدًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

أيُّها الإخوةُ الفضلاءُ..

ما كان يجولُ بخاطرِ المسلمين: علمائِهم وخاصَّتِهم وعامَّتِهم أن يجيءَ عليهم يومٌ يُضطَرُّون فيه للتَّجوالِ في الآفاقِ؛ دفاعًا عن دِينِهم، وكشفًا عن جوهرِه وحقيقتِه، بعد أن وَضَعتهُ في أقفاصِ الاتِّهامِ -ظُلمًا وزُورًا- طائفةٌ من المُنتَسِبين إليه، شوَّهُوا مُحَيَّاه الجميلَ، ولَطَّخُوا وَجْهَه الكريمَ بألوانِ الدِّماءِ وصُوَرِ الأشلاءِ، وحَرَصُوا على أن يَبُثُّوا مناظرَ قطعِ الرُّؤوسِ على شاشاتِ الفضائيَّاتِ العالميَّة، في إصرارٍ لافتٍ للنَّظَرِ، وفي وحشيَّةٍ لم يَعرِفِ التَّاريخُ

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

لها مثيلًا، هذا الإصرارُ الَّذي يدلُّ دَلالةً قاطعةً على أنَّ الهدفَ مِن هذه البشاعةِ «المُتلفَزةِ» عالميًّا مقصود لغرضٍ محدَّدٍ، هو: تشويهُ الإسلامِ عالميًّا، وتصويرُه بحسبانِه دِينَ عنفٍ ودماءٍ وتوحُّشٍ، وابحثوا عن المستفيدِ من هذا العبثِ مِمَّن يقفون وراءَ هذه الجرائمِ النَّكراءِ، يَمُدُّونها بالمالِ حينًا، وبالسِّلاحِ والعَتادِ والتَّخطيطِ حينًا، ولا تَعدِمُ مَن يُقدِّمُ لها تبريرًا شرعيًّا ضالًّا مُضِلًّا حينًا آخر.

أيُّها الإخوةُ..

أرجو ألَّا أُعيدَ على مَسامعِكم كلامًا مكرورًا ومُعادًا لو رُحتُ أُذَكِّرُكم بما تعلمونه -بل ربَّما تحفظونه- عن سماحةِ الإسلامِ، واحترامِه للآخَرِ المُختلِفِ عنه دِينًا وعقيدةً وجنسًا ولَونًا ولغةً، فالمَقامُ وإن كان لا يقتضي البيانَ إلَّا أنَّه يقتضي البلاغَ والإعذارَ والتَّذكيرَ؛ لأنَّ هذه الآفةَ -أو هذا البلاءَ المبينَ أو هذا النَّبتَ الشَّيطانيَّ الخبيثَ- بدأ يُؤتي ثمارَه المُرَّةَ في انتشارِ كراهيةِ الإسلامِ والمسلمين بين أبناءِ الدِّياناتِ الأخرى، وعامَّةِ الغربيِّين الَّذين صاروا إلى حالٍ من الحَيرةِ لم يعودوا يعرفون معَها وجهَ الحقِّ والصَّوابِ: هل الإسلامُ هو ما يُصوِّرُه لهم العلماءُ المسلمون؟ أو هو ما تُصوِّرُه لهم شاشاتُ الفضائيَّاتُ؟

وأمرٌ مؤكَّدٌ أنَّ المعلومةَ المصوَّرةَ أسرعُ إلى وَعيِ النَّاسِ وأثبتُ في ذاكرتِهم مِنَ الأقوالِ المسموعةِ، والكتاباتِ المقروءةِ؛ لذلك أَجِدُني مضطرًّا إلى أن أَضَعَ بين أيديكم بعضَ الحقائقِ الَّتي يجبُ أن يَعِيَها المسلمون وغيرُ المسلمين، ويَتحتَّمُ أن نَتنادى بها اليومَ لمحاولةِ الخروجِ من الأزَماتِ الدَّمويَّةِ التي تضربُ عالَمَنا مِن أقصاهُ إلى أقصاهُ، ويدفعُ ثَمَنَها الفقراءُ والبسطاءُ والمساكينُ مِن كلِّ مِلَّةٍ، ومِن كلِّ مذهبٍ وعقيدةٍ، يدفعون ثَمَنَها دمًا ودموعًا وخرابَ دِيارٍ، وفَقدَ أعزَّةٍ وأحبَّةٍ وفِلذاتِ أكبادٍ.

ولنا أن نَطرَحَ تساؤلًا رئيسًا أَرَى الإجابةَ عليه إجابةً أمينةً هي الخطوةُ الأُولى لاستعادةِ فَهمِ الإسلامِ فَهمًا صحيحًا، وتَصوُّرِه تَصَوُّرًا صادقًا.. هذا السُّؤالُ هو: ما عَلاقةُ الإسلامِ بالأديانِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ عليه؟ هل هي عَلاقةُ تَوتُّرٍ وارتيابٍ وتوجُّسٍ؟ أو هي عَلاقةُ مَودَّةٍ وتآخٍ والتقاءٍ؟

وربَّما يَأخُذُكم شيءٌ مِنَ الدَّهشةِ لو أجبتُ بأنَّ هذا السُّؤالَ قد يُنْظَرُ إليه بِحِسبانِه سؤالًا غيرَ منطقيٍّ؛ لأنَّ الإسلامَ في لغةِ القرآنِ ليس عُنوانًا على دِينٍ معيَّنٍ، بل هو «اسمٌ للدِّينِ المشتركِ الذي هتَفَ به كلُّ الأنبياءِ، وانتسَبَ إليه كلُّ المؤمنين برسالاتِهم»[1]، فقد وصَفَ القرآنُ الكريمُ إبراهيمَ عليه السلام بأنَّه حنيفٌ ومسلمٌ، ومعلومٌ أنَّ وصفَ إبراهيمَ عليه السلام بأنَّه مسلمٌ ليس باعتبارِه واحدًا من أتباعِ الإسلامِ الذي هو الرِّسالةُ المحمَّديةُ التي نَزَلَت بعد إبراهيمَ عليه السلام بآلافِ السِّنينَ. كما وصَفَ الأنبياءَ السَّابقِين بالوصفِ ذاتِه، فقال حاكيًا عن إسماعيلَ وإسحاقَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٨]، وعن أبناءِ يعقوبَ وهم يُخاطبون أباهم: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٣]، وعن نوحٍ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وعن موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يُونس: ٨٤]، وعن حوارِيِّي عيسى ابنِ مريمَ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٢].

وترتيبًا على هذه الحقيقةِ يُقرِّرُ القرآنُ الكريمُ حقيقةً أخرى تُبيِّنُ اشتراكَ رسالةِ الإسلامِ مع الرِّسالاتِ السَّابقةِ في الجوهرِ والحقيقةِ والمضمونِ، وأنَّ اللَّهَ تعالى لم يَشرَع للمسلمين دِينًا جديدًا، بل أَوحَى إليهم بنفس ما أَوحَى به

(١) «الدِّين» لمحمد عبد اللَّه دراز: ١٧٥.

إلى الأنبياءِ والرُّسُلِ والأُمَمِ السَّابقةِ عليهم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، كما يقرِّر القرآنُ أنَّه كتابٌ إلهي مصدِّقٌ للكتبِ الإلهيَّةِ السَّابقةِ عليه، وفيه وصفٌ لكلٍّ مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ بأنَّه هدًى ونورٌ للنَّاسِ، كالقرآنِ تمامًا بتمامٍ فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

كما بيَّنَ -أيضًا- أنَّ كلَّ لاحقٍ من هذه الكتبِ الثَّلاثةِ المُنزلةِ مُصدِّقٌ للسَّابقِ منها، وقد صوَّرَ النَّبيُّ ﷺ علاقتَه بالأنبياءِ السَّابقِينَ عليه، على ما بينهم مِن تَقادُمِ الزَّمانِ وفواصلِ المكانِ، في عباراتٍ بالغةِ الرَّوعةِ والجمالِ يقول فيها: «**أنا أولى النَّاسِ بعيسى ابنِ مريمَ في الدُّنيا والآخرة، والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ، أمَّهاتُهم شتَّى، ودِينُهم واحدٌ**»(١)؛ أي: أنَّ الأنبياءَ يُشبِهون إخوةً مِن أبٍ واحدٍ وأمَّهاتٍ شتَّى، والأبُ الواحدُ في هذا التَّصويرِ الجميلِ هو الدِّينُ الَّذي يَجمَعُهم، والأُمَّهاتُ التي تُفرِّقُهم هي الشَّرائعُ التي تختلفُ حسَبَ اختلافِ الأقوامِ وتطوُّراتِ الأزمانِ والأحوالِ التي يُبْعَثُ فيها الأنبياءُ والمرسلون، ونحن نحفظُ في هذا المجالِ القاعدةَ الفقهيَّةَ الشَّهيرةَ: «شرعُ مَن قبلَنا شرعٌ لنا ما لم يَرِد ناسخٌ».

ولعلِّي لا أُبالِغُ لو قلتُ: إنَّه -تأسيسًا على موقفِ القرآنِ الواضحِ وضوحَ الشَّمسِ مِنَ الأديانِ والأنبياءِ والكتبِ الإلهيَّةِ السَّابقةِ عليه- لا يبقَى مجالٌ

(١) أخرجهُ البخاريُّ (٣٤٤٣) ومسلمٌ (٢٣٦٥) مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

للسُّؤالِ عن عَلاقةِ الإسلامِ بالأديانِ الأخرى؛ لأنَّ هذا السُّؤالَ يُشبِهُ -حالتئذٍ- أن يكونَ سُؤالًا عنِ العَلاقةِ بين الشَّيءِ ونفسِه، الأمرُ الذي يَرفضُه العقلُ الرَّشيدُ والمنطقُ السَّديدُ.

وقد تسألونني: إذا كانت عَلاقةُ الإسلامِ بالأديانِ السَّماويَّةِ هي ما سَمِعنا مِنَ الاشتراكِ في الحقيقَةِ والجَوهَرِ والعَقيدةِ والأخلاقِ وأُصولِ الشَّرائعِ، فماذا عن أتباعِ المِلَلِ والمذاهبِ الخُلُقيَّةِ والوضعيَّةِ؟

وجوابي: أنَّ القرآنَ الكريمَ إن كان قد فصَّلَ القولَ في ضبطِ عَلاقةِ المسلمين باليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ، فلأنَّهما كانا يُمثِّلان أكبرَ دِينَين سماويَّين يَعرِفُهما النَّاسُ في شبهِ جزيرةِ العربِ، وما جاورَها مِن حواضرِ الفُرسِ والرُّومِ، أمَّا بقيَّةُ الأديانِ الأخرى كالهندوسيَّةِ والبوذيَّةِ والكُنفوشْيوسيَّةِ وغيرِها، فقد كانت أديانًا مجهولةً عندَ العربِ، ورغم ذلك وَسِعَتْها نصوصُ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ، ولم تُغفِلْ أَمرَ العَلاقَةِ الإنسانيَّةِ بها، فقد قررت نصوص القرآن والسنة في أمر هذه الملل والنحل قاعدةً عامَّةً تَحكُمُ عَلاقةَ المسلمين بغيرِهم، وحصَرَتها في عَلاقةِ البرِّ والقِسطِ مع أتباعِ أيَّةِ ملَّةٍ أو مذهبٍ أو ديانة وضعية ما داموا لا يَعتَدُون على المسلمِينَ ولا يُخرِجُونَهم مِن ديارِهم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

«والأساسُ الذي ترتكزُ عليه هذه الرُّؤيةُ القرآنيَّةُ الشَّاملةُ هو أنَّ القرآنَ ينظرُ إلى النَّاسِ جميعًا نظرةً متساويةً، وأنَّهم أبناءُ أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، وأنَّ غيرَ المسلمِ إمَّا أخٌ للمسلمِ في الدِّينِ أو نظيرٌ له في الإنسانيَّةِ، فهاهنا وَحدةٌ إنسانيَّةٌ يتعارفُ بعضُها ببعضٍ، ولا يتفاضَلُ أفرادُها إلَّا بالعملِ الصَّالحِ».

أيُّها السَّادة. .

لا يُمكِنُ لدِينٍ يقومُ على نصوصٍ مُحكَمةٍ كالتي ذكرناها أن يُوصَفَ بالعنفِ والإرهابِ والقتلِ، ومِنَ الظُّلمِ البيِّنِ، بل من الخَطَلِ في الرَّأيِ أن تُحاكَمَ الأديانُ بتجاوزاتِ القِلَّةِ الجاهلةِ من أبنائِها؛ مِن الَّذين عَمُوا وصمُّوا وضلُّوا وأضلُّوا، ومِنَ حَقِّ المسلِمينَ على غيرِهم أن يكونَ هذا الغيرُ مُنصِفًا في تصور الإسلام دين المسلمين من خلال هذه الضوابط العقديَّة، وأن ينظروا لهذا الدين نظرتهم لليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ وسائرِ الأديانِ التي ارتكَبَ بعضُ أتباعِها جَرائمَ وَحشيَّةً باسمِها وباسمِ الرُّموزِ المقدَّسَةِ التي كانوا يحمِلونَها بأيديهم وهم يسفكُونَ دِماءَ الأبرياءِ، وإلَّا لن يَسلَمَ دِينٌ مِنَ الأديانِ الإلهيَّةِ مِن تُهَمَةِ الإرهابِ وسفك دماء الآمنِينَ باسمِ هذا الدِّينِ أو ذاك.

وهنا تمَسُّ الحاجَةُ للتَّعَرُّفِ على فِقهِ الإسلامِ في تكييفِ العَلاقَةِ بينَ المُسلِمِينَ وغيرِهم، وهل هي عَلاقةُ السَّلامِ أو عَلاقةُ الدَّم؟

والإجابةُ -التي لا نَمَلُّ مِن تَكرارِها- تستلزِمُ أوَّلًا الإشارةَ بإيجازٍ -أرجو ألَّا يكونَ مُخِلًّا- إلى دَلالاتِ النُّصوصِ القرآنيَّةِ المُحكَمةِ على قوانينَ إلهيَّةٍ حاكِمةٍ في هذه القضيَّةِ. وأوَّلُ ذلك: ما يُمكِنُ أن نُسمِّيَه قانونَ الاختلافِ، أو مشيئةِ اللَّهِ تعالى في أن يَخلُقَ عبادَه مُختلِفين، وأنَّه لو شاءَ أن يَخلُقَهم مُجتمِعين على دِينٍ واحدٍ أو لونٍ واحدٍ أو لغةٍ واحدةٍ لَفَعَلَ، لكنَّه لم يشأ ذلك، وشاءَ عكسَه، وهذا هو ما يعكسُه واقعُ الوجودِ وحقائقُ الأشياءِ.

والقرآنُ إذ يؤكِّدُ حقيقةَ الاختلافِ هذه يؤكِّدُ أيضًا على بقائِها ما بَقِيَ الناس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التّغَابُن: ٢].

فاختلافُ النَّاسِ إذن سُنَّةٌ إلهيَّةٌ يُقرِّرُها القرآنُ في نصوصٍ صَريحةٍ مُحكَمةٍ، ومُقتضى ذلك أن تجيءَ العَلاقةُ بين المختلِفينَ متوائمةً تَتَّسِقُ معَ ما تقرَّرَ -في القُرآنِ- مِن اختلافِ الخلقِ وتباينِهم، لا تصدِمُه ولا تُضادُّه؛ إذ ليس مِن المعقولِ -بل مِن العبَثِ المُستحيلِ على الحكمةِ الإلهيَّةِ- أن يُريدَ اللَّهُ اختلافَ النَّاسِ في الاعتقاد بل حقهم في هذا الاختلاف، ثمَّ يأمُرَهم بأن يُكرِهَ بعضُهم بعضًا على ما يَنقُضُ فِطرتَهمُ الَّتي طَبَعَهم عليها، أو يأمرَ بتقاتُلِهم، لِيَضطرَّهم إلى الانحرافِ عن مشيئتِه فيهم.

وهنا يُقرِّرُ القرآنُ حرِّيَّةَ العقيدةَ وأنَّه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يُونس: ٩٩]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعَام: ٣٥]، ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغَاشِيَة: ٢٢].

ثم تأتي إجابةُ القُرآنِ على سؤالِنا عن العَلاقاتِ الاجتماعيَّةِ والدَّوليَّةِ في الإسلامِ؛ مرتبطةً ارتباطًا منطقيًّا عجيبًا بمَبدأي: الاختلافِ وحريَّةِ الاعتقادِ؛ لِتُقرِّرَ أنَّه إذا كان اللَّهُ قد خَلَقَ النَّاسَ مُختلِفينَ، ومَنَحَهم ما يَترتَّبُ على ذلك من حقِّ حرِّيَّةِ الاعتقادِ، فلا مفرَّ مِن أن تكونَ العَلاقةُ هي عَلاقةَ السَّلامِ، أو عَلاقةَ «التَّعارُفِ» بلُغةِ القرآنِ الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحُجرات: ١٣].

وهكذا تترتَّبُ القضايا الكُبرى في القرآنِ الكريم ترتيبًا منطقيًّا لا مجالَ فيه لتأويلٍ أو تحريفٍ: الاختلافُ في الطَّبائعِ المُستلزِمِ لحرِّيَّةِ الاعتقادِ، المستلزمةِ بدَورِها لعَلاقةِ السَّلامِ بين النَّاسِ.

ومِن هنا كان الإسلامُ هو دِينَ السَّلامِ بامتيازٍ، كما كان دِينَ المساواةِ بامتيازٍ؛ وإذن فليس صحيحًا ما يُقالُ وما يُروَّجُ -بينَ الحينِ والآخَرِ- مِن أنَّ

سببَ مشروعيَّةِ القتالِ في الإسلامِ هو كفرُ الآخَرينَ، فهذا كذبٌ محضٌ على الإسلامِ وعلى سيرةِ رسولِ الإسلامِ، حتى وإنْ تبنَّى هذا الافتراءَ بعضُ المُنتسبينَ إلى هذا الدِّينِ القائمِ على الحُجَّةِ والبُرهانِ، لا على الرِّيبةِ والبُهتانِ.

والحقُّ الذي يجبُ قولُه وتتحتَّمُ معرفتُه في هذه القضيَّةِ؛ هو: أنَّ مشروعيَّةَ قتالِ الآخَرِ في الإسلامِ هي لِرَدِّ «الاعتداءِ والعُدوانِ»، وليسَ الكفرَ، أو عدمَ الإسلامِ، أوِ الخلافَ في الدِّينِ، وإلَّا فكيف نصَّت كلُّ كتبِ الفقهِ -التي حَفِظَت لنا أحكامَ الفتوحاتِ- على حقِّ بقاءِ أهلِ البلادِ على أديانِهم وتمتُّعِهم بكاملِ حقوقِ المواطنةِ، وتطبيقِ قاعدةِ: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»؟!

ولَمْ يحدِّثنا التَّاريخُ بفتحٍ واحدٍ مِن فتوحاتِ الإسلامِ خيَّرَ فيه المسلمون أهلَ البلادِ بينَ أمرَينِ لا ثالِثَ لهما: إمَّا الإسلامُ وإمَّا السَّيفُ، بل حدثنا أن الخيار كان بينَ أمرَينِ عَلَى قَدَمِ المُساواةِ دُونَ تَدَخُّلٍ بإكراهٍ أو ضُغُوطٍ أو اضطرارٍ.. هذانِ الأمرانِ هما: إمَّا الدخول في الإسلام، وإمَّا البقاءُ على الدِّينِ الأَصليِّ الذي عليه أهلُ هذه البلادِ، وإذن فلا إكراهَ على قَبولِ الإسلامِ، ولا إرغامَ على نبذِ المسيحيَّةِ أو اليهوديَّةِ، وهذا ما يُقرِّرُه كتابُ النَّبيِّ ﷺ إلى أهلِ اليمنِ: «**إِنَّهُ مَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ، أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ، فلا يُفْتَنُ عَنْهَا**»[(١)]، وفي روايةِ عبد الرَّزَّاقِ: «**مَنْ كَرِهَ الْإِسْلَامَ مِنْ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ، فَإِنَّهُ لَا يُحَوَّلُ عَنْ دِينِهِ**»[(٢)].

وتُطبِقُ كتبُ التَّفسيرِ على أنَّ آيةَ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] نزَلَت في رَجُلٍ مسلمٍ مِنَ الأنصارِ كان له ابنانِ نصرانيَّانِ، فقال للنَّبيِّ ﷺ:

---

(١) أخرجهُ أبو عُبيدٍ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٦٦) عن عروةَ بنِ الزُّبيرِ مُرسلًا، وأخرجهُ ابنُ زَنْجُويه في «الأموال» (١٠٨) عن الحسنِ مُرسلًا أيضًا.

(٢) في «المُصنَّف» (١٠١٠٠) عن ابنِ جريج ... فذكَرَه.

ألا أَستكرِهُهما؛ فإنَّهما قد أَبيا إلَّا النصرانيَّة؟ فنهاهُ النَّبيُّ ﷺ عن ذلك، ونزلتِ الآيةُ الكريمةُ[(١)].

ولا عِبرةَ -بعدَ هذه النُّصوصِ القاطعةِ- بالفُهومِ السَّقيمةِ والمُغرِضةِ والمغلوطةِ التي تُصوِّرُ الإسلامَ في صورةِ الدِّينِ المتعطِّشِ لسفكِ الدِّماءِ، وهتكِ الأعراضِ، وأَسرِ الحرائرِ، وخطفِ الصَّغيراتِ، وعَرضِهنَّ للبيعِ في الأسواقِ في مشهدٍ يَندَى له الجبينُ، وتنتحبُ عليه فضائلُ الأخلاقِ، والشرائعُ والأديانُ.

السَّادَةُ العُلَمَاءُ..

لعلَّكم تتَّفِقون معي في أنَّه لا مفرَّ لنا الآنَ مِن أن يَعلُو صوتُ الفقهِ الصَّحيحِ، الذي درَجَ عليه المسلمون قرونًا متتاليةً وأعمارًا متطاولةً، بل لا مفرَّ مِن نُزولِ العلماءِ للواقعِ، ليُمسِكُوا بأيديهم أَزِمَّةَ الفَتوَى في الدِّينِ، وليتحمَّلُوا مسؤوليَّاتِهم في توضيحِ حقيقَتِه، ودعوتِه الواضحةِ للأُخُوَّةِ والتَّعارُفِ والسَّلامِ بينَ النَّاسِ شرقًا وغربًا، وتحريمِه القاطعِ لسفكِ دماءِ النَّاسِ واستحلالِ أعراضِهم وأموالِهم تحريمًا لا نكادُ نجدُ له نظيرًا في غيرِ هذا الدِّينِ.

ولا مفرَّ لنا -أيُّها العلماءُ الأجلَّاءُ- مِن أن نَستعيدَ فقهَ الاختلافِ الصَّحيحِ، وأَعني به فِقهَ اختلافِ التَّنوُّعِ والثَّراءِ الذي كان مِن أقوى عواملِ نهضةِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ؛ لِنُفرِّقَ بين الاختلافِ المحمودِ، والاختلافِ المذمومِ الذي سادَ في الآونةِ الأخيرةِ وأصابَ فقهَ الأمَّةِ في مقتلٍ، وانقلبَ معه الظَّنِّيُّ إلى قطعيٍّ، والمتشابهُ إلى مُحكَمٍ، وخفيُّ الدَّلالةِ إلى واضحِ الدَّلالةِ، والعامُّ إلى خاصٍّ.

---

(١) أخرجهُ الطَّبريُّ في «جامع البيان في تأويل آي القرآن»: ٤/ ٥٤٧، مِن حديثِ عبدِ اللَّهِ بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وأن نستعيدَ على ضوءِ الفقهِ الصَّحيحِ الأصولَ المشتركةَ الَّتي التقَى عليها المسلمون عقيدةً وشريعةً، بحثًا وتأصيلًا، وأن نتركَ النَّاسَ وما نُشِّئُوا عليه ممَّا أجمعَ عليه علماءُ أمصارِهم وأهالي بُلدانِهم.

وأن يكونَ ما أَجمَعَت عليه الأمَّةُ هو -وَحدَه- فَيصَلَ ما بين الصَّوابِ والخطأِ، وألَّا تُحكِّمَ شَطَحاتُ الأغرارِ وانحرافاتُ فهومِهم في دماءِ النَّاسِ وأموالِهم وأعراضِهم.

وألَّا نُحدِّدَ للنَّاسِ مذهبًا واحدًا في العقيدةِ أو الفقهِ نَفرِضُه عليهم، ثمَّ نُغرِيهم به ترغيبًا مرَّةً وتفسيقًا وتبديعًا، بل تكفيرًا مرَّةً أُخرَى.

وأنْ نُعَلِّمَ أبناءَنا كيف أنَّ السَّلفَ الصَّالِحَ -بدءًا مِن صَحابَةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وطِيلةَ القرونِ المفضَّلةِ- اختلَفوا، لكنَّهم لم يَفترِقُوا، وأنَّ تاريخَ الإسلامِ الطَّويلَ لا يعرِفُ للمسلمِينَ مَذهَبًا واحِدًا فُرِضَ عليهم وأُلزِمُوا به، ولا لأئمَّتِهم وعُلمائِهم فَهمًا واحِدًا ولا رأيًا مُعَيَّنًا ولا اجتهادًا بعَينِه أَلزموا به الأُمَّةَ على اختلافِ أماكنِها وأزمانِها، بل كانَ يُترَكُ كُلُّ بَلَدٍ لاجتهادِ عُلمائِه، ولِمَا تَفَتَّقَتْ عنه أنظارُهم واستِنباطاتُهم، وهذا هو ما يفتَقِدُه المُسلِمون اليومَ، وهم يُحشَرُون في سُجونٍ عَقَدِيَّةٍ ومَذهبيَّةٍ وطائفيَّةٍ مُغْلَقَةٍ، ينشرونها بين الناس بعد تزييف وعيهم وشراء ضمائرهم بالمال والجاه والسلطان.

وعلينا -في هذا العَصرِ- أنْ نَنفُضَ غُبارَ الجَهلِ المُتَعَمَّدِ عن تُراثِنا الأَصيلِ الذي قامَ على التَّعَدُّدِ واختلافِ الرَّأيِ واحترامِ التَّنوُّعِ.. لقد أرادَ الخليفَةُ المنصورُ مِنَ الإمامِ مالِكٍ، إمامِ أهلِ المَدينةِ، أنْ يضعَ للمُسلمِينَ كِتابًا في العِلمِ يَفرِضُه الخَليفَةُ على المسلِمِينَ في مختلَفِ الأمصارِ، فاعتذرَ الإمامُ وقال كلامًا، أحسَبُه طَوقَ النَّجاةِ الوحيدِ ممَّا نحن فيه، قالَ: «يا أميرَ المؤمنينَ لا تَفعلْ؛ فإنَّ الناسَ قد سِيقتْ إليهم أقاويلُ، وسَمِعُوا أحاديثَ، ورَوَوْا رواياتٍ، وأخَذَ كُلُّ قَومٍ بما سِيقَ إليهم، وعَمِلوا به، ودانوا به، مِن

اختلافِ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وغيرِهم، وإنَّ رَدَّهم عمَّا اعتقَدُوه شديدٌ، فدَعِ النَّاسَ وما هُم عليه، وما اختارَ أهلُ كُلِّ بلدٍ لأنفُسِهم، فقالَ [المنصورُ]: لعَمْرِي: لو طاوَعتَني لأَمَرتُ بذلك»[(١)].

إنَّ فَوضَى الاختلافِ المُنفلِتِ مِن ضوابطِ العِلمِ، وفَرضَ مذهَبٍ معيَّنٍ على المسلمِينَ واستبعادَ ما عَداه -هو الذي بعثَ في المسلمِينَ نَزَعاتِ التَّفسيقِ والتَّكفيرِ والعُنفِ، ومكَّنَ قُوًى مُتربِّصةً مِن محاولاتِ العبثِ بوَحدةِ هذه الأمَّةِ.

السَّادةُ الأجلَّاءُ..

أعلمُ أنِّي قد أفضتُ قليلًا أو كثيرًا في بيانِ أمورٍ قد تكون معلومةً لحضراتِكم، لكنَّها في أغلبِ الظَّنِّ غيرُ واضحةٍ في أذهانِ الكثيرِ مِن شبابِنا، وبخاصَّةٍ طُلَّابَ الجامعاتِ مِن المسلمين وغيرِ المسلمين، وممَّا يُحزِنُني أنَّني لا أَجِدُ مقرَّرًا دراسيًّا، جامعيًّا أو ما قبلَ الجامعيِّ، ناقشَ هذه القضايا -وهي كثيرةٌ- نقاشًا جادًّا، يُجلِّي حقائقَها، ويُزيلُ اضطرابَ مفاهيمِها ويكشِفُ أغاليطَها في أذهانِ الشَّبابِ، ويَعصِمُهُم مِن الوقوعِ في بَراثنِ دَعَواتِ العنفِ المُسلَّحِ باسمِ الإسلامِ[(٢)].

قد بدَأَ الأزهرُ الشَّريفُ منذُ العامِ الماضي تأليفَ مقرَّرَينِ لطلَّابِ المعاهدِ الأزهريَّةِ للتَّصدِّي لقضايا الإرهابِ، مِثلَ: التَّكفيرِ، والهجرةِ، والحاكميَّةِ، والجاهليَّةِ، والخلافةِ، وسائرِ القضايا التي يُوظِّفُها الإرهابيُّون، وهذا

---

(١) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي: ٨/٧٨، ٧٩.

(٢) حاولتُ أكثرَ مِن مَرَّةٍ بحثَ تصميمِ مقرَّرٍ دراسيٍّ يُحَصِّنُ عقولَ طُلَّابِنا مِن غزوِ الأفكارِ السَّامَّةِ والتي تَقِفُ وراءَ تَرويجِها أموالٌ وهيئاتٌ ومراكزُ متخصِّصَةٌ في تضليلِ الشَّبابِ وتَزييفِ وَعيِهِ واستقطابِهِ لإرباكِ المَنطِقَةِ وضَربِ استقرارِها. وقد نجَحَتِ التَّجربةُ في مقرَّرِ الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ للصَّفِ الثَّالثِ الإعداديِّ، وللمرحلةِ الثَّانويَّةِ، والعَملُ جارٍ على تعميمِ التَّجربةِ على المستَوَى الجامعيِّ.

بالإضافةِ إلى قوافلِ السَّلامِ التي تجوبُ العالَمَ، وكان آخرُها في نيجيريا في أبريل الماضي[١]، وتدريبِ الأئمَّةِ والدُّعاةِ مِن مُختلِفِ بلادِ العالَمِ في رِحابِ الأزهرِ الشَّريفِ، وكذلك المؤتمراتُ التي شارَكَ فيها أبرزُ علماءِ المسلمين مِن بُلدانِ العالَمِ. ومنهم علماءُ نيجيريا ومفتوها.

أيُّها السَّادةُ، أعتذرُ عنِ الإطالةِ، وأختمُ كلمتي بأنَّ زيارةَ الأزهرِ هي زيارةٌ في رِحابِ شعبِ نيجيريا الكريمِ بكلِّ أطيافِه وعناصرِه، لدعمِ وَحدتِه واستقرارِه ونهضتِه العلميَّةِ والتَّعليميَّةِ، وهي نهضةٌ قويَّةٌ ستعودُ -بإذنِ اللَّهِ تعالى- بالخَيرِ والنَّماءِ والتَّقدُّمِ العلميِّ والتِّقْنيِّ على كلِّ رُبوعِ أفريقيا، وسيستعيدُ بها الشَّعبُ النَّيجيريُّ ماضيَهُ المجيدَ في الجمعِ بينَ علومِ الدِّينِ والدُّنيا في تناغُمٍ وانسجامٍ.

---

(١) تَوجَّهَت قافلةُ السَّلامِ إلى دولةِ «نيجيريا» في عامِ ٢٠١٦م في الفترةِ مِن ٢٤ حتى ٣٠ إبريل ٢٠١٦م. وقد سبقتها عدة قوافل إلى عدة دول، وهي:

قافلةُ السَّلامِ إلى الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيَّةِ: ٩-١٤ يوليو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى فرنسا (١): ٢٢ - ٢٧ يونيو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى فرنسا (٢): ٢٣ من أكتوبر ٢٠١٦م.

قافلةُ السَّلامِ إلى ألمانيا: ١-٦ يوليو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى إيطاليا: ٢٥-٣٠ يونيو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى إسبانيا: ١ - ٦ يوليو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى باكستان: ٢٨ يونيو - ٤ يوليو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى إندونيسيا: ٣٠ يونيو - ٥ يوليو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى جَنوبِ أفريقيا: ٥ - ١٠ يوليو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى أفريقيا الوُسطى: ٢٤ يونيو - ١ يوليو ٢٠١٥م.

قافلةُ السَّلامِ إلى تشاد: ٩ - ١٤ يوليو ٢٠١٥م.

راجِع: «قَوافلُ السَّلامِ الدَّوليَّةُ» من مطبوعات مجلس حكماء المسلمين، سنة: ٢٠١٧م.

وإنَّ الأزهرَ لَيُسعِدُه أن يُقدِّمَ كلَّ ما يَدعَمُ هذه المسيرةَ الحضاريَّةَ، وقد تعلمون أنَّه يدرُسُ بالأزهرِ الشَّريفِ أكثرُ من ثلاثةِ آلافٍ وخمسمائةِ طالبٍ وطالبةٍ مِن أبنائِكم، منهم أكثرُ مِن أربعمائةِ طالبٍ على مِنَحٍ مِنَ الأزهرِ الشَّريفِ، ومنذُ سنواتٍ والأزهرُ يُخصِّصُ ثلاثين منحةً كلَّ عامٍ لأبنائِكم، وبمناسبةِ هذه الزِّيارةِ قرَّرَ الأزهرُ الشَّريفُ زيادةَ المِنَحِ الدِّراسيَّةِ إلى خمسين منحةً كلَّ عامٍ للطلَّابِ الَّذين يَرغَبون في الدِّراسةِ بجامعةِ الأزهرِ على أن تُوجَّهَ هذه الزِّيادةِ إلى الكلِّيَّاتِ العَمليَّةِ كالطِّبِّ والصَّيدلةِ والهندسةِ وغيرِها.

هذا، والأزهرُ الشَّريفُ ببَعَثاتِه التَّعليميَّةِ والدَّعَويَّةِ يَنشُرُ الفكرَ الدِّينيَّ السَّليمَ، البعيدَ كلَّ البُعدِ عنِ الأفكارِ الطَّائفيَّةِ البغيضةِ الَّتي تُثيرُ الأحقادَ وتَزرعُ الفُرقةَ والشِّقاقَ بينَ أبناءِ الشَّعبِ النَّيجيريِّ.

شكرًا لحسنِ استماعِكم.

والسَّلامُ عليكُم ورَحمةُ اللَّهِ وبركاتُه

✽ ✽ ✽

فلسفة السلام في الإسلام(*)

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

السيدات والسادة

السلامُ عليكم ورحمةُ اللَّه وبركاتُه

وبعدُ:

فيُسْعِدُني في بدايةِ كَلِمتِي أنْ أُرَحِّبَ بحضَراتكُم جَمِيعًا، وبِخَاصَّةٍ ضُيوف مِصرَ الأعِزَّاء.

أصحابَ الفخامةِ والغِبطَةِ والنِّيافَةِ؛ من رِجَالاتِ الكنائِسِ الشَّرقِيَّةِ والغَربيَّةِ..

أصحابَ السَّماحَةِ والفَضِيلَةِ..

السَّيِّداتُ والسَّادَةُ..

أهلًا بحضراتِكم، ومَرحبًا بكم جميعًا، ونشكرُكم جزيلَ الشكر لتكرُّمِكم بتلبيةِ دعوةِ الأزهرِ ومجلسِ حكماء المسلمين لـ: «مؤتمرِ الأزهرِ العالمي للسلام».

وليس مؤتمرُنا هذا بأولِ مؤتمرٍ يُعقَدُ للبحثِ في هذه القضيةِ، وأكبرُ الظَّنِّ أنه لن يكونَ المؤتمرَ الأخيرَ في مناقشتها، وإني إذ يُشرِّفُني أن أكونَ من بين

(*) كلمة افتتاحية ألقيت في مؤتمر الأزهر العالمي للسلام، المنعقد بالقاهرة، في: ٣٠ من رجب، سنة: ١٤٣٨هـ، الموافق: ٢٧ من أبريل، سنة: ٢٠١٧م.

السادةِ المتحدِّثين في هذه الافتتاحيةِ؛ فإني أشعرُ بأن موضوعَ «السَّلام العالَميّ»، رغمَ كلِّ ما قيل فيه؛ فإنه يبدو وكأنَّه بحاجةٍ إلى المزيدِ من المتابعةِ والتحليلِ والبحثِ، وما ذلك إلا لأن مفهومَ «السَّلام العالَمي» أمسَى وكأنه من أعقَدِ الألغازِ، وأشدِّها استعصاءً على أيِّ عقلٍ يتقيَّد بشيءٍ من قواعدِ المنطقِ وبَدَهيَّاتِ الفكر، نتيجةَ «التِّيه» الذي تَضِلُّ فيه الفروضُ، وتضطربُ في عَتَمَتِهِ الأقيسةُ والحُجَجُ.

ويبدو أن «السَّلامَ» لم يعُد هو القاعدةَ في حياةِ البشريَّةِ كما يذهبُ إلى ذلك أنصارُ نظريةِ السلامِ من فلاسفةِ التاريخِ، ممَّن يؤكِّدون على أن «السلامَ» هو القاعدةُ في حياةِ البشرِ، وأن الحربَ والعنفَ استثناءٌ وشذوذٌ عن القاعدةِ، ولعلَّ أصحابَ نظريةِ الحربِ كانوا أبعدَ نظرًا وهم يُقرِّرون: «أن التاريخَ البشريَّ إنما هو تاريخُ بُحَيراتٍ دمويةٍ!! فالحقيقة أنَّ التاريخَ يُنبِّئُنا أنَّ الإنسانيَّةَ لَمْ تَنعَمْ دهرًا طَويلًا بالعيشِ في ظِلِّ سَلامٍ كاملٍ ودائِمٍ، حتَّى إنَّ بعضَ الكُتَّابِ الأمريكيِّين ليُسَجِّلُ أنَّ البشَريَّةَ عبرَ تاريخِها المكتُوبِ والذي يبلُغُ قرابةَ ثلاثةِ آلافٍ ونصف عام؛ فإن: (٢٦٨) سنةً فقط سادَها السَّلامُ، أمَّا باقي السَّنواتِ فقد كانت مشغولةً بالحروبِ، ومن هنا استنتجَ «جورج ويل» «George Will» -الكاتبُ الأمريكيُّ المعروفُ- أنَّ السَّلامَ عَاجِزٌ عن أنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ»[(١)].

ولا شكَّ أنَّ هذا المَدَّ والجَزْرَ في رصدِ مفهوم السَّلام يُغْرِي كثيرين بطلبه والبحث عنه في مصادرَ أخرى متعاليةٍ، أو بعبارةٍ أخرى: في مصادرَ فوقية متعالية، عابرةٍ للزمانِ والمكانِ، لا تتأثَّر بوحي البيئةِ، ولا بالظروفِ الخاصَّةِ والملابَساتِ التاريخيةِ المتغيِّرةِ، وأعني بالمصدرِ المتعالي على التغيُّرِ والذاتيةِ والمنفعةِ والغرضِ وقِصَرِ الفكرِ والنظرِ، أعني به: الأديانَ الإلهيةَ ونصوصَها

(١) «السلام من أجل عالم أفضل» لعبد الفتاح محسن بدوي: ١٥-٢٧.

المقدَّسةَ، التي نَأوي إليها الآن كما تَأوي الطيورُ المذعورةُ إلى أعشاشِها الآمنةِ الحصينةِ.

واسْمَحُوا لي -حَضَرَاتِ السَّيِّداتِ والسَّادةِ- أن أتخلَّصَ من هذه المُقَدِّمَةِ، التي أَراها طالَت قليلًا، إلى كلمةٍ مُوجَزةٍ عن فلسفةِ السَّلامِ في «الإسلامِ» الذي أَعْتَنِقُه دِينًا أهتَدي بِنُورِه في معرفةِ الحَقِّ من الأفكارِ، والخَيْرِ من الأعمالِ والسُّلُوك.

ويُهِمُّني أن أقولَ بداءةً: إنَّ كُلَّ ما يُقالُ عن الإسلام في شأن السلام يُقال مثلُه تمامًا في المَسِيحِيَّة واليَهُودِيَّة، لا أقُول ذلك مُجاملَةً لحضَراتِكُم، وإنْ كانت مجاملتُكُم مِمَّا يُحْمَدُ في هذا المَقامِ، ولكن لأنَّ عَقِيدَتِي الَّتِي تلقَّيتُها من القُرآن الكَريم تُعلِّمني -كمُسلِمٍ- أنَّ رسالةَ محمدٍ ﷺ لَيْسَت دِينًا مُنْفَصِلًا مُسْتَقِلًّا عَن رِسَالَةِ عيسى وموسى وإبراهيم ونَوحٍ عليهم السَّلام؛ وإنَّمَا هو حَلْقةٌ أخيرةٌ في سِلسلَةِ الدِّينِ الواحدِ الذي بدأ بآدمَ وانتهى بنبيِّ الإسلامِ، وأن هذه الرِّسالاتِ من أوَّلِها إلى آخرِها تتطابَقُ في مُحتَواهَا ومضمونِها ولا تختلِفُ إلَّا في بابِ التَّشريعاتِ العمليَّةِ المُتغيِّرةِ، فلكلِّ رسالةٍ شَريعةٌ عَمَلِيَّةٌ تُواكِبُ زمانَها ومكانَها وأحوال المؤمنين بها.

ويَضِيقُ الوَقْتُ عَن الاستِشهادِ بالآياتِ الَّتي تُؤكِّدُ على أنَّ مَا أوحَاهُ اللَّهُ إلى محمدٍ ﷺ هو عَينُ ما أَوحاهُ إلى نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم جميعًا أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، وهو ما يُفسِّرُ لنا اتفاقَ الأديان في أمَّهاتِ الفضائل وكرائمِ الأخلاق، وتغريد الوصايا العشر، وموعظةِ الجبل والآيات التي تُعْنَى بالوصايا ذاتها، تغريدِها كلِّها في سربٍ واحدٍ ولغةٍ شعوريةٍ واحدةٍ.

أما عن تصوُّر فلسفة السلام في «الإسلام» فأستسمحُكم في عرضها في شكلِ رسائلَ يترتبُ بعضُها على بعض ترتيبًا منطقيًّا.. هذه الرسائل هي:

- أن القُرآنَ الكريم يُقرِّرُ حقيقةَ الاختلافِ بين الناسِ دينًا واعتقادًا ولُغَةً ولونًا، وأن إرادةَ اللَّهِ شاءَت أنْ يَخْلُقَ عِبَادَهُ مختلفين، وأنَّ «الاختلافَ» هو سُنَّةُ اللَّه في عباده التي لا تتبدَّلُ ولا تزولُ إلى أن تَزُولَ الدُّنيا ومَا عليها.

- يترتَّب على حَقيقة الاختِلاف في الدِّين منطقيًّا حقُّ «حُريَّة الاعتِقَاد»؛ وهو يستلزمُ بالضَّرُورةِ نفيَ الإكراهِ على الدينِ، والقُرآنُ صَريحٌ في تقريرِ حُريَّةِ الاعتقادِ مع ما يَلزَمُهُ من نفيِ الإكراهِ على العقائدِ.

وحين ننتقلُ إلى تكييف العَلاقةِ بين المختلفين عقيدةً، والأحرارِ في اختيار عقائدهم؛ نجدُ القرآنَ صريحًا في أن يُحدِّدَ هذه العَلاقة بإطارين:

الأولُ: إطارُ الحوارِ، وليس أيَّ حوارٍ، بل هو الحوارُ الطيبُ المهذَّبُ، وبخاصةٍ إذا كان حوارُ المسلم مع مسيحيٍّ أو يهوديٍّ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العَنكبوت: ٤٦]، ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البَقَرَة: ٨٣].

الإطارُ الثَّاني: إطارُ التعارُفِ الذي يَعني التفاهُمَ والتعاوُنَ والتأثيرَ والتأثُّر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحُجرَات: ١٣] فقد ذكَّرنا في هذه الآية الكريمة بوَحدةِ الأصلِ أولًا، ثم ذكَّرنا بما يُناسِبُ ذلك من صلات وعلاقات، ونص من بينها على علاقة «التعارف».

وهكذا يتَّضِحُ لنا -أيُّها الإخوة- أن القرآنَ يُحدِّدُ العَلاقةَ بين الناسِ في عَلاقةِ «التعارُف» التي هي نتيجةٌ منطقيةٌ لطبيعةِ الاختلافِ وحريةِ الاعتقادِ.

أمَّا الحروبُ في الإسلام فحكمها حكم الضرورات، وهي استثناءٌ يُلجأُ إليه حين لا يكونُ منه بدٌّ، وهذه هي نصيحةُ نبيِّ الإسلام: «**لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ**»(١)، والحرب في شريعة الإسلام ليست هجوميةً،

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٤) من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه.

بل دفاعيةً، وأولُ تشريع أباح للمسلمين أن يُعلِنُوا الحربَ، ويرفعوا السلاحَ -تشريعٌ مُعلَّلٌ بدفع الظلم، والدفاعِ عن المظلومين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحَجّ: ٣٩]، ومشروعيةُ الحرب في الإسلام ليست مقصورةً على الدفاعِ عن المساجد فقط، بل مشروعةٌ بالقدر ذاته للدفاع عن الكنائسِ وعن معابدِ اليهودِ، وإن تَعجَب فاعجَب لدينٍ يدفعُ أبناءه ليُقاتلوا من أجلِ تأمينِ أهلِ الأديان الإلهيَّةِ الأخرى، وتأمينِ أماكنِ عباداتِهم.

والسؤالُ الذي يُثيرُ حَيرةَ الكثيرين هو: لماذا قاتَلَ الإسلامُ غيرَ المسلمين؟

والجوابُ: لم يُقاتلهم تحتَ بند «الكفر والكفار»، كيف والقرآنُ الذي يحملُه المسلمون معهم في حروبهم يقولُ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ [الكهف: ٢٩]؟! وكيف يشُنُّ الإسلامُ حربًا من أجل إدخالِ الآخرين في الدِّين كرهًا، والقرآنُ يقرِّرُ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]؟!

إنَّ الإسلام لا يبيح القتال ولا يأمر به إلا تحت بند العُدوانِ، وتحت هذا البند لا يُبالي القرآنُ إن كان يُقاتِلُ معتدين كُفَّارًا أو مُعتدين مؤمنين: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحُجرَات: ٩].

هذا التنظيرُ السريعُ المبنيُّ على نصوصٍ مقدسةٍ شديدةِ الوضوحِ تُبرهِنُ على أن الإسلامَ دينُ سلامٍ وليس دينَ عُدوانٍ، والأديانُ الإلهيةُ كلُّها سواءٌ في هذا التأصيلِ المحوريِّ لقضيةِ السلامِ.

وتبقى بعد ذلك تساؤلاتٌ أختمُ بها كلمتي، وهي:

إذا كانت نصوصُ الإسلام التي ذكرتُ بعضًا منها تكشفُ عنِ انفتاحِ هذا

الدينِ على الآخَرِ، واحترامِه واحترامِ عقائدِه، فكيف يصحُّ في الأذهانِ وصفُه بأنه «دينُ الإرهابِ»؟ وإذا قيل: لأن الذين يُمارسون الإرهابَ مسلمون، فهلَّا يُقالُ: إن المسيحيةَ دينُ إرهابٍ؛ لأن الإرهابَ مُورِسَ باسمِها هي الأخرى؟! وهلَّا يُقالُ: إن اليهوديةَ دِينُ إرهابٍ؛ لأن فظائعَ وبشاعاتٍ مُورِسَت بِاسمِها كذلك؟

وإذا قيل: لا تُحاكموا الأديانَ بجرائمِ بعضِ المؤمنين بها، فلماذا لا يُقالُ ذلك على الإسلام؟ ولماذا الإصرارُ على بقائِه أسيرًا في سجنِ «الإسلاموفوبيا» ظلمًا وبهتانًا وزورًا؟

وهل من الممكنِ أن نستغلَّ هذا المؤتمرَ النادرَ لِنُعلِنَ للناسِ أن الأديانَ بريئةٌ من تُهمةِ الإرهاب؟ وهل نستطيعُ أن نُشيرَ -ولو على استحياءٍ- إلى أن الإرهابَ الأسودَ الذي يحصُدُ أرواحَ المسلمين في الشرقِ أيًّا كان اسمُه ولقَبُه، وأيًّا كانت اللافتةُ التي يرفعُها؛ لا تعودُ أسبابُه إلى شريعةِ الإسلامِ ولا إلى قرآنِ المسلمين، وإنما ترجعُ أسبابُه البعيدةُ إلى سياساتٍ كُبرى جائرةٍ اعتادت التسلُّطَ والهيمنةَ والكَيلَ بمِكيالَينِ؟

شُكْرًا وأعتذرُ عن الإطالةِ.

والسَّلامُ عَلـَيْكُم ورَحْمَـةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُه

* * *